بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي): الأمين الصادق الأمين محمد .... **كلية** : الدعوة وأصول الدين ...**قسم** : الكتاب والسنة .

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الدكتوراه ... **في تخصص** : الكتاب والسنة ....

عنوان الأطروحة : ((الثبات على دين الله وأثره في حياة المسلم في ضوء الكتاب والسنة)) ....

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

فبناء على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه - والتي تمت مناقشتها بتاريخ : ٣ | ٣ | ١٤٢٣هـ - بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المشرف :
الاسم : د/ أمين محمد عطية باشا .
التوقيع : ....

المناقش الداخلي :
الاسم : د/ محمد عبد المولى جمعة
التوقيع : ....

المناقش الخارجي :
الاسم : د/ فهد عبد الرحمن الرومي
التوقيع : ....

يعتمد

رئيس قسم : الكتاب والسنة

الاسم : د/ مطر بن أحمد الزهراني

التوقيع : ....

٢١/ ٣/ ١٤٢٣هـ

المملكة العربيّة السّعودية
وزارة التّعليم العالي
جامعة أمّ القرى
كلّية الدّعوة وأصول الدّين
قسم الكتاب والسّنّة



الثّبات على دين الله وأثره في حياة المسلم في ضوء الكتاب والسّنّة

رسالة مقدّمة لنيل درجة الدّكتوراه في الكتاب والسّنّة

تأليف الطّالب
الأمين الصّادق الأمين

إشراف الأستاذ الدّكتور
محمّد رياض بن سيّد أحمد قناوي

المجلد الثّاني

١٤٢٢هـ - ١٤٢٣هـ

﴿ المبحث الثّالث ﴾

العمل بالعلم .

إنّ اللّه تعالى أمر رسله عليهم السّلام وهم سادة الدّعاة أن يعملوا بما علموا .

فقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [المؤمنون:٥١] .

وأمر أهل الإيمان بذلك كما أمر الرّسل .

فقال :﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [التوبة:١٠٥] .

وجاء في الحديث ما يؤكّد ذلك ويقرّره ، ويبيّن أهميّة العمل .

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : " إنّ اللّه قال مَنْ عَادَى لي وَلِيّاً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنّوافل حتّى أحبّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الّذي يسمع به ، وبصره الّذي يبصر به ، ويده الّتي يبطش بها ، ورجله الّتي يمشي بها ، وإن سألني لأُعطينّه ، ولئن استعاذني لأُعيذنّه وما تردّدت عن شيء أنا فاعله تردّدي عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته " [(١)] .

---

(١) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الرّقاق: (٨١/٥٥). باب التّواضع: (٣٨). برقم: (٦٥٠٢). ص: ١٣٨٢-١٣٨٣.

والولي في الحديث هو العالم باللّه المواظب على طاعته ، المخلص في عبادته . انظر :فتح الباري :٣٤٢/١١ . طبعة دار المعرفة .

وقد حمل بعض أهل الزيغ والضّلال هذا الحديث على ما يدّعونه من أنّ العبد إذا لازم العبادة يصل به الحال إلى أن ينال مثل ما لله من الصّفات ، فيبصر ببصره ، ويسمع سمعه ، ويبطش بطشه ... إلخ .تعالى الله عمّا يقولون علوّاً كبيراً . ولذلك عبدوا بعض من ادعوا فيهم الولاية والصّلاح من هذا المنطلق ، فدعوهم مع الله ، واستغاثوا بهم كما يستغاث بالله ، ونذروا لهم وذبحوا ، وطافوا حول قبر من مات منهم وعكفوا . وكلّ ذلك ضلال بيّن ،

والعمل سبب دخول الجنّة الّتي يسعى لها كلّ مؤمن على ظهر الأرض .

قال تعـالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الزّخرف:٧٢] .

وغاية العلم العظمى وهدفه الأسمى أن يتوصّل به إلى العمل ، وإلاّ كان وبالاً على صاحبه ثقيلاً عليه .

قال المسيح عليه السّلام :

" من تعلّم وعلم وعمل فذاك يُدعا عظيماً في ملكوت السّماء " [١] .

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ *:*

" يا أيها النّاس تعلّموا ، فمن علم فليعمل " [٢] .

وشرك ظاهر . وليس في الحديث ما يدلّ على ذلك . بل فرّق الحديث بين الرّب والعبد ، والمعبود والعابد ، والخالق والمخلوق . يدرك ذلك من ألقى بنظرة فاحصة على الحديث ولو كانت على عجل . وانظر شرحاً وافياً له في : فتح الباري : ١١/٣٤٢-٣٤٥ . فقد أزال فيه الشّبه ، وأبان الحقّ ، وزيّف الزّيف فلم يبق لضال فيه متمسّك . وللشّوكاني (رحمه الله) كتاب قطر الولي على حديث الولي . شرح فيه هذا الحديث شرحاً مستفيضاً .

(١) كتاب العلم لأبي خيثمة : ص : ١١١ .

(٢) المرجع السّابق : ص : ١١٠ .

وقال سفيان الثّوري (رحمه الله) :

" إنّما يتعلّم العلم ليتّقى به اللّه ، وإنّما فضّل العلم على غيره لأنّه يتّقى به اللّه " . جامع بيان العلم : ص : ٢٧١ .

قال أيوب السّختياني (رحمه الله) [1] :

" قال لي أبو قِلابَة [2] : " إذا أحدث اللّه لك علماً فأحدث له عبادة ، ولا يكن همّك أن تحدّث به " [3] .

وقال الخطيب البغدادي (رحمه الله) :

" والعلم يراد للعمل ، كما العمل يراد للنّجاة ، فإذا كان العمل قاصراً عن العلم كان العلم كلاًّ على العالم ، ونعوذ باللّه من علم عاد كلاًّ ، وأورث ذلاًّ ، وصار في رقبة صاحبه غلاًّ ... وكما لا تنفع الأموال إلاّ بإنفاقها كذلك لا تنفع العلوم إلاّ لمن عمل بها ، وراعى واجباتها ... إلخ " [4] .

---

(١) هو أيوب بن أبي تميمة كيسان أبو بكر السّختياني العنزي مولاهم البصري . الإمام العلم الحافظ الفقيه، من سادات أهل البصرة وكبار عبّاد أتباع التّابعين . ثقة ثبت حجّة جامع كثير العلم . اشتهر بالفضل والعلم والنّسك والورع ، والصّلابة في السّنّة والقمع لأهل البدع . توفي سنة: ١٣١هـ .

و انظر : الطّبقات الكبرى: ٢٤٦/٧. طبقات خليفة: ص: ٢١٨. التّاريخ الكبير: ٤٠٩/١. الجرح والتّعديل: ٢٥٥/٢ . ثقات ابن حبّان : ٥٣/٦. مشاهير علماء الأمصار: ١٥٠/١. التّعديل والتّجريح: ٣٨٥/١. تهذيب الكمال: ٤٥٧/٣. تذكرة الحفّاظ: ١٣٠/١. الكاشف: ٢٦٠/١. جامع التّحصيل: ص: ١٤٨. تهذيب التّهذيب: ٣٤٨/١. تقريب التّهذيب: ١١٧/١. إسعاف المبطأ : ص: ٦ .

(٢) هو عبد اللّه بن زيد بن عمرو ويقال : عامر أبو قِلابة الجرمي الأزدي البصري . مشهور بكنيته . من عبّاد التّابعين وزهّادهم وأئمّتهم . ثقة فاضل عظيم القدر . كثير الحديث وكثير الإرسال . توفي سنة : ١٠٤ هـ بالشّام هارباً من القضاء .

و انظر : الطّبقات الكبرى: ١٨٣/٧. طبقات خليفة: ص : ٢١١. التّاريخ الكبير: ٩٢/٥. معرفة الثّقات: ٣٠/٢. الجرح والتّعديل: ٥٧/٥. ثقات ابن حبّان: ٢/٥. مشاهير علماء الأمصار: ٨٩/١. التّعديل والتّجريح: ٨٢٠/٢. تهذيب الكمال: ٥٤٢/١٤. تذكرة الحفّاظ: ٩٤/١. الكاشف: ٥٥٤/١. جامع التّحصيل: ص: ٢١١. التّبيين لأسماء المدلّسين: ص: ٢٦٢. تهذيب التّهذيب: ١٩٧/٥. تقريب التّهذيب: ٣٠٤/١.

(٣) جامع بيان العلم : ص : ٢٦٦ .

(٤) اقتضاء العلم العمل . لأبي بكر أحمد بن عليّ بن ثابت الخطيب البغدادي . تحقيق محمّد ناصر الدّين الألباني . الرّسالة الرّابعة من ضمن مجموعة كنوز السّنّة : ص : ١٥٨-١٥٩ .

وقد أحسن من قال:

إذا العلم لم تعمل به كان حجّة ••••••• عليك ولم تعذر بما أنت جاهله

فإن كنت قد أوتيت علماً فإنّما ••••••• يصدّق قول المرء ما هو فاعله [١]

ولقد ذمّ اللّه تعالى أهل الكتاب الّذين يـأمرون النّـاس بـالخير والطّاعـات ويتركون أنفسهم فلا يأتمرون ، مع أنّهم يتلون كتـاب اللّـه ويعلمـون مـا فيـه . فقال تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة:٤٤].

ولشدّة ما قرّع اللّه في هذا الموضع من يأمر بالخير ولا يفعله مـن العلمـاء الّذين هم غير عاملين بالعلم . فاستنكر عليهم أوّلاً : أمرهم للنّاس بالبر مـع نسـيان أنفسهم من ذلك الأمر الّذي قاموا به في المجامع ، ونادوا به في المجـالس إيـهاماً للنّاس بأنّهم مبلّغون عن اللّه ما تحمّلوه من حججه ، ومبيّنون لعباده ماأمرهم ببيانه ، وموصلون إلى خلقه ما استودعهم وأتمنهم عليه ، وهم أترك النّاس لذلك ، وأبعدهـم من نفعه ، وأزهدهم فيه .

ثمّ ربط هذه الجملة بجملة أخرى جعلها مبيّنة لحالـهم وكاشـفة لعوارهـم ، وهاتكة لأستارهم ، وهي إنّهم فعلوا هذه الفعلة الشّنيعة ، والخصلة الفظيعة ، علـى

أنشد بعضهم :

اعمل بعلمك تغنم أيّها الرّجـل ••••••• لا ينفع العلم إن لم يَحسُن العمل

والعلم زين وتقـوى اللّه زينتـه ••••••• والمتّقون لهم في علمهم شـغل

وحجّة اللّه يا ذا العلـم بالغـة ••••••• لا المكر ينفع فيها لا ولا الحيـل

تعلّم العلم واعمل ما استطعت به ••••••• لا يُلهينّك عنه اللّـهو والجـدل

وعلّم النّاس واقصد نفعهم أبداً ••••••• إيّاك إيّاك أن يعـتادك المـلل

المرجع السّابق : ص : ١٧٤-١٧٥

(١) البيتان لسابق البربري (رحمه الله) . جامع بيان العلم : ص : ٢٨٦ .

علم منهم ومعرفة بالكتاب الّذي أنزل عليهم ، وملازمة لتلاوته ، وهم في ذلك كما قال المعرّي[1] :

وإنّما حمل التّوراة قارئها •••••• كسب الفوائد لا حبّ التّلاوات [2]

ثمّ انتقل معهم من تقريع إلى تقريع ، ومن توبيخ إلى توبيخ ، فقال : إنّكم لو لم تكونوا من أهل العلم ، وحملة الحجّة ، وأهل الدّراسة لكتب اللّه لكان مجرّد كونكم ممّن يعقل حائلاً بينكم وبين ذلك ، ذائداً لكم عنه ، زاجراً لكم منه ، فكيف أهملتم ما يقتضيه العقل بعد إهمالكم لما يوجبه العلم ؟[3] .

ثمّ إنّ هذا التّوبيخ والتّقريع – وإن كان خطاباً لبني إسرائيل ، إلاّ إنّه عام من حيث المعنى – لكلّ واعظ يأمر ولا يأتمر ، ويزجر ولا ينزجر ، ينادي النّاس البدار البدار ، ويرضى لنفسه التّخلّف والبوار ، ويدعو الخلق إلى الحقّ وينفر عنه ، ويطالب العوام بالحقائق ولا يشمّ ريحها منه [4] .

---

(١) هو أحمد بن عبد اللّه بن سليمان أبو العلاء التّنوخي المَعَرِّي اللّغوي الشّاعر المشهور. ولد بمَعَرَّة النّعمان فنسب إليها. جُدِر وهو صغير فذهب بصره. له ذكاء مفرط واطّلاع واسع على اللّغة مع معرفة بالنّسب وأيّام العرب. شعره في الذّروة ، وله فيه ما يدلّ على زندقته. نقل عنه أهل العلم اضطّراباً في ديانته. من دواوين شعره : سقط الزّند ، ولزوم ما لايلزم وهي مطبوعة ، وغيرها. وله كثير من كتب الأدب . وقد طبع بعضها. توفي سنة: ٤٤٩هـ . وقد كتب عنه كثير من الكتّاب.

و انظر : تاريخ بغداد: ٢٤٠/٤. المنتظم: ١٨٤/٨. وفيات الأعيان: ١١٣/١. سير أعلام النّبلاء: ٢٣/١٨. العبر: ٢٩٣/٢. ميزان الاعتدال: ٢٥٢/١. البداية والنّهاية: ٧٢/١٢. لسان الميزان: ٢٠٣/١. ٨٣/٧. النّجوم الزّاهرة: ٦١/٥. شذرات الذّهب: ٢٠٩/٥. الأعلام: ١٥٧/١.

(٢) اللّزوميّات لأبي العلاء المعرّي . تحقيق : أمين عبد العزيز الخانجي . طبعة : مكتبة الهلال . بيروت . مكتبة الخانجي القاهرة : ١٧٥/١ .

(٣) فتح البيان : ١٥٦/١ . وانظر معنى الآية في : التفسير الكبير : ٤٦/٣-٤٨ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٦٥/١-٣٦٩ . تفسير القرآن العظيم : ١٢٩/١-١٣١ . محاسن التّأويل : ١١٨/٢ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٣٤ .

(٤) روح المعاني : ٢٤٨/١ .

ويؤيّد عموم الآية السّابقة وعدم اختصاصها بأهل الكتاب قوله تعالى مخاطباً المؤمنين : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾ [الصف:٢-٣].

أي لم تقولون الخير وتحثّون النّاس عليه وأنتم لا تفعلونه ، وتنهونهم عن الشّرّ وأنتم ترتكبونه ، وهذا يجلب لكم المقت من اللّه ، وهو أشدّ البغض (١) .

ومثلها قول شعيب عليه السّلام فيما أخبر اللّه به عنه : ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ

قال أبو عمر بن عبد البر (رحمه الله) :

" قد ذمّ اللّه في كتابه قوماً كانوا يأمرون النّاس بأعمال البر ولا يعملون بها ذمّاً ، ووبّخهم اللّه بها توبيخاً يتلى على طول الدّهر إلى يوم القيامة فقال : – ثمّ تلا الآية أعلاه – " . جامع بيان العلم : ص : ٢٧٤ .

وليس المراد ذمّهم على أمرهم بالبر مع تركهم له ، بل على تركهم له ، فكلّ من الأمر بالمعروف وفعله واجب لا يسقط أحدهما بترك الآخر . والعالم يأمر بالمعروف وإن لم يفعله ، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه . تفسير القرآن العظيم : ١/١٢٩ " بتصرّف " . وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ١/٣٦٦-٣٦٧ .

قال الرّازي (رحمه الله) :

" إنّ المكلّف مأمور بشيئين : أحدهما : ترك المعصية . والثّاني : منع الغير عن فعل المعصية . والإخلال بأحد التّكليفين لا يقتضي الإخلال بالآخر " . التّفسير الكبير : ٣/٤٧ . وانظر : روح المعاني : ١/٢٤٨ .

وقال النّووي (رحمه الله) :

" قال العلماء : ولا يشترط في الآمر والنّاهي أن يكون كامل الحال ممتثلاً ما يأمر به ، مجتنباً ما ينهى عنه ، بل عليه الأمر وإن كان مخلاًّ بما يأمر به ، والنّهي وإن كان متلبّساً بما ينهى عنه ، فإنّه يجب عليه شيئان : أن يأمر نفسه وينهاها ، ويأمر غيره وينهاه ، فإذا أخلّ بأحدهما كيف يباح له الإخلال بالآخر ؟" .

شرح النّووي على مسلم : ٢/٢٣ .

(١) انظر : تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٧٩٦ . وللآيتين معنى آخر . انظر : جامع البيان : ٢٨/٨٣-٨٥ . الجامع لأحكام القرآن : ١٨/٧٨-٨٠ . تفسير القرآن العظيم : ٤/٥٥٨-٥٦٠ . الجواهر الحسان : ٣/٣٦٢ . فتح البيان : ١٤/٩٧-٩٨ .

أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود:٨٨].

فهو لا يأمرهم بأمر أو ينهاهم عن نهي ويخالف إلى غيره ، بل يريد هدايتهم وتزكية نفوسهم ، واستقامتهم ما تمكّن من ذلك ووجد إليه سبيلاً [١] .

وقد بيّن ﷺ عقاب من يأمر ولا يأتمر ، وينهى ولا ينتهي . فقال في حديث أسامة بن زيد (رضي الله عنهما) : " يؤتى بالرّجل يوم القيامة فيلقى في النّار ، فتندلق [٢] أقْتَاب [٣] بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار بالرّحى[٤] ، فيجتمع إليه أهل النّار ، فيقولون : يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى . قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنْهَى عن المنكر وآتيه " [٥] .

---

(١) انظر معنى الآية في : جامع البيان : ١٠٣/١٢ . التّفسير الكبير : ٤٥/١٨-٤٦ . الجامع لأحكام القرآن : ٨٩/٩-٩٠ . تفسير القرآن العظيم : ٧٠٦/٢-٧٠٧ . روح المعاني : ١١٨/١٢-١٢١ . فتح البيان : ٢٣٢/٦-٢٣٣ . محاسن التّأويل : ٣٤٧٩/٩ .

(٢) فتندلق : الاندلاق خروج الشّيء من مكانه ، وقيل خروجه سريعاً . والمراد خروج أمعائه من جوفه. وانظر: غريب الحديث للهروي: ٣١/٢. غريب الحديث للحربي: ٨٨٧/٢. غريب الحديث لابن الجوزي: ٣٤٦/١. النّهاية في غريب الحديث: ١٣٠/٢.

(٣) أقْتَاب : جمع قِتْب وهو الأمْعَاء . انظر: غريب الحديث للهروي: ٣٠/٢-٣١. غريب الحديث للحربي: ٨٩٤/٢. الفائق: ٤٣٤/١. غريب الحديث لابن الجوزي: ٢١٨/٢. النّهاية في غريب الحديث: ١١/٤.

(٤) الرّحى: هي الّتي يطحن بها ، والجمع أرْحٍ ، وأرْحاء . وأصل الرّحى الحجر العظيم .

انظر:لسان العرب: ٣١٢/١٤. وانظر: المصباح المنير: ٢٢٣/١. القاموس المحيط: ١٠٠/١.

(٥) صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الزّهد والرّقائق: (٥٣). باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله: (٧). برقم: (٢٩٨٩) ٢٢٩١/٤٠ .

قال أبو العبّاس القرطبي (رحمه الله) في معرض شرحه للحديث :

" وإنّما اشتدّ عذاب هذا لأنّه كان عالماً بالمعروف وبالمنكر ، وبوجوب القيام عليه بوظيفة كلّ واحد منهما ، ومع ذلك فلم يعمل بشيء من ذلك ، فصار كأنّه مستهين بحرمات الله تعالى ، ومستخفّ بأحكامه ، ثمّ إنّه لم

وقال في حديث أنس بن مالك ﷺ : " مررت ليلة أُسْرِي بي على قوم تُقرض شفاههم بمقاريض من نار ، قلت ما هؤلاء ؟ قال : هؤلاء خطباء أمّتك من أهل الدّنيا كانوا يأمرون النّاس بالبرّ وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون " [1] .

وفي حديث جندب بن عبد اللّه ﷺ قال ﷺ : " مثل العالم الّذي يعلّم النّاس الخير وينسى نفسه كمثل السّراج يضيء للنّاس ويحرق نفسه " [2] .

ومن هنا جاء خوف السّلف رحمهم اللّه من سلوك هذا المسلك المشين لما يترتّب عليه من آثار ذميمة ، وعواقب وخيمة .

يتب عن شيء من ذلك ، وهذا من جملة من لم ينتفع بعلمه ، الّذين قال فيهم النّبي ﷺ : " أشدّ النّاس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه اللّه بعلمه " . المفهم : ٦٢١/٦ .

والحديث الّذي استدل به أورده : الطّبراني في الصّغير : ١٣٠٥/١ . وهو في مسند الشّهاب لأبي عبد اللّه محمّد ابن سلامة بن جعفر القضاعي . تحقيق : حمدي بن عبد المجيد السّلفي . طبعة : مؤسّسة الرّسالة . بيروت . الطّبعة الثّانية : ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م : ١٧١/٢ . و شعب الإيمان : ٢٨٥/٢ . والتّرغيب والتّرهيب :٧٥/١ . وقال الهيثمي : " فيه عثمان البري قال الفلاّس : صدوق لكنّه كثير الغلط صاحب بدعة ضعّفه أحمد والنّسائي والدّارقطني " . مجمع الزّوائد : ١٨٥/١ .

(١) مسند أحمد: بلفظه في : ١٨٠/٣. و بلفظ مقارب في: ١٢٠/٣، ١٣١، ٢٣٩.

مسند أبي يعلى: بلفظ مقارب في: ٦٩/٧، ٧٢. برقم: (٣٩٩٢) ، (٣٩٩٦). و نحوه في: ١٨٠/٧. برقم: (٤١٦٠). قال المحقّق: " الحديث صحيح".

مسند أبي داود الطّيالسي: نحوه في: ص: ٢٧٤. برقم: (٢٠٦٠).

وقال الألباني (رحمه الله): " إسناده حسن". اقتضاء العلم العمل : هامش: (١١١). ص : ١٩٩- ٢٠٠ .

(٢) معجم الطّبراني الكبير: بلفظه في : ١٦٥/٢-١٦٦. قال الألباني (رحمه الله): " حديث صحيح " . اقتضاء العلم العمل : هامش (٧٠) . ص : ١٨٢ . وهو في صحيح الجامع : برقم: (٥٨٣١) . ١٠١٥/٢ .

قال أبو الدّرداء رضي الله عنه :

" إنّي لست أخشى أن يقال لي : يا عويمر ماذا علمت ؟ ولكنّي أخشى أن يقال : يا عويمر ماذا عملت فيما علمت ؟ " [1] .

قال رجل لإبراهيم بن أدهم (رحمه الله) [2] : قال اللّه عزّ وجلّ :﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر:٦٠]. فمالنا ندعوا فلا يستجاب لنا ؟ .

فقال إبراهيم : " من أجل خمسة أشياء . قال : وما هي ؟ قال : عرفتم اللّه فلم تؤدّوا حقّه ، وقرأتم القرآن فلم تعملوا بما فيه ، وقلتم نحبّ الرّسول ﷺ وتركتم سنّته ، وقلتم نلعن إبليس وأطعتموه ، والخامسة تركتم عيوبكم وأخذتم في عيوب النّاس " [3] .

والدّاعية إلى اللّه هو أولى النّاس بتطبيق ما يأمر به ، لأنّ سلوكه هو الصّورة الحيّة العمليّة لدعوته ، الّتي يراها النّاس في سكونه وحركته ، ووقوفه ومشيته ، وبكائه وضحكته ، وأنّه بفعله يصيب من قلوب النّاس أبلغ ممّا تصيب الكلمة مهما كانت طيّبة ومؤثّرة .

---

(١) اقتضاء العلم العمل : ص : ١٧٧.

وأورده الحارث بن أبي أسامة في مسنده . تحقيق : حسين أحمد صالح الباكري . طبعة : مركز خدمة السّنّة والسّيرة النّبوية . المدينة المنورة . الطّبعة الأولى : ١٤١٣هـ ـــ ١٩٩٢م : مرفوعاً . ولفظه: "إنّ أبا الدّرداء قال: قال لي رسول اللّه ﷺ :" كيف أنت يا عويمر إذا قيل لك يوم القيامة أعلمت أم جهلت ؟ فإن قلت علمت . قيل: فماذا عملت فيما علمت؟. وإن قلت جهلت . قيل لك: فما كان عذرك فيما جهلت ألا تعلّمت؟". كتاب البعث . باب كيف البعث . ١٠٠٤/٢.

(٢) إبراهيم بن أدهم بن منصور أبو إسحاق العجلي وقيل : التّميمي البلخي ، سكن الشّام . زاهد ، صدوق في الحديث . توفي سنة : ١٦١هـ . وقيل : بعدها.

و انظر : التّاريخ الكبير: ٢٧٣/١. ثقات ابن حبّان: ٢٤/٦. مشاهير علماء الأمصار: ١٨٣/١. تهذيب الكمال: ٢٧/٢. الكاشف: ٢٠٧/١. تهذيب التهذيب: ٨٨/١. تقريب التّهذيب: ٨٧/١ .

(٣) جامع بيان العلم : ص : ٢٨٢-٢٨٣ .

فدعوته للنّاس تقتضي أن يكون ملتزماً بما يأمر به ، آخذاً نفسه بذلك ، ونهيه لهم يستوجب عليه أن يكون منتهياً عن ذلك [١] .

قال المأمون :

" نحن إلى أن نوعظ بالأعمال أحوج منّا أن نوعظ بالأقوال " [٢] .

وذلك لأنّ أثر الفعل أبلغ من القول .

ويؤيّده حديث ابن عمر (رضي الله عنهما) قال : اتّخذَ النّبيُّ ﷺ خاتماً من ذهب فاتّخذَ النّاسُ خواتيمَ من ذهب ، فقال النّبيُّ ﷺ : " إنِّي اتّخذتُ خاتماً من ذهب " فنبذه ، وقال : " إنّي لن أَلْبَسَهُ أبداً " فنبذَ النّاسُ خواتيمَهم " [٣] .

---

(١) انظر : أسس الدّعوة : ص : ٧٤-٧٥ .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

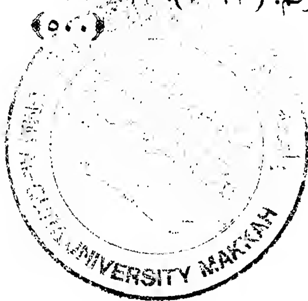
" يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي دعا عباد الله إليه ﴿ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت:٣٣] أي هو في نفسه مهتد بما يقوله ، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومتعدّ ، وليس هو من الّذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه ، وينهون عن المنكر ويأتونه ، بل يأتمر بالخير ويترك الشّرّ ، ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى . وهذه عامّة في كلّ من دعا إلى خير وهو في نفسه مهتد ، ورسول الله ﷺ أولى النّاس بذلك " . تفسير القرآن العظيم : ٤/١٥١ .

وانظر :مبحثاً قيّماً بعنوان : التّربية بالقدوة في كتاب : طرق الدّعوة : ص : ١٠٠-١١٢ .

(٢) جامع بيان العلم : ص : ٢٨٥ .

(٣) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة : (٩٦/٧١). باب :الاقتداء بأفعال النّبي ﷺ : (٤/٥). برقم: (٧٢٩٨). ص: ١٥٣٣. و نحوه في: كتاب اللّباس: (٧٧/٥١). باب خواتيم الذّهب: (٤٥). برقم: (٥٨٦٥). ص: ١٢٦٧. وفي باب خاتم الفضّة: (٤٦). برقم: (٥٨٦٦). ص: ١٢٦٨. وفي باب : (٤٧). برقم: (٥٨٦٧). ص: ١٢٦٨. وفي باب من جعل فصّ الخاتم في بطن كفّه: (٥٣). برقم: (٥٨٧٦). ص: ١٢٦٩. وفي كتاب الإيمان والنّذور: (٨٣/٥٧). باب من حلف على الشّئ وإن لم يحلف: (٦). برقم: (٦٦٥١). ص: ١٤٠٨.

صحيح مسلم: نحوه في: كتاب اللّباس والزّينة: (٣٧). باب تحريم خاتم الذّهب على الرّجال ، ونسخ ما كان من إباحة في أوّل الإسلام: (١١). برقم: (٢٠٩١). ٣/١٦٥٥.



ولمّا أمرهم ﷺ عام الحديبية بالتّحلّل وتأخّروا عن المبادرة رجاء أن يأذن لهم في القتال وإكمال العمرة ، قالت له أمّ سلمة (رضي الله عنها): " اخرج إليهم واحلق واذبح " . ففعل فتابعوه مسرعين . فدلّ ذلك على أنّ الفعل أبلغ من القول[1] .

وبالتّالي إذا لم يكن الدّاعية عاملاً بنصحه ملتزماً به لا يصل نصحه إلى قلوب المنصوحين ، بل لعله يكون عرضة للسّخرية والاستهزاء .

قال مالك بن دينار[2] (رحمه الله) :

" إنّ العالم إذا لم يعمل بعلمه زلّت موعظته عن القلوب كما يزلّ القطر عن الصّفا " [3] .

وقال الزّهري(رحمه الله):

" لا يوثق للنّاس عملُ عامل لا يعلم ، ولا يُرضى بقول عالم لا يعمل " [4] .

---

(١) ذكر تلك الحادثة البخاري في صحيحه . في جزء من حديث طويل عن غزوة الحديبية عن المسورة بن مخرمة ﷺ ومروان (رحمه الله) . في كتاب الشّروط: (٣٠/٥٤). باب الشّروط في الجهاد ، والمصالحة مع أهل الحرب، وكتابة الشّروط: (١٥). برقم: (٢٧٣١،٢٧٣٢). ص: ٥٧١-٥٧٤. انظر : فتح الباري : ٢٠٥/١٥ .

(٢) مالك بن دينار أبو يحيى السّامي النّاجي مولاهم البصري . من زهّاد التّابعين وعبّادهم ، واعظ ، صدوق قليل الحديث ، كان يكتب المصاحف . ووثّقه النّسائي. توفي سنة : ١٣٠ هـ . أو نحوها.

و انظر : الطّبقات الكبرى: ٢٤٣/٧. طبقات خليفة: ص: ٢١٦. التّاريخ الكبير: ٣٠٩/٧. معرفة الثّقات: ٢٦٠/٢. الجرح والتّعديل: ٢٠٨/٨. ثقات ابن حبّان: ٣٨٣/٥. مشاهير علماء الأمصار: ٩٠/١. تهذيب الكمال: ١٣٥/٢٧. الكاشف: ٢٣٥/٢. تهذيب التّهذيب: ١٣/١٠. تقريب التّهذيب: ٥١٧/١. لسان الميزان: ٣٤٧/٧.

(٣) جامع بيان العلم : ص : ٢٨٧ . اقتضاء العلم العمل : ص : ١٩٢ .

والصّفَا : هو العريض من الحجارة الأملس ، جمع صفاة . يكتب بالألف فإذا ثنّي قيل صفوان ، وهو الصّفواء . لسان العرب: ٤٦٤/١٤. وانظر: مختار الصّحاح :ص:٣٦٦.

(٤) اقتضاء العلم العمل : ص : ١٦٦ .

قال أبو الأسود الدّؤلي ويروى للعرزمي :

يا أيّها الرّجل المعلّم غيره ****** هلاّ لنفسك كان ذا التّعليم

وقد تمحق بركة علمه ، بل لعله يزول عنه ولا ينتفع به .

قال علي بن أبي طالب ﷺ :

" هتف العلم بالعمل ، فإن أجابه وإلاّ ارتحل " (١) .

وقال أبو هريرة ﷺ :

" مثل علم لا يعمل به كمثل كنز لا ينفق منه في سبيل اللّه عزّ وجلّ " (٢) .

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ******* فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يقبل ما تقول ويقتدى ******* بالعلم منك وينفع التّعليم

تصف الدّواء لذي السّقام من الضّنا ******* كيما يصحّ به وأنت سقيم

أراك تلقح بالرّشاد عقولنا ******* نصحاً وأنت من الرّشاد عديم

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ******* عار عليك إذا فعلت عظيم .

جامع بيان العلم : ص : ٢٧٧-٢٧٨

(١) اقتضاء العلم العمل : ص : ١٧٣ .

ونسبه ابن عبد البر إلى سفيان الثّوري (رحمه الله) . جامع بيان العلم : ص : ٢٩٠ .

(٢) اقتضاء العلم العمل : ص : ١٦٥ . قال الشّيخ ناصر الألباني (رحمه الله) : " إسناده موقوف لا بأس به وقد جاء مرفوعاً " . هامش (١٢) .

وهو في سنن الدّارمي عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً ولفظه: " مثل علم لاينتفع به كمثل كتر لاينفق منه في سبيل اللّه". في باب البلاغ عن رسول اللّه ﷺ : ١/ ١٤٨. و نحوه عن سلمان ﷺ موقوفاً عليه. ١٤٨/١.

و مسند أحمد عن أبي هريرة ﷺ أيضاً مرفوعاً بلفظ مقارب لرواية الدّارمي : ١٢١/٧.

وفي المصنف لأبي بكر عبد اللّه بن محمّد بن أبي شيبة . تحقيق : كمال يوسف الحوت . طبعة : مكتبة الرّشد . الرّياض . الطّبعة الأولى : ١٤٠٩هـ : عن سلمان ﷺ موقوفاً ولفظه: "مثل علم لا يعمل به كمثل كتر لا ينفق منه". ١٢١/٧.

وقال مطر[1] *(رحمه الله)* :

" خير العلم ما نفع ، وإنّما ينفع اللّه بالعلم من عَلِمَهُ ثمّ عَمِلَ به ، ولا ينفعُ به مَنْ عَلِمَهُ ثمّ تركه " [2] .

والدّاعية قدوة لغيره ، فعليه أن يستشعر ذلك في كلّ أحيانه ، إذ هو تحت مراقبة دقيقة وفاحصة ممّن يقتدون به ، وعليه أن يكون أوّل من يترجم في حياته ما يتلفّظ به لغيره ، لبيان صِدْقه ، ولتصدّق دَعْوَتُه ، ولا يكون همّه أن يلقي المواعظ ، ويدبّج الخطب ، ويصدر النّصائح ، وهو كليل عليل ، همّه إصلاح النّاس لا إصلاح نفسه ، فيضيّع مسئوليته تجاه نفسه أمام مسئوليته تجاه غيره . فليس من العقل أن ينصح غيره ويهمل نفسه ، وهذا ينافي مقصود الدّعوة إذ هي لإصلاح النّاس لا لإفسادهم . فمن دعا غيره وأهمل نفسه لعله يفسد أكثر ممّا يصلح لأنّه حينئذ يكون داعية إلى التّهاون بالدّين والجرأة علي المعاصي ، زاجراً للنّاس عن أداء الطّاعات ، دافعاً لهم على ارتكاب المخازي ، يقولون لو كان صادقاً فيما يقول لطابق قوله فعله ، وجانب فعله المعصية . فكان فعله مانعاً لقبول دعوته .

---

(١) هو مَطَر بن طَهْمان أبو رجاء الورّاق السّلمي مولاهم الخرساني البصري . صدوق كثير الخطأ ، وروايته عن أنس ﷺ مرسلة. توفي سنة : ١٢٥ هـ .

و انظر : الطّبقات الكبرى: ٢٥٤/٧. طبقات خليفة: ص: ٢١٥. التّاريخ الكبير: ٤٠٠/٧. معرفة الثّقات: ٢٨١/٢. الجرح والتّعديل: ٢٨٧/٨. ثقات ابن حبّان: ٤٣٥/٥. مشاهير علماء الأمصار: ٩٥/١. الكامل في ضعفاء الرّجال: ٣٩٦/٦. تهذيب الكمال: ٥١/٢٨. الكاشف: ٢٦٨/٢. جامع التّحصيل: ص: ٢٨١. تهذيب التّهذيب: ١٥٢/١٠. تقريب التّهذيب: ٥٣٤/١. لسان الميزان: ٣٨٩/٧.

(٢) اقتضاء العلم العمل ، ص : ١٧١ .

قال عبدالملك بن إدريس الحزيري الوزير الكاتب :

والعلم ليس بنافع أربابه ******* ما لم يفد عملاً وحسن تبصّر

سيّان عندي علم من لم يستفد ******* عملاً به وصلاة من لم يطهر

فاعمل بعلمك توف نفسك وزنها ******* لا ترض بالتّضييع وزن المخسر

جامع بيان العلم : ص : ٢٨٩ .

ورحم الله *ابن القيّم* عندما وصف أناساً هذا شأنهم ، وذلك مسلكهم ، فأبلغ في الوصف ، حيث قال :

" علماء السّوء جلسوا على باب الجنّة يدعون إليها النّاس بأقوالهم ، ويدعونهم إلى النّار بأفعالهم ، فكلّما قالت أقوالهم للنّاس هلمّوا ، قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم ، فلو كان ما دعوا إليه حقّاً كانوا أوّل المستجيبين له ، فهم في الصّور أدلاّء وفي الحقيقة قطّاع طريق " [١] .

فداعية هذا شأنه ينقطع به السّير في وسط الطّريق ، بل قل: في أوّله ، ويعجز عن مواصلة مشوار دعوته ، بل لعله يكون عبئاً ثقيلاً عليها وعلى الدّعاة الثّابتين على الطّريق ، لما يجلبه عليهم من همز ولمز وإساءة ، فتتعثّر الدّعوة في سيرها ، وتتراجع في تقدّمها ، بل تتهاوى إلى السّفول ، حين ينطمس نورها في نفس الدّاعية ، وينمحي أثرها ، إذ فقدت عنصراً مهمّاً من عناصر دفعها ، وسنداً قويّاً يضمن لها بقاءها .

فالدّاعية صاحب الكلمة الصّادقة والقولة المؤثّرة ، هو الّذي عني بتربية نفسه فجاهدها عن المعصية وألزمها الطّاعة ، يراقب ربّه فيها ، ويحاسبها على إخلالها ، ويروّضها على الخير ، ويحبسها عن الشّرّ ، مع تنقية السّريرة وملازمة التّقوى ، فتشع حينئذ تلك النّفس صفاء وطهراً ، وتزكية ونوراً ، فتخرج كلماته مؤثّرة ، فتصيب أهدافها في قلوب الآخرين ، ومراميها في نفوسهم ، فينجرّون إليها في لهفة ونهم ، منصاعين لما يقول ، متأسّين بما يفعل . وحينها يسعد باستمرار دعوته وثباتها ، وطول مكثها وبقائها .

---

(١) الفوائد : ص : ٦١ . وله كلام قيّم مستفيض فيمن آثر الدّنيا من أهل العلم ، وقال عن الله بغير علم ، وما ضرب الله لهم من الأمثلة . انظر المرجع السّابق : ١٠٠-١٠٢ .

قال الحسن (رحمه الله) :

" كان الرّجل إذا طلب العلم لم يلبث أن يرى ذلك في تخشّعه وبصره ولسانه ويده وصلاته وزهده ، وإن كان الرّجل ليصيب الباب من أبواب العلم فيعمل به فيكون خيراً له من الدّنيا وما فيها لو كانت له فجعلها في الآخرة " [1] .

(١) جامع بيان العلم : ص : ١٠٣ . والحسن هو : البصري (رحمه الله) .

﴿ المبحث الرّابع ﴾

الإخلاص*

الإخلاص : مصدر أخلص يُخلِص ، وهو مأخوذ من مادة " خ ل ص " الّتي تدلّ على تنقية الشّيء وتهذيبه [(١)] .

والخالص كالصّافي إلاّ أنّ الخالص هو ما زال عنه شوبه بعد أن كان فيه ، والصّافي قد يقال لما لا شوب فيه [(٢)] .

وفي الاصطلاح : تخليص القلب عن شائبة الشّوْب المكدّر لصفائه ، فإذا صفا عن شوبه ، وخلص عنه يسمّى : خالصاً ، ويسمّى الفعل المخلّص : إخلاصاً .
قال تعالى : ﴿ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا ﴾ [النحل:٦٦]. فإنّما خلوص اللّبن ألاّ يكون فيه شوب من الفرث والدّم [(٣)] .

والمخلص في عبادته هو الّذي يخلّصها من شوائب الشّرك والرّياء ، وذلك لا يتأتّى له إلاّ بأن يكون الباعث له على عملها قصد التّقرّب إلى اللّه تعالى وابتغاء ما عنده [(٤)] .

والإخلاص أمره عظيم وشأنه عزيز ، ولذا أمر اللّه به رسله عليهم السّلام ، وأثنى عليهم بتحقيقه .

---

* الإخلاص عامل مهم للثّبات في كلّ موطن ، ولكن أوردته هنا لعلاقته الوطيدة بالدّعوة ، وحاجة الدّعاة الماسّة إليه .

(١) موسوعة نضرة النّعيم في مكارم أخلاق الرّسول الكريم ﷺ . إعداد مجموعة من المختصّين . دار الوسيلة . جدّة الطّبعة الأولى : ١٤١٨هـ ١٩٩٨م : ٢/١٢٤ .

(٢) المفردات : ص : ١٥٤ .

(٣) التّعريفات : ص : ٢٨ .

(٤) المفهم : ٣/٧٤٢ .

قال تعالى في شأن الخاتم عليه السّـلام : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝ ﴾ [الزمر:٢-٣] وقال : ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ ﴾ [الزمر:١١].

وقال : ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝ ﴾ [الزمر:١٤-١٥]. وقال : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

وقال عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السّلام : ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ۝ ﴾ [ص:٤٦].

وقال عن يوسف عليه السّلام : ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ۝ ﴾ [يوسف:٢٤].

وعن موسى عليه السّلام : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝ ﴾ [مريم:٥١].

وأمر به عباده فقال : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝ ﴾ [البينة:٥].

وقال : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝ ﴾ [الملك:٢].

قال الفضيل بن عياض (رحمه الله) عن الآية السّابقة :

" هو أخلصه وأصوبه . قالوا : يا أبا عليّ ، ما أخلصه وأصوبه ؟ فقال : إنّ العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل . وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتّى يكون خالصاً صواباً . والخالص أن يكون لله ، والصّواب أن يكون على السّنّة . ثمّ قرأ قوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف:١١٠] (١) .

وأمّا الأحاديث في شأن الإخلاص فهي كثيرة جداً . منها :

حديث عمر بن الخطّاب ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : " إنّما الأعمال بالنّية ، وإنّما لامرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى اللّه ورسوله فهجرته إلى اللّه ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوّجها فهجرته إلى ما هاجر إليه " (٢) .

---

(١) مدارج السّالكين : ٢/٨٣-٨٤ . ٨٩-٩٠ . وانظر : الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر : ص : ٢٩ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه ـــ إلا إنّه قال : " إلى دنيا " ـــ في : كتاب الأيمان والنّذور: (٨٣/٥٧). باب النّيّة في الأيمان: (٢٣). برقم: (٦٦٨٩). ص: ١٤١٥. وبلفظ مقارب في: كتاب الإيمان : (٢). باب ما جاء إنّ الإيمان بالنّيّة: (٤١/٤٢). برقم: (٥٤). ص:٢٧. وفي كتاب العتق: (٤٩/٢٥). باب الخطأ والنّسيان في العتاقة والطّلاق: (٦). برقم: (٢٥٢٩). ص: ٥٢٥. وفي كتاب النّكاح: (٦٧/٤١). باب من هاجر أو عمل خيراً لتزويج امرأة فله ما نوى: (٥). برقم: (٥٠٧٠). ص: ١١١٦. وفي كتاب الحيل: (٩٠/٦٥). باب في ترك الحيل: (١). برقم: (٦٩٥٣). ص: ١٤٦٨. و نحوه في: في كتاب بدء الوحي: (١). باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول اللّه ﷺ : (١). برقم: (١). ص: ١١. وفي كتاب مناقب الأنصار [المناقب] : (٦٣/٣٧).باب هجرة النّبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة: (٤٥/١٠٥). برقم: (٣٨٩٨). ص: ٨١٥.

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإمارة: (٣٣). باب قوله ﷺ " إنّما الأعمال بالنّيّة" : (٤٥). برقم: (١٩٠٧). ص: ٣/١٥١٥-١٥١٦.

وحديث ابي أُمامة الباهلي ﷺ . وفيه قال ﷺ : " إنّ اللّه لا يقبل من العمـــل إلاّ ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه " (١) .

وحديث زيد بن ثابت ﷺ . وفيه قال ﷺ : " ثلاث لا يغِلُّ(٢) عليـــهنّ قلـــب امرئ مسلم : إخلاص العمل لله ، والنّصح لأئمّة المسلمين ولزوم جماعتهم " (٣) .

وحديث أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : " إنّ اللّه لا ينظـــر إلـــى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم " (٤) .

---

(١) سنن النّسائي: بلفظه ـــ جزء من حديث ـــ في كتاب الجهاد: (٢٥). باب من غزا يلتمس الأجـــر والذّكـــر: (٢٤). برقم:(٣١٤٠) . قال الألباني (رحمه الله): " حسن صحيح ". ص: ٣٣٢.
معجم الطّبراني الكبير: بلفظ مقارب في: ١٤٠/٨.

(٢) يغلّ : روي بوجهين: يُغِلُّ من الإغلال الّذي هو الخيانة. ويَغِلُّ من الغِل الّذي هو الحقد والضّغن والشّحناء.
قال الخطّابي: "إنّ هذه الخلال الثّلاث ممّا لا يخالج القلب ريب أنّهنّ بر وطاعة ، لأنّها من المعروف الّـــذي تعرفـــه النّفوس وتسكن إليه القلوب " . غريب الحديث للخطابي: ٥٨٥/١.
وقال الزّمخشري : " إنّ هذه الخلال يُستصلح بها القلوب ، فمن تمسّك بها طهر قلبه من الدّغل والفساد " . الفائق: ٧٢/٣.
و انظر : غريب الحديث للهروي: ١٩٩/١-٢٠٠. غريب الحديث لابن الجوزي :١٦١/٢.النّهاية في غريـــب الحديث : ٣٨١/٣.
وقال ابن القيّم (رحمه الله) :
" ثلاث لا يغلّ عليهنّ قلب مسلم : ... أي لا يبقى فيه غلّ ، ولا يحمل الغلّ مع هذه الثّلاثة بل تنفي عنـــه غلّه ، وتنقّيه منه ، وتخرجه عنه . فإنّ القلب يغلّ على الشّرك أعظم غلّ ، وكذلك يغلّ علـــى الغـــش ، وعلـــى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضّلالة . فهذه الثّلاثة تملؤه غلاً ودغلاً . ودواء هـــذا الغـــلّ واســـتخراج أخلاطه : بتجريد الإخلاص والنّصح ومتابعة السّنّة " . مدارج السّالكين : ٩٠/٢ .

(٣) هذا جزء من حديث : " نضر اللّه امرءاً ". وقد سبق تخريجه : ص : ٤٤٩-٤٥٠ . ولكن بهذا اللّفظ أورده ابـــن ماجه في سننه في المقدّمة . باب من بلّغ علماً : (١٨). برقم: (٢٣٠) . ص: ٤٠.

(٤) صحيح مسلم: بلفظه في : في كتاب البر والصّلة والآداب: (٤٥). باب تحريم ظلـــم المســـلم : (١٠). برقـــم: (٢٥٦٤). ١٩٨٧/٤.

فالإخلاص غاية عظمى ، وهدف سامٍ . وهو شرط في صحّة الأعمال ، فلا يقبل اللّه من أحد صرفاً ولا عدلاً ما لم يؤسّس عمله عليه ، بل تذهب أعماله أدراج الرّياح إذا فقد هذا الشّرط .

وفي ذلك يقول الحقّ سبحانه : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان:٢٣] (١) .

والدّعاة إلى اللّه في أمسّ الحاجة إليه ليضمنوا سلامة دعوتهم من العطب ، وصفاءها من الكدر ، ونقاءها من الدّنس ، كَيْ تَزْكُو وتَطْهر ، ويشعّ نورها ، وينصع طيبها .

وقد لفت اللّه انتباههم إليه كي يصطحبوه في دعوتهم ولا يغفلوا عنه أبداً . فقال سبحانه : ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [النساء:١١٤].

قال الرّازي(رحمه الله):

" هذه الأقسام الثّلاثة من الطّاعات وإن كانت في غاية الشّرف والجلالة إلاّ أنّ الإنسان إنّما ينتفع بها إذا أتى بها لوجه اللّه ، ولطلب مرضاته ، فأمّا إذا أتى بها للرّياء والسّمعة انقلبت القضية فصارت من أعظم المفاسد . وهذه الآية من أقوى الدّلائل على أن المطلوب من الأعمال الظّاهرة رعاية أحوال القلب في إخلاص النّيّة ، وتصفية الدّاعية عن الالتفات إلى غرض سوى طلب رضوان اللّه " (٢) .

---

(١) الهباء : الشّيء المنبث الّذي تراه في البيت من ضوء الشّمس شبيها بالغبار . وقوله عزّ وجلّ : ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان:٢٣] تأويله : أنّ الله أحبط أعمالهم حتّى صارت بمنزلة الهباء المنثور . لسان العرب: ٣٥١/١٥. و انظر : المفردات: ص: ٥٣٦.

(٢) التّفسير الكبير : ٤١/١١-٤٢ .

ولذا كان رسل اللّه عليهم السّلام وهم سادة الدّعاة وأئمّتهم قد ضربوا بعطَن[1] في أمر الإخلاص والتّجرّد إلى اللّه . حملوا الدّعوة صافية نقيّة ، لا تكدّرها كدرة ، ولا تشوبها شائبة ، ولم يطلبوا بها هدفاً رخيصاً ولا غاية حابطة ، إذ كان همّهم أن يُبلّغوا دين اللّه إلى العباد ، وينقذوا البشريّة من مهاوي الرّدى ، وينتشلوها إلى برّ الأمان . فلم يبتغوا بها من النّاس مالاً ولا مكانة ولا جاهاً .

وهذا سرّ قولهم عليهم السّلام لأممهم : لا نسألكم أجراً ، ولا نطلب منكم على دعوتنا ثمناً ، وإنّما الرّب سبحانه هو الّذي تكفّل بأجرنا ومثوبتنا .

وقد قرّر اللّه هذه الحقيقة وكرّرها مع كلّ الرّسل [2] ، ليزهّد الدّعاة فيما عند النّاس من مصالح دنيويّة ، وأهداف ثانويّة تصرفهم عن هدفهم الأصيل ، وغايتهم العظمى ، وهمّهم الأكبر ، وهو حمل دعوة اللّه ونشرها في الآفاق ، وتقديمها على المصالح الخاصّة .

وليكون قصدهم وجه اللّه والدّار الآخرة ، ونصرة دينه وإعلاء كلمته ، لا اللّهث وراء الدّنيا والسّعي خلف بريقها . فإنّه من استهوته هوى إليها . واللّه سبحانه يقول : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٦ ﴾ [هود:١٥-١٦].

---

(١) العَطَنُ للإبل كالوطن للنّاس ، وقد غلب على مبركها حول الحوض ، و المَعْطَن كذلك ، والجمع أعطان .

يقال : ضربت الإبل بعطن : إذا رويت ثمّ بركت حول الماء ، أو عند الحياض لتعاد إلى الشّرب مرّة أخرى لتشرب . لسان العرب: ٢٨٦/١٣. بتصرّف.

ويقال:ضربوا بعطن : إذا رووا ثمّ أقاموا على الماء . القاموس المحيط: ص: ١٥٦٩. بتصرّف يسير.

والمراد أنّهم بلغوا في الإخلاص مبلغاً عظيماً وارتووا منه ، حيث لامزيد على ذلك.

(٢) انظر :الآيات : الأنعام : (٩٠) . هود : (٢٩)(٥١) . الشّعراء : (١٠٩)(١٢٧)(١٤٥)(١٦٤)(١٨٠) . سبأ : (٤٧) . يس : (٢١) . الشّورى : (٢٣) .

ويقبح بالدّاعيةِ الّذي مَنّ اللّه عليه بنعمة العلم لكي يصلح نفسه وغـيره ، أن يوجّه تلك النّعمة لنيل متاع زائل ودنيا فانية .

ولذا حَذّرَ النّبي ﷺ هذا الصّنف من الدّعاة أيّما تحذير فقال في حديث أبي هريرة رضي الله عنه : " مَنْ تعلّمَ علماً مِمّا يُبْتَغَى به وَجْهُ اللّهِ ، لا يتعلّمُهُ إلاّ ليصيبَ به عَرَضاً من الدّنيا لم يجدْ عَرْفَ الجنّةِ يومَ القيامةِ – يعني ريحَها " [1] .

وقال في حديث كعب بن مالك رضي الله عنه : " من طلب العلم ليُجَارِيَ [2] به العلماءَ ، أو ليُماريَ [3] به السّفهاءَ ، أويصرف به وجوه النّاسَ إليه أدخلهُ اللّهُ النّار " [4] .

---

(١) سنن أبي داود: بلفظه ـــ إلاّ إنّه قال: " وجه اللّه عزّ وجلّ " ـــ في كتاب العلم: (٢٤). باب في طلب العلم لغير اللّه تعالى: (١٢). برقم: (٣٦٦٤). قال الألباني (رحمه الله): " صحيح ". ص: ٤٠٥.

سنن ابن ماجه: بلفظه في : المقدّمة. باب الانتفاع بالعلم والعمل به: (٢٣). برقم: (٢٥٢). قال الألباني (رحمه الله): " صحيح ". ص: ٤٢.

مسند أحمد: بلفظه ـــ إلاّ إنّه قال : " قال سريج في حديثه: يعني ريحها" ـــ ٣٣٨/٢. قال أحمد شاكر (رحمه الله): " إسناده صحيح ". برقم: (٨٤٣٨). مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٩٣/١٦.

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: بلفظه في : باب ذكر وصف العلم الّذي يتوقّع دخول النّار في القيامة لمن طلبه. و لم يذكر : " يعن ريحها". برقم: (٧٨). قال شعيب الأرناؤوط : " حديث صحيح". ٢٧٩/١.

مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في: ١٦٠/١. وقال : " هذا حديث صحيح سنده ، ثقات رواته على شرط الشّيخين و لم يخرجاه". وقال الذّهبي (رحمه الله): " على شرطهما".

مسند أبي يعلى: بلفظه ـــ دون الزّيادة الأخيرة ـــ برقم: (٦٣٧٣). قال المحقّق: "إسناده حسن". ٢٦٠/١١.

وقال الألباني (رحمه الله): " حديث صحيح " . اقتضاء العلم العمل : ص : ١٩٤ هامش (١٠٢) .

(٢) قال ابن الأثير (رحمه الله) :

"من طلب العلم ليجاري به العلماء : أي يجرى معهم في المناظرة والجدال ليظهر علمه إلى النّاس رياء وسمعة". النّهاية في غريب الحديث :٢٦٤/١.

(٣) من المماراة وهي المجادلة على وجه الشّك والرّيب. انظر : النّهاية في غريب الحديث : ٣٢٢/٤. و انظر : غريب الحديث للهروي: ١١/٢. الفائق: ٣٥٦/٣. غريب الحديث لابن الجوزي: ٣٥٤/٢-٣٥٥.

(٤) سنن التّرمذي: بلفظه في : كتاب العلم: (٣٨). باب ما جاء فيمن يطلب بعلمه الدّنيا : (٦). برقم: (٢٦٥٤). وقال : " هذا حديث غريب". و قال الألباني (رحمه الله): " حسن". ص: ٤٣٠.

وليس بمستعجب أن يكون هؤلاء في أوّل من تسعّر بهم جهنّم .

فعن أبي هريرة ﷺ قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : " إنّ أوّل النّاس يُقضى يومَ القيامة عليه – فذكر رجلاً استُشْهِد ... ثمّ قال – ورجل تعلّم العلم وعلّمه وقرأ القرآنَ ، فأُتيَ به فعرّفَهُ نِعَمَهُ فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلّمتُ العلمَ وعلّمتُهُ ، وقرأتُ فيك القرآنَ . قال : كذبت ، ولكنّك تعلّمت العلمَ ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ ، فقد قيل . ثمّ أُمر به فسُحب على وجهه حتّى أُلْقِيَ في النّار ... الحديث " . ثمّ ذكر المنفق [1] .

ومن هنا جاء تحذير أهل العلم للدّعاة أن يكون همّهم من علمهم أن يعمّروا به دنياهم ، ولا ينصرون به دعوة اللّه ، ولا يبلّغونه إلى عباد اللّه .

سنن ابن ماجه: بلفظ مقارب في: المقدّمة. باب الانتفاع بالعلم والعمل به: (٢٣).عن ابن عمر (رضي الله عنهما) برقم: (٢٥٣). و عن أبي هريرة ﷺ برقم: (٢٦٠). و نحوه عن جابر بن عبد اللّه (رضي الله عنهما) برقم: (٢٥٤). وحذيفة ﷺ برقم: (٢٥٩). قال الألباني (رحمه الله) عن حديث أبي هريرة وابن عمر وحذيفة ﷺ : " حسن". وعن حديث جابر ﷺ : "صحيح ". ص: ٤٢-٤٣.

سنن الدّارمي : بلفظ مقارب في: باب التّوبيخ لمن يطلب العلم لغير اللّه. عن مكحول (رحمه الله) مرسلاً ، وموقوفاً عليه. ١/١١٦. و نحوه في: باب العمل بالعلم وحسن النّيّة فيه. عن ابن مسعود ﷺ موقوفاً عليه. ١/٩٢.

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: نحوه في: باب ذكر وصف العلم الّذي يتوقّع دخول النّار في القيامة لمن طلبه . عن جابر ﷺ برقم : (٧٧). ١/١٧٨ . قال شعيب الأرناؤوط : " رجاله ثقات رجال الصّحيح".

مستدرك الحاكم: نحوه عن جابر ﷺ ، وعن ابن جريج (رحمه الله) مرسلاً. ١/١٦١.

معجم الطّبراني الكبير: نحوه في: ٢٠/٦٦. عن معاذ ﷺ . وفي: ٢٣/٢٨٤. عن أمّ سلمة (رضي الله عنها).

(١) صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإمارة : (٣٣). باب من قاتل للرّياء والسّمعة استحقّ النّار: (٤٣). برقم: (١٩٠٥). ٣/١٥١٤ .

قال النّووي (رحمه الله) :

" قوله ﷺ في الغازي والعالم والجوّاد وعقابهم على فعلهم ذلك لغير اللّه وأدخالهم النّار ، دليل على تغليظ تحريم الرّياء ، وشدّة عقوبته ، وعلى الحثّ على وجوب الإخلاص في الأعمال " .

شرح النّووي على مسلم : ١٣/٥٠-٥١

قال لقمان (رحمه الله) لابنه :

" يا بنيّ لا تتعلّم العلم لثلاث ، ولا تدعه لثلاث ، لا تتعلّمه لتماري بـــه ، ولا لتباهي به ، ولا لترائي به ، ولا تدعه زهادة فيه ، ولا حياء من النّاس ، ولا رضـــاً بالجهالة " [١] .

قال الحسن (رحمه الله) :

" من طلب العلم ابتغاء الآخرة أدركها ، ومن طلب العلم ابتغاء الدّنيا فهو حظّه منها " [٢] .

وقال أبو حاتم بن حبّان (رحمه الله) :

" العاقل لا يبيع حظّ آخرته بم قصد في العلم ، لما يناله من حطام هذه الدّنيا ، لأنّ العلم ليس القصد فيه نفسه دون غيره ، لأنّ المبتغى من الأشياء كلّها نفعـــها لا نفسها ، والعلم ونفع العلم شيئان ، فمن أغضى عن نفعه ، لم ينتفع بنفســـه ، وكـــان كالّذي يأكل ولا يشبع " [٣] .

وقال الزّمخشري :

" وليجعلوا غرضهم ومرمى همّتهم في التّفقه ، إنـــذار قومـــهم وإرشـــادهم ، والنّصيحة لهم ، لا ما ينتحيه الفقهاء من الأغراض الخسيسة ، ويؤمّونه من المقاصد الرّكيكة ، من التّصدّر والتّروّس والتّبسيط في البلاد ، والتّشبّه بالظّلمة في ملابســـهم ومراكبهم ، ومنافسة بعضهم بعضاً ، وفشوّ داء الضّرائر بينهم ، وانقلاب حماليق[٤]

---

(١) جامع بيان العلم : ص : ١٧٣ .

(٢) اقتضاء العلم العمل : ص : ١٩٤ .

(٣) روضة العقلاء : ص : ٤٣ .

(٤) حملاق العين : بالكسر والضّم وكعُصفور : باطن أجفانها الّذي يسودُّ بالكحلة ، أو ما غطّته الأجفان من بيـــاض المقلة ، أو باطن الجفن الأحمر الّذي إذا قلب للكحل رأيت حمرته ، أو ما لزق بالعين من موضع الكحل من بـــاطن.

أحدهم إذا لمح ببصره مدرسة لآخر ، أو شرذمة جثوا بين يديه . وتهالكه علـــى أن يكون موطّأ العقب(١) دون النّاس كلّهم . فما أبعد هؤلاء مـــن قولـــه عـــزّ وجـــلّ :

﴿ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ [القصص:٨٣] (٢) .

وقد بيّن الذّهبي (رحمه الله) تفاوت أهل العلم في قصدهم من طلبه فقال :

" فقد كان السّلف يطلبون العلم لله فنَبُلوا ، وصاروا أئمّة يقتدى بهم ، وطلبـــه قوم منهم أوّلاً لا لله ، وحصّلوه ، ثمّ استفاقوا ، وحاسبوا أنفسهم ، فجرّهم العلم إلـــى الإخلاص في أثناء الطّريق ... وقوم طلبوه بنيّة فاسدة لأجل الدّنيا ، وليُثْنَى عليـــهم ، فلهم ما نووا ... وترى هذا الضّرب لم يستضيئوا بنور العلم ، ولا لهم وقـــع فـــي النّفوس ، ولا لعلمهم كبير نتيجة من العمل ، وإنّما العالم من يخشى اللّه تعالى .

وقوم نالوا العلم ، وولّوا به المناصب ، فظلموا ، وتركـــوا التّقَيُّـــد بـــالعلم ، وركبوا الكبائر والفواحش فتبّاً لهم ، فما هؤلاء بعلماء ... إلخ " (٣) .

والجمع : حماليق . وحملق : فتح عينيه ونظر شديداً . القاموس المحيط : ص: ١١٣٢. انظـــر: لســـان العـــرب: ٦٩/١٠.

(١) أي كثير الأتبـــاع . بـــأن يكـــون ســـلطاناً ، ومقدّمـــاً ، أو ذا مـــال ، فيتبعـــه النّـــاس ويمشـــون وراءه . لسان العرب : ٢٠٠/١.

(٢) الكشّاف : ٢٢١/٢ . في تفسير الآية (١٢٢) من التّوبة . الطّبعة الحلبية .

(٣) سير أعلام النّبلاء : ١٥٢/٧-١٥٣ .

لّما ولي إسماعيل بن عُليّة (رحمه الله) على العشور أو الصّدقات كتب إلى عبد الله بن المبارك (رحمه الله) يستمدّه برجال من القرّاء يعينونه على ذلك . فكتب إليه عبدالله بن المبارك (رحمه الله) :

يا جاعل العلـــم له بازياً ******* يصطاد أموال المســـاكين
احتلت للدّنيـــا ولذّاتهـــا ******* بحيلة تذهـــب بالدّيـــن
فصـــرت مجنوناً بها بعدما ******* كنت دواء للمـــجانيـــن
أين رواياتك فيما مضـــى ******* عن ابن عون وابن سيرين
ودرســـك العلـــم بآثاره ******* وتركك أبواب السّلاطين
تقولوا أكرهت فماذا كذا ******* زلّ حمار العلـــم في الطّين . جامع بيان العلم : ص : ٢٥٨ .

وبعد هذا يتبيّن لنا أنّ الدّاعيةَ المخلصَ هو الّذي يقصد من دعوته التّقرّب إلى اللّه ، ونصرة دينه ، ونصح عباده ، وهو يحبّ لدين اللّه أن يعلو ، وأن يمتثل العباد لأوامر اللّه ، ويجتنبوا نواهيه . فلا يرضيه إلاّ ما يرضي ربّه ، ولا يغضبه إلاّ ما يغضب ربّه . لاحظّ لنفسه في دعوته ، فهو لا يستهويه المال ، ولا يغرّه المنصب ، ولا تستفزّه الشّهرة ، ولا تجذبه القيادة ، ولا تدفعه الشّهوة ، ولا ترغّبه الشّهادة ، ولا يحثّه الطّمع ، ولا يسعى لمدح النّاس وثنائهم ومحمدتهم ، ولا تستخفّه المجاملة والمحاباة فيُرْضي غيره على حساب دعوته . وهو بعيد عن الرّياء والعُجْب وحبّ السّمعة والظّهور .

فهذه كلّها آفات وغيرها الكثير تنافي الإخلاص . ومتى ما تطرّق منها شيء إلى قلب الدّاعية ونفسه دبّ فيه الخمول ، وانتابته العلل ، وداخله الكسل ، وارتبطت الدّعوة عنده بالمصلحة فإذا وجدها دعا ، وإن حرمها سكت ، وأبطأ به السّير ، وخاب سعيه . لأنّ دعوته لم تنبع من صميم قلبه ولا من صدق نفسه ، فهي آيلة إلى السّقوط والهوي . إذ الدّعوة النّابعة عن إخلاص يجد صاحبها عزيمة لا تَفُلّ ، وقوّة لا تنهار ، فيتمادى بها إلى آخر رمق من حياته ، يكلؤها الصّبر ويحفّها الثّبات ، ويحيط بها الصّدق ، ويدفعها اليقين .

ودعوة هذا شأنها لا تخبو ، وداعية هذا وصفه لا يخفق ، لأنّه لا ينتابه الكلل ، ولا يوقفه الملل ، ولا تحلّ به السّآمة ، ولا يثبّطه اليأس .

وانظر : روضة العقلا : ص : ٤٩-٥١ .

وقد علّل ابن القيّم (رحمه الله) سبب تحذير أولئك الفضلاء ، فقال :

" كلّ من آثر الدّنيا من أهل العلم واستحبّها فلابد أن يقول على اللّه غير الحقّ في فتواه وحكمه ، في خبره وإلزامه ، لأنّ أحكام الرّب سبحانه كثيراً ما تأتي على خلاف أغراض النّاس ، ولاسيّما أهل الرّياسة والّذين يتّبعون الشّبهات ، فإنّهم لا تتم لهم أغراضهم إلاّ بمخالفة الحقّ ودفعه كثيراً . فإذا كان العالم والحاكم محبّين للرّياسة متّبعين للشّهوات لم يتم لهم ذلك إلاّ بدفع ما يضادّه من الحقّ ، ولاسيّما إذا قامت له شبهة ، فتتّفق الشّبهة والشّهوة ويثور الهوى فيخفى الصّواب وينطمس وجه الحقّ ، وإن كان الحقّ ظاهراً لا خفاء به ولا شبهة فيه أقدم على مخالفته وقال : لي مخرج التّوبة " . الفوائد : ص : ١٠٠ .

المبحث الخامس

مراعاة المصالح والمفاسد

إنّ الإنسان بطبعه مهما بلغ من علم ونبوغ وحصافة وذكاء لا يمكنه أبداً أن يحيط بجميع جوانب الإصلاح في هذه الحياة لعجزه وضعفه وجهله .

والّذي تفرّد بعلم مصالح العباد دون سواه هو العليم الخبير سبحانه ، لأنّه الخالق ، فهو عالم بحاجة خلقه . ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك:١٤].

ولذا أرسل الرّسل وأنزل الكتب وشرع الشّرائع لإرشاد عباده إلى ما يصلحهم ، وتحذيرهم ممّا يفسدهم .

قال الشّاطبي (رحمه الله) :

" إنّ وضع الشّرائع إنّما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل معاً " [١] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" إنّ الشّريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، وأنّها ترجّح خير الخيرين وشرّ الشّرّين ، وتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما ، وتدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما " [٢] .

وهذا سرّ تعليل الشّارع لكثير من الأحكام وربطها بعللها ليبيّن ما تنطوي عليه تلك الأحكام من مصالح .

فقال في تقرير التّوحيد : ﴿ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٧٢].

---

(١) الموافقات : ٢/٢ .

(٢) مجموع الفتاوى : ٤٨/٢٠ .

وقال عقب آية الوضوء : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [المائدة:٦]

وقال في الصلاة : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت:٤٥] .

وقال في شأن القبلة : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ [البقرة:١٥٠] .

وقال في الصيام : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة:١٨٣] .

وقال في الجهاد : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الحج:٣٩] .

وقال في القصاص : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [البقرة:١٧٩] (١) .

فالشّريعة جاءت بتحقيق المصالح وتحصيلها ، وتفويت المفاسد وتعطيلها .

هذا حين تنفرد المصالح أو المفاسد من غير تعارض بينهما.

وأمّا متى ما تعارضت المصالح والمفاسد وتزاحمت الحسنات والسّيّئات فإنّه وجب حينئذ تقديم الرّاجح منهما(٢) .

والأصل في ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام:١٠٨].

---

(١) وانظر : الموافقات : ٣/٢ .

(٢) انظر : الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر : ص : ٢٢-٢٣ . مجموع الفتاوى : ١٢٩/٢٨ .

يقول ابن كثير (رحمه الله) :

" يقول اللّه تعالى ناهياً لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سبّ آلهة المشركين ، وإن كان فيه مصلحة ، إلاّ أنّه يترتّب عليه مفسدة أعظم منها ، وهي مقابلـــة المشـــركين بسبّ إله المؤمنين " [1] .

وقد عقد البخاري (رحمه الله) في صحيحه باباً من كتاب العلم قال فيه :

" من ترك بعض الاختيار مخافة أن يَقْصُرَ فهم بعض النّاس عنه فيقعوا فـــي أشدّ منه " . ثمّ روى بسنده إلى عائشة (رضي الله عنها) قالت : قال النّبيّ ﷺ : " يـا عائشةُ لو لا قومُك حديثٌ عهدُهم – قال ابن الزّبير : بكفرٍ – لنقضتُ الكعبةَ فجعلـتُ لها بابين بابٌ يدخلُ النّاسُ ، وبابٌ يَخْرُجُونَ " [2] – ففعله ابن الزّبير – .

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) :

" وفي الحديث معنى ما ترجم له لأنّ قريشاً كانت تعظّم أمر الكعبـــة جـدّاً ، فخشي ﷺ أن يظنّوا لأجل قرب عهدهم بالإسلام أنّه غيّر بناءها لينفرد بالفخر عليهم في ذلك . ويستفاد منه ترك المصلحة لأمن الوقوع في المفسدة ، ومنه ترك إنكـــار المنكر خشية الوقوع في أنكر منه " [3] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٢/٢٦٢ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب العلم : (٣). باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض النّـــاس عنــه فيقعوا في أشدّ منه: (٤٨). برقم: (١٢٦). ص: ٤٦. و نحوه في: كتاب الحجّ: (٢٥/٨). باب فضل مكّـــة وبنيانهـــا: (٤٢). برقم: (١٥٨٣–١٥٨٦).ص: ٣٣٤. وفي كتاب أحاديث الأنبيـــاء: (٦٠/٣٦). بـــاب : (١٠/١١). برقـــم: (٣٣٦٨). ص: ٧١٠. وفي كتاب التّفسير: (٦٥/٩٣). باب قوله تعـــالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ ﴾ [البقرة:١٢٧] : (١٠). برقم: (٤٤٨٤). ص: ٩٣٣. وفي كتاب التّمنّي: (٩٤/٦٩). باب ما يجوز مـــن اللّو : (٩). برقم: (٧٢٤٣). ص: ١٥٢٤–١٥٢٥.

صحيح مسلم: نحوه في: كتاب الحجّ : (١٥). باب نقض الكعبة وبنائها: (٦٩). برقم: (١٣٣٣). ٢/٩٦٩–٩٧١.

(٣) فتح الباري : ١/٣٠٣ .

وقال النّووي (رحمه الله) :

" في هذا الحديث دليل لقواعد من الأحكام ، منها : إذا تعارضت المصالح ، أو تعارضت مصلحة ومفسدة ، وتعذّر الجمع بين فعل المصلحة وترك المفسدة بدئ بالأهمّ ، لأنّ النّبي ﷺ أخبر أنّ نقض الكعبة وردّها إلى ما كانت عليه من قواعد إبراهيم ﷺ مصلحة ولكن تعارضه مفسدة أعظم منه وهي خوف فتنة بعض من أسلم قريباً وذلك لما كانوا يعتقدونه من فضل الكعبة فيرون تغييرها عظيماً فتركها ﷺ " [١] .

وعن أنس بن مالك ﷺ قال : " جاء أعرابيٌّ فبال في طائفةِ المسجد ، فزجره النّاسُ ، فنهاهم النّبيُّ ﷺ فلمّا قضى بوله . أمر النّبيُّ ﷺ بِذَنُوبٍ[٢] من ماءٍ فَأُهْرِيقَ[٣] عليه " [٤] .

إنّ بول الأعرابي في المسجد مفسدة محقّقة لأنّه تلويث لجزء من المسجد بالنّجاسة وذلك منكر ، ومع هذا نهى النّبي ﷺ الصّحابة عن منعه ، لأنّه لو منع إمّا

---

(١) شرح النّووي على مسلم : ٨٩/٩ . وانظر : عمدة القارئ : ٢٠٤/٢ .

(٢) الذّنوب: هي الدّلو . غريب الحديث لابن قتيبة: ٣٨٨/١.

وقال ابن الأثير: " الذّنوب الدّلو العظيمة . وقيل : لا تسمّى ذنوباً إلاّ إذا كان فيها ماء" .

النّهاية في غريب الحديث : ١٧١/٢.

(٣) أهريق : يقال: هَرَاقَ الماء يُهَرِيقُه بفتح الهاء هِرَاقة بالكسر صبّه . وأصله أرَاق يُريق إراقة .وفيه لغة أخرى أَهْرَق الماء يُهْرِقُه إهْرَاقاً على أفْعَل يُفْعِل .وفيه لغة ثالثة أهْرَاق يُهْرِيق إهْرَاقة فهو مُهْرِيق والشّيء مُهْرَاق و مُهَرَاق أيضاً بفتح الهاء . مختار الصّحاح: ص: ٦٩٤. و انظر : لسان العرب : ١٠/ ٣٦٧.

(٤) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الوضوء : (٤). باب يهريق الماء على البول : (٦٢/٥٨). ص: ٦٤-٦٥.
و نحوه في: باب ترك النّبي ﷺ والنّاس الأعرابي حتّى فرغ من بوله في المسجد : (٦٠/٥٧). برقم: (٢١٩). عن أنس ﷺ . ص: ٦٤. وفي باب صبّ الماء على البول في المسجد: (٦١/٥٨). برقم: (٢٢٠). عن أبي هريرة ﷺ . ص:٦٤. وفي كتاب الأدب: (٥٢/٧٨). باب الرّفق في الأمر كلّه: (٣٥). برقم: (٦٠٢٥). عن أنس ﷺ . ص: ١٢٩٣. وفي باب قول النّبي ﷺ : " يسروا ولا تعسروا" : (٨٠). برقم: (٦١٢٨). عن أبي هريرة ﷺ . ص: ١٣١١.
صحيح مسلم: نحوه في: كتاب الطّهارة: (٢). باب وجوب غسل البول وغيره من النّجاسات : (٣٠). برقم: (٢٨٥). عن أنس ﷺ . ٢٣٧/١.

أن يقطع بوله فيتضرّر ، أو لا يقطعه فلا يأمن حينئذ من تنجّس بدنـــه أو ثوبـه أو انتشار البول في المسجد وذلك مفسدة أعظم .

قال العيني (رحمه الله) :

" فيه دفع أعظم المفسدتين باحتمال أيسرهما ، وتحصيل أعظم المصلحتيـــن بترك أيسرهما . فإنّ البول فيه مفسدة ، وقطعه على البائل مفسدة أعظم منها ، فدفـع أعظمها بأيسر المفسدتين . وتنزيه المسجد عنه مصلحة ، وترك البائل إلى الفـــراغ مصلحة أعظم منها ، فحصل أعظم المصلحتين بترك أيسرهما " [١] .

وعن عبد اللّه بن عبّاس (رضي الله عنهما) قال : " أقبلت راكباً على حمـــار أتان[٢] – وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام – ورسول اللّه ﷺ يصلّي بمنى إلــى غـير جدار ، فمررت بين يدي بعض الصّف ، وأرسلت الأتـــان ترتــع ، فدخلــت فــي الصّف ، فلم ينكر ذلك عليّ " [٣] .

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) :

" فيه جواز تقديم المصلحة الرّاجحة على المفســدة الخفيفــة ، لأنّ المــرور مفسدة خفيفة ، والدّخول في الصّلاة مصلحة راجحة " [٤] .

فمن هذه النّصوص وأقوال من سبق من أهل العلم عنها تتبيّن لنا جوانب هـذه القاعدة المهمّة .

---

(١) عمدة القارئ : ١٢٧/٣ . وانظر : فتح الباري : ٤٣٣/١ . نيل الأوطار من أحاديث سيّد الأخيار شرح منتقى الأخبار . لمحمّد بن علي الشّوكاني . نشر : دار الجيل . بيروت . ١٨٧٣م : ٥٢/١ .

(٢) حمار أتان : الحمار يقع على الذّكر والأنثى ، والأتان الحمارة الأنثى خاصّة ولا يقال فيها : أتانة وإن كان قـــد جاء في بعض الحديث . النّهاية في غريب الحديث : ٢١/١. بتصرّف.

(٣) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب العلم : (٣). باب متى يصحّ سماع الصّغير : (١٨). برقـــم: (٧٦). ص: ٣٤. و بلفظ مقارب في: كتاب الصّلاة: (٨/٥). باب سترة الإمام سترة من خلفه : (٩٠). برقم: (٤٩٣). ص: ١١٩. وفي كتاب الأذان : (١٠/٥). باب وضوء الصّبيـــان : (٣١٢/١٦١). برقـــم: (٨٦١). ص: ١٨٨. وفي كتاب جزاء الصّيد (الحجّ) : (٢٨/٨). باب حجّ الصّبيان: (٢٠٧/٢٥). برقم: (١٨٥٧). ص: ٣٨٨. و نحـــوه في: كتاب المغازي : (٣٨/٦٤). باب حجّة الوداع: (٧٨/٧٧). برقم: (٤٤١٢). ص: ٩١٧.

صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب الصّلاة: (٤). باب سترة المصلّي : (٤٧). برقم: (٥٠٤). ٣٦١/١.

(٤) فتح الباري : ٢٣١/١ .. وانظر : عمدة القارئ : ٧٠/٢ .

ففي آية الأنعام وحديث عائشة (رضي الله عنها) : تـــرك المصلحـــة لأجـــل مفسدة أعظم منها .

وفي حديث أنس ﷺ : دفع أعظم المفسدتين باحتمال أيسرهما ، أو تحصيـــل أعظم المصلحتين بترك أيسرهما .

وفي حديث ابن عبّاس (رضي الله عنهما) : فعل المفسدة الخفيفة مـــن أجـــل مصلحة راجحة .

ولقد انبرى شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) في إيضاح تطبيق هذه القاعدة العظيمة في أمر الدّعوة إلى اللّه بكلامٍ رصين أجاد ســـبكه ، وأحســـن صياغتـــه ، وأوضح جوانبه ، وأجلى غموضه ، وبيّنه للدّعاة إلى اللّه أتمّ بيان حيث لم يترك مـــا يحوجهم فيه إلى غيره ، فقال (رحمه الله) :

" فإنّ الأمر والنّهي – وإن كان متضمّناً لتحصيل مصلحة ودفـــع مفســـدة – فينظر في المعارض له . فإن كان الّذي يفوت من المصالح ، أو يحصل من المفاسد أكثر ، لم يكن مأموراً به ، بل يكون محرّماً إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته ...

وعلى هذا إذا كان الشّخصُ والطّائفةُ جامعين بين معروف ومنكر ، بحيـــث لا يفرّقون بينهما ، بل إمّا أن يفعلوهما جميعاً ، أو يتركوهما جميعـــاً ، لـــم يجـــز أن يُؤمروا بمعروف ولا أن يُنهوا عن منكر . بل ينظر ، فإن كان المعروف أكثر أمـــر به ، وإن استلزم ما هو دونه من المنكر . ولم ينه عن منكر يستلزم تفويت معـــروف أعظم منه . بل يكون النّهي حينئذ من باب الصّدّ عن سبيل اللّه ، والسّعي فـــي زوال طاعته وطاعة رسوله ﷺ ، وزوال فعل الحسنات .

وإن كان المنكر أغلب ، نُهي عنه . وإن استلزم فوات ما هـــو دونـــه مـــن المعروف ، ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزّائد عليه أمراً بمنكـــر ، وسعياً في معصية اللّه ورسوله . وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان لم يؤمـــر بهما ولم ينه عنهما .

فتارة يصلح الأمر ، وتارة يصلح النّهي . وتارة لا يصلح أمر ولا نهي حيـــث كان المعروف والمنكر متلازمين – وذلك في الأمور المعيّنة الواقعة – .

وأمّا من جهة النّوع فيؤمر بالمعروف مطلقاً وينهى عن المنكر مطلقاً .

وفي الفاعل الواحد والطّائفة الواحدة يؤمر بمعروفها وينهى عن منكرها ، ويحمد محمودها ، ويذمّ مذمومها ، بحيث لا يتضمّن الأمر بمعروف فوات معروف أكبر منه ، أو حصول منكر فوقه . ولا يتضمّن النّهي عن المنكر حصول ما هو أنكر منه ، أو فوات معروف أرجح منه .

وإذا اشتبه الأمر استبان المؤمن حتّى يتبيّن له الحقّ ، فلا يقدم على الطّاعة إلاّ بعلم ونيّة ، وإذا تركها كان عاصياً . فترك الواجب معصية ، وفعل ما نهي عنه من الأمر معصية . وهذا باب واسع . ولا حول ولا قوّة إلاّ باللّه " (١) .

۞ ومن هذا الباب أنّ النّبي ﷺ لم يقتل المنافقين الّذين آذوه وسمع منهم في غير موطن ما يكرهه . وعلّة ذلك خشيته أن يتحدّث النّاس أنّه يقتل أصحابه فينفرون .

فعن جابر بن عبد اللّه (رضي الله عنهما) قال : أتى رجلٌ رسولَ اللّه ﷺ بالجِعرانة (٢) مُنْصَرَفَهُ من حنين(٣) ، وفي ثوب بلال فضّة ، ورسول اللّه ﷺ يقبض منها ، يعطي النّاس . فقال : يا محمّد اعدل . قال : " ويلك ، ومن يعدل إذ لم أكن أعدل ؟ لقد خبتَ وخسرتَ إن لم أكن أعدل " . فقال عمر بن الخطّاب ﷺ : دعني يا رسول اللّه فأقتل هذا المنافق . فقال : " معاذ اللّه أن يتحدّث النّاسُ أنّي أقتل

---

(١) الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر . ص : ٢٣-٢٤ . مجموع الفتاوى : ٢٨/١٢٩-١٣١ .

(٢) الجعرانة : بكسر أوله إجماعاً . أهل الحديث يكسرون عينه ويشدّدون راءه . وأهل الإتقان والأدب يخطئوهم ويسكّنون العين ويخفّفون الرّاء . وقد حكي عن الشّافعي أنّه قال : "المحدّثون يخطئون في تشديد الجعرانة وتخفيف الحديبية ". وكلاهما روايتان جيّدتان . وهي ماء بين الطّائف ومكّة وهي إلى مكّة أقرب . نزلها النّبي ﷺ لّما قسم غنائم هوازن مرجعه من غزاة حنين ، وأحرم منها ﷺ وله فيها مسجد ، وبها بئار متقاربة . معجم البلدان : ٢/١٤٢ . بتصرّف. و انظر : معجم ما استعجم : ١/ ٣٨٤.

(٣) حُنَين : هو واد قريب من الطّائف بينه وبين مكّة بضعة عشر ميلاً . والأغلب عليه التّذكير لأنّه اسم ماء . وربما أنّثته العرب لأنّه اسم للبقعة . وهو الموضع الّذي هزم فيه رسول اللّه ﷺ هوازن . وقيل : إنّه سمّي بحنين بن قاينة بن مهلائيل .

معجم ما استعجم: ١/ ٤٧١-٤٧٢. بتصرّف. و انظر : معجم البلدان : ٢/ ٣١٣.

أصحابي . إنّ هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون منه كما يمرق السّهم من الرّميّة [(١)] " [(٢)] .

ﷺ ومنه تحذير الصّحابة والتّابعين وأهل العلم من التّحديث ببعض الأحاديث الّتي يفهم منها خلاف المقصود . وقد يؤدّي ما فهم منها إلى مفسدة أعظم من السّتر عليها .

قال عبد الله بن مسعود ﷺ :

" ما أنت بمحدّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلاّ كان لبعضهم فتنة " [(٣)] ..

والفتنة هنا : الضّلال والحيرة [(٤)] .

وقال عليّ ﷺ :

" حَدِّثُوا النّاسَ بما يعرفون ، أتحبّون أن يكذّب اللّه ورسوله " [(٥)] .

---

(١) الرّميّة : هي الصّيدة الّتي يرميها الصّائد . وتطلق على كلّ دابّة مرميّة. و انظر : غريب الحديث للهروي: ١٦٦/١. غريب الحديث لابن الجوزي: ٤١٧/١.النّهاية في غريب الحديث : ٢٦٨/٢.

قال ابن الأثير (رحمه الله) : " يمرقون من الدّين مروق السّهم من الرّميّة : يريد أنّ دخولهم في الإسلام ثّم خروجهم منهم لم يتمسّكوا منه بشيء كالسّهم الّذي دخل في الرّميّة ثّم نفذ فيها وخرج منها ، و لم يعلق به منها شيء " . النّهاية في غريب الحديث : ١٤٩/٢. و انظر : الفائق: ٣٥٥/٣.

(٢) صحيح البخاري: نحوه في: كتاب المناقب: (٣٧/٦١). باب علامات النّبوّة في الإسلام : (٢٥). برقم: (٣٦١٠). عن أبي سعيد ﷺ . ص: ٧٥٩.وفيه إنّ اسم الرّجل ذوالخويصرة من قبيلة تميم . وفي كتاب الأدب : (٥٢/٧٨). باب ما جاء في قول الرّجل :"ويلك" : (٩٥). برقم: (٦١٦٣). عن أبي سعيد ﷺ . ص: ١٣١٨. وفي كتاب استتابة المرتدّين : (٦٣/٨٨). باب من ترك قتال الخوارج للتّألف . وأن لا ينفّر النّاس عنه : (٧). برقم: (٦٩٣٣). عن أبي سعيد ﷺ . ص: ١٤٦٣.

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الزّكاة : (١٢). باب ذكر الخوارج وصفاتهم : (٤٧). برقم: (١٠٦٣). ٧٤٠/٢.ونحوه عن أبي سعيد ﷺ برقم: (١٠٦٤). ٧٤٤/٢.

وانظر شرح النّووي على مسلم : ١٥٨/٧-١٥٩ . والوصايا في الكتاب والسّنّة . للدّكتور : علي بن محمّد ناصر الفقيهي . المجموعة الرّابعة. الطبعة الأولى :١٤١٣هـ الجامعة الإسلاميّة بالمدينة . مركز شؤون الدّعوة . ص : ٦٥

(٣) سبق . انظر : ص : ٤٧٣ .

(٤) المفهم : ١١٨/١ .

(٥) سبق . انظر : ص: ٤٧٣ . وانظر : الجامع لأحاكم القرآن : ١٨٤/٢-١٨٥ . ذكر فيه بعض العلوم الّتي لا يحدّث بها . فتح الباري : ٣٠٤/١ .

وقال أبو قلابة رضي الله عنه :

" لا تحدّث بحديث من لا يعرفه ، فإنّ من لا يعرفه يضرّه ولا ينفعه " [١] .

وقال هشام بن عروة [٢] (رحمه الله) :

" ما حدّثت أحداً بشيءٍ من العلم قطّ لم يبلغه علمه إلاّ كان ضلالاً عليه "[٣] .

ويدخل في ذلك كتمان أبي هريرة رضي الله عنه لبعض الأحاديث الّتي تؤدّي بتبليغها إلى إثارة الفتنة . حيث يقول : " حفظت من رسول اللّه ﷺ وعاءين : فأمّا أحدهما فبثثته ، وأمّا الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم "[٤] .

وقد حمل العلماء ذلك على الأحاديث الّتي فيها تبيين أسماء أمراء السّوء ، وأحوالهم ، وزمنهم ، وليست من أحاديث الأحكام ، لأنّه لا يسعه كتمانها [٥] .

❁ ومن ذلك أيضاً أَمْرُ النّبيِّ ﷺ بالصّبر على جَوْرِ الأئمّة وظلمهم ، وعدم الخروج عليهم ما أقاموا الصّلاة . لما يترتّب عليه من مفاسد عظيمة تبلغ أضعاف ما ارتكبوه من مخالفات ومعاصي .

عن عُبادةَ بن الصّامتِ رضي الله عنه قال : دَعَانَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السّمْعِ وَالطّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةٍ [٦]

---

(١) جامع بيان العلم : ص : ٢١٣ .

(٢) هشام بن عروة بن الزّبير بن العوام . أبو المنذر وقيل : أبو عبد الله . القرشي الأسدي الزّبيري المدني. تابعي صغير. إمام حافظ . فقيه . حجّة ثبت . متقن كثير الحديث.من أهل الورع والفضل . وربما دلّس . توفي سنة: ١٤٦هـ .

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٣٢١/٧. طبقات خليفة: ص: ٢٦٧. التّاريخ الكبير: ١٩٣/٨. معرفة الثّقات: ٣٣٢/٢. الجرح والتعديل: ٦٣/٩. ثقات ابن حبّان: ٥٠٢/٥. مشاهير علماء الأمصار: ٨٠/١. تاريخ بغداد: ٣٧/١٤. التّعديل والتّجريح: ١١٧١/٣. تهذيب الكمال: ٢٣٢/٣٠. تذكرة الحفّاظ: ١٤٤/١. الكاشف: ٣٣٧/٢. جامع التّحصيل: ص: ٢٩٣. التّبيين لأسماء المدلّسين: ص: ٢٢٧. تهذيب التّهذيب: ٤٤/١١. تقريب التّهذيب: ٥٧٣/١. لسان الميزان: ٤١٩/٧. طبقات المدلّسين: ص: ٢٦.

(٣) جامع بيان العلم . ص : ٢١٣ .

(٤) سبق تخريجه . انظر : ص : ٢٩ .

(٥) انظر : فتح الباري : ٢٩٢/١-٢٩٣ .

(٦) الأثرة : بفتح الهمزة والثّاء الاسم من آثر يؤثر إيثاراً إذا أعطي . أراد أنّه يستأثر عليهم فيفضّل غيرهم في نصيبه من الفيء . والاستئثار الانفراد بالشّيء . النّهاية في غريب الحديث: ٢٢/١. بتصرّف يسير.

عَلَيْنَا وأَنْ لا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ قَالَ :" إلاّ أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا[1] عِنْدَكُمْ مِنَ اللّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ " [2] .

قال النّووي (رحمه الله) :

" ومعنى الحديث : لا تنازعوا وُلاَةَ الأمور في ولايتهم ، ولا تعترضوا عليهم إلاّ أن تَرَوْا منهم مُنْكَراً محقّقاً تعلمونه من قواعد الإسلام ، فإذا رأيتم ذلك فأنكروه عليهم[3] ، وقولوا بالحقّ حيث ما كنتم . وأمّا الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين ... وسبب عدم انعزاله وتحريم الخروج عليه ما يترتّب على ذلك من الفتن ، وإراقة الدّماء ، وفساد ذات البين ، فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه " [4] .

وعن أمّ سلمة (رضي الله عنها) زوج النّبي ﷺ عن النّبي ﷺ أنّه قال : " إنّه يستعمل عليكم أمراء ، فتعرفون وتنكرون ، فمن كره فقد برئ ، ومن أنكر فقد سلم ، ولكن من رضي وتابع " . قالوا : يا رسول اللّه : ألا نقاتلهم ؟ قال : " لا ، ما صلّوا " . أي من كره بقلبه وأنكر بقلبه [5] .

---

(١) بَواحاً : يريد ظاهراً بادياً . ومنه قولهم باح بالشّيء يبوح به : إذا أذاعه وأظهره .
انظر: غريب الحديث للخطّابي: ١/ ٦٩٠. و انظر : الفائق: ١/ ١٣٣. غريب الحديث لابن الجوزي: ١/ ٩٠.
النّهاية في غريب الحديث : ١/ ١٦١.

(٢) صحيح البخاري: بلفظه ــ إلاّ أحرف يسيرة ــ في كتاب الفتن : (٩٢/ ٦٧). باب قول النّبي ﷺ : " ستـرون بعدي أموراً تنكرونها " : (٢). برقم: (٧٠٥٦). ص: ١٤٩٠.
صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإمارة : (٣٣). باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية . وتحريمها في المعصية: (٨). برقم: (١٧٠٩). ٣/ ١٤٧٠-١٤٧١.

(٣) ليس الإنكار على إطلاقه . وإنّما هو مقيّد بقاعدة جلب المصلحة ودفع المفسدة . وأن يكون بالحسنى واللّين والرّفق . وأن يكون سرّاً بينك وبينه .. إلخ الضّوابط والشّروط الّتي وردت في هذا السّياق . واللّه أعلم .

(٤) شرح النّووي على مسلم : ١٢/ ٢٢٩ .

(٥) صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإمارة : (٣٣). باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشّرع . وترك قتالهم ما صلّوا . ونحو ذلك : (١٦). برقم: (١٨٥٤). ٣/ ١٤٨١. و نحوه في: ٣/ ١٤٨٠.

وعن عوف بن مالك ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : " خيار أئمّتكم الّذين تحبّونهم ويحبّونكم ، ويصلّون عليكم وتصلّون عليهم ، وشرار أئمّتكم الّذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم " قيل : يا رسول الله أفلا ننابذهم بالسّيف[1] ؟ فقال : " لا ، ما أقاموا فيكم الصّلاة ، وإذا رأيتم من ولاتكم شيئاً تكرهونه فاكرهوا عمله ، ولا تنزعوا يداً من طاعة " [2] .

فقد أمرَ النّبيُّ ﷺ بالصّبر على جور الأئمّة وعدم الخروج عليهم وقتالهم . وهو أصل من أصول أهل السّنّة والجماعة خلافاً لأهل الأهواء والبدع الّذين يرون قتال الأئمّة من أصول دينهم ، ويسمّونه الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر . وقد يوجب الخروج عليهم وقتالهم من الظّلم والفساد أكثر من ظلمهم وفسادهم [3] .

وولاة الأمر يُنْصَحُون ويبيّن لهم الحقّ كما جاء عنه ﷺ في حديث تميم الدّاري ﷺ [4]. ولا يداهنوا ، ولا يُطروا بالباطل ، بل ينصحوا دون تصنّع ولا ملق . ويجتنب في نصحهم الكلام بحضرة النّاس ، ويكون في خلوة إبقاء لحرمتهم ، وحفظاً لمقامهم ، لأنّ المجاهرة بالإنكار والقيام عليهم يطرأ عنه عظيم الفتن وبالغ المفاسد ، وقد تأخذهم العزّة بالإثم فيزداد شرّهم ، ويعظم فسادهم.

وقد صحّ عنه ﷺ أنّه قال : " من أراد أن ينصح لسلطان بأمر فلا يبد له علانية ، ولكن ليأخذ بيده ، فيخلو به ، فإن قبل منه فذاك ، وإلاّ كان قد أدّى الّذي عليه له " [5] .

---

(١) أي نقاتلهم على طريق مستقيم مستو في العلم بالمنابذة منّا ومنهم . بأن نظهر لهم العزم على قتالهم ونخبرهم به إخباراً مكشوفاً . والنّبذ يكون بالفعل والقول في الأجسام والمعاني .
النّهاية في غريب الحديث : ٦/٥. بتصرّف يسير.

(٢) صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإمارة : (٣٣). باب خيار الأئمّة وشرارهم : (١٧). برقم: (١٨٥٥). ١٤٨١/٣. و بلفظ مقارب في: ١٤٨٢/٣.
وانظر : معاني الأحاديث في : المفهم : ٦٤/٤-٦٦ . شرح النّووي على مسلم : ٢٤٢/١٢-٢٤٤ .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى : ١٧٩/٢٨-١٨٠ . الوصايا في الكتاب والسّنّة . ص : ٥٩ .

(٤) الحديث سبق . انظر . ص : ٤٥٥ .

(٥) مسند أحمد: بلفظه في : ٤٠٣/٣-٤٠٤ .عن عياض بن غنم ﷺ . قال الهيثمي في مجمع الزّوائد : " ورجاله ثقات " :٢٢٩/٥.

وعن أسامة بن زيد (رضي الله عنهما) أنّه قيل له : ألا تدخل على عثمان فتكلّمه ؟ فقال : أترون أنّي لا أكلّمه إلاّ أسمعكم[1] ؟ واللّه لقد كلّمته فيما بيني وبينه ، ما دون أن أفتح أمراً لا أحبّ أن أكون أوّل من فتحه ... الحديث " [2] .

هذه نماذج وغيرها كثير يستنير بها الدّعاة في تطبيق قاعدة الموازنات بين الحسنات والسّيئات ، والمصالح والمفاسد في واقع الدّعوة .

والأمر مع الحاجة إليه ليس سهلاً يقتحمه كُلُّ مَنْ نَصّبَ نفسه داعية إلى اللّه، فيزن الأمور بما يراه أو يهواه بعيداً عن النّصوص والقواعد العامّة ، خاصّة وأنّ هذا الباب من المزالق الّتي ينجرف بها كثير من الدّعاة عن جادّة الطّريق ، لأنّه موطن يسرع فيه الهوى إلى النّفوس ، فتضعف أمام المصالح الخاصّة .

فالميزان لا يكون بالأهواء والاجتهادات الّتي لا تستند إلى دليل من الشّرع .

وله شاهد عند أحمد في المسند أيضاً من حديث ابن أبي أوفى ﷺ موقوفاً في : ٣٨٢/٤. قال الهيثمي : " ورجال أحمد ثقات ". ٣٣٠/٥

مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في: ٣٢٣/٣. وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه".

كتاب السّنّة لابن أبي عاصم الضّحاك بن مخلد الشّيباني ومعه ظلال الجنّة في تخريج السّنّة للشّيخ الألباني . طبعة المكتب الإسلامي . بيروت . الطّبعة : الثّانية : ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م : وله عنده بطرق عن عياض بن غنم ﷺ برقم: (١٠٩٦-١٠٩٨) قال الألباني (رحمه الله): " فالحديث صحيح بمجموع طرقه واللّه أعلم ". ٥٠٧/٢-٥٠٨.

(١) أي : أتظنون أنّي لا أكلّمه إلاّ وأنتم تسمعون . شرح النّووي على مسلم : ١١٨/١٨ .

(٢) سبق . انظر : ص : ٤٩٧ .

قال النّووي (رحمه الله) :

" قوله : " افتح أمراً لا أحبّ أن أكون أوّل من فتحه " : يعني المجاهرة بالإنكار على الأمراء في الملأ كما جرى لقتلة عثمان ﷺ . وفيه الأدب مع الأمراء واللّطف بهم ووعظهم سرّاً . وتبليغهم ما يقول النّاس فيهم لينكفّوا عنه " . شرح النّووي على مسلم : ١١٨/١٨ . وانظر المفهم : ٦١٩/٦-٦٢٠ .

ولو أخذ كثير ممّن يعمل في حقل الدّعوة بهذا المبدأ لأراحوا الأمّة من كثير من الشّرور والفتن الّتي بلغت أوجها في هذا العصر ، من سفك للدّماء ، وقتل للأبرياء ، وإحداث للفوضى .

ومنابذة السّلطان بهدف الوصول إلى الإصلاح مسلك عقيم الجدوى ، قليل الفائدة ، بل قد يُذهب ما في الأيدي ، دعك أن يوصل إلى مكاسب ، وهو محفوف بالمخاطر ، محاط بالعقبات ، و لم نر مَنْ سلكوه وصلوا به إلى ما تقرّ به الأعين ، بل قُتّلوا وشُرِّدُوا وتعطّلت الدّعوة في مناحي شتّى . والواقعُ خيرُ شاهد .

فالسّير بالدّعوة ليس حماساً يدفع ، ولا عاطفة تجمح ، وإنّما هو منهج ثابت ، وفقه مستوعب .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشّريعة . فمتى قدر الإنسان على اتّباع النّصوص لم يعدل عنها ، وإلاّ اجتهد برأيه لمعرفة الأشباه والنّظائر ، وقلّ أن تُعْوِز النّصوص من يكون خبيراً بها وبدلالتها على الأحكام " [١] .

فهو يحتاج من الدّاعية إلى علم شرعي مستوعب ، وفقه مستنير ، ومعرفة بمقاصد الشّرع ومقادير المصالح والمفاسد ، وتحقّقها بعيداً عن الظّن والتّوهم والتّخمين ، متجنّباً للهوى وحظوظ النّفس . وإلاّ كان فساده أعظم ، وانحرافه أكبر حين يتّسع عليه الخرق ، وتتشعّب أمامه الآراء ، وتضطّرب القواعد فيعجز عن لمِّ شعثها ، ونظم عقدها .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" وهذا باب التّعارض باب واسع جداً ، لا سيّما في الأزمنة والأمكنة الّتي نقصت فيها آثار النّبوّة وخلافة النّبوّة ، فإنّ هذه المسائل تكثر فيها ، وكلّما ازداد النّقص ازدادت هذه المسائل ، ووجود ذلك من أسباب الفتنة بين الأمّة ، فإنّه إذا اختلطت الحسنات بالسّيّئات وقع الاشتباه والتّلازم ، فأقوام قد ينظرون إلى الحسنات فيرجّحون هذا الجانب وإن تضمّن سيّئات عظيمة ، وأقوام قد ينظرون إلى السّيّئات فيرجّحون الجانب الآخر وإن ترك حسنات عظيمة .

---

(١) الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر . ص : ٢٣ . مجموع الفتاوى : ١٢٩/٢٨ .

وفي قوله رحمه الله لفتة انتباه لصغار طلاّب العلم الّذين جهلوا كثيراً من أحكام الشّرع ، بل جهلوا كثيراً من الأصول الواضحة البيّنة لقلّة بضاعتهم من نصوص الوحي ، وانشغالهم بغيرها من العلوم الأخرى ، ثمّ ولجوا هذا الباب الخطير ليصلوا من خلاله إلى أهداف وغايات تكتنفها الأهواء ، وتحيط بها المقاصد الخاصّة ، والرغبات الخابطة . وإن وجّهوا رفعوا عقائرهم بشنشنة طالما سمعت من أخزم : "من أجل مصلحة الدّعوة" . حتّى أصبحت مصلحة الدّعوة صهوة تمتطى لكلّ غرض وهدف رخيص .

والمتوسّطون الّذين ينظرون الأمرين قد لا يتبيّن لهم أو لأكثرهم مقدار المنفعة والمضرّة ، أو يتبيّن لهم فلا يجدون من يعنيهم العمل بالحسنات وتـــرك السّـــيئات ، لكون الأهواء قارنت الآراء " [1] .

فالدّاعية وهو يسير بدعوته عليه مراعاة المصالح والمفاسد في أمره ونهيــه ، فإن كان في ما يأمر وينهى مصلحة خالصة ، أو مصلحة أعظم ، أمر ونـــهى . وإن ترتّب على ذلك مفسدة خالصة أو مفسدة أعظم كفّ عن الأمر أو النّهي ، وإن استوتا أو اشتبه الأمر توقّف حتّى يتبيّن له . وهــــو بذلـــك يضمـــن ســـلامة الطّريـــق ، واستمرارية السّير ، ومواصلة الدّعوة وثباتها بعيداً عن الهزّات والكبوات .

---

(١) مجموع الفتاوى : ٢٠/٥٧-٥٨ .

المبحث السّادس

حسن الخُلُق

الخُلُق والخَلْق : السّجيّة والطّبع والمروءة والدّين[1] . والخَلْق والخُلُق في الأصل واحد وهو : التّقدير ، ولكن خصّ الخَلْق بالهيئات والأشكال والصّور المُدْرَكة بالبصر ، وخصّ الخُلُق بالقوى والسّجايا المدركة بالبصيرة [2] .

وفي الاصطلاح :

الخُلُق عبارة عن هيئة في النّفس راسخة عنها ، تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر ورويّة ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سمّيت تلك الهيئة خُلُقاً حسناً ، وإن كان الصّادر عنها الأفعال القبيحة سمّيت الهيئة الّتي هي المصدر خُلُقاً سيّئاً [3] .

وحسن الخلق سجيّة كريمة ، وصفة حميدة ، وسلوك مستقيم . أمر اللّه الدّعاة إليه أن يتحلّوا به في قولهم وفعلهم ، وأمرهم ونهيهم ، لما له من آثار فاضلة ، وثمرات يانعة ، وعواقب محمودة .

فقال تعالى : ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة:٨٣]. أي كلّموهم طيّباً ، ولينوا لهم جانباً . ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر[4] .

وهذا حضّ منه سبحانه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشّيم[5] .

وقال جلّ في علاه : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الإسراء:٥٣].

---

(١) القاموس المحيط . ص : ١١٣٧ .

(٢) المفردات . ص : ١٥٧-١٥٨ . بتصرّف يسير .

(٣) إحياء علوم الدّين . على هامشه : إتحاف السّادة المتّقين للزّبيدي . الطّبعة الأولى : ١٤٠٩هـ — ١٩٨٩م . دار الكتب العلميّة . بيروت . ٦٠٧/٨-٦٠٨ . وعنه ذكره الجرجاني في التّعريفات . ص : ١٣٦ .

(٤) تفسير القرآن العظيم : ١٨٠/١ .

(٥) وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٦/٢ .

وهذا أمر بكلّ كلام يقرّب إلى اللّه ، من قـراءة ، وذكـر ، وعلـم ، وأمـر بمعروف ، ونهي عن منكر ، وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبـهم ومنازلهم ، وإنّه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين ، فإنّه يأمر بإيثار أحسنهما ، إن لم يمكن الجمع بينهما .

والقول الحسن : داع لكلّ خلق جميل ، وعمل صالح ، فإنّ من ملـك لسـانه ملك جميع أمره[1] .

وقـال عـزّ وجـلّ : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون:٩٦].

وفي الآية الثّانيـة : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت:٣٤-٣٥] [2] .

وهذا توجيه إلى عباد اللّه جميعاً وعلى رأسهم الدّعاة إلـى اللّـه أن يتّسـموا بمكارم الأخلاق ، فيحسنوا إلى من أساء ، ويحلموا على من جهل ، ويعفـوا عمـن ظلم ، ويصبروا على ذلك ، فإنّ القلوب القاسية ، والطّبائع الشّرسة تنقاد بالإحسان ، وتتأثّر بالكلمة الطّيّبة ، والعبارة اللّطيفة ، والمعاملة الحسنة ما لا تتأثّر بسواها .

وقد بيّنت الأحاديث مقام صاحب الخلق الحسن ، ومنزلته عند ربّه ، وفضيلتـه على غيره . من ذلك :

---

(١) تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٤١١ .

(٢) قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" أمره في دفع عدوّه من شياطين الإنس . بأن يدفع بالّتي هي أحسن . فيقابل إساءة من أساء إليه بالإحسـان . وجهله بالحلم . وظلمه بالعفو . وقطيعته بالصّلة . وأخبره أنّه إن فعل ذلك عاد عدوّه كأنّه ولي حميم " .

زاد المعاد : ١٦١/٣

❁ إنّه متخلّق بأخلاق الأنبياء .

قال أنس بن مالك ﷺ: " كان رسول اللّه ﷺ أحسنَ النّاسِ خُلُقاً ... الحديث " (١)

وذكر عبد اللّه بن عمرو (رضي الله عنهما) رسول اللّه ﷺ فقال : " لـــم يكـــن فاحشاً ولا مُتفحّشاً " (٢) . وقال : قال رسول اللّه ﷺ : " إنّ مِنْ خِيـــاركم أحَاسِـــنكم أخلاقاً " (٣)

قال النّووي (رحمه الله) :

" فيه الحثّ على حسن الخلق وبيان فضيلة صاحبه ، وهو صفة أنبياء اللّـــــه تعالى وأوليائه " (٤) .

---

(١) صحيح البخاري: بلفظه ــ إلاّ إنّه قال كان النّبي ﷺ ــ في : كتاب الأدب : (٧٨/٥٢). باب الكنية للصّـــبي قبل أن يولد للرّجل: (١١٢). برقم: (٦٢٠٣) ص: ١٣٢٤.

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب المساجد ومواضع الصّلاة: (٥). باب جواز الجماعة في النّافلـــة: (٤٨). برقـــم: (٦٥٩). ١/٤٥٧. وفي كتاب الآداب : (٣٨). باب استحباب تحنيك المولـــود عنـــد ولادتـــه: (٥). برقـــم: (٢١٥٠). ٣/١٦٩٢. وفي كتاب الفضائل: (٤٣). باب كان رسول اللّه ﷺ أحسن النّاس خلقاً : (١٣). برقـــم: (٢٣١٠). ٤/١٨٠٥.

(٢) الفُحْش و الفَحْشاء و الفاحشة : القبيح من القول والفعل وجمعها الفَوَاحِش . و المُتَفَحِّش الّذي يتكلّف ســـبّ النّاس ويتعمّده . انظر : لسان العرب : ٦/٣٢٥.

قوله: " لم يكن فاحشاً ولا متفحّشاً " : أي لم يكن ناطقاً بالفحش وهو الزّيادة على الحـــدّ في الكـــلام السّـــيئ . والمتفحّش المتكلّف لذلك .أي لم يكن له الفحش خلقـــاً ولا مكتســـباً . انظـــر : فتـــح البـــاري : ٦ /٥٧٥ . طبعة المعرفة . و انظر : شرح النّووي على مسلم : ١٥/٧٨ .

(٣) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب المنـــاقب: (٦١/٣٧). بـــاب صفـــة النّـــبي ﷺ : (٢٣). برقـــم: (٣٥٥٩). ص: ٧٥١. وفي كتاب الأدب: (٧٨/ ٥٢). باب لم يكن النّبي ﷺ فاحشاً ولا متفحّشـــاً : (٣٨). برقم: (٦٠٢٩). ص: ١٢٩٤. وفي باب حسن الخلق والسّخاء: (٣٩). برقم: (٦٠٣٥). ص: ١٢٩٥. و نحـــوه في: كتاب فضائل أصحاب النّبي ﷺ (المناقب) : (٦٢/ ٣٧). باب مناقب عبد اللّه بن مسعود ﷺ: (٢٧/٥٧). برقم: (٣٧٥٩). ص: ٧٨٩.

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الفضائل: (٤٣). باب كثرة حيائه ﷺ : (١٦). برقم: (٢٣٢١). ٤/١٨١٠.

(٤) شرح النّووي على مسلم : ١٥/٧٨

❁ إنّه أكمل المؤمنين إيماناً :

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : " أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ، وخياركم خياركم لنسائهم خلقاً " [1] .

❁ إنّه يدرك به درجة الصّائم القائم :

عن عائشة (رضي الله عنها) قالت : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : " إنّ المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصّائم القائم " [2] .

---

(١) سنن أبي داود: بلفظ مقارب في: كتاب السّنّة: (٣٩). باب الدّليل على زيادة الإيمان ونقصانه: (١٥). برقم: (٤٦٨٢). قال الألباني (رحمه الله): " حسن صحيح ".ص: ٥١٠.

سنن التّرمذي: بلفظه في : كتاب الرّضاع: (٩). باب ما جاء في حقّ المرأة على زوجها: (١١). برقم: (١١٦٢). وقال: " هذا حديث حسن صحيح ". و قال الألباني (رحمه الله): " حسن صحيح ". ص : ٢٠٦ .

وبلفظ مقارب في: كتاب الإيمان: (٣٧). باب ما جاء في استكمال الإيمان وزيادته ونقصانه: (٦). عن عائشة (رضي الله عنها) . برقم: (٢٦١٢) . وقال: " حسن ". و قال الألباني (رحمه الله): " ضعيف".ص: ٤٢٤.

سنن ابن ماجه: روي آخره في كتاب النّكاح: (٩). باب حسن معاشرة النّساء: (٥٠). عن عبد اللّه بن عمرو (رضي الله عنهما) . برقم: (١٩٧٨). قال الألباني (رحمه الله): " صحيح ". ص: ٢١٤.

سنن الدّارمي: الجزء الأوّل منه بلفظه في : باب في حسن الخلق : ٢/٤١٥-٤١٦ .

سنن البيهقي: أوّله بلفظه في : باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها. ١٩٢/١٠.

مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ٢٥٠/٢. ٤٧٢. قال أحمد شاكر (رحمه الله): " إسناده صحيح ". برقم: (٧٣٩٦) . (١٠١١٠). مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٣٣/١٣. ١٢٨/١٩. وأخرج جزء منه بلفظه في : ٥٢٧/٢. و نحوه في: ٤٧/٦،٩٩. عن عائشة (رضي الله عنها).

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: الجزء الأوّل منه بلفظه في : باب ذكر البيان بأنّ من أكمل المؤمنين إيماناً من كان أحسن خلقاً. برقم: (٤٧٩). قال شعيب الأرناؤوط : " إسناده حسن". ٢/ ٢٢٧. و بلفظه ــ إلاّ قوله "خلقاً" ــ في آخره. في باب معاشرة الزّوجين. برقم: (٤١٧٦). ٤٨٣/٩.

مستدرك الحاكم: أوّله بلفظه في : ٤٣/١. وقال: " هذا حديث صحيح و لم يخرّج في الصّحيحين وهو صحيح على شرط مسلم".

مسند أبي يعلى: أوّله بلفظه في : ٢٣٧/٧. برقم: (٤٢٤٠). عن أنس ﷺ .

(٢) سنن أبي داود: بلفظه في : كتاب الأدب: (٤٠) . باب في حسن الخلق: (٧). برقم: (٤٧٩٨). قال الألباني (رحمه الله): " صحيح ". ص:٥٢٣.

موطّأ مالك : نحوه . بلاغاً. في كتاب حسن الخلق: (٤٧). باب ما جاء في حسن الخلق: (١). برقم: (٦). ٩٠٤/٢.

❁ إنّه يثقل به ميزانه يوم القيامة :

عن أبي الدّرداء ﷺ قال : سمعت النّبيّ ﷺ قال : " ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة مِنْ خُلُقٍ حسن ، وإنّ اللّه ليبغض الفاحش البذيء " [1] .

والأدلّة على حسن الخلق وفضله كثيرة جدّاً يضيق هذا المقام عن حصرها .

والمراد أنّ الدّاعية عليه أن يتحلّى بالصّفات الحميدة والسّجايا الكريمة فيكون رحب الصّدر ، حسن الحديث ، بشوش الوجه ، لطيف المعاملة ، رقيق العبارة ليكون قريباً من المدعوّين محبوباً لديهم .

فحسن خلقه يصلح بينه وبين النّاس ، ويدعوهم لمحبّته. [2]

مسند أحمد: بلفظه في : ١٨٧/٦. إلاّ إنّه قال: " إنّ الرّجل" . و بلفظ مقارب في: ٩٠/٦،١٣٣. و نحوه في: ١٧٧/٢ ، ٢٢٠. عن عبد اللّه بن عمرو (رضي اللّه عنهما) . قال أحمد شاكر (رحمه اللّه): " إسناده صحيح ". برقم: (٦٦٤٨) . (٧٠٥٢). مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٣٤/١٠، ١٢/ ١٤.

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: بلفظ مقارب في: باب ذكر رجاء نوال المرء بحسن الخلق درجة القائم ليله الصّائم نهاره. برقم: (٤٨٠). ٢٢٨/٢.

مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في: ١٢٨/١. وقال : " هذا حديث على شرط الشّيخين و لم يخرجاه ". و قال الذّهبي (رحمه اللّه): " على شرطهما " . و نحوه عن أبي هريرة ﷺ في : ١٢٨/١. قال الذّهبي (رحمه اللّه): " على شرط مسلم " .

مسند أبي يعلى: نحوه عن أنس ﷺ . برقم: (٤١٦٦). قال المحقّق: " رجاله رجال الصّحيح". ١٨٤/٧.

(١) سنن أبي داود: نحواً منه في كتاب الأدب : (٤٠). باب في حسن الخلق: (٧). برقم: (٤٧٩٩). قال الألباني (رحمه اللّه): ". صحيح ". ص: ٥٢٢.

سنن التّرمذي: بلفظه في : كتاب البر والصّلة : (٢٤). باب ما جاء في حسن الخلق : (٦٢) . برقم: (٢٠٠٢). وقال : " هذا حديث حسن صحيح " . و قال الألباني (رحمه اللّه): " صحيح " . و نحوه برقم: (٢٠٠٣) . وقال : " هذا حديث غريب من هذا الوجه " . و قال الألباني (رحمه اللّه): " صحيح " . ص:٣٣٤.

سنن البيهقي: نحوه في: باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها .١٩٣/١٠.

مسند أحمد: نحوه في: ٦/ ٤٤٢، ٤٤٦، ٤٤٨،٤٥١.

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: نحوه في: باب ذكر البيان بأنّ الخلق الحسن من أثقل ما يجد المرء في ميزانه يوم القيامة. برقم: (٤٨١). ٢٣٠/٢.

مسند أبي داود الطّيالسي: نحوه في: ص: ١٣١. برقم: (٩٧٨).

(٢) انظر : الفوائد : ص : ٥٤ .

كما يدعوهم للالتفاف من حوله ، والاستماع لنُصْحه ، والاستجابة لإرشـــاده . بل القلوب النّافرة والنّفوس الشّاردة تميل إليه ، وتصغي إلى حديثه .

وفي ذلك يقول الماوردي (رحمه الله):

" إذا حسنت أخلاق الإنسان كثر مُصافُوه ، وقلّ مُعادوه ، فتسهّلت عليه الأمور الصّعاب ، ولانت له القلوب الغضاب " [١] .

فحسن الأخلاق عامل مؤثّر في استمرارية الدّعوة لأنّه يجذب قلوب النّـــاس إلى الدّاعي ، ويربطهم به وبدعوته .

وهنالك بعض الأخلاق الحسنة الّتي لها صلة وثيقة بالدّعوة ، وأثر بالغ فـــي ثبات الدّاعية واستمراره في التّمسّك بدعوته متى ما تحلّـــى بـــها . أوجزهـــا فـــي المطالب الأربعة الآتية :

(١) كتاب أدب الدّنيا والدّين . لأبي الحسن علي بن محمّد بن حبيب البصري الماوردي . طبـــع المطبعـــة الأميريـــة . القاهرة . الطّبعة الرّابعة عشرة : ١٣٤١هـــ ١٩٢٣م : ص : ٢١٦ .

﴿المطلب الأوّل﴾

الرّفــــــق

الرّفق هو لين الجانب بالقول والفعل والأخذ بالأسهل ، وهو ضدّ العنف [(١)] .

قال الغزالي (رحمه الله) :

" اعلم أنّ الرّفق محمود ويضادّه العنف والحدّة . والعنــف نتيجــة الغضــب والفظاظة ، والرّفق واللّين نتيجة حسن الخلق والسّلاسة " [(٢)] .

وقد مدح الله سبحانه رسول اللّه ﷺ برقّة القلب ولين الجانب ، وحسن الرّفـق فقــال : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٩]

أي إنّ اللّه منّ عليك برحمة منه كانت سبباً أن ألنــت لأصحــابك جــانبك ، وخفضت لهم جناحك ، وترقّقت عليهم ، وحسّنت لهم خلقــك ، فــاجتمعوا عليــك ، وأحبّوك ، وامتثلوا أمرك . ولو كنت سيّئ الخلق ، قاسي القلب لنفّرهم هذا عنك . لأنّ لين الجانب وحسن الخلق يؤدّي إلى التّأليف وجذب العباد لدين اللّه[(٣)] .

وهذا في شأن رسول اللّه ﷺ ، فكيف بالدّعاة سواه ؟

---

(١) فتح الباري : ٦٤/١٢ .

(٢) إحياء علوم الدّين بهامشه إتحاف السّادة المتّقين : ٤٦٩/٩ .

(٣) تيسير الكريم الرّحمن . ص : ١٢١-١٢٢ بتصرّف . وانظر : في ظلال القرآن : ٥٠٠/١-٥٠١ .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

"والفظ : الغليظ . المراد به هاهنا غليظ الكلام لقوله بعد ذلك ﴿ غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ ﴾ أي لو كنــت ســيّئ الكلام ، قاسي القلب عليهم ، لانفضّوا عنك وتركوك ، ولكنّ اللّه جمعهم عليك ، وألان جــانبك لهــم تأليفــاً لقلوبهم " . تفسير القرآن العظيم : ٦٢٩/١ .

وقال تعالى مخاطباً موسى وهارون عليهما السّلام : ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه:٤٣-٤٦].

أي : اذهبا إلى هذا الّذي جاوز الحدّ في كفره وطغيانه ، وظلمه وعدوانه ، فقولا له قولاً سهلاً لطيفاً ، برفق ولين وأدب في اللّفظ ، دون فحش ولا صلف[١] ، ولا غلظة في المقال أو فظاظة في الأفعال ، لعلّه يذعن إلى الحقّ ، ويخشى عقاب الرّب . والقول اللّين قوله تعالى : ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [النازعات:١٨-١٩] فإنّ فيه من لطف القول ، وسهولته ، ولين جانبه ، وعدم بشاعته ما لا يخفى على من تأمّله[٢] .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" هذه الآية فيها عبرة عظيمة ، وهو إنّ فرعون في غاية العتوّ والاستكبار وموسى صفوة اللّه من خلقه إذ ذاك ، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلاّ بالملاطفة واللّين " [٣] .

وقال ابن العربي (رحمه الله) :

" فيه ــ أي في فوائد الآية ــ جواز الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر باللّين لمن معه القوّة ، وضُمِنت له العصمة ، ألا تراه قال لهما : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾

---

(١) الصّلَف : مجاوزة القَدْر في الظّرف والبراعة والادّعاء فوق ذلك تكبّراً . لسان العرب : ٩/١٩٦ . وانظر : القاموس المحيط : ص : ١٠٧٠ .

(٢) تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٤٥٥ . بتصرّف .

(٣) تفسير القرآن العظيم : ٣/٢٤٦ .

ولا تخافا ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ "[1] .

ولمّا كان الرّفق ذا آثار حميدة في كسب النّاس ، وتأثير عظيم على النّفوس ، حيث تنجذب إلى صاحبه ، وتلتفّ حول من يتّسم به ، وتنساق لأقواله ، وتتأسّى بأفعاله دعا الرّسول ﷺ المؤمنين للتحلّي والتّخلق به ، مبيّناً لهم ثمراته ونتائجه .

من ذلك :

❁ حبّ اللّه له ، وعظيم ثوابه عليه :

عن عائشة (رضي الله عنها) زوج النّبي ﷺ أنّ رسول اللّه ﷺ قال : " يا عائشة إنّ اللّه رفيق يحبّ الرّفق ، ويعطي على الرّفق ما لا يعطي على العنف ، وما لا يعطي على ما سواه "[2] .

---

(١) أحكام القرآن : ٣/١٢٦٠ . زاد القرطبي (رحمه الله) : " فكيف بنا فنحن أولى بذلك . وحينئذ يحصل الآمر والنّاهي على مرغوبه . ويظفر بمطلوبه . وهذا واضح " . الجامع لأحكام القرآن : ١١/١٩٩ .

وقال الألوسي (رحمه الله): " قُرِأتْ عند يحيى بن معاذ فبكى . وقال : " إلهي هذا رفقك بمن يقول أنا الإله فكيف رفقك بمن يقول أنت اللّه " . وفيها دليل على استحباب إلانة القول للظالم عند وعظه " روح المعاني : ١٦/١٩٥ . وانظر معنى الآيات في : جامع البيان : ١٦/١٦٨-١٧٠ . التفسير الكبير : ٢٢/٥٨-٥٩ . فتح البيان : ٨/٢٣٥-٢٣٦ . محاسن التّأويل : ١١/٤١٨١-٤١٨٢ .

(٢) صحيح البخاري: طرفاً منه في كتاب الأدب : (٥٢/٧٨) . باب الرّفق في الأمر كلّه : (٣٥). برقم: (٦٠٢٤). ص: ١٢٩٣. وفي كتاب استتابة المرتدّين : (٦٣/٨٨). باب إذا عرض الذّمي وغيره بسبّ النّبي ﷺ ولم يصرّح : (٤). برقم: (٦٩٢٧). ص: ١٤٦٢. ونحواً منه في كتاب الأدب: (٥٢/٧٨). باب لم يكن النّبي ﷺ فاحشاً ولا متفحّشاً : (٣٨). برقم: (٦٠٣٠). ص: ١٢٩٤. وفي كتاب الاستئذان : (٥٣/٧٩) . باب كيف يردّ على أهل الذّمة السّلام: (٢٢). برقم: (٦٢٥٦). ص: ١٣٣٦. وفي كتاب الدّعوات: (٨٠/ ٥٤). باب الدّعاء على المشركين: (٥٨). برقم: (٦٣٩٥). ص: ١٣٦٢.وفي باب قول النّبي ﷺ : " يستجاب لنا في اليهود ولا يستجاب لهم فينا " : (٦٢) . برقم: (٦٤٠١) . ص: ١٣٦٤.

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب البر والصّلة والآداب : (٤٥). باب فضل الرّفق: (٢٣) . برقم: (٢٥٩٣). ٤/٢٠٠٤. ونحواً منه في كتاب السّلام : (٣٩). باب النّهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسّلام . وكيف يردّ عليهم: (٤) . برقم: (٢١٦٥) . ٤/ ١٧٠٦.

وقوله " يعطي على الرّفق ما لا يعطي على العنف " : أي يثيب عليه ما لا يثيب على غيره . أو يتأتّى به من الأغراض ويسهل من المطالب ما لا يتأتّى بغيره . شرح النّووي على مسلم : ١٦/١٤٥ .

❁ دخول الخير عليه . فما يناله من الخير بمقدار ما يفعله من الرّفق :

عن أبي الدّرداء ﷺ عن النّبي ﷺ قال : " من أعطي حظّه من الرّفــق فقــد أعطي حظّه من الخير ، ومن حرم حظّه من الرّفق فقد حرم حظّه من الخير " (١) .

❁ يحسّن الأشياء ، ويجمّلها ، والبعد عنه يسيء إليها ويقبّحها :

عن عائشة (رضي الله عنها) زوج النّبي ﷺ عن النّبي ﷺ قال : " إنّ الرّفق لا يكون في شيء إلاّ زانه ، ولا ينزع من شيء إلاّ شانه " (٢) .

ورجّح ابن حجر (رحمه الله) القول الثّاني . انظر : فتح الباري : ٦٤/١٢ . وانظر : المفهم : ٢٧٨/٦ . فقد ذكــر كلاماً قيّماً في معنى الحديث .

(١) أصل هذا الحديث في صحيح مسلم: عن جرير ﷺ بلفظ : " من يحرم الرّفق يحرم الخير" . في كتاب البر والصّلــة والآداب : (٤٥) . باب فضل الرّفق: (٢٣) . برقم: (٢٥٩٢) . ٢٠٠٣/٤.

سنن التّرمذي: بلفظه في : كتاب البر والصّلة : (٢٤) . باب ما جاء في الرّفق: (٦٧). برقم: (٢٠١٣) . وقــال: "هذا حديث حسن صحيح" . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " .

سنن البيهقي: نحوه في: باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها : ١٩٣/١٠.

مسند أحمد: نحواً منه في : ٦/ ١٥٩، ٤٥١. الموضع الثّاني عن عائشة (رضي الله عنها).

مسند أبي يعلى: بلفظ مقارب عن عائشة (رضي الله عنها). برقم: (٤٥٣٠) . قال المحقّق: " إسناده حســـن " . ٢٤/٨.

قال أبو حاتم ابن حبّان (رحمه الله) :

" الواجب على العاقل لزوم الرّفق في الأمور كلّها . وترك العجلة والخفّة فيها . إذ اللّه تعالى يحـــبّ الرّفــق في الأمور كلّها . ومن منع الرّفق منع الخير . كما أنّ من أعطي الرّفق أعطي الخير . ولا يكاد المرء يتمكّن من بغيته في سلوك قصده في شيء من الأشياء على حسب الّذي يحبّ إلاّ بمقارنة الرّفق ، ومفارقة العجلة " .

وقال : " وأنشدني منصور بن محمّد الكُريزيّ :

الرّفق أيمنُ شيء أنت تتبعه ******* والخُرْقُ أشأم شيء يَقْدُمُ الرّجـــلا

وذو التّثبّت من حمد إلى ظفر ******* من يركب الرّفق لا يستحقب الزّللا

روضة العقلاء : ص : ٣٥٣-٣٥٤ .

استحقب الشّيء : جعله في حقيبته . كأنّه يرجع به إلى أهله . انظر: هامش المرجع السّابق : ص : ٣٥٤ .

(٢) صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب البر والصّلة والآداب : (٤٥) . باب فضل الرّفق: (٢٣) . برقـــم: (٥٩٤) . ٢٠٠٤/٤.

❁ تصيب دعوة الرّسول ﷺ صاحبه :

وعنها (رضي الله عنها) قالتّ : سمعت من رسول اللّه ﷺ يقول في بيتي هذا : " اللّهم من ولي من أمر أمّتي شيئاً فشقّ عليهم فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمّتي شيئاً فرفق بهم فارفق به " [1] .

والأحاديث عنه ﷺ في شأن الرّفق كثيرة جداً . وقد امتثله ﷺ في حياته عمليّاً ليأخذ الدّعاة من ذلك العبرة ، ويرتشفوا من نميره الأسوة .

عن أنس بن مالك ﷺ قال : " جاء أعرابي فبال في طائفة المسجد ، فزجره النّاس ، فنهاهم النّبي ﷺ . فلمّا قضى بوله أمر النّبي ﷺ بذنوب من ماء فأهريق عليه " [2] .

لقد بال هذا الأعرابي في المسجد . وذلك أمر منكر لما يترتّب عليه من إصابة المسجد بالنّجاسة ، ولذا زجره النّاس ونهوه عن ذلك ، ولكنّ رسول اللّه ﷺ نهاهم رفقاً به ، وتلطّفاً في تعليمه ، ولاسيّما وهو جاهل وقريب عهد بالإسلام ، وقد يؤدّي ذلك إلى تنفيره وعوده إلى الكفر مرّة أخرى ، ولذا بالغ النّبي ﷺ في الرّأفة به .

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) :

" وفيه الرّفق بالجاهل ، وتعليمه ما يلزمه من غير تعنيف إذا لم يكن ذلك منه عناداً ، ولاسيّما إن كان ممّن يحتاج إلى استئلافه . وفيه رأفة النّبي ﷺ وحسن خلقه " [3] .

وعن معاوية بن الحكم السُّلَمِيِّ ﷺ قال : بينا أنا أصلّي مع رسول اللّه ﷺ ، إذ عطس رجل من القوم ، فقلت : يرحمك اللّه ، فرماني القوم بأبصارهم ، فقلت : وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ [4] ، ما شأنكم تنظرون إليّ ، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ،

---

(١) صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإمارة : (٣٣) . باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر: (٥) . برقم : (١٨٢٨). ١٤٥٨/٣.

(٢) سبق . انظر: ص: ٥٢٠ .

(٣) فتح الباري : ٤٣٣/١ . وانظر : كتاب المنتقى شرح موطّأ مالك :١٢٩/١ . نيل الأوطار : ٥٣/١-٥٤ .

(٤) واثُكْلَ أُمِّياه : الثُّكْل : فَقْد الوَلَد . وامرأة ثاكِل وثَكْلَى . ورجُل ثاكِل وَثَكْلان . النّهاية في غريب الحديث : ٢١٧/١.

فلمّا رأيتهم يُصَمِّتُونَني لكنّي سكت ، فلمّا صلّى رسول اللّه ﷺ فبأبي هو وأمّي ما رأيت معلّماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه ، فو اللّه ما كَهَرني[1] ولا ضربني ولا شتمني ، قال : " إنّ هذه الصّلاة لا يصلح فيها شيء من كلام النّاس ، إنّما هو التّسبيح والتّكبير وقراءة القرآن .. الحديث " [2] .

ففي الحديث : بيان ما كان عليه رسول اللّه ﷺ من عظيم الخلق الّذي شهد اللّه تعالى له به[3] ، ورفقه بالجاهل ، ورأفته بأمّته وشفقته عليهم ، وفيه التّخلّق بخلقه ﷺ في الرّفق بالجاهل وحسن تعليمه واللّطف به وتقريب الصّواب إلى فهمه[4] .

والرّفق هو أقوم سبل الدّعوة إلى اللّه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" ينبغي لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر أن يكون فقيهاً فيما يأمر به فقيهاً فيما ينهى عنه ، رفيقاً فيما يأمر به رفيقاً فيما ينهى عنه ، حليماً فيما يأمر به حليماً فيما ينهى عنه . فالفقه قبل الأمر ليعرف المعروف وينكر المنكر ، والرّفق عند الأمر ليسلك أقرب الطّرق إلى تحصيل المقصود ، والحلم بعد الأمر ليصبر على أذى المأمور المنهي فإنّه كثيراً ما يحصل له الأذى بذلك " [5] .

والدّاعية أحوج ما يكون إلى الرّفق ، إذ بدونه لا تستقيم دعوته ، ولا تتحقّق رغبته ، ولا يصل إلى ما يصبو إليه ، ولا ينال بغيته.

---

(١) كهرني : الكَهْر الانْتِهار . وقد كَهَره يكْهَرُه إذا زَبَره واسْتقبَله بوجهٍ عَبُوس .
النّهاية في غريب الحديث : ٢١٢/٤ . و انظر : غريب الحديث للهروي: ١١٥/١. الفائق : ٢٨٨/٣.

(٢) صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب المساجد ومواضع الصّلاة: (٥) . باب تحريم الكلام في الصّلاة ونسخ ما كان من إباحة: (٧) . برقم: (٥٣٧) . ٣٨١/١-٣٨٢.

(٣) وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤].

(٤) شرح النّووي على مسلم : ٢٠/٥ .

(٥) مجموع الفتاوى : ١٦٧/١٥ . وانظر : ١٣٧/٢٨ . فقد نسبه فيها لغيره ، وذكر أنّ بعض العلماء جعله من المرفوع .

ولذا قال النّووي (رحمه الله) :

" وينبغي الآمر بالمعروف والنّاهي عن المنكر أن يرفق ليكون أقرب إلى تحصيل المطلوب " [١] .

فهو قد يفوّت مطلوبه ومرغوبه بعدم رفقه ، وحينها لا يكون من دعوته فائدة ، ولا يقطف لها ثمرة ، فأولى به أن يكفّ . [٢] .

والغلظة والفظاظة في الدّعوة لا تؤدّي إلى عاقبة محمودة ، بل تعكس صورة شوهاء لداعية الإسلام ، وتنفّر النّفوس عنه وإن كان قوله حقّاً وصدقاً ، بل تورث العداوة بينه وبين المدعوّين ، فيعيش منعزلاً بعيداً عن النّاس ، بل قد تؤدّي إلى ردود فعل بما تثيره من كوامن الشّرّ في الإنسان فيكابر ويعاند ويردّ الحقّ مع وضوحه ، وهي تقذف القنوط واليأس في نفس الدّاعية . وهنالك يعجز عن السّير ، وينقطع به المسير ، ويجانبه الثّبات ، ويخالفه الصّبر[٣] .

---

(١) شرح النّووي على مسلم : ٢٤/٢ .

(٢) انظر : الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر . ص : ٣٣ .

(٣) انظر في آثار الغلظة والفظاظة : أصول الدّعوة . ص : ٣٥٨ . طرق الدّعوة الإسلاميّة . ص : ١٨ . أخلاقية الدّاعية . لعبد الله ناصح علوان . طبعة دار السّلام . ص : ٢٧-٣٠.

والغلظة قد تنفع أحياناً وذلك إذا وضعت في موضعها المناسب لها . لأنّ هنالك من الأمور ما لا يصلح معه إلاّ الغلظة . قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [التوبة:٧٣] .

قال المتنبي :

ووضع النّدى في موضع السّيف بالعلى ******* مضرّ كوضع السّيف في موضع النّدى .

ديوان أبي الطّيّب وبهامشه العرف الطّيّب : ١٨٣/٢ .

قال الغزالي(رحمه الله) :

" الرّفق ... محمود ومفيد في أكثر الأحوال وأغلب الأمور . والحاجة إلى العنف قد تقع ولكن على النّدور . وإنّما الكامل من يميّز مواقع الرّفق عن مواقع العنف فيعطي كلّ أمر حقّه . فإن كان قاصر البصيرة أو أشكل عليه حكم واقعة من الوقائع فليكن ميله إلى الرّفق ، فإن النّجح معه في الأكثر " .

إحياء علوم الدّين بهامشه إتحاف السّادة المتّقين : ٤٧٨/٩ . وهذا تفصيل قيّم .

بل الدّاعية النّاصح هو الّذي يمتلئ قلبه رحمة وشفقة لعباد اللّه ، يسعى جـاهداً لإنقاذهم وتخليصهم من هاوية الهلاك ، وهو في سبيل ذلك لا تستفزّه الإساءة ، ولا تحرّكه حظوظ النّفس ومعاجلة الانتقام ، ولا يسأم من تعنّتهم وصدودهم وكثرة إعراضهم وجهلهم ، فإنّ رحمته بهم وشفقته عليهم عزاء له في كلّ ما يناله منهم من أذى .

وبذلك يصبر على دعوتهم ، ويثبت على إبلاغهم ، ويظلّ في مجاهدتهم دون كلل ولا ملل ، وهو يتذكّر قوله تعالى في رسوله ﷺ :﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة:١٢٨].

فهو يرسل موعظته ، ويبعث نصحه في أسلوب رقيق جميل يحيط به الرّفق ، وتحفّه الرّحمة ، وتكلّله الشّفقة بعيداً عن القسوة والغلظة والجفاء والسّباب والشّتم ، فينزل على قلب المدعو برداً وسلاماً ، فينفتح له القلب ، وينشرح له الصّدر ، وتهتز له النّفس ، فيسري في الوجدان سريان الدّم في العروق ، والنّار في الهشيم ، فينساق صاحبه إلى الدّاعية ، وينجرّ لدعوته ، منصاعاً لأمره ، طائعاً لقوله ، مطبّقاً لفعله ، فيسعد بذلك الدّاعية ، ويفرح بكسبه وهو يشاهد ثمار جهده ، ونتاج عمله ، فيدفعه إلى المزيد والسّعي الحثيث ، محافظاً على مسلكه ، مداوماً على نهجه .

﴿المطلب الثّاني﴾

التّيســـــير

التّيسير من اليَسَر واليُسْر وهو السّهل[1] . فالتّيسير هو التّسهيل والأخذ باللّين بعيداً عن المشقّة والعنت .

وهو صفة ميّزت بها هذه الشّريعة الّتي جاء بها المصطفى ﷺ على الشّـرائع السّابقة .

حيث وضع اللّه عزّ وجلّ عن هذه الأمّة كلّ ثقل في الأمم الماضيـة ، وأزاح عنها كلّ إصر[2] ، ورفع عنها كلّ مشقّة .

قال سبحانه : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾

[الأعراف:١٥٧].

وقال : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة:١٨٥] .

وقال ﷺ : " بُعِثْتُ بالحنيفيّةِ السّمْحة " [3] .

وقال : " إنّ الدّين يسر ولن يُشَادّ [4] الدّينَ أحدٌ إلاّ غلبه فسدّدوا وقاربوا

---

(١) انظر : القاموس المحيط . ص : ٦٤٣ . المفردات . ص : ٥٥١-٥٥٢ .

(٢) الإِصْرُ: العَهْد الثّقيـل .

﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴾؛ أي ما عُقِدَ عَقْد ثقيل علـيهم مثل قَتْلهم أنفسهم ، وما أشبه ذلك من قَـرْض الـجلد إذا أصابته النّـجاسة . انظر : لسان العرب : ٢٣/٤ . وانظر : المفردات : ص: ١٨-١٩ .

(٣) صحيح البخاري: بمعناه ــ معلّقاً ــ في كتاب الإيمان : (٢) . باب الدّين يسر: (٢٩/٣٠) . ص: ٢٣.
مسند أحمد : بلفظه ــ جزء من حديث ــ في : ٢٦٦/٥ . عن أبي أمامة ﷺ . ونحــوه في: ١١٦/٦. عــن عائشة (رضي الله عنها).
معجم الطّبراني الكبير: بلفظه ــ جزء من حديث ــ في : ١٧٠/٨، ٢١٦ ، ٢٢٢ .

(٤) المشادّة : بالتّشديد المغالبة . يقال شادّه يشادّه مشادّة إذا قاواه . والمعنى لا يتعمّق أحد في الأعمال الدّينيّة ويـترك الرّفق إلاّ عجز وانقطع فيغلب . وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة فإنّه من الأمور المحمودة ، بل منع الإفراط المؤدّي إلى الملال ، أو المبالغة في التّطوع المفضي إلى ترك الأفضل ، أو إخراج الفرض عن وقته كمن بات يصلّـي اللّيل كلّه ويغالب النّوم إلى أن غلبته عيناه في آخر اللّيل فنام عن صلاة الصّبح في الجماعة، أو إلى أن خرج الوقـت المختار أو إلى أن طلعت الشّمس فخرج وقت الفريضة . فتح الباري : ٩٤/١. طبعة دار المعرفة . بتصرّف يسير .

وأبشروا واستعينوا بالغَدْوة [١] والرَّوْحَة [٢] وشيء من الدُّلْجَة [٣] " [٤] .

وقد أخذ رسول اللّه ﷺ بحظٍّ وافر من التّيسير حتّى قالت عنه عائشة (رضي الله عنها) : " ما خُيِّرَ رسول اللّه ﷺ بين أمرين إلاّ أخذ أيسرهما ، ما لم يكن إثْماً ، فإن كان إثماً كان أبعد النّاس منه ... الحديث " [٥] .

أي : إذا كان بين أمرين أو عرضت عليه مصلحتان جاز أن يفعل أحدهما اختار الأيسر ، أخذاً بالسّهولة وتعليماً للأمّة [٦] .

وذكر أبو برزة الأسلمي ﷺ : " أنّه صحب النّبيّ ﷺ فرأى من تيسيره " [٧] .

وقد كان ذلك ديدنه ﷺ ، لكمال رحمته ، وعظيم عطفه ، وبالغ إشفاقه على أمّته ، وسعيه الدّائم على إزالة العنت والمشقّة عنها . وهو القائل : " لولا أن أشقّ

---

(١) الغَدْوَة :المرّة من الغُدُوّ وهو ما بين صلاة الغَداة وطلوع الشّمس . انظر : النّهاية في غريب الحديث : ٣/٣٤٦ .

(٢) الرّوحة : هي المرّة من الرّواح . وهو ما بعد الزّوال . انظر: المرجع السّابق : ٢/٢٧٣-٢٧٤.

(٣) الدّلجة : يُقال أدْلَج بالتّخفيف إذا سَار من أوّل اللّيْل ، وادّلَج بالتّشديد إذا سارَ من آخره ، والاسْم منْهُما الدُّلْجة والدَّلْجَة بالضّم والفتح . ومنهم مَن يَجْعَل الإدْلاَجَ لِلّيل كُلّه . انظر : المرجع نفسه : ٢/١٢٩.

(٤) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الإيمان : (٢). باب الدّين يسر : (٢٩/٣٠) . برقم: (٣٩) . ص: ٢٣. عن أبي هريرة ﷺ . وللوقوف على المزيد من بيان يسر الشّريعة وسهولتها انظر : الموافقات : ١/٢٣٦ فما بعدها . تفسير القرآن العظيم : ٢/٤٠٤ . محاسن التّأويل : ٧/٢٨٨١-٢٨٨٢ .

(٥) صحيح البخاري: بلفظه : في كتاب المناقب: (٦١/٣٧) . باب صفة النّبي ﷺ : (٢٣) . برقم: (٣٥٦٠) . ص: ٧٥١. وفي كتاب الأدب : (٧٨/٥٢) . باب قول النّبي ﷺ " يسّروا ولا تعسّروا " : (٨٠) . برقم: (٦١٢٦) . ص: ١٣١٠. و بلفظ مقارب في: كتاب الحدود: (٨٦/٦٠) . باب إقامة الحدود والانتقام لحرمات اللّه : (١٠) . برقم: (٦٧٨٦) . ص: ١٤٣٤.

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الفضائل : (٤٣) مباعدته ﷺ للآثام : (٢٠) . برقم: (٢٣٢٧) . ٤/١٨١٣.

(٦) انظر : المفهم : ٦/١١٨-١١٩ .

قال النّووي (رحمه الله): " فيه استحباب الأخذ بالأيسر والأرفق ما لم يكن حراماً أو مكروهاً " شرح النّووي على مسلم : ١٥/٨٣ .

(٧) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الأدب : (٧٨/٥٢) . باب قول النّبي ﷺ : " يسّروا ولا تعسّروا " : (٨٠) . برقم: (٦١٢٧) . ص: ١٣١٠.

علـــى أمّتـــي أو علـــى النّـــاس لأمرتـــهم بالسّـــواك مـــع كـــلّ صـــــــلاة." [1] .

والقائل : " إنّي لأدخل الصّلاة أُريد إطالتها فأسمع بكاء الصّبي فأخفف من شدّة وجد أمّه به " [2] .

بل حرص ﷺ على أمر التّيسير تمام الحرص حتّى إنّه كان إذا بعث الدّعـــاة إلى اللّه وصّاهم به كي لا ينفّروا المدعوّين أو يشقّوا عليهم .

عن أبي موسى رضي الله عنه أنّ النّبيّ ﷺ بعثه ومعاذاً إلى اليمن فقـــال : " يَسِّـرا ولا تُعَسِّرا ، وبَشِّرا ولا تُنَفِّرا ، وتطاوعا ولا تختلفا " [3] .

---

(١) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الجمعة: (١١/٥) . باب السّواك يوم الجمعة: (٨/٣٢٥) . برقـم: (٨٨٧) . ص: ١٩٢-١٩٣. وطرفاً منه بلفظه ــ ولم يقل : "أو على النّاس" ــ في كتاب التّمني : (٩٤/٦٩) . بـــاب مـــا يجوز من اللّو: (٩) . برقم: (٧٢٤٠) . ص: ١٥٢٤. عن أبي هريرة رضي الله عنه .

صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب الطّهارة : (٢) . باب السّواك : (١٥) . برقم: (٢٥٢) . ١/٢٢٠.

وانظر : كتاب المنتقى شرح الموطّأ : ١/١٣٠ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب الأذان (الصّلاة) : (٥/١٠) . باب من أخفّ الصّلاة عنـــد بكـــاء الصّبي: (٦٥/٢١٦) . برقم: (٧٠٩) ، (٧١٠) . عن أنس رضي الله عنه .و نحوه برقم: (٧٠٧) . عن أبي قتـــادة رضي الله عنه . وبرقم: (٧٠٨) . عن أنس رضي الله عنه . ص: ١٥٨-١٥٩. وفي باب انتظار النّاس قيام الإمام العـالم : (١٦٣/٣١٤) . برقم: (٨٦٨) . عن أبي قتادة رضي الله عنه . ص: ١٨٩.

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الصّلاة: (٤) . باب أمر الأئمّة بتخفيـــف الصّـــلاة في تمـــام : (٣٧) . برقـــم: (٤٧٠) . عن أنس رضي الله عنه . ١/٣٤٣.

(٣) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الجهاد والسّير : (٥٦/٣٢) . باب ما يكره من التّنـــازع والاختـــلاف في الحرب : (١٦٤/٦٣) . برقم: (٣٠٣٨) . ص: ٦٣٩. و بلفظ مقارب في: كتاب المغازي: (٦٤/٣٨) . بـــاب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجّة الوداع : (٦٠/٦١) . برقم: (٤٣٤٤) ، (٤٣٤٥) . ص: ٩٠٣. وفي كتاب الأدب : (٧٨/٥٢) . باب قول النّبي ﷺ : "يسّروا ولا تعسّـــروا " : (٨٠) . برقـــم: (٦١٢٤) . ص: ١٣١٠. وفي كتاب الأحكام : (٩٣/٦٨) . باب أمر الوالي إذا وجّه أميرين إلى موقع : أن يتطاوعا ولا يتعاصيـا : (٢٢) . برقم: (٧١٧٢) .ص: ١٥١١. وطرفاً منه بنحوه في كتاب المغازي: (٦٤/٣٨) . باب بعث أبي موســى ومعاذ إلى اليمن قبل حجّة الوداع : (٦٠/٦١). برقم: (٤٣٤١) . (٤٣٤٢) .ص: ٩٠٣.

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الجهاد والسّير: (٣٢) . باب في الأمر بالتّيسير وتـــرك التّنفـــير : (٣) . برقـــم: (١٧٣٣) . ٣/١٣٥٩. وطرفاً منه بنحوه في كتاب الأشربة : (٣٦) . باب بيان أنّ كلّ مســـكر خمـــر : (٧) . ٣/١٥٨٦.

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : " يسّروا ولا تعسّروا ، وسكّنوا ولا تنفّروا " [1] .

بل كان يغضب ﷺ أشدّ الغضب إذا خالف بعض أصحابه التّيسير وشقّ على النّاس .

عن أبي مسعود الأنصاري ﷺ قال : جاء رجل إلى رسول اللّه ﷺ فقال : إنّي لأتأخّر عن صلاة الصّبح من أجل فلان ، ممّا يطيل بنا . فما رأيت النّبيّ ﷺ غضب في موعظة قطّ أشدّ ممّا غضب يومئذ ، فقال : " يا أيّها النّاس إنّ منكم منفّرين فأيّكم أمَّ النّاس فليوجز ، فإنّ من ورائه الكبير والضّعيف وذا الحاجة " [2] .

وعن عائشة (رضي الله عنها) قالت : صنع رسول اللّه ﷺ أمراً فترخّص فيه ، فبلغ ذلك ناساً من أصحابه ، فكأنّهم كرهوه وتنزّهوا عنه ، فبلغه ذلك ، فقام خطيباً فقال : " ما بال رجال بلغهم عنّي أمر ترخّصت فيه فكرهوه وتنزّهوا عنه ، فو اللّه لأنا أعلمهم باللّه وأشدّهم له خشية " [3] .

---

(١) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الأدب : (٧٨/٥٢) . باب قول النّبي ﷺ : "يسّروا ولا تعسّروا " : (٨٠) . برقم: (٦١٢٥) . ص: ١٣١٠. و بلفظ مقارب في: كتاب العلم : (٣) . باب ما كان النّبي ﷺ يتخوّلهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا : (١١) . برقم: (٦٩) . ص: ٣٢.
صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الجهاد والسّير : (٣٢) . باب في الأمر بالتّيسير وترك التّنفير : (٣) . برقم: (١٧٣٤) . ١٣٥٩/٣. و بلفظ مقارب برقم: (١٧٣٢) . ١٣٥٨/٣. عن أبي موسى ﷺ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب العلم : (٣) . باب الغضب في الموعظة والتّعليم إذا رأى ما يكره: (٢٨) . برقم: (٩٠) . ص: ٣٧ . وفي كتاب الأذان (الصّلاة) : (١٠/٥) . باب تخفيف الإمام في القيام . وإتمام الرّكوع والسّجود : (٦١/٢١٢) . برقم: (٧٠٢) . وفي باب من شكا إمامه إذا طوّل : (٦٣/٢١٤) . برقم: (٧٠٤) . ص: ١٥٨. وفي كتاب الأدب : (٧٨/٥٢) . باب ما يجوز من الغضب والشّدّة لأمر اللّه: (٧٥) . برقم: (٦١١٠) . ص: ١٣٠٨ . وفي كتاب الأحكام : (٩٣/٦٨) . باب هل يقضي الحاكم أو يفتي وهو غضبان : (١٣) . برقم: (٧١٥٩) . ص: ١٥٠٧ .
صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الصّلاة : (٤) . باب أمر الأئمّة بتخفيف الصّلاة في تمام : (٣٧) . برقم: (٤٦٦) . ١/ ٣٤٠ .

(٣) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب الأدب : (٧٨/٥٢) . باب من لم يواجه النّاس بالعتاب : (٧٢) . برقم: (٦١٠١) . ص: ١٣٠٦. وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة : (٩٦/٧١) . باب ما يكره من التّعمّق والتّنازع في العلم والغلو في الدّين والبدع : (٥/٦) . برقم: (٧٣٠١) . ص: ١٥٣٤.

ففي هذه النّصوص وغيرها الكثير دعوة حارّة إلى القائمين بأمر الدّعوة أن يلتزموا مبدأ التّيسير في دعوتهم ، والتّسهيل في إبلاغهم ، ولا يكونون وجوهاً كالحة لدعوة اللّه ، منفّرين عنها ، مبعدين النّاس عن طريقها ، صادّين عن الالتزام بها .

فإنّ الدّاعية المُيَسِّرَ محبوب لدى الخلق ، قريب من قلوبهم ، يلتفّون حوله ، ويأخذون بقوله ، ممّا يعينه على المداومة ، ويعطيه القدرة على الاستمرار وعدم الانقطاع .

وعليه أن يتدرّج معهم في الأحكام فذلك أدعى لقبولهم ، وأكثر إعانة لهم وله على الثّبات .

قال النّووي (رحمه الله) :

" وقد كانت أمور الإسلام في التّكليف على التّدريج ، فمتى يسّر على الدّاخل في الطّاعة أو المريد للدّخول فيها سهلت عليه ، وكانت عاقبته غالباً التّزايد منها ، ومتى عسّرت عليه أو شك أن لا يدخل فيها ، وإن دخل أو شك أن لا يدوم ، أو لا يستحليها "(1) .

والدّاعية المتعنّت المتزمّت تنفر منه طباع النّاس ، وتستثقله نفوسهم ، فيستوحشون منه ، ويفرّون عنه ، فيتطرّق إليه اليأس ، وينتابه الكلل ، ويجرفه الملل ، بما يرى من خلو حصيلته من المكاسب ، وتبعثر جهده في غير طائل ، فتخمد روح الدّعوة في نفسه ، وينتابه الخمول والكسل فينقطع عن الأداء ، ويتوقّف عن العطاء ، فيغيب عنه الثّبات ، ويفارقه الصبر .

صحيح مسلم: بلفظه و بلفظ مقارب في: كتاب الفضائل : (٤٣) . باب علمه ﷺ باللّه تعالى وشدّة خشيته: (٣٥) . برقم: (٢٣٥٦) . ٤/ ١٨٢٩.

قال أبو العبّاس القرطبي (رحمه الله) :

" ويستفاد من هذا الحديث النّهي عن التّنطّع في الدّين ، وعن الأخذ بالتّشديد في جميع الأمور . فإنّ دين اللّه يسر وهو الحنيفيّة السّمحة . فإنّ اللّه يحبّ أن تؤتى رخصه كما يحبّ أن تؤتى عزائمه " . المفهم : ٦/١٥٢-١٥٣ .

(1) شرح النّووي على مسلم : ١٢/٤١

﴿المطلب الثّـالث﴾

الحلــــم

الحِلْمُ : الأناة ، وقيل هو : الأناة والعقل ، وهو نقيض السّفه ، وجمعه أحــلام وحُلوم [١] . يقال : حَلُمَ فلان عن فلان إذا لم يقابله على إساءته ولم يجازه عليها .

واللّه عزّ وجلّ حليم عن عباده ، لأنّه يعفو عن كثير من سيّئاتهم ، ويمهلــهم بعد المعصية ، ولا يعاجلهم بالعقوبة والانتقام ، ويقبل توبتهم بعد ذلك [٢] .

وفي الاصطلاح :

قال الجرجاني (رحمه الله) :

" هو الطّمأنينة عند سورة الغضب . وقيل : تأخير مكافأة الظّالم " [٣] .

وقال الرّاغب (رحمه الله) :

" الحلم ضبط النّفس والطّبع عند هيجان الغضب " [٤] .

وهو على ضربين :

أحدهما : ما يرد على الخلق من قضاء اللّه ، من المصائب الّتي امتحن اللّــه بها عباده ، فيصبر العاقل تحت ورودها ، ويحلُم عن الخروج إلى ما لا يليق بــأهل العقل .

والآخر : ما يرد على النّفس بضدّ ما تشتهيه من المخلوقين .

فمن تعوّد الحلم فليس بمحتاج إلى التّصبّر ، لاستواء العدم والوجود عنده[٥] .

---

(١) وانظر : الصّحاح : ١٩٠٣/٥ .

(٢) وانظر : تفسير أسماء اللّه الحسنى . إملاء أبي إسحاق إبراهيم بن السّري الزّجّاج . تحقيق : أحمد يوسف الدّقــاق . طبع : مطبعة محمّد هاشم الكتبي . ١٣٩٥هـ ــ ١٩٧٥م : ص : ٤٥ . نضرة النّعيم : ١٧٣٦/٥ .

(٣) التّعريفات . ص : ١٢٥ .

(٤) المفردات . ص : ١٢٩ .

قال أبو حاتم (رحمه الله) :

" فالحلم يشتمل على المعرفة والصّبر والأناة والتّثبّت . ولم يقرن شيء إلى شيء أحسن من عفــو إلى مقــدرة . والحلم أجمل ما يكون من المقتدر على الانتقام " . روضة العقلاء : ص : ٣٤٥ .

(٥) المرجع السّابق . ص : ٣٥١

فالحلم في الإنسان دلالة على كمال العقل واستيلائه ، وانكسار قوّة الغضب وخضوعها للعقل [1] .

ولذا مدح اللّه أنبياءه به فقال عن إبراهيم عليه السّلام : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ [2] حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة : ١١٤) . وقال : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [هود:٧٥]. ومدح ابنه إسماعيل عليه السّلام كذلك فقال : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الصافات:١٠١].

وأمر رسوله ﷺ أن يتحلّى به فقال له : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٩٩] .

أي خذ العفو من أخلاق النّاس وما سمحت به أنفسهم ، وما سهل عليهم ، وتجاوز عن تقصيرهم في حقّك ، وأمرهم بالقول الحسن ، والفعل الجميل ، والخلق الكامل ، ولا تقابل أهل الجهل بجهلهم ، ولا تكافئ أهل السّفه بمثل سفههم ، بل أعرض عنهم واحلم عليهم [3] .

---

(١) انظر : إحياء علوم الدّين بهامشه إتحاف السّادة المتّقين : ٩/٤٣٣ .

(٢) الأوّاه : الّذي يكثر التّأوّه وهو أن يقول : أوه . وكلّ كلام يدلّ على حزن يقال له التّأوّه . ويعبر بالأوّاه من يظهر خشية اللّه تعالى . وقيل في قوله تعالى: ﴿ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾ أي المؤمن الدّاعي . وأصله راجع إلى ما تقدّم . المفردات : ص : ٣٢ .

(٣) هذه آية جمعت مكارم الأخلاق . وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها كما قال جعفر الصّادق (رحمه الله) . وهي متضمّنة لقواعد الشّريعة في المأمورات والمنهيات . وللوقوف على معناها بتوسّع وما ذكرته عنها . انظر : جامع البيان : ٩/١٥٤-١٥٦ . أحكام القرآن لابن العربي : ٢/٨١٢-٨١٥ . التّفسير الكبير : ١٥/٩٥-٩٧ . الجامع لأحكام القرآن : ٧/٣٤٤-٣٤٧ . تفسير القرآن العظيم : ٢/٤٤٠-٤٤١ . الجواهر الحسان : ٢/٧٠-٧١ . روح المعاني : ٩/١٤٦-١٤٧ . فتح البيان : ٥/١٠٨-١٠٩ . محاسن التّأويل : ٧/٢٩٢٩-٢٩٣٠ . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٢٧٦ .

ولذا كان ﷺ في قمّة من الحلم حتّى قالت عائشة (رضي الله عنها) عنه : " ما انتقم رسول اللّه ﷺ لنفسه إلاّ أن تنتهك حرمة اللّه فينتقم لله بها" [(١)] .

أي كان يصبر على من جهل عليه ويحتمل جفاه ، ويصفح عمّن آذاه في خاصّة نفسه ، ولكن إذا انتهك حقّ من حقوق اللّه لا يعفو بل إن كان فيه حدّ أقامه[(٢)].

كما مدح سبحانه المؤمنين المتّصفين به فقال : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٤].

وقال : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان:٦٣].

وقال : ﴿ ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الفرقان:٧٢].

وقال : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القصص:٥٤-٥٥] .

---

(١) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب المناقب: (٦١/٣٧) . باب صفة النّبي ﷺ : (٢٣) . برقم: (٣٥٦٠) . ص: ٧٥١. وبلفظ مقارب في: كتاب الأدب: (٧٨/٥٢) . باب قول النّبي ﷺ : "يسّروا ولا تعسّروا" : (٨٠) . برقم: (٦١٢٦) . ص: ١٣١٠. وفي كتاب الحدود : (٨٦/٦٠) . باب إقامة الحدود والانتقام لحرمات اللّه : (١٠) . برقم: (٦٧٨٦) . ص: ١٤٣٤. وفي كتاب الحدود (المحاربين) : (٨٦/٦١) . باب كم التّعزير والأدب: (٤٢/٢٩) . برقم: (٦٨٥٣) . ص: ١٤٤٦.
صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب الفضائل : (٤٣) . مباعدته ﷺ للآثام : (٢٠) . برقم: (٢٣٢٧) . ٤/١٨١٣.

(٢) المفهم : ٦/١١٨-١١٩ . بتصرّف .

وقال في موطن الدّعوة : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت:٣٤-٣٥].

فمتى ما حلّ الحنق بقلوب المتّصفين بالحلم على مسيء لهم كظموه ، ولم ينتقموا منه بقول أو فعل ، وزادوا على ذلك بمقابلة إساءته بالعفو عنه ، والمسلمحة له ، وعدم مؤاخذته ، وسعوا في الإحسان إليه بإيصال النّفع له ودفع الشّرّ عنه ، والمسالمة له ، لأنّهم يكرمون أنفسهم وينزّهونها عن مواطن السّوء ، ومقابلة الجاهل بجهله ، والمسيء بإساءته ، واللّئيم بلؤمه ، والسّفيه بسفهه . لعلمهم أنّ الحسنة لا تساوي السّيّئة لما بينهما من الفرق الشّاسع والبون الكبير . وأن مقابلة المسيء بفعله لا تفيد شيئاً ، بل تزيد الشّحناء ، وتورث البغضاء ، وتكثر العداء . وقصدهم الّذي يسعون إليه إرضاء اللّه ، ونيل مثوبته .

فكانت العاقبة أن انقلب شرّ ذلك المسيء خيراً ، وبغضه محبّة ، وإساءته إحساناً ، وعداوته صداقة . وهذا أثر الحلم على النّفوس .

ومن الأحاديث قوله ﷺ لأشج عبد القيس[١] " إنّ فيك لخصلتين يحبّهما اللّه : الحلم والأناة " [٢] .

فالحليم محبوب عند اللّه ، محبوب عند النّاس .

قال لقمان (رحمه الله) :

" ثلاثة لا يعرفون إلاّ عند ثلاثة : لا يعرف الحليم إلاّ عند الغضب ، ولا الشّجاع إلاّ عند الحرب ، ولا الأخ إلاّ عند الحاجة إليه " [٣] .

---

(١) اسمه : المنذر بن عائذ بن المنذر بن الحارث العصري ـ بمهملتين مفتوحتين ـ أشجّ عبد القيس الصّحابي .
انظر : تقريب التّهذيب: ٥٤٦/١ .

(٢) صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإيمان : (١) . باب الأمر بالإيمان باللّه ورسوله ﷺ وشرائع الدّين : (٦) . برقم: (١٧) . عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) إلاّ إنّه قال : "خصلتين" .وبرقم: (١٨) .عن أبي سعيد ﷺ : ٤٨/١-٤٩ .

(٣) إحياء علوم الدّين بهامشه إتحاف السّادة المتّقين : ٤٤٧/٩ .

وقال عليّ رضي الله عنه :

" إنّ أوّل ما عوّض الحليم من حلمه أنّ النّاس كلّهم أعوانه على الجاهل " [١] .

وقال الحسن البصري(رحمه الله) :

" اطلبوا العلم وزيّنوه بالوقار والحلم " [٢] .

وعن عليّ بن الحسين بن عليّ[٣](رحمه الله) أنّه سبّه رجل فرمى إليه بخميصة كانت عليه ، وأمر له بألف درهم . فقال بعضهم : " جمع له خمس خصال محمودة : الحلم ، وإسقاط الأذى ، وتخليص الرّجل ممّا يبعده من الله عزّ وجلّ ، وحمله على النّدم والتّوبة ، ورجوعه إلى المدح بعد الذّم . اشترى جميع ذلك بشيء من الدّنيا يسير " [٤] . وهذا موقف فريد في الحلم .

قال أبو حاتم بن حبّان (رحمه الله) :

" العاقل يلزم الحلم عن النّاس كافّة ، فإن صعب ذلك عليه ، فليتحالم لأنّه يرتقي به إلى درجة الحلم .

وأوّل الحلم المعرفة ، ثمّ التّثبّت ، ثمّ العزم ، ثمّ التّصبّر ، ثمّ الرّضا ، ثمّ الصّمت والإغضاء ، وما الفضل إلاّ للمحسن إلى المسيء ، فأمّا من أحسن إلى المحسن ، وحلُم عمّن لم يؤذه ، فليس ذلك بحلم ولا إحسان " [٥] .

---

(١) المرجع السّابق : ٤٤٤/٩ .

(٢) المرجع نفسه : ٤٤٣/٩ .

(٣) عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب القرشي الهاشمي . أبو الحسين . ويقال أبو الحسن . زين العابدين . التّابعي الجليل . ثقة ثبت . فقيه عابد . فاضل مشهور . قال عنه الزّهري : " ما رأيت قرشيّاً أفضل منه " . توفي سنة ٩٢هـ . وقيل: بعدها .

و انظر : الطّبقات الكبرى: ٢١١/٥. معرفة الثّقات: ١٥٣/٢. الجرح والتّعديل: ١٧٨/٦ . مشاهير علماء الأمصار: ٦٣/١ . التّعديل والتّجريح: ٩٥٦/٣ . تهذيب الكمال : ٣٨٢/٢٠ . تذكرة الحفّاظ: ٧٤/١ . الكاشف: ٣٧/٢ . تهذيب التّهذيب: ٢٦٨/٧ . تقريب التّهذيب: ٤٠٠/١ . إسعاف المبطأ : ص: ٢١ .

(٤) إحياء علوم الدّين بهامشه إتحاف السّادة المتّقين : ٤٤٥/٩ .

(٥) روضة العقلاء . ص : ٣٤٧ .

وقال : " ما ضمّ شيء إلى شيء هو أحسن من حلم إلى علم ، وما عدم شيء في شيء هو أقبح من عدم الحلم في العالم ، ولو كان للحلم أبوان لكان أحدهما العقل والآخر الصّبر " [١] .

وقال ابن القيّم (رحمه الله) :

" وفي الصّفح والعفو والحلم : من الحلاوة والطّمأنينة والسّكينة ، وشرف النّفس ، وعزّها ورفعتها عن تشفّيها بالانتقام ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام " [٢] .

وأقوال أهل العلم في الحلم كثيرة جدّاً ، وذلك لمكانته ، وشدّة الحاجة إليه ، وعظم شأنه ، وبالغ نفعه .

والدّاعية إلى اللّه أحوج النّاس إليه ، وأكثرهم ضرورة للتّحلي به كي يجذب القلوب إليه ، ويحبّب النّاس فيه ، ويكسب بذلك ثقتهم ، ويؤثّر في نفوسهم [٣] .

وهو يقابل فئات مختلفة ومشارب متعدّدة من المدعوّين ، منهم المهذّب الأديب ، ومنهم الشّرس العنيد ، ومنهم السّفيه الطّائش ، وقد يجد من بعضهم ما يكدّر الصّفو ، ويجلب الغضب ، ويدعو إلى الانتقام ، والرّد بالمثل ، فإن لم يكن مفعّماً بخلق الحلم ، كاظماً لغيظه ، متّسماً بالعفو ، متجلّداً بالصّبر عرّض نفسه للذلّ والهوان ، ودعوته للطّعن والإساءة والاهتزاز ، وقد يكون ذلك سبباً للنّفرة عنه وعن دعوته ، فيفسد عند الإصلاح ، ويعوجّ عند الاستقامة ، ويفشل عند النّجاح ، فيكون عدم حلمه سبباً في عدم ثباته ، وضياع جهده ، وتبدّد سعيه .

قال الإمام الشّافعي (رحمه الله) :

إذا نطق السّفيه فلا تجبه ******* فخير من إجابته السّكوت
فإن كلّمته فرّجت عنه ******* وإن تاركته كمداً يموت .[٤]

---

(١) المرجع السّابق . ص : ٣٤٩-٣٥٠ .

(٢) مدارج السّالكين : ٣١٩/٢ .

(٣) وانظر : أخلاق الدّاعية . ص : ٢٦ ، ٣٠ .

(٤) روضة العقلاء : ص : ٣٤٩ . هامش (٣) . ولم أقف عليهما في ديوان الشّافعي (رحمه الله) المطبوع .

وفي ذلك قيل :

إذا أنا كافيـت الجهـول بفعـله ••••••• فهل أنا إلاّ مثله إذ أحاوره

ولكن إذا ما طاش بالجهل طائش ••••••• عليّ فإنّي بالتّحلّم قاهره[1]

---

(١) المرجع السّابق . ص : ٣٤٧ . ونسبهما للكريزي .

﴿المطلب الرّابع﴾

التّواضـــع

التّواضع مصدر تواضع ، أي : تذلّل وتخاشع . وهو من وضع الشّـــيء إذا حطّه[1] .

وحقيقته خضوع العبد لصولة الحقّ ، وانقياده لـــها ، فـلا يقابلـــها بصولتـــه عليها [2] .

وقيل هو : إظهار التّنزّل عن المرتبة لمن يراد تعظيمه ، أو تعظيم من فوقـــه لفضله[3] .

وهو ثلاث درجات :

الأولى : أن يتواضع العبدُ للدّين فلا يعارضـــه بعقـــل أو قيـــاس أو ذوق أو سياسة ، ولا يتّهم دليلاً من أدلّته بحيث يظنّه فاسداً أو ناقصاً أو قاصراً ، ولا يخالفـه بقول أو فعل .

الثّانية : أن يرضى بأخوّة المسلم فلا يترفّع عليه ، ويقبل الحقّ ممّن أبغـــض وأحبّ فلا يردّه ، ويقبل عذر من أساء إليه .

الثّالثة : أن يتواضع للحقّ فيعبد اللّه بما أمره به لا بما رآه أو اعتـــاده ، وأن لا يرى لنفسه حقّاً على اللّه لأجل عمله[4] .

---

(١) وانظر : القاموس المحيط . ص : ٩٩٦-٩٩٧ .

(٢) مدارج السّالكين : ٣٣٣/٢ .

(٣) انظر : فتح الباري : ٣٤١/١١ . طبعة دار المعرفة . نضرة النّعيم : ١٢٥٥/٤ .

قال أبو العبّاس القرطبي (رحمه الله):

" التّواضع نقيض التّكبّر . والتّكبّر : هو التّرفّع على الغير . فالتّواضع : هو الانخفاض للغير . وحاصله أنّ المتكـبّر يرى لنفسه مزيّة على الغير تحمله على احتقاره . والمتواضع لا يرى لنفسه مزيّة . بل يراها لغيره بحيث يحمله ذلـــك على الانخفاض له مراعاة لحقّه ... والتّواضع ... منه : أعلى وأدنى . والأعلى : هو التّواضع لله تعالى . ولكتابـه . ولرسوله . والأدنى : هو ما عداه " . المفهم : ١٤٠/٧-١٤١ .

(٤) انظر : مدارج السّالكين : ٣٣٤/٢-٣٣٨ .

وقد دعا القرآن الكريم إلى خُلق التّواضع ، وأمر به سيّد المرسلين .

فقال تعالى : ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الحجر:٨٨] .

وقال : ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشّعراء:٢١٥] .

أي ألن جانبك إليهم ، وتلطّف في خطابهم ، وتودّد وتحبّب إليهم ، وحَسِّن خلقك معهم ، ولا تترفّع عليهم ، وتذلّل لهم . وقد فعل ﷺ [١] ذلك كلّه وما هو أكثر في هذا المقام .

كما دعا القرآنُ عبادَ اللّه المؤمنين أن يتخلّقوا به . فقال سبحانه : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾ [الفرقان:٦٣].

أي يمشون بسكينة ووقار من غير استكبار ولا مرح ولا أشر ولا بطر[٢] .

قال السّعدي (رحمه الله) :

" أي ساكنين متواضعين لله وللخلق ، فهذا وصف لهم بالوقار والسّكينة ، والتّواضع لله ولعباده "[٣] .

وقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة:٥٤] .

---

(١) وانظر : تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٥٤٨ . وانظر : مدارج السّالكين : ٢/٣٢٨-٣٢٩ . فقد ساق فيه ابن القيّم (رحمه الله) نماذج مشرقة من تواضعه ﷺ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٣/٥١٨ . وانظر : مدارج السّالكين : ٢/٣٢٧ .

(٣) تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٥٣٤ .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" هذه صفات المؤمنين الكمّل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه ، متعزّزاً على خصمه وعدوّه ، كما قال تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح:٢٩] " (١) .

فهم ذليلون لإخوانهم المؤمنين ذلّ رحمة وعطف وشفقة وإخبات وتواضع ولين وانقياد وليس بذلّ هوان وضعف . وهم أعزّة على الكفار عزّ قوّة ومنعة وغلبة ، وليس بعزّ ذات واستعلاء نفس(٢) .

كما حَذّرَ القرآنُ ممّا يناقض خُلُقَ التّواضع ويخلّ به .

قال عزّ وجلّ : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الإسراء:٣٧].

وقال : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ (٣) خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [لقمان:١٨] .

أي لا تمش متكبّراً متغطرساً متجبّراً مفتخراً بنفسك معجباً بها ، متعالٍ على النّاس ، متعاظماً عليهم ، فإنّك عندئذ تكون محتقراً عند الله وعند النّاس ، مبغضاً ممقوتاً لديه ولديهم ، مبعداً منه ومنهم . بل امش متواضعاً ، متذلّلاً لربّك ، مخبتاً(٤) مستكيناً ، فإنّه يحبّك الله ويحبّك النّاس(٥) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ١١١/٢ . وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢٢٠/٦ . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ١٩٨ . في ظلال القرآن : ٩١٩/٢ .

(٢) وانظر : مدارج السّالكين : ٣٢٧/٢ .

(٣) الصَّعَر : ميل في العنق . والتّصْعير : إمالته عن النّظر كِبْراً . المفردات : ص: ٢٨١ .

(٤) المُخْبِت: هو المطمئن المتواضع الخاشع لله . انظر : لسان العرب : ٢/ ٢٧ .

(٥) وانظر في معنى الآيتين : تفسير القرآن العظيم : ٦٦/٣-٦٧ ، ٧١٠ . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٤٠٩ ، ٥٩٧ .

وفي حديث عياض بن حمار المجاشعي ﷺ قال ﷺ : " وإنّ اللّه أوحى إلـيّ أن تواضعوا حتّى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد " (1) .

وعن أبي هريرة ﷺ عن رسول اللّه ﷺ قال : " ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد اللّه عبداً بعفو إلاّ عزّاً ، وما تواضع أحد لله إلاّ رفعه اللّه " (2) .

فقوله : " وما تواضع أحد لله إلاّ رفعه اللّه " فيه وجهان :

أحدهما : يرفعه في الدّنيا ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلة ، ويرفعه اللّه عند النّاس ويجلّ مكانه .

والثّاني : أنّ المراد ثوابه في الآخرة ورفعه فيها بتواضعه في الدّنيا (3) .

وعن أنس ﷺ قال : كانت ناقة لرسول اللّه ﷺ تُسَمَّى العَضْباء ، وكانت لا تُسْبَق ، فجاء أعرابيٌّ على قعود له فسبقها ، فاشتدّ ذلك على المسلمين ، وقالوا : سُبِقَتِ العضباء . فقال رسول اللّه ﷺ : " إنّ حقّاً على اللّه أن لا يرفع شيئاً من الدّنيا إلاّ وضعه " (4) .

---

(1) صحيح مسلم: بلفظه ــ جزء من حديث ــ في كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها : (51) . باب الصّفات الّتي يعرف بها في الدّنيا أهل الجنّة وأهل النّار : (16) . برقم: (2865) . 4/2199.

(2) المرجع السّابق: بلفظه في : كتاب البر والصّلة والآداب : (45:). باب استحباب العفو والتّواضع : (19) . برقم: (2588) . 4/2001.

(3) شرح النّووي على مسلم : 16/142 .

قال أبو العبّاس القرطبي (رحمه الله) في معرض بيان الحديث :

" التّواضع يقتضي متواضعاً له . فإن كان المتواضع له هو اللّه تعالى ، أو من أمر اللّه بالتّواضع له كالرّسول ، والإمام ، والحاكم ، والوالد ، والعالم فهو التّواضع الواجب المحمود ، الّذي يرفع اللّه تعالى به صاحبه في الدّنيا والآخرة . وأمّا التّواضع لسائر الخلق فالأصل فيه : أنّه محمود ، ومندوب إليه ، ومرغّب فيه إذا قصد به وجه اللّه . ومن كان كذلك رفع اللّه تعالى قدره في القلوب ، وطيّب ذكره في الأفواه ، ورفع درجته في الآخرة . وأمّا التّواضع لأهل الدّنيا ، ولأهل الظّلم فذلك هو الذّلّ الّذي لا عزّ معه . والخسّة الّتي لا رفعة معها . بل يترتّب عليها ذلّ الآخرة ، وكلّ صفقة خاسرة . نعوذ باللّه من ذلك " . المفهم : 6/575 .

(4) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الرّقاق : (81/55) . باب التّواضع : (38) . برقم: (6501) . ص: 1382 . و بلفظ مقارب في: كتاب الجهاد والسّير : (56/32) . باب ناقة النّبي ﷺ : (59) . برقم: (7872) . ص: 606 .

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) :

" فيه إشارة إلى الحثّ على عدم التّرفّع ، والحثّ على التّواضع ، والإعلام بأنّ أمور الدّنيا ناقصة غير كاملة " . وقال : " فيه أيضاً حُسن خلق النّبيّ ﷺ وتواضعه لكونه رضي أن أعرابيّاً يسابقه " [1] .

ومن أقوال أهل العلم في التّواضع :

قال أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه :

" وجدنا الكرمَ في التّقْوى ، والغِنَى في اليقين ، والشّرفَ في التّواضعِ " [2] .

وقال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه :

" تعلّموا العلم ، وتزيّنوا معه بالوقار والحلم ، وتواضعوا لمن تتعلّمون منه ولمن تعلّمونه ، ولا تكونوا جبابرة العلماء فيذهب باطلكم حقّكم " [3] .

وقال قتادة (رحمه الله) :

" من أعطي مالاً أو جمالاً أو ثناء أو علماً ثمّ لم يتواضع فيه كان عليه وبالاً يوم القيامة " [4] .

وقال ابن عبد البر (رحمه الله) :

" ومن أفضل آداب العالم تواضعه ، وترك الإعجاب بعلمه ، ونبذ حبّ الرّئاسة عنه " [5] .

---

(١) فتح الباري : ٣٤١/١١ . طبعة دار المعرفة .

(٢) إحياء علوم الدّين بهامشه إتحاف السّادة المتّقين : ٢٧٠/١٠ .

(٣) جامع بيان العلم :ص : ٢٢٣ . وقريباً منه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه . في شعب الإيمان: ٢٨٧/٢. وكتاب الزّهد لأبي بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الشّيباني . تحقيق : عبد العلي عبد الحميد حامد . طبعة : دار الرّيان للتراث . القاهرة . الطّبعة الثّانية : ١٤٠٨هـ : ص : ١٢٠ . ونحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه . في الفردوس بمأثور الخطاب: ٧٩/١ .

(٤) إحياء علوم الدّين بهامشه إتحاف السّادة المتّقين : ٢٦٠/١٠

(٥) جامع بيان العلم : ص : ٢٢٣ .

فهذه النّصوص وغيرها الكثير تبيّن حاجة المسلم إلى خُلق التّواضع لأنّه خُلق من أخلاق المؤمنين ، يجلب محبّة ربّ العالمين وقربه ، ويوصل إلى مرضاته وجنّته .

والدّاعية إلى اللّه أشدّ حاجة له من غيره ، إذ النّفوس بطبعها تميل إلى من يتواضع وتلتفّ حوله ، وتنفر عن من يغتر ويتكبّر .

فالدّاعية الّذي بسط وجهه للنّاس ، وعايشهم في أفراحهم وأتراحهم ، وجالسهم وخالطهم ، وأكل ما يأكلون وشرب ما يشربون ، ولم يترفّع عنهم في ملبس أو مركب ، ولم يحتقرهم أو يستصغرهم أو يستطيل عليهم بقوله أو فعله ، أو يكثر الحديث بتعدّد مآثره ، ومدح نفسه ، وذمّ غيره ، فإنّه يكون قريباً من قلوبهم ، محبوباً لنفوسهم ، يسمعون عظاته ، ويأخذون بنصائحه ، ويتّبعون إرشاده ، وينجذبون لكلامه ، ويفتحون قلوبهم لدعوته ، ويستيقنون صدقه وإخلاصه لأنّهم يعلمون حينئذ أنّه يُعَبِّدُهم لله لا لنفسه ، ويدعوهم لربّهم لا لشخصه .

فتوفّق دعوته وتثمر ، ويكثر نتاجه ، ويزداد نفعها فيزداد نشاطه ، وترتفع همّته فيكثر عطاؤه ، ويستمر بذله ، ويجد في خلق التّواضع ما يعينه على الصّبر والثّبات .

وبعد فإنّ الرّفق والتّيسير والحلم والتّواضع هي أهم الأخلاق الّتي ينبغي للدّاعية أن يتحلّى بها في نفسه ، ويصطحبها في دعوته .

وإن كان هنالك كثير من الأخلاق الحسنة الّتي يحتاج لها الدّاعية كالصّدق ، والكرم ، والسّماحة ، والرّحمة ، والتّضحية ، والجرأة ، والشّجاعة ، واليقظة ، والحزم ، والجديّة ، والبشاشة ، والتّفاؤل ، والسّكينة ، والوقار ، والعفّة ، وعلوّ الهمّة ، وقوّة العزيمة ، والقناعة ، والنّزاهة ، والورع ، وعدم المداهنة ، وعدم الكسل والخمول واليأس . وغيرها كثير ، وكلّها معين على ثبات الدّاعية . ولكنّي خصصت أهمّها بالذّكر وأعظمها أثراً في الثّبات ، خشية الإطالة ، وتجنّباً للملل .

وفي التّنبيه على القليل ما يغني عن الكثير ، وما لا يؤخذ كلّه لا يترك جله .

المبحث السّابع

التّأنّي وعدم العجلة

التّأنّي : عدم العجلة في طلب شيء من الأشياء والتّمهّل في تحصيله والتّرفّق فيه(1) . والعجلة : فعل الشّيء قبل وقته اللائق به (2) .

قال الرّاغب (رحمه الله) :

" العجلة طلب الشّيء وتحرّيه قبل أوانه ، وهو مقتضى الشّهوة ، فلذلك صارت مذمومة في عامّة القرآن حتّى قيل : العجلة من الشّيطان " (3) .

ولقد ذمّ اللّه سبحانه العجلة في مواضع كثيرة من كتابه ، وعاب الإنسان لتخلقه بها .

فقال : ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾ [الإسراء:11] .

فقد أخبر سبحانه عن عجلة الإنسان حيث يدعو في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله بالشّرّ ، أي بالموت أو الهلاك والدّمار واللّعنة ، وهذا لفرط جهله ، فيبادر بذلك كما يبادر بالدّعاء في الخير ، فلو استجاب اللّه له لهلك بدعائه ، ولكن اللّه يلطف به (4) .

فهو مطبوع على العجلة حيث يسارع إلى كلّ ما يخطر بباله لا ينظر إلى عاقبته(5) .

---

(1) نضرة النّعيم : 3/865 .

(2) التّوقيف على مهمّات التّعاريف . ص : 504 . وانظر : التّعريفات . ص : 36 .

(3) المفردات . ص : 323 . وقوله : " حتّى قيل : العجلة من الشيطان " . هذا لفظ حديث يأتي قريباً .

(4) انظر : تفسير القرآن العظيم : 3/44 . تيسير الكريم الرّحمن . ص : 406 .

(5) تفسير البيضاوي المسمّى أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل للقاضي عبد اللّه بن عمر البيضاوي . طبعة : دار الفكر . بيروت . 1416هـ — 1996م : 3/434 . بتصرّف . وانظر : الجامع لأحكام القرآن : 10/226 . فتح القدير : 3/211 .

وقال ابن عبّاس (رضي الله عنهما) :

" ضجراً ، لا صبر له على السرّاء والضرّاء "[1] .

وقـــال ســـبحانه : ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٣٧] .

أي طبع الإنسان على العجلة ، فيستعجل كثـــيراً مـــن الأشـــياء وإن كـــانت مضرّة [2] .

قال البيضاوي (رحمه الله) :

" كأنّه خلق منه لفرط استعجاله وقلّة ثباته كقولك : خلق زيد مـــن الكـــرم ، جعل ما طبع عليه منزلة المطبوع وهو منه مبالغة في لزومه له ... ومـــن عجلتـــه مبادرته إلى الكفر واستعجال الوعيد " [3] .

وقد نهى سبحانه رسوله ﷺ عن العجلة بإهلاك الكفّار والإسراع في عذابـــهم مع كفرهم وعداوتهم البالغة . فقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ ﴾ [مريم:٨٣-٨٤] .

أي لا تعجل يا رسولنا على هؤلاء الكفّار بطلبك من اللّـــه إهلاكـــهم ووقـــوع العذاب بهم ، وذلك بسبب تصميمهم على الكفر وعنادهم للحـــقّ ، وتمرّدهـــم عـــن الاستجابة لدعوتك ، فنحن نعدّ لهم الأيام واللّيالي والشّهور والسّنين من أعمارهم إلى انتهاء آجالهم ، كما نعدّ أنفاسهم وخطواتهم ولحظاتهم حتّى يأتي أجلـــهم ، وهـــم لا محالة صائرون إلى عذاب اللّه ونكاله ، فلم العجلة ؟ [4] .

---

(١) معالم التتريل :١٠٧/٣ . فتح القدير : ٢١٢/٣ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ٢٨٨/١١ .

(٣) أنوار التتريل : ٩٣/٤ . وانظر : معالم التتريل :٢٤٤/٣ . فتح القدير : ٤٠٧/٣-٤٠٨ . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٤٧٢ .

(٤) انظر المعنى في : معالم التتريل : ٢٠٨/٣-٢٠٩ . الجامع لأحكام القرآن : ١٥٠/١١ . أنوار التتريل : ٣٤/٤ . تفسير القرآن العظيم : ٢٢٠/٣ . فتح القدير : ٣٥٠/٣ . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٤٤٩ .

كما أمره سبحانه أن يصبر ويثبت على دعوته كما ثبت إخوانه من الرّسل السّابقين له ، ولا يتعجّل بهلاك الكفّار المعاندين له ليرتاح من العناء والمشقّة ، بل عليه أن يكافح ويجاهد في تبليغ دعوة اللّه صابراً ثابتاً محتسباً ، ليس بضجر ولا متضايق ولا متعجّل حتّى يؤدّي مهمّته الّتي كلّفه اللّه بها .

قال تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحقاف:٣٥] .

قال ابن جرير (رحمه الله):

" يقول تعالى ذكره لنبيّه محمّد ﷺ ، مثبّته على المضي لما قلّده من عبء الرّسالة ، وثقل أحمال النّبوّة ﷺ ، وآمره بالائتساء في العزم على نفوذ لذلك بأولي العزم من قبله من رسله الّذين صبروا على عظيم ما لقوا فيه من قومهم من المكاره ، ونالهم فيه منهم من الأذى والشّدائد ... وقوله ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ يقول : ولا تستعجل عليهم بالعذاب . يقول : لا تعجل بمسألتك ربّك ذلك لهم ، فإنّ ذلك نازل بهم لا محالة " (١) .

وقال الرّازي (رحمه الله):

" اصبر كما صبر الرّسل من قبلك على أذى قومهم . ووصفهم بالعزم لصبرهم وثباتهم " (٢) .

---

(١) جامع البيان : ٣٧/٢٦ .

(٢) التّفسير الكبير : ٣٥/٢٨ . وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢٢٠/١٦-٢٢١ . تفسير القرآن العظيم : ٢٦٣/٤ ــ وذكر (رحمه الله) أنّ أهل العلم اختلفوا في تعداد أولي العزم والأشهر أنّهم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد صلى الله عليهم جميعاً ــ . روح المعاني : ٣٤/٢٦-٣٥ . فتح البيان : ٤١/١٣ . محاسن التّأويل : ٥٣٦٩/١٥-٥٣٧٠ . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٧٢٨-٧٢٩

ولذلك أمر ﷺ أصحابه بالصّبر والثّبات على دعوة اللّه تعـــالى ، وذكّرهــم بأحوال السّابقين الّذين عانوا ما عانوا ، ولاقوا ما لاقوا من شدائد ومحن ، فثبتوا ولم يتعجّلوا . فكونوا أنتم مثلهم .

عن أبي عبد اللّه خباب بن الأرت رضي الله عنه قال : شكونا إلى رسول اللّه ﷺ وهــو متوسّد بردة له في ظلّ الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا ؟ فقال : " قد كـان مَنْ قبلكم يؤخذ الرّجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، ثمّ يؤتى بالمنشار فيوضـع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه وعظمه ما يصـــدّه ذلك عن دينه ، واللّه لَيُتِمَّنَّ اللّه هذا الأمر حتّى يسير الرّاكـب مـن صنعـاء إلـى حضرموت لا يخاف إلاّ اللّه والذّئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون " .

وفي رواية : " وهو متوسّد بردة وقد لقينا من المشركين شدّة " [1] .

وأخبرهم ﷺ بأنّ العجلة من الشّيطان لما يتبعه من الطّيش والخفّة والسّفه .

عن أنس رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال : " التّأنّي من اللّه ، والعجلة من الشّـــيطان ، وما شيء أكثر معاذير من اللّه ، وما من شيء أحبّ إلى اللّه من الحمد " [2] . .

بل مدح أشجّ عبد القيس بالتّأنّي وعدم العجلة . فقال له في حديث أبي ســعيد الخدري رضي الله عنه : " إنّ فيك لخصلتين يحبّهما اللّه ورسوله : الحلمُ والأناةُ " [3] .

---

(١) سبق تخريجه . انظر : ص : ٣٠٧ .

(٢) سنن البيهقي: بنحو منه ولفظه : " التّأني من اللّه والعجلة من الشّيطان " . في باب التّثبّت في الحكم :١٠/١٠٤.

مسند أبي يعلى: بلفظه في : ٢٤٨/٧ . برقم: (٤٢٥٦) .

مسند الحارث بن أبي أسامة : بلفظه ــ إلاّ إنّه قال : " اللّه عزّ وجلّ " . ٢/ ٨٢٨.

قال المنذري والهيثمي رحمهما : " رجاله رجال الصّحيح" . التّرغيب والـــترهيب : ٢٨٤/٢. مجمــع الزّوائــد : ١٩/٨.

وله شاهد عند التّرمذي والطّبراني عن سهل بن سعد السّاعدي رضي الله عنه . ولفظه : قال: قال رسول اللّه ﷺ : " الأنـــاة من اللّه والعجلة من الشّيطان " . سنن التّرمذي: كتاب البر والصّلة : (٢٤) . باب ما جاء في التّأنّي والعجلـــة : (٦٦) . برقم: (٢٠١٢) .ص:٣٣٥.

معجم الطّبراني الكبير: ١٢٢/٦. وانظر : السّلسلة الصّحيحة : ٤٠٤/٤ . برقم : (١٧٩٥) .

(٣) سبق تخريجه . انظر : ص : ٥٥٣ .

روى أبو داود عن زارع رضي الله عنه . وكان في وفد عبد القيس . قال : لّما قدمنا المدينة . فجعلنا نتبادر من رواحلنـــا . فَنُقَبِّل يَدَ النّبيّ ﷺ ورِجْله . قال : وانتظر المنذر الأشج حتّى أتى عَيْبَتَهُ (جراب من أدم تجعل فيه الثّياب) فلبـــس

وقد مدحه ﷺ بذلك لمّا ظهر له من تأنّيه وعدم عجلته [1] .

وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال ﷺ : " التّؤدة [2] في كلّ شيء إلاّ في عمل الآخرة " [3] .

ومن الآثار وأقوال أهل العلم المحذّرة من العجلة وعدم التّأنّي :

قال عبد اللّه بن مسعود ﷺ :

" إنّها ستكون أمور مشتبهات فعليكم بالتّؤدة ، فإنّك أن تكون تابعاً في الخير خيراً من أن تكون رأساً في الشّرّ " [4] .

ثويه . ثمّ أتى النّبيّ ﷺ فقال له : " إنّ فيك خَلّتَيْنِ يُحِبُّهما اللّهُ الحلمُ والأناةُ " قال : يا رسول اللّه أنا أتخلق بهما أم اللّه جبلني عليهما ؟ قال : " بل اللّه جبلك عليهما " . قال : الحمد للّه الّذي جبلني على خلّتين يحبّهما اللّه ورسوله " . سنن أبي داود : كتاب الأدب: (٤٠) . باب في قبلة الرّجل . برقم : (٥٢٢٥) . الشّطر الأوّل من الحديث إلى قوله : فنقبّل يد النّبي ﷺ ورجله " . قال عنه الشّيخ ناصر الألباني (رحمه اللّه) : "حسن دون ذكر الرّجل ". وقال عن باقي الحديث : " صحيح" . ص :٥٦١ . والحديث عند ابن ماجة نحوه في : كتاب الزّهد : (٣٧) . باب الحلم : (١٨) . برقم : (٤١٨٧ ، ٤١٨٨) . ص: ٤٥٢. وانظر روايات الحديث في مجمع الزّوائد : ٣٨٧/٩-٣٩٠ . ففيها ما يدلّل على تأنّيه وعدم عجلته ﷺ .

وانظر : المفهم : ١٧٨/١-١٧٩ . شرح النّووي على مسلم : ١٨٩/١

(١) انظر : المفهم : ١٧٨/١ .

(٢)التّؤدة : التّأنّي . يقال اتَّأَدَ في فعله وقولِه ، وتَوأَّد إذا تأنّى وَتَثَبّت ولم يَعْجَل .واتّئِدْ في أمْرِك : أي تَثَبّت. واصل التّاء فيها واو . النّهاية في غريب الحديث : ١٧٨/١ .

(٣) سنن أبي داود: بلفظه في : كتاب الأدب : (٤٠) . باب في الرّفق : (١٠) . برقم: (٤٨١٠) . قال الألباني (رحمه اللّه): " صحيح " . ص :٥٢٤ .

سنن البيهقي: بلفظه ــ وزاد : " في كلّ شيء خير ". في باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها . ١٩٤/١٠ .

مستدرك الحاكم: مثل رواية البيهقي . وقال : "هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين و لم يخرجاه " . و قال الذّهبي (رحمه اللّه): " على شرطهما " : ١٣٢/١ .

مسند أبي يعلى: بلفظ رواية الحاكم والبيهقي . في : ١٢٣/٢ . برقم: (٧٩٢) . قال المحقّق : " رجاله ثقات " .

وهو في السّلسلة الصّحيحة : ٤٠٣/٤ . برقم : (١٧٩٤) . وصحيح الجامع : برقم: (٣٠٠٩) . ٥٧٨/١ .

وذكره أبو عبد اللّه محمّد بن مفلح المقدسي في الآداب الشّرعية . تحقيق : شعيب الأرناؤوط و عمر القيّام . طبعة : مؤسّسة الرّسالة . بيروت . الطّبعة الثّالثة : ١٤١٩هـ ـــ ١٩٩٩م : ٢٢٩/٢ . وقال عن رجال إسناده : " كلّهم ثقات " . وقال المحقّقان : " وإسناده صحيح " .

(٤) الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية : ٣٢٨/١ .

وأورده ابن أبي شيبة في مصنّفه بلفظ مقارب في: ٤٥٦/٧ .

خطب الحسن بن عليّ ﷺ بالكوفة فقال : " إنّ الحلم زينة ، والوقار مروءة ، والعجلة سفه ، والسّفه ضعف ، ومجالسة أهل الدّناءة شين ، ومخالطة الفسّاق ريبة " [١] .

وعاب مالك (رحمه الله) العجلة وقال :" قرأ ابن عمر البقرة في ثمان سنين " . وقال : " العجلة نوع من الجهل والخرق " [٢] .

وقال أبو حاتم بن حبّان (رحمه الله):

" الرّافق لا يكاد يُسبَق ، كما أنّ العَجِل لا يكاد يَلْحق ، وكما أنّ من سكت لا يكاد يندم ، كذلك من نطق لا يكاد يسلم ، والعجل يقول قبل أن يعلم ، ويجيب قبل أن يُسأل ، ويحمد قبل أن يُجرّب ، ويذُمّ بعد ما يحمد ، ويعزم قبل أن يفكّر ، ويمضي قبل أن يعزم ، والعجل تصحبه النّدامة ، وتعتزله السّلامة ، وكانت العرب تكنّي العجلة أمّ النّدامات " [٣] .

وقال :

" العجلة تكون من الحِدّة ، وصاحب العجلة إن أصاب فرصته لم يكن محموداً ، وإن أخطأها كان مذموماً ، والعجل لا يسير إلاّ مناكباً للقصد ، منحرفاً عن الجادّة ، يلتمس ما هو أنكد وأوعر وأخفى مساراً ، يحكم حكم الورْهاء [٤] ، ويناسب أخلاق النّساء " [٥] .

---

(١) سير أعلام النّبلاء : ٣/٢٦٣ .

(٢) الآداب الشّرعية : ٢/٢٣٩-٢٤٠ . وانظر : العلل ومعرفة الرّجال للإمام أبي عبد اللّه أحمد بن حنبل الشّيباني . تحقيق : د . وصي اللّه بن محمّد عبّاس . طبعة : المكتب الإسلامي . دار الخاني . بيروت . الرّياض . الطّبعة الأولى : ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م : ٢/٧٢ .شعب الإيمان : ٢/٣٣١ .

(٣) روضة العقلاء . ص : ٣٥٥ .

(٤) الوَرَهُ: الحُمْقُ في كلّ عمل . ويقال: الخُرْقُ في العمل . و الأَوْرَهُ: الّذي تَعْرِفُ وتنكر وفيه حُمْقٌ ولكلامه مَخارِجُ . وقيل: هو الّذي لا يَتمالكُ حُمْقاً. وقد وَرِهَ وَرَهاً . وكَثِيبٌ أَوْرَهُ: لا يَتَمالكُ . وامرأة وَرْهاءُ: خَرْقاءُ بالعمل . لسان العرب : ١٣/٥٦٠ .

(٥) روضة العقلاء . ص : ٣٥٦ .
العجلة تحمل على عدم التّدبّر والتّأمّل وقلّة النّظر في العواقب فيقع الخطأ ومن ثمّ قيل : إنّما تكون الزّلة من العجلة . فيض القدير :٦/٥٥ .

فالعجلة مذمومة ، محذّر منها ، مرغّب عنها .

ولا يدخل في ذلك المسارعة إلى أداء الطّاعات ، والمبادرة إلى فعل الخيرات ، والمسابقة إلى عمل القربات ، فذلك أمر محبوب ممدوح مرغّب فيه .

لقوله سبحانه : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٣] .

وقوله : ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحديد:٢١].

فهذه من باب المبادرة الممدوحة لا العجلة المذمومة .

وقد فرّق بينهما الإمام ابن القيّم (رحمه الله) بقوله :

" الفرق بين المبادرة والعجلة : أنّ المبادرة انتهاز الفرصة في وقتها ولا يتركها حتّى إذا فاتت طلبها ، فهو لا يطلب الأمور في إدبارها ولا قبل وقتها ، بل إذا حضر وقتها بادر إليها ووثب عليها وثوب الأسد على فريسته ، فهو بمنزلة من يبادر إلى أخذ الثّمرة وقت كمال نضجها وإدراكها .

... والعجلة طلب أخذ الشّيء قبل وقته ، فهو لشدّة حرصه عليه بمنزلة من يأخذ الثّمرة قبل أوان إدراكها . فالمبادرة وسط بين خلقين مذمومين : أحدهما التّفريط والإضاعة ، والثّاني الاستعجال قبل الوقت . ولهذا كانت العجلة من الشّيطان ، فإنّها خفّة وطيش وحدّة في العبد تمنعه من التّثبّت والوقار والحلم ، وتوجب له وضع الأشياء في غير مواضعها ، وتجلب عليه أنواعاً من الشّرور ، وتمنعه أنواعاً من الخير ، وهي قرين النّدامة ، فقلّ من استعجل إلاّ ندم ، كما أنّ الكسل قرين الفوت والإضاعة " [(١)] .

---

(١) الرّوح . ص : ٢٥٨ .

فالعجلة مذمومة فيما كان المطلوب فيه الأناة ، محمودة فيم يطلب تعجيله من المسارعة إلى الخيرات ونحوها . وقد يقال لا منافاة بين الأناة والمسارعة فإن سارع بتؤدة وتأنٍّ تمّ له الأمران . والضّابط أنّ خيار الأمور أوسطها . (١)

فإذا تبيّن لنا أمر العجلة فعلى الدّاعية إلى اللّه أن يتّسم بالتّأني والتّؤدة في جميع مراحل دعوته ، ويتجنّب التّهور والاستعجال حتّى لا يسقط في منتصف الطّريق بل في مبدئه .

والدّاعية عليه أن يقوم بواجب دعوته على أكمل وجه ، ويبذل غاية جهده في إبلاغ دين اللّه إلى النّاس ، ولا يربط ذلك بنتائج عاجلة ، ويجعلها شرطاً في مواصلة سيره في الدّعوة . وهذا سوء فهم ينشأ عند المتعجّلين والقاصرين عن حقيقة الدّعوة .

فالدّعاة لا يملكون هداية التّوفيق للنّاس ، وإن كانوا يملكون هداية الإرشاد لقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى:٥٢] . فهذه هداية تعليم وتوجيه ، وأمّا الأولى الّتي هي هداية الإلهام والتّوفيق فهي بيد الخالق سبحانه لقوله لرسوله ﷺ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص:٥٦].

فمتى ما قرن الدّاعية دعوته بتحقّق النّتائج العاجلة واستجابة النّاس له ، ولم يحصل له ذلك انقطع به السّير . وهذا من العجلة .

وعليه أن يعلم أنّ تحقّق النتائج واستجابة النّاس فضل من اللّه يؤتيه من يشاء ، وإن لم يحصل ذلك فلا يضر الدّاعية شيئاً ، وقد استحقّ الأجر بمجرّد دعوته ، ووبال المعصية على صاحبها .

---

(١) سبل السّلام . للأمير محمّد بن إسماعيل الصّنعاني . تحقيق : محمّد عبد العزيز الخولي . طبعة : دار إحياء التّراث العربي . بيروت . الطّبعة الرّابعة : ١٣٧٩هـ : ٤/ ٢٠١ . بتصرّف يسير .

وقد يدفع الحماس الزّائد والعاطفة وحبّ الدّعوة بعض النّاس إلى مباشرة الدّعوة ومزاولتها ، وهم قليلو العلم الشّرعي ، كثيرو الجهل بطرق الدّعوة وأساليبها ، مع نقص في الحكمة ، وقصور في التّجربة ، يتبع ذلك طيش وتهوّر .

فهؤلاء يهدمون أكثر ممّا يبنون ، ويفسدون أكثر ممّا يصلحون ، ويبدّدون أعظم ممّا يجمعون ، ويوقعون النّاس في طامّات وبلايا . وينقطع بهم السّير ويفارقهم الثّبات . وقد أساءوا ولم يحسنوا .

من أولئك شباب دفعه التزامه وحبّه إلى الخير إلى قراءة وريقات من كتب العلم – مع تركيزه على قضايا الخلاف فيها – ثمّ بلغ به حماسه أن ينصّب نفسه داعية من دعاة الإسلام ، وعالماً من علمائه الّذين يشار لهم بالبنان – وخاصّة إذا وجد من بين الأحداث من يلتفّ حوله ويمجّده – فيأمر حينئذ وينهى ، ويفتي ويعقّب ، ويعدّل ويجرّح ، وينتقد ويصحّح ، ويكثر كلامه ويكثر خطؤه لاندفاعه وتهوّره ، وقد يؤدّي به الأمر إلى مخاطر لا تحمد ، ومزالق لا تمدح ، ولعلّه ينحرف عن السّير بعد أن يحرف الكثيرين .

فهذا عليه أن يتأنّى أولاً إلى حين اكتمال فقهه ووعيه ، لقول عمر ﷺ له ولأمثاله : " تفقّهوا قبل أن تسودوا " [١] .

ويتأنّى ثانياً إلى حين اكتمال رجولته وتجربته .

ويتأنّى ثالثاً في إبلاغ دعوته إلى النّاس ، وتخيّر حسن الأسلوب وطريقة الأداء .

ويتأنّى رابعاً في البدء بالأهمّ فالأهمّ ، ولا يشغل النّاس بقضايا جزئيّة ، وبعضها انصرافيّة ، وهم محتاجون إلى أصول العلم ومبادئه . وعليه البدء بصغار العلم قبل كباره .

---

(١) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب العلم : (٣). باب الاغتباط في العلم والحكمة : (١٥). ص: ٣٣ .
ولا يعني التّفقه المطلوب أن ينتظر المسلم حتّى يبلغ مترلة علياء في العلم فيصبح من أصحاب الإفتاء وأرباب الاجتهاد حتّى يبلّغ دعوة اللّه . بل المراد أن ينال المسلم إضافة إلى حصيلته من النّصوص الشّرعيّة ولوازمها ملكة شعوريّة وفكريّة لفقه الدّعوة ، وبصيرة تحكم خطواها وتثبّتها على الجادّة . وقد قال ﷺ : " بلغوا عنّي ولو آية " صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء : (٦٠/٣٦) . باب ما ذكر عن بني إسرائيل: (٥٠/٥١) . برقم: (٣٤٦١) . عن عبد اللّه بن عمرو ﷺ . ص : ٧٣٣. وانظر : عقبات في طريق الدّعوة . ص : ٨٩-٩٠ .

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" اللّه يحبّ من عنده العلم والأناة ، فلا يعجل بل يثبت حتّى يعلم ويستيقن ما ورد عليه ، ولا يعجل بأمر من قبل استحكامه ، فالعجلة والطّيش من الشّيطان ، فمن ثبت عند صدمة البداآت استقبل أمره بعلم وجزم ، ومن لم يثبت لها استقبله بعجلة وطيش ، وعاقبته النّدامة ، وعاقبة الأوّل حمد أمره . ولكن للأوّل آفة متى قرنت بالحزم والعزم نجا منها وهي الفوت ، فإنّه لا يخاف من التّثبيت إلاّ الفوت ، فإذا اقترن به العزم والحزم تمّ أمره . ولهذا في الدّعاء الّذي رواه الإمام أحمد والنّسائي عن النّبيّ ﷺ : " اللّهم إنّي أسألك الثّبات في الأمر ، والعزيمة على الرّشد " . [1]

وهاتان الكلمتان هما جماع الفلاح ، وما أتي العبد إلاّ من تضييعهما أو تضييع أحدهما . فما أتي أحد إلاّ من باب العجلة والطّيش ، واستفزاز البداآت له ، أو من باب التّهاون والتّمات وتضييع الفرصة بعد مواتاتها ، فإذا حصل الثّبات أوّلاً والعزيمة ثانياً أفلح كلّ الفلاح واللّه ولي التّوفيق " [2] .

فالعجلة كاسمها سرعان ما يقطف صاحبها من الدّعاة نتاجها ، فينجرف عن إكمال دعوته ، وأداء مهمته ، فيسقط ، ويُسقط غيره ، ويفارقه الثّبات .

---

(١) هذا جزء من حديث في :

سنن الترمذي: بلفظ مقارب في: كتاب الدّعوات : (٤٤) . باب : (٢٣) . برقم: (٣٤٠٧) .عن شدّاد بن أوس ﷺ . قال الألباني (رحمه الله): " ضعيف" . ص :٥٣٩ .

سنن النّسائي: بلفظه في : كتاب السّهو : (١٣) . باب نوع آخر من الدّعاء : (٦١) . برقم: (١٣٠٤) . قال الألباني (رحمه الله): " ضعيف" . ص: ١٥٤.

مسند أحمد: بلفظه في : ١٢٣/٤ . و بلفظ مقارب في: ١٢٥/٤ .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: بلفظ مقارب في: باب ذكر جواز دعاء المرء في صلاته بما ليس في كتاب اللّه جلّ وعلا . برقم: (١٩٧٤) . قال شعيب الأرناؤوط : " رجاله ثقات إلاّ إنّه منقطع " : ٣١٠/٥ .

(٢) مفتاح دار السّعادة : ١٤٢/١ .

المبحث الثّامن

البدء بالتّوحيد

التّوحيد هو : علم العبد واعترافه واعتقاده ، وإيمانه بتفرّد الرّب بكلّ صفة كمال وتوحيده في ذلك . واعتقاده أنّه لا شريك له في كماله ، وأنّه ذو الألوهيّة والعبوديّة على خلقه أجمعين[١] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله):

" إنّ التّوحيد الّذي بُعثت به الرّسل أن يُعْبدَ اللّه وحده لا شريك له ، فيعبد اللّه دون ما سواه ، وعبادته تجمع كمال محبّته وكمال الذّل له " [٢] .

---

(١) الكواشف الجليّة عن معاني الواسطيّة . ص : ٤١٧ . وانظر : التّعريفات . ص : ٩٦ .

(٢) مجموع الفتاوى : ٣٥٢/٨ .

والتّوحيد قسمان : - الأوّل : التّوحيد القولي العلمي الخبري الاعتقادي . الّذي يسمّى توحيد المعرفة والإثبات .

وهو نوعان : أ- توحيد الرّبوبيّة : وهو إفراد اللّه تعالى بالخلق والملك والتّدبير . فيقرّ العبد ويعتقد أنّ اللّه ربّ كلّ شيء ومالكه وخالقه ورازقه ، وأنّه المحيي المميت المدبّر النّافع الضّار ، الّذي ربّى جميع خلقه بأصناف النّعم ، وربّى خواص خلقه بالعقيدة الصّحيحة ، والأخلاق الجميلة ، والعلوم النّافع ، والأعمال الصّالحة . وهذا التّوحيد لا يكفي العبد في حصول الإسلام لأنّ المشركين الّذي قاتلهم رسول اللّه ﷺ واستحلّ دماءهم وأموالهم كانوا مقرّين به كما حكى اللّه ذلك عنهم في آيات كثر . كقوله سبحانه : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس:٣١-٣٢] .

ب- توحيد الأسماء والصّفات : وهو إفراد اللّه عزّ وجلّ بأسمائه الحسنى وصفاته العليا . فيعتقد العبد أنّ اللّه متفرّد بالكمال المطلق من جميع الوجوه ، وأنّه مباين لخلقه ، ومنزّه عن النّقائص والعيوب . فيثبت ما أثبته سبحانه لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ بلا تمثيل ، وينفي عنه ما نفاه عن نفسه ونفاه عنه رسوله ﷺ بلا تعطيل . قال سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٠] .

والأدلّة على ذلك كثيرة جداً ، من ذلك :

قولـــه تعـــالى : ﴿ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٦٣] .

وقوله سـبحانه : ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [النحل:٥١] .

وقوله عزّ وجـلّ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨] .

وقوله تبـارك وتعـالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص:١-٤] .

الثّاني : التّوحيد القصدي الإرادي العملي الطّلبي : وهو توحيد الألوهيّة المتضمّن لتوحيـد العبـادة . وهـو الاعتراف والإقرار بأنّ الله سبحانه ذو الألوهيّة والعبوديّة على خلقه أجمعين ، وإفراده بالعبادة كلّها ، وإخـلاص الدّين له ، وينبني على تجريد القصد له سبحانه والمحبّة والتّعظيم . فيصرف العبد جميع عباداته لله وحده كـالخوف والرّجاء والتّوكل والإنابة والاستعانة والاستغاثة والدّعاء والنّذر والذّبح ، ولا يجعل فيها شيئاً لغيره سـبحانه ، لا لملك مقرّب ، ولا لنبيّ مرسل ، ولا لعبد صالح فضلاً عن غيرهم . لقولـه سـبحانه : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥] . وقوله تعـالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود:١٢٣] .

وهذا النّوع هو الّذي وقع فيه النّزاع في القديم والحديث ، وعارض فيه الرّسل أقوامُهم ، وهو معني قول لا إلـه إلاّ الله .

وانظر في بيان أنواع التّوحيد : الصّواعق المرسلة على الجهميّة والمعطّلة . لابن القيّم . تحقيق : د. علـي بـن محمّد الدّخيل الله . الطّبعة الثّالثة : ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م . دار العاصمة . الرّيـاض : ٢/٤٠١-٤٠٣ .بدائع الفوائد : ١/١٤٦ .مدارج السّالكين : ١/٢٤-٢٥ . شرح العقيدة الطّحاويـة . ص : ٧٦-٧٩ . ٨٨ . طبعة المكتب الإسلامي .تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التّوحيد لسليمان بن عبد الله بن محمّد بن عبد الوهـاب . طبعة : مكتبة الرّياض الحديثة . الرّياض : ص : ١٧-٢٠ . توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيـدة ابن القيّم . لأحمد بن إبراهيم بن عيسى . تحقيق زهير الشّاويش . طبعة المكتب الإسلامي . بـيروت . الطّبعـة : الثّالثة : ١٤٠٦هـ : ٢/٢٥٩-٢٦٠ . الكواشف الجليّة . ص : ٤١٧-٤١٨ .

وقد افتتح رسل اللّه عليهم السّلام جميعاً دعواتهم بالتّوحيد فلم يشذّ رسول منهم في بدء دعوته به .

قال تعالى عن نوح على السّلام : ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ [الأعراف:٥٩] (١) .

وقال عن هود عليه السّلام : ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف:٦٥] (٢) .

وعن صالح عليه السّلام : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ ﴾ [الأعراف:٧٣] (٣) .

وعن شعيب عليه السّلام : ﴿ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ ﴾ [الأعراف:٨٥] (٤) .

وهكذا عن جميع الرّسل عليهم السّلام فلم يبدأ رسول دعوته بغير التّوحيد . ولذا عمّم اللّه ذلك عنهم فقال : ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل:٣٦].

وقال سبحانه : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥] .

---

(١) وانظر : المؤمنون : ٢٣ .

(٢) وانظر : هود : ٥٠ .

(٣) وانظر : هود : ٦١ .

(٤) وانظر : هود : ٨٤ .

وإمامهم وقدوتهم الّذي كان أكمل النّاس توحيداً صلوات اللّه وتسليماته عليه سار على نهج سلفه من الأنبياء عليهم السّلام في بدء دعوته بالتّوحيد ، وهو الّذي أُمر بالاقتداء بهم في قوله تعالى : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام:٩٠] [١] . فأي اقتداء أعظم من أن ينهج نهجهم في بدء دعوته به [٢] .

ففي حديث أبي سفيان عندما سأله هرقل عن ما يقوله النّبي عليه السّلام لهم ؟ قال : يقول : " اعبدوا اللّه ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آباؤكم .. الحديث " [٣] .

وفي حديث أمّ سلمة (رضي الله عنها) في الهجرة إلى الحبشة عندما سألهم النّجاشي عن دعوة النّبيّ ﷺ أجابه جعفر بن أبي طالب ﷺ بقوله : " دعانا إلى اللّه لنوحّده ونعبده ، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ... " . الأثر . [٤] . وكان ذلك في مبدأ دعوته .

وقد ظلّ ﷺ يدعو إلى ذلك في مكّة ثلاثة عشر عاماً قبل أن يأمر بصلاة أو زكاة أو صوم أو حجّ ، كما كان ينهى عن الشّرك قبل أن ينهى عن ربا أو زنا أو سرقة أو قتل نفس بغير حقّ [٥] .

---

(١) يقول شيخنا الدّكتور ربيع بن هادي (حفظه اللّه) : " تلك هي دعوة الأنبياء جميعاً وعلى رأسهم أولو العزم منهم ، الأنبياء الّذين يبلغ تعدادهم أربعة وعشرين ألفاً ومائة ألف يسيرون في دعوتهم في منهج واحد ، وينطلقون من منطلق واحد ، هو التّوحيد . أعظم القضايا والمبادئ الّتي حملوها إلى الإنسانية جميعاً في جميع أجيالهم ومختلف بيئاتهم وبلدانهم وأزمانهم ، ممّا يدلّ أنّ هذا هو الطّريق الوحيد الّذي يجب أن يسلك في دعوة النّاس إلى اللّه ، وسنّة من سننه الّتي رسمها لأنبيائه وأتباعهم الصّادقين ، لا يجوز تبديلها ولا العدول عنها " . منهج الأنبياء في الدّعوة إلى اللّه فيه الحكمة والعقل . للدّكتور ربيع بن هادي طبعة الدّار السّلفيّة . الكويت . الطّبعة الأولى : ١٤٠٦هـ –١٩٨٦م . ص : ٢٦-٢٧ .

(٢) انظر : مدارج السّالكين :٤٤٨/٣ .

(٣) سبق تخريجه . انظر : ص : ٣٩٠ .

(٤) سبق تخريجه . انظر : ص : ٢٤٣ .

(٥) انظر : منهج الأنبياء في الدّعوة إلى اللّه . ص : ٥ .

وصبر على ذلك صبراً عظيماً متحمّل الإيذاء والبلاء فيه ، لا ينحرف عنه يمنة ولا يسرة ، وقد ضجّ المشركون من ذلك وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وبذلوا كلّ ما يستطيعون لإسكاته عن دعوته إليه وما يتبع ذلك من عيب آلهتهم وبيان بطلانها . ولكنّه ظلّ ثابتاً على الدّعوة إلى التّوحيد لا يلوي عنه . بل ارتبطت دعوته كلّها به .

قال الطّبري (رحمه الله) في بيان قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف:١٠٨] . قال :

" يقول تعالى ذكره لنبيّه محمّد ﷺ ﴿ قُلْ ﴾ يا محمّد ﴿ هَٰذِهِۦ ﴾ الدّعوة الّتي أدعو إليها ، والطّريقة الّتي أنا عليها من الدّعاء إلى توحيد اللّه ، وإخلاص العبادة له ، دون الآلهة والأوثان ، والانتهاء إلى طاعته ، وترك معصيته ﴿ سَبِيلِىٓ ﴾ وطريقتي ودعوتي ﴿ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ وحده لا شريك له "[1] .

بل القرآن الّذي أنزل عليه ﷺ كان كلّه دعوة إلى التّوحيد ونهياً عمّا يناقضه . فإنّ القرآن إمّا إخبار عن اللّه وأسمائه وصفاته ، وهو التّوحيد العلمي الخبري ، وإمّا دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه ، فهو التّوحيد الإرادي الطّلبي ، وإمّا أمر ونهي وإلزام بطاعته ، فذلك من حقوق التّوحيد ومكمّلاته ، وإمّا خبر عن إكرامه لأهل توحيده ، وما فعل بهم في الدّنيا ، وما يكرمهم به في الآخرة ، فهو جزاء توحيده ، وإمّا خبر عن أهل الشّرك وما فعل بهم في الدّنيا من النّكال ، وما يحلّ بهم في العقبى من العذاب ، فهو جزاء من خرج عن حكم التّوحيد .

(١) جامع البيان : ١٣/٧٩-٨٠ .

فالقرآن كلّه في التّوحيد وحقوقه وجزائه ، وفي شأن الشّرك وأهله وجزائهم[1] .

ولذلك مابرح ﷺ قائماً به يدافع عنه ويكافح ، لا يكفّ عن إبلاغه وبيانه للنّاس ، بل قد جرّد السّيف في الدّفاع والذّبّ عنه كما قال ﷺ في حديث ابن عمر (رضي الله عنهما) : " بعثت بين يدي السّاعة بالسّيف حتّى يعبد اللّه وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظلّ رمحي ، وجُعل الذّلُّ والصّغار[2] على من خالف أمري ، ومن تشبّه بقوم فهو منهم " [3] .

وأباح عليه الصّلاة والسّلام دماء ونفوس وأموال من لم يقبل دعوة التّوحيد ولم يستجب لها ، فقال : " أمرت أن أقاتل النّاس حتّى يقولوا : لا إله إلاّ اللّه ، فمن قال : لا إله إلاّ اللّه ، عصم منّي ماله ونفسه إلاّ بحقّه ، وحسابه على اللّه " [4] .

والنّاس هنا عامّ مخصوص وهم المشركون الّذين يقفون في طريق الدّعوة .

---

(١) شرح العقيد الطّحاوية . ص : ٨٨-٨٩ . طبعة المكتب الإسلامي . وانظر : تيسير العزيز الحميد . ص : ٢٣ . شرح قصيدة ابن القيّم : ٢/٢٦٠ .

(٢) الصّغار : هو الذّل والهَوان . النّهاية في غريب الحديث : ٣/٣٢ .

(٣) مسند أحمد: بلفظه ـــ إلاّ إنّه قال : " الذّلّة" ـــ في: ٢/٥٠ . و بلفظه في : ٢/٩٢ . و بلفظ مقارب في: ٢/٥٠ . قال أحمد شاكر (رحمه الله): " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٧/١٢١ ، ١٢٢ . ٨/٤٤ . برقم: (٥١١٤ ، ٥١١٥ ، ٥٦٦٧) .

(٤) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب استتابة المرتدّين : (٨٨/٦٣) . باب قتل من أبى قبول الفرائض وما نسبوا إلى الرّدّة : (٣) . برقم: (٦٩٢٤) . ص: ١٤٦١. وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة : (٩٦/٧١) . باب الاقتداء بسنن رسول اللّه ﷺ : (٢/٣) . برقم: (٧٢٨٤ ، ٧٢٨٥) . ص: ١٥٣١. عن أبي هريرة ﷺ . و بلفظ مقارب في: كتاب الإيمان : (٢) . باب ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾ [التّوبة:٥] : (١٧) . برقم: (٢٥) . ص: ١٩ . عن ابن عمر (رضي الله عنهما).وفي كتاب الزّكاة : (٢٤/٧) . باب وجوب الزّكاة : (١) . برقم: (١٣٩٩) . ص: ٢٩٥ . وفي كتاب الجهاد والسّير : (٥٦/٣٢) . باب دعاء النّبي ﷺ إلى الإسلام والنّبوّة : (١٠٢/١٠١) . برقم: (٢٩٤٦) . ص: ٦٢١. عن أبي هريرة ﷺ . و نحوه في: كتاب الصّلاة : (٨/٥) . باب فضل استقبال القبلة : (٢٨) . برقم: (٣٩٢) . ص : ١٠٠ . عن أنس ﷺ .
صحيح مسلم: بلفظه ـــ إلاّ إنّه قال : "فقد عصم " ـــ في كتاب الإيمان : (١) . باب الأمر بقتال النّاس حتّى يقول لا إله إلاّ الله : (٨) . برقم: (٢٠) . و بلفظه برقم: (٢١) . عن أبي هريرة ﷺ . و بلفظ مقارب برقم: (٢١) . عن أبي هريرة وجابر (رضي الله عنهما) . و برقم: (٢٢) عن ابن عمر (رضي الله عنهما) . ١/٥١-٥٣ .

قال الشّيخ محمّد بن عبد الوهاب (رحمه الله) :

" وقد عُلم بالاضطرار من دين الرّسول ﷺ واتّفقت عليه الأمّـــة أن أصـــل الإسلام وأوّل ما يؤمر به الخلق شهادة أن لا إله إلاّ اللّه وأن محمّداً رسول اللّـــه ، فبذلك يصير الكافر مسلماً ، والعدوّ وليّاً ، والمباح دمه وماله معصوم الدّم والمـال ، ثمّ إن كان ذلك من قلبه فقد دخل في الإيمان ، وإن قاله بلسانه دون قلبه فـــهو فـي ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان ، وفيه البـــداءة فـــي الدّعـــوة والتّعليـــم بـــالأهمّ فالأهمّ " [1] .

وكان صلوات اللّه وتسليماته عليه يأمر دعاته أن يفتتحوا دعوتهم بـــالتّوحيد ، وينهاهم أن ينتقلوا إلى غيره إلاّ بعد أن يقرّهم النّاس عليه .

عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) قال : لمّا بعث النّبي ﷺ معاذاً إلـــى نحـــو أهل اليمن ، قال له : " إنّك تقدم على قوم من أهل الكتاب ، فليكن أوّل ما تدعوهـــم إلى أن يوحّدوا اللّه تعالى ، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أنّ اللّه فرض عليـــهم خمـــس صلوات في يومهم وليلتهم ، فإذا صلّوا فأخبرهم أنّ اللّه افترض عليهم زكاة أموالـــهم تؤخذ من غنيّهم فتردّ على فقيرهم ، فإذا أقرّوا بذلك فخذ منهم وتوقّ كرائم أمـــوال النّاس " [2] .

فقد رتّب ﷺ شرائع الإسلام في الدّعوة إليه وبدأ بـــالأهمّ فـــالأهمّ ، والأوكـــد فالأوكد[3] .

فالتّوحيد أوّل دعوة الرّسل ، وأوّل منازل الطّريق ، وأوّل مقـــام يقـــوم فيـــه السّالك إلى اللّه عزّ وجلّ ، وهو أوّل الدّين وآخره وباطنه وظاهره ، ، ولأجله خلقت الخليقة وأرسلت الرّسل وأنزلت الكتب ، ولأجله افترق النّاس إلى مؤمنيـــن وكفّـــار وأهل جنّة وأهل نار . وهو أوّل واجب على المكلّف ، وأوّل ما يدخل به الإســـلام ،

---

(١) تيسير العزيز الحميد . ص : ١٠١ .

(٢) سبق تخريجه : انظر : ص : ٤٧٢ .

(٣) انظر : المفهم : ١٨٢/١ . شرح النّووي على مسلم : ١٩٨/١ . منهج الأنبياء في الدّعوة إلى اللّه . ص : ٤ .

وآخر ما يخرج به من الدّنيا . كما قال ﷺ : " من كان آخر كلامه لا إلـــه إلاّ اللّــه دخل الجنّة[1] " [2] .

وأهميّة التّوحيد لا تقف عند هذا الحدّ لكي يُبدأ بالدّعوة به ، بل هي تفوق كـــلّ وصف ، وتتجاوز كلّ قدر . من ذلك :

١– إنّه أحبّ أمر إلى اللّه تعالى ، كما أنّ الشّرك الّذي يناقضه أبغض أمر إليه سبحانه[3].

٢ – إنّه أفضل ما نطق به النّاطقون كما قال ﷺ : " أفضل الدّعاء دعاء يـــوم عرفة ، وأفضل ما قلت أنا والنّبيّون من قبلي: لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له" [4] .

---

(١) سنن أبي داود: بلفظه في : كتاب الجنائز : (٢٠) . باب في التّلقين : (١٥/١٦) . برقم: (٣١١٦) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٣٥٣ .

مسند أحمد: بلفظه ـــ إلاّ إنّه قال : " وجبت له الجنّة " ـــ في ٥/٢٣٣ . ٢٤٧ .

مستدرك الحاكم: بلفظه في : ١/٥٠٣ ، ٦٧٨ . وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه".

معجم الطّبراني الكبير: بلفظه في : ٢٠/١١٢ .

معجم الطّبراني الأوسط : ولفظه : " من كان آخر كلامه لا إله إلاّ الله لم يدخـــل النّـــار " . عـــن علـــي ﷺ : ١/٣٤٢ .

(٢) انظر : شرح العقيدة الطّحاوية . ص : ٧٤–٧٥ . طبعة المكتب الإسلامي . وانظر : شـــفاء العليـــل . ص : ١٣٩ . مدارج السّالكين : ٣/٤٤٣–٤٤٤ . تيسير العزيز الحميد . ص : ٢٠–٢٣ .

عقد الإمام محمّد بن إسحاق بن مندة (رحمه الله) في كتابه الإيمان . باباً ذكر فيه أنّ أوّل ما يدعى إليـــه العبـــد التّوحيد ثمّ الصّلوات الخمس ثمّ الزّكاة . وذكر حديث ابن عبّاس (رضي الله عنهما) في بعـــث معـــاذ إلى اليمـــن وحديث أبي هريرة ﷺ في قتال أبي بكر مانعي الزّكاة . ١/٣٧٩ . تحقيق : عليّ بن محمّد بن نـــاصر الفقيـــهي . طبعة : مؤسّسة الرّسالة بيروت . الطّبعة الثّانية : ١٤٠٦هـــ .

(٣)انظر : الاستقامة : ٢/٥٨ .

(٤) انظر : مجموع الفتاوى : ٢/٣٥١ . والحديث في :

سنن التّرمذي: بلفظ مقارب في: كتاب الدّعوات : (٤٤) . بـــاب في دعـــاء يـــوم عرفـــة : (١٢٢) . برقـــم: (٣٥٨٥) . عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه . قال أبو عيسى : " هذا حديث غريب من هـــذا الوجـــه " . وقال الألباني (رحمه الله): " حسن " . ص: ٥٦٢.

موطّأ مالك : بلفظه في : كتاب القرآن : (١٥) . باب ما جاء في الدّعاء : (٨) . برقـــم: (٣٢) . ١/٢١٥ . وفي كتاب الحجّ : (٢٠) . باب جامع الحجّ : (٨١) . برقم: (٢٤٦) . عن طلحة بـــن عبيـــد اللّـــه بـــن كريـــز . ١/٤٢٢–٤٢٣ .

وأشرف علم على الإطلاق [(١)] .

٣ – يندفع به كيد الشّيطان ، ويحترز به صاحبه منه .

يقول ابن القيّم (رحمه الله) في بيان قوله تعـــالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [النحل:٩٩-١٠٠] يقول :

" فتضمّن ذلك أمرين : أحدهما : نفي سلطانه وإبطاله علـــى أهـــل التّوحيـــد والإخلاص . والثّاني : إثبات سلطانه على أهل الشّرك وعلى من تولاّه . ولمّا علـــم عدوّ اللّه أنّ اللّه تعالى لا يسلّطه على أهل التّوحيد والإخـــلاص : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص:٨٢-٨٣] . فعلـــم عدوّ اللّه أنّ من اعتصم باللّه عزّ وجلّ ، وأخلص له وتوكّل عليـــه لا يقـــدر علـــى إغوائه وإضلاله ، وإنّما يكون له السّلطان على من تولاّه وأشرك مع اللّه . فـــهؤلاء رعيته ، فهو وليّهم وسلطانهم ومتبوعهم " [(٢)] .

وأعظم أمر يظفر به الشّيطان من بني آدم أن يجرّده من التّوحيد ويلقي به في الشّرك ، فحينئذ يستريح من تعبه وكدّه ، وقد بلغ أعلا ما يناله منه ، فيصير حينـــها ابن آدم من جنده وعسكره ، بل ربّما استنابه على أمثاله وأشكاله فيصبح داعية مـــن دعاته[(٣)] .

سنن البيهقي: بلفظه في : باب الاختيار للحاجّ في ترك صوم يوم عرفة . ٢٨٤/٤ . وفي باب أفضل الدّعاء دعـــاء يوم عرفة . ١١٧/٥. عن طلحة ﷺ .

(١) انظر : أعلام الموقّعين : ٥/١ .

(٢) إغاثة اللّهفان : ٩٨/١-٩٩ .

(٣) انظر : بدائع الفوائد : ٤٨٣/٢ .

٤ – إنّه مَفْزَع أعداء اللّه وأوليائه .

فأمّا أعداؤه فينجيهم من كرب الدّنيا وشدائدها ، كما قال سبحانه وتعالى :

﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٥] .

وأمّا أولياؤه فينجيهم به من كربات الدّنيا والآخرة وشدائدها ، ولذلك فزع إليه يونس عليه السّلام فنجاه من تلك الظّلمات[١] ، وفزع إليه أتباع الرّسل فنجوا به ممّا عذب به المشركون في الدّنيا وما أعدّ لهم في الآخرة . ولمّا فزع إليه فرعون عند معاينة الهلاك ، وإدراك الغرق له لم ينفعه[٢] لأنّ الإيمان عند المعاينة لا يقبل ، هذه سنّة اللّه في عباده .

فما دفعت شدائد الدّنيا بمثل التّوحيد . ولذلك كان دعاء الكرب[٣] بالتّوحيد[٤] ،

---

(١) وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨]

(٢) وذلك في قوله سبحانه : ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [يونس:٩٠-٩١] .

(٣) الكَرْب : على وَزْن الضَرْب : الحُزْنُ والغَمُّ الّذي يَأْخُذُ بالنّفس . وجمعه كُرُوبٌ . و كَرَبه الأَمْرُ والغَمُّ يَكْرُبُه كَرْباً: اشتدّ عليه. فهو مَكْرُوبٌ و كَرِيبٌ. والاسم الكُرْبة . انظر : لسان العرب : ٧١١/١ . و انظر : القاموس المحيط : ص : ١٦٦ .

(٤) عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) أنّ رسول اللّه ﷺ كان يقول عند الكرب : " لا إله إلاّ الله العظيم الحليم . لا إله إلاّ الله ربّ العرش العظيم . لا إله إلاّ الله ربّ السّماوات وربّ الأرض وربّ العرش الكريم " .

ودعوة ذي النّون الّتي ما دعا بها مكروب إلاّ فرّج اللّه كربه بالتّوحيد (١).

فلا يلقي في الكُرَب العظام إلاّ الشّرك ، ولا ينجي منها إلاّ التّوحيد ، فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها (٢) .

٥ – لا تقوم للأعمال قائمة إلاّ إذا أسّست عليه ، ولا تنفع طاعة إلاّ إذا أقيمت عليه . بل متى ما فُقد التّوحيد حبط ثواب جميع الطّاعات ولم ينتفع بها صاحبها .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزّمر:٦٥] .

وعدّد سبحانه جماعة عظيمة من الرّسل والأنبياء ثمّ قال : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنعام:٨٨] .

صحيح البخاري: في كتاب الدّعوات : (٥٤/٨٠) . باب الدّعاء عند الكرب : (٢٧) . برقم: (٦٣٤٦) . ص : ١٣٥٣-١٣٥٤ . صحيح مسلم: في كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار : (٤٨) . باب دعاء الكرب : (٢١) . برقم: (٢٧٣٠) . ٢٠٩٢/٤ .

وعن أبي بكرة ﷺ . أنّ رسول اللّه ﷺ قال : " دعوات المكروب : اللّهمّ رحمتك أرجو . فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين . واصلح لي شأني كلّه . لا إله إلاّ أنت " . سنن أبي داود: في كتاب الأدب : (٤٠) . باب ما يقول إذا أصبح : (١٠١/١٠٠) . برقم: (٥٠٩٠) . قال الألباني (رحمه اللّه): " حسن" . ص : ٥٤٩ . مسند أحمد: ٤٢/٥ . الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: في باب ذكر وصف دعوات المكروب . برقم: (٩٧٠) . قال شعيب الأرناؤوط : " إسناده محتمل للتّحسين " . ٢٥٠/٣ .

(١) عن سعد بن أبي وقاص ﷺ . قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : " إنّي لأعلم كلمة لا يقولها مكروب إلاّ فرّج اللّه عنه . كلمة أخي يونس ﷺ : ﴿ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٧]. وهو صحيح الإسناد . كتاب الأذكار لأبي زكريا يحي بن شرف النّووي . تحقيق : بشير محمّد عيون . طبعة : مكتبة المؤيّد . الطّائف . مكتبة دار البيان . دمشق . الطّبعة الثّانية : ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م . دمشق . بيروت : ص : ١٦٥ مع الهامش . وانظر : سنن التّرمذي: كتاب الدّعوات : (٤٤) . باب : (٨١) . برقم: (٣٥٠٥) . قال الألباني (رحمه اللّه): " صحيح " . ص: ٥٥٢ . سنن البيهقي: ١٦٨/٦ . مستدرك الحاكم: ٦٨٤/١ . ٦٨٥ ، ٦٣٧/٢ ، ٦٣٩ . مسند أبي يعلى: ٦٥/٢ . برقم: (٧٠٧) . عمل اليوم واللّيلة لأبي عبد الرّحمن أحمد بن شعيب النّسائي . تحقيق : د . فاروق حمادة . طبعة : مؤسّسة الرّسالة . بيروت . الطّبعة الثّانية : ١٤٠٦هـ : ص: ٤١٥-٤١٦ . برقم: (٦٥٥ . ٦٥٦) .

(٢) الفوائد . ص : ٥٣ بتصرّف .

إنّ العاص بن وائل[1] نذر في الجاهليّة أن ينحر مائة بدنة ، وأنّ هشام بن العاص نحر حصّته خمسين بدنة ، وأنّ عمراً سأل النّبي ﷺ عن ذلك فقال : " أمّا أبوك فلو كان أقرّ بالتّوحيد فصُمتَ وتصدّقتَ عنه نفعه ذلك " [2] .

٦ – إنّه يجلب لصاحبه الأمن التّام في الدّنيا والآخرة .

فقد حكى اللّه عن خليله إبراهيم عليه السّلام أنّه قال في محاجّته لقومه : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الأنعام:٨١] . ففصل اللّه بحكم قاطع بين الفريقين فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام:٨٢] .

وقد صحّ عن رسول اللّه ﷺ أنّه فسّر الظّلم هنا بالشّرك ، وأيّد ذلك بقول لقمان (رحمه الله) : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان:١٣] [3] .

---

(١) العاص بن وائل بن هاشم السّهمي ، القرشي ، أحد الحكّام في الجاهليّة ، ومن زعماء بني سهم ، والد الصّحابيين الجليلين عمرو وهشام (رضي الله عنهما) ، أدرك الإسلام فلم يسلم ، ومات على كفره ، وكان من المستهزئين بالإسلام وبالنّبي ﷺ . انظر : الأعلام : ٢٤٧/٣ .

(٢) مسند أحمد: بلفظه في : ١٨١/٢–١٨٢ . عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه . قال أحمد شاكر (رحمه الله): " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٧٦/١٠ . برقم : (٦٧٠٤) . و انظر : مجمع الزّوائد : ١٩٢/٤ .

(٣) انظر : صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء : (٣٦/٦٠) . باب قول اللّه تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء:١٢٥] : (٩/٨) . برقم: (٣٣٦٠). ص : ٧٠٧ . و باب قول اللّه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ [لقمان:١٢] : (٤٢/٤١) . برقم: (٣٤٢٩) . ص: ٧٢٦ .و كتاب التّفسير : (٣٩/٦٥) . سورة لقمان [٣١] . باب ﴿ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان:١٣] : (١) . برقم: (٤٧٧٦) . ص : ١٠٢٨–١٠٢٩ . و كتاب استتابة

فالتّوحيد أقوى سبب للأمن من المخاوف ، وضدّه الشّرك الّذي هو أعظم أسباب حصول المخاوف[1] .

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" فإذا جرّد العبد التّوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه ، وكان عدوّه أهون عليه من أن يخافه مع اللّه تعالى ، بل يفرد اللّه بالمخافة وقد أمّنه منه وخرج من قلبه اهتمامه به ، واشتغاله به ، وفكره فيه ، وتجرّد لله محبّة وخشية وإنابة وتوكّلاً واشتغالاً به عن غيره . فيرى أن إعماله فكره في أمر عدوّه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده ... فالتّوحيد حصن اللّه الأعظم الّذي من دخله كان من الآمنين . قال بعض السّلف : " من خاف اللّه خافه كلّ شيء ، ومن لم يخف اللّه أخافه من كلّ شيء " [2] .

٧- إنّه أعظم عامل للاستخلاف والتّمكين[3] في الأرض .

قال سبحانه : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور:٥٥] .

المرتدّين : (٨٨/٦٣) . باب إثم من أشرك باللّه وعقوبته في الدّنيا والآخرة : (١) . برقم: (٦٩١٨) . ص: ١٤٦٠ . و باب ما جاء في المتأوّلين : (٩) . برقم: (٦٩٣٧) . ص: ١٤٦٤ .

صحيح مسلم: كتاب الإيمان : (١) . باب صدق الإيمان وإخلاصه : (٥٦) . برقم: (١٢٤) . ١/١١٤-١١٥ .

(١) انظر : مفتاح دار السّعادة : ٢/٢٧٣ .

(٢) بدائع الفوائد : ٢/٤٦٩-٤٧٠ روى القضاعي الأثر بسنده مرفوعاً . عن واثلة بن الأسقع ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : "من خاف اللّه خوّف اللّه منه كلّ شيء ومن لم يخف اللّه خوّفه اللّه من كلّ شيء " . مسند الشّهاب : ١/٢٦٥ . قال المنذري : " ورفعه منكر " . الترغيب والترهيب : ٤/١٣٤ .

(٣) التّمكين هو : مقام الرّسوخ والاستقرار على الاستقامة . التّعريفات . ص : ٩٢ .

هذا وعد من اللّه تعالى لرسوله صلوات اللّه وسلامه عليه بأنّه سيجعل أمّته خلفاء الأرض ، أي أئمّة النّاس والولاة عليهم ، وبهم تصلح البلاد ، ويخضع لهم العباد . وليبدلنّهم من بعد خوفهم من النّاس أمناً وحكماً فيهم ، وقد فعله تبارك وتعالى ، وله الحمد والمنّة[1] .

وقد قال ﷺ في حديث أُبَيّ بن كعب ﷺ : " بشّر هذه الأمّة بالسّناء[2] والرّفعة والدّين والنّصر والتّمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للّدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب " [3] .

فقوله سبحانه : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ .

قال ابن جرير (رحمه الله) :

" ليورثنّهم اللّه أرض المشركين من العرب والعجم فيجعلهم ملوكها وساستها "[4] .

وقال البيضاوي (رحمه الله):

" ليجعلهم خلفاء متصرّفين في الأرض تصرّف الملوك في ممالكهم " [5] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٣/٤٨٠ .

(٢) قال ابن الأثير (رحمه الله) :
" بَشِّرْ أُمَّتِي بالسَّناء : أي بارْتِفَاعِ المَنْزلة والقَدْر عند اللّه تعالى وقد سَنِي يَسْنَى سَنَاء أي ارتفع والسّنى بالقصر الضّوءُ " . النّهاية في غريب الحديث : ٢/ ٤١٤ .

(٣) مسند أحمد: بلفظه في : ٥/١٣٤ . مع زيادة : " وهو يشكّ في السّادسة " . و بلفظه في نفس الصّفحة و لم يذكر : " الدّين " . وبنحو منه في الموضع نفسه .
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: نحوه في: باب ذكر وصف إشراك المرء باللّه جلّ وعلا في عمله . برقم: (٤٠٥) . قال شعيب الأرناؤوط : " إسناده حسن" . ٢/١٣٢.
مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في: ٤/٣٤٦ . وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " . و قال الذّهبي (رحمه الله): " صحيح " . وهو في صحيح الجامع : برقم : (٢٨٢٥) . ١/٥٤٥ . وانظر : تفسير القرآن العظيم : ٣/٤٨٣ .

(٤) جامع البيان : ١٨/١٥٨ . طبعة دار الفكر . وانظر : معالم التّنزيل :٣/٣٥٣ —٣٥٤ .

(٥) أنوار التّنزيل : ٤/١٩٧ .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ .

قال ابن عبّاس (رضي الله عنهما) :

" يوسّع لهم في البلاد حتّى يملكوها ، ويظهر دينهم على سائر الأديان " [١] .

وقال ابن جرير (رحمه الله) :

" وليوطّئن لهم دينهم ، يعني ملّتهم الّتي ارتضاها لهم فأمرهم بها " [٢] .

وقال السّعدي (رحمه الله) :

" بأن يتمكّنوا من إقامته – أي : الإسلام – وإقامة شعائره الظّاهرة والباطنة في أنفسهم وفي غيرهم ، لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفّار مغلوبين ذليلين "[٣].

ولا ينال هذه الوعود الصّادقة إلاّ من حقّق التّوحيد ، لأنّ المولى سبحانه شرط حصول ذلك بقوله : ﴿ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ .

ولذا قال البيضاوي (رحمه الله):

" ﴿ يَعْبُدُونَنِى ﴾ حال من الّذين ، لتقييد الوعد بالثّبات على التّوحيد ، أو استئناف ببيان المقتضى للاستخلاف والأمن " [٤] .

٨ – إنّه يجمع بين القلوب ، ويوحّد بين الشّتّات ، وعليه تجتمع الكلمة ويتّحد الهدف .

فالمسلمون أمّة واحدة ، يتساوون في الحقوق والواجبات ، لا تفرّق بينهم الألوان أو الأجناس أو الأوطان ، وتلك الوحدة أعظم مظهر للإسلام ، ولا يتأتّى لهم

---

(١) معالم التّنزيل : ٣/٣٥٤ . وانظر : فتح القدير : ٤/٤٧ .

(٢) جامع البيان : ١٨/١٥٩ . طبعة دار الفكر .

(٣) تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٥٢١ .
ذكر الاستخلاف أوّلاً ، وهو جعلهم ملوكاً ، ثمّ ذكر التّمكين ثانياً ليفيد أنّ الملك على وجه الاستقرار والثّبات لهم ولعقبهم من بعدهم . وليس أمراً طارئاً . انظر : فتح القدير : ٤/٤٧ .

(٤) أنوار التّنزيل :٤/١٩٨ .

ذلك إلاّ إذا صفت قلوبهم ، وخلصت ضمائرهم فـأفردوا إلهـهم الواحـد سـبحانه بالعبوديّة ولم يشركوا معه سواه . ولو أشركوا لوقع بينهم التّفرق والشّـتات الّـذي حذّرهم معبودهم سبحانه منه لأنّه سمة بارزة لأهل الشّرك ، وذلك في قوله :

﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الرّوم:٣١-٣٢]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" أهل التّوحيد فإنّهم يعبدون اللّه وحده ولا يشركون به شيئاً في بيوته الّتي قد أذن اللّه أن ترفع ويذكر فيها اسمه[(١)] ، مع أنّه قد جعل لهم الأرض كلّـها مسـجداً وطهوراً [(٢)] ، وإن حصل بينهم تنازع في شيء ممّا يسوّغ فيه الاجتهاد لم يوجـب ذلك لهم تفرّقاً ولا اختلافاً : بل هم يعلمون أنّ المصيب منـهم لـه أجـران ، وأنّ المجتهد المخطئ له أجر على اجتهاده وخطؤه مغفور له[(٣)] ، واللّه هـو معبودهـم وحده ، إيّاه يعبدون ، وعليه يتوكّلون ، وله يخشون ويرجـون ، وبـه يسـتعينون ويستغيثون ، وله يدعون ويسألون " [(٤)] .

---

(١) وذلك لقوله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النّور:٣٦-٣٧] .

(٢) وذلك لقوله ﷺ : " أعطيت خمساً لم يعطهنّ أحدٌ قبلي .. الحديث " . وفيه : " وجعلت لي الأرض طيّبة طهوراً ومسجداً . فأيّما رجل أدركته الصّلاة صلّى حيث كان " صحيح مسلم : كتاب المساجد ومواضع الصّلاة : (٥) . برقم : (٥٢١) ١/٣٧٠-٣٧١ .

(٣) وذلك لقوله ﷺ في حديث عمرو بن العاص ﷺ : " إذا حكم الحاكم فاجتهد ثمّ أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثمّ أخطأ فله أجر " . صحيح البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة : (٩٦/٧١) . باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ : (٢١/٢٢) . برقم: (٧٣٥٢) . ص: ١٥٤٣ . صحيح مسلم : كتاب الأقضية : (٣٠) . باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ : (٦) . برقم (١٧١٦) . ٣/١٣٤٢ .

(٤) اقتضاء الصّراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم . لشيخ الإسلام ابن تيمية . تحقيق : محمّد حامد الفقي . مطبعة السّنّة المحمّديّة . القاهرة . الطّبعة الثّانية : ١٣٦٩م : ص : ٤٥٧ .

٩ – إنّه يعصم مال العبد ودمه ، فلا يؤخذ ماله ولا يسفك دمه إلاّ بحق شرعي .

قال ﷺ : " من قال لا إله إلاّ اللّه وكفر بما يُعْبَدُ من دون اللّه حَرُمَ مالُهُ ودمه وحسابه على اللّه " .

وفي الرّواية الثّانية : " من وحدّ اللّه " . ثمّ ذكر بمثله [١] .

١٠ – إنّه أعظم سبب لمغفرة الذّنوب وتكفيرها لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [النّساء:٤٨].

فمن نُقِض توجيده ومات على ذلك فلا يغفر ذنبه ، ولا يُتَجاوز له عن سيّئاته ، وأمّا الموحّد فذنوبه يُرْجى لها المغفرة ولو بلغت ما بلغت . كما ثبت ذلك من حديث أنس رضي الله عنه قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : " قال اللّه تبارك وتعالى : يا ابن آدم إنّك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان[٢] السّماء ، ثمّ استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنّك لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا ، ثمّ لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة " [٣] .

لقد وفّق شيخ الإسلام (رحمه الله) في تسطير هذه الكلمات المضيئة . وفيها لفتة انتباه جادّة لدعاتنا اليوم الّذين ربط بينهم التّوحيد الّذي هو أصل أصيل وركن ركين في هذا الدّين . ولكنّهم افترقوا في أمور من الاجتهاد لا تبلغ بهم ما هم فيه من تناحر وتباغض . بل وصل الأمر ببعضهم إلى الطّعن في إخوانه الدّعاة وإبراز عيوبهم والرّد عليهم . والأمّة في أمسّ الحاجة إلى نصحهم وتوجيههم ، وهي تعاني من خلل عظيم في أعظم جوانب الإسلام . وبفعلهم ذاك زادوها تفرّقاً وشتاتاً وانقساماً .

(١) صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإيمان : (١) . باب الأمر بقتال النّاس حتّى يقولوا لا إله إلاّ الله : (٨) . برقم: (٢٣) . عن أبي مالك عن أبيه رضي الله عنه . ٥٣/١ .

(٢) العَنان بالفتح : السّحاب ، والواحِدة عَنَانة . وقيل ماعَن لك منها ، أي اعْتَرض وبَدَا لَك إذا رَفَعْت رأسَك ويُروى أعْنان السّماء أي نَواحِيها ، واحِدُها : عَنَنُ ، وعَنٌّ. النّهاية في غريب الحديث : ٣١٣/٣ . و انظر : غريب الحديث للهروي : ٨٣/٤-٨٤ . الفائق : ٣٣/٣ .

(٣) سنن التّرمذي: بلفظه في : كتاب الدّعوات : (٤٤) . باب خلق اللّه مائة رحمة : (٩٨) . برقم: (٣٥٤٠) . وقال : " هذا حديث حسن غريب" . و قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٥٥٧ .

قال ابن رجب (رحمه الله) في معرض بيانه للحديث السّابق :

" من أسباب المغفرة التّوحيد ، وهو السّبب الأعظم ، فمن فقده فقد المغفـــرة ، ومن جاء به فقد أتى بأعظم أسباب المغفرة ... فمن جاء مع التّوحيد بقـواب الأرض – وهو ملؤها ، أو ما يقارب ملأها[1] – خطايا لقيه اللّه بقرابها مغفرة ، لكن هذا مع مشيئة اللّه عزّ وجلّ ، فإن شاء غفر له ، وإن شاء أخذه بذنوبه ، ثمّ كان عاقبتـه ألاّ يخلد في النّار ، بل يخرج منها ، ثمّ يدخل الجنّة ... فمن تحقّق بكلمة التّوحيد قلبــه أخرجت منه كلّ ما سوى اللّه محبّة وتعظيماً ، وإجلالاً ومهابة ، وخشية ، ورجـاء ، وتوكّلاً ، وحينئذ تُحْرَقُ ذنوبه وخطاياه كلّها ، ولو كانت مثل زبد البحــر ، وربّمـا قلبتها حسنات ... فإنّ هذا التّوحيد هو الإكسير[2] الأعظم ، فلو وضع ذرة منه علـى جبال الذّنوب والخطايا لقلبها حسنات "[3] .

١١ – إنّه أعظم سبب لدخول الجنّة والنّجاة من النّار .

عن جابر ﷺ : أتى النّبي ﷺ رجلٌ فقال : " يا رسول اللّه : ما الموجبتـان ؟ فقال : " من مات لا يشرك باللّه شيئاً دخل الجنّة ، ومن مات يشرك باللّه شيئاً دخـل النّار " [4] .

سنن الدّارمي: بلفظ مقارب . مع تقديم وتأخير . في باب إذا تقرّب العبد إلى اللّه . عن أبي ذر ﷺ . ٤١٤/٢ .

مسند أحمد: بلفظ مقارب مع تقديم وتأخير . في : ١٦٧/٥ . ١٧٢ . و نحوه في: ١٥٤/٥ . عن أبي ذر ﷺ .

(١) انظر : النّهاية في غريب الحديث : ٣٤/٤ .

(٢) الإكسير : هو الكمياء . القاموس المحيط : ص : ٦٠٤ .

(٣) جامع العلوم والحكم :ص : ٣٩٨ . وانظر كلاماً قيّماً جدّاً للإمام ابن القيّم (رحمه اللّه) حول هـــذا المعـنى في : إغاثة اللّهفان : ٦٤/١ . أعلام الموقّعين : ٢٢٦/١ . هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنّصارى . طبعـة الجامعـة الإسلاميّة . المدينة المنورة : ص : ١٣٠ . وانظر : اعتقاد أئمّة الحديث لأبي بكر أحمد بن إبراهيـم الإسمـاعيلي . تحقيق : محمّد بن عبد الرّحمن الخميس .طبعة : دار العاصمة . الرّياض . الطّبعة الأولى : ١٤١٢هـ : ص : ٦٤ . تيسير العزيز الحميد . ص : ٧٣-٧٥

(٤) صحيح البخاري: بنحو منه عن ابن مسعود ﷺ من قوله . في كتاب الجنائز : (٦/٢٣) . باب في الجنائز . ومـن كان آخر كلامه لا إله إلاّ اللّه : (١) . برقم: (١٢٣٨) . ص :٢٦١ .

صحيح مسلم: بلفظه و بلفظ مقارب في: كتاب الإيمان : (١) . باب من مات لا يشرك باللّه شيئاً دخل الجنّـة : (٤٠) . برقم: (٩٣). و نحوه عن ابن مسعود ﷺ . برقم: (٩٢) . ٩٤/١ .

وعن عثمان ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : "من مات وهو يعلم أنّه لا إله إلاّ اللّه دخل الجنّة " [١] .

وفي حديث أبي هريرة ﷺ قال ﷺ : " أشهد أن لا إله إلاّ اللّه وأنّي رسول اللّه لا يلقى اللّه بهما عبد غير شاكّ فيهما إلاّ دخل الجنّة " [٢] .

وفي حديث عتبان بن مالك ﷺ قال رسول اللّه ﷺ : " فإنّ اللّه قد حرّم على النّار من قال : لا إله إلاّ اللّه يبتغي بذلك وجه اللّه " [٣] .

---

(١) المرجع السّابق : بلفظه في : كتاب الإيمان : (١) . باب الدّليل على أنّ من مات على التّوحيد دخل الجنّة قطعاً : (١٠) . برقم: (٢٦) . ١/٥٥ .

(٢) صحيح البخاري: نحوه في: كتاب الشّركة : (٤٧/٢٣) . باب الشّركة في الطّعام والنّهد والعروض : (١) . برقم: (٢٤٨٤) . عن سلمة ﷺ . ص:٥١٧ . وفي كتاب الجهاد والسّير : (٥٦ /٣٢) . باب حمل الزّاد في الغزو : (١٢٣/١٢٢) . برقم: (٢٩٨٢) . عن سلمة ﷺ . ص: ٦٢٨ .

صحيح مسلم: بلفظه و بلفظ مقارب في: كتاب الإيمان : (١) . باب الدّليل على أنّ من مات على التّوحيد دخل الجنّة قطعاً : (١٠) . برقم: (٢٧) . ١/٥٦-٥٧ .

(٣) هذا جزء من حديث في :

صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الصّلاة : (٨/٥) . باب المساجد في البيوت : (٤٦) . برقم: (٤٢٥) . ص : ١٠٦ . وفي كتاب التّهجّد (الصّلاة) : (١٩/٥) . باب صلاة النّوافل جماعة : (٣٦/٥١٣) . برقم: (١١٨٦) . ص: ٢٤٩ . وفي كتاب الأطعمة : (٧٠/٤٤) . باب الخزيرة : (١٥) . برقم: (٥٤٠١) . ولم يقل : " قد " . ص: ١١٨٤ . و نحوه في: كتاب استتابة المرتدّين : (٨٨/٦٣) . باب ما جاء في المتأوّلين : (٩) . برقم: (٦٩٣٨) . ص: ١٤٦٤ .

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب المساجد ومواضع الصّلاة : (٥) . باب الرّخصة في التّخلف عن الجماعة بعذر : (٤٧) . برقم: (٣٣) . ١/٤٥٦ .

وقد اشتهر عند كثير من النّاس أنّ من قال لا إله إلاّ الله دخل الجنّة ولو لم يعمل عملاً . فيكفيه قولها . وهذا زعم خاطئ . فإنّ : لا إله إلاّ الله لها لوازم وحقوق يجب على القائل لها أن يلتزم بها وإلاّ لم ينتفع بها . ولا شكّ أنّ : لا إله إلاّ الله سبب لدخول الجنّة والنّجاة من النّار ومقتضى لذلك . ولكنّ المقتضى لا يعمل عمله إلاّ باستجماع شروطه وانتفاء موانعه . فقد يتخلّف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه ، أو لوجود ما نع . ولهذا قيل للحسن (رحمه الله) : إنّ ناساً يقولون : من قال : لا إله إلاّ الله دخل الجنّة . فقال : " من قال : لا إله إلاّ الله فأدّى حقّها وفرضها دخل الجنّة " . وقال وهب بن منبّه (رحمه الله) لمن سأله : أليس :لا إله إلاّ الله .مفتاح الجنّة ؟ قال : " بلى . ولكن ما من مفتاح إلاّ وله أسنان . فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك . وإلاّ لم يفتح " . ويدلّ على ذلك أنّ الله رتّب دخول الجنّة على الإيمان والأعمال الصّالحة . وكذلك النّبي ﷺ كما في الصّحيحين عن أبي أيوب ﷺ قال : جاء رجل إلى النّبي ﷺ فقال : دلّني على عمل أعمله يدنيني من الجنّة ويباعدني من النّار ؟ قال :

والنّصوص في ذلك كثيرة جدّاً وكلّها تفيد أنّ الموحّد يدخل الجنّة ، سواء كان دخوله دخولاً أوّليّاً ، أو يدخلها بعد ما ينال قسطاً من العذاب في النّار على معاصيه الّتي مات مصرّاً عليها . إذ لا يخلد في النّار إلاّ المشرك ، لقوله تعالى :﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ [المائدة:٧٢] .

وقد ثبت أنّ بعض أهل التّوحيد يدخلون النّار ولكن لا يخلّدون فيها كما جاء في حديث جابر ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : " يعذّب ناس من أهل التّوحيد في النّار حتّى يكونو فيها حُمَماً [1]، ثمّ تدركهم الرّحمة فيخرجون ويطرحون على أبواب الجنّة ، قال : فَيَرُشُّ عليهم أهل الجنّة الماء فينبتون كما ينبت الغُثَاء[2]في حمالة السّيل[3] ، ثمّ يدخلون الجنّة " [4] .

" تعبد اللّه لا تشرك به شيئاً وتقيم الصّلاة وتؤتي الزّكاة وتصل ذا رحمك " . صحيح البخاري: كتاب الزّكاة : (٢٤/٧) . باب وجوب الزّكاة : (١) . برقم: (١٣٩٦) . ص: ٢٩٤ . صحيح مسلم: كتاب الإيمان : (١) . باب بيان الإيمان الّذي يدخل به الجنّة : (٤) . برقم: (١٣) . ٤٢/١-٤٣. تيسير العزيز الحميد . ص :٦٩-٧٠ وانظر : الوابل الصّيّب من الكلم الطّيّب لابن قيّم الجوزيّة . تحقيق : محمّد عبد الرّحمن عوض . طبعة : دار الكتاب العربي . بيروت . الطّبعة الأولى : ١٤٠٥هـ ـــ ١٩٨٥م : ص : ٣٣ .

(١)حُمَماً : جمع حُمَمَة وهي الفَحْمة . يقال : رجل مُحَمّم : أي مُسَوّد الوجه وهو مُفَعَّل من الحُمَم . ويقال فلان أسود كأنّه الحُمَم . ومنه يقال رجل أحمّ وامرأة حمّاء إذا كانا أسْوَدَيْن . انظر : غريب الحديث لابن قتيبة : ٥٢٣/١ . و انظر : غريب الحديث للهروي :١٩٣/١ . الفائق : ٣٢١/١ . النّهاية في غريب الحديث : ٤٤٤/١.

(٢)الغُثَاء بالضّمّ والمدّ : ما يجيء فوق السّيْل مِمَّا يَحْمِله من الزَّبَد والوَسَخ وغيره. النّهاية في غريب الحديث : ٣٤٣/٣.

(٣) حمالة السّيل : وهو ما يجيء به السّيْل من طين أو غُثاء وغيره . فشبَّه به سُرْعة عَوْد أبْدَانِهم وأجْسامِهم إليهم بَعْدَ إحْراق النّار لها . انظر : النّهاية في غريب الحديث : ٤٤٢/١ .

(٤) سنن التّرمذي: بلفظه في : كتاب صفة جهنّم : (٣٦) . باب : (١٠) . برقم: (٢٥٩٧) . وقال : " هذا حديث حسن صحيح " . و قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص: ٤٢١ .

مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ٣٩١/٣ .

وهذا الحديث أصله في الصّحيحين . انظر :

صحيح البخاري: كتاب الإيمان : (٢) . باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال : (١٥) . برقم: (٢٢) . ص : ١٨-١٩ . و كتاب الرّقاق : (٥٥/٨١) . باب صفة الجنّة والنّار : (٥١) . برقم: (٦٥٦٠) . ص : ١٣٩٢ .

ولذلك قال التّرمذي (رحمه الله) :

" إنّ أهل التّوحيد سيدخلون الجنّة ، وإن عذّبوا بالنّار بذنوبهم فإنّهم لا يخلّدون في النّار " [(١)] .

١٢ – إنّه أعظم سبب لنيل الشّفاعة [(٢)] يوم القيامة .

فقد بيّن سبحانه أنّ الشّفاعة كلّها لـــه فقـــال : ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الزمر:٤٤].

كما بيّن أنّها لا تقع يوم القيامة إلاّ إذا أذن للشّافع ، ورضي عن المشفوع فيـــه لقوله تعالى : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

صحيح مسلم: كتاب الإيمان : (١) . باب إثبات الشّفاعة وإخــراج الموحّديــن مــن النّــار : (٨٢) . برقــم: (١٨٤) : ١٧٢/١ .

(١) سنن الترمذي: ص: ٤٢٨ . ونسبه إلى بعض أهل العلم .

والقاعدة الجامعة في ذلك ما نص عليه الإمام النّووي (رحمه الله) بقوله :

" واعلم أنّ مذهب أهل السّنّة وما عليه أهل الحقّ من السّلف والخلف : أنّ من مات موحّداً دخل الجنّة قطعـــاً على كلّ حال . فإن كان سالماً من المعاصي كالصّغير والمجنون والّذي اتّصل جنونه بالبلوغ والتّائب توبة صحيحـــة من الشّرك أو غيره من المعاصي إذا لم يحدث معصية بعد توبته . والموفّق الّذي لم يبتل بمعصية أصلاً . فكـــلّ هـــذا الصّنف يدخلون الجنّة ، ولا يدخلون النّار أصلاً ، لكنّهم يردونها على الخلاف المعروف في الورود ... وأمّـــا مـــن كانت له معصية كبيرة ، ومات من غير توبة فهو في مشيئة الله تعالى ، فإن شاء عفا عنـــه وأدخلـــه الجنّـــة أوّلاً وجعله كالقسم الأوّل . وإن شاء عذّبه القدر الّذي يريده سبحانه وتعالى ثمّ يدخله الجنّة فلا يخلد في النّـــار أحـــد مات على التّوحيد ولو عمل من المعاصي ما عمل . كما أنّه لا يدخل الجنّة أحد مات على الكفر ولو عمـــل مـــن أعمال البر ما عمل . هذا مختصر جامع لمذهب أهل الحقّ في هذه المسألة . وقد تظاهرت أدلّـــة الكتـــاب والسّـــنّة وإجماع من يعتدّ به من الأمّة على هذه القاعدة . وتواترت بذلك نصوص تحصل العلم القطعي " .

شرح النّووي على مسلم : ٢١٧/١

(٢)قال الرّاغب (رحمه الله) :

" الشّفاعة : الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه . وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حرمةً ومرتبـــة إلى من هو أدنى . ومنه الشّفاعة في القيامة " . المفردات . ص : ٢٦٣ .

وقال الجورجاني (رحمه الله) :

" الشّفاعة : هي السّؤال في التّجاوز عن الذّنوب من الّذي وقع الجناية في حقّه " . التّعريفات . ص : ١٦٨ .

وقوله : ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ ﴾ [يونس:٣] .

وقوله : ﴿ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء:٢٨] .

وجمع بين الشّرطين في قولــه : ﴿ يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [طه:١٠٩] .

وقولــه : ﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النجم:٢٦] .

وهذا لا يتأتّى إلاّ لأهل التّوحيد الّذين جرّدوا التّوحيد وخلّصوه مــن شــوائب الشّرك ، فهم الّذين ارتضاهم اللّه سبحانه .

وأمّا أهل الشّرك فلا يرضاهم ولا يرضى قولهم ، ولا يأذن بالشّفاعة فيهم [١] . بل الشّفاعة في حقّهم منفيّة لأنّهم جعلوا وسائط بينهم وبين اللّه في جلب ما ينفعــهم ودفع ما يضرّهم ، زاعمين أنّهم شفعاؤهم عند اللّه . فحرموا لذلك الشّفاعة الحقّة . كما قال ســبحانه : ﴿ وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الأنعام:٩٤] .

وقوله عزّ وجلّ : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المدثر:٤٨] [٢] .

وقد بيّن النّبيّ ﷺ أنّ شفاعته لأهل التّوحيد لا يشركهم فيــها ســواهم وإنّمــا يختصّون بها .

---

(١) وانظر : إغاثة اللّهفان : ١/٢٢٠-٢٢١ .

(٢) وانظر : مجموع الفتاوى : ١/١٥٤ . مفتاح دار السّعادة : ٢/٢٦٩-٢٧٠ .

ففي حديث أبي هريرة ﷺ قال ﷺ : " أسعد النّاس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله إلاّ اللّه خالصاً من قلبه أو نفسه " (١) .

وفي حديثه الآخر ﷺ قال رسول اللّه ﷺ : " لكلّ نبيّ دعوة مستجابة ، فتعجّل كلّ نبيّ دعوته ، وإنّي اختبأت دعوتي شفاعة لأمّتي يوم القيامة ، فهي نائلة إن شاء اللّه من مات من أمّتي لا يشرك باللّه شيئاً " (٢) .

هذه جوانب – وغيرها الكثير – تبرز أهميّة التّوحيد وسمو مكانته ، ورفيع منزلته متى ما وقف عليها الدّاعية إلى اللّه تحتّم عليه أن يبدأ دعوته به ، وأن يؤسّسها عليه ، لأنّ التّوحيد مرتكزها ومحورها الّذي تنطلق منه .

فصحّة العقيدة هي المنطلق الأوّل للدّاعية ، وهي القاعدة والأساس الّتي يرتكز عليها هذا البناء . والعقيدة الصّحيحة بمثابة القوّة المحرّكة للدّاعية الّتي تدفعه للأداء وتثبّته على الطّريق . وأي خلل في هذه القاعدة يعدّ خللاً في حياة الدّاعية . فصلاح العقيدة يتوقّف عليه صلا ح الأمر كلّه ، فإذا فسدت فسد سائر العمل وأصبح غثاء (٣) .

ولا يمكن البتّة لهذا الدّاعية أن يثبت على دعوته ، وتقوم لدعوته قائمة ما لم يؤسّسها على التّوحيد الخالص من شوائب الشّرك .

---

(١) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب العلم : (٣) . باب الحرص على الحديث : (٣٣) . برقم: (٩٩) . ص : ٣٩ . و بلفظ مقارب في: كتاب الرّقاق : (٨١/٥٥) . باب صفة الجنّة والنّار : (٥١) . برقم: (٦٥٧٠) . ص : ١٣٩٣-١٣٩٤ .

(٢) المرجع السّابق : نحوه في: كتاب الدّعوات : (٨٠/٥٤) . باب لكلّ نبيّ دعوة مستجابة : (١) . برقم: (٦٣٠٤) . عن أبي هريرة ﷺ . و برقم: (٦٣٠٥) . عن أنس ﷺ . ص : ١٣٤٥ . وفي كتاب التّوحيد : (٧٢/٩٧) . باب ﴿ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران:٢٦] : (٣١) . برقم: (٧٤٧٤) .عن أبي هريرة ﷺ . ص : ١٥٩٦ .

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإيمان : (١) . باب في قول النّبي ﷺ : " أنا أوّل النّاس يشفع في الجنّة : (٨٥) . برقم: (١٩٩) . عن أبي هريرة ﷺ . ونحوه عنه برقم: (١٩٨ . ١٩٩) . و برقم: (٢٠٠) عن أنس ﷺ . وبرقم: (٢٠١) . عن جابر ﷺ : ١/ ١٨٨-١٩٠ .

(٣) عقبات في طريق الدّعوة . ص : ٣٤ .

وقد لفت الخالق سبحانه الانتباه لذلك مبيّناً أنّ التّوحيد مصدر الثّبات لجميع الطّاعات الّتي منها الدّعوة إلى اللّه تعالى ، فقال عزّ وجلّ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٧] .

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" فإنّه سبحانه شبّه شجرة التّوحيد في القلب بالشّجرة الطّيّبة الثّابتة الأصل ، الباسقة الفرع في السّماء علوّاً ، الّتي لا تزال تؤتي ثمرتها كلّ حين ، وإذا تأمّلت هذا التّشبيه رأيته مطابقاً لشجرة التّوحيد الثّابتة الرّاسخة في القلب الّتي فروعها من الأعمال الصّالحة الصّاعدة إلى السّماء ، ولا تزال هذه الشّجرة تثمر الأعمال الصّالحة كلّ وقت بحسب ثباتها في القلب ، ومحبّة القلب لها ، وإخلاصه فيها ، ومعرفته بحقيقتها ، وقيامه بحقوقها ، ومراعاتها حقّ رعايتها " [(١)] .

ثمّ استرسل (رحمه الله) في بيان ذلك بأسلوب رصين شائق إلى أن قال :

" ... فالقول نوعان : ثابت له حقيقة ، وباطل لا حقيقة له ، وأثبت القول كلمة التّوحيد ولوازمها ، فهي أعظم ما يثبّت اللّه بها عبده في الدّنيا والآخرة " [(٢)] .

ويقول سيّد قطب (رحمه الله) :

" إنّ العقيدة هي الرّكيزة الثّابتة في حياة المؤمن ، تضطّرب الدّنيا من حوله فيثبت هو على هذه الرّكيزة ، وتتجاذبه الأحداث والدّوافع فيتشبّث هو بالصّخرة الّتي

---

(١) أعلام الموقّعين : ١٧٢/١ .

(٢) المرجع السّابق : ١٧٧/١ .

لا تتزعزع ، وتتهاوى من حوله الأسناد فيستند هو إلى القاعدة الّتي لا تحول ولا تزول .

هذه قيمة العقيدة في حياة المؤمن . ومن ثمّ يجب أن يستوي عليها ، متمكّناً منها ، واثقاً بها ، لا يتلجلج فيها ، ولا ينتظر عليها جزاء ، فهي في ذاتها جزاء . ذلك أنّها الحمى الّذي يلجأ ليه ، والسّند الّذي يستند عليه . أجل هي في ذاتها جزاء على تفتّح القلب للنور ، وطلبه للهدى . ومن ثمّ يهبه اللّه العقيدة ليأوي إليها ، ويطمئن بها . هي في ذاتها جزاء يدرك المؤمن قيمته حين يرى الحيارى الشّاردين من حوله تتجاذبهم الرّياح ، وتتقاذفهم الزّوابع ، ويستبدّ بهم القلق ، بينما هو بعقيدته مطمئن القلب ، ثابت القدم ، هادئ البال ، موصول باللّه ، مطمئن بهذا الاتّصال " (١) .

فالتّوحيد أعظم ما يزكو به القلب لأنّه يتضمّن نفي إلهيّة ما سوى الحقّ من القلب وإثبات الحقّ في القلب ، وهو حقيقة لا إله إلاّ اللّه ، وهذا أصل ما تزكو به القلوب (٢) .

وهو أبلغ أسباب شرح الصّدر ، فبحسب كماله وقوّته وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه ، كما أنّ الشّرك من أعظم أسباب ضيق الصّدر وانحراجه (٣) .

فالدّاعية إلى اللّه لا يمكنه أبداً أن يثبت على دعوة اللّه إلاّ إذا بناها على هذا الأساس المتين ، وأرض التّوحيد الصّلبة .

ولذا تهاوت كثير من الدّعوات وتزلزلت أركانها ، وتحطّمت قواعدها ، وتفرّق دعاتها شَذَرَ مَذَرَ(٤) لأنّها لم تنطلق في مبدئها من عقيدة التّوحيد ، وإنّما تعلّقت بأمور من الإسلام لم تنل من الأهميّة ما ناله التّوحيد ، ولم تصل في المكانة إلى مكانته . وهي قد تحاشت البدء به إمّا جهلاً بمقامه ، أو صعوبة مسلكه ، وشدّة

---

(١) في ظلال القرآن : ٤/٢٤١٢ .

(٢) مجموع الفتاوى : ١٠/٩٧ بتصرّف يسير .

(٣) زاد المعاد : ٢/٢٣-٢٤ بتصرّف .

(٤) شَذَرَ مَذَرَ وشِذَرَ مِذَرَ وبِذَرَ : أي ذهبوا في كلّ وجه. ولا يقال ذلك في الإقبال؛ وذهبت غنمك شَذَرَ مَذَرَ وشِذَرَ مِذَرَ: كذلك . ويروى بكسر الشّين والميم وفتحهما . لسان العرب : ٤/ ٣٩٩ . بتصرّف .

الأذى على من قام به ، وخطر مواجهة المجتمع الّذي انخرط الغالب من أفراده فـــي الشّرك إلاّ من رحم اللّه ، أو تهويناً لأمره وتنقيصاً لمنزلته، أو ســـوى ذلـــك مـــن الأسباب الصّارفة عن البدء به .

وما ثبت من الدّعاة على دعوتهم إلاّ من بدؤها بالتّوحيد ، وأسّسوها عليـــه ، وظلّوا كذلك لا ينحرفون عنه ، وهم أهل الثّبات حقّاً .

الفصل الرّابع

نماذج للثّبات في الدّعوة

وفيه مباحث :

المبحث الأوّل

رسل اللّه عليهم السّلام

إنّ رسل اللّه هم الصّفوة المختارة ، والنّخْبَةُ المُنتقاة .

قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحج:٧٥] .

وقال : ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ ﴾ [الأنعام:١٢٤] .

وهم سفراء اللّه إلى النّاس ، ومبعوثوه إلى خلقه ، والمبلّغون لوحيه ، والحاملون لدعوته إلى عباده .

قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأحزاب:٣٩] .

وقد جعلهم اللّه وسائط بينه وبين خلقه في إبلاغ دينه ، وإقامة حجّته .

قال تعالى : ﴿ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النحل:٣٥] .

وقال : ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾ ﴾ [النساء:١٦٥] .

همّهم الأعظم وهدفهم الأسمى أن يُعْبَدَ اللّه في الأرض ، ويطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر .

ولذلك حملوا دعوته سبحانه بصدق وإخلاص ، وصـــبر وعزيمـــة ، غـــير خائفين ولا هائبين ، بل صادعين بها ، رافعين لواءها ، مدافعين عنها ، مجتـــهدين في نصرتها ، صابرين على شدّتها ، حريصين على هداية النّاس إليها ، نـــاصحين ، مرشدين ، مبشّرين ومنذرين .

قال تعالى عن نوح عليه السّـــلام : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٦٢] .

وعن هود عليه السّـــلام : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف:٦٨] .

وعن صالح عليه السّـلام : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ [الأعراف:٧٩].

وعن شعيب عليه السّلام : ﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [الأعراف:٩٣] .

فالدّعوة إلى اللّه هي وظيفتهم ، ومهمّتهم الّتي كلّفوا من اللّه أن يُبلّغوها إلـــى عباده . ولذا بذلوا فيها غاية جهدهم ، وكَرَّسُوا كلّ حياتهم من أجلها ، والذّود عنها .
ولم يكن طريقهم سهلاً ، ولا سيرهم ميسّراً .

فلم تُفرش لهم الرّياحين ، ولم تقطف لهم الورود ، ولم يقابلوا بالـــهتافات مـــع عظمتهم ، وجلالة قدرهم . بل وُوجِهُوا بعواصـــفَ لا تـــهدأ ، وزلازل لا تخمـــد ، وعداوات لا تنطفئ .

وبذل أقوامهم العتاة المتجبّرون كلّ ما يملكون من وسائل ليوقفـــوا ســـيرهم ، ويخمدوا دعوتهم فما وجدوا إلى ذلك سبيلاً .

تنوّعت أسلحتهم في حرب رسل اللّه ، وتعدّدت ضلالاتهم في الكيد والمكـــر
فما أجدت لهم فتيلاً [١] ، ولا نالوا بها قطميراً [٢].

واجهوهم بالتّكذيب ليجرّدوا الحقّ الّذي معهم من أقوى دعائمــــه ، وأصلـــب أسسه وهو الصّدق الّذي لازم دعوة الرّسل في كلّ وقت وحين، ولكنّهم ما أفلحـــوا . قال تعـــالى : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٤] .

وكان التّكذيب لرسل اللّه قاعدة لا شذوذ عنها عند أعداء اللّه ليطفئوا بها نور اللّه .

قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المؤمنون:٤٤] .

وأردفوا إلى التّكذيب الأذى فما نجحوا .

قال ربّ العـــزّة : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنعام:٣٤] .

قابلوهم بالاستهزاء والطّعن واللّمز والسّخرية ليحطّوا من قدرهم ، ويـــهوّنوا من أمرهم فما أجدى ذلك نفعاً .

---

(١) الفَتِيلُ : ما يكون في شق النّواة . وقيل هو ما يُفتل بين الإصبعين من الوسخ . و فَتَل الحبل وغيره مـــن بـــاب ضرب . مختار الصّحاح : ص: ٤٩٠ . و انظر : لسان العرب : ٥١٤/١١ . القاموس المحيط : ص : ١٣٤٥ .

(٢) القِطْمِيرُ و القِطْمارُ: شَقُّ النّواة. وقيل : القِطْمِيرُ الفُوفة الّتي في النّواة . وهي القِشْرة الدّقـــيقة الّتي علـــى النّـــواة مابـــين النّواة والتّمر . ويقال: هي النّكْتة البـــيضاء الّتي في ظهر النّواة الّتي تنبت منها النّـــخـــلة. وما أَصبتُ منـــه قِطْميراً أي شيئاً . لسان العرب : ٥/ ١٠٨ . بتصرّف يسير . و انظر : : مختـــار الصّحـــاح : : ص: ٥٤٣ . القاموس المحيط : ص: ٥٩٧.

قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنعام:١٠] .

وقال : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرّعد:٣٢] .

وضعوا أمامهم الشّبه ، ونصبوا في طريقهم العراقيل ليلفتوهم عن بغيتهم ، ويشغلوهم عن غايتهم ، فما قرّت لهم بذلك عين ، ولا سعدت لهم به نفس .

قالوا لنوح عليه السّلام : ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴾ [هود:٢٧] (١) .

وقالوا لهود عليه السّلام : ﴿ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۞ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۞ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ [هود:٥٣-٥٥] .

وقالوا لصالح عليه السّلام : ﴿ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود:٦٢]

وقالوا لشعيب عليه السّلام : ﴿ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود:٨٧] .

---

(١) وانظر : الشّعراء : ١١١ .

وقالوا في موسى وهارون عليهما السّلام : ﴿ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾ [طه:٦٣] .

وقالوا في محمّد ﷺ : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۞ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان:٤-٥] .

ويَتْبَعُ ما ذُكر سيل عارم ، ومدّ لا ينقطع من شبه أهل الباطل على رسل اللّه فما وصلوا إلى ما يصبون إليه .

وهددّوهم بالقتل والإخراج والسّجن . بل منهم من قتل ، ومن سجن ، ومن أُخرج ، فما نالوا ما يبتغون ، ولا حازوا على ما يريدون ، ولا جنوا بما به يسعدون .

قال تعالى في شأن القتل : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران:٢١] (١) .

وقال في شأن الإخراج : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [إبراهيم:١٣] (٢) .

وقال في شأن السّجن : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [يوسف:٣٥] .

---

(١) وانظر : البقرة : ٦١ ، ٨٧ ، ٩١ . وآل عمران : ١١٢ .

(٢) وانظر : الأعراف : ٨٢ . الشّعراء : ١٦٧ .

وقد حاول مشركو مكّة أن ينفّذوا إحدى هذه الثّلاث في رسـول اللّـه ﷺ . وفي ذلك قـال سـبحانه : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال:٣٠] . فبـاءت محاولتهم بالفشل .

وهذه السّلسلة من مواجهات أعداء اللّه لرسله يطول ذكرها ، وكلّـها فشـلت فشلاً ذريعاً ، وتحطّمت أجزاؤها ، وتناثرت أشلاؤها على عتبة ثبات الرّسل عليـهم السّلام . فما وهنوا ، وما ضعفوا ، وما استكانوا ، وما جبنوا ، وما خـاروا ، ومـا فُت في عزائمهم ، ولا قُدح في صبرهم ، ولا فُلّ في قوّتهم .

بل ظلّوا قمماً شامخة في الثّبات ، وجبالاً راسية في الصّبر ، حتّـى بلّغـوا دعوة اللّه ، وأوصلوها إلى كلّ من كلّفهم اللّه بإيصالها إليه . ومحمّد ﷺ الّذي هـو خاتم الرّسل ، وأمّته الّتي هي خاتمة الأمم شاهدين على ذلك .

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : " يجيء النّبيّ يـوم القيامة ومعه الرّجل ، والنّبيّ ومعه الرّجلان وأكثر من ذلك ، فيدعى قومه ، فيقـال لهم : هل بلّغكم هذا ؟ فيقولون : لا ، فيقال له : هل بلّغت قومك ؟ فيقول : نعـم . فيقال له : من يشهد لك ؟ فيقول : محمّد وأمّته . فيدعى محمّد وأمّته فيقال لهم : هل بلّغ هذا قومه ؟ فيقولون : نعم . فيقال : وما علمكم ؟ فيقولون : جاءنا نبيّنا فأخبرنـا أن الرّسل قد بلّغوا . فذلك قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ . قـال : يقـول : عـدلاً ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ [البقرة:١٤٣] . [(١)]

---

(١) صحيح البخاري: نحوه في: كتاب أحاديث الأنبياء : (٦٠/٣٦) . باب قول اللّه تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ [نـوح:١] : (٣) . برقـم: (٣٣٣٩) . ص: ٧٠١ . وفي كتاب التفسير : (٣٩/٦٥) . بـاب ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ [البقـرة:١٤٣] : (١٣) .

وهذان أنموذجان عظيمان ، ومثالان فذّان ، يشعّان ثباتاً ، ويتنفسان صـــبراً ، لرسولين كريمين ، ونبيّين جليلين : أحدهما : أوّل رسل الله ، والثّاني آخر رسلى الله إلى أهل الأرض ليكونا مثالين في الثّبات على الدّعوة إلى الله لبقية كوكبـة الرّسـل بينهما . أتحدث عنهما في مطلبين . وأبدأ بآخرهما لأنّه أفضلهما .

برقم: (٤٤٨٧) . ص : ٩٣٤ . وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسّـنّة : (٧١/٩٦) . بـاب قولـه تعـالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّـةً وَسَطًا ﴾ [البقرة:١٤٣] : (٢٠/١٩) . برقم: (٧٣٤٩) . ص : ١٥٤٣.

واللّفظ لأحمد في مسنده : ٥٨/٣ . وانظر : تفسير القرآن العظيم : ٢٨٤/١

﴿المطلب الأوّل﴾

محمّـــــد بن عبد الله ﷺ

أوّل ما أوحاه ربّه إليه قوله : ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ ﴾ [العلق:١] (١)

فأمره أن يقرأ في نفسه ، ولم يأمره بالتّبليغ . وهذا مبدأ نبوّته . ثمّ أنـــزل عليـــه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ ﴾ [المدثر:١-٢]. وهذا مبدأ رسالته . ثمّ أمـــره أن ينذر عشـــيرته الأقربيـــن ، فقـــال تعـــالى : ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ۝٢١٤ ﴾ [الشّعراء:٢١٤] . ثمّ أنذر قومه ، ثمّ أنذر من حولهم من العرب ، ثـــمّ أنـــذر العـــرب قاطبة ، ثمّ أنذر العالمين(٢) .

وأقام ثلاث سنين يدعو إلى اللّه مستخفياً حتّى نـــزل عليـــه قولـــه تعـــالى : ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤ ﴾ [الحجـــر:٩٤] . فـــأعلن ﷺ الدّعوة ، وجاهر بها قومه(٣) .

ومكث في مكّة عشر سنين يدعو إلى اللّه ليلاً ونهاراً ، وســـرّاً وجـــهاراً ، لا تأخذه في اللّه لومة لائم . دعا الصّغير والكبير ، والحرّ والعبد ، والذّكر والأنثـــى ، والأحمر والأسود ، والجنّ والإنس(٤) .

وكان يعرض نفسه على القبائل يدعوهم ، ويذهب إلى النّاس فـــي أســـواقهم ومنازلهم ويخبرهم أنّه نبي مرسل من عند اللّه ، ويطلب منهم أن يمنعوه حتّى يبلّـــغ رسالة ربّه(٥) .

---

(١) وانظر الآيات بعدها .

(٢) وانظر : السّير النّبويّة لابن هشام : ١/١٤٧ . ١٥٩ فما بعدها .

(٣) انظر : المرجع السّابق : ١/١٥٩ . زاد المعاد : ١/٨٦ . وانظر : الرّحيق المختوم . لصفي الرّحمن المبـاركفوري . طبعة : المكتبة العصريّة . بيروت . الطّبعة الأولى : ١٤١٧هـ ــ ١٩٩٦م : ص : ٦٨-٧٠ .

(٤) زاد المعاد : ٣/١٢ بتصرّف يسير . وانظر : البداية والنّهاية : ٣/٣٩-٤٠ .

(٥) انظر : السّير النّبويّة لابن هشام : ١/٢٦٧ . زاد المعاد : ٣/٢٣٤ .

وقد حاول قومه جاهدين أن يوقفوا دعوته ، ويعطّلوا سيرها ، ويخمدوا أنفاسها ، ويبيدوها في مهدها .

تلك الدّعوة الّتي عابت آلهتهم ، وضلّلت آباءهم ، وسفّهت أحلامهم ، وحطّت من كبريائهم ، فأجمعوا على خلافه وعداوته .

❋ سعوا إلى عمّه أبي طالب الحادب عليه[1] لكي يكفّه وإلاّ نازلوه ومن معه حتّى يهلك أحد الفريقين ، ورغّبوه كي يبدّله لهم بفتى من قريش ليقتلوه . ولكنّ أبا طالب لم يفعل ، وحدب على رسول اللّه حامياً له مدافعاً عنه[2] .

❋ سلكوا معه ﷺ كلّ مسلك معوج ، واستخدموا كلّ وسيلة سيّئة ، وكلّ أسلوب منحطّ ليتنصل عن دعوته ، وينسلخ عنها ، فأبى .

❋ وصفوه بالجنون فقالوا : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ ﴾ [الحجر:٦] [3] .

❋ زعموا أنّه كاهن[4] . فأجابهم الله داحضاً الفريتين : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩ ﴾ [الطّور:٢٩] [5] .

---

(١) حَدِبَ فلان على فلان يَحْدَبُ حَدَباً فهو حَدِبٌ . و تَحَدَّبَ: تَعَطَّفَ ، وحَنا عليه . يقال: هو له كالوالد الحَدِب . و حَدِبَتِ المرأةُ على ولَدها : أي أشْفَقَت عليه . و المُتَحَدِّبُ: المُتَعَلِّقُ بالشّيء المُلازِمُ له. انظر : لسان العرب : ١/ ٣٠١ . وانظر : القاموس المحيط : ص: ٩٣.

(٢) انظر : السّيرة النّبويّة لابن هشام : ١/١٥٩-١٦١ . الكامل في التّاريخ : ٢/٤٢-٤٣ .وانظر : البداية والنّهاية : ٤٠/٣ .

(٣) وانظر : الصّافات : ٣٦ . الطّور : ٢٩ . القلم : ٢ ، ٥١ .

(٤) كاهن : الكاهِنُ : الّذي يَتعاطى الخبرَ عن الكائنات في مستقبل الزّمان ويدّعي معرفة الأسرار . وقد كان في العرب كَهَنَةٌ كشِق وسطيح وغيرهما . فمنهم من كان يَزْعُم أنّ له تابعاً من الجنّ ورَئِيّاً يُلقي إليه الأخبار، ومنهم من كان يزعم أنّه يعرف الأمور بمُقدِّمات أسباب يستدلّ بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله ، وهذا يخُصُّونه باسم العَرَّاف كالّذي يدَّعي معرفة الشّيء المسروق ، ومكان الضّالة ونحوهما .
لسان العرب : ١٣/ ٣٦٣ .

(٥) وانظر : الحاقّة : ٤٢ .

❁ ادعوا أنّه شاعر ، وأنّ ما جاء به مفتر ، وهو ضرب من الأحلام فقـــالوا : ﴿ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٥] [1] .

❁ وسموه بالسّحر فقالوا : ﴿ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ص:٤].

❁ سلكوا معه سبيل الاستهزاء والسّخرية . قال تعـــالى : ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنبياء:٣٦] [2] .

❁ أثاروا حوله الشّبهات المضلّلة ، والدّعايات المقرضة ، والأراجيف الواهية ، فقالوا : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾ [النحل:١٠٣] . وقالوا : ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الفرقان:٧] .

❁ قالوا عن القرآن الّذي جاء بـــه: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [الفرقان:٤-٥] .

❁ اتّهموه بالكذب ، وادّعوا أنّه يقول عن الله ما لم يأمره به .

قال سبحانه : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٤] [3] .

---

(١) وانظر : الصّافات : ٣٦ . الطّور : ٣٠ . الحاقة : ٤١ .

(٢) وانظر : الفرقان : ٤١-٤٢ .

(٣) وانظر : الحجّ : ٤٢ . فاطر : ٤ ، ٢٥ .

❁ سلكوا معه سبيل التّعجيز ، فتمحّلوا في اقتراح الآيات عليه .

قال تعـــالى : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾[الإسراء:٩٠-٩٣] (١)

ولمّا باءت هذه المسالك جميعها بالفشل ، سلكوا سبلاً أخرى أنكى وأشد .

❁ حاولوا إغراءه بالمال والشّرف والملك علّه تلين له قناة ، ويذعن لبغيتـــهم ، ولكنّهم عادوا خائبين .

❁ أرادوا قتله والقضاء عليه ، وحاولوا ذلك كرّات ومـــرّات ، ولكـــن ذهبـــت محاولاتهم أدراج الرّياح .

❁ تفنّنوا في إيصال الأذى إليه بكلّ ما أمكنهم فعله ، فما وصلوا إلى ما يريدون وما نالوا ما يبتغون(٢) .

---

(١) وانظر : السّيرة النّبويّة لابن هشام : ١/١٧٧-١٧٨ .

(٢) انظر : المرجع السّابق : ١/١٧٣-١٧٦ . وانظر : الرّحيق المختوم . ص : ٨٧-٨٩ .

❁ شنّوا عليه وعلى من وقف معه وآزره حرباً اقتصاديّة بشعة ، استمرت ثلاثة أعوام عجاف[1] ، أدّت بهم إلى أكل الجلود ، وأوراق الأشجار . ولكنّها فشلت في القضاء على دعوته [2] .

ولمّا بلغ به الأذى مبلغه خرج إلى ثقيف في الطّائف يلتمس النّصرة والمنعة بهم ، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به ، ولكنّهم ردّوه ردّاً منكراً ، وآذوه أذى بالغاً عاد بعده إلى مكّة أسيفاً حزيناً [3] .

❁ انتهت كلّ محاولاتهم بالإخراج والطّرد الّذي أدّى فيما بعد بتجريد السّيوف، وسفك الدّماء ، وضرب الأعناق .

وهذا كلّه يحدث ورسول اللّه ﷺ ثابت على دعوته ، لم يتراجع خطوة عنها ، ولم يتزحزح قيد أنملة . والآيات تتنزّل من ربّ العزّة تدعوه إلى الثّبات على الدّعوة وتأمره به ، وتهيّجه عليه ، وتصبّره وتطمئن قلبه .

فإن كذّبت فقد كذّب رسل اللّه قبلك ، وإن أوذيت فقد أوذوا ولكنّهم ثبتوا فلتثبت كثباتهم . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنعام:٣٤] .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" هذه تسلية للنّبيّ ﷺ وتعزية له ، فيمن كذّبه من قومه ، وأمر له بالصّبر ، كما صبر أولو العزم من الرّسل ، ووعد له بالنّصر كما نصروا ، وبالظّفر حتّى

---

(١) العَجَف: ذهاب السّمن والهزال . وقد عَجِفَ: بالكسر ، و عَجُفَ بالضّم فهو أعْجَفُ و عَجِفٌ . والأنثى عجفاء و عجفٌ بغير هاء ، والجمع منهما عِجافٌ حملوه على لفظ سِمان . لسان العرب : ٢٣٣/٩ . وانظر : مختار الصّحاح : ص : ٤١٤ . القاموس المحيط : ص: ١٠٧٩ .

(٢) انظر : السّيرة النّبويّة لابن هشام : ٢١٩/١ . الكامل في التّاريخ : ٥٩/٢-٦٠ . البداية والنّهاية : ٩٣/٣-٩٦ . الرّحيق المختوم . ص : ٩٧-٩٨ .

(٣) انظر : السّير النّبويّة لابن هشام : ٢٦٤/١ . الكامل في التّاريخ : ٦٣/٢-٦٤ . البداية والنّهاية : ١٣٥/٣-١٣٧ . الرّحيق المختوم . ص : ١١٣ .

كانت لهم العاقبة بعد ما نالهم من التّكذيب من قومهم والأذى البليغ ، ثمّ جاءهم النّصر في الدّنيا كما لهم النّصر في الآخرة " (١) .

وقال السّعدي (رحمه الله) في قوله :﴿ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ :

" ما به يثبّت فؤادك ، ويطمئن به قلبك " (٢) .

وقال سبحانه : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحقاف:٣٥].

قال ابن جرير (رحمه الله) :

" يقول تعالى ذكره لنبيّه محمّد ﷺ مثبّته على المعنى لما قلّده من عبء الرّسالة ، وثقل أحمال النّبوّة ﷺ ، وأمره بالائتساء في العزم على النّفوذ لذلك بأولي العزم من قبله من رسله الّذين صبروا على عظيم ما لاقوا فيه من قومهم من المكاره ، ونالهم فيه من الأذى والشّدائد .. الخ " (٣) .

وقال الرّازي (رحمه الله) :

" اصبر كما صبر الرّسل من قبلك على أذى قومهم ، ووصفهم بالعزم لصبرهم وثباتهم " (٤) .

وقال صديق حسن خان (رحمه الله) :

" فاصبر كما صبر أرباب الثّبات والحزم وأولو الجدّ والصّبر فإنّك منهم " (٥) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٢٠٩/٢ .

(٢) تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٢١٧ .

(٣) جامع البيان : ٣٧/٢٦ .

(٤) التّفسير الكبير : ٣٥/٢٨ .

(٥) فتح البيان : ٤١/١٣ .. وانظر : محاسن التّأويل : ٥٣٦٩/١٥ . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٧٢٨-٧٢٩ .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الشورى:١٥] .

قال ابن جرير (رحمه الله):

" فإلى ذلك الدّين الّذي شرع لكم ، ووصّى به نوحاً ، وأوحاه إليك يا محمّد ، فادع عباد اللّه ، واستقم على العمل به ، ولا تزغ عنه ، واثبت عليه كما أمرك ربّك بالاستقامة " [(١)] . والآيات في هذا المعنى وافرة .

وقد كان رسول اللّه ﷺ مثلاً رائعاً وأنموذجاً فذّاً في الثّبات على دعوة اللّه ، فاق من قبله من رسل اللّه ، وأعجز من بعده أن يصلوا إلى ثباته .

وقد تحطّمت كبرياء قريش أمامه ، وفشلت كلّ جهودهم في النّيل منه ومن دعوته ، وتضعضعت قوّتهم أمام صبره ، وتلاشت عزيمتهم أمام عزمه ، وفترت هممهم أمام همّته .

قال القاسمي (رحمه الله) :

" لا خفاء في أنّ النّبي ﷺ قد بلّغَ البلاغَ التّام ، وقام به أتمّ القيام ، وثبت في الشّدائد وهو مطلوب ، وصبر على البأساء والضّراء وهو مكروب ومحروب ، وقد لقي بمكّة من قريش ما يشيب النّواصي ، ويهدّ الصّياصي ، وهو مع الضّعف يصابر صبر المستعلي ، ويثبت ثبات المستولي " [(٢)] .

ولمّا هاجر ﷺ إلى المدينة ظلّ يدعو إلى اللّه عزّ وجلّ بالقول واللّسان والسّيف والسنان ، لم تفتر له عزيمة ، ولم يخلد إلى راحة أبداً حتّى لقي ربّه .

---

(١) جامع البيان : ١٧/٢٥ . وانظر : التّفسير الكبير : ١٥٨/٢٧ . تفسير القرآن العظيم : ١٦٥/٤ . الجواهر الحسان : ١٨٧/٣ . فتح البيان : ٢٨٧/١٢ . محاسن التّأويل : ٥٢٣٣/١٤ . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٧٠١

(٢) محاسن التّأويل : ٢٠٦٨/٦ . وقد سبق من قبل : انظر : ٣٥٣ .

بعث الكتب إلى الملوك ، وأرسل السّرايا ، وبعث البعوث ، وغزا الغزوات ، وشمَّر عن ساعد الجدّ والسّاق .

وقام في الدّعوة خير قيام لم يسترح ولم يسكن ، ولم يعش لنفسه ولا لأهله ، قام وظلّ قائماً على دعوة اللّه ، يحمل على عاتقه العبء الثّقيل الباهظ ولا ينوء به ، عبء الأمانة الكبرى في هذه الأرض ، عبء البشريّة كلّها ، عبء العقيدة كلّها ، وعبء الكفاح والجهاد في ميادين شتّى ، عاش في المعركة الدّائبة المستمرّة لا يلهيه شأن عن شأن في خلال هذا الأمد منذ أن سمع النّداء العلوي الجليل ، وتلقّى منه التّكليف الرّهيب[1] .

فَبَشَّرَ ﷺ وأنذرَ ، ورغّبَ ورهّبَ ، ووعظ وذكّر ، ونصح وأرشد ، وخطب وبلّغ ، ودعا بقوله وفعله وخلقه ، وسلك كلّ وسيلة حقّة توصل إلى اللّه ، ونهج كلّ أسلوب سليم مقنع مؤثّر يُبَيّنُ دين اللّه تعالى ، وهو مع ذلك ثابت لا يتزلزل .

وقد أمر الخلق بكلّ ما أمر اللّه به ، ونهاهم عن كلّ ما نهى اللّه عنه ، أمر بكلّ معروف ، ونهى عن كلّ منكر ، ودعا بإذن اللّه ، ولم يشرع ديناً لم يأذن اللّه به [2] .

وحرص كلّ الحرص على هداية أمّته ، وإنقاذها من عذاب اللّه ، ونجاتها من عقابه ، وإيصالها إلى مرضاته ، وقد شهد اللّه له بذلك الحرص ، فقال سبحانه : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة:١٢٨] [3] .

---

(١) في ظلال القرآن : ٣٧٤٢/٦-٣٧٤٣ بتصرّف .

(٢) مجموع الفتاوى : ١٦١/١٥ بتصرّف . وانظر : الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر . ص : ١٢ .

(٣) وانظر : النّحل : ٣٧ . الكهف : ٦ . الشّعراء : ٣ .

عن جابر ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : " مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً ، فجعل الجَنادب[1] والفراش يقَعْنَ فيها ، وهو يَذُبُّهُنَّ[2] عنها ، وأنا آخذ بِحُجَزِكُم[3] عن النّار وأنتم تفلّتون من يدي " [4] .

وفي هذا كمال حرصه ، وعظيم اجتهاده في تخليص الأمّة من الهلكات ، والأخذ بأيديها عن الوقوع في الدّركات ، لشفقته وكمال رحمته[5] .

وهو أحقّ الرّسل بقوله : " إنّه لم يكن نبيّ قبلي إلاّ كان حقّاً عليه أن يدلّ أمّته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شرّ ما يعلمه لهم " [6] .

وأثبت اللّه له في قرآنه أنّه قام بالدّعوة خير قيام ، وبلّغ دين اللّه على الكمال والتّمام ، فقال عزّ وجلّ : ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾ [المائدة:٦٧] .

أمره بالتّبليغ ، وأوعده على عدمه ، وضمن له العصمة إن قام به . فوفّى بما أُمر ، واجتنب ما عنه حُذّر ، ونال ما وُعِد به وبُشّر .

---

(١) الجنادب : جَمْع جُنْدَب بضَمّ الدّال وفَتْحِها وهو ضَرْب من الجرادِ . وقيل هُو الّذي يَصرُّ في الحرّ . النّهاية في غريب الحديث : ٣٠٦/١ .

(٢) يذبّهنّ : الذَّبُّ: الدَّفْعُ والمَنْعُ . و الذَّبُّ: الطَّرْدُ. و ذَبَّ عنه يَذُبُّ ذَبّاً: دَفَعَ ومنع . و ذَبَبْتُ عنه . وفُلانٌ يَذُبُّ عن حَرِيمه ذَبّاً أي يَدْفَعُ عنهم . لسان العرب : ٣٨٠/١ . وانظر القاموس المحيط : ص : ١٠٨-١٠٩ .

(٣) بحجزكم : أصل الحُجْزَة : موضع شَدِّ الإزار ، ثمّ قيل للإزار حُجْزَة للمُجاوَرة . واحْتَجز الرّجُلُ بالإزار إذا شدّه على وسَطه ، فاستعاره للاعْتِصام والالتجاء والتّمسُّك بالشّيء والتّعلّق به .النّهاية في غريب الحديث : ٣٤٤/١ .

(٤) صحيح البخاري: نحوه في: كتاب أحاديث الأنبياء : (٣٦/٦٠) . باب قول اللّه تعلى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٣٠ ﴾ [ص:٣٠] : (٤١/٤٠) . برقم: (٣٤٢٦) . عن أبي هريرة ﷺ . ص : ٧٢٦ . وفي كتاب الرّقاق : (٥٥/٨١) . باب الانتهاء عن المعاصي : (٢٦) . برقم: (٦٤٨٣) . عن أبي هريرة ﷺ . ص : ١٣٧٩ .

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الفضائل : (٤٣) . باب شفقته ﷺ على أمّته : (٦) . برقم: (٢٢٨٥) . عن جابر ﷺ . و نحوه برقم: (٢٢٨٤) . عن أبي هريرة ﷺ . ١٧٨٩/٤-١٧٩٠ .

(٥) وانظر : المفهم : ٨٧/٦ . شرح النّووي على مسلم : ٤٨/١٥ . ٥٠ .

(٦) هذا جزء من حديث عبد اللّه بن عمرو (رضي اللّه عنهما) الّذي سبق ذكره في الفتن . انظر : ص : ٢٤ .

ولذا قالت عائشة (رضي الله عنها) : " ومن زعم أن رسول اللّه ﷺ كتم شيئاً من كتاب اللّه فقد أعظم على اللّه الفِريَة[1] . واللّه يقول : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة:٦٧] " [2] .

وقد فعل صلوات اللّه وتسليماته عليه حتّى استطاع أن يوجد من قوم ضربوا بأطنابهم في الجهالة ، وانحدروا إلى حضيض الأخلاق والطّباع ، خير أمّة أخرجت للنّاس ، حتّى أصبحت نبراساً [3] تهتدي به الأمم ، وشعاعاً يُقْتَفى أثره في الظّلم ، ونهجاً يسير بهديه المصلحون ، والدّعاة الصّادقون .

وظلّ ﷺ داعية إلى اللّه بحقّ ، ثابتاً على الدّعوة بصدق ، قائماً بأمر اللّه صابراً محتسباً حتّى أعزّ اللّه دينه ، وأعلى كلمته .

---

(١) الفرية : يقال : فَرَى يَفْرِي فَرْياً ، وافْتَرى يفتري افتِراءً ، إذا كذب .
انظر : النّهاية في غريب الحديث : ٤٤٣/٣ .

(٢) هذا جزء من حديث في :
صحيح البخاري: نحوه في: كتاب التّفسير : (٣٩/٦٥) . باب ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة:٦٧] : (٦/٧) . برقم: (٤٦١٢) . ص : ٨٦٧ . وفي كتاب التوحيد : (٧٢/٩٧) . باب قول اللّه تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة:٦٧] : (٤٦) . برقم: (٧٥٣١) . ص : ١٥٨٢ .
صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإيمان : (١) . باب معنى قول اللّه عزّ وجلّ : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ [النّجم:١٣] : (٧٧) . برقم: (١٧٧) . ١٥٩/١ .
وانظر معنى الآية في : جامع البيان : ٣٠٧/٦-٣٠٩ . التفسير الكبير : ٤٨/١٢-٥٠ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٤٢/٦-٢٤٣ . تفسير القرآن العظيم : ١٢٣/٢-١٢٥ . الجواهر الحسان : ٤٣٨/١-٤٣٩ . روح المعاني : ١٨٨/٦-١٨٩ . فتح البيان : ١٨/٤-٢٠ . محاسن التّأويل : ٢٠٦٧/٦-٢٠٦٨ .

(٣) النّبراسُ: المِصْباح والسّراج . وهو ثلاثي مشتقٌّ من البِرْسِ الّذي هو القطن . لسان العرب : ٢٢٥/٦ . بتصرّف يسير . و انظر : القاموس المحيط : ص :٧٤٣ .

ولم يفارق ﷺ الحياةَ إلاّ وأفواج من البشر تلج دين اللّه ، وتلـــتزم بشـــرعه ، وتتمسك بهديه ، ويتحقّق بذلك قول ربّه ســـبحانه : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣ ﴾ [النصر:١-٣] .

﴿المطلب الثّاني﴾

نوح عليه السّلام

إنّ نوحاً عليه السّلام أوّل رسول بعثه اللّه إلى أهل الأرض .[1] . وذلك بعد أن انحرفت الإنسانيّة عن الجادّة ، واختلّت العقيدة ، ودبّ الاضمحلال إلى التّوحيد ، وسرى الوهن إلى القلوب ، والضّلال إلى النّفوس .

قال ابن عبّاس (رضي الله عنهما) :

" كان بين نوح وآدم عشرة قرون ، كلّهم على شريعة من الحقّ ، فاختلفوا فبعث اللّه النّبيّين مبشّرين ومنذرين "[2] . فكان أوّل من بعث نوح عليه السّلام "[3] .

ولم يلق نبي من الأذى مثل ما لقي ، لطول مُكْثِهِ[4] . وقد سلك مسلكاً عظيماً ، واختطّ طريقاً قويماً في الثّبات على الدّعوة ، يجب أن يقف عليه الدّعاة إلى اللّه كي يأخذوا العبرة ، ويستشفّوا العظة ، ويتأسّوا بثباته وصبره ، وصلابته

---

(١) ثبت ذلك في حديث الشّفاعة الطويل :

انظر : صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء : (٣٦/٦٠) . باب قول اللّه تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ﴾ [نوح:١] : (٣) . برقم: (٣٣٤٠) . ص: ٧٠١-٧٠٢ . و كتاب التّفسير : (٣٩/٦٥) . باب ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝ ﴾ [الإسراء:٣] : (٤/٥) . برقم: (٤٧١٢) . ص : ١٠٠٠-١٠٠١ .

صحيح مسلم: كتاب الإيمان : (١) . باب بيان أدنى أهل الجنّة منزلة فيها : (٨٤) . برقم: (١٩٣ . ١٩٤) . ١٨٠/١ -١٨٦ .

(٢) سبق تخريجه . انظر : ص : ٣٩٧ .

وعن أبي أمامة ﷺ أنّ رجلاً قال : يا رسول اللّه أنبيّ كان آدم ؟ قال : " نعم مُكَلّم " . قال : فكم كان بينه وبين نوح ؟ قال : " عشرة قرون " . الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: باب ذكر الإخبار عمّا كان بين آدم ونوح صلوات اللّه عليهما من القرون . برقم: (٦١٩٠) . ٦٩/١٤ . مستدرك الحاكم: ٢٨٨/٢ . وقال : " هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه " . معجم الطّبراني الكبير: ١١٨/٨ . معجم الطّبراني الأوسط: ١٢٨/١ .

(٣) تفسير القرآن العظيم : ٣٧٤/١ عن قتادة (رحمه اللّه) .

(٤) وانظر : المرجع السّابق : ٣٥٧/٢ .

في الحقّ ، مع وعورة الطّريق ، وصعوبة السّير ، وطول الأمد . فقد أخبرنا ربّنا عزّ وجلّ أنّه ظلّ يدعو قومه تسعمائة وخمسين عاماً ، وذلك في قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [العنكبوت:١٤] .

وقد بذل غاية الجهد ومنتهى الوسع في دعوتهم ، فكان يدعوهم ليلاً ونهاراً ، وسرّاً وجهاراً ، وخفية وعلناً علّهم يستجيبون ، ولأمر اللّه ينصاعون ، وبدين اللّه يلتزمون .

قال تعالى عنه : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ ﴾ [نوح:٥-٦] .

وقال : ﴿ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ ﴾ [نوح:٨-٩] .

وهي دعوة واضحة جليّة ، صافية نقيّة ، يكتنفها العطف ، وتحفّها الشّفقة ، في رقّة ولين ، وتواضع جمّ ، وأدب ثر . تنطلق من التّوحيد الّذي هو أصل دعوة الرّسل وأساسها الّذي تنبني عليه ، وفي ذلك غاية النّصح .

قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [هود:٢٥-٢٦] .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ ﴾ [نوح:١-٣] .

فهي عبارات لطيفة رقيقة ، تسودها روح التّسامح ، وتجلّلها الرّحمة والشّفقة ، والصّدق والإخلاص ، لأنّها تنبعث من قلب رحيم عطوف يخشى على قومه مصيراً

هائلاً مخيفاً . وهي مع ذلك تتّسم بالإقناع ، وقوّة الحجّة ، بعيدة عن السّباب والشّتم والقسوة والتّنفير والتّعالي وحبّ الانتقام .

قال تعالى : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأعراف:٦٠-٦٣] .

وقال سبحانه : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [هود:٢٨] (١) .

وقد سلك في دعوتهم كلّ السّبل النّاجعة ، واستخدم كلّ الأساليب الدّافعة لإيمانهم ، والمانعة لتكذيبهم وكفرهم .

❀ رغبّهم بما عند الله من غفران الذّنوب ، ونيل الثّواب وعظيم الأجر .

قال تعالى : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾ [نوح:١٠]

❀ رغّبهم بما ينالهم من متاع عاجل ، من طول أجل ، وبسط عمر ، مع كثرة الأمطار والأموال والبنين ، والجنّات الظّليلة الوارفة ، والأنهار المتدفقة ليجمعوا بين سعادة الدّنيا مع نعيم الآخرة .

قال سبحانه : ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [نوح:٤]

وقال : ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [نوح:١١-١٢]

---

(١) وانظر الآيات بعدها .

❁ رهبّهم من عذاب اللّه وشدّة بطشه ، وأنّ أجلهم محدود ، وعمرهم معدود .

قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأعراف:٥٩]

وقال عزّ وجلّ : ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [نوح:٤]

❁ لفت نظرهم إلى آيات اللّه ومخلوقاته المحسوسة والمشاهدة كالسّماء والشّمس والقمر وآثارها ومنافعها في حياتهم . ووجّههم إلى مبدأ خلقهم ، وكيف أنشأهم من تراب ، خلقاً من بعد خلق ، وأخرجهم منها كما يخرج النّبات ، ثمّ يعودون إليها مرّة أخرى ثمّ يبعثون .

قال جلّ وعلا : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾ [نوح:١٥-١٨]

❁ ذكّرهم بنعم اللّه ، وكيف بسط لهم الأرض وجعل فيها المسالك والفجاج ليسيروا فيها وينتفعوا بها.

قال تبارك وتعالى : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [نوح:١٩-٢٠] [(١)]

ومع كلّ ما بذل من نصح وإرشاد وتذكير وتبليغ واجهوه مواجهات سافرة ، وردّوه ردّاً منكراً ، وآذوه أذى بالغاً ، وسلكوا كلّ فج ، وتبعوا كلّ سبيل لدحض دعوته وبطلان شرعته .

---

(١) وانظر : في أساليب نوح عليه السّلام في الدّعوة : الدّعوة إلى اللّه في سورة إبراهيم الخليل . ص : ٢٩٥-٣٠٠ .

وأوّل من واجهه رؤساؤهم وأشرافهم ، لأنّ هؤلاء دائماً هم الّذين يقفون في وجه الحقّ خوفاً على سلطانهم ومكانتهم وعزّهم الزّائف ، ودنياهم الفانية .

وأهالوا عليه وابلاً من الشّبهات ، وسيلاً من المعوّقات ، وجمهرة من الأراجيف ، مشفوعة بالطّعن واللّمز والتّكذيب والإنكار .

❁ زعموا أنّه بشر فلا يختصّ بفضل ولا زيادة رتبة عليهم ، فكيف يضع نفسه في مقام لم يدركوه ، وينال منزلة لم يصلوا إليها ، وإن اغترّ بأتباعه فإنّهم أراذل القوم وسفلتهم وهمجهم[(١)] ، الّذين ينساقون وراء كلّ ناعق ، ويتبعون كلّ زاعق ، وقد تبعوه بغير تفكّر ولا رويّة ، ولم يكونوا على بصيرة من أمرهم ، بل بمجرد أن دعاهم أجابوه . وهم مع ذلك كاذبون مثله – هكذا زعموا – .

قال تعالى : ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [هود:٢٧] [(٢)] .

---

(١) الهَمَجُ : بفتحتين جمع هَمَجَةٍ وهي ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والحمير وأعينها . ويقال للرعاع الحمقى إنّما هم هَمَجٌ . مختار الصّحاح : ص :٦٩٨ . و انظر : لسان العرب : ٣٩٢/٢ . القاموس المحيط : ص : ٢٦٩ .

(٢) وانظر : الشّعراء : ١١١-١١٤ .

قال ابن كثير(رحمه الله) :

" هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السّلام وأتباعه . وهو دليل على جهلهم وقلّة علمهم وعقلهم . فإنّه ليس بعار على الحقّ رذالة من اتّبعه . فإنّ الحقّ في نفسه صحيح سواء اتّبعه الأشراف أو الأرذال . بل الحقّ الّذي لا شكّ فيه أنّ أتباع الحقّ هم الأشراف ولو كانوا فقراء ، والّذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء . ثمّ الواقع غالباً أنّ ما يتبع الحقّ ضعفاء النّاس . والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزّخرف:٢٣] . ولمّا سأل هرقل ملك الرّوم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النّبي ﷺ قال له فيما قال : " أشراف النّاس اتّبعوه أو ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم . فقال هرقل : هم أتباع الرّسل " .. إلخ ما ذكر . تفسير القرآن العظيم : ٦٨٥/٢ . وانظر : تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٥٤٣ . وحديث أبي سفيان سبق ذكره . ص : ٣٩٠ .

❁ قابلوه بالسّخرية والاستهزاء والتّهكّم والاستهتار ، كما حكى عنهم ذلك الرّب عزّ وجلّ : ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [هود:٣٨-٣٩] .

❁ وصموه بالجنون وعدم العقل فقالوا : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المؤمنون:٢٥] .

❁ قذفوه بالضّلال ، وادّعوا أنّ ضلاله واضح لكلّ ذي عينين.

قال الحقّ سبحانه : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأعراف:٦٠] .

❁ لمّا أكثر من نصحهم وإرشادهم عكسوا الحقّ ، وقلبوا الأمور ، وأساؤا وشوّهوا ، فرموه بكثرة الجدل العقيم القليل النّفع .

قال تعالى : ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [هود:٣٢] .

❁ توّجوا كلّ ذلك بالامتناع عن سماع نصحه ، وتدثّروا بثيابهم بغضاً للحقّ ، وفراراً عنه ، مع الإصرار والاستكبار ، كما ذكر المولى عنه :﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾ [نوح:٧] .

❁ جاهروا بالعصيان ، وبالغوا في المكر والكيد والمعاندة ، وتعصّبوا للآلهة الباطلة ، وسعوا في الضّلال بكلّ معناه . كما أوضح ذلك ربّ العزّة في قرآنه : ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا

﴿ وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [نوح:٢١-٢٤] .

عند ذلك تحدّاهم نوح عليه السّلام في ثبات لا يعهد له مثيل ، وبصبر لا يتطرّق إليه الضّعف ، وقوّة عزيمة لا تزلزلها العواصف . قائلاً لهم في صلابة وثقة بالله : يا قوم إن كان عظم مقامي عندكم ولبثي بين أظهركم ، وتذكيري إيّاكم ، وسئمتموني ، وأردتم أن تنالوا منّي بسوء ، فإنّي معتمد على اللّه ، متوكّل عليه في دفع كلّ شرّ يراد بي ، ولست مبال بكم ، ولن أكفّ عن دعوتكم فاجتمعوا كلّكم ، واجتهدوا في رأيكم ، واحضروا شركاءكم الّذين تعبدونهم من دون اللّه ، وليكن أمركم واضحاً علناً ليس بمشتبه ولا خفي ، واقضوا عليّ ولا تمهلوني ساعة واحدة ، وافعلوا ما قدرتم على فعله معي فإنّي لست بخائف منكم ولا هائب .

وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يونس:٧١-٧٢] .

رجل وحده يواجه أمّة بأجمعها ، مسفّهاً لدينها ، معيباً لآلهتها ، مضلّلاً لعقولها ، وهي قد أجمعت على بغضه وعداوته ، مع سطوتها وجبروتها . ويتحدّاها هذا التّحدّي العظيم بأن تفعل ما تستطيع . لهو رجل بلغ في الثّبات أوجه ، وفي التّوكّل كماله ، وفي اليقين غايته ، وفي الصّلابة قمّتها . صلوات اللّه وتسليماته عليه [١] .

---

(١) وانظر : تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٣٢٥-٣٢٦ . الدّعوة إلى اللّه في سورة إبراهيم الخليل . ص : ٣٠٣-٣٠٤ .

ولمّا يئس نوح عليه السّلام من هدايتهم ، وأنّه لا فائدة من دعوتهم ، وأخبره اللّه بأنّه لن يؤمن من قومه إلاّ من آمن كما قال سبحانه : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [هود:٣٦] (١) .

هنالك دعا عليهم بالهلاك والاستئصال مبيّناً السّبب الّذي دفعه لذلك مع إخبار اللّه له بعدم إيمانهم . قال تعالى : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [نوح:٢٦-٢٧] (٢) .

فاستجاب اللّه دعاءه فأهلكهم بالغرق جميعاً ، وأنجى نوحاً عليه السّلام والمؤمنين . وفي ذلك يقول سبحانه : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٦-٧٧] .

وجعل نسله وذريته هي الباقية ، فجميع النّاس من نسله ، وأبقى له الذّكر الجميل والثّناء الحسن لإحسانه في عبادة اللّه ، وإحسانه إلى النّاس بقيامه بالدّعوة على أحسن الوجوه ، وأفضل الطّرق مع الصّبر والثّبات .

قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الصّافات:٧٧-٨٢] (٣) .

---

(١) وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ٣١٢/١٨ .

(٢) وانظر : تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٨٢٤ .

(٣) وانظر : تفسير القرآن العظيم : ١٩/٤-٢٠ . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٦٥٠-٦٥١ .

﴿ المبحث الثّاني ﴾

مؤمن آل فرعون

هو رجل من قوم فرعون آمن بموسى عليه السّلام ، وكان يُسِرّ إيمانه من فرعون وقومه خوفاً على نفسه[1] .

قيّضه اللّه تعالى لنصرة الحقّ والذّب عنه بأحسن الوجوه وأكمل الأساليب ، ودافع عن موسى عليه السّلام دفاعاً عظيماً حتّى أزال ما قصده به فرعون من الشّرّ .

كان رجلاً عاقلاً حكيماً فطناً لبيباً دفعه إيمانه للوقوف في وجه الطّاغية فرعون موقفاً ترتجف له القلوب ، وتتخلع له الأفئدة ، ولا يثبت عنده إلاّ المؤمنون الصّادقون ، والمخلصون النّاصحون . وقد أرسل كلماته الّتي دونّها له القرآن الكريم قويّة الحجّة ، بليغة العبارة ، شديدة الأثر ، مع قلّتها وإيجازها ، ولكنّها حوت بين طيّاتها دعوة كاملة شاملة أقضّت مضجع الطّاغية وزلزلت أقدامه ، وأعجزته عن المواجهة فلجأ إلى الحيل ، والسّبل الملتوية ليردّ كبرياءه ويثبت جبروته ، ويعيد سطوته .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [غافر:٢٦-٢٧] .

لقد زعم فرعون أنّه قاتل موسى عليه السّلام ، غير مبال بربّه ولا عابئ به ، وهذا منتهى الجحود وقمّة النّكران مع التّجبّر والتّكبّر والغرور . وهو يزعم أنّه بذلك

---

(١) انظر : جامع البيان : ٥٧/٢٤ .
ذكر البعض أنّه كان إسرائيليّاً يكتم إيمانه من آل فرعون . ففي الكلام تقديم وتأخير . والرّاجح إنّه كان قبطيّاً من آل فرعون . ولذا أصغى فرعون إلى قوله ، وكفّ عمّا همّ به من قتل موسى عليه السّلام . ولو كان إسرائيليّاً لأوشك أن يعاجله بالعقوبة ، لأنّهم مضطهدون عنده . انظر : جامع البيان : ٥٨/٢٤ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٠٦/١٥-٣٠٧ . تفسير القرآن العظيم : ١١٧/٤ .

يريد إزالة الشّرّ من الأرض ، وتطهيرها من الفساد النّاجم عن موسى عليه السّلام ، وهو بذلك ناصح مشفق على قومه . وهذا من أعجب ما يتصوّر أن يصبح أشرّ النّاس ناصحاً محذّراً من خير النّاس في وقته . وهذا معنى المثل الشّائع : صار فرعون مذكّراً .

فلجأ موسى إلى اللّه واستعاذ به فسخّر اللّه له هذا المؤمن الصّادق للدّفاع عنه والذّب عن الحقّ[1] .

قال الرّازي (رحمه الله) :

" إنّه تعالى قيّض إنساناً أجنبيّاً غير موسى حتّى ذبّ عنه على أحسن الوجوه ، وبالغ في تسكين تلك الفتنة ، واجتهد في إزالة ذلك الشّرّ " [2] .

لقد انبرى المؤمن يدافع وينافح في ثبات وصلابة : ﴿ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ ﴾ [غافر:٢٨] .

أي ذنب جناه وأي جريرة ارتكبها ؟ لا شيء سوى إنّه قال : ربّي الله . وهل هذا ذنب يدعو لقتله ؟ ولم يكن قوله مجرّداً من الحجّة ، بل جاءكم بالبراهين النّيّرات ، والحجج الدّامغات ، الّتي عجزتم عن ردّها وإبطالها . فكان أولى بكم أن تكرّموه وتجلّوه وتعظّموه ولا تقتلوه [3] .

حجّة قويّة ، وأسلوب مقنع ، يحفّه العطف ، ويوجّهه العقل الرّاشد السّديد ، مفعم بالحزم والثّبات ، مع شدّة الإنكار ، ومهابة الموقف .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" خاف هذا المؤمن على موسى فتلطّف في ردّ فرعون بكلام جمع فيه التّرغيب والتّرهيب ، فقال على وجه المشورة والرّأي - ﴿ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ - وقد ثبت في الحديث عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : " أفضل

---

(١) وانظر : تفسير القرآن العظيم : ١١٦/٤ . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٦٨٢ .

(٢) التّفسير الكبير : ٥٧/٢٧ .

(٣) وانظر : المرجع السّابق : ٥٧/٢٧ . فتح البيان : ١٨٢/١٢ .

الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر "[1] وهذا من أعلى مراتب هذا المقام فإنّ فرعون لا أشدّ جوراً منه ، وهذا الكلام لا أعدل منه لأنّ فيه عصمة نبيّ " [2] .

ثمّ أردف المؤمن الحجّة بحجّة عقليّة مقنعة لمن كان له عقل فقال : ﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [غافر:٢٨] .

أي إنّ العقل والرّأي التّام والحزم يدعوكم أن تتركوه ولا تنالوه بأذى ، لأنّه بين أمرين : إمّا أن يكون كاذباً ، فهو حينئذ ضرره على نفسه ، واللّه يجازيه بالعقوبة ولا يمسّكم من ذلك شيء . وإن كان صادقاً وقد آذيتموه فإنّه حينئذ يصبكم بعض ما يتوعّدكم به من العقاب ، فينبغي تركه وعدم التّعرّض له [3] .

---

(١) سنن أبي داود: بلفظه : في كتاب الملاحم : (٣٦) . باب الأمر والنّهي : (١٧) . برقم: (٤٣٤٤) . عن أبي سعيد ﷺ وفيه زيادة . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص: ٤٧٤ .

سنن التّرمذي: بلفظ مقارب في: كتاب الفتن : (٣٠) . باب ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر : (١٣) . برقم: (٢١٧٤) . عن أبي سعيد ﷺ . وقال : " هذا حديث حسن غريب " . وقال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٣٦١ .

سنن النّسائي: بلفظ مقارب في: كتاب البيعة : (٣٩) . باب فضل من تكلّم بالحقّ عند إمام جائر : (٣٧) . عن طارق بن شهاب ﷺ . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص: ٤٤٢ .

سنن ابن ماجه: بلفظه : في كتاب الفتن : (٣٦) . باب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر : (٢٠) . برقم: (٤٠١١) . عن أبي سعيد ﷺ . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٤٣١ .
وبلفظ مقارب برقم: (٤٠١٢) . عن أبي أمامة ﷺ . قال الألباني (رحمه الله): " حسن صحيح " . ص:٤٣١ .

مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ٦١/٣ . عن أبي سعيد ﷺ . جزء من حديث طويل . وفي : ٣١٤/٤، ٣١٥ . عن طارق ﷺ . ونحوه في : ٢٥١/٥ ، ٢٥٦ . عن أبي أمامة ﷺ .

معجم الطّبراني الصّغير : بلفظ مقارب في: ١٠٧/١ . عن أبي أمامة ﷺ .

(٢) البداية والنّهاية : ٢٦٠/١ .

(٣) انظر : تفسير القرآن العظيم : ١١٧/٤-١١٨ .
قال الشّيخ السّعدي (رحمه الله) :
" وهذا من حسن عقله ، ولطف دفعه عن موسى ، حيث أتى بهذا الجواب الّذي لا تشويش فيه عليهم ، وجعل الأمر دائراً بين تينك الحالتين . وعلى كلّ تقدير فقتله سفه وجهل منكم " . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٦٨٣ .

ولم يكن ذلك شكّ منه في صدق موسى عليه السّلام ، فقد وصفه اللّه بالإيمان ، ولكنّه تلطّف في الخطاب ، وترقيق للكلام في الوعظ ، مع حسن العدل وتمام الإنصاف[1] .

قال الألوسي (رحمه الله) :

" وفيه مبالغة في التّحذير فإنّه إذا حذّرهم من إصابة البعض أفاد أنّه مهلك مخوف فما بال الكلّ ، وإظهار للإنصاف وعدم التّعصب ولذا قدّم احتمال كونه كاذباً " [2] .

ثمّ قال المؤمن ناصحاً لقومه ، مرشداً لهم ، محذّراً إيّاهم من زوال نعم اللّه عنهم ، وحلول نقمه بهم : ﴿ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ ﴾ [غافر:٢٩] .

لقد أنعم اللّه عليكم بنعمة الملك والظّهور في الأرض ، فنفذت كلمتكم ، وعظم جاهكم ، فهلاّ راعيتم تلك النّعمة فشكرتم اللّه وصدقّتم رسوله ، وإن أبيتم فاحذروا بأس اللّه وسوء عذابه ، فإنّ جندكم وقوّتكم لا تغني فتيلاً [3] .

ومن حسن عرضه للموعظة (رحمه الله) أنّه نسب ما يسرّهم من الملك والظّهور في الأرض لهم دونه ، ونظم نفسه معهم فيما يسوء من العذاب تطييباً لقلوبهم ، ومبالغة في نصحهم ، فهو ساع في جلب ما ينفعهم ودفع ما يضرّهم كسعيه في حقّ نفسه ، ليصل النّصح إلى قلوبهم ، ويبلغ أثره إلى نفوسهم[4] .

---

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٣٠٧/١٥ . فتح البيان : ١٨٣/١٢ .

(٢) روح المعاني : ٦٤/٢٤ .. وقيل : المراد بالبعض عذاب الدّنيا . وقيل : بعض بمعنى كلّ . انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٣٠٧/١٥-٣٠٨ . روح المعاني : ٦٤/٢٤ .

(٣) انظر : تفسير القرآن العظيم : ١١٨/٤ .

(٤) انظر : روح المعاني : ٦٥/٢٤ . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٦٨٣ .

وقد ظهرت حجّته ، وبلغت مبلغها في نفس الحاضرين ممّا جعل فرعون يلجأ إلى المراوغة والإيهام ، والتّضليل والكذب قائلاً لقومه :﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر:٢٩] .

وقد كذب – عليه لعائن اللّه فيما زعم _ فقد كان مقرّاً في باطنه بصدق موسى عليه السّلام ، وأن ما جاء به حقّ ، ولم يكن راشداً في أمره ، بل كان على سفه وضلال ، ولذلك أضلّ قومه وما هدى [١] .

ولكنّ المؤمن لم يعبأ بقول فرعون ولم يهب منه ، بل زاده ذلك ثباتاً وقوّة ، لأنّ فرعون ترك ما عزم عليه ولجأ إلى هذه الحجّة الضّعيفة الباطلة .

فقال المؤمن مكرّراً الدّعوة إلى قومه غير آيس من هدايتهم ، محذّراً إيّاهم أن يحلّ بهم ما حلّ بالأمم السّابقة الّذين تحزّبوا على أنبيائهم وكذّبوهم ، فحلّ بهم من الدّمار والهلاك ما استأصل شأفتهم : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ۝ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [غافر:٣٠-٣١] [٢] .

ثمّ خوّفهم بالعذاب الأخروي عقب تخويفهم بالعذاب الدّنيوي ليكون أبلغ في ردّهم وأرجى لهدايتهم . فقال : ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [غافر:٣٢-٣٣] [٣] .

---

(١) انظر : البداية والنّهاية : ٢٦١/١ .

(٢) وانظر : تفسير القرآن العظيم : ١١٩/٤ . روح المعاني : ٦٦/٢٤ . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٦٨٣ .

(٣) قال الرّازي (رحمه الله) :

" أمّا تكرير النّداء ففيه زيادة تنبيه لهم ، وإيقاظ من سنة الغفلة ، وإظهار أنّ له بهذا المهم مزيد اهتمام ، وعلى أولئك الأقوام فرط شفقة " . التّفسير الكبير : ٧٠/٢٧ .

وقال القرطبي (رحمه الله) :

" فقال : ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ ليكونوا أقرب إلى قبول وعظه " . الجامع لأحكام القرآن : ٣١٠/١٥ .

وفي هذا تصريح لهم بإيمانه .

ولذا قال القرطبي (رحمه الله) :

" زاد في الوعظ والتّخويف ، وأفصح عن إيمانه ، إمّا مستسلماً موطّناً نفسه على القتل ، أو واثقاً بأنّهم لا يقصدونه بسوء " [(١)] .

وظلّ المؤمن (رحمه الله) يورد الحجّة بعد الحجّة ، ويقيم الدّليل عقب الدّليل على صدق موسى عليه السّلام وهو ثابت لا يتزعزع . فنصح وأرشد ، وخوّف وأنذر ، وحذّرهم من الدّنيا وزهّدهم في متاعها الزّائل ، ورغّبهم في الآخرة ، وأنّها لا تقارن بالدّنيا لما فيها من نعيم مقيم ، وثواب عظيم ، ورهّبهم من عذابها الدّائم ، وعقابها الّذي لا ينقطع . وذلك بعد أن دعاهم إلى اتّباع موسى عليه السّلام والتّصديق به ، لأنّه هو الرّاشد الّذي على الحقّ ليس كما يدعي الطّاغية فرعون . قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [غافر:٣٨-٤٠] [(٢)] .

والتّرغيب بالنّعيم الدّائم ، والتّرهيب عن العذاب الّذي لا ينقطع من أقوى وجوه التّرغيب والتّرهيب[(٣)] .

ثمّ انبرى المؤمن مواجهاً بدعوته الملأ ، مجاهراً ببطلان ما هم فيه ، مضادّاً لفرعون فيما ذهب إليه ، مستنكراً عبادتهم لفرعون – عليه لعائن اللّه – موبّخاً إيّاهم من الاستجابة لضلاله ، مبيّناً لهم أن دعوة فرعون دعوة إلى النّار ، وإنّما الدّعوة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٣١٠/١٥ .

(٢) وانظر في معنى الآيات : جامع البيان : ٦٧/٢٤-٦٨ . التّفسير الكبير : ٦٨/٢٧-٧٠ . تفسير القرآن العظيم : ١٢١/٤ . روح المعاني : ٧٠/٢٤-٧١ . فتح البيان : ١٩٢/١٢-١٩٣ . محاسن التأويل : ٥١٦٨/١٤-٥١٦٩ . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٦٨٤ .

(٣) انظر : التّفسير الكبير : ٦٩/٢٧ .

الحقّ هي دعوة موسى عليه السّلام ، وهي الّتي تقودهم إلى النّجاة وإلى الجنّة ، لأنّها دعوة لعبادة اللّه وحده وهو المستحقّ للعبادة ، الّذي له القوّة الكاملة ، والعزّة الّتي لا تقهر ، والّذي يتجاوز عن السّيّئات ويغفر الذّنوب ، وأن مردّ العباد يوم القيامة إليه ، وأمّا فرعون فهو عاجز قاصر ، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً دعك عن غيره ، فهو لا يستحق أن يعبد .

وفي ذلك يقول المولى سبحانه على لسان المؤمن البار الرّاشد : ﴿ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [غافر:٤١-٤٣] (١) .

لقد بالغ (رحمه الله) في بيان الحقّ ونُصحِ قومه ، بثبات جاش وقوّة عزيمة ، وإصرار منقطع النّظير ، مع حسن الأسلوب وقوّة الحجّة ، وتنوّع الموعظة .

ثمّ ختم كلامه بعبارة لطيفة حوت تخويفاً وتحذيراً شديداً لهم مع قوّة اليقين ورسوخ الإيمان حيث قال : ﴿ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [غافر:٤٤] .

أي سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ، ونهيتكم عنه ، ونصحتكم ووضّحت لكم ، وتتذكّرونه ، وتندمون حيث لا ينفعكم النّدم . وأتوكّل على اللّه وأستعينه ، وأقاطعكم وأباعدكم ، واللّه بصير بعباده ، يهدي من يستحقّ الهداية ، ويضلّ من يستحقّ الضّلال ، وله الحجّة البالغة ، والحكمة التّامّة ، والقدر النّافذ(٢) .

---

(١) وانظر معنى الآيات في : جامع البيان : ٦٨/٢٤-٧٠ . التّفسير الكبير : ٧٠/٢٧-٧١ . تفسير القرآن العظيم : ١٢٢/٤ . روح المعاني : ٧١/٢٤-٧٢ . فتح البيان : ١٩٣/١٢-١٩٥ . محاسن التّأويل :٥١٦٩/١٤-٥١٧٠ . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٦٨٤-٦٨٥ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ١٢٢/٤ بتصرّف يسير .

عند ذلك أرادوا به كيداً فوقاه الله بلطفه وحفظه ، وردّ كيدهم في نحورهم ، وعاد مكرهم مكراً بهم ، وحاق بهم عذاب الدّنيا متّصلاً بعذاب الآخرة .

قال تعالى : ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر:٤٥-٤٦] [١] .

إنّه أنموذج لكلّ داعية صادق ، يريد لدين الله أن ينتصر ، ولدعوته أن تعلو . وفي سبيل ذلك لا يبالي بما يواجه من صعاب وشدائد مهما عظم أمرها ، وزاد خطرها . فما عند الله أعظم ، وفضله أعلى وأكرم ، وخيره أعمّ وأنعم . فساعة من الصّبر والثّبات يقفها الدّاعية المخلص تدعو حاجة الدّعوة إليها تورثه نعيماً لا ينفد ، وعزّاً لا يفقد ، وسعادة إلى الأبد .

---

(١) وانظر : تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٦٨٥ .

المبحث الثّالث

صحابة رسول اللّه ﷺ

إنّ الصّحابة ﷺ هم الّذين حملوا دعوة اللّه عزّ وجلّ على كواهلهم بعد رسـول اللّه ﷺ ، وعانوا في حملها ما عانوا ، واجتهدوا في إبلاغهـا أعظم الاجتهاد ، وضحّوا من أجلها أعظم التّضحيات .

أوذوا فيها أبلغ الأذى[1] ، وصبروا على حملها أبلغ الصّبر . انطلقوا بها في ربوع الأرض لا يعبئون بما يلاقونه من متاعب ، ولا يكترثون بما يواجهونه من عقبات . استعذبوا في سبيلها الآلام ، ولاقوا من أجلها أنواع المحن العظام . فما اهتزّ لهم عود ، وما لانت لهم قناة ، ولم يفلّ عزمهم الاضطهاد ، ولم يوقف سيرهم الشّدائد الشّداد . بل صبروا صبر الأبطال ، وثبتوا ثبات شوامخ الجبال . واصلوا ليلهم بنهارهم ، وصبحهم بمسائهم ، حتّى انتشرت دعوة اللّه في آفاق الأرض ، وخفقت راياتها في البر والبحر ، وظهر الحقّ بعد أن كان عافياً ، وأضاء الكون بعد أن كان مظلماً .

ومواقف الصّحابة ﷺ في الثّبات على دعوة اللّه الّتي سطرها لهم التّاريخ تفوق حدّ الوصف ، ويعجز اليراع أن يأتي عليها بما يفي ، وتضيق هذه الصّفحات عن ذكرها . ولكنّي أمثّل لها بمثالين لبطلين فذّين ، وقفا موقفين متشابهين أمام طاغيتين جبّارين ظالمين سفّاحين ، فما ارتجفت لهم بوادر[2] ، وما انخلعت لهم قلوب ، وما تضعضعت لهم عزائم ، وما زلّت لهم أقدام .

لم تمنعهما مهابة المقام أن يبلغا دعوة اللّه ، ولم يثن عزمهما ويدخل الهلع إلى قلوبهما سيوف مصلتة ، ولا رماح مشرعة ، ولا أعداء بالشّر متربّصة . بل قالا الحقّ وصدعا به بعزّة نفس ، وصدق إيمان ، وقوّة عزم ، وثبات قلب .

---

(١) انظر فيما لقي الصّحابة من الأذى : السّيرة النّبويّة لابن هشام : ١/١٩٤-١٩٧ . الكامل في التّاريخ : ٢/٤٥ فما بعدها . البداية والنّهاية : ٣/٤٩ فما بعدها . فتح الباري : ٧/٥٥٥-٥٥٦ .

(٢) بوادر : جمع بادرة: اللّحمة الّتي بين المنكب والعنق . لسان العرب : ٤/٥٠ .

❁ أولهما : النّعمان بن مُقَرّن ﷺ :

بعثه سعد بن أبي وقاص ﷺ في جماعة من أشراف القوم إلى يَزْدَجْرِد [(١)] ملك الفرس ليدعوه إلى اللّه ، وكان متكبّراً قليل الأدب .

فلمّا وقفوا بين يديه قال لتَرْجُمَانه [(٢)] : سلهم ما جاء بكم ؟ وما دعاكم إلى غزونا ؟ والولوع ببلادنا ؟ أمن أجل أنّنا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟

فقال النّعمان بن مقرّن ﷺ لأصحابه : " إن شئتم تكلّمت عنكم ، ومن شاء آثرته . فقالوا : بل تكلّم" .

فقال : " إنّ اللّه رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يأمرنا بالخير وينهانا عن الشّرّ ، ووعدنا على إجابته خير الدّنيا والآخرة ، فلم يدع قبيلة إلاّ وقاربه منها فرقة ، وتباعد عنه بها فرقة ، ثمّ أمر أن نبتدئ إلى من خالفه من العرب فبدأنا بهم ، فدخلوا معه على وجهين : مكره عليه فاغتبط [(٣)] ، وطائع فازداد . فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الّذي كنّا عليه من العداوة والضّيق . ثمّ أمرنا أن نبتدئ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف . فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسّن الحسَن ، وقبّح القبيح كلّه ، فإن أبيتم فأمر من الشّرّ هو أهون من آخر شرّ منه الجزية ، فإن

---

(١) هو يَزْدَجَرْد بن شهريار بن أبرويز ، آخر ملوك الفرس . مُلِّك عليهم في العام الّذي بويع فيه للصّدّيق ﷺ وقيل : في عهد عمر ﷺ . وكان حديث السّن ، ضعيفاً في أمره . قتل سنة : ٣١ هـ هارباً من جيوش المسلمين في خلافة عثمان ﷺ بعد معارك عديدة . استمرّ ملكه عشرين عاماً .

و انظر : تاريخ اليعقوبي . لأحمد بن أبي يعقوب بن جعفر العبّاسي . طبعة : دار صادر . بيروت : ١٧٤/١ . ١٤٣/٢ . تاريخ الطّبري : ١٢٠/١، ٤٩٤ . ٢٥٣/٢ ، ٣٧٩ ، ٦٢٠ . طبعة دار الكتب العلميّة . البدء والتّاريخ : ١٧٣/٣ . ١٩٦/٥ . المنتظم : ٣١٣/٣ . ١٦٠/٤ ، ١٦٤ ، ٢٣٦ . ١٣/٥، ١٤ . الكامل في التّاريخ : ٣٨٧/١-٣٨٨ . طبعة دار الكتب العلميّة .وفيات الأعيان : ٣٦١/٤ .البداية والنّهاية : ٣٠/٧-١٢٩ . النّجوم الزّاهرة: ٨٨/١ .

(٢) التّرْجَمَان: المفسِّر للسان . بالضّم والفتح: وهو الّذي يُتَرْجِم الكلام: أي ينقله من لغة إلى لغة أُخرى. والجمع التّراجِم . والتّاء والنّون زائدتان ؛ وقد تَرْجَمه و تَرْجَم عنه . لسان العرب : ٦٦/١٢ . وانظر : مختار الصّحاح : ص : ٢٣٦ . القاموس المحيط . ص : ١٣٩٩ .

(٣) اغتبط : أي حسن حاله . أو فرح بالنّعمة . وانظر : لسان العرب : ٣٥٩/٧ . مختار الصّحاح : ص :٤٦٨ .القاموس المحيط . ص : ٨٧٧ .

أبيتم فالمناجزة [١] ، فإن أجبتم إلى ديننا خلّفنا فيكم كتاب اللّه ، وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وإن بذلتم الجزاء قبلنا ومنعناكم ، وإلاّ قاتلناكم " [٢] .

❁ *ثانيهما : ربْعي بن عامر ﷺ :*

لمّا طلب رستم قائد الفرس من سعد بن أبي وقاص ﷺ أن يرسل له رجلاً يكلّمه ، فأرسل إليه ربعيّاً ﷺ .

فدخل عليه وقد زيّنوا مجلسه بالنّمارق [٣] المذهّبة ، والزّرابي [٤] الحرير ، وأظهر اليواقيت واللآّلئ الثّمينة ، والزّينة العظيمة ، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثّمينة .

وقد جلس على سرير من ذهب . ودخل ربعي بثياب صفيقة [٥] ، وسيف وتُرْس[٦] وفرس قصيرة ، ولم يزل راكبها حتّى داس بها على طرف البساط ،

---

(١) المُناجَزَةُ : المُبارزةُ والمقاتلة. وهو أن يَتَبَارَزَ الفارسان فيتمارسا حتّى يَقْتُلَ كلُّ واحد منهما صاحبه أو يَقْتُل أحدهما . لسان العرب : ٥/٤١٤ . و انظر : القاموس المحيط . ص : ٦٧٧

(٢) الكامل في التّاريخ : ٢/٣١٥ . وانظر : البداية والنّهاية : ٧/٤١-٤٢ . إتمام الوفا في سيرة الخلفاء للشّيخ محمّد الخضري . تحقيق : عبد المجيد طعمه حلبي . الطّبعة الأولى : ١٤١٧ هـ ـــ ١٩٩٦م دار المعرفة . بيروت . ص : ٧٣-٧٤ .

(٣) النّمارِق : جمع نُمْرُقة وهي الوسادة . انظر : مختار الصّحاح : ص :٦٨٠ . لسان العرب : ١٠/ ٣٦١ . القاموس المحيط . ص : ١١٩٦ .

(٤) الزّرابيُّ : البُسُطُ ؛ وقيل : كلّ ما بُسِطَ واتُّكِيءَ عليه؛ وقيل : هي الطّنافِسُ . واحدها زُرْبي ويكسر . انظر : لسان العرب : ١/٤٤٧ . وانظر : مختار الصّحاح : ص : ٢٧٠ . القاموس المحيط . ص : ١٢٠ .

(٥) ثوب صَفِيق : مَتِين بيّن الصّفاقة . وقد صَفُقَ صَفاقةً : كثُف نسجه. و أَصْفَقَه الحائك . لسان العرب : ١٠/٢٠٤ .

(٦) التّرْس من السّلاح : المُتَوَقَّى بها . وجمعه أَتْرَاسٌ و تِراسٌ و تِرَسَةٌ و تُروسٌ وترس . فهو آلة يتترّس بها : أي يحتمي ويتستّر بها . وانظر : لسان العرب : ٦/٣٢ . القاموس المحيط . ص : ٦٨٨ .

ثمّ نزل وربطها ببعض تلك الوسائد ، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته [1] على رأسه . فقالوا له : ضع سلاحك . فقال : " إنّي لم آتكم ، وإنّما جئتكم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإلاّ رجعت " . فقال رستم : ائذنوا له . فأقبل يتوكّأ على رمحه فوق النّمارق فخرق عامّتها . فقالوا له : ما جاء بكم ؟ فقال : " اللّه ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة اللّه ، ومن ضيق الدّنيا إلى سعتها ، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خَلْقه لندعوهم إليه ، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ، ومن أبى قاتلناه أبداً حتّى نفضي إلى موعود اللّه " . قالوا : وما موعود اللّه ؟ قال : " الجنّة لمن مات على قتال من أبى ، والظّفر لمن بقي ". فقال رستم : قد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخّروا هذا الأمر حتّى ننظر فيه وتنظروا ؟ قال : " نعم ! كم أحبّ إليكم ؟ يوماً أو يومين ؟ " قال : لا ، بل حتّى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا . فقال : " ما سنّ لنا رسول اللّه ﷺ أن نؤخّر الأعداء عند اللّقاء أكثر من ثلاث ، فانظر في أمرك وأمرهم واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل ". فقال : أسيّدهم أنت ؟ قال : " لا ، ولكن المسلمون كالجسد الواحد ، يجير[2] أدناهم على أعلاهم [3] ".

فاجتمع رستم برؤساء قومه ، فقال : هل رأيتم قطّ أعزّ وأرجح من كلام هذا الرّجل ؟ فقالوا : معاذ اللّه أن تميل إلى شيء من هذا ، وتدع دينك إلى هذا الكلب ، أما ترى إلى ثيابه ؟. فقال : ويلكم لا تنظروا إلى الثّياب ، وانظروا إلى الرّأي والكلام والسّيرة . إنّ العرب يستخفّون بالثّياب والمأكل ، ويصونون الأحزاب " [4] .

---

(١) البيضة : هي الخَوْذَة الّتي يلبسها الفارس على رأسه وتصنع من الحديد . انظر : مختار الصّحاح : ص : ٧١ . لسان العرب : ١٢٤/٧ .القاموس المحيط . ص : ٨٢٣ .

(٢) يجير : أي ينقذ ويعيذ . انظر : لسان العرب : ١٥٤/٤ . القاموس المحيط . ص : ٤٧١ .

(٣) في حديث ابن عمر (رضي الله عنهما) قال ﷺ : " والمؤمنون يد على من سواهم ، تتكافأ دماؤهم ، يجير عليهم أوّلهم ، ويردّ عليهم أقصاهم " . الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: باب ذكر القصاص في القتل . برقم: (٥٩٩٦) . قال شعيب الأرناؤوط : " إسناده صحيح " . ١٣/ ٣٤٠ .

(٤) البداية والنّهاية : ٣٩/٧-٤٠ . وانظر : الكامل في التّاريخ : ٣٢٠/٢-٣٢١ . إتمام الوفا . ص : ٧٥-٧٦ .

هذان مثلان قيّمان ، وأنموذجان عظيمان ، بلغا في التّضحية والثّبات مبلغاً بعيد المدى . وهما قطرة من فيض في أمثلة متوافرة ، ونماذج متكاثرة ، حفظها التّاريخ لقوم صحبوا رسول اللّه ﷺ ، فحملوا الدّعوة معه وبعده في وقت مهول مخوف ، أطبقت فيه أُمم الأرض على عداوتهم ، وأسفرت عن وجوه كالحة لدعوتهم ، فما أقعدهم ذلك ولا ثبّطهم عن نصرة دين اللّه ، والذّب عن شرع اللّه ، وإيصاله إلى كلّ فرد أمكنهم إيصاله إليه ، باذلين المهج ، راكبين الصّعب ، مصارعين الأهوال ، مواجهين المشاقّ ، همّهم أن تعلو كلمة اللّه ، وأن تسود الأرض دعوة اللّه ، فيخرج أثر ذلك العباد من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد ، ومن ضيق الدّنيا إلى سعة الدّنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

وقد فعلوا ، وتركوا آثاراً مضيئة ، وبصمات مشعّة خلّدها لهم التّاريخ بأحرف من نور لتكون نبراساً يضيء طريق الأجيال المتعاقبة من بعدهم . وليقف أبناء الإسلام عندها مترسّمين خطاها ، سائرين على منوالها ، مفاخرين بها الأمم :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ******* إذا جمعتنا يا جرير المجامع[1]

والدّعوة اليوم تئن من وطأة ظلم أهلها لها ، وتشكو إلى ربّها من نكول الدّعاة عنها – إلاّ من رحم اللّه ، وقليل ماهم – وتنادي أبناءها بصوت كليل مبحوح : إليّ إليّ أحفاد ربعي والنّعمان ، لقد رفع هامتي آباؤكم ، وعظّم قدري أجدادكم ، فهلاّ فعلتم كما فعلوا ، وقمتم بما قاموا ؟ فإنّ العالم بأسره محتاج إليّ ، متشوّق للقائي . أفيقوا من ثباتكم ، وضمّدوا جراحاتكم ، ورمّموا صفوفكم ، وأزيلوا خلافاتكم واتحدّوا وتعاونوا ، فإنّي مللت من طول الانتظار حتّى كدت أيأس ، فعجّلوا عجّلوا .

---

(١) ديوان الفرزدق : ص : ٣٦٠ .

الباب الرّابع

الثبات في الجهاد

وفيه فصول :

الفصل الأوّل
معاني الجهاد في اللّغة والشّرع

الفصل الثّاني
مراحل تشريع الجهاد وأنواعه

الفصل الثّالث
حقيقة الجهاد والحكمة من تشريعه

الفصل الرّابع
عوامل الثبات في الجهاد

الفصل الخامس
نماذج للثبات في الجهاد

الفصل الأوّل

معاني الجهاد في اللّغة والشّرع

وفيه مبحثان :

المبحث الأوّل

معاني الجهاد في اللّغة

الجهد بفتح الجيم : المشقّة والغاية ، وبضمّها : الطّاقة [1] .

قال ابن دريد (رحمه الله) :

" والجَهْد والجُهْد لغتان فصيحتان بمعنى واحد . بلغ الرّجل جُهده وجَهده ومجهوده : إذا بلغ أقصى قوّته وطوقه " [2] .

وجمهور العلماء على التّفريق بين لغتي الفتح والضّم .[3] .

---

(١) انظر : تهذيب اللّغة : ٣٧/٦ . مقاييس اللّغة : ٤٨٦/١ . مجمل اللّغة : ٢٠٠/١ . الصّحاح : ٤٦٠/٢ . أساس البلاغة . ١٤٤/١ . المحكم والمحيط الأعظم في اللّغة لعلي بن إسماعيل بن سيده . تحقيق عبدالستّار أحمد فراج . الطّبعة الأولى : ١٣٨٨هـ — ١٩٦٨م . مطبعة مصطفى الحلبي . بمصر : ١١٠/٤ . مختار الصّحاح : ص : ١١٤ . المصباح المنير : ١٢٢/١ . لسان العرب : ١٣٣/٣ . تاج العروس : ٤٠٧/٤ . المعجم الوسيط : ١٤٢/١ . معجم متن اللّغة : ٥٨٧/١ .

(٢) كتاب جمهرة اللّغة . لأبي بكر محمّد بن الحسن الأزدي البصري المشهور بابن دريد . طبعة : مؤسّسة الحلبي وشركاه . القاهرة . نشر : دار صادر : ٢ / ٧١ .

(٣) معجم ألفاظ القرآن الكريم : ٢٢٦/١ .

وقال ابن الأثير (رحمه الله) :

" بالضّم : الوسع والطّاقة ، وبالفتح : المشقّة ، وقيل المبالغة والغاية . وقيل : هما لغتان في الوسع والطّاقة ، فأمّا في المشقّة والغاية فالفتح لا غير " [١] .

وقيل : بالضّم لغة أهل الحجاز ، وبالفتح لغة غيرهم .[٢]

وقد أطلقت كلمة الجهد عدّة إطلاقات في اللّغة وكلّها تدور حول المعنيين السّابقين .

فيقال : جَهَد الرّجلَ : أي ألحّ عليه في السّؤال . [٣]

: وجَهَد الرّجل في كذا : أي جدّ فيه وبالغ [٤] .

: وجَهَده المرض : هزله .[٥]

: وجَهَد به : امتحنه عن الخير وغيره .[٦]

: وجَهَد دابّته وأجهدها : إذا حمل عليها في السّير فوق طاقتها .[٧]

---

(١) النّهاية في غريب الحديث : ١ / ٣٢٠ .

وانظر : المصباح المنير : ص : ١٢٢/١ . ومعجم متن اللّغة : ٥٨٧/١ .

(٢) المصباح المنير : ١٢٢/١ . معجم متن اللّغة : ٥٨٧/١ .

(٣) أساس البلاغة : ١٤٤/١ . المعجم الوسيط : ١٤٢/١ .

(٤) الصّحاح : ٤٦٠/٢ . مختار الصّحاح : ص:١١٤ . لسان العرب : ١٣٣/٣ .

(٥) المحكم : ١١١/٤ . لسان العرب : ١٣٣/٣ . تاج العروس : ٤٠٧/٤.

المعجم الوسيط : ١٤٢/١ . معجم متن اللّغة . ٥٨٧/١.

(٦) انظر : المحكم : ١١١/٤ . تاج العروس : ٤٠٧/٤ .

(٧) الصّحاح : ٤٦٠/٢ . مختار الصّحاح : ص : ١١٤ . المصباح المنير : ١٢٢/١ . لسان العرب : ١٣٣/٣ . تاج العروس : ٤٠٧/٤ . المعجم الوسيط : ١٤٢/١ . معجم متن اللّغة : ٥٨٧/١ .

: وجهدتّ اللّبن جهداً : إذا مزجته بالماء ومخضته حتّى استخرجت زبده فصار حلواً لذيذاً .[1]

: وأجهد الطّعام : إذا حمل عليه بالأكل الكثير الشّديد .[2]

: وجَهِد عيش القوم : إذا نكد واشتدّ .[3]

ويقال: أجهد : إذا احتاط [4] . وإذا اختلط.[5]

: وأجهد فيه الشّيب إجهاداً : إذا بدا فيه وكثر.[6]

: وأجهد لك الطّريق أو الحقّ : إذا برز وظهر ووضح .[7]

: وأجهد ماله : إذا أفناه وفرّقه .[8]

---

(١) المصباح المنير : ١١٢/١ . وانظر لسان العرب : ١٣٥/٣ . تاج العروس : ٤٠٧/٤ . المعجم الوسيط : ١٤٢/١ . معجم متن اللّغة : ٥٨٧/١ .

(٢) معجم مقاييس اللّغة : ٤٨٧/١ . مجمل اللّغة : ٢٠٠/١ . وانظر : الصّحاح : ٤٦٠/٢ . لسان العرب : ١٣٥/٣. تاج العروس : ٤٠٧/٤ . المعجم الوسيط : ١٤٢/١ . معجم متن اللّغة : ٥٨٧/١ .

(٣) انظر : الصّحاح : ٤٦١/٢ . تاج العروس : ٤٠٧/٤ . المعجم الوسيط ١٤٢/١ .

(٤) لسان العرب : ١٣٤/٣ . تاج العروس : ٤٠٨/٤ . المعجم الوسيط : ١٤٢/١ ، معجم متن اللّغة : ٥٨٧/١ .

(٥) تهذيب اللّغة : ٣٩/٦ . تاج العروس : ٤٠٨/٤ . المعجم الوسيط : ١٤٢/١ . معجم متن اللّغة : ٥٨٧/١ .

(٦) تهذيب اللّغة : ٣٩/٦ . وانظر : أساس البلاغة : ١٤٤/١ . المحكم : ١١١/٤ . لسان العرب : ١٣٣/٣ . تاج العروس : ٤٠٨/٤ . المعجم الوسيط : ١٤٢/١ . معجم متن اللّغة : ٥٨٧/١ .

(٧) انظر : تهذيب اللّغة : ٣٩/١ . لسان العرب : ١٣٤/٣ . تاج العروس : ٤٠٨/٤ . المعجم الوسيط : ١٤٢/١ . معجم متن اللّغة : ٥٨٧/١ .

(٨) انظر : تاج العروس : ٤٠٨/٤ . المعجم الوسيط : ١٤٢/١ . معجم متن اللّغة : ٥٨٧/١ .

: وأجهد القوم : إذا أجدبوا .[1] وإذا أشرفوا .[2]

: وجاهد جهاداً : إذا بذل وسعه وطاقته في طلبه ليبلغ مجهوده ويصل إلى نهايته.[3]

: وجاهد العدوّ مجاهداً ، وجهاداً : إذا قاتله .[4]

والجهاد والتّجاهد والمجاهدة : بذل الوسع والمجهود .[5]

والجَهَاد – بالفتح : الأرض الصّلبة .[6] أو الغليظة . وقيل : المستوِية .[7]

فالجهاد ورد في اللّغة بمعاني متعدّدة منها : الإلحاح ، والجد ، والهزال ، والامتحان ، والشّدّة ، والاحتياط ، والاختلاط ، والوضوح ، والتّفريق ، والجدب ، والبذل ، والطّاقة ، والمشقّة ، والقتال . وكلّ هذه المعاني يلمح فيها معنى المشقّة وبذل الوسع .

---

(١) انظر : لسان العرب : ١٣٤/٣ . تاج العروس : ٤٠٩/٤ .

(٢) انظر : تهذيب اللّغة : ٣٩/٦ . لسان العرب : ١٣٤/٣ . تاج العروس : ٤/ ٤٠٨ . معجم متن اللّغة : ٥٨٧/١ .

(٣) المصباح المنير : ١٢٢/١ . وانظر : لسان العرب : ١٣٥/٣ . تاج العروس : ٤٠٨/٤ . معجم متن اللّغة : ٥٨٧/١ .

(٤) المحكم : ١١١/٤ . معجم متن اللّغة : ٥٨٧/١ .

(٥) انظر الصّحاح : ٤٦١/٢ ، مختار الصّحاح : ص:١١٤ . لسان العرب : ١٣٥/٣ . تاج العروس : ٤٠٨/٤ .

(٦) معجم مقاييس اللّغة : ٤٨٧/١ . مجمل اللّغة : ٢٠٠/١ . الصّحاح : ٤٦١/٢ . لسان العرب :١٣٤/٣ . تاج العروس :٤٠٧/٤ . المعجم الوسيط : ١٤٢/١ . معجم متن اللّغة : ٥٨٧/١ .

(٧) المحكم : ١١١/٤ . لسان العرب : ١٣٤/٣ . تاج العروس : ٤٠٧/٤ .

المبحث الثّاني

معاني الجهاد في الشّرع والاصطلاح

وردت لفظة الجهاد في القرآن والسّنة كثيرة جداً ، وهي لا تخرج في إطلاقاتها عن المعاني اللّغوية السّابقة مع أنّ اللّغة في ذلك أوسع دائرة وأشمل . وهي مع ذلك لا تخرج عن ما فيه مشقّة ، واستفراغ ما في الوسع من طاقة .

وأكثر ما ورد الجهاد في القرآن ورد مراداً به بذل الوسع في نشر الدّعوة الإسلاميّة والدّفاع عنها .[1] .

وقد يرد في غير ذلك : كقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ۝٥٣ ﴾ [المائدة:٥٣] .

أي حلفوا واجتهدوا في الحلف على أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم .[2]

قال الرّاغب (رحمه الله) :

" والجهاد والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدوّ ، والجهاد ثلاثة أضرب : مجاهدة العدوّ الظّاهر ، ومجاهدة الشّيطان ، ومجاهدة النّفس . وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ [الحج:٧٨][3] " .

---

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم : ٢٢٦/١ .

(٢) المفردات في غريب القرآن : ص : ١٠١ .
وانظر : معجم ألفاظ القرآن الكريم : ٢٢٦/١ .

(٣) المفردات في غريب القرآن : ص : ١٠١ .

ومن إطلاقاته في السنّة :

ما ورد في حديث الأعمى والأقرع والأبرص : " فوالله لا أجهدك اليـــوم بشـــيء أخذته لله " . [1] أي لا أشقّ عليك وأردّك في شيء تأخذه من مالي لله تعالى .[2]

وفي حديث أمّ معبد[3] : " شاة خلّفها الجَهْد عن الغنم " . [4] . أي الهزال .[5]

وفي حديث الحسن " لا يُجْهِدُ الرّجلُ ماله ثمّ يقعد يسأل النّـــاس " . [6] أي يفرّقــه جميعه ها هنا وها هنا .[7]

وفي دعائه ﷺ : " أعوذ بك من جهد البلاء " .[8] أي أعوذ بك من الحالة الشّاقة الّتي يمتحن بها الإنسان حتّى يختار عليها الموت ويتمنّاه .[9]

---

(١) الحديث سبق تخريجه . انظر : ص : ٣٨١ .

(٢) النّهاية في غريب الحديث : ٣٢٠/١ .

(٣)هي عاتكة بنت خالد بن خليفة الخزاعيّة . وهي الّتي نزل عليها النّـــبي ﷺ لّمـــا هـــاجر . مشـــهورة بكنيتـــها . وقد أسلمت .

و انظر : الطّبقات الكبرى: ٢٨٨/٨ . الجرح والتّعديل: ٤٦٦/٩ . ثقات ابن حبّـــان: ٣٢٥/٣ . الإصابـــة : ٣٠٥/٨ .

(٤) هذا جزء من حديث أمّ معبد الطّويل في شأن هجرة النّبي ﷺ : وهو في :

مستدرك الحاكم: بلفظه في : ١٠/٣ . وقال : "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " .

معجم الطّبراني الكبير: بلفظه ـــ ولم يقل : " شاة " ـــ في : ٤٩/٤ .

(٥) كتاب الغريبين : ٤٢٦/١ . النّهاية في غريب الحديث : ٣٢٠/١ .

(٦) هذا الحديث أورده ابن الأثير في النّهاية في غريب الحديث : ٣٢٠/١ . ولم أقف عليـــه في شـــيء مـــن كتـــب الحديث الّتي رجعت إليها .

(٧) المرجع السّابق : ٣٢٠/١. وانظر : كتاب الغريبين : ٤٢٦/١ .

(٨) سبق تخريجه . انظر : ص : ٣٣٨ .

(٩) انظر : المرجع السّابق : ٤٢٧/١ . النّهاية في غريب الحديث : ٣٢٠/١ .

وفي حديث الغسل : " إذا جلس بين شعبها الأربـع ثـمّ جـهدها ".[1] أي دفعـها وحفزها .[2]

وتعريف الجهاد الاصطلاحي أيضاً أخذ من معناه اللّغوي الّذي اسـتقي مـن المشقّة وبذل الطّاقة ، وذلك ما أشار إليه *القسطلاني (رحمه الله) بقوله* :

" والجهاد بكسر الجيم مصدر جاهدت العدوّ مجاهدة وجهاداً ، وأصله جيـهاد كقيتال فخفّف بحذف الياء ، وهو مشتقّ من الجهد بفتح الجيم وهو التّعب والمشقّة لما فيه من ارتكابها ، أو من الجهد بالضّم وهو الطّاقة ، لأنّ كلّ واحد منهما بذل طاقتـه في دفع صاحبه .

وهو في الاصطلاح : قتال الكفّار لنصرة الإسلام وإعلاء كلمة الله . ويطلق أيضـاً على جهاد النّفس والشّيطان وهو من أعظم الجهاد ، والمراد بالتّرجمة الأوّل ".[3]

فالجهاد في اصطلاح أهل العلم من المحدّثين والفقهاء :

بذل الجهد في قتال الكفّار لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه .[4]

---

(١) صحيح البخاري: بلفظه وتمامه : " فقد وجب الغسل " في : كتاب الغسل (الوضوء) : (٥/٤) . باب إذا التقـى الختانان : (١٠٧/٢٨) . برقم: (٢٩١) . ص : ٧٧ . عن أبي هريرة ﷺ .

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الحيض : (٣) . باب نسخ " الماء من الماء" ووجوب الغسل بالتقاء الختـانين : (٢٢) . برقم: (٣٤٨) . ٢٧١/١ .

(٢) النّهاية في غريب الحديث : ٣٢٠/١ .

(٣) إرشاد السّاري لشرح صحيح البخاري . لأبي العبّاس شهاب الدّين أحمد بن محمّد القسطلاني . مؤسّسـة الحلـبي وشركاه : الطّبعة السّادسة . ١٣٠٤هـ المطبعة الكبرى الأميريّة ببولاق . مصر : ٣١/٥ .

(٤) انظر : فتح الباري : ٧٧/٦ . نيل الأوطار :٢٥/٨ . أهميّة الجهاد في نشر الدّعوة الإسلاميّة والرّد على الطّوائـف الضّالة فيه . لعليّ بن نفيع العلياني . دار طيبة – الرّياض . الطّبعة الأولى ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م . ص:١١٦ .

الجهاد في الإسلام بين الطّلب والدّفاع . لصالح اللّحيدان . نشر دار اللّواء . الرّياض : ١٣٩٧هـ . ص : ١٧ .

وإن كان يطلق أيضاً على جهاد النّفس ، كما جاء في حديث فضالة بن عبيد ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ في حجّة الوداع : " ألا أخبركم بالمؤمن ؟ من أمنه النّاس على أموالهم وأنفسهم ، والمسلم من سلم النّاس من لسانه ويده ، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله ، والمهاجر من هجر الخطايا والذّنوب " .[1]

فيجاهد الإنسان نفسه على تعلّم الهدى ودين الحقّ ، وعلى العمل به ، والدّعوة إليه ، وتعليمه من لا يعلمه ، والصّبر على مشاقّ الدّعوة وأذى الخلق .[2] وهذا أصل الجهاد وأساسه[3] .

---

(١)هذا الحديث أصله في الصّحيحين وغيرهما بطرق متعدّدة . انظر :

صحيح البخاري: كتاب الإيمان : (٢) . باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده : (٤) . برقم: (١٠) . عن عبد الله بن عمرو ﷺ . ص : ١٦ . كتاب الرّقاق : (٨١/٥٥) . باب الانتهاء عن المعاصي : (٢٦) . برقم: (٦٤٨٤) . ص : ١٣٧٩ .

صحيح مسلم: كتاب الإيمان : (١) . باب بيان تفاضل الإسلام ، وأيّ أموره أفضل : (١٤) . برقم: (٤١) . عن جابر ﷺ . و برقم: (٤٢) . عن ابي موسى ﷺ . ١/٦٥-٦٦ .

وهو باللّفظ أعلاه في : مسند احمد : ٢١/٦ .

و الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: في باب ذكر البيان بأنّ كلّ هجرة ليس فيها التّحوّل من دار الكفر إلى دار الإسلام . برقم: (٤٨٦٢) . قال شعيب الأرناؤوط : " إسناده صحيح " . ٢٠٣/١١ .

و انظر أيضاً : مسند أحمد: ٢٢/٦ . مستدرك الحاكم: ٥٤/١ . وهو في السّلسلة الصّحيحة : ٨١/٢ . برقم: (٥٤٩) .

(٢) انظر : زاد المعاد : ١٠/٣ .

(٣) قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" ولمّا كان جهاد أعداء اللّه في الخارج فرعاً على جهاد العبد نفسه في ذات اللّه كما قال النّبي ﷺ : " المجاهد من جاهد نفسه في طاعة اللّه ، والمهاجر من هجر ما نهى اللّه عنه " كان جهاد النّفس مقدّماً على جهاد العدوّ في الخارج وأصلاً له ، فإنّه ما لم يجاهد نفسه أوّلاً لتفعل ما أمرت به وتترك ما نهيت عنه ويحاربها في اللّه لم يمكنه جهاد عدوّه في الخارج ، فكيف يمكنه جهاد عدوّه والانتصاف منه وعدوّه الّذي بين جنبيه قاهر له ، متسلّط عليه، لم يجاهده و لم يحاربه في اللّه ، بل لا يمكنه الخروج إلى عدوّه حتّى يجاهد نفسه على الخروج " .

المرجع السّابق : ٦/٣ . وانظر : أهمّيّة الجهاد ص : ١٢١ .

كما يطلق على جهاد الشّيطان الّذي أمر الله تعالى باتّخاذه عدواً في قوله : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ [فاطر:٦] .

وفي ذلك تنبيه على استفراغ الوسع في مجاهدته [١] . فيجاهد بدفع ما يلقى من الشّبهات والشّكوك والشّهوات والإرادات الفاسدة .[٢] .

ويطلق أيضاً على جهاد المنافقين لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [التوبة:٧٣] [التحريم : ٩].

وقد تباينت أقوال العلماء في كيفية جهادهم :

فذهب قوم إلى أنّهم يجاهدون باللّسان وإقامة الحجّة عليهم والغلظة وعدم الرّفق بهم .

وقال آخرون : بل يجاهدون بإقامة الحدود عليهم .

وقيل : يجاهدون كجهاد الكفّار وذلك بالسّيف والسّنان .[٣]

---

(١) انظر زاد المعاد : ٦/٣ .

(٢) انظر : المرجع السّابق : ١٠/٣ .

(٣) انظر : جامع البيان : ١٨٣/١٠-١٨٤ . (طبعة الحلبي) . أحكام القرآن لابن العربي : ٩٦٥/٢-٩٦٦ . التّفسير الكبير : ١٣٤/١٦-١٣٥ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٠٤/٨-٢٠٥ تفسير القرآن العظيم : ٥٧٧/٢-٥٧٨ . فتح البيان: ٣٤٩/٥ .
محاسن التّأويل : ٣٢٠٢/٨ – ٣٢٠٣ . تفسير المراغي . لأحمد بن مصطفى المراغي . طبعة : مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر . الطّبعة الثّانية : ١٣٧٣هـ ــ ١٩٥٣م : ١٦٣/١٠-١٦٤.

ورجح ابن جرير (رحمه الله) القول الأخير . ولكن ذلك لمن أظـــــهر النّفـــاق وأبان كفره .[1] وإن كان جمهور العلماء على جهادهم باللّسان وإقامة الحجّة عليهم ، إلاّ إنّ ابن كثير (رحمه الله) يرى أنّه لا منافاة بين تلك الأقوال ، لأنّه تارة يؤاخذون بهذا وتارة بهذا ، بحسب الأحوال .[2] وقوله أولى بالأخذ لاختلاف أحوال المنافقين .

ولكن لفظ الجهاد إذا أطلق إنّما يعني قتال الكفّار لإعلاء دين الله ونصرتـــــه ، ولا ينصرف إلى غيره إلاّ بقرينة ، وهو الّذي دلّت على فضله النّصوص ، وبوّب له علماء الإسلام في كتبهم .[3] وهو المقصود بالحديث في هذا الموطن .

---

(١) انظر : جامع البيان : ١٨٤/١٠ .

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم : ٥٧٨/٢ . وانظر : زاد المعاد : ١١/٣ . تيسير الكـــريم الرّحمـــن :ص : ٣٠٣ ، ٨٠٩ .

(٣) انظر : كتاب المقدّمات الممهّدات لبيان ما اقتضته رسوم المدوّنة من الأحكام الشّرعيّات والتّحصيلات المحكمـــات الشّرعيّات لأمّهات مسائلها المشكلات . لأبي الوليد محمّد بن أحمد بن رشد . طبع : مطبعة السّعادة بمصر . نشر : دار صادر . بيروت : ٢٥٩/١ . أهمّيّة الجهاد : ص:١١٧-١١٨ . وانظر : جامع البيان : ٢٠٥/١٧ .

الفصل الثّاني

مراحل تشريع الجهاد وأنواعه

لقد مضت سنّة الله تعالى في الأمم السّالفة المكذّبة للأنبياء أن يعاقبها بالقوارع الّتي تعمّ تلك الأمم ، كما أهلك قوم نوح بالطّوفان ، وعاداً بالدّبور[١]، وثمود بالصّيحة ، وقوم لوط بالخسف والقلب والحجارة ، وقوم شعيب بيوم الظّلّة[٢] .

ولمّا بعث الله موسى عليه السّلام وأهلك عدوّه بالغرق ، وأنزل عليه التّوراة شرع فيها قتال الكفّار واستمرّ ذلك في بقية الشّرائع من بعده.[٣]

فأصل الجهاد ومحاربة الأعداء من عهد موسى عليه السّلام .[٤] وإن كان بنو إسرائيل قد نكلوا عنه ، وعصوا أمر رسولهم فيه ، وجبنوا عن مواجهة أعدائهم حتّى عوقبوا بالتّيه .[٥] فإنّ هذه الأمّة قد قامت به على الوجه الأكمل والصّفة الأتم .

---

(١)الدّبور : الرّيح الّتي تقابل الصّبا . مختار الصّحاح : ص : ١٩٧ . لسان العرب : ٢٧٢/٤ .

وفي الحديث : " نصرت بالصّبا وأهلكت عاد بالدّبور " . صحيح البخاري : برقم : (١٠٣٥) . ص : ٢٢١ . وبرقم : (٣٢٠٥) . ص : ٦٧٨ . وبرقم : (٣٣٤٣) . ص : ٧٠٣ . وبرقم : (٤١٠٥) . ص : ٨٦٠ . صحيح مسلم : برقم : (٩٠٠) . ٦١٧/٢ .

(٢)الظّلّة : ما سترك من فوقك . وتطلق على السّحابة . وعذاب يوم الظّلّة : سمّي بذلك لأنّ سحابة أظلتهم فلجئوا إلى ظلّها من شدّة الحرّ فأطبقت عليهم وأهلكتهم . انظر : لسان العرب : ٤١٦/١١-٤١٨ . وانظر : مختار الصحاح : ص : ٤٠٥ .

(٣) تفسير القرآن العظيم : ٤٥٩/٢ . بتصرّف .

(٤) انظر : أحكام القرآن لابن العربي : ١٠٠٧/٢ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٦٨/٨ .

(٥) انظر : الآيات ٢٠-٢٦ من سورة المائدة . وانظر : تفسير القرآن العظيم : ٦٥/٢ . محاسن التّأويل : ١٩٣٣/٦-١٩٣٥ . تفسير المراغي : ٩١/٦-٩٥ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١٨٩-١٩١ . مجموع الفتاوى : ١٢٣/٢٨-١٢٤ . والتّيه : هو المفازة الّتي يتاه فيها . وتيه بني إسرائيل هو الّذي ضلّوا فيه فلم يهتدوا للخروج منه . انظر : لسان العرب : ٤٨٢/١٣-٤٨٣ .

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" فبيّن سبحانه أنّ هذه الأمّة خير الأمم للنّاس ، فهم أنفعهم لهم ، وأعظمهم إحساناً إليهم ، لأنّهم كمّلوا أمر النّاس بالمعروف ونهيهم عن المنكر من جهة الصّفة والقدر ، حيث أمروا بكلّ معروف ، ونهوا عن كلّ منكر لكلّ أحد ، وأقاموا ذلك بالجهاد في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم ، وهذا كمال النّفع للخلق " [1] .

والجهاد فريضة شاقّة على النّفوس ، تنفر عنه بطبعها ، لما فيه من ذهاب الأرواح ، وقطع الأطراف ، والتّعرض للجراحات ، وذهاب المال ، ومفارقة الأوطان والأهل ، وحصول أنواع المخاوف ، ومواجهة الأعداء ، وما يتبع ذلك من تعب ونصب .

فهو مكروه للنّفوس بطبعها ، ثقيل عليها ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦ ﴾ [البقرة:٢١٦] [2] .

ولذا تدرّج الشّارع الحكيم في تشريعه على مراحل ككلّ الأحكام الشّاقّة ، فإنّه سبحانه يشرعها على سبيل التّدريج لأنّ الإلزام بها بغتة يحصل عنه مشقّة عظيمة على المكلّفين .[3]

❁ لقد مكث رسول الله ﷺ بمكّة يدعو إلى الله ثلاث عشرة سنة لاقى فيها ومَنْ معه من المسلمين من أذى قريش وعنتهم مَا لاَقُوا ، وهم مع ذلك صابرون كافّون

---

(١) المرجع السّابق : ١٢٣/٢٨ .

(٢) انظر : التفسير الكبير : ٢٦/٦-٢٧ . الجامع لأحكام القرآن :٣٩/٣ . فتح البيان : ٤٣٣/١ . محاسن التّأويل : ٥٣٥/٣ . تفسير المراغي :١٣٢/٢ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٧٩-٨٠ . في ظلال القرآن : ٢٢٣/١ ، ١٦١٥/٣ .

(٣) انظر : أضواء البيان : ٧٠٠/٥ . وانظر : تيسير الكريم الرّحمن :١٥٢ .

عن قتالهم لأنّهم لم يؤمروا به ، وإنّما كان جهادهم مقصوراً على الدّعـوة بالحجّـة والبيان مع الصّبر والصّفح .[1]

وكانت الآيات تنزل عليهم تأمرهم بالكفّ عن القتال ، وتحمّل الأذى والصّـبر على رعونات قريش واضطّهادهم لهم ، كقوله تعالى : ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [فصلت:٣٤] .

وقوله : ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡ ﴾ [المائدة:١٣] . وقوله : ﴿ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴾ [المزمل:١٠] . +وقوله عزّ في علاه : ﴿ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴾ [الغاشية:٢٢][2] .

وإذا شكا إليه أصحابه ما يعانون صبّرهم ومنّاهم ووعدهم بـالنّصر وعـاجل الفرج ، وتلا على أسماعهم مثل قولـه : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [الجاثية:١٤] [3] .

إذ كان المسلمون حينها في قلّة من العدد ، وضعف من القوّة ، فلو أمـروا بالقتـال لشقّ عليهم .[4] بل كان ﷺ ينهاهم عن القتال ويأمرهم بالعفو والصّبر .

---

(١) وانظر في ذلك : السّيرة النّبويّة لابن هشام : ٢٩٣/٢ — ٢٩٤ . زاد المعاد : ١٣/٣ . الجهاد في الإسـلام بـين الطّلب والدّفاع : ص:٣٥ .

(٢) وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ٣٤٧/٢ . فتح البيان : ٣٨٤/١ .

(٣) وانظر : تفسير القرآن العظيم : ٢٢٧/٤ . الجهاد في الإسلام : ص :٣٥ .

(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم : ٣٦١/٣ . تفسير المراغي : ١١٨/١٧ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١٥٢ .

وقد ذكر صاحب الظّلال (رحمه الله) بعض الحكم في عدم تشريع الجهاد بمكّة منها : تطويع نفوس المؤمنين علـى الصّبر ، وإثارة النّخوة والنّجدة لتحريك القلوب نحو الإسلام ، وتجنّب إحداث معركة في كلّ بيت ، إضافة إلى قلّة العدد .

عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) أنّ عبد الرّحمن بن عوف وأصحاباً لـــــه ، أتوا النّبي ﷺ بمكّة فقالوا : يا رسول الله إنّا كنّا في عزّ ونحن مشركون ، فلمّا آمنّــا صرنا أذلّة . فقال : " إنّي أمرت بالعفو فلا تقاتلوا " .

فلمّا حوّلنا الله إلى المدينة أمرنا بالقتال فكفّوا، فأنزل الله عزّ وجــلّ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [النساء:٧٧] (1) .

وقد مرّ حديث خباب بن الأرتّ ﷺ في أمره ﷺ لهم بالصّبر وتحمّل الأذى .(2)

فلمّا استقرّ رسول الله ﷺ بالمدينة النّبويّة بعد الهجرة ، وأيّده الله بالمـــــهاجرين والأنصار ، وقويت شوكة الإسلام ، واشتدّ عوده ، وصارت لهم دار إسلام ومعقــل عزّ يلجؤون إليه أذن الله لهم في الجهاد ، وأباح لهم قتال أهل الكفر ، ولم يفرضـــه عليهم .

فقال سبحانه : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا

انظر : في ظلال القرآن : ١/١٨٥-١٨٦ . وقد أفاض في ذكر هذه الحكم في موطن آخر من كتابه المذكـــور بعد مقدّمة ذكر فيها الأدب مع الله في تناول حكم التّشريع . انظـــر : ٢/٧١٣-٧١٥ . وانظـــر : الجـــهاد في الإسلام : ص : ٥٣- ٥٤ .

(1) سنن النّسائي: بلفظه في : كتاب الجهاد : (٢٥) . باب وجوب الجهاد : (١) . برقم: (٣٠٨٦) . قال الألبـــاني (رحمه الله): " صحيح إسناده " . ص: ٣٢٧ .

سنن البيهقي: بلفظ مقارب في: باب مبتدأ الإذن بالقتال . ٩/١١ .

مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في: ٢/٧٦، ٣٣٦ . وقال " هذا حديث صحيـــح علـــى شـــرط البخـــاري و لم يخرجاه " . و قال الذّهبي (رحمه الله): " على شرط البخاري " .

(2) الحديث سبق . انظر : ص : ٣٠٧ .

﴿ ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

[الحج:٣٩-٤٠] .

وهي أوّل ما نزل في الإذن بالقتال . (١)

عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) قال : " لمّا خرج النّبـي ﷺ من مكّة ، قـال أبو بكر : " أخرجوا نبيّهم ، إنّا لله وإنّا إليه راجعون ليهلكُن .

فنزلت : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج:٣٩]. فعرفت : أنّه سيكون قتال ".

قال ابن عبّاس (رضي الله عنهما) : " فهي أوّل آية نزلت في القتال " (٢) .

---

(١) انظر : جامع البيان : ١٧/١٧٢-١٧٣ .

الكشّاف : ٣/١٢٦ (طبعة الاستقامة) . أحكام القرآن لابن العربي : ٣/١٢٨٤ . التفسير الكبير :٢٣/٣٩ . الجامع لأحكام القرآن :١٢/٦٨ . تفسير القرآن العظيم : ٣/٣٦٢ . فتح البيان : ٩/٥٥ . تفسير المراغي : ١٧/١١٧ . أضواء البيان : ٥/٦٩٩ . وانظر: السّيرة النّبويّة لابن هشام : ٢/٢٩٤ .

(٢) سنن التّرمذي: بلفظ مقارب في: كتاب تفسير القرآن : (٤٣) . باب ومن سورة الحجّ : (٢٢) . برقم: (٣١٧١) . وقال : "هذا حديث حسن " . و قال الألباني (رحمه الله): " صحيح الإسناد " . و نحوه برقم: (٣١٧٢) عن سعيد بن جبير (رحمه الله) مرسلاً . ص: ٥٠٤ .

سنن النّسائي: بلفظه في : كتاب الجهاد : (٢٥) . باب وجوب الجهاد : (١) . برقم: (٣٠٨٥) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح الإسناد " . ص : ٣٢٧ .

سنن البيهقي: بلفظ مقارب في: باب مبتدأ الإذن بالقتال . ٩/١٠ .

مسند أحمد: بلفظه ـــ إلاّ أحرف قليلة ـــ في : ١/٢١٦ . قال أحمد شاكر (رحمه الله): " إسناده صحيح " .

مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٣/٢٦١-٢٦٢ . برقم: (١٨٦٥) .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: بلفظه ـــ إلاّ أحرف يسيرة ـــ في باب ذكر الخبر المدحض قول من زعم أنّ فرض الجهاد كان بعد قدوم النّبي ﷺ المدينة . برقم: (٤٧١٠) . قال شعيب الأرناؤوط : " إسناده صحيح على شرط مسلم " . ١١/٨ .

وفي الآية تعليل للإذن بالقتال ، وذلك بسبب الظّلم الّذي وقع على الصّحابة ﷺ ، وإخراجهم من بلادهم بغير ذنب فعلوه ولا إثم ارتكبوه ، سوى إنّهم وحّدوا الله وعبدوه وآمنوا بدينه ونصروه ، والتزموا بشرعه وطبّقوه .[1] ثمّ فرض عليهم سبحانه بعد ذلك قتال من قاتلهم والكفّ عن من لم يقاتلهم فقال :

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ ﴾ [البقرة:١٩٠] [2] .

وهذه مرحلة وسطى مهّد الله بها لقتال جميع الكفّار وإيجابه على المؤمنين .[3]

ثمّ أمرهم سبحانه بقتال المشركين كافّة وإن لم يبدأوا بقتال مع البدء بالأقرب فالأقرب .

فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣ ﴾ [التوبة:١٢٣].[4]

مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في: ٧٦/٢ ، ٢٦٩ . ٨/٣ . وقال : " هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين ولم يخرجاه " . وقال الذّهبي (رحمه الله): " على شرط البخاري ومسلم " .

وهو في جامع البيان :١٧٢/١٧ ومن طريقه أورده ابن كثير في تفسير القرآن العظيم : ٣٦١/٣ .

(١) سوف يأتي مزيد بيان لِحكم الجهاد وعلل تشريعه في المبحث التّالي .

(٢) لأهل العلم بالتّفسير خلاف في نسخ هذه الآية وعدم نسخها ، ولهم أقوال في توجيهها في حالة عدم النّسخ . وانظر في ذلك :جامع البيان : ١٨٩/٢ – ١٩٠ . أحكام القرآن لابن العربي : ١٠٢/١-١٠٤ . التّفسير الكبير : ١٢٨/٥ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٤٧/٢-٣٥٠ . تفسير القرآن العظيم : ٣٣٩/١-٣٤٠ .فتح البيان : ٣٨٤/١-٣٨٥ . محاسن التّأويل : ٤٧٤/٣ . تفسير المراغي : ٨٩/٢-٩٠ ، تيسير الكريم الرّحمن : ٧١ .

(٣) انظر : الجهاد في الإسلام : ص : ٤٩ .

(٤) بيّن الإمام الرّازي (رحمه الله) بثمانية أوجه الحِكم المترتّبة علىالبدء في القتال بالأقرب إلى بلد المقاتلين . انظر : التّفسير الكبير : ٢٢٨/١٦-٢٢٩ . كما ساق الإمام ابن كثير (رحمه الله) ترتيب هدي النّبي ﷺ والصّحابة ﷺ في البدء بقتال الأقرب فالأقرب . انظر : تفسير القرآن العظيم : ٦٢٣/٢ .

وقال سبحانه : ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة:٣٦].

وللعلماء أقوال في معنى الآية :

ذهب ابن جرير (رحمه الله) إلى أنّ المراد : أن يقاتل المؤمنون الكفّار جميعاً غير مختلفين ، ومؤتلفين غير متفرّقين .(١)

وذهب ابن العربي (رحمه الله) إلى أنّها تعني : محيطين بهم من كلّ جهة وحالة .(٢)

بينما يرى السّعدي (رحمه الله) أنّها تأمر بقتال جميع أنواع المشركين .(٣)

ويرى سيّد قطب (رحمه الله) أنّ معناها : قتالهم جميعاً بلا استثناء أحد منهم ولا جماعة .(٤)

ولا يبعد أن تكون الآية جامعة لهذه المعاني لأنّ كلمة (كافّة) شاملة لها جميعاً .

وقد بدأت هذه المرحلة من انقضاء أربعة أشهر بعد حجّ العام التّاسع من الهجرة وانقضاء العهود الّتي كانت بينه ﷺ وبين الكفّار .

وانظر معنى الآية في الجامع لأحكام القرآن : ٢٩٧/٨ . فتح البيان : ٤٢٦/٥ محاسن التأويل : ٣٣٠١/٨ . تفسير المراغي : ٤٩/١١-٥٠ . تيسير الكريم الرّحمن :ص : ٣١٣ . وانظر الإكليل في استنباط التّنزيل : ص : ١٢٣ .

(١) جامع البيان : ١٢٨/١٠ .

(٢) أحكام القرآن : ٩٢٨/٢ .

(٣) تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٩٦ .

(٤) في ظلال القرآن : ١٦٥٣/٣ .

وهي المرحلة الّتي استقرّ عليها أمر الجهاد . فيقاتل المشركون حتّى يسلموا ، ويقاتل أهل الكتاب والمجوس حتّى يسلموا أو يعطوا الجزية [1] مع الذّل والصّغار. [2]

قال سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:٥].

أي إذا انقضت الأشهر الأربعة الّتي حرم فيها قتال المشركين المعاهدين فاقتلوهم في أي مكان وجدتموهم فيه من حلّ أو حرم ، وخذوهم بالأسر ، واحبسوهم وضيّقوا عليهم بمنعهم من التّصرّف في بلاد الإسلام ، واقعدوا لهم في كلّ طريق وموضع يمرّون عليه ، ورابطوا في جهادهم ، وابذلوا غاية مجهودكم في قتالهم وحربهم ، حتّى يتوبوا عن شركهم ويؤدّوا الصّلاة بحقوقها والزّكاة لمستحقيها ، أي يلتزموا بشرائع الإسلام فيكونوا مثلكم فعند ذلك اتركوا سبيلهم وكفّوا عن قتالهم .[3]

وهذه هي آية السّيف النّاسخة لآيات العفو والصّفح والإعراض والمسالمة .[4]

---

(١) الجزية : هي عبارة عن الْمَال الّذي يُعْقَد للْكِتَابي عليه الذّمَّة،وهي فِعْلة ، من الجَزاء كأنّها جَزَت عن قتله . والجمع الجِزَى مثل لحية ولحى . انظر : النّهاية في غريب الحديث: ٢٧١/١ . و انظر : الفائق : ٢١١/١ . مختار الصّحاح : ص : ١٠٣ . القاموس المحيط : ص : ١٦٤٠ .

(٢) انظر : زاد المعاد : ١٥٩/٣-١٦٠ . أهمّيّة الجهاد : ص : ١٤٣-١٤٤ . والصّغار : هو الذّل والضّيم . مختار الصّحاح : ص : ٣٦٤ .

(٣) انظر معنى الآية في : جامع البيان : ٧٨/١٠. أحكام القرآن لابن العربي : ٨٨٩/٢-٨٩١ . الجامع لأحكام القرآن : ٧٢/٨-٧٥ . تفسير القرآن العظيم : ٥٢٦/٢-٥٢٧ . فتح البيان : ٢٣٦/٥-٢٣٨ . محاسن التّأويل : ٣٠٧٢/٨-٣٠٧٥ . تفسير المراغي ٥٧/١٠-٥٩ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٨٩-٢٩٠ .

(٤) الإكليل : ص : ١١٦ .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال : " أمرت أن أقاتل النّاس حتّى يقولوا : لا إله إلاّ الله فمن قال : لا إله إلاّ الله عصم من ماله ونفسه إلاّ بحقّه ، وحسابه على الله " [(١)] والحديث في معنى الآية السّابقة .

وقال سبحانه في قتال أهل الكتاب : ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التوبة:٢٩].

وهذه أوّل آية نزلت آمرة بقتال أهل الكتاب من اليهود والنّصارى بعدما تمهّدت أمور المشركين .[(٢)]

وقد نصّت على أربع صفات اتّسم بها أهل الكتاب كانت العلّة في وجوب قتالهم :

الأولى : إنّهم لا يؤمنون بالله إيماناً صحيحاً .

الثّانية : لا يصدّقون باليوم الآخر على النّحو الّذي يصحّ به الإيمان .

الثّالثة : لا يتّبعون شرع الله في تحريم المحرّمات .

الرّابعة : لا يدينون بالدّين الصّحيح ، لأنّ دينهم إمّا دين مبدّل محرّف لم يشرعه الله أصلاً ، أو منسوخ بالدّين الخاتم فلا يصحّ العمل به ، فيجب قتالهم حتّى يسلموا أو يعطوا الجزية عن قهر لهم وغلبة ، وهم ذليلون حقيرون مهانون .[(٣)]

---

(١) سبق تخريجه انظر : ص : ٥٧٨ .

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم : ٥٤٢/٢ .

(٣) انظر : التّفسير الكبير : ٢٨/١٦-٣٠ . تفسير المراغي : ٩٣/١٠-٩٥ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٩٤ .
وانظر : جامع البيان : ١٠٩/١٠ . أحكام القرآن لابن العربي : ٩٠٥/٢-٩٠٧ . الجامع لأحكام القرآن : ١٠٩/٨-١١٠ . فتح البيان : ٢٧١/٥-٢٧٣ .

وقد اكتملت بهذه المرحلة مراحل تشريع الجهاد في الإسلام .[١]

والجهاد نوعان :

الأوّل : جهاد الابتداء والطّلب :

وهو أن يطلب المؤمنون الكفّار في بلادهم ، ويغزوهم في عقر دارهم ، فيدعوهم إلى الإسلام فإن أبوا قوتلوا .[٢]

---

(١) ولبيان تلك المراحل في الجملة انظر :

أحكام القرآن لابن العربي : ١٠٢/١ . الجواب الصّحيح لمن بدّل دين المسيح لابن تيمية . مطابع المجد التّجاريّة : ٧٢/١-٧٣ . السّياسة الشّرعيّة في إصلاح الرّاعي والرّعيّة لابن تيمية . تحقيق محمّد إبراهيم البنّا ومحمّد أحمد عاشور . مطبعة الشّعب . القاهرة : ص:١٣٩-١٤٠ . زاد المعاد : ٦٩/٣-٧١ ، ١٥٩-١٦٠ . أضواء البيان : ٧٠٠/٥-٧٠١ . فقه السّنّة للسّيّد سابق . الطّبعة الثّامنة :١٤٠٧هـ — ١٩٨٧م . دار الكتاب العربي . بيروت : ٩/٣-١٠ . الجهاد في الإسلام : ص:٤٤-٥١ . وقد ذكر الحِكَمَ الّتي أدّت إلى مرور الجهاد بهذه المراحل . ص:٥٣-٥٤ . أهمّيّة الجهاد : ص: ١٣٦-١٤٤ .

يقول سيّد قطب (رحمه الله) :

" إنّ تلك الأحكام المرحليّة ليست منسوخة بحيث لا يجوز العمل بها في أي ظرف من ظروف الأمّة المسلمة بعد نزول الأحكام الأخيرة في سورة التّوبة ، ذلك أنّ الحركة والواقع الّذي تواجهه في شتّى الظّروف والأمكنة والأزمنة هي الّتي تحدّد عن طريق الاجتهاد المطلق أيّ الأحكام هو أنسب للأخذ به في ظرف من الظّروف ، في زمان من الأزمنة ، في مكان من الأمكنة ، مع عدم نسيان الأحكام الأخيرة الّتي يجب أن يصار إليها متى أصبحت الأمّة المسلمة في الحال الّتي تمكّنها من تنفيذ هذه الأحكام ، كما كان حالها عند نزول سورة التّوبة ، وما بعد ذلك أيّام الفتوحات الإسلاميّة الّتي قامت على أساس من هذه الأحكام الأخيرة النّهائيّة . سواء في معاملة المشركين أو أهل الكتاب " . في ظلال القرآن : ١٥٨٠/٣ . وانظر : ١٥٨٢/٣ .

(٢) انظر : أهمّيّة الجهاد : ص : ١٢٤ . وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٥٢/٨ . مجموع الفتاوى : ٣٥٩/٢٨ . السّياسة الشّرعيّة : ص:١٤٩-١٥٠ الفروسيّة : ص : ١٨٧-١٨٨ . الجهاد في الإسلام : ص ١٠٥ .

ومن أدلّته :

قوله تعالى : ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة:٤١] [١].

وقول النّبي ﷺ في حديث بريدة ﷺ : " اغزوا باسم الله ، في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله ... " [٢] الحديث .

وحكمه أنّه فرض كفاية إذا قام به من يكفي سقط إثمه عن الباقين ، وقد يتعيّن في بعض الأحوال وعلى بعض الأفراد .[٣]

ومن أدلّة كونه فرض كفاية :

قوله تعالى : ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةًۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٢].

---

(١) لأهل العلم بالتّفسير أقوال متعدّدة في المراد بالخفّة والثّقل في الآية ، أوصلها الإمام ابن العربي (رحمه الله) إلى عشرة أقوال . انظر الأحكام : ٩٤٢/٢ .

والأولى ما ذهب إليه ابن جرير (رحمه الله) وتبعه بعض العلماء في أنّ المراد بذلك : انفروا على كلّ حال من أحوال الخفّة والثّقل . إذ الآية لم تعيّن نوعاً بعينه . انظر : جامع البيان : ١٤٠/١٠ . التّفسير الكبير : ٦٩/١٦ . فتح البيان : ٣٠٧/٥ محاسن التّأويل : ٣١٥٩/٨ . تفسير المراغي : ١٢٣/١٠ .

(٢) صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الجهاد والسّير : (٣٢) . باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث : (٢) . برقم: (١٧٣١) . ١٣٥٧/٣ .

(٣) انظر : المحلّى : ٢٩١/٧ . المغني لأبي محمّد عبد الله بن أحمد بن محمّد بن قدامة . تصحيح : محمّد خليل هرّاس . مكتبة ابن تيمية : ٣٤٥/٨-٣٤٦ . نيل الأوطار : ٢٥/٨ . الرّوضة النّديّة شرح الدّرر البهيّة لأبي الطّيّب صديق ابن حسن بن علي الحسين القنوجي البخاري . تحقيق عبد الله بن إبراهيم الأنصاري . طبعة الشّؤون الدّينيّة بدولة قطر : ٤٧٨/٢-٤٧٩ . فقه السّنّة : ١٠/٣-١٢ . وانظر : شرح النّووي على مسلم : ٩/١٣ ، ٤٢-٤٣ . مجموع الفتاوى : ١٨٤/٢٨ . فتح الباري : ١٢١/٦ .

وحديث أبي سعيد الخدري ﷺ: أنّ رسول الله ﷺ بعث إلى بني لحيان : " ليخرج من كلّ رجلين رجل " ثمّ قال للقاعد : " أيّكم خلف الخارج في أهله وماله بخير كان له مثل نصف أجر الخارج " .[1]

الثّاني : جهاد الدّفع :

وهو إذا هاجم العدوّ بلداً من بلاد المسلمين فيجب على أهل البلد جميعاً جهاده حتّى يندفع شرّه ، ولو لم يندفع شرّه إلاّ بجهاد المسلمين جميعاً لوجب عليهم جهاده.[2]

وحكمه فرض عين على الجميع .[3]

---

(١) صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإمارة : (٣٣) . باب فضل إعانة الغازي في سبيل اللّه : (٣٨) . برقم: (١٨٩٦) . ١٥٠٧/٣ .

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٥١/٨-١٥٢ . مجموع الفتاوى : ٣٥٨/٢٨-٣٥٩ . السّياسة الشّرعيّة : ص١٤٩-١٥٠ . الفروسيّة : ص : ١٨٧-١٨٨ . أهميّة الجهاد: ص :١٣٤ .

(٣) انظر : المغني : ٣٤٧/٨ . فقه السّنّة : ١٢/٣ .

الفصل الثّالث

حقيقة الجهاد والحكمة من تشريعه

إنّ الجهاد في الإسلام له حكم عدّة ، وأهداف سامية تبرز من خلالها أهميّة هذه الفريضة العظيمة ، إذ الجهاد في الإسلام ليس قتالاً أهوج همّه أن تسفك فيه الدّماء وتغتصب فيه الحقّوق ، وإنّما هو قتال شرع ليحقّق غايات عظيمة ، وأهدافاً رفيعة . ولمّا غابت تلك الأهداف عن أذهان كثير ممّن ينتسب إلى الإسلام بسبب البعد عن فهم حقيقة الجهاد ، والغاية منه حلّت مكانها أهداف حابطة ، وغايات رخيصة أشعلت لأجلها نيران الحروب . ففئة تقاتل من أجل وطنها ، لا أرض الإسلام ، وأخرى لأجل القوميّة[1] ، لا وحدة المسلمين ، وثالثة لأجل المصالح الاقتصاديّة ، أو لحفظ التّوازن العالمي ، أو التّنافس من أجل السّيطرة والهيمنة ، ونحو ذلك .

ومن يقاتل باسم الجهاد شوّهت في قتاله صورة الجهاد الحقّة ، فظنّ أنّ الجهاد سفك للدّماء ، وإحداث للفوضى في الأرض ، يحمل أحدهم أداة تفجير فيفجّرها في نفسه ومن حوله زاعماً أنّ ذلك جهاد في سبيل الله ، وتتجمّع فئة من الأحداث في بقعة ما ، يدفعهم التّسرّع ، وتستحثّهم العجلة ، وليس لهم هدف إلاّ إزالة سلطان جائر ، أو القضاء عليه . كلّ ذلك باسم الجهاد . ممّا جعل الجهاد في نفوس الكثيرين – حتّى من المسلمين – مسخاً مشوّهاً تصك الآذان عند السّماع به ، وترتجف القلوب عند ذكره . ووجد أعداء الله في ذلك سانحة لهم ، يكيلون من خلالها الشّتائم للإسلام وأهله ، ويبالغون في تشويه صورة الجهاد بإثارة العبارات المقرضة الّتي لا

---

(١)القوميّة : يراد بها : الاجتماع والتّكاتف لتطهير البلاد من المستعمر ، وتحصيل المصالح المشتركة ، واستعادة المجد السّليب . وعناصرها : الوطن والنّسب واللّغة ، ولا يدخل في ذلك الدّين . وهدفها : فصل الدّين عن الدّولة ، وإقصاء أحكام الإسلام عن المجتمع ، وإطلاق الحريات للنّزعات الجنسية ، والمذاهب الهدّامة . وانظر : نقد القوميّة العربية على ضوء الإسلام والواقع . للشّيخ عبد العزيز بن باز . ص : ٨-١٠ . طبعة المكتب الإسلامي .

تميز بين المحقّ والمخطئ ، فيوصف الجميع بالتّطرّف والتّزمّت ، والأصوليّة المنفّرة ، ومصاصي الدّماء .

وتبرز في مقابل ذلك عبارات رنّانة ، همّها القضاء على الجهاد في نفوس أبناء الإسلام ، مثل : الدّعوة إلى السّلام العالمي ، والتّعايش السّلمي ، والمجتمع الدّولي الموحّد ، واحترام حقوق الإنسان ، والأمن الشّامل ، وغير ذلك .

ونحن لا نظنّ في يوم ما أن يرضى أعداء الله عن جهادنا ، ولكن يجب أن نسلك المسلك الحقّ بعيدين عن التّهوّر والعجلة ، مع إدراك حقيقة الجهاد وأهدافه .

فالجهاد شرع لأجل أن يحقّق أهدافاً متعدّدة ، يجني ثمارها أهل الإيمان خاصّة دون سواهم .

من تلك الأهداف :

١- الهدف الأسمى والغاية العظمى أن يعبد الله وحده في الأرض ، ويزول الشّرك ويندثر ، ويغيب الكفر وينطمس ، تتهاوى أركانه وينهدّ بنيانه ، فلا يبقى إلاّ التّوحيد الخالص والعبوديّة لله . وهي الغاية الّتي خلق الخلق من أجلها كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦].

ولذا أمر سبحانه أن يقوم سوق الجهاد حتّى تتحقّق تلك الغاية ، فقال : ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:١٩٣] .وقال: ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال:٣٩] .

يقول ابن جرير (رحمه الله) :

" يقول تعالى ذكره لنبيّه محمّد ﷺ: وقاتلوا المشركين الّذين يقاتلونكم ، حتّى لا تكون فتنة ، يعني : حتّى لا يكون شرك بالله ، وحتّى لا يعبد دونه أحد ، تضمحل

عبادة الأوثان والآلهة والأنداد ، وتكون العبادة والطّاعة لله وحده ، دون غيره من الأصنام والأوثان ".[1]

وفي الحديث قال ﷺ : " أمرت أن أقاتل النّاس حتّى يقولوا لا إله إلاّ الله ... " الحديث [2] . وقال ﷺ: " بعثت بين يدي السّاعة بالسّيف حتّى يعبد الله تعالى وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظلّ رمحي ، وجعل الذّل والصّغار على من خالف أمري" [3].

ولمّا سأل رستم ربعي بن عامر ﷺ عن سبب مجيئهم لقتال الفرس . قال ربعي : " الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدّنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ... الخ ما ذكر .[4]

وبتحقيق هذه الغاية يظهر دين الله على سائر الأديان ، ويسود جميع الأرض ، فلا يبقى بيت وبر ولا مدر[5] إلاّ دخله بعزّ عزيز أو ذلّ ذليل .[6]

---

(١) جامع البيان : ١٩٤/٢ . وانظر : ٢٤٨/٩ . وانظر : معنى الآية في : أحكام القرآن لابن العربي : ١٠٩/١ . التّفسير الكبير : ١٣٣/٥ ، ١٦٣/١٥-١٦٤ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٥٣/٢-٣٥٤ . تفسير القرآن العظيم : ٣٤١/١ . فتح البيان : ٣٨٧/١-٣٨٨ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٨٢ .

(٢) الحديث : سبق تخريجه . انظر :ص : ٥٧٨ .

(٣) سبق تخريجه انظر : ص : ٥٧٨ .

(٤) البداية والنّهاية : ٣٩/٧-٤٠ . وكان ذلك في حرب القادسيّة عندما ابتعثه سعد بن أبي وقاص ﷺ إلى رستم قائد الفرس . وقد سبق ذكره . انظر : ص : ٤١٦ ، ٦٣٦ .

(٥)بيت وبر : أي ما صنع من وبر الإبل ، وهي بيوت أهل البوادي . انظر : النهاية في غريب الحديث : ١٤٤/٥ . المدر : جمع مدرة ، وهو الطين .والمراد ببيت المدر ما صنع منه وهي بيوت أهل القرى والأمصار . وانظر : النهاية في غريب الحديث : ٣٠٩/٤ .

(٦) عن تميم الدّاري ﷺ قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : " ليبلغن هذا الأمر ما بلغ اللّيل والنّهار ، ولا يترك اللّه بيت مدر ولا وبر الاّ أدخله اللّه هذا الدّين بعزّ عزيز أو بذلّ ذليل ، عزّاً يعزّ اللّه به الإسلام وذلاً يذلّ اللّه به الكفر " . وكان تميم الدّاري يقول : قد عرفت ذلك في أهل بيتي ، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشّرف

كما قـــال ســـبحانه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة:٣٣] (١) .

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" فيظهره ظهورين : ظهوراً بالحجّة والبيان والدّلالـــة ، وظـــهوراً بـــالنّصر والظّفر والغلبة والتّأييد . حتّى يظهره على مخالفيه ، ويكون منصوراً " .(٢)

والجهاد لا يكون حقيقة ، والمجاهد لا يكون مجاهداً إلاّ إذا قصد بجهاده إعـلاء كلمة الله دون التفات إلى حظّ دنيوي أو غاية عاجلة . ولذا لمّا سئل رســـول الله ﷺ في حديث أبي موسى ﷺ عن الرّجل يقاتل شجاعة ، ويقـــاتل حميّـــة (٣) ، ويقـــاتل رياء ، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : " من قاتل لتكون كلمة الله هـــي العليا ، فهو في سبيل الله " (٤) .

والعزّ ، ولقد أصاب من كان منهم كافراً الذّل والصّغار والجزية " . مسند أحمـــد: ١٠٣/٤ . و انظـــر : ٤/٦ . سنن البيهقي: ١٨١/٩ . الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: ٩١/١٥ ، ٩٣ . مستدرك الحـــاكم: ٤٧٦/٤ ، ٤٧٧ . معجم الطّبراني الكبير: ٥٨/٢ . ٢٠/٢٥٤ . وهو حديث صحيح . انظر : السّلسلة الصّحيحـــة : ٧/١ . برقم : (٣) . وانظر : تفسير القرآن العظيم : ٥٤٦/٢ .

(١) وانظر : سورة الفتح : الآية : {٢٨} ، وسورة الصّف : الآية : {٩} .

(٢) مدارج السّالكين : ٤٧٠/٣ . الضّوء المنير : ٤٠٦/٥ . وانظر : الجواب الصّحيح :٧٥/١ . تفســـير القـــرآن العظيم :٥٤٥/٢-٥٤٦ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٩٥-٢٩٦ . ذكر فيه كلاماً قيّماً عن ظهور الإســـلام . في ظلال القرآن : ١٦٤٤/٣.

(٣)الحَميَّة: هي الأَنَفة والغَيْرة . النّهاية في غريب الحديث : ٤٤٧/١ .

(٤)صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب التّوحيد : (٧٢/٩٧) . بـــاب ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [الصّافات:١٧١] : (٢٨) . برقم: (٧٤٥٨) . ص : ١٥٦٧ . و نحوه في: كتاب العلـــم : (٣) . باب من سأل وهو قائم عالماً جالساً : (٤٥) . برقم: (١٢٣) . ص : ٤٥ . وفي كتاب الجهاد والسّـــير : (٥٦/٣٢) . باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا : (١٥) . برقـــم: (٢٨١٠) . ص :٥٩٤ . وفي كتـــاب

٢- قتل الكفّار وإذلالهم وتعذيبهم ، وإعزاز المؤمنين ونصرهم .

قال سبحانه : ﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [التوبة:١٤-١٥].

أي قاتلوا أيّها المؤمنون الكفّار لتتحقّق لكم بقتالهم فوائد جمّة ، وأهداف عظمى ، فيعذّبهم الله بأيديكم ، تارة بالقتل وأخرى بالأسر ، وثالثة بأخذ أموالهم ، ويذلّهم بالأسر والقهر ، ويعطيكم الظّفر عليهم والغلبة ، ويبرئ داء صدوركم ، ويذهب وجد قلوبكم .(١)

فرض الخمس : (٥٧/٣٣) . باب من قاتل للمغنم هل ينقص من أجره : (١٠) . برقم: (٣١٢٦) . ص: ٦٥٨ .

صحيح مسلم: بلفظه و بنحوه في: كتاب الإمارة : (٣٣) . باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله : (٤٢) . برقم: (١٩٠٤) . ٣/١٥١٢-١٥١٣ .

وانظر معنى الحديث في : شرح النّووي على مسلم : ٤٩/١٣ . فتح الباري : ١٠٨/٦-١١٠ . نيل الأوطار :٣٣/٨.

وانظر : مجموع الفتاوى : ٣٥٤/٢٨ . السّياسة الشّرعيّة : ص : ١٤٤ . الرّوضة النّديّة : ٤٨١/٢ . فقه السّنّة : ٢١/٣-٢٢.

يقول سيّد قطب (رحمه الله) :

" إنّه القتال لله ، لا لأيّ هدف آخر من الأهداف الّتي عرفتها البشريّة في حروبها الطّويلة ، القتال في سبيل اللّه ، لا في سبيل الأمجاد والاستعلاء في الأرض ، ولا في سبيل المغانم والمكاسب ، ولا في سبيل الأسواق والخامات ، ولا في تسويد طبقة على طبقة ، أو جنس على جنس ، إنّما هو القتال لتلك الأهداف المحدّدة الّتي من أجلها شرع الجهاد في الإسلام ، القتال لإعلاء كلمة اللّه في الأرض ، وإقرار منهجه في الحياة ، وحماية المؤمنين به أن يفتنوا عن دينهم ، أو أن يجرفهم الضّلال والفساد ، وما عدا هذه فهي حرب غير مشروعة في حكم الإسلام ، وليس لمن يخوضها أجر عند اللّه ولا مقام " . في ظلال القرآن : ١٨٧/١ .

(١) انظر : جامع البيان : ٩٠/١٠-٩١ . الكشّاف :١٢٨/٢ " طبعة الاستقامة " . التفسير الكبير : ٢/١٥-٤ . فتح البيان :٢٤٨/٥-٢٤٩ . محاسن التّأويل : ٣٠٨٣/٨-٣٠٨٤ . تفسير المراغي : ٦٨/١٠-٦٩ .

وهو بذلك سبحانه يعزّ دينه وينصر أولياءه ، ويبطل الكفر ويمحق أهله . كما قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الأنفال:٧-٨] (١) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٢٧-١٢٨].

أي ليهلك طائفة منهم ، أو يحزنهم بالهزيمة فيرجعوا منقطعي الأمل من النّصر .(٢)

كلّ ذلك لأنّ الكافر سرطان مدمّر ، وجرثومة فتّاكة ، وعضو فاسد في المجتمع ، وشرّ مستطير ، ومنبع للإفساد والإهلاك ، لأنّه عزل نفسه عن الإيمان الّذي تكمن فيه الحياة الحقّة ، والسّعادة الدّائمة ، والخيريّة المطلقة ، فيجب أن يستأصل أو يقهر ويذلّ إن لم يخضع للإسلام .

وأعداء الله عزّ وجلّ لا تنطفي نار عداوتهم ولا يخمد لهيبها في محاربة الإسلام وأهله بكلّ وسيلة تمكّنهم لذلك ، إذ العداء لدين الله أصيل في نفوسهم ،

---

(١) انظر معناهما في : الجامع لأحكام القرآن : ٣٧٠/٧ . تفسير القرآن العظيم : ٤٥٦/٢ .

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٩٨/٤ . تفسير القرآن العظيم : ٦٠٢/١ . تفسير المراغي : ٦٠/٤ .

مستحكم في قلوبهم ، كشف الله عنه في أكثر من آية .[1] فيجب على أهل الإيمان أن يبذلوا غاية جهدهم في قتال هؤلاء وإذلالهم . لأنّ بقتالهم ينكفّ شرّهم ، وتضعف قوّتهم ، وينهدّ عزمهم ، كما قال سبحانه : ﴿ فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾ [النساء:٨٤] [2] .

٣- الجهاد سبب عظيم في دفع شرّ الأشرار وفساد الفجار ، فبه يزول شرّهم ، وينحدر فسادهم ، ولو تركوا لبغوا في الأرض ، وتغلّبوا على أهلها ، وأحدثوا الشّرور الّتي تهلك الحرث والنّسل .

وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة:٢٥١] [3] .

---

(١) انظر : سورة البقرة : الآيات : ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١٢٠ .وانظر : سورة آل عمران : الآيات : ١١٨-١٢٠ . سورة التّوبة : الآيات : ٨-١٣ . لسيّد قطب (رحمه الله) عند تفسير هذه الآيات من سورة التّوبة كلمة كاشفة لعداوة الكفّار للمؤمنين والطّعن في دينهم . انظر : في ظلال القرآن : ١٦٠٦/٣ .

(٢) وانظر معنى الآية في : جامع البيان : ١٨٥/٥ . التفسير الكبير : ٢٠٤/١٠-٢٠٥ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٩٤/٥ . تفسير القرآن العظيم :٨٠٥/١ . فتح البيان : ١٩٠/٣- محاسن التّأويل : ١٤١٧/٥. تفسير المراغي : ١٠٧/٥ تيسير الكريم الرّحمن : ص :١٥٤.

(٣) انظر : فتح البيان : ٨٢/٢ . محاسن التّأويل : ٦٤٩/٣ . تفسير المراغي :٢٢٥/٢. تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٩٠ . وفي الآيات أقوال أخرى فيما يدفع الله به الشّرور استقصاها الرّازي (رحمه الله) ووجّه كلّ قول ، ثمّ حملها على العموم . انظر : التّفسير الكبير : ١٩٠/٦-١٩٢ . ورجّح القرطبي (رحمه الله) أنّ المراد بالدّفع ما شرعه الله على ألسنة الرّسل من الشّرائع . انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢٦١/٣ ولا يخفى أنّ الآية وردت في سياق الجهاد . ـــ انظر : الآيات قبلها ـــ وإن فهم العموم فإنّ الجهاد أوّل داخل في ذلك .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج:٤٠] .

يقول الإمام القرطبي (رحمه الله) :

" أي لولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء ، لاستولى أهل الشّرك ، وعطّلوا ما بنته أرباب الدّيانات من مواضع العبادات ، ولكنّه دفع بأن أوجب القتال ليتفرّغ أهل الدّين للعبادة ، فالجهاد أمر متقدّم في الأمم ، وبه صلحت الشّرائع واجتمعت المتعبّدات ... أي لولا هذا الدّفع لهدم في زمن موسى الكنائس ، وفي زمن عيسى الصّوامع والبيع ، وفي زمن محمّد عليه السّلام المساجد " .(١)

٤- الابتلاء حكمة تتأتّى من كلّ التّكاليف الشّرعيّة ، وهي في الجهاد تبرز بوضوح وجلاء ، ولذا أشار الله جل جلاله إليها مقرونة بالجهاد في أكثر من موضع .

فقال سبحانه : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٧٠/١٢ . وفي الآية أقوال كسابقتها ، وإن أفادت العموم في كلّ ما يندفع به الفساد والشّر فالجهاد يدخل دخولاً أوّليّاً .

والأشهر في هذه المواضع : أنّ الصّوامع معابد الرّهبان ، والبيع معابد النّصارى ، والصّلوات معابد اليهود ، ويطلق عليها لفظ الكنائس أيضاً ، كما أنّ المساجد للمسلمين .

ولأهل العلم بالتّفسير خلاف مستفيض في ذلك ، والأشهر ما ذكرته . وانظر في بيان ذلك ومعنى الآية : جامع البيان : ١٧٤/١٧-١٧٨ . الكشّاف : ١٢٦/٣ " طبعة الاستقامة " . التّفسير الكبير : ٣٩/٢٣-٤١ . الجامع لأحكام القرآن : ٧١/١٢ . وفيه تفصيل قيّم عن تلك المواضع . تفسير القرآن العظيم :٣٦٢/٣-٣٦٣ . فتح البيان :٥٦/٩-٥٧ . محاسن التّأويل :٤٣٤٦/١٢ . تفسير المراغي : ١١٩/١٧. تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٤٨٩ .

ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ ﴾ [محمد:٤].

أي إنّ الله قادر على إهلاك الكافرين والانتقام منهم دون قتال ، ولكنّه شرع الجهاد ليختبر عباده ويمتحن طاعتهم .[1]

ويترتّب على هذا الاختبار حكم عدّة وفوائد جمّة :

فهو يظهر علم الله ويبرز معلومه في عباده بتحقّق طاعة الطّائعين الّذين جاهدوا في الله لإعلاء كلمته ، كما يبيّن معصية العاصين الّذين نكلوا عن الجهاد ، أو قاتلوا لغاية ما أو هدف ما .

قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ [محمد:٣١] .

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" فيعلمهم علم رؤية ومشاهدة بعد أن كانوا معلومين في غيبه ، وذلك العلم الغيبي لا يترتّب عليه ثواب ولا عقاب ، وإنّما يترتّب الثّواب والعقاب على المعلوم إذا صار مشاهداً واقعاً في الحس "[2] .

---

(١) انظر معنى الآية في : جامع البيان : ٤٣/٢٦ . الكشّاف : ٤٥٤/٣ " الطّبعة التّجاريّة " . التفسير الكبير : ٤٦/٢٨ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٢٩/١٦-٢٣٠ . تفسير القرآن العظيم : ٢٦٦/٤ . فتح البيان : ٥٣/١٣ . محاسن التّأويل : ٥٣٧٧/١٥-٥٣٧٨ . تفسير المراغي : ٥٠/٢٦ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٧٢٩-٧٣٠ .

(٢) زاد المعاد : ٢٢٣/٣ . وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢٥٤/١٦ . تفسير القرآن العظيم : ٢٧٧/٤ . محاسن التّأويل : ٥٣٩٠/١٥ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٧٣٤ .

ونحو الآية السّابقة قوله تعـــالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [التوبة:١٦].

وقولـــه : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [آل عمران:١٤٢].

وفي الآية حكمة أخرى وهي تميّز المؤمنين المخلصين الصّادقين من المنافقين الكاذبين . أي ظننتم أيّها المؤمنون أن تتركوا بغير اختبار بجهاد يعرف به الصّـــادق منكم ، المخلص في دنيه ، المجاهد لإعلاء كلمة الله ، من المنافق الكـــاذب المقـــاتل لأجل الدّنيا ، والمصالح الفانية .(١)

وجاء ذلك صراحة في قوله تعـــالى : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [آل عمران:١٦٦-١٦٧] .

فالمنافقون في الرّخاء والسّعة والأمن يندسّون بين الصّف المؤمن طامعين فـــي نيل مكاسب دنيويّة ، حريصين على إخفاء نفاقهم ، وقد يخفى أمرهـــم علـــى أهـــل الإيمان ، وهم عدوّ ماكر خبيث العداوة ، فيكشفهم الله بالجهاد ، فيبـــان عوارهـــم ، ويفتضح أمرهم ، إذ الجهاد موطن لإزهاق النّفوس والمنافق أحرص ما يكون علـــى نفسه الّتي بين جنبيه .

---

(١) انظر : جامع البيان : ٩٢/١٠ . الكشّاف : ١٩٨/٢ " طبعة الاستقامة " . التّفسير الكبير : ٦/١٥ . فتح البيان : ٢٥٠/٥ . محاسن التّأويل : ٣٠٨٤/٨ . تفسير المراغي : ٧٠/١٠ .

وحكم أخرى بيّنها سبحانه في قوله : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [آل عمران:١٤٠-١٤١].

أي إنّ الله سبحانه من حكمته في الابتلاء بالجهاد أنّه يبرز معلومه إلى الوجود بصدق المؤمنين وإخلاصهم ، ويكرم بعض عباده بالشّهادة في سبيله ، وهي منزلة عالية يختصّ الله بها من يشاء من عباده ، ولا سبيل إلى نيلها إلاّ بواسطة الأسباب المؤديّة إليها كالجهاد في سبيله ، ويمحّص عباده المؤمنين من ذنوبهم فيطهّرهم وينقّيهم ليكونوا أصفياء أتقياء ، ويهلك الكافرين فيمحقهم ، ويقطع دابرهم ، لينقطع شرّهم وفسادهم .(١)

٥- إنقاذ المستضعفين والأسرى من المؤمنين .

وفي ذلك يقول سبحانه : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [النساء:٧٥].

ففي الآية حضّ وحثّ من الله عزّ وجلّ لعباده المؤمنين أن يجاهدوا لإعلاء كلمة الله ، واستنقاذ المؤمنين الضّعفاء من بين أيدي الكفرة الّذين يسومونهم سوء

---

(١) انظر معنى الآيتين في : التّفسير الكبير : ٩/١٧-١٨ . الجامع لأحكام القرآن : ٤/٢١٨-٢٢٠ . تفسير القرآن العظيم : ١/٦١٢ . فتح البيان : ٢/٣٤١-٣٤٢ . محاسن التّأويل : ٤/٩٨٠-٩٨٣ . تفسير المراغي : ٤/٨٠-٨٢ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١١٧-١١٨ . في ظلال القرآن : ١/٤٨١ . وانظر : زاد المعاد : ٣/٢٢١-٢٢٣ . إغاثة اللّهفان : ٢/١٨٩-١٩١.وقد أشار ابن القيّم (رحمه الله) إلى بعض الحكم القيّمة الّتي تتأتّى من غلبة الكفّار للمؤمنين . وهو مبحث حري بالرّجوع إليه .

العذاب ، ويقهرونهم ويأذونهم كي يفتنوهم عن دينهم ، وهم يجأرون إلى الله صباح مساء أن يخلّصهم من أولئك الظّلمة ، ويسخّر لهم من ينقذهم منهم ، ويتولّى أمرهم وينصرهم عليهم .(١)

والجهاد الّذي يستنقذ به المستضعفون ، ويفكّ به الأسرى من أعظم أنواع الجهاد أجراً ، وأكبرها فائدة ، لأنّه من باب دفع الأعداء ، وحكمه الوجوب .(٢)

هذه أهمّ الحِكم والغايات الّتي شرع من أجلها الجهاد في الإسلام ، وكلّها غايات محمودة ، ودوافع سامية ، تتّضح منها حقيقة الجهاد وقيمته . وإن كان هنالك حكم أخرى ولكنّها تدور في فلك ما ذكرت .(٣)

---

(١) انظر : جامع البيان : ١٦٧/٥-١٦٩ . أحكام القرآن لابن العربي : ٤٥٩/١-٤٦٠ . التفسير الكبير : ١٨١/١٠-١٨٣ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٧٩/٥-٢٨٠ . تفسير القرآن العظيم : ٧٩٥/١ . فتح البيان : ١٧٨/٣-١٧٩ . محاسن التّأويل : ١٣٩٥/٥-١٣٩٧ . تفسير المراغي : ٩١/٥-٩٢ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١٥١ .

(٢) انظر : المرجع السّابق : ٣٧١/١ .

(٣) وللوقوف على المزيد من تلك الحِكم فانظر : زاد المعاد : ٢١٨/٣-٢٤١ . أهمّيّة الجهاد : ص : ١٦٠-١٨٥ .

الفصل الرّابع

عوامل الثّبات في الجهاد

وفيه تمهيد ومباحث:

التّمهيد

مشقّة الجهاد وطلب الثّبات فيه

لمّا كان الجهاد موطناً شاقّاً على النّفوس ، تتزلزل فيه الأقدام ، وترتجف فيه القلوب ، وتجبن عنده الأفئدة ، كان الثّبات فيه لأهل الإيمان آكد ما يكون ، وأوجب ما ينبغي ، إذ الثّبات هو روح الجهاد ، وأهم أسباب النّصر والفوز والنّجاح ، وهو وإن كان محموداً في كلّ موطن إلاّ إنّه في موطن القتال أعظم حمداً ، وأكثر نفعاً ، لما يترتّب من عدم وجوده من المثالب والهنّات ، حيث الهزيمة والقتل والأسر وغير ذلك .

فالثّبات في الجهاد قوّة معنويّة يقذفها الله في قلب العبد المؤمن الّذي وطّن نفسه لتلقيها ، وقام بما يجب عليه نحوها ، فتسري تلك القوّة في بقية جسده فتكسب جوارحه طمأنينة وصبراً ، وإقداماً وشجاعة ، فتثبت أقدامه أمام عدوّه ، ويتجلّد له حتّى ينال النّصر والغلبة والظّفر .

فكم من عتلّ[1] قويّ ضعفت قواه وانهار صريعاً في معترك الوغى أمام من يظنّ ألاّ يقف له ولا يكافئه بسبب ثبات الثّاني ورباطة جأشه .

---

(١) العُتُلُّ :هو الشّديد الجافي والفَظُّ الغَلِيظ من النّاس . لسان العرب : ٤٢٣/١١ . و انظر : مختار الصّحاح : ص : ٤١١ . القاموس المحيط : ص : ١٣٣٠ .

وكم من جيش عرمرم[1] مجهّز بالعدد والعتاد أسلم أفراده للرّيح سوقهم بعد أن حلّت بهم الهزيمة والنّكال من فئة قليلة العدد ضعيفة المدد - إلاّ مــن الله - بسـبب ثباتها وقوّة صبرها .

وهكذا يفعل الثّبات عند التحام الجيوش ، واعتراك الخصوم . ولذا أمر الله بـه المؤمنين المجاهدين أمراً صريحاً يستوجب الإلزام فقال تعـالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنفال:٤٥-٤٧].

فالله سبحانه يأمر المؤمنين بالثّبات عند قتال الأعداء ، والصبّر والجلـد عنـد لقائهم ، وأن يذكروه سبحانه في تلك الحال ، لأنّ الذّكر يبعث الطّمأنينة في القلوب ، وينزل عليها برد اليقين ، ويجمع شتاتها ، ويبدّد همومها ، ويذهـب جزعـها ، وأن يطيعوه سبحانه ويطيعوا رسوله ﷺ. فبالطّاعة يسلم القلب ، وتستقيم الجوارح ، وهي أعظم معين على الثّبات . وينهاهم عن التّنازع والاختلاف ، لأنّ الاختلاف يشـتّت وحدة القلوب ويضعفها، فتضعف لضعفها الحواس ، فيؤدّي ذلك إلى الخور والجبـن الّذي يعقبه الفشل وانحلال العزائم ، وزوال القوّة والدّولة ، وفي ذلك دعـوة إلـى الائتلاف الّذي يقويّ القلوب ، ويبثّ في النّفوس الطّمأنينة ، فتتّحد وترتبط ، وتكلؤها عناية الله ورعايته وتأييده ، فتقوى على الصّبر والثّبات .

كما نهاهم عن التّشبّه بأعداء الله ، الّذين فارق الإخلاص قلوبهم ، وحلّ محلـه الرّياء ، فخرجوا للقتال مفاخرين مستكبرين أشرين ، طالبين للمدح والثّناء ، صادّين

---

(١) جَيْشٌ عَرَمْرَمٌ : كثـير . وقـيل: هـو الكثـير مـن كـلّ شـيء . لسـان العـرب : ٣٩٧/١٢ .
وانظر : القاموس المحيط : ص : ١٤٦٧ .

عن سبيل الله ، وهذه أمراض مفسدة للقلوب ، جالبة للوهن والضّعف ، مؤدّية إلـــى الفشل والهزيمة .[1]

كما أخبر سبحانه أنّ دخول الجنّة يحصل لمن علم الله صدق جهاده في سبيله ، وصبره وثباته على مقاومة الأعداء ، فقال تعـالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [آل عمران:١٤٢] [2] .

والآية بها دعوة إلى الثّبات .

وفي حديث عبد الله بن أبي أوفى ﷺ : أنّ رسول الله ﷺ كان في بعض أيّامـه الّتي لقي فيها العدوّ ، ينتظر حتّى إذا مالت الشّمس قام فيهم فقال : " يا أيّها النّاس لا تتمنّوا لقاء العدوّ ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلمـوا أنّ الجنّـة تحت ظلال السّيوف " .[3] .

---

(١) انظر في معنى الآيات : جامع البيان : ١٠/١٤-١٨ . أحكام القرآن لابن العربي : ٢/٨٥٥-٨٥٩ . التّفسـير الكبير : ١٥/١٧١-١٧٣ . الجامع لأحكام القرآن : ٨/٢٣-٢٥ . تفسير القرآن العظيم : ٢/٤٩٥-٤٩٧ . فتـح البيـان : ٥/١٨٧-١٩٠ . محاسـن التّـأويل : ٨/٣٠١٠-٣٠١٣ . تفسـير المراغـي : ١٠/٩-١٣ . تيسـير الكـريم الرّحمـن : ص : ٢٨٣-٢٨٤ . أضـواء البيـان :٢/٣٧٠-٣٧١ في ظـلال القـرآن : ٣/١٥٢٥-١٥٢٨ . وانظر : الإكليل : ص : ١١٥ .

(٢) انظر : جامع البيان : ٤/١٠٨ . التّفسير الكبير : ٩/١٩ . الجامع لأحكام القرآن : ٤/٢٢٠ . تفسـير القـرآن العظيم : ١/٦١٢ . فتح البيـان : ٢/٣٤٢-٣٤٣ . تفسـير المراغـي : ٤/٨٤ . وانظـر : الضّـوء المنـير : ٢/١٣٦-١٣٧ . إغاثة اللّهفان : ٢/١٩١ .

(٣) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب الجهاد والسّير : (٥٦/٣٢) . باب كان النّـبي ﷺ إذا لم يقـاتل أوّل النّهار أخّر القتال حتّى تزول الشّمس : (١١٢/١١١) . برقم: (٢٩٦٦) . ص : ٦٢٤ . و نحـوه في: بـاب لا تتمنّوا لقاء العدوّ : (١٥٦/١٥٥) . برقم: (٣٠٢٥) . ص : ٦٣٦-٦٣٧ .
صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الجهاد والسّير : (٣٢) . باب كراهة تمنّي لقاء العدوّ ، والأمـر بالصّـبر عنـد اللّقاء : (٦) . برقم: (١٧٤٢) . ٣/١٣٦٢ .

قال الإمام النّووي (رحمه الله) :

" وإذا لقيتموه فاصبروا " فهذا حثّ على الصّبر في القتال وهو آكد أركانه ... وأمّا قوله ﷺ : " واعلموا أنّ الجنّة تحت ظلال السّيوف " . فمعناه ثواب الله والسّبب الموصل إلى الجنّة عند الضّرب بالسّيوف في سبيل الله ، ومشي المجاهدين في سبيل الله ، فاحضروا فيه بصدق واثبتوا " .(١)

وقد أمر سبحانه المؤمنين بالثّبات والصّبر في مقابلة صبر الكافرين وثباتهم عند القتال ، وأن يغالبوهم في ذلك لأنّهم يرجون من الله ما لا يرجوه أهل الكفر . فقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران:٢٠٠] (٢) .

وفي الآية تهييج للمؤمنين على الثّبات .

بل أمرهم أن يثبت الواحد منهم أمام عشرة من الكفّار ، لأنّ الكفّار لا يفقهون الحكمة من القتال كما يفقه ذلك أهل الإيمان ، ثمّ خفّف ذلك الحكم رحمة بالمؤمنين ، فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأنفال:٦٥-٦٦].

أي حثّهم وحضّهم على قتال أعداء الله بكلّ ما يقوّي عزائمهم ، وينشّط هممهم ، وبشّرهم بما يثبّت قلوبهم ويسكّن خواطرهم بأنّهم إن صبروا وثبتوا في

---

(١) شرح النّووي على مسلم : ٤٦/١٢ .

(٢) وانظر : أحكام القرآن لابن العربي : ٣٠٥/١ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٢٢/٤ . تفسير القرآن العظيم : ٦٦٧/١ .

القتال فسوف يغلبون ويقهرون عشرة أمثالهم من الكفّار . لأنّ الكفّار يقاتلون على غير بصيرة ولا فقه بحِكم القتال ، فهم لا يقاتلون امتثالاً لأمر الله ، ولا رجاء لثوابه ، ولا إعلاء لكلمته ، وإظهاراً لدينه ، وإنّما تدفعهم الحميّة الجاهليّة ، وإثارة البغي والعدوان ، وهم مع ذلك يخشون القتل وذهاب دنياهم ، ثمّ خفّف الله ذلك الحكم وهو ثبات الواحد أمام العشرة حكمة منه تعالى ورحمة بعباده ، فأمر بثبات الواحد أمام الاثنين من الكفّار . وهو مع ذلك سبحانه يثبّت عباده ويقوّيهم ويؤيّدهم ويعينهم على عدوّهم .[1]

قال ابن عبّاس (رضي الله عنهما) :

" فلمّا خفّف الله عنهم من العدّة نقص من الصبّر بقدر ما خفّف عنهم " .[2]

كما نهاهم سبحانه عن الفرار عند ملاقاة الأعداء وحذّرهم من مغبته ، وفي ذلك دعوة إلى الثّبات فقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأنفال:١٥-١٦].

---

(١) انظر : جامع البيان : ١٠/٣٨-٤٢ . فتح البيان : ٥/٢١٠-٢١٢ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٨٧ ، وقد ذكر الإمام الطّبري (رحمه الله) علّة التّخفيف فيما رواه عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) أنّه قال : " إنّما أمر الرّجل أن يصبر نفسه لعشرة ، والعشرة لمئة ، إذ المسلمون قليل ، فلمّا كثر المسلمون خفّف اللّه عنهم ، فأمر الرّجل أن يصبر لرجلين ، والعشرة لعشرين ، والمئة لمئتين " . جامع البيان : ١٠/٤٠ .

(٢) هذا جزء من كلامه ﷺ أورده البخاري في صحيحه بلفظه في : كتاب التّفسير : (٦٥/٣٩) . باب ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ [الأنفال:٦٦] : (٧/٨) . برقم: (٤٦٥٣) . ص : ٩٧٨-٩٧٩ .

فقد توعّد الله على الفرار من الزّحف بالنّار ، فلا ينبغي للمؤمنين إذا تدانوا من أعدائهم وتقاربت صفوفهم أن يولّوهم ظهورهم وأقفيتهم منهزمين ، بل عليهم الثّبات والصّبر .

قال الشّيخ السّعدي (رحمه الله) :

" ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ بل اثبتوا لقتالهم ، واصبروا على جلادهم ، فإنّ في ذلك نصرة لدين الله ، وقوّة لقلوب المؤمنين ، وإرهاباً للكافرين " [1]

ولا يستثنى من هذا الوعيد إلاّ من انحرف إلى موضع يكون القتال فيه أمكن ، أو يلجأ إلى فئة يعاونهم على القتال .

يقول ابن كثير (رحمه الله) :

" ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ ﴾ أي يفرّ بين يدي قرنه مكيدة ليريه أنّه قد خاف منه فيتبعه ثمّ يكر عليه فيقتله فلا بأس عليه في ذلك . نصّ عليه سعيد بن جبير والسّدّي. وقال الضّحّاك : أن يتقدّم عن أصحابه غرّة من العدوّ فيصيبها. ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ أي فرّ من ها هنا إلى فئة أخرى من المسلمين يعاونهم ويعاونونه فيجوز له ذلك ، حتّى لو كان في سرية ففرّ إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم دخل في هذه الرّخصة " [2] .

---

(١) تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٧٩ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٤٦٣/٢ . وانظر : محاسن التّأويل ٢٩٦٣/٨ . تفسير المراغي : ١٧٩/٩ تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٧٩ . الإكليل : ص : ١١٣ .

قيل: إنّ تحريم الفرار خاصّ بالصّحابة . وقيل : خاصّ بالأنصار دون المهاجرين . وقيل : خاصّ بأهل بدر . والصّحيح أنّه باقٍ إلى يوم القيامة ، وعلى ذلك سائر العلماء .

انظر تفصيل ذلك في : الأحكام لابن العربي : ٨٣٢/٢-٨٣٣ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٨٠/٧-٣٨٢ تفسير القرآن العظيم : ٤٦٥/٢ وقد ذكر العلماء شرطاً ثالثاً في جواز الفرار وهو أن يزيد الكفّار على ضعف المسلمين ،

وقد عدّ ﷺ الفرار من الزّحف من الكبائر . فقال في حديث أبي هريـــرة ﷺ :
" اجتنبوا السّبع الموبقات" [١] ، قالوا يا رسول الله وما هنّ ؟ قال : " الشّرك بـــالله ،
والسّحر ، وقتل النّفس الّتي حرّم الله إلاّ بالحقّ ، وأكل الرّبا ، وأكل مــــال اليتيـــم ،
والتولّي يوم الزّحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات " [٢] .

وفي الأثر : " الفرار من الزّحف من الكبائر " [٣] .

وكونه من الكبائر أدلّ شيء على تحريمه .[٤]

أخذاً من الآيات السّابقة (٦٥-٦٦ من سورة الأنفال) كما نصّ على ذلك السّيوطي . انظر الإكليـــــل : ص : ١١٥ .

وفي المسألة تفصيل وخلاف عريض . انظر : المغني : ٨/٤٨٤-٤٨٦ . فقه السّنّة : ٣/٤٠-٤١ .

(١) المُوبِقات : الذّنُوب المُهْلِكات . النّهاية في غريب الحديث: ٥/١٤٦ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الوصايا : (٣١/٥٥) . باب قول اللّــه تعــالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النّساء:١٠] : (٢٣) . برقم: (٢٧٦٦) . ص : ٥٨٤ . وفي كتاب الحدود (المحاربين) : (٨٦/٦١) . باب رمي المحصنـــــات : (٣١/٤٤) . برقم: (٦٨٥٧) . ص : ١٤٤٨ .

صحيح مسلم: بلفظه ــ مع تقديم وتأخير ــ وقال : " قيل : يارسول اللّه " . في كتاب الإيمـــان : (١) . بـــاب بيان الكبائر وأكبرها : (٣٨) . برقم: (٨٩) . ١/٩٢ .

(٣) مصنّف ابن أبي شيبة موقوفاً على علي بن أبي طالب وابن عمر (رضـــي الله عنـــهما) . ٦/ ٥٤١-٥٤٢ . قـــال الألباني (رحمه الله) : " صحيح " . إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السّبيل . لمحمّد ناصر الدّين الألباني . طبعـة المكتب الإسلامي . بيروت . الطّبعة الأولى : ١٣٩٩هـــ ـــ ١٩٧٩م : ٥/٢٤-٢٥ . قال ابن عبّاس (رضـي الله عنهما) : " فإن لقي رجل رجلين ففرّ ، أو رجلاً ففرّ فهي كبيرة ، وإن لقي ثلاثة ففرّ منهم فلا بأس " . مصنّـــف عبد الرّزاق : في باب الفرار من الزّحف . برقم: (٩٥٢٥) . ٥/ ٢٥٢ .

(٤) وانظر : نيل الأوطار : ٨/٧٩. الرّوضة النّديّة : ٢/٤٨٩ .

وكان ﷺ يبايع أصحابه في الحرب على ألاّ يفرّوا.[١]

وفي ذلك حديث جابر ﷺ قال : " لم نبايع رسول الله ﷺ على الموت[٢] . إنّما بايعناه على أن لا نفر " [٣] .

وعن نافع (رحمه الله) : " بايعهم على الصّبر " [٤]

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) :

" أي على الثّبات وعدم الفرار سواء أفضى بهم ذلك إلى الموت أم لا " [٥] .

والفرار وعدم الثّبات لا يزيد في العمر ، ولا يباعد في الأجل بل يضرّ صاحبه ولا ينفعه. وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الأحزاب:١٦].

فالفرار من القتل كالفرار من الجهاد ، والفرار منه لا ينفع أبداً ، فمن اعتقد أنّه ينفعه فقد كذب الله في خبره ، إذ الفار يأتيه ما قضي له من المضرّة كما يأتي الثّابت

---

(١) زاد المعاد : ٩٥/٣ .

(٢) وردت المبايعة على الموت في الصّحيح من حديث سلمة بن الأكوع وعبد الله بن زيد (رضي الله عنهما) .
انظر : صحيح البخاري : حديث رقم : (٢٩٥٩) (٢٩٦٠) . ص : ٦٢٣-٦٢٤. صحيح مسلم : ١٤٨٦/٣ .
وقد وفّق الإمام النّووي والحافظ ابن حجر (رحمهما الله) بكلام نفيس بين الرّوايات . انظر : شرح النّووي على مسلم : ٣/١٣ . فتح الباري : ٢٢٠/٦ .

(٣) صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإمارة : (٣٣) . باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال : (١٨) . برقم : (١٨٥٦) . ١٤٨٣/٣ .

(٤) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الجهاد والسّير : (٣٢/٥٦) . باب البيعة في الحرب ألاّيفرّوا ، وقال بعضهم : على الموت : (١٠٩/١١٠) . برقم: (٢٩٥٨) . ص : ٦٢٣ .

(٥) فتح الباري : ٢٢٠/٦ .

ما قضي له من المسرّة .[1]

كما نهى سبحانه عباده المجاهدين عن الوهن والحزن ، والوهن هو الضعف يكون في القلب فيفقد قوّته وصبره وثباته ، ويكون في الجسد فيفقده جلده وتحمّله وقوّته . والحزن يكون في القلب أيضاً يسبب له انكساراً تضعف معه عزيمته وانشراحه . والنّهي عنهما فيه دعوة إلى الثّبات .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٩] .

أي لم الوهن والحزن وأنتم الأعلون في الحال والمكانة والعاقبة .[2]

وقال سبحانه: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾[محمّد:٣٥] .

أي لا تضعفوا عن قتال عدوّكم فيستولي عليكم الخوف ، بل اصبروا واثبتوا ، ووطّنوا أنفسكم على القتال والجلاد ، طلباً لمرضاة ربّكم ، ونصحاً للإسلام ، وإغضاباً للشّيطان ، ولا تدعوا إلى المسالمة والمهادنة ووضع القتال بينكم وبين الكفّار ، والحال أنّكم أنتم الأعلون الغالبون ، وقد توفّرت لكم أسباب النّصر . والإنسان لا يهن إلاّ إذا كان أذلّ من غيره ، وأضعف منه عدداً وعُدداً وقوّة ، ومع ذلك الله معكم بعونه ونصره وتأييده ، وذلك موجب لقوّة قلوبكم ، وإقدامكم على عدوّكم ، وسوف لا ينقصكم من أجور أعمالكم شيئاً ، بل سيوفّيها لكم ويزيدكم من

---

(١) انظر مجموع الفتاوى : ٢٨/٤٥٣-٤٥٤ . وانظر : الفروسيّة : ص : ٤٩١ .

(٢) وانظر : التّفسير الكبير : ٩/١٣ . محاسن التّأويل : ٤/٩٧٩ . تفسير المراغي : ٤/٧٨-٧٩ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١١٧ . في ظلال القرآن : ١/٤٨٠ .

فضله .[1] وهذه كلّها أمور تدعو إلى الثّبات .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [النساء:١٠٤].

أي لا تضعفوا في طلب عدوّكم بل جدّوا في قتالهم بصبر وثبات ، واحذروا أن تضعف قلوبكم فتضعف لضعفها أبدانكم فتعجزوا عن مقاومة عدوّكم ، بل كونوا أقوياء أشدّاء .

ثمّ ذكر أمرين يدعوان إلى تقوية القلوب وثباتها :

الأوّل : أنّ ما يصيبكم من الجراح والآلام والتّعب يصيب أعداءكم ، فهم بشر مثلكم .

الثّاني : إنّكم ترجون من ثواب الله ، وعظيم جزائه ، والنّجاة من عقابه ما لا يرجوه أولئك . فهذه الدّوافع توجب لكم صدق العزائم ، وقوّة القلوب ، والشّجاعة التّامّة ، والصّبر والثّبات لأنّكم أولى بكلّ ذلك منهم .[2]

وهنالك عوامل عدّة تعين على الثّبات في الجهاد أتناول بعضاً منها في المباحث الآتية :

---

(١) تيسير الكريم الرّحمن :ص : ٧٣٤ . بتصرّف . وانظر : جامع البيان : ٦٣/٢٦-٦٤ . التّفسير الكبير : ٧٢/٢٨-٧٣ . تفسير القرآن العظيم : ٢٧٨/٤. أضواء البيان : ٥٩٦/٧-٥٩٩ .

(٢) انظر معنى الآية في : جامع البيان : ٢٦٢/٥-٢٦٤ . التّفسير الكبير : ٣١/١١ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٧٤/٥ . تفسير القرآن العظيم : ٨٣٥/١ . فتح البيان : ٢٢٩/٣ . محاسن التّأويل : ١٥٢٩/٥ . تفسير المراغي : ١٤٤/٥-١٤٦ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١٦٢-١٦٣ .

المبحث الأوّل

الأمر بالجهاد والتّحذير من تركه

لقد أمر الله المؤمنين بالجهاد في أكثر من آية ، ودعاهم إلى ذلك وحثّهم عليه ، ليقوموا بواجب تلك الطّاعة العظيمة خير قيام ، فقال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [النساء:٧٦] .

أي إنّ المؤمنين الّذين صدقوا الله ورسوله وأيقنوا بوعده هم الّذين يقاتلون في طاعته ونصرة دينه ، بينما يقاتل أهل الكفر في سبيل الشّيطان وطاعته ، وفي هذا تقوية لعزائم أهل الإيمان ، وتشجيع لهم . ثمّ كشف لهم عن حقيقة مهمّة وهي أنّ أهل الكفر أهل وهن وضعف لأنّهم حزب الشّيطان وأنصاره ، وهو ضعيف الكيد واهي المكر ، فلا تهابوا قتالهم واثبتوا لهم ، واصبروا لجلادهم فإنّهم لا حول لهم ولا قوّة .[١]

يقول الشّيخ السّعدي (رحمه الله) في بيانه للآية :

" إنّ الّذي يقاتل في سبيل الله معتمداً على ركن وثيق وهو الحقّ ، والتّوكل على الله ، فصاحب القوّة والرّكن يطلب منه من الصّبر والثّبات ، والنّشاط ما لا يطلب ممّن يقاتل عن الباطل ، الّذي لاحقيقة له ، ولا عاقبة حميدة " [٢] .

كما أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يحضّ المؤمنين ويحثّهم ويدفعهم إلى الجهاد .

فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ ﴾ [الأنفال:٦٥] .

---

(١) انظر : جامع البيان : ٥/١٦٩-١٧٠ .

(٢) تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١٥٢ .

ودعاهم إلى أن يستفرغوا الجهد ويبالغوا في قتال أعدائه .

فقال : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ ﴾ [الحج:٧٨].

أي ابذلوا غاية وسعكم وما تطيقون في قتال الكافرين ، لأنّ الله اختاركم لنصرة دينه ، واصطفاكم لقتال أعدائه .[1]

وفي الحديث : " اغزوا باسم الله ، في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله .. " الحديث[2] .

والأمر بالجهاد يتضمّن الأمر بالثّبات فيه ، لأنّ المجاهد حقّاً ذلك الّذي ثبت لقرنه استجابة لأمر الله وأمر رسوله ﷺ للقيام بواجب هذه الطّاعة .

كما حذّر سبحانه من ترك الجهاد مبيّناً ما يترتّب على ذلك التّرك من عواقب وخيمة ، وآثار سيّئة ، من ذلك :

أ – إنّ تركه يجلب العقاب ، ويؤدّي إلى العذاب :

قال سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ

---

(١) انظر : جامع البيان : ٢٠٥/١٧ . وفي معنى الآية : أقوال أخرى :

رجّح الرّازي والسّعدي رحمهما الله : أنّ المراد بذلك كلّ التّكاليف وليس القتال خاصة . انظر : التّفسير الكبير : ٧٢/٢٣ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٤٩٦ .

وقال ابن جرير (رحمه الله) : " والصّواب من القول في ذلك ، قول من قال : عُني به الجهاد في سبيل الله لأنّ المعروف من الجهاد ذلك ، وهو الأغلب على قول القائل : جاهدت في الله " جامع البيان : ٢٠٥/١٧ وانظر : تفسير القرآن العظيم : ٣٧٨/٣ .

وذهب مقاتل والكلبي إلى أنّ الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾ [التغابن:١٦] . وردّ ذلك بأنّ التّكليف مشروط بالقدرة فلا حاجة إلى المصير إلى النّسخ . انظر : فتح البيان : ٨٨/٩ .

(٢) الحديث سبق تخريجه : انظر : ص : ٦٥٩ .

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [التوبة:٣٨-٣٩] .

خاطب الله في الآية عباده المؤمنين حاثّاً لهم على الجهاد والخروج في سبيله لقتال أعدائه ، محذّراً لهم من الميل إلى الدّنيا ، ونعيمها الزّائل ، وزهرتها الفانية ومتاعها القليل . في مقابل الآخرة ، ونعيمها العظيم ، وثوابها الجزيل . وفي ذلك تأكيد على الجهاد وتحذير من تركه ، ثمّ توعّد سبحانه من تركوا الجهاد بالعذاب الشّديد في الدّنيا والآخرة . وهو القادر سبحانه على أن يبدلهم بغيرهم ممّن يقوم بأمر الجهاد ، ولا يضرّه ذلك شيئاً ، فهو الغني عن عباده ، القادر على الانتصار من أعدائه دون أحد .(١)

ب – إنّ تركه سبب للهلاك في الدّنيا والآخرة :

وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [البقرة:١٩٥].

وقد فسّر الصّحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري ﷺ الإلقاء باليد إلى التّهلكة هو ترك الجهاد والإقامة في المال والأهل .(٢)

---

(١) انظر في معنى الآيتين : جامع البيان : ١٣٣/١٠-١٣٥ . أحكام القرآن لابن العربي : ٩٣٦/٢-٩٣٧ . التفسير الكبير : ٥٨/١٦-٦٢ . الجامع لأحكام القرآن : ١٤٠/٨-١٤٢ . تفسير القرآن العظيم : ٥٥٨/٢ . فتح البيان : ٣٠١/٥-٣٠٣ محاسن التّأويل : ٣١٥٤/٨-٣١٥٦ . تفسير المراغي : ١١٩/١٠-١٢١ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٩٧ .

(٢) روى أبو داود بسنده إلى أسلم أبي عمران قال : " غزونا من المدينة ، نريد القسطنطينية ، وعلى الجماعة عبد الرّحمن بن خالد بن الوليد ، والرّوم مُلصِقُو ظهورهم بحائط المدينة ، فحمل رجل على العدوّ ، فقال النّاس : مَهْ ، مَهْ ، لا إله إلاّ الله ، يلقي بيديه إلى التّهلكة .

ج- إنّ تركه علامة للنّفاق :

وفي ذلك يقول سبحانه وتعـالى : ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [التوبة:٨١-٨٢] .

أي فرح المنافقون بقعودهم وعدم خروجهم مع رسول الله ﷺ والمؤمنين إلى الجهاد في سبيل الله تعالى ، وكرهوا أن يجاهدوا أعداء الله بأنفسهم وأموالهم ميلاً للدّعة والرّاحة ، وإيثاراً لها على المشقّة والتّعب ، وشحّاً بالمال والنّفس أن يقدّموهما في طاعة الله ، لعدم وجود باعث الإيمان في قلوبهم ، واليقين في نفوسهم ، ووجد

فقال أبو أيوب : إنّما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار ، لّما نصر اللّه نبيّه ، وأظهر الإسلام ، قلنا هَلُمَّ نقيم في أموالنا ونصلحها ، فأنزل اللّه تعالى : ﴿ وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة:١٩٥] . فالإلقاء بالأيدي إلى التّهلكة : أن نقيم في أموالنا ونصلحها ، وندع الجهاد ، قال أبو عمران : فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل اللّه حتّى دفن بالقسطنطينية " .

سنن أبي داود: كتاب الجهاد : (١٥) . باب في قول اللّه تعالى : ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ : (٢٢) . برقم: (٢٥١٢) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٢٨٥ . و انظر : سنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن : (٤٣) . باب ومن سورة البقرة : (٢) برقم: (٢٩٧٢) . ص : ٤٧٥ . سنن البيهقي: ٩/٤٥ . الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: برقم: (٤٧١١) . ١١/٩ . مستدرك الحاكم: ٢/ ٩٤، ٣٠٢ .

وفي الآية : أقوال أخرى : انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢/٣٦١-٣٦٣ . تفسير القرآن العظيم : ١/٣٤٣-٣٤٤ . فتح البيان ١/٣٩١-٣٩٢ . والأولى حمل لفظ التّهلكة على عمومه ، فكلّ ما يصدق عليه أنّه تهلكه في الدّين أو الدّنيا داخل فيه . انظر : فتح البيان : ١/٣٩٢ وانظر : تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٧٢ . ويدخل ترك الجهاد في ذلك دخولاً أوّليّاً لأنه مّما ذكر في سبب نزول الآية . انظر : لباب النّقول في أسباب النّزول لجلال الدّين السّيوطي . اعتنى به عبد المجيد طعمه الحلبي : الطّبعة الأولى : ١٤١٨-١٩٩٧م . دار المعرفة . بيروت ص : ٣٧-٣٨ .

مع ذلك صارف النّفاق الّذي غطّى قلوبهم . ولم يقفوا عند هذا الحدّ بل دعوا غيرهم إلى النّكول عن الجهاد حتّى يفتّوا في عضد المؤمنين ، ويثبّطوا عزائمهم ، فقالوا لإخوانهم لا تنفروا في الحرّ فإنّه لا يستطاع لشدّته ، وكان ذلك في غزوة تبوك(١) الّتي كانت في شدّة الحرّ والقحط ، وهم بهذا القول قد جمعوا بين ثلاث سوآت : فرحوا بالقعود ، وكرهوا الجهاد ، ونهوا غيرهم عنه ، فأمر الله رسوله ﷺ أن يخبرهم بأنّ هنالك حرّاً لا يقارن بالحرّ الّذي فررتم منه ، إنّه نار حامية لا يقدّر قدرها ، ولا يطاق حرّها ، فاضحكوا أيّها المنافقون قليلاً ، وابكوا كثيراً على ما فاتكم بهذا التّخلّف من أجر ، وما حلّ محله من وزر ، وبما فررتم من مشقّة زائلة إلى مشقّة لا تحول ولا تزول ، وسوف يكون ضحككم وفرحكم في هذه الدّنيا قليلاً بالنّسبة لذلك البكاء والحزن الّذي سوف يلازمكم في نار لا تفنى ولا تبيد . (٢)

وقال سبحانه : ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [التوبة:٨٦-٨٧].

ففي الآيات ذمّ وإنكار على المنافقين المتخلّفين عن الجهاد ، النّاكلين عنه ، فحينما سمعوا سورة تأمرهم بالإيمان بالله والجهاد في سبيله ، أستأذن أولو الغنى والسّعة والقدرة من رسول الله ﷺ أن يتركهم مع المتخلّفين عن الجهاد بسبب

---

(١) توجّه النّبي ﷺ في سنة تسع للهجرة إلى تبوك من أرض الشّام — وهي آخر غزواته — لغزو من انتهى إليه أنّه قد تجمع من الرّوم ولخم وجذام ، فوجدهم قد تفرّقوا فلم يلق كيداً . انظر خبرها في : السّير النّبويّة لابن هشام : ٣٧٩/٤ . فما بعدها . تاريخ الطّبري : ١٨١/٢ . فما بعدها . طبعة دار الكتب العلميّة . البداية والنّهاية : ٢/٥ فما بعدها .

(٢) انظر في معنى الآيتين : جامع البيان : ٢٠٠/١٠-٢٠١ . تفسير القرآن العظيم : ٥٨٥/٢-٥٨٧ . فتح البيان : ٣٥٩/٥-٣٦٠ . محاسن التّأويل : ٣٢١٧/٨-٣٢٢١ . تفسير المراغي : ١٧٣/١٠-١٧٤ تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٣٠٥ .

أعذارهم . فقد رضي هؤلاء المنافقون لأنفسهم أن يكونوا مع النّساء اللّواتي ليس عليهنّ فرض الجهاد [1] ، فهنّ قعود في بيوتهنّ ، والعلّة في ذلك أنّ الله ختم على قلوبهم فلا تقبل حقّاً ولا تجتنب باطلاً ، لأنّ النّفاق قد أخذ بتلابيبها فأعماها وأصمّها

---

(١) لقد ذكر العلماء أنّ للجهاد سبعة شروط وهي : الإسلام ، والبلوغ ، والعقل ، والحرّيّة ، والذّكوريّة ، والسّلامة من الضّرر ، ووجود النّفقة . والذّكوريّة تشترط لما روت عائشة (رضي الله عنها) قالت : قلت يا رسول اللّه : على النّساء جهاد ؟ قال : " نعم عليهنّ جهاد لا قتال فيه . الحجّ والعمرة ". سنن ابن ماجه: كتاب المناسك : (٢٥) . باب الحجّ جهاد النّساء : (٨) . برقم: (٢٩٠١) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٣١٦ . مسند أحمد: ١٦٥/٦ . وانظر : صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسّير : (٣٢/٥٦) . باب جهاد النّساء : (٦١/٦٢) . برقم: (٢٨٧٥) . ص : ٦٠٦. فالمرأة ليست من أهل القتال لضعفها وخورها ، ولذلك لا يسهم لها . انظر : المغني : ٣٤٧/٨ . ولذا نهى النّبي ﷺ عن قتل النّساء في الحروب . فعن رباح بن الرّبيع قال : كنّا مع رسول اللّه ﷺ في غزوة ، فرأى النّاس مجتمعين على شيء ، فبعث رجلاً فقال " انظر علام اجتمع هؤلاء ؟ " فجاء فقال : على امرأة قتيل فقال : " ما كانت هذه لتقاتل " قال : وعلى المقدّمة خالد بن الوليد ، فبعث رجلاً فقال : قل لخالد : لا يقتلنّ امرأة ولا عسيفاً " ــ العسيف الأجير ــ. سنن أبي داود: كتاب الجهاد : (١٥) . باب في قتل النّساء : (١١١) . برقم: (٢٦٦٩) . قال الألباني (رحمه الله): " حسن صحيح " . ص : ٣٠١ . سنن البيهقي: باب المرأة تقاتل فتقتل . ٨٢/٩ . و انظر : صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسّير : (٣٢/٥٦) . باب قتل الصّبيان في الحرب : (١٤٦/١٤٧) . برقم: (٣٠١٤) . ص : ٦٣٤ . و باب قتل النّساء في الحرب : (١٤٧/١٤٨) . برقم: (٣٠١٥) . ص : ٦٣٤ . و انظر : إرواء الغليل : ٣٥/٥ .

ولقد جاء في تفسير : " الخوالف " في الآية السّابقة عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) وجماعة من التّابعين أنّ المراد بذلك النّساء لأنّهنّ يتخلّفن ، ويقعدن في بيوتهنّ ، ولا يخرجن إلى الجهاد . انظر : جامع البيان : ٢٠٨/١٠ .

يقول الشّيخ صالح اللّحيدان: "ولقد كان الإسلام حريصاً على أن لا تدخل المرأة الجهاد ، وكان الرّسول يرى ونعم ما يرى أنّ هذا ليس فيه من الفائدة أي نفع بجانب تخلّيها عن الجهاد ، فلزومها بيتها ، وسهرها على حقّ زوجها ، وتربية أولادها هو نوع من الجهاد " . الجهاد في الإسلام :ص:٦٠.

ولكن إذا دعت الضّرورة ، وتطّلب الأمر خروج المرأة للجهاد من أجل مداواة الجرحى ، وسقاية الماء ، وخدمة المجاهدين فلا مانع من ذلك ، مع توفّر الشّروط الّتي نصّ عليها الشّارع ، من توفّر المحرميّة والسّتر وغير ذلك .

فعن أنس بن مالك ﷺ قال : " كان رسول اللّه ﷺ يغزو بأمّ سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا ، فيسقين الماء ويداوين الجرحى " . صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسّير : (٣٢) . باب غزوة النّساء مع الرّجال : (٤٧) . برقم: (١٨١٠) . ١٤٤٣/٣. و انظر : صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسّير : (٣٢/٥٦) . باب مداواة

فلا تعي خيراً ولا تفقه مصلحة .[1]

والآيات المبيّنة لتخلّف المنافقين عن الجهاد ونكولهم عنه كثيرة ، حتّى أصبح ترك الجهاد والتّخلّف عنه سمة بارزة يعرف بها الصّحابة ﷺ أهل النّفاق . كما قال كعب بن مالك ﷺ في حديث توبته : " فطفقت إذا خرجت في النّاس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني إنّي لا أرى لي أسوة إلاّ رجلاً مغموصاً عليه في النّفاق ، أو رجلاً ممّن عذّر الله تعالى من الضّعفاء " .[2]

النّساء الجرحى في الغزو : (٦٧/٦٦) . برقم: (٢٨٨٢) . و باب ردّ النّساء الجرحى والقتلى : (٦٨/٦٧) . برقم: (٢٨٨٣) . ص : ٦٠٨ . وكتاب الطّب : (٧٦/٥٠) . باب هل يداوي الرّجل المرأة أو المرأة الرّجل : (٢) . برقم: (٥٦٧٩) . ص : ١٢٣٥ .

وعن أمّ عطيّة الأنصاريّة (رضي الله عنها) قالتّ : " غزوت مع رسول اللّه ﷺ سبع غزوات أخلفهم في رحالهم ، فأصنع لهم الطّعام ، وأداوي الجرحى ، وأقوم على المرضى " . صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسّير : (٣٢) . باب النّساء الغازيات يرضخ لهنّ ولا يسهم : (٤٨) . برقم: (١٨١٢) . ٣/١٤٤٧ . ومع ذلك ما كنّ يقاتلن وقد جاء ذلك في رواية الرّبيّع بنت معوّذ وهي نحواً من رواية أمّ عطيّة ، وقالت : " ولانقاتل " . فتح الباري : ٦/١٧٤ .

فإذا تبيّن هذا فأعلم أنّ ما تفعله بعض بلدان المسلمين من تجنيد النّساء ، وتدريبهنّ على الجندية ، وحملهنّ السّلاح ، ودفعهنّ إلى الحروب مع الرّجال الأجانب ، بل وسفرهنّ لذلك ، كلّ هذا ليس من الإسلام في شيء ، بل هو أمر منكر لما يترتّب عليه من مفاسد عظيمة ، وآثار وخيمة . فإضافة إلى ما ترتكبه أولئك النّساء من محظورات حرمّها عليهنّ الشّرع ، فإنّهنّ يعرّضن أنفسهنّ لهتك أعراضهنّ ، وسلب شرفهنّ من كلّ زائغ ومفسد .

(١) انظر : جامع البيان ١٠/٢٠٧-٢٠٨ . التّفسير الكبير : ١٦/١٥٦-١٥٧ . تفسير القرآن العظيم : ٢/٥٩١-٥٩٢ . فتح البيان :٥/٣٦٤-٣٦٥ . محاسن التّأويل ٨/٣٢٢٨-٣٢٢٩ . تفسير المراغي : ١٠/١٧٨-١٧٩ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٣٠٥-٣٠٦ .

(٢) الحديث سبق تخريجه . انظر : ص : ٢٦٨ .

وفي الحديث الّذي رواه أبو هريرة ﷺ. قال ﷺ : "من مات ولم يغـــز ، ولــم يحدّث به نفسه ، مات على شعبة من نفاق " [١]

قال الإمام النّووي (رحمه الله) :

" المراد أنّ من فعل هذا فقد أشبه المنافقين المتخلّفين عن الجـــهاد فـــي هـــذا الوصف ، فإنّ ترك الجهاد أحد شعب النّفاق " [٢] .

د – إنّ تركه سبب للذّلّ والهوان :

عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال : سمعت رســـول الله ﷺ يقــول : " إذا تبايعتم بالعِينَة [٣] وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزّرع ، وتركتم الجهاد سلّط الله عليكم ذلاً لا يَنْزِعُهُ حتّى ترجعوا إلى دينكم " .[٤]

---

(١) صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإمارة : (٣٣) . باب ذمّ من مات ولم يغز ، ولم يحـــدّث نفســه بـــالغزو : (٤٧) . ١٥١٧/٣ .

(٢) شرح النّووي على مسلم : ٥٦/١٣ وانظر : المفهم : ٧٥٠/٣ .

(٣)العِينَة : هو أن يَبِيعَ من رَجُلٍ سِلْعة بِثَمنٍ مَعْلوم إلى أجَلٍ مُسَمَّى ، ثمّ يَشْتَريها منه بأقلّ من الثّمن الّذي باعَها بــه . وسمِّيت عِينَةً لحصُول النّقد لصاحب العِينَة . لأنّ العَيْن هو المَال الحاضِر من النّقْد . والمشْتَري إنّما يَشْتَريها لِيَبِيعَــها بعَيْن حاضِرَة تَصِل إليه مُعَجَّلَة . النّهاية في غريب الحديث: ٣٣٣/٣-٣٣٤ . بتصـــرّف . و انظــر : الفـــائق : ١٠٨/٢ .

(٤) سنن أبي داود: بلفظه في : كتاب البيوع (أبواب الإجارة) : (٢٢) . باب النّهي عـــن العينــة : (٥٤) . برقـــم: (٣٤٦٢) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٣٨٦ . وهو في السّلسلة الصّحيحة : ١٥/١ . برقـــم : (١١) .

سنن البيهقي: بلفظه في : باب ما ورد في كراهيّة التّبايع بالعينة .٣١٦/٥ .

مسند أحمد: نحوه في: ٢٨/٢ ، ٤٢ ، ٨٤ .

مسند أبي يعلى: بلفظ مقارب . برقم: (٥٦٥٩) . ٢٩/١٠ . وانظر : زاد المعاد : ٨٧/٣ .

وفي الحديث تحذير من ترك الجهاد ميلاً إلى الدّنيا ، وخلوداً إليها ، وانشغالاً بها عن القيام بواجب الجهاد ، فإنّ ذلك يؤدّي إلى الهوان والذّل ، فيطغى أعداء الله ويبسطون سيطرتهم وهيمنتهم على المسلمين فيذلّونهم ويهينونهم ، كما هو حال أمّة الإسلام اليوم ، فقد أطبق الضّعف على جوانبها ، وسرى الذّلّ في جسدها ، فصارت هيكلاً متخاذلاً ، وذلك لمّا ضيّعت الأمانة الّتي كلّفت بحملها ، والمسئوليّة الّتي أنيطت بعاتقها . وجثم أعداء الله على صدرها ، يذيقونها الأمرّين ، يثيرون الفتن بين صفوفها ليفرّقوا جمعها ، ويشتّتوا شملها لتكون لقمة سائغة يسهل ابتلاعها ، فيسطون حينئذ على خيراتها ، وينهبون ثرواتها ، وهي عليلة عاجزة لا تحرّك ساكناً ، ولا تغيّر أمراً ، بل تجرّ أذيال الخيبة فتطرق أبواب أعداء الله ليحلّوا مشاكلها ، وينصفوا مظلومها ، ومتى كان الظّلم ينتج عدلاً ، والباطل يخرج حقّاً .

وهي إن أرادت النّجاة والسّعادة الحقّة فلتتمسّك بهذا الدّين ففيه عزّها ، وقوّتها ، ونصرها ، وسعادتها ، كما قال لها ربّها : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ ﴾ [الأنبياء:١٠].

وإن تنكّبت الطّريق ، وتجنّبت الحقّ فسوف تظلّ في هذا الذّل والهوان إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً .

قال المناوي (رحمه الله) :

" وأخذتم أذناب البقر :كناية عن الاشتغال عن الجهاد بالحرث . ورضيتم بالزّرع : أي بكونه همّتكم ونهمتكم . وتركتم الجهاد : أي غزو أعداء الرّحمن ومصارعة الهوى والشّيطان . سلّط الله : أي أرسل بقهره وقوّته عليكم . ذلاً : بضم الذّال المعجمة وكسرها ضعفاً واستهانة . لا ينزعه :لا يزيله ويكشفه عنكم . حتّى ترجعوا إلى دينكم : أي الاشتغال بأمور دينكم . وأظهر ذلك في هذا القالب البديع لمزيد الزّجر والتّقريع حيث جعل ذلك بمنزلة الرّدة والخروج عن الدّين " . فيض القدير : ٣١٤/١ . و انظر : ٣٩٧/١ .

وترك الجهاد محرّم إلاّ عند العجز .[1] بل لو امتنعت طائفة عن التزام جهاد الكفّار فوجب على أهل الإسلام قتالها ، وإن كانت مقرّة بــه ، حتّــى ترجــع إلــى الصّواب ، وهذا لا خلاف فيه بين العلماء .[2]

فالمؤمن الّذي يطّلع على هذه الآثار والعواقب النّاجمة من ترك الجهاد يدفعــه ذلك إلى الثّبات والصّدق عند لقاء أعداء الله .

---

(١) انظر الإكليل : ص : ١٩٥ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى : ٢٨/٥٠٣ .

المبحث الثّاني

فضل الجهاد والتّرغيب فيه .

لقد جاءت بعض الأحاديث عن المصطفى ﷺ تبيّن أنّ الجهاد في سبيل الله من أفضل الأعمال .

فعن أبي قتادة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنّه قام فيهم فذكر لهم : " أنّ الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال " فقام رجل فقال : يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله تكفّر عنّي خطاياي ؟ فقال له رسول الله ﷺ : " نعم إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر ... " الحديث [١] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : دلّني على عمل يعدل الجهاد . قال : " لا أجده " قال : هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر ، وتصوم ولا تفطر ؟ قال : ومن يستطيع ذلك ؟ قال أبو هريرة : إنّ فرس المجاهد لَيستَنُّ [٢] في طِوَلِهِ [٣] فيكتب له حسنات " .[٤]

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الإمارة : (٣٣) . باب من قتل في سبيل اللّه كفّرت خطاياه إلاّ الدّين : (٣٢) . برقم: (١٨٨٥) . ٣/ ١٥٠١ .

(٢)لَيْستَنّ في طوله فيُكتب له حسنات : أي يَخْطُر ويْمرح في حَبْلــه فيكتب لــه ذلــك الاستنان حسنات .

انظر : الفائق : ٢/٢٠٣ . و انظر : غريب الحديث لابن قتيبة : ٢/٢٩٢ . النّهاية في غريب الحديث: ٢/٤١١ .

(٣) طوله : الطِّوَل والطِّيَل بالكسر : الحبْل الطّويل يُشَدُّ أحَدُ طَرَفَيه في وتِد أو غَيره ، والطَّرَف الآخر في يَد الفَرس لِيَدُورَ فيه ويَرْعَى ولا يَذْهَب لوجهه . النّهاية في غريب الحديث : ٣/١٤٥ . و انظر :غريب الحديث لابن قتيبة : ٢/٢٩٢ .

(٤) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الجهاد والسّير : (٥٦/٣٢) . باب فضل الجهاد والسّير : (١) . برقم: (٢٧٨٥) . ص: ٥٨٨ .

فهذان دليلان يبيّنان أنّ الجهاد من أفضل الأعمال . وقد نصّ على ذلك جماعة من أهل العلم:

قال الإمام أحمد بن حنبل (رحمه الله) :

" لا أعلم شيئاً من العمل بعد الفرائض أفضل من الجهاد " [(١)] .

قال صاحب المغني في بيان قول الإمام أحمد (رحمه الله) :

" لأنّ الجهاد بذل المهجة والمال ، ونفعه يعمّ المسلمين كلّهم صغيرهم وكبيرهم ، قويّهم وضعيفهم ، ذكرهم وأنثاهم ، وغيره لا يساويه في نفعه وخطوه ، فلا يساويه في فضله وأجره ".[(٢)]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" والأمر بالجهاد ، وذكر فضائله في الكتاب والسنّة أكثر من أن يحصر ، ولهذا كان أفضل ما تطوّع به الإنسان ، وكان باتّفاق العلماء أفضل من الحجّ والعمرة ، ومن الصّلاة التّطوّع ، والصّوم التّطوّع كما دلّ عليه الكتاب والسنّة ". [(٣)]

وقال ابن دقيق العيد (رحمه الله) فيما نقله الحافظ ابن حجر (رحمه الله) عنه :

" القياس يقتضي أن يكون الجهاد أفضل الأعمال الّتي هي وسائل لأنّ الجهاد وسيلة إلى إعلان الدّين ونشره ، وإخماد الكفر ودحضه ، ففضيلته بحسب فضيلة ذلك والله أعلم " .[(٤)]

---

(١) المغنى : ٩٤٨/٨ .

(٢) المرجع السّابق : ٣٤٩/٨ .

(٣) السّياسة الشّرعيّة : ص : ١٤٢ . مجموع الفتاوى : ٣٥٢/٢٨ .

(٤) فتح الباري : ٨٠/٦ . وقول ابن دقيق العيد في كتابه : إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام : ١٣٢/١-١٣٣ . طبعة دار الكتب العلمية . مع زيادات في النّص .

وأقوال أهل العلم في ذلك كثيرة جداً .[1]

فهذا عن فضل الجهاد ، وأمّا عن فضل المجاهد فقد ورد في شأنه قوله ﷺ في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال : قيل يا رسول الله أي النّاس أفضل ؟ فقال رسول الله ﷺ : " مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله " قالوا : ثمّ من ؟ قال : " مؤمن في شعب من الشّعاب يتّقي الله ويدع النّاس من شرّه " .[2] فالمجاهد أفضل النّاس .

ومن هنا يتبيّن أنّ الجهاد في سبيل الله أفضل أعمال التّطوّع على الإطلاق ، وأنّ أهله القائمين به بحقّ هم أفضل النّاس ، ولم يتبوّأ الجهاد هذه المنزلة من الفضيلة إلاّ لما ورد فيه من أدلّة من القرآن والسنّة في بيان عظيم ثوابه ، وجزيل أجره ، وعظم فضله ، تفوق حدّ الحصر.

---

(١) انظر : المفهم : ٣/٧١٢-٧١٣ . نيل الأوطار :٨/٤١ . محاسن التّأويل : ٥/١٤٨٥. فقه السّنّة : ٣/١٦ . أهمّية الجهاد: ص : ١٢١ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الجهاد والسّير : (٥٦/٣٢) . باب أفضل النّاس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله : (٢) . برقم: (٢٧٨٦) . ص : ٥٨٩ . و نحوه في: كتاب الرّقاق : (٨١/٥٥) . باب العزلة راحة من خلاط السّوء : (٣٤) . برقم: (٦٤٩٤) . ص : ١٣٨١ .

صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب الإمارة : (٣٣) . باب فضل الجهاد والرّباط : (٣٤) .برقم: (١٨٨٨) . ٣/١٥٠٣ .

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) في بيان معنى الحديث :

" وكأنّ المراد بالمؤمن من قام بما تعيّن عليه القيام به ثمّ حصّل هذه الفضيلة ، وليس المراد من اقتصر على الجهاد وأهمل الواجبات العينيّة ، وحينئذ فيظهر فضل المجاهد لما فيه من بذل نفسه وماله لله تعالى ، ولما فيه من النّفع المتعدّي ، وإنّما كان المؤمن المعتزل يتلوه في الفضيلة لأنّ الّذي يخالط النّاس لا يسلم من ارتكاب الآثام ، فقد لا يفي هذا بهذا ، وهو مقيّد بوقوع الفتن " . فتح الباري : ٦/٨١ .

ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" لم يرد في ثواب الأعمال وفضلها مثل ما ورد فيه ، وهو ظاهر عند الاعتبار ، فإنّ نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره في الدّين والدّنيا ، ومشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة والظّاهرة ، فإنّه مشتمل من محبّة الله تعالى ، والإخلاص له ، والتّوكّل عليه ، وتسليم النّفس والمال له ، والصّبر والزّهد ، وذكر الله ، وسائر أنواع الأعمال على ما لا يشتمل عليه عمل آخر ، والقائم به من الشّخص والأمّة بين إحدى الحسنيين دائماً ، إمّا النّصر والظّفر ، وإمّا الشّهادة والجنّة " (١) .

وهذه مجموعة من النّصوص الدّالة على ما في الجهاد من عظيم الأجر ، وجزيل المثوبة :

أوّلاً : القرآن الكريم :

أ – قال سبحانه : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾ [النساء:٩٥-٩٦].(٢)

---

(١) السّياسة الشّرعيّة : ص:١٤٣-١٤٤ . مجموع الفتاوى : ٣٥٣/٢٨ .

(٢) أولو الضّرر هم أصحاب الأعذار المبيحة للتّخلّف عن الجهاد ، فهؤلاء يعطون مثل أجور المجاهدين إذا كانت نيّاتهم جازمة عازمة على عدم التّخلّف ، وقيل : يعطون مثل أجر المجاهدين من غير تضعيف ، فيفضلهم المجاهدون بالتّضعيف لأجل المباشرة ، والأوّل أرجح لقوله ﷺ في حديث جابر : " إنّ بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلاّ كانوا معكم حبسهم المرض " . وفي رواية : " إلاّ شركوكم في الأجر " . صحيح مسلم : كتاب الإمار : (٣٣) . باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر : (٤٨) . برقم: (١٩١١) . ١٥١٨/٣ . و انظر : صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسّير : (٣٢/٥٦) . باب من حبسه العذر عن الغزو :

ب ـ وقال تعالى : ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَـٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ

---

(٣٥) . برقم: (٢٨٣٩) . ص : ٦٠٠ . وكتاب المغازي : (٣٨/٦٤) . باب : (٨٢/٨١) . برقم : (٤٤٢٣) . ص : ٩٢١ .

والحسنى : هي الجنّة . وقيل : الجزاء الجزيل . والمعنى واحد .

والدّرجات : منازل رفيعة في الجنّة . وسوف يرد ذكرها في الحديث .

وانظر في معنى الآيتين : جامع البيان : ٢٢٧/٥-٢٣٢ . التّفسير الكبير ٦/١١-١٠ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٤٢/٥. تفسير القرآن العظيم : ٨٢٠/١-٨٢١ . فتح البيان : ٢١٠/٣-٢١٣ . محاسن التّأويل : ١٤٨١/٥-١٤٨٦ . تفسير المراغي : ١٢٨/٥-١٣٠ . تيسير الكريم الرّحمن :ص : ١٥٨-١٥٩. أضواء البيان : ٢٩٥/١-٢٩٦ . وانظر : الضّوء المنير : ٢٧٦/٢-٢٧٨ . الإكليل : ص : ٨٠ .

عن البراء ﷺ قال : لمّا نزلت : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ دعا رسول اللّه ﷺ زيداً فجاء بكتف فكتبها وشكا ابن أم مكتوم ضرارته فنزلت : ﴿ لا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ ﴾ . صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسّير : (٥٦/٣٢) . باب قول اللّه تعالى : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ....الآية ﴾ . [النّساء:٩٥،٩٦] : (٣١) . برقم: (٢٨٣١) . ص : ٥٩٨ . و انظر : كتاب التّفسير : (٦٥/٣٩) باب ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ ... الآية ﴾ { النّساء : ٩٥} : (١٨/١٩) . برقم: (٤٥٩٢ ، ٤٥٩٣ ، ٤٥٩٤) . ص : ٩٦١-٩٦٢ . و كتاب فضائل القرآن : (٦٦/٤٠) . باب كاتب النّبي ﷺ : (٤) . برقم : (٤٩٩٠) . ص : ١١٠١-١١٠٢ .

صحيح مسلم: كتاب الإمارة : (٣٣) . باب سقوط فرض الجهاد عن المعذورين : (٤٠) . برقم: (١٨٩٨) . ٣/ ١٥٠٩ . وانظر : لباب النّقول : ص : ٩٧ .

مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [التوبة:١٩-٢٢] (١) .

ج ـ وقال عزّ وجلّ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [التوبة:١١١-١١٢] (٢) .

---

(١) عن النّعمان بن بشير ﷺ قال : " كنت عند منبر رسول اللّه ﷺ . فقال رجل : ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلاّ أن أُسقي الحاجّ . وقال آخر : ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلاّ أن أعْمُرَ المسجد الحرام ، وقال آخر : الجهاد في سبيل اللّه أفضل مما قلتم ، فزجرهم عمر ، وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول اللّه ﷺ . وهو يوم الجمعة ، ولكن إذا صلّيت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه ، فأنزل اللّه عزّ وجلّ : ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [التّوبة:١٩] الآية إلى آخرها .

صحيح مسلم: كتاب الإمارة : (٣٣) . باب فضل الشّهادة في سبيل اللّه تعالى : (٢٩) . برقم: (١٨٧٩) . ١٤٩٩/٣ وانظر : لباب النّقول : ص : ١٤٩ .

وانظر في معنى الآيات : جامع البيان : ٩٦/١٠-٩٧ . التّفسير الكبير :١١/١٦-١٧ . فتح البيان : ٢٥٦/٥-٢٥٧ . محاسن التّأويل : ٣٠٨٩/٨-٣٠٩٠ . تفسير المراغي :٧٧/١٠-٧٩ وانظر : طريق الهجرتين ص : ٥٢٧-٥٢٨ .

(٢) هاتان الآيتان رغّبتا في الجهاد بأبلغ وجه وأحسن صورة .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" يخبر تعالى أنّه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذا بذلوها في سبيله بالجنّة ، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه ، فإنّه قبل العوض عمّا يملكه بما تفضّل به على عبيده المطيعين له ، ولهذا قال الحسن البصري وقتادة : بايعهم واللّه فأغلى ثمنهم " . تفسير القرآن العظيم : ٢/٦٠٨ .

وقال ابن القيّم (رحمه الله) :

" أقام سوق الجهاد في هذه الدّار في مدّة العمر الّتي هي بالإضافة إلى الآخرة كنفس واحد من أنفاسها ، واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة ... وأخبر أنّ ذلك وعد مؤكّد عليه في أشرف كتبه وهي : التّوراة والإنجيل والقرآن ، ثمّ أخبر أنّه لا أوفى بعهده منه سبحانه ، ثمّ أمرهم أن يستبشروا بهذه الصّفقة الّتي من أراد أن يعرف قدرها فلينظر إلى المشتري من هو ، وإلى الثّمن المبذول في هذه السّلعة ، وإلى من جرى على يديه هذا العقد ، فأي فوز أعظم من هذا ، وأي تجارة أربح منه ؟ " . الجواب الكافي : ص : ٦٥ . الضّوء المنير ٦/٦٠-٦١ . وانظر : زاد المعاد : ٣/٧٢-٧٥ .

وقد تناول (رحمه الله) هاتين الآيتين كاشفاً من خلالهما عن مكانة الجهاد وعظيم فضله ، في أسلوب بديع مرغّب للنّفوس ، مشجّع لها على الجهاد في كتابه حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت . ص:٥٨-٥٩ .

يقول جعفر الصّادق (رحمه الله) :

أُثامن بالنّفس النّفيسة ربّها ******* وليس لها في الخلق كلّهمُ ثمن

بها تُشترى الجنّاتُ إن أنا بعتها ******* بشيء سواها إنّ ذلكم غَبَن

لئن ذهبت نفسي بدنيا أصبتها ******* لقد ذهبت نفسي وقد ذهب الثّمن

الجامع لأحكام القرآن : ٨/٢٦٨

ثمّ ذكر سبحانه صفات المجاهدين الّذين استحقّوا الجنّة بتلك المبايعة ، وهي على جهة الشّرط .

انظر : فتح البيان : ٥/٤٠٧ .

والسّائحون هم الصّائمون وإليه ذهب جمهور المفسّرين ، وقيل : هو السّفر إلى القربات ، وهو أعمّ .

وانظر في معنى الآيتين : جامع البيان ١١/٣٥-٤٠ . أحكام القرآن لابن العربي : ٢/١٠٠٦-١٠٠٨ . التّفسير الكبير : ١٦/١٩٨-٢٠٧ . الجامع لأحكام القرآن : ٨/٢٦٧-٢٧١ . تفسير القرآن العظيم : ٢/٦٠٨-٦٠٩ . فتح البيان : ٥/٤٠٣-٤٠٩ . محاسن التّأويل : ٨/٣٢٧٢ — ٣٢٧٥ . تفسير المراغي : ١١/٣٠-٣٤ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٣١٠-٣١١ . في ظلال القرآن : ٣/١٧١٩-١٧٢٠ .

د ـ وقال جلّ في علاه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الصف: ١٠-١٣] (١) .

هـ ـ وقال تبارك اسمه في ثواب الشّهداء : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

---

(١) والآيات مرغّبات في الجهاد كسابقتها .

فقد ذكر سبحانه أنّ الإيمان باللّه ، والجهاد بالمال والنّفس في سبيله تجارة رابحة ، فإنّ المجاهد ينال الفوز العاجل ، والثّواب الآجل ، فيظفر بالنّصرة في الدّنيا ، والغلبة على العدوّ وأخذ الغنائم وكرائم الأموال ، ويحظى في الآخرة بغفران الذّنوب ، ورضوان الرّب ، والكرامة في جنّات الخلود والإقامة ، ولا فوز أعظم من هذا .

تفسير المراغي : ٨٩/٢٨ .

وانظر في معنى الآيات : جامع البيان : ٨٩/٢٨-٩٠ . التّفسير الكبير : ٣١٦/٢٩-٣١٨ تفسير القرآن العظيم : ٥٦٤/٤-٥٦٥ . فتح البيان : ١٢٢/١٤-١٢٤ . محاسن التّأويل : ٥٧٩٣/١٦-٥٧٩٤ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٧٩٧- ٧٩٨. وقد أفاد وأجاد (رحمه الله) في بيان هذه الآيات . أضواء البيان : ١٨٣/٨-١٨٦ . وقد بيّن (رحمه الله) العلّة في تقديم المال على النّفس في آية الصّف ، وتأخيره في آية التّوبة ، فذكر أنّ المقام في آية الصّف مقام تفسير وبيان لمعنى التّجارة الرّابحة ، والحاجة إلى المال هنا أعظم لأنّه عصب الحرب .

وأمّا آية التّوبة فهي في معرض الاستبدال والعرض والطّلب ، وهو ما يسمّى بالمساومة ، والنّفس أعزّ ما يملك الحي وأغلى ما يساوم بها في مقابلة الجنّة لأنّها أعزّ ما يوهب .

يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧١] (١) .

ثانياً : الأحاديث النّبوية :

أ – عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (تَضمَّن الله(٢) لمن خرج في سبيله ، لا يخرجه إلاّ جهاداً في سبيلي ، وإيماناً بي ، وتصديقاً برسلي ، فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنّة ، أو أرجعه إلى مسكنه الّذي خرج منه ، نائلاً ما نال من

---

(١) عن مسروق قال : سألنا عبد الله – هو ابن مسعود – عن هذه الآية : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ قال : أما إنّا قد سألنا عن ذلك . فقال : " أرواحهم في جوف طير خضر ، لها قناديل معلّقة بالعرش ، تسرح من الجنّة حيث شاءت ، ثمّ تأوي إلى تلك القناديل ، فاطّلع إليهم ربهم اطّلاعَةً ، فقال : " هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أيّ شيء نشتهي ؟ ونحن نسرح من الجنّة حيث شئنا ، ففعل ذلك بهم ثلاث مرّات ، فلمّا رأوا أنّهم لن يتركوا من أن يُسألوا ، قالوا : يا ربّ نريد أن تردّ أرواحنا في أجسادنا حتّى نقتل في سبيلك مرّة أخرى ، فلمّا رأى أن ليس لهم حاجة تركوا " .

صحيح مسلم: كتاب الإمارة : (٣٣) . باب بيان أنّ أرواح الشّهداء في الجنّة ، وأنّهم أحياء عند ربّهم يرزقون : (٣٣) . برقم: (١٨٨٧) . ٣/١٥٠٢-١٥٠٣ .

وهذه الآيات من أعظم ما ورد في كتاب الله في بيان فضل من يقتلون في سبيل الله ، فهم أحياء عند الله ، خصّهم بالقرب منه ، وعلو المكان ، والكرامة لديه ، وأعطاهم أفضل أنواع الرّزق ، فقرّت بذلك عيونهم ، وفرحت به نفوسهم ، وجمعوا بين نعيم البدن بالرّزق ، ونعيم الرّوح بالفرح .

وانظر في معنى الآيات : جامع البيان : ٤/١٧٠-١٧٥ . التفسير الكبير : ٩/٨٨-٩٦ . فتح البيان : ٢/٣٧٤-٣٧٨ . محاسن التّأويل : ٤/١٠٣٢-١٠٣٥ . تفسير المراغي : ٤/١٣٠-١٣٣ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١٢٤ .

(٢) قال النّووي (رحمه الله) :

" وفي الرّواية الاخرى "تكفّل الله" ومعناهما : أوجب الله تعالى له الجنّة بفضله وكرمه سبحانه وتعالى . وهذا الضّمان والكفالة موافق لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ . الآية " . شرح النّووي على مسلم : ١٣/٢٠ .

أجر أو غنيمة . والّذي نفس محمّد بيده ما من كَلْم[1] يُكْلَمُ في سبيل الله إلاّ جاء يوم القيامة كهيئته حين كُلِم ، لونه لون دم وريحه مسك ، والّذي نفس محمّد بيده لولا أن يشقّ على المسلمين ما قعدت خلاف سَرِيَّة [2] تغزو في سبيل الله أبداً ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ، ولا يجدون سعة ، ويشقّ عليهم أن يتخلّفوا عنّي ، والّذي نفس محمّد بيده لوددت إنّي أغزو في سبيل الله فأقتل ، ثمّ أغزو فأقتل ، ثمّ أغزو فأقتل " [3] .

ب – وعنه ﷺ قال : قال النّبي ﷺ : " إنّ في الجنّة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدّرجتين كما بين السّماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه

---

(١)كلم : هو الجُرح . انظر : النهاية في غريب الحديث : ١٩٩/٤ .

والمراد : جرح يجرح . انظر : شرح النووي على مسلم : ٢١/١٣ .

(٢) السّريّة : هي طائفةٌ من الجَيش يبلغُ أقصاها أربعَمائة تُبعث إلى العَدوّ . وجمعُها السّرَايا سُمُّوا بذلك لأنّهم يكونُون خُلاصةَ العسْكر وخيارَهم من الشّيء السّرِيِّ النّفِيس . وقيل: سُمّوا بذلك لأنّهم ينْفذُون سرّاً وخُفْية وليس بالوجه . النّهاية في غريب الحديث: ٣٦٣/٢ . و انظر : غريب الحديث لابن قتيبة : ٢٢٧/١ .

(٣) صحيح البخاري: بنحو منه في كتاب الإيمان : (٢) . باب الجهاد من الإيمان : (٢٧/٢٦) . برقم: (٣٦) . ص : ٢٢ . وفي كتاب فرض الخمس : (٣٣/٥٧) . باب قول النّبي ﷺ : " أحلّت لكم الغنائم " : (٨) . برقم: (٣١٢٣) . ص : ٦٥٧ . وفي كتاب التّوحيد : (٧٢/٩٧) . باب ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصّافات:١٧١] : (٢٨) . برقم: (٧٤٥٧) . ص : ١٥٦٦ . وفي باب : (٣٠) . برقم: (٧٤٦٣) . ص : ١٥٦٧ .

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإمارة : (٣٣) . باب فضل الجهاد والخروج في سبيل اللّه : (٢٨) . برقم: (١٨٧٦) .١٤٩٥/٣. .ونحوه في : ١٤٩٦ .

قال النّووي (رحمه الله) : " معنى الحديث أنّ اللّه تعالى ضمن أنّ الخارج للجهاد ينال خيراً بكلّ حال ، فإمّا أن يستشهد فيدخل الجنّة ، وإمّا أن يرجع بأجر ، وإمّا أن يرجع بأجر وغنيمة " شرح النّووي على مسلم : ٢١/١٣.

وقال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) : في تمنّي النّبي ﷺ القتل في الجهاد : " وكأنّه ﷺ أراد المبالغة في بيان فضل الجهاد وتحريض المسلمين عليه " . فتح الباري : ٩٥/٦ . وانظر معنى الحديث في المفهم : ٧٠٥/٣-٧٠٧ .

الفردوس [١] ، فإنّه أوسط الجنّة ، وأعلى الجنّة ـــ أُراه ـــ : فوقه عرش الرّحمـــن ، ومنه تفجّر أنهار الجنّة " .[٢]

ج- وعن أبي أيوب ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " غدوة في سبيل الله أو روحـــة خير ممّا طلعت عليه الشّمس وغربت " [٣] .

وفي حديث أنس وسهل بن سعد ﷺ "خير من الدّنيا وما فيها " .[٤]

---

(١) الفِرْدَوْس : هو البُسْتان الّذي فيه الكَرْم والأشجار . والجمع : فَراديس ، ومنه جنَّة الفِردوس .
النّهاية في غريب الحديث: ٤٢٧/٣ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الجهاد والسّير : (٣٢/٥٦) . باب درجات المجاهدين في سبيل اللّـــه : (٤) . برقم: (٢٧٩٠) . ص : ٥٩٠ . و بلفظ مقـــارب في: كتـــاب التّوحيـــد : (٧٢/٩٧) . بـــاب ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [هود:٧] : (٢٢) . برقم: (٧٤٢٣) . ص : ١٥٥٨ .
وفي الحديث فضيلة ظاهرة ، وأجر عظيم للمجاهدين . والمراد بالأوسط في الحديـــث : الأعـــدل والأفضـــل . والأنهار إنّما تفجّر من الفردوس وليس من العرش كما يوهم السّياق ، لما ورد بيانه في رواية أخرى للحديث .
وانظر : فتح الباري : ٨٩/٦-٩٠ . عمدة القاري : ٨٩/١٤-٩١ .

(٣)صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب الجهاد والسّير : (٣٢/٥٦) . باب الغدوة والرّوحة في ســـبيل اللّـــه : (٥) . برقم: (٢٧٩٣) . عن أبي هريرة ﷺ . ص : ٥٩٠ .
صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإمارة : (٣٣) . باب فضل الغدوة والرّوحة في سبيل اللّه : (٣٠) . برقـــم: (١٨٨٣) . ١٥٠٠/٣ .

(٤) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الجهاد والسّير : (٣٢/٥٦) . باب الغدوة والرّوحة في سبيل اللّـــه : (٥) . برقم: (٢٧٩٢) . عن أنس ﷺ . ص : ٥٩٠ . ومع زيادة في أوّلها في كتاب الرّقاق : (٥٥/٨١) . بـــاب مثـــل الدّنيا في الآخرة : (٢) . برقم: (٦٤١٥) .عن سهل ﷺ . ص: ١٣٦٧ . وبزيادة في باب صفة الجنّة والنّـــار : (٥١) . برقم: (٦٥٦٨) . عن أنس ﷺ ـــ إلاّ إنّه قال : " غـــدوة " ـــ ص: ١٣٩٣ . و بلفـــظ مقـــارب في: كتاب الجهاد والسّير : (٣٢/٥٦) . باب الغدوة والرّوحة في سبيل اللّه : (٥) . برقم: (٢٧٩٤) . عن سهل بـــن سعد ﷺ . ص: ٥٩٠ . وفي باب الحور العين : (٦) . برقم: (٢٧٩٦) . عن أنـــس ﷺ . ص : ٥٩٠-٥٩١ .

د- وعن أبي هريرة ﷺ قال : قيل للنّبي ﷺ : ما يعدل الجهاد في سبيل الله عزّ وجلّ ؟ قال : " لا تستطيعونه " . قال : فأعادوا عليه مرّتين أو ثلاثاً ، كلّ ذلك يقول : " لاتستطيعونه " . وقال في الثّالثة : " مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصّائم القائم القانت بآيات الله ، لا يفتر من صيام ولا صلاة حتّى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى ".[1]

ونحوه في كتاب الجهاد والسّير : (٣٢/٥٦) . باب فضل رباط يوم في سبيل اللّه : (٧٢/٧٣) . برقم: (٢٨٩٢) . عن سهل ﷺ . ص : ٦٠٩-٦١٠ .

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإمارة : (٣٣) . باب فضل الغدوة والرّوحة في سبيل اللّه : (٣٠) . برقم: (١٨٨٠) . عن أنس ﷺ . و بلفظ مقارب عن سهل ﷺ . برقم: (١٨٨١) . وعن أبي هريرة ﷺ برقم: (١٨٨٢) . ١٤٩٩/٣-١٥٠٠ .

الغدوة : بفتح الغين هي المرّة الواحدة من الغدوّ ، وهي السّير من أوّل النّهار إلى انتصافه أو إلى الزّوال . والرّوحة هي المرّة الواحدة من الرّواح ، وهي السّير من الزّوال إلى آخر النّهار .

وقوله : " خير ممّا طلعت عليه الشّمس وغربت " ، هو المراد بقوله : " خير من الدّنيا وما فيها " .

فالمعنى : إنّ ثواب الغدوة أو الرّوحة في سبيل اللّه خير للمرء من الدّنيا كلّها لو جمعها بحذافيرها ، وقيل : إنّ ثواب الواحدة منهما خير له من الثّواب الّذي يحصل لمن ملك الدّنيا كلّها فأنفقها في طاعة اللّه .

وانظر : المفهم : ٧٠٩/٣-٧١٠ . شرح النّووي على مسلم : ٢٦/١٣-٢٧ . فتح الباري : ٩٠/٦-٩١ . عمدة القاري : ٩١/١٤-٩٢ .

(١) صحيح البخاري: نحوه في: كتاب الجهاد والسّير : (٣٢/٥٦) . باب أفضل النّاس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل اللّه : (٢) . برقم: (٢٧٨٧) . ص : ٥٨٩ .

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإمارة : (٣٣) . باب فضل الشّهادة في سبيل اللّه تعالى : (٢٩) . برقم: (١٨٧٨) . ١٤٩٨/٣ .

قال النّووي (رحمه الله) :

" معنى القانت هنا : المطيع . وفي هذا الحديث عظيم فضل الجهاد ، لأنّ الصّلاة والصّيام والقيام بآيات اللّه أفضل الأعمال ، وقد جعل المجاهد مثل من لم يفتر عن ذلك في لحظة من اللّحظات ، ومعلوم أنّ هذا لا يتأتّى لأحد ، ولهذا قال ﷺ : " لا تستطيعونه " . شرح النّووي : ٢٥/١٣ .

وقال أبو العبّاس القرطبي (رحمه الله) :

هـ – وفي بيان فضل الشّهادة : عن أنس بن مالك ﷺ عن النّبي ﷺ قال : " ما أحد يدخل الجنّة يحبّ أن يرجع إلى الدّنيا وله ما على الأرض من شيء إلاّ الشّهيد يتمنّى أن يرجع إلى الدّنيا فيقتل عشر مرّات لما يرى من الكرامة " [1] .

و – وعن المِقْدام بن مَعْد يَكْرِب ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : " للشّهيد عند الله ستّ خصال : يغفر له في أوّل دفعة من دمه ، ويرى مقعده من الجنّة ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويُحَلَّى حُلّة الإيمان ، ويزوّج من الحور العين ، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه " . [2]

" ووجهه : أنّ كلّ ما يصدر من المجاهد في حالتي نومه ويقظته ، وسكونه وحركته هو عمل صالح يكتب له ثوابه دائماً ، بدوام أفعاله ، إذ لا يتأتّى لغيره فيه ، لأنّه على كلّ حال في جهاد " . المفهم : ٧٠٨/٣ . وانظر : فتح الباري : ٨٢/٦ . عمدة القاري : ٨٤/١٤ .

(١) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الجهاد والسّير : (٣٢/٥٦) . باب تمنّي المجاهد أن يرجع إلى الدّنيا : (٢١) . برقم : (٢٨١٧) . ص : ٥٩٥ . و نحوه في: باب الحور العين : (٦) . برقم: (٢٧٩٥) . ص : ٥٩٠ .

صحيح مسلم: بلفظ مقارب وبنحوه في كتاب الإمارة : (٣٣) . باب فضل الشّهادة في سبيل اللّه تعالى: (٢٩) . برقم : (١٨٧٧) . ١٤٩٨/٣ .

ذكر الحافظ ابن حجر عن ابن بطّال أنّه قال : " هذا الحديث أجلّ ما جاء في فضل الشّهادة ... وليس في أعمال البر ما تبذل فيه النّفس غير الجهاد فلذلك عظم فيه الثّواب " . فتح الباري : ١١٥/٦ . وانظر عمدة القاري : ١١٤/١٤ .

وقال النّووي (رحمه الله) : " هذا من صرائح الأدلّة في عظيم فضل الشّهادة " شرح النّووي : ٢٤/١٣ .

(٢) سنن التّرمذي: بلفظ مقارب في: كتاب فضائل الجهاد : (١٩) . باب في ثواب الشّهيد : (٢٥) . برقم: (١٦٦٣) . وقال : " هذا حديث حسن صحيح غريب " . و قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٢٨٨.

سنن ابن ماجه: بلفظه في : كتاب الجهاد : (٢٤) . باب فضل الشّهادة في سبيل اللّه : (١٦) . برقم: (٢٧٩٩) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٣٠٦ .

مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ١٣١/٤ . و نحوه في: ٢٠٠/٤ . وانظر : أحكام الجنائز وبدعها . لمحمّد ناصر الدّين الألباني . طبعة المكتب الإسلامي . بيروت . الطّبعة الأولى : ١٣٨٨هـ – ١٩٦٩م : ص : ٣٥-٣٦ .

مشكاة المصابيح : ١١٢٧/٢. برقم: (٣٨٣٤) .

والمؤمن إذا وقف على هذه الأدلّة – وغيرها كثير – الدّالة على ما في الجهاد من فضل وأجر استشعر عظم هذه الفريضة ، وسموّ مكانتها ، وعلوّ منزلتها بين شعائر الإسلام فدفعه ذلك إلى القيام بها على أكمل الوجوه ، وأحسن السّبل ، لا يهاب عراك الأبطال ، ولا نزال الشّجعان ، ولا يخاف صليل السّيوف ولا بريق الرّماح ، لأنّ تذكّر ما في تلك النّصوص من فضل وثواب يقذف الطّمأنينة في نفسه ، والثّبات في قلبه ، والقوّة في عزمه ، إن قتل نال أجر الشّهداء، وإن نصر آب بالغنيمة وحسن الجزاء . فاستصحاب فضل الجهاد معين على ثبات القلوب فيه وجلد النّفوس ، وقوّة العزائم .

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) :

" ولأحمد والطّبراني من حديث عبادة بن الصّامت مرفوعاً (إنّ للشّهيد عند اللّه سبع خصال) .. إسناده حسن" . الفتح : ٩٣/٦ . ولم أقف عليه عند أحمد بلفظ " سبع خصال " . والّذي عند الطّبراني : " تسع خصال أو قال : عشر خصال " .عن المقدام بن معدي كرب ﷺ . معجم الطّبراني الكبير : ٢٦٦/٢٠ .

المبحث الثّالث

إعداد القوّة

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال:٦٠] .

فقد أمر الله عزّ وجلّ عباده المؤمنين بإعداد العدّة ، وأخذ الأهبة بكلّ ما يقدرون عليه من قوّة عقليّة وبدنيّة ، وأنواع الأسلحة ونحو ذلك ممّا يعين على قتال أعداء الله .

وقد بيّن النّبي ﷺ المراد بالقوّة في الآية كما روى ذلك عقبة بن عامر ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ ألا إنّ القوّة الرّمي . ألا إنّ القوّة الرّمي ، ألا إنّ القوّة الرّمي " [(١)] .

وتخصيصه ﷺ للرّمي من أنواع القوّة دون غيره لا ينفي اعتبار غيره ، وإنّما ذكر لبيان فضله ، وجلالة قدره في ذلك الوقت .

ولذا قال أبو العبّاس القرطبي (رحمه الله) في بيان الحديث :

" القوّة : التّقوّي بما يحتاج إليه من الدّروع ، والمجان [(٢)] والسّيوف ، والرّماح ، والرّمي ، وسائر آلات الحرب . إلاّ إنّه لمّا كان الرّمي أنكاها في العدوّ، وأنفعها

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الإمارة : (٣٣) . باب فضل الرّمي والحثّ عليه : (٥٢) . برقم: (١٩١٧) .٣/١٥٢٢.

(٢) المَجانُّ : بالفتح . جمع المِجَنِّ و هو التّرْسُ لأنّه يُواري حامله أي يَستُره ، والميم زائدة ، وأصله من الجُنّة ، بالضّم : وهي ما واراكَ من السّلاح واستَتَرْتَ به منه . انظر : لسان العرب : ١٣/ ٩٤ . وانظر : القاموس المحيط : ١٥٣٢ .

فسّرها ، وخصّصها بالذّكر ، وأكّدها ثلاثاً ، ولم يرد أنّها كلّ العدّة ، بل أنفعها". (1)

وبالتّالي يدخل في هذه القوّة كلّ أنواع الأسلحة والآلات الحربيّة ، من مدافع ، ورشّاشات ، وقنابل ، وطائرات ، وصواريخ ، ودبّابات ، وسفن حربيّة ، وغوّاصات ، وسيّارات ، وخنادق ، وغير ذلك .

كما يدخل في الإعداد تعلّم الفنون والصّناعات الّتي يصنع بها كلّ هذه الأشياء ، كما يدخل فيه تجنيد الجيوش وتنظيمها وتعبئتها ، وإحكام التّدابير والحيل ، ووضع الخطط الحربيّة ، وحراسة الثّغور .(2)

ومن ذلك أخذ الحذر ، ومعرفة خطط الأعداء ، وكشف قوّتهم ، وأسلحتهم وعددهم .

---

(1) المفهم : ٧٥٩/٣ .

(2) وانظر : تفسير المراغي : ٢٤/١٠-٢٥ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٨٥-٢٨٦ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" والقوّة في كلّ ولاية بحسبها ، فالقوّة في إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب ، وإلى الخبرة بالحروب ، والمخادعة فيها ، فإنّ الحرب خدعة ، وإلى القدرة على أنواع القتال : من رمي وطعن وضرب ، وركوب ، وكرّ ، وفرّ ، ونحو ذلك كما قال اللّه تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ .مجموع الفتاوى : ٢٥٣/٢٨ .

وانظر في إعداد القوّة :

جامع البيان : ٢٩/١٠-٣٢ . أحكام القرآن لابن العربي : ٨٦١/٢-٨٦٤ . التّفسير الكبير : ١٨٥/١٥-١٨٦ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٥/٨-٣٧ . تفسير القرآن العظيم : ٥٠٣/٢ . فتح البيان : ٢٠١/٥-٢٠٣ . محاسن التّأويل : ٣٠٢٤/٨-٣٠٢٦ . وفيه تنبيه طيّب إلى ما وصل إليه المسلمون من ضعف وخور وعجز ، لأنّهم لم يسلكوا السّبل الموصلة إلى إعداد القوّة ، بينما أعداؤهم في قوّة ومنعة واستكبار وعلو بسبب ما يملكون من العدد والعتاد . تفسير المراغي : ٢٤/١٠-٢٦ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٨٥-٢٨٦ . في ظلال القرآن : ١٥٣٨/٣، ١٥٤٣ . وانظر : شرح النّووي على مسلم : ٦٤/١٣ . فقه السّنّة : ٣٥/٣-٣٦ . الجهاد في الإسلام : ص ٧٨-٧٩ .

وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴾ [النساء:٧١] .

يقول ابن كثير (رحمه الله) :

" يأمر تعالى عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوّهم ، وهذا يستلزم التّأهب لهم بإعداد الأسلحة والعدد ، وتكثير العدد بالنّفير في سبيل الله . (ثبات) أي جماعة بعد جماعة ، وفرقة بعد فرقة ، وسريّة بعد سريّة " .[١]

وكلّ هذا من أجل إرهاب أعداء الله ، وتخويفهم ، ونكاية بهم حتّى ينكفّ شرّهم ، بل ويدخلوا في دين الإسلام فيتحقّق أمر الله في الأرض .

وهذه القوّة من الأسباب الّتي أمر الشّارع باتّخاذها لأنّها تفضي إلى مسبّباتها ، ولا يجوز الاتّكال عليها وحدها ، بل هنالك قوّة أعظم منها وهي القوّة المعنويّة الّتي ينبغي على المؤمن اصطحابها في جهاده في كلّ أحيانه ، وهي التّوكّل على الله والالتجاء إليه .

وهذه إن تخلّفت فلا مناص من الفشل ، وأمّا الأولى فقد تتخلّف لبعض الأسباب ، ويأتي النّصر كما حدث في بدر .[٢]

ولذا أوجب الله على المؤمنين جميعاً أن يتوكّلوا عليه ويلجؤوا إليه ولو أعدّوا من القوّة الماديّة ما أعدّوا ، فقال في سياق غزوة أحد [٣] :

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [آل عمران:١٢٢] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٧٩٤/١ .

(٢) يأتي الحديث عن غزوة بدر .

(٣) غزوة أحد : هي معركة دارت بين النّبي ﷺ وأصحابه وبين قريش في شوال من العام الثّالث الهجري .

وقال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٧٣-١٧٥] .(١)

والمقصود هنا أنّ إعداد القوّة سبب وعامل مهمّ ، يقذف الطّمأنينة في نفوس المجاهدين ، فتقوى عزائمهم ، وتثبت قلوبهم ، فيصبرون حينئذ على مجالدة الأعداء ، ومقارعة الألداء .

وذلك بعد أن رجعت قريش من غزوة بدر تجرّ أذيال الخيبة والهزيمة بدأت تعدّ العدّة لمعركة فاصلة بينها وبين المسلمين ، فجمعت أحابيشها ، ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة ، فبلغ تعداد جيشها ثلاثة آلاف مدرّع ، ثمّ سارت تجاه المدينة النّبويّة .

وخرج النّبي ﷺ في ألف من أصحابه ، فرجع المنافقون بثلث الجيش . ثمّ التقى الجيشان في سهل بالقرب من جبل أحد حيث دارت المعركة . وقد اختار النّبي ﷺ خمسين من الرّماة ليحموا ظهر الجيش فجعلهم على جبل الرّماة . وكان النّصر في بادئ الأمر للمسلمين ، ثمّ تخلّى الرّماة عن أماكنهم فانقلب الحال ، وانكشف المسلمون وأصاب منهم العدوّ ، وكان يوم بلاء وتمحيص واستشهاد . فقتل منهم سبعون رجلاً .

وانظر : سيرة ابن إسحاق المسمّاة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي . لمحمّد بن إسحاق بن يسار . تحقيق : محمّد حميد الله . طبعة معهد الدّراسات والأبحاث للتّعريب : ٣/٣٠١-٣١٥ . السّيرة النّبويّة لابن هشام : ٣/٤٤-١٢٤ . الرّوض الأنف في تفسير السّيرة النّبويّة لابن هشام . لعبد الرّحمن بن عبد الله الخثعمي السّهيلي . تحقيق : مجدي منصور الشّوري . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت . الطّبعة الأولى : ١٤١٨هـ — ١٩٩٧م : ٣/ ٢٤٠-٢٨٩ . زاد المعاد : ٣/١٩٢-٢١١ . السّيرة الحلبيّة في سيرة الأمين والمأمون . لعلي بن برهان الدّين الحلبي . طبعة دار المعرفة . بيروت . ١٤٠٠هـ : ٢/٤٨٧-٥٥٠ .

(١) وسوف يأتي مزيد بيان لهذا .

يقول السّعدي (رحمه الله) :

" وإنّما الأسباب وتوفّرها فيها طمأنينة للقلوب ، وثبات كلّ على الخير " [1].

(١) تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١١٤ .

المبحث الرّابع

ذكر الله تعالى *

الذّكْرُ و الذّكْرى و الذّكْرةُ في اللّغة: الـحِفْظُ للشّيء وهو ضدّ النّسيان . ويطلـق أيضاً على الشّيء يجري على اللّسان . كما يطلق على الصّيت يكون في الـخير والشّـرّ وعلى الشّرف ، والكتاب الّذي فـيه تفصيل الدّين ووَضْعُ الـمِلَلِ ، وكُلُّ كتاب من كتـب الأنبـياء علـيهم السّلام ذِكْرٌ. والصّلاة والدّعاءُ والثّناء وقراءة القرآن والتّسبـيح والشّكر والطّاعة.(١)

وفي الاصطلاح : التّخلّص من الغفلة والنّسيان .(٢)

وفي الشّرع : يُراد به تمجيدُ الله تعالى وتقديسُه وتسبيحُه وتهليلُه والثّنَاءُ عليـه بجميـع مَحامِدِه .(٣)

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) :

" والمراد بالذّكر هنا الإتيان بالألفاظ الّتي ورد التّرغيب في قولها والإكثار منـها مثـل الباقيـات الصّالحـات ، وهـي سـبحان الله والحمـد لله ولا إلـه إلاّ الله والله أكبر ، وما يلتحق بها من الحوقلة والبسملة والحسبلة(٤) والاستغفار ونحو ذلك ، والدّعـاء

---

* الذكر عامل من عوامل الثّبات العامّة ، ولكن آثرت الحديث عنه هنا لأنّ الله نصّ عليه في القرآن مقروناً بالجهاد .

(١) و انظر : مختار الصّحاح : ص : ٢٢٢-٢٢٣ . لسان العرب : ٣٠٨/٤-٣١٠ .

(٢) مدارج السّالكين : ٤٣٤/٢ .

قال الرّاغب (رحمه الله) : " الذّكر تارة يقال ويراد به هيئة للنّفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفـة وهو كالحفظ . إلاّ أنّ الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه ، والذّكر يقال اعتباراً باستحضاره ، وتارة يقال لحضور الشّـيء القلب أو القول . ولذلك قيل : الذّكر ذكران : ذكر بالقلب وذكر باللّسان . وكلّ واحد منهما ضربان : ذكـر عن نسيان ، وذكر لاعن نسيان بل عن إدامة الحفظ " . المفردات : ص : ١٧٩ .

(٣) النّهاية في غريب الحديث: ١٦٣/٢ .

(٤) الحوقلة : لفظة من لا حول ولا قوّة إلاّ بالله . والبسملة من بسم الله ، والحسبلة من حسبي الله . وانظر : لسان العرب : ٦٧/١٠ .

بخيري الدّنيا والآخرة . ويطلق ذكر الله أيضاً ويراد به المواظبة على العمل بمـــا أوجبه أو ندب إليه كتلاوة القرآن ، وقراءة الحديث ومدارسة العلم ، والتّنفّل بالصّلاة . ثمّ الذّكر يقع تارة باللّسان ويؤجر عليه النّاطق ولا يشترط اســـتحضاره لمعنـــاه ، ولكن يشترط أن لا يقصد به غير معناه ، وإن انضاف إلى النّطق الذّكر بالقلب فـــهو أكمل . فان انضاف إلى ذلك استحضار معنى الذّكر وما اشتمل عليه من تعظيـــم الله تعالى ونفي النّقائص عنه ازداد كمالاً ، فإن وقع ذلك في عمل صالح مهما فـــرض من صلاة أو جهاد أو غيرهما ازداد كمالاً ، فإن صحّح التّوجه ، وأخلص لله تعـــالى في ذلك فهو أبلغ الكمال " .[١]

فالذّكر إذا أطلق يدخل فيه الصّلاة ، وتلاوة القرآن وتعلّمه وتعليمه ، والعلـــم النّافع ، كما يدخل فيه التّسبيح والتّكبير والتّهليل [٢].

وقال ابن القيّم (رحمه الله) :

" وليس المراد بالذّكر مجرد ذكر اللّسان ، بل الذّكر القلبي واللّساني ، وذكـــره يتضمّن ذكر أسمائه وصفاته ، وذكر أمره ونهيه ، وذكره بكلامه ، وذلـــك يســـتلزم معرفته والإيمان به ، وبصفات كماله ونعوت جلاله ، والثّناء عليه بـــأنواع المـــدح، وذلك لا يتمّ إلاّ بتوحيده . فذكره الحقيقي يستلزم ذلك كلّه ، ويســـتلزم ذكـــر نعمـــه وآلائه وإحسانه إلى خلقه " [٣].

وأفضل الذّكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللّسان ، وكان من الأذكار النّبويّة ، وشهد الذّاكر معانيه ومقاصده [٤] .

---

(١) فتح الباري : ٢٠٩/١١ . طبعة دار المعرفة .

(٢) انظر : جامع العلوم والحكم : ص : ٤٥٠ .

(٣) الفوائد : ص : ١٢٨ . وقارن بما ذكره الحافظ ابن حجر أعلاه .

(٤) المرجع السّابق : ص : ١٩٢ . و انظر : تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٧٦ .

وهو في القرآن على عشرة أوجه :

الأوّل : الأمر به مطلقاً ومقيّداً .

الثّاني : النّهي عن ضدّه من الغفلة والنّسيان .

الثّالث : تعليق الفلاح باستدامته وكثرته .

الرّابع : الثّناء على أهله ، والإخبار بما أعدّ الله لهم من الجنّة والمغفرة .

الخامس : الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره .

السّادس : أنّه سبحانه جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له .

السّابع : الإخبار أنّه أكبر من كلّ شيء .

الثّامن : أنّه جعله خاتمة الأعمال الصّالحة كما كان مفتاحها .

التّاسع : الإخبار عن أهله بأنّهم هم أهل الانتفاع بآياته ، وأنّهم أولو الألباب دون غيرهم .

العاشر : أنّه جعله قرين جميع الأعمال الصّالحة وروحها، فمتى عدمته كانت كالجسد بلا روح [1] . وذلك لعظيم منزلته ، وعلو شأنه ، ورفعة مكانه ، وجلالة قدره ، وسموّ شرفه .

قال ابن القيّم (رحمه الله) تحت عنوان : منزلة الذّكر :

" وهي منزلة القوم الكبرى الّتي منها يتزوّدون ، وفيها يتّجرون ، وإليها دائماً يتردّدون .

والذّكر منشور الولاية الّذي من أعطيه اتّصل ومن منعه عزل ، وهو قوت قلوب القوم الّذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبوراً ، وعمارة ديارهم الّتي إذا تعطّلت عنه صارت بوراً ، وهو سلاحهم الّذي يقاتلون به قطّاع الطّريق ، وماؤهم الّذي يطفئون به التهاب الطّريق[2] ، ودواء أسقامهم الّذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب ، والسّبب الواصل والعلاقة الّتي كانت بينهم وبين علاّم الغيوب .

وفي الوابل الصّيّب تفصيل قيّم لأنواع الذّكر . يطول ذكرها هنا . ص : ١١٨-١٢٠ .

(١) مدارج السّالكين : ٢/٤٢٤-٤٢٥ . و انظر : تفاصيل ذلك في نفس المرجع : ٢/٤٢٥-٤٢٧ .

(٢) التهاب الطّريق : هكذا في المرجع . ولعله التهاب الحريق ، فهو أنسب .

إذا مرضنا تداوينا بذكركم ...... فنترك الذّكر أحياناً فننتكس

به يستدفعون الآفات ، ويستكشفون الكربات ، وتهون عليهم به المصيبات ، إذا أظلّهم البلاء فإليه ملجؤهم ، وإذا نزلت بهم النّوازل فإليه مفزعهم ، فهو رياض جنّتهم الّتي فيها يتقلّبون ، ورءوس أموال سعادتهم الّتي بها يتّجرون ، يدع القلب الحزين ضاحكاً مسروراً ، ويوصل الذّاكر إلى المذكور بل يدع الذّاكر مذكوراً .

وفي كلّ جارحة من الجوارح عبوديّة مؤقّتة ، و الذّكر عبوديّة القلب واللّسان وهي غير مؤقّتة ، بل هم يأمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كلّ حال : قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، فكما أنّ الجنّة قيعان وهو غراسها فكذلك القلوب بور خراب وهو عمارتها وأساسها .

وهو جلاء القلوب وصقالها [1] ودواؤها إذا غشيها اعتلالها ، وكلّما ازداد الذّاكر في ذكره استغراقاً ازداد المذكور محبّة إلى لقائه واشتياقاً ، وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه نسي في جنب ذكره كلّ شيء ، وحفظ الله عليه كلّ شيء ، وكان له عوضاً من كلّ شيء .

به يزول الوقر[2] عن الأسماع ، والبكم عن الألسن ، وتنقشع الظّلمة عن الأبصار ، زيّن الله به ألسنة الذّاكرين كما زيّن بالنّور أبصار النّاظرين ، فاللّسان الغافل كالعين العمياء والأذن الصّمّاء واليد الشّلّاء ، وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته.

---

(١) الصّقْلُ: الجِلاء . صَقَلَ الشّيءَ يَصْقُلُه صَقْلاً و صِقَالاً، فهو مَصْقُولٌ و صَقِيلٌ: جَلاهُ، والاسم الصّقَالُ ، وهو صاقِلٌ والجمع صَقَلَةٌ . لسان العرب : ١١/٣٨٠ . و انظر : القاموس المحيط : ص : ١٣٢١ .

(٢) الوَقْرُ :بالفتح الثّقل في الأذن ، وبالكسر الحِمل . وقد أَوْقَرَ بعيره ، وأكثر ما يُستعمل الوِقْرُ في حِمل البغل والحمار ، والوسْق : في حِمل البعير .و أَوْقَرَتِ النّخلة : كثُر حِملها . مختار الصّحاح : ص : ٧٣٢ . و انظر : لسان العرب : ٥/٢٨٩ . القاموس المحيط : ص : ٦٣٥ .

قال الحسن البصري (رحمه الله) :

" تفقّدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء : في الصّلاة ، وفي الذّكر ، وقراءة القـرآن ، فإن وجدتم وإلاّ فاعلموا أنّ الباب مغلق" .

وبالذّكر يصرع العبد الشّيطان كما يصرع الشّيطان أهل الغفلة والنّسيان .

قال بعض السّلف :

" إذا تمكّن الذّكر من القلب فإن دنا منه الشّيطان صرعه كما يصرع الإنسـان إذا دنا منه الشّيطان ، فيجتمع عليه الشّياطين فيقولون : ما لهذا فيقـال : قـد مسّـه الإنسي ".

وهو روح الأعمال الصّالحة ، فإذا خلا العمل عن الذّكر كان كالجسد الّـذي لا روح فيه والله أعلم " [1].

بل هو أفضل الطّاعات ، وأعظم القربات . كما جاء في حديث أبي الـدّرداء ﷺ قال : قال النّبي ﷺ : " ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعـها في درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذّهب والوَرِق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوّكـم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم " ؟ قالوا : بلى . قال " ذكر الله تعالى " [2].

---

(١) مدارج السّالكين : ٢/ ٤٢٣-٤٢٤ .

(٢) سنن التّرمذي: بلفظه في : كتاب الدّعوات : (٤٤) . بـاب : (٦) . برقـم : (٣٣٧٧) . قـال الألبـاني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٥٣٤-٥٣٥ .

سنن ابن ماجه : بلفظ مقارب في : كتاب الأدب : (٣٣) . باب فضل الذّكر : (٥٣) . برقـم : (٣٧٩٠) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٤٠٥ .

موطّأ مالك : كتاب القرآن : (١٥) . باب ما جاء في ذكر الله تبارك وتعالى : (٧) . برقم : (٢٤) . موقوفـاً على أبي الدّرداء ﷺ . ٢١١/١ .

مسند أحمد: بلفظ مقارب في : ١٩٥/٥ ، ٤٤٧/٦ . عن ابي الدّرداء ﷺ . وعن معاذ ﷺ في : ٢٣٩/٥ .

مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في : ٦٧٣/١ . وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " .

وقد استشكل الحافظ ابن حجر (رحمه الله) هذا الحديث مع ما ورد في فضل الجهاد ، وأنّ المجـاهد كالصّـائم الّذي لا يفطر ، وكالقائم الّذي لا يفتر ، وغير ذلك ممّا يدلّ على أفضليّته على غيره من الأعمال الصّالحة .

قال المناوي (رحمه الله) :

" والذّكر هو المقصود الأسنى ، ورأس الذّكر قول لا إله إلاّ الله ، وهي الكلمة العليا، وهي القطب الّذي يدور عليه رحى الإسلام ، والقاعدة الّتي بني عليها أركان الدّين ، والشّعبة الّتي هي أعلى شعب الإيمان ، بل هي الكلّ وليس غيره﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [الأنبياء:١٠٨] . أي الوحي مقصور على استئثار الله بالوحدانيّة ، لأنّ القصد الأعظم من الوحي التّوحيد﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ [البينة:٥] "(١) .

وذلك لما فيه من كثير الأجر ، وبالغ الجزاء ، وجزيل الثّواب ، وعظيم الفضل . ففي حديث أبي هريرة ﷺ قال ﷺ : " من قال لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كلّ شئ قدير ، في يوم مائة مرّة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيّئة ، وكانت له حرزاً من الشّيطان يومه ذلك حتّى يمسي، و لم يأت أحد بأفضل ممّا جاء إلاّ رجل عمل أكثر منه " (٢).

فقال : "وطريق الجمع والله أعلم : إنّ المراد بذكر الله في حديث أبي الدّرداء الذّكر الكامل ، وهو ما يجتمع فيه ذكر اللّسان والقلب بالتّفكّر في المعنى واستحضار عظمة الله تعالى ، وأنّ الّذي يحصل له ذلك يكون أفضل ممّن يقاتل الكفّار مثلاً من غير استحضار لذلك ، وأنّ أفضليّة الجهاد إنّما هي بالنّسبة إلى ذكر اللّسان المجرد . فمن اتّفق له أنّه جمع ذلك ، كمن يذكر الله بلسانه وقلبه واستحضاره كلّ ذلك حال صلاته ، أو في صيامه ، أو تصدّقه ، أو قتاله الكفّار مثلاً فهو الّذي بلغ الغاية القصوى . والعلم عند الله تعالى " . فتح الباري : ٢١٠/١١ . طبعة دار المعرفة . و انظر : شرح الحديث في : فيض القدير : ١١٥/٣ .

(١) المرجع السّابق : ١١٦/٣ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه ــ إلاّ إنّه قال : " إلاّ أحد عمل أكثر من ذلك " ــ في كتاب بدء الخلق : (٣٥/٥٩) . باب صفة إبليس وجنوده : (١١) . برقم : (٣٢٩٣) . ص : ٦٩٣ . و بلفظه في : كتاب الدّعوات : (٥٤/٨٠) . باب فضل التّهليل : (٦٤) . برقم : (٦٤٠٣) . ص : ١٣٦٤ .

وفي روايته الأخرى قال ﷺ : " من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مـرّة حطّت خطاياه وان كانت مثل زبد البحر" [1].

وفي حديث له آخر ﷺ قال رسول الله ﷺ : " لأنّ أقول سبحان الله والحمـد لله ولا إله إلاّ الله والله اكبر أحبّ إلى ممّا طلعت عليه الشّمس " [2] .

بل يكفيه شرفاً وفضلاً أنّ رسول الله ﷺ مثّل الذّاكـر لله بـالحي ، والّـذي لا يذكره بالميّت . فقال في حديث أبي موسى ﷺ : " مثل الّذي يذكر ربّـه والّـذي لا يذكر مثل الحي والميّت " [3] .

قال أبو بكر ﷺ :

" ذهب الذّاكرون الله بكل خير " [4].

صحيح مسلم : بلفظ رواية البخاري الأولى ــ إلاّ إنّه قال : " أفضل " ــ مع زيادة فيـه . في كتـاب الذّكـر والدّعاء والتّوبة والاستغفار : (٤٨) . باب فضل التّـهليل والتّسـبيح والدّعـاء : (١٠) . برقـم : (٢٦٩١) . ٢٠٧١/٤ .

(١) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الدّعوات : (٥٤/٨٠) . باب فضل التّسبيح : (٦٥) . برقـم : (٦٤٠٥) . ص : ١٣٦٥ .

صحيح مسلم : جزء من حديث . بلفظه ــ إلاّ إنّه قال : " ولو كانت " ــ في كتاب الذّكر والدّعـاء والتّوبـة والاستغفار : (٤٨) . باب فضل التّهليل والتّسبيح والدّعاء : (١٠) . برقم : (٢٦٩١) . ٢٠٧١/٤ .

(٢) المرجع السّابق : بلفظه في : كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار : (٤٨) . باب فضل التّهليل والتّسـبيح والدّعاء : (١٠) . برقم : (٢٦٩٥) . ٢٠٧٢/٤ .

(٣) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الدّعوات : (٥٤/٨٠) . باب فضل ذكر الله عزّ وجلّ : (٦٦) . برقـم : (٦٤٠٧) .ص : ١٣٦٥ .

صحيح مسلم : نحوه في: كتاب صلاة المسافرين وقصرها : (٦) . باب استحباب صلاة النّافلة في بيته وجوازهـا في المسجد : (٢٩) . برقم : (٧٧٩) . ٥٣٩/١ .

(٤) مسند أحمد: بلفظه دون ذكر اسم الجلالة . وهو جزء من أثر . في : ٤٣٨/٣ .

معجم الطّبراني الكبير: بلفظه في : ١٨٦/٢٠ .

شعب الإيمان نحوه في: : ٤٠٨/١ .

وقال معاذ بن جبل ﷺ :

" ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله " (١).

والآيات في فضله متكاثرة ، والأحاديث متوافرة ، والآثار متعاضدة متـآزرة ، وكلّ منها يفوق حدّ الحصر ، ويعجز من أراد استيفاءها في هذا المقام عن الذّكـر ، وهي مشتملة على فوائد الذّكر ومنافعه ، وفضائله ومآثره (٢).

ولمّا كان الذّكر يتبوّأ مصدر الصّدارة بين الطّاعات ، ويحتل منزلة الرّئاسـة بين القربات أمر الله أهل الإيمان بالإكثـار منـه . فقـال ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأحـزاب:٤١-٤٢].

وقـال : ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنفـال:٤٥] .

وقـال : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة:٢٠٠].

ووصف المؤمنين الصّادقين بذلك فقال : ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحزاب:٣٥]

---

(١) سنن التّرمذي: نحوه في: كتاب الدّعوات : (٤٤) . باب (٦) . برقـم : (٣٣٧٧) . ص : ٥٣٥ . عقـب حديث أبي الدّرداء الّذي سبق ذكره ص : ٧١٦ .

موطّأ مالك : بلفظه ـ معلّقاً ـ في : كتاب القرآن : (١٥) . باب ما جاء في ذكر الله تبـارك وتعـالى : (٧) . برقم : (٢٤) . ٢١١/١ .

مسند أحمد: بلفظ مقارب . مرفوع إلى النّبي ﷺ . في : ٢٣٩/٥ .

مستدرك الحاكم: بلفظه ـ إلاّ إنّه قال : " آدمي " ـ في : ٦٧٣/١ .

شعب الإيمان بلفظ مقارب في : : ٣٩٤/٣ .

(٢) ذكر ابن القيّم (رحمه الله) أنّ فوائد الذّكر تبلغ مائة فائدة . ثمّ أفاض بقلم سيّال ، وعقل مدرك ، وفهم موعـب في تعدادها ، وحشد الأدلّة لإيضاحها ، فأورد منها ما يربو على السّبعين فائدة . وذلك في كتابه الوابل الصّيّب .

قال القرطبي (رحمه الله) في بيان معنى الآية الأولى :

" أمر الله تعالى عباده بأن يذكروه ويشكروه، ويكثروا من ذلك على ما أنعم به عليهم. وجعل تعالى ذلك دون حدّ لسهولته على العبد. ولعظم الأجر فيه " [١].

وقال ابن كثير (رحمه الله) :

" يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربّهم تبارك وتعالى المنعم عليهم بأنواع النّعم وصنوف المنن ، لما لهم في ذلك من جزيل الثّواب ، وجميل المآب " [٢] .

وقال ابن القيّم (رحمه الله) :

" ففيه الأمر بالذّكر بالكثرة والشّدّة لشدّة حاجة العبد إليه ، وعدم استغنائه عنه طرفة عين ، فأيّ لحظة خلا فيها العبد عن ذكر الله عزّ وجلّ كانت عليه لا له ، وكان خسرانه فيها أعظم ممّا ربح في غفلته عن الله " [٣].

ويؤيّد ذلك حديث أبي هريرة ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكّة فمرّ على جبل يقال له جُمْدَانُ فقال : " سيروا هذا جمدان ، سبق المُفَرِّدُون " قالوا وما المفرِّدون يا رسول الله؟ قال: " الذّاكرون الله كثيراً والذّاكرات "[٤] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ١٩٧/١٤ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٧٨٧/٣ .

(٣) الوابل الصّيّب : ص : ٥٩ . و انظر : جامع البيان : ٩/٢٢ . طبعة دار الفكر . فتح القدير : ٢٨٢/٤ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٦١٤ .

(٤) صحيح مسلم : كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار : (٤٨) . باب الحثّ على ذكر اللّه تعالى : (١) . برقم : (٢٦٧٦) . ٢٠٦٢/٤ .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى :

" ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [آل عمران:١٠٢] قال : " أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر " (١) .

كما حثّهم سبحانه على المداومة عليه وعدم التّفريط فيه ، أو الغفلة عنه . فقال لرسوله ﷺ ، والأمّة تبع له: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠٥-٢٠٦].

أي داوم على الذّكر ولا تنشغل عنه آناء الليل وأطراف النّهار لما في تلك الأوقات من ميزة وفضل ، وأن يكون ذلك بتضرّع وخشية وتذلّل ، وبأدب ووقار ورغبة ورهبة ، لا جهرة وصياحاً ، بل في خفض وسكون (٢)، وحضور قلب وعدم

---

(١)مصنّف بن أبي شيبة : ١٠٦/٧ . تفسير القرآن العظيم : ٥٧٩/١ وقال عن إسناده : " وهذا إسناد صحيح موقوف "

(٢) قال القرطبي (رحمه الله) :

" فهذه حالة العارفين بالله ، الخائفين من سطوته وعقوبته ، لا كما يفعله جهّال العوام والمبتدعة الطّغام — أي أرذال النّاس وأوغادهم — من الزّعيق والزّئير ، ومن النّهاق الّذي يشبه نهاق الحمير . فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أنّ ذلك وجد وخشوع : لم تبلغ أن تساوي حال الرّسول ولا حال أصحابه في المعرفة بالله ، والخوف منه ، والتعظيم لجلاله ، ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله ، والبكاء خوفاً من الله . ولذلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره ، وتلاوة كتابه فقال : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [المائدة:٨٣] . فهذا وصف حالهم ، وحكاية مقالهم . ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقتهم ، فمن كان مستنّاً فليستنّ ، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أخسّهم حالاً ، والجنون فنون ". الجامع لأحكام القرآن ٣٦٦/٧ .

غفلة ، وأتسى بحال الملائكة المستديمين على الذّكر ، الملازمين لـــه ، المسبّحين باللّيل والنّهار ، وهم لا يفترون ولا يغفلون [(١)].

وأثنى عزّ وجلّ على أولي الألباب ، أصحاب العقول النّيرة ، والأفهام الثّاقبة لمداومتهم على ذكره في كلّ أحوالهم . فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران:١٩١].

وهذه هيئات وأحوال لا يخلو ابن آدم في غالب أمره عنها . فهم مداومون على الذّكر في جميع أحوالهم ، لا ينفكون منه ، ولا يغيبون عنه [(٢)].

---

(١) و انظر : معنى الآيتين في : جامع البيان : ٩/١٦٦-١٦٨ . طبعة دار الفكر . معالم التّنزيل : ٢/٢٢٦-٢٢٧. الجامع لأحكام القرآن : ٧/٣٥٥-٣٥٧ . تفسير القرآن العظيم : ٢/٤٤٥-٤٤٦ . فتح القدير : ٢/٢٨٠ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٧٦-٢٧٧ .

(٢) ذهب بعض أهل العلم بأنّ المراد بالذّكر في الآية الصّلاة خاصّة . وذلك بأن يصلّي الإنسان قائماً ، فإن لم يستطع فقاعداً ، فإن لم يستطع فعلى جنب . وذلك لما ورد في حديث عمران بن حصين ﷺ قال : كانت بي بواسير ، فسألت النّبي ﷺ فقال : " صلّ قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب". صحيح البخاري: كتاب تقصير الصّلاة (الصّلاة) : (٥/١٨) . باب إذا لم يطق قاعداً صلّى على جنب : (٤٧٦/١٩) . برقم : (١١١٧) . ص : ٢٣٧ .

وسائر المفسّرين على أنّ المراد بذلك المداومة على الذّكر في كلّ الأحوال . لأنّ الإنسان قلّ ما يخلو من إحدى هذه الحالات الثّلاث المذكورة في الآية . و انظر : معالم التّنزيل : ١/٣٨٥ .

فالأولى حمل الآية على العموم . ولذا قال ابن جريج (رحمه الله) : " قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا ﴾ الآية، قال : هو ذكر الله في الصّلاة وفي غير الصّلاة ، وقراءة القرآن ".

وقال قتادة (رحمه الله): قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴾ . وهذه حالاتك كلّها يا ابن آدم ، فاذكره وأنت على جنبك ، يسراً من الله وتخفيفاً ". جامع البيان : ٤/٢١٠ . طبعة دار الفكر .

وقال ابن القيّم (رحمه الله) : " فعمّ بذكره أحوال العباد كلّها لأنّ العبد إمّا أن يكون قائماً ، أو قاعداً ، أو مضطجعاً ، فأراد منه ذكره في هذه الأحوال كلّها " . الصّواعق المرسلة : ٤/١٤٨٠ .

ولذا كان ﷺ يذكر الله على كلّ أحيانه كما ذكرت ذلك عائشة (رضي الله عنها) عنه [1] .

ولمّا طلب منه الصّحابي أن يرشده إلى أمر يتشبّث به أرشده إلى ذكر الله .

فعن عبد الله بن بسر ﷺ أنّ رجلاً قال: يارسول الله إنّ شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فأخبرني بشيء أتشبّث به . قال : " لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله " [2].

وهذا دليل على المداومة والاستمرار عليه من غير كلل ولا ملل .

وقال السّعدي (رحمه الله) : ﴿ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الذّكر بالقول والقلب ، ويدخل في ذلك الصّلاة قائماً ، فإن لم يستطع فقاعداً ، فإن لم يستطع فعلى جنب " . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١٢٨ . وهو قول حسن جامع . و انظر : تفسير القرآن العظيم : ٦٥٧/١ . فتح القدير : ٤١٢/١ .

(١) عن عائشة (رضي اللّه عنها) قالت : " كان النّبي ﷺ يذكر اللّه على كلّ أحيانه " . صحيح مسلم : كتاب الحيض : (٣) . باب ذكر اللّه تعالى في حال الجنابة وغيرها : (٣٠) . برقم : (٣٧٣) . ٢٨٢/١ .

قال المناوي (رحمه الله) : " كان المصطفى ﷺ أكمل النّاس ذكراً ، بل كان كلامه كلّه في ذكر اللّه وماوالاه ، أمره ونهيه وتشريعه وإخباره عن أسماء الرّب وصفاته ، وأحكامه وأفعاله ووعده ووعيده وتمجيده وتسبيحه وتحميده ورغبته ورهبته ذكراً منه بلسانه ، وصمته ذكر منه بقلبه في كلّ أحيانه " . فيض القدير : ٥٦٤/٣ .

(٢) سنن التّرمذي: بلفظه في : كتاب الدّعوات : (٤٤) . باب ما جاء في فضل الذّكر : (٤) . برقم : (٣٣٧٥) . وقال : " هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه " . وقال الألباني (رحمه اللّه): " صحيح " . ص : ٥٣٤ .

سنن ابن ماجه : بلفظ مقارب في : كتاب الأدب : (٣٣) . باب فضل الذّكر : (٥٣) . برقم : (٣٧٩٣) . قال الألباني (رحمه اللّه): " صحيح " . ص : ٤٠٥ .

سنن البيهقي : بلفظ مقارب في : باب طوبى لمن طال عمره وحسن عمله . ٣٧١/٣ . وقال عن الصّحابي : عبد اللّه بن بشر .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: بلفظ مقارب في : باب ذكر الاستحباب للمرء دوام ذكر اللّه جلّ وعلا في الأوقات والأسباب . قال شعيب الأرناؤوط : " إسناده قوي " . برقم : (٨١٤) . ٩٦/٣ .

مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في : ٦٧٢/١ . وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه " .

وعن *ابن عبّاس (رضي الله عنهما)* في قوله تعالى: ﴿ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٤١] :

" إنّ الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة إلاّ جعل لها حدّاً معلوماً ، ثمّ عذر أهلها في حال العذر غير الذّكر ، فإنّ الله تعالى لم يجعل له حدّاً ينتهي إليه ، ولم يعذر أحداً في تركه إلاّ مغلوباً على تركه ، فقال: ﴿ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [النساء:١٠٣] بالليل والنّهار في البر والبحر ، وفي السّفر والحضر، والغنى والفقر، والسّقم والصّحة ، والسّر والعلانية ، وعلى كلّ حال " [١].

ولمّا أمرهم سبحانه بالإكثار منه والمداومة عليه ورغّبهم بالأجر والثّواب على ذلك حذّرهم في مقابله عن الالتهاء والتّشاغل عنه ، والانصراف عن ملازمته ، والبعد عن ممارسته ، والغفلة عن مداومته ، إذ في الانشغال عنه ، والالتهاء بغيره مجلبة للخسران العظيم ، ومضيعة للثّواب الجسيم ، ومفارقة للخير الجزيل ، والأجر الوفير . وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [المنافقون:٩] .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" يقول تعالى آمراً لعباده المؤمنين بكثرة ذكره ، وناهياً لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك ، ومخبراً لهم بأنّه من التهى بمتاع الحياة الدّنيا وزينتها عمّا خلق له من طاعة ربّه وذكره ، فإنّه من الخاسرين الّذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة " [٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٧٨٨/٣ . وأورده ابن جرير (رحمه الله) في جامع البيان . فساقه بسنده إلى ابن عبّاس (رضي الله عنهما) :١٧/٢٢ .طبعة دار الفكر .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٥٨٢/٤ .

وقال السّعدي (رحمه الله) :

" يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره ، فإنّ في ذلك الرّبح والفلاح ، والخيرات الكثيرة ، وينهاهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكره ، فإنّ محبّة المال والأولاد مجبولة عليها أكثر النّفوس ، فتقدّمها على محبّة الله ، وفي ذلك الخسارة العظيمة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ﴾ أي يلهه ماله وولده عن ذكر الله ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ للسّعادة الأبديّة ، والنّعيم المقيم ، لأنّهم آثروا ما يفنى على ما يبقى " (١).

ووصف سبحانه فئة من عباده سمت هممهم ، وصدقت نيّاتهم ، وعلت عزائمهم فعمروا بيوت الله في أرضه ، ومواطن عبادته بذكره سبحانه ، في أشرف الأوقات ، وأفضل الأزمنة . لم تشغلهم عن ذلك دنيا مؤثرة ، ولا حياة فانية ، ولا مكاسب رخيصة ، ولا عرض زائل . بل آثروا الباقية على الفانية ، والدّائمة على الذّاهبة . غايتهم طاعة الله ، ومرادهم عبادته ، ومقصدهم رضاه ، فما حال بينهم وبينه رفضوه وتركوه . راغبين إلى الله فيما عنده ، راهبين من عقابه ، خائفين من يوم شديد هوله ، عظيم وقعه ، تنزعج له القلوب ، وترتجف له الأبدان ، وتضطرب فيه الأبصار . فركبوا سفينة الذّكر لترسو بهم في بر الأمان كي ينالوا عظيم الأجر . وفي ذلك يقول المولى سبحانه : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ

---

(١) تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٨٠١ . و انظر : جامع البيان :٢٨/١١٧-١١٨ . طبعة دار الفكر . أنوار التّنزيل : ٥/٣٤٣ .

وقد ذكر بعض أهل العلم أنّ المراد بالذّكر هنا : الصّلوات الخمس . وقيل : الحجّ والزّكاة . وقيل قراءة القرآن . وقيل : جميع الفرائض . وقيل : استدامة الذّكر . انظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٨/١٢٩ . فتح القدير : ٥/٢٣٣ . والأولى حمل الذّكر على عمومه فيدخل فيه كلّ ما ذكر .

وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٨ ﴾ [النور:٣٦-٣٨] (١) .

وفي مقابل هؤلاء وصف سبحانه فئة أخرى نسيت ذكره ، وأعرضت عنه ، فلم يشتغلوا به ، ولم يلازموه ، بل أقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها وملاذها فانشغلوا بها . فأنساهم الله مصالح أنفسهم ، وأغفلهم عن منافعها ، وعظيم فوائدها ، فخسرت تجارتهم ، وكسدت بضاعتهم ، وغبنت نفوسهم ، وضاعت حظوظهم ، ولازمهم الفسوق . فصاروا خارجين عن طاعة الله ، هالكين مبعدين ، فشقوا في الدّنيا ، ونُكِّل بهم في الآخرة . وفي ذلك تحذير لأهل الإيمان من نسيان الله تعالى ، والإعراض عن ذكره .

قال عزّ وجلّ : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩ ﴾ [الحشر:١٩] (٢) .

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" إنّ دوام ذكر الرّب تبارك وتعالى يوجب الأمان من نسيانه الّذي هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعاده ، فإنّ نسيان الرّب سبحانه وتعالى يوجب نسيان نفسه ومصالحها . قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩ ﴾ [الحشر:١٩] وإذا نسي العبد نفسه أعرض عن مصالحها ونسيها ، واشتغل عنها فهلكت وفسدت ولا بد ، كمن له زرع أو بستان أو

---

(١) و انظر : في معنى الآيات : جامع البيان :١٤٣-١٤٧ . طبعة دار الفكر . الجامع لأحكام القرآن : ٢٦٥/١٢-٢٨١ . تفسير القرآن العظيم : ٤٦٧/٣-٤٧٣ . فتح القدير : ٣٤/٤-٣٥ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٥١٨ .

(٢) و انظر : معنى الآية في : جامع البيان : ٥٢/٢٨-٥٣ . طبعة دار الفكر . الجامع لأحكام القرآن : ٤٣/١٨ . أنوار التّتزيل : ٣٢٣/٥ . تفسير القرآن العظيم : ٥٣٣/٤ . فتح القدير : ٢٠٦/٥ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٧٩١-٧٩٢ .

ماشية أو غير ذلك ، وممّا صلاحه وفلاحه بتعاهده والقيام عليه ، فأهمله ونسيه واشتغل عنه بغيره ، وضيّع مصالحه فإنّه يفسد ولابد ، هذا مع إمكان قيام غيره مقامه فيه ، فكيف الظّنّ بفساد نفسه وهلاكها وشقائها إذا أهملها ونسيها ، واشتغل عن مصالحها ، وعطّل مراعاتها ، وترك القيام عليها بما يصلحها ، فما شئت من فساد وهلاك وخيبة وحرمان ، وهذا هو الّذي صار أمره كلّه فرطاً ، فانفرط عليه أمره ، وضاعت مصالحه ، وأحاطت به أسباب القطوع والخيبة والهلاك .

ولا سبيل إلى الأمان من ذلك إلاّ بدوام ذكر الله تعالى ، واللّهج به ، وأن لا يزال اللّسان رطباً به ، وأن يتولّى منزلة حياته الّتي لا غنى له عنها ، ومنزلة غذائه الّذي إذا فقده فسد جسمه وهلك ، وبمنزلة الماء عند شدّة العطش ، وبمنزلة اللّباس في الحرّ والبرد ، وبمنزلة الكِنّ [(١)] في شدّة الشّتاء والسّموم. فحقيق بالعبد أن ينزل ذكر الله منه بهذه المنزلة وأعظم " [(٢)] .

وترك الذّكر والإعراض عنه ونسيان الله صفة ذميمة عرف بها أهل النّفاق ، وسجّلها الله عليهم في قرآنه ذامّاً لهم بها ، وعائباً عليهم اتّسامهم بها ، لما حلّ في قلوبهم من نفاق ، وساد أعمالهم من رياء ، وفارقها الإخلاص ، فتباطؤا عن أشرف الأعمال وأكبر الطّاعات ، فلا يؤدّونها إلاّ وهم كسالى ، إذ لا نيّة صحيحة لهم فيها ، ولا خشية عندهم تدفعهم إلى أدائها ، ولا يعقلونها ولا يرجون ثوابها . أحجمت ألسنتهم عن ذكر الله إلاّ ما قلّ وندر . وما قلّ وندر رياء لا إخلاص فيه ، وشك لا

---

(١) الكِنُّ والكِنَّةُ و الكِنَانُ: وِقاء كلّ شيءٍ وسِتْرُه . و الكِنُّ : البيت أيضاً ، والجمع أَكْنانٌ و أَكِنَّةٌ . وفي التّنزيل العزيز : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَـٰنًا ﴾ [النّحل:٨١] والكِنُّ : ما يَرُدُّ الحَرَّ والبَرْدَ من الإبنية والمساكن ، وقد كَنَنْتُه أَكُنُّه كَنّاً . والفعل من ذلك : كَنَنْتُ الشّيء : أي جعلته في كِنَ. و كَنَّ الشّيءَ يَكُنُّه كَنّاً و كُنوناً و أَكنّه و كَنّنه: ستره . انظر : لسان العرب : : ١٣/٣٦٠ . و انظر : مختار الصّحاح : ص : ٥٨٠ . القاموس المحيط : ص : ١٥٨٤ .

(٢) الوابل الصّيّب : ص : ٦٧ . و انظر : الصّواعق المرسلة : ٤/ ١٤٨١ .

يقين معه . وذلك أمر يترفّع عنه أهل الإيمان المخلصون الّذين امتلأت قلوبهم بتعظيم الله ومحبّة ذكره ، وامتثال أمره .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ [النساء:١٤٢].

وقال تعالى : ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [التوبة:٦٧].

قال ابن جرير (رحمه الله) في بيان قوله تعالى:﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ :

" فلعلّ قائلاً أن يقول : وهل من ذكر الله شيء قليل ؟ قيل له : إنّ معنى ذلك بخلاف ما إليه ذهبت : إنّما معناه ولا يذكرون الله إلاّ ذكراً رياءً ، ليدفعوا به عن أنفسهم القتل والسّباء [1] وسلب الأموال ، لا ذكر موقن مصدّق بتوحيد الله ، مخلص له الرّبوبيّة . فلذلك سمّاه الله ﴿ قَلِيلًا ﴾ ، لأنّه غير مقصود به الله ، ولا مبتغى به التّقرّب إلى الله ، ولا مراد به ثواب الله وما عنده . فهو وإن كثر من وجه نصب عامله وذاكره ، في معنى السّراب الّذي له ظاهر بغير حقيقة ماء " [2] .

---

(١)السّبْيُ و السّبَاءُ : الأسر ، وقد سَبَيْتُ العدو : أسرته . وبابه رمى . مختار الصّحاح : ص : ٢٨٥ . و انظر : لسان العرب : ٣٦٧/١٤ . القاموس المحيط : ص : ١٦٦٨ .

(٢) جامع البيان :٣٣٥/٥ . طبعة دار الفكر . و انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٤٢٢/٥ . تفسير القرآن العظيم : ٨٦٤/١ ، ٥٧٣/٢ . فتح القدير : ٥٢٩/١ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١٧٤ ، ٣٠٣ .

ويعضّد الآية السّابقة قوله ﷺ في حديث أنس بن مالك ﷺ : " تلك صلاة المنافق ، يجلس يرقب الشّمس حتّى إذا كانت بين قرني الشّيطان قام فنقرها أربعاً لا يذكر الله فيها إلاّ قليلاً " [١].

قال كعب (رحمه الله) :

"من أكثر ذكر الله عزّ وجلّ برئ من النّفاق" [٢].

وقال ابن القيّم (رحمه الله) :

" من علامة النّفاق قلّة ذكر الله عزّ وجلّ . وكثرة ذكره أمان من النّفاق . والله عزّ وجلّ أكرم من أن يبتلي قلباً ذاكراً بالنّفاق ، وإنّما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله عزّ وجلّ "[٣] .

فلمّا أعرض المنافقون عن ذكر الله وغفلوا عنه غلب عليهم الشّيطان فاستعلى على قلوبهم ، واستولى على أفئدتهم فحواها وأحاط بها ، فزاد نسيانهم نسياناً ، وإعراضهم إعراضاً ، حتّى أصبحوا جنداً له وأتباعاً ، فخسروا الخسران العظيم الّذي يفوق خسران كلّ خاسر .

وفي ذلك يقول الرّب سبحانه :﴿ ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[المجادلة:١٩] [٤]

---

(١) صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب المساجد ومواضع الصّلاة : (٥) . باب استحباب التّبكير بالعصر : (٣٤) . برقم : (٦٢٢) . ٤٣٤/١ . وقوله : " فنقرها " : المراد بالنّقر سرعة الحركات كنقر الطّائر . شرح النووي على مسلم : ١٢٤/٥ .

(٢) الوابل الصّيّب : ص : ١١٠ . جامع العلوم والحكم : ص : ٤٤٥ .

(٣) الوابل الصّيّب : ص : ١١٠ .

(٤) و انظر في معنى الآية : جامع البيان :٢٥/٢٨ . طبعة دار الفكر . الجامع لأحكام القرآن : ٣٠٥/١٧-٣٠٦ . أنوار التّنزيل : ٣١٤/٥ . تفسير القرآن العظيم : ٥١٢/٤ . فتح القدير : ١٩٣/٥ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٧٨٦ .

فالشّيطان عليه لعائن الله لايستحوذ على قلب إلاّ إذا وجده خالياً عن ذكـو الله ، عازفاً عنه ، فارغاً منه . لأنّ ذكر الله حرز من الشّيطان ، عاصم منه ، طارد لـه . كما جاء في حديث يحيى بن زكريا عليهما السّلام . " وآمركم أن تذكروا الله ، فـإنّ مثل ذلك كمثل رجل خرج العدوّ في أثره سراعاً حتّى إذا أتى على حصنٍ حصيـنٍ فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشّيطان إلاّ بذكر الله ... الحديث " [1] .

قال الغزالي (رحمه الله) :

" ومهما غلب على القلب ذكر الدّنيا بمقتضيات الهوى وجد الشّيطان مجالاً فوسوس ، ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ارتحل الشّيطان وضاق مجاله، وأقبل الملك ... والتّطارد بين جندي الملائكة والشّياطين في معركة القلب دائم إلى أن ينفتح القلب لأحدهما ، فيستوطن ويستمكن ، ويكون اجتياز الثّاني اختلاساً . وأكثر القلوب قد فتحتها جنود الشّياطين وتملّكتها فامتلأت بالوساوس الدّاعية إلى إيثار العاجلة واطّراح الآخرة ، ومبدأ استيلائها اتّباع الشّهوات والهوى ، ولا يمكن فتحها بعد ذلك إلاّ بتخلية القلب عن قوت الشّيطان وهو الهوى والشّهوات ، وعمارته بذكر الله تعالى " [2] .

---

(١) سنن التّرمذي: بلفظه في : كتاب الأدب : (٤٠) . باب ما جاء في مثل الصّلاة والصّيام والصّدقة : (٧٨) . برقم : (٢٨٦٣) . وقال : " هذا حديث حسن صحيح غريب . قال محمّد بن إسماعيل : الحرث الأشعري له صحبة ، وله هذا الحديث " . و قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٤٥٨ .

مسند أحمد: بلفظ مقارب في : ١٣٠/٤ ، ٢٠٢ .

مستدرك الحاكم: ذكر جزءاً من الحديث ، و لم يورد ما يتعلّق بالذّكر منه . ٣٦٢/١ . وقال : " والحديث على شرط الأئمة صحيح محفوظ " .

مسند أبي يعلى: بلفظ مقارب في : ١٤٠/٣ . برقم : (١٥٧١) . قال محقّقه : " إسناده صحيح " .

مسند أبي داود الطّيالسي: بلفظ مقارب في : ص: ١٥٩ . برقم : (١١٦١) .

(٢) احياء علوم الدّين : ٢٨/٣ . طبعة دار المعرفة .

فإنّ الذّاكر في حصن الذّكر فمتى غفل فتح باب الحصن فولجه العدوّ فيعسر عليه ، أو يصعب إخراجه [١].

وفوق ذلك كلّه فإنّ الذّكر عامل مؤثّر في كشف الملمّات ، وتفريج الكربات ، لأنّ فيه لجوءاً إلى الله تعالى ، مزيل كلّ شدّة ، ومهوّن كلّ صعب . ولذا أرشد قدوة الأنام إليه في قوله له : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الحجر:٩٧-٩٨].

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" أي وإنّا لنعلم يا محمّد أنّك يحصل لك من أذاهم لك ضيق صدر وانقباض، فلا يَهيدَنّك [٢] ذلك ، ولا يثنينّك عن إبلاغك رسالة الله ، وتوكّل عليه فإنّه كافيك وناصرك عليهم ، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته الّتي هي الصّلاة ، ولهذا قال: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾" [٣] .

وقال السّعدي (رحمه الله) :

" أي : أكثر من ذكر الله ، وتسبيحه ، وتحميده ، والصّلاة ، فإنّ ذلك يوسّع الصّدر ، ويشرحه ، ويعينك على أمورك " [٤] .

---

(١) الفوائد : ص : ١٩١ .

(٢)هادَه الشّيءُ هَيْداً وهاداً : أفزَعَه وكَرَبَه . وما يَهيدُه ذلك : أي ما يَكْتَرِثُ له ولا يُزْعِجُه .
لسان العرب : ٤٤٠/٣ . و انظر : القاموس المحيط : ص : ٤٢٠ .

(٣) تفسير القرآن العظيم : ٨٦٨/٢ .

(٤) تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٣٨٨ .

ومن هنا كان الذّكر من أعظم العوامل المعينة على الثّبات ، بل قرنه الله بالثّبات في كتابه . فقال سبحانه عن القرآن الّذي هو أعظم الذّكر على الإطلاق : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان:٣٢] .

فقد أنزل الذّكر العظيم على الرسول الكريم ﷺ منجّماً أي مفرّقاً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث ، وما يحتاج إليه من الأحكام ليثبّت فؤاد النّبي ﷺ ، ويقوّي يقينه ، ويطمئن قلبه [(١)].

وليس ذلك خاصّاً بالرّسول ﷺ بل هو عام لكلّ مؤمن ، فإنّ الذّكر يثبّت قلبه، ويقوّي إيمانه ، ويزداد طمأنينة وهدى . وفي ذلك يقول المولى عزّ وجلّ : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [النحل:١٠٢] [(٢)].

وهذا على عمومه ، وأمّا عند جهاد أعداء الله الّذي هو موطن الحديث فإنّ الذّكر له تأثير عظيم وبالغ في إعانة المجاهد وتأييده ، وصبره وثباته ، وفوزه ونصرته . بل هو أعظم عامل للثّبات في ذاك المقام . ولذا قرنه الله بالجهاد ،

---

(١) وانظر في معنى الآية : معالم التنزيل :٣٦٨/٣ . الجامع لأحكام القرآن :١٣/٢٨-٢٩ . أنوار التنزيل : ٤/٢١٦-٢١٧. تفسير القرآن العظيم : ٥٠٨/٣ . فتح القدير : ٧٣/٤ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٥٣٠-٥٣١ .

(٢) ونظر في معنى الآية : معالم التنزيل :٨٤/٣-٨٥ . الجامع لأحكام القرآن : ١٧٧/١٠. أنوار التنزيل : ٤٢٠/٣ . تفسير القرآن العظيم : ٩٠٩/٢ . فتح القدير : ١٩٤/٣ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٤٠١ .
والآيتان تتحدّثان عن القرآن ، والقرآن ذكر كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر:٩] .

فقال آمراً للمؤمنين :﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنفال:٤٥] .

قال القرطبي (رحمه الله) :

" قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً ﴾ أي جماعة ﴿ فَٱثۡبُتُواْ ﴾ أمر بالثّبات عند قتال الكفّار ، كما في الآية قبلها [1] النّهي عن الفرار عنهم ، فالتقى الأمر والنّهي على سواء . وهذا تأكيد على الوقوف للعدوّ والتّجلّد له.
قوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ للعلماء في هذا الذّكر ثلاثة أقوال:

الأوّل : اذكروا الله عند جزع قلوبكم ، فإنّ ذكره يعين على الثّبات في الشّدائد .

الثّاني : اثبتوا بقلوبكم ، واذكروه بألسنتكم ، فإنّ القلب لا يسكن عند اللّقاء ويضطّرب اللّسان ، فأمر بالذّكر حتّى يثبت القلب على اليقين ، ويثبت اللّسان على الذّكر، ويقول ما قاله أصحاب طالوت. ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرًا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٠]. وهذه الحالة لا تكون إلاّ عن قوّة المعرفة ، واتّقاد البصيرة ، وهي الشّجاعة المحمودة في النّاس.

الثّالث : اذكروا ما عندكم من وعد الله لكم في ابتياعه أنفسكم ، ومثامنته لكم .

قلت: والأظهر أنّه ذكر اللّسان الموافق للجنان " [2] .

---

(١) الآية هي : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأنفال:١٥] .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ٨/٢٣-٢٤ .

وقال ابن كثير (رحمه الله) :

" فأمر تعالى بالثّبات عند قتال الأعداء والصّبر على مبارزتهم ، فلا يفرّوا ولا ينكلوا ولا يجبنوا ، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه ، بل يستعينوا به ويتوكّلوا عليه ، ويسألوه النّصر على أعدائهم ، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك ، فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا ، وما نهاهم عنه انزجروا " (١) .

ونحو الآية السّابقة قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النساء:١٠٣]

قال القرطبي (رحمه الله) :

" ذهب الجمهور إلى أنّ هذا الذّكر المأمور به إنّما هو إثر صلاة الخوف ، أي إذا فرغتم من الصّلاة فاذكروا الله بالقلب واللّسان ، على أي حال كنتم ﴿ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ ﴾ وأديموا ذكره بالتّكبير والتّهليل والدّعاء بالنّصر لا سيما في حال القتال . ونظيره ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ " (٢) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٢/٤٩٦ . و انظر : فتح القدير : ٢/٣١٤-٣١٥ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ٥/٣٧٣-٣٧٤ . و انظر : جامع البيان :٥/٢٥٩-٢٦٠ . طبعة دار الفكر . فتح القدير : ١/٥١٠ .

وفي حديث عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) قال: إنّ رسول الله ﷺ قال: "لا تتمنّوا لقاء العدوّ واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاثبتوا وأكثروا ذكر الله ، فإن أجلبوا [1]وضجّوا فعليكم بالصّمت" [2].

قال قتادة (رحمه الله) :

" افترض الله ذكره عند أشغل ما تكونون ، عند الضّراب بالسّيوف " [3] .

وسرّ حصول الثّبات بالذّكر عند الجهاد لما للذّكر من أثر عظيم على القلوب الّتي هي موطن الثّبات ، ومقرّه الأوّل . ويتمثّل ذلك في عدّة أمور :

أ ـ توجل القلوب من ربّها فيزداد إيمانها ويقينها ، فتنقاد لأوامره ، وتتجنّب معاصيه . ومن ذلك ما أمرت به من الثّبات لقتال الأعداء ، وعدم الفرار .

---

(١) يقال : أجْلَبوا عليه : إذا تَجمّعوا وتألّبوا . وأجلَبه : أعانه . وأجْلب عليه : إذا صاح به واسْتَحَثّه . النّهاية في غريب الحديث: ٢٨٢/١ .

(٢) صحيح البخاري: نحوه في: كتاب الجهاد والسّير : (٣٢/٥٦) . باب الصّبر عند القتال : (٣٢) . برقم : (٢٨٣٣) . ص : ٥٩٩ . وفي باب كان النّبي ﷺ إذا لم يقاتل أوّل النّهار أخّر القتال حتّى تزول الشّمس : (١١١/١١٢) . برقم : (٢٩٦٦) . ص : ٦٢٤ . وفي باب لا تتمنّوا لقاء العدوّ : (١٥٥/١٥٦) . برقم : (٣٠٢٥) . ص : ٦٣٦-٦٣٧ . وفي كتاب التّمنّي : (٦٩/٩٤) . باب كراهيّة تمنّي لقاء العدوّ : (٨) . برقم : (٧٢٣٧) . ص : ١٥٢٤ . عن عبد الله بن أبي أوفى ﷺ .
صحيح مسلم : نحوه في : كتاب الجهاد والسّير : (٣٢) . باب كراهة تمنّي لقاء العدوّ ، والأمر بالصّبر عند اللّقاء : (٦) . برقم : (١٧٤١) . عن أبي هريرة ﷺ . و برقم : (١٧٤٢) . ١٣٦٢/٣-١٣٦٣ عن ابن أبي أوفى ﷺ .
واللّفظ أعلاه أورده الدّارمي في سننه . في باب لا تتمنّوا لقاء العدوّ . ٢/ ٢٨٥ . وعند البيهقي في سننه لفظ مقارب له . في باب الصّمت عند اللّقاء . ١٥٣/٩ .
قال ابن القيّم (رحمه الله) :
" التّفضيل بين الذّاكر والمجاهد : فإنّ الذّاكر المجاهد أفضل من الذّاكر بلا جهاد والمجاهد الغافل ، والذّاكر بلا جهاد أفضل من المجاهد الغافل عن الله تعالى ، فأفضل الذّاكرين المجاهدون ، وأفضل المجاهدين الذّاكرون " . الوابل الصّيّب : ص : ٥٨ . و انظر : الصّواعق المرسلة : ١٤٨٠/٤-١٤٨١ .

(٣) جامع البيان : ١٤/١٠ . طبعة دار الفكر . و انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢٤/٨ . تفسير القرآن العظيم : ٤٩٦/٢ .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال:٢] (١) .

قال أبو الدّرداء ﷺ :

" الوجل في القلب كإحراق السّعفة ، أما تجد له قشعريرة ؟ قال: بلى! قال: إذا وجدت ذلك في القلب فادع الله ، فإنّ الدّعاء يذهب بذلك " (٢) .

قال الشّوكاني (رحمه الله) :

" الوجل: الخوف والفزع ، والمراد أنّ حصول الخوف من الله والفزع منه عند ذكره هو شأن المؤمنين الكاملي الإيمان المخلصين لله ، فالحصر باعتبار كمال الإيمان لا باعتبار أصل الإيمان " (٣) .

فأهل الإيمان الحقّ هم الّذين إذا ذكروا الله فرقت قلوبهم وفزعت وخافت ، ففعلوا الأوامر وتركوا الزّواجر ، ولازموا الطّاعات وجانبوا المعاصي ، تعظيماً لله وإجلالاً لقدره .

وهذا أعظم ما يحتاج له المجاهد في سبيل الله حيث يزداد يقينه ، ويقوى إيمانه ، فيكل أمره إلى مولاه ، وشأنه إلى خالقه ، فلا يعبأ بذهاب الرّوح ، ولا تلف الجسد .

---

(١) ومثلها : قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الحج:٣٥] .

وفي حديث العرباض بن سارية ﷺ قال : " وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب و ذرفت منها العيون " . والموعظة ذكر . وانظر تخريجه : ص : ٨٣١ .

(٢) جامع البيان :١٧٩/٩ . طبعة دار الفكر .

(٣) فتح القدير : ٢٨٥/٢ .

قال ابن رجب (رحمه الله) :

" ويدخل في مسمّى الإيمان وجل القلوب من ذكر الله ، وخشوعها عند سماع ذكره وكتابه ، وزيادة الإيمان بذلك ، وتحقيق التّوكّل على الله عزّ وجلّ ، وخوف الله سرّاً وعلانية ، والرّضا بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمّد ﷺ رسولاً ، واختيار تلف النّفوس بأعظم أنواع الآلام على الكفر ، واستشعار قرب الله من العبد ، ودوام استحضاره ، وإيثار محبّة الله ورسوله على محبّة ما سواهما " [1] .

ب ــ يقذف فيها الطّمأنينة ويبثّ فيها السّكينة ، فتستأنس بربّها ، وتركن إلى جناب مولاها ، فيزول قلقها ويذهب اضطرابها ، وتزداد غبطتها ويكثر سرورها ، وتذهب أحزانها وتغيب أتراحها ، فتشتاق إلى لقاء ربّها وتسعد بالقدوم إلى خالقها .

قال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد:٢٨] [2] .

وفي حديث أبي هريرة وأبي سعيد (رضي الله عنهما) أنّهما شهدا على النّبي ﷺ أنّه قال : " لا يقعد قوم يذكرون الله عزّ وجلّ إلاّ حفّتهم الملائكة ، وغشيتهم الرّحمة ،

---

(١) جامع العلوم والحكم : ص: ٣٢ .

(٢) و انظر في معنى الآية : جامع البيان : ١٤٥/١٣ . طبعة دار الفكر . معالم التّتريل :١٧/٣-١٨ . الجامع لأحكام القرآن : ٣١٥/٩ . أنوار التّتريل : ٣٢٨/٣ . تفسير القرآن العظيم : ٧٩٢/٢ . فتح القدير : ٨١/٣ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٣٧٢ .

قال البغوي (رحمه الله) : " فإن قيل : أليس قد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال:٢] ، فكيف تكون الطّمأنينة والوجل في حالة واحدة ؟

قيل: الوجل عند ذكر الوعيد والعقاب ، والطّمأنينة عند ذكر الوعد والثّواب ، فالقلوب توجل إذا ذكرت عدل الله وشدّة حسابه ، وتطمئن إذا ذكرت فضل الله وكرمه " . معالم التّتريل :١٧/٣-١٨ . و انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٣٦٥/٧-٣٦٦ .

ونزلت عليهم السّكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده " (١) .

ج ـ تنشرح به وتنفسح ، وتلين وتخشع وترقّ ، فتزول قسوتها ، وتذوب صلابتها .

وفي ذلك يقول المولى عزّ وجلّ : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر:٢٢-٢٣].

ويقول : ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد:١٦] . (٢)

عن مالك (رحمه الله) أنه بلغه : أنّ عيسى ابن مريم عليه السّلام كان يقول : " لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم ، فإنّ القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون ..." الحديث (٣).

---

(١) صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار : (٤٨) . باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ، وعلى الذّكر : (١١) . برقم : (٢٧٠٠) . ٢٠٧٤/٤ .

(٢) و انظر في معاني الآيات : جامع البيان : ٢١٠/٢٣-٢١١ ، ٢٢٨/٢٧-٢٢٩ . طبعة دار الفكر . الجامع لأحكام القرآن : ٢٤٦/١٥-٢٥٠ ، ٢٤٨/١٧-٢٤٩ . أنوار التّنزيل : ٦٣/٥-٦٤ ، ٣٠٠-٣٠١ . تفسير القرآن العظيم : ٧٧/٤-٧٨ ، ٤٨٣-٤٨٥ . فتح القدير : ٤٥٨/٤-٤٥٩ ، ١٧٢/٥ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٦٦٨ ، ٧٨٠ .

(٣) موطّأ مالك : كتاب الكلام : (٥٦) . باب ما يكره من الكلام بغير ذكر الله : (٣) . برقم : (٨) . ٩٨٦/٢ . وأورد التّرمذي في سننه عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال : قال رسول الله ﷺ : " لا تكثروا الكلام بغير

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" إنّ في القلب قسوة لا يذيبها إلاّ ذكر الله تعالى ، فينبغي للعبد أن يداوي قسوة قلبه بذكر الله تعالى ... إنّ رجلا قال للحسن : "يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي " . قال : " أذبه بالذّكر" . وهذا لانّ القلب كلّما اشتدّت به الغفلة اشتدّت به القسوة ، فإذا ذكر الله تعالى ذابت تلك القسوة كما يذوب الرّصاص في النّار ، فما أذيبت قسوة القلوب بمثل ذكر الله عزّ وجلّ " [١] .

وقال ابن رجب (رحمه الله) :

" رقّة القلوب فتنشأ عن الذّكر ، فإنّ ذكر الله يوجب خشوع القلب ، وصلاحه ، ورقّته ، و يذهب بالغفلة عنه " [٢] .

د ـ تحيا به كما تحيا الأرض الميتة بالقطر .

إنّ الذّكر ينبّه القلب من نومه ، ويوقظه من سنته ، والقلب إذا كان نائماً فاتته الأرباح والمتاجر ، وكان الغالب عليه الخسران ، فإذا استيقظ وعلم ما فاته في نومته شدّ المئزر وأحيا بقية عمره ، واستدرك ما فاته ، ولا تحصل يقظته إلاّ بالذّكر ، فانّ الغفلة نوم ثقيل [٣] .

هـ ـ تستنير به ، وتذهب ظلمة الذّنوب ووحشتها عنها ، وينقشع الرّان[٤] الّذي عليها ، ويذهب صدؤها ويذوب درنها ، فتصفو وتجلو ، ويطيب ريحها ، وينصع طيبها .

ذكر اللّه ، فإنّ كثرة الكلام بغير ذكر اللّه قسوة للقلب ، وإنّ أبعد النّاس من اللّه القلب القاسي " . في : كتاب الزّهد : (٣٣) . باب : (٦٢) . برقم : (٢٤١١) . وقال : " هذا حديث حسن غريب" . وقال الألباني (رحمه اللّه): " ضعيف " . ص : ٣٩٤ .

(١) الوابل الصّيّب : ص : ٩٩ .

(٢) لطائف المعارف : ص : ١٣ .

(٣) الوابل الصّيّب : ص : ٩٢ . و انظر : مدارج السّالكين : ٢/٤٣٤-٤٣٥ . لطائف المعارف : ص : ١٤ .

(٤) الرّان والرّين : هو ما يغشى القلب فيغلب عليه ويغطّيه كالصّدأ . انظر : لسان العرب : ١٣/١٩٢ .

وقال أبو الدّرداء رضي الله عنه :

" لكلّ شئ جلاء ، وإنّ جلاء القلوب ذكر الله عزّ وجلّ" . [1]

وقال المناوي (رحمه الله) :

" ذكر الله أفضل الأعمال ، ورأس كلّ عبادة ، ورأس كلّ سعادة ، بل هو كالحياة للأبدان ، والرّوح للإنسان ، وهل للإنسان غنى عن الحياة ؟ وهل له من الرّوح معدل ؟ وإن شئت قلت به لقاء الدّنيا ، وقيام السّموات والأرض " [2] .

وقال : " إذ به يستنير القلب ، ويتّسع الصّدر ، ويمتلئ فرحاً وسروراً ، وشرف الذّكر تابع لشرف المذكور ، وشرف العلم تابع لشرف المعلوم ، وشرف الشّيء بسبب الحاجة إليه ، وليست حاجة الأرواح بشيء أعظم من ذكر بارئها ، والابتهاج به " [3] .

ولا ريب إنّ القلب يصدأ كما يصدأ النّحاس والفضّة وغيرهما ، وجلاؤه بالذّكر ، فإنّه يجلوه حتّى يدعه كالمرآة البيضاء ، فإذا ترك صدئ . وصدأ القلب بأمرين : بالغفلة والذّنب . وجلاؤه بشيئين : بالاستغفار والذّكر . فمن كانت الغفلة

---

(١) شعب الإيمان : ٣٩٦/١ .

عن سعيد بن سنان حدثني أبو الزّهراويّة عن أبي شجرة واسمه كثير بن مرّة عن عبد اللّه بن عمر عن النّبي ﷺ أنّه كان يقول : " إنّ لكلّ شيء سقالة ، وأنّ سقالة القلوب ذكر اللّه ، وما من شيء أنجى من عذاب اللّه من ذكر اللّه " قالوا : ولا الجهاد في سبيل اللّه ؟ قال: "ولو أن تضرب بسيفك حتّى ينقطع" . أورده البيهقي في : شعب الإيمان : ٣٩٦/١ . والمنذري في : التّرغيب والتّرهيب : ٢٥٤/٢ . وقال : " رواه ابن أبي الدّنيا والبيهقي من رواية سعيد بن سنان واللّفظ له " . وسعيد بن سنان هو أبو مهدي الحمصي . متروك ، ورماه الدّارقطني بالوضع . وذكر أبو حاتم أنّه يروي عن أبي الزّهراويّة عن كثير بن مرّة عن ابن عمر عن النّبي ﷺ بنحو من ثلاثين حديثاً أحاديث منكرة . و انظر في ترجمته : التّاريخ الكبير: ٤٧٧/٣ . ضعفاء العقيلي : ١٠٧/٢ . الجرح والتّعديل: ٢٨/٤ . المجروحين : ٣٢٢/١ . الكامل في ضعفاء الرّجال : ٣٥٩/٣ . تهذيب الكمال : ٤٩٥/١٠ . الكاشف: ٤٣٨/١ . تهذيب التّهذيب: ١٣٣/١٢ . تقريب التّهذيب: ٢٣٧/١ .

(٢) فيض القدير : ٤٣/٢ .

(٣) المرجع السّابق : ٨٤/٢ .

أغلب أوقاته كان الصدّأ متراكباً على قلبه ، وصدؤه بحسب غفلته ، وإذا صدئ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هي عليه ، فيرى الباطل في صورة الحقّ والحق في صورة الباطل ، لأنّه لمّا تراكم عليه الصدّأ أظلم ، فلم تظهر فيه صورة الحقّائق كما هي عليه ، فإذا تراكم عليه الصدّأ واسودّ وركبه الرّان فسد تصوره وإدراكه ، فلا يقبل حقّاً ، و لا ينكر باطلاً ، وهذا أعظم عقوبات القلب.
وأصل ذلك من الغفلة واتّباع الهوى ، فإنّهما يطمسان نور القلب ويعميان بصره .
قال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف:٢٨] . [1] .

و ـ يزداد به أمنها ، وتذهب به مخاوفها ، فتقوى وتشتدّ ، ويزداد ثباتها ، ويزيد صبرها .

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" إنّ ذكر الله عزّ وجلّ يذهب عن القلب مخاوفه كلّها ، وله تأثير عجيب في حصول الأمن ، فليس للخائف الّذي قد اشتدّ خوفه أنفع من ذكر الله عزّ وجلّ ، إذ بحسب ذكره يجد الأمن ، ويزول خوفه حتّى كأنّ المخاوف الّتي يجدها أمان له ، والغافل خائف مع أمنه ، حتّى كأنّ ما هو فيه من الأمن كلّه مخاوف " [2] .

وقال السّعدي (رحمه الله) :

" إنّ الخوف يوجب قلق القلب وخوفه ، وهو مظنّة لضعفه . وإذا ضعف القلب ضعف البدن عن مقاومة العدوّ . والذّكر لله والإكثار منه من أعظم مقوّيات القلب " [3] .

---

(١) الوابل الصّيّب : ص : ٦٠ . بتصرّف يسير .

(٢) المرجع السّابق : ص : ١٠٥-١٠٦ .

(٣) تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١٦٢ .

ز ــ تشفى به من سقمها ، وتصحّ به من دائها الّذي تجلبه الغفلــة والذّنــوب لها ، فتسلم وتعافى ، فيستقيم أمرها ، ويكثر خيرها .

قال مكحول (رحمه الله) :

" ذكر الله تعالى شفاء ، وذكر النّاس داء " . [1].

فالقلوب المؤمنة إذا خافت من ربّها ، وازداد يقينــها وإيمانــها ، واســتقرّت الطّمأنينة في سويدائها ، وحفّت بها السّــكينة ، وغشــيتها الرّحمــة ، وزال قلقــها واضطّرابها ، وانشرحت وانفسحت ، ولانت وخشعت ورقّت ، وذهبــت يبوســتها وغارت قسوتها ، واستنارت فذهبت ظلمتها ، وانقشع صدؤهــا وكملــت حياتــها ، وازداد أمنها وذهب خوفها ، وقوي عودها وشفيت من سقمها ، وتلاشــى كدرهــا وتبدّدت غفلتها سهل عليها الثّبات في مواطن الشّدّة ، وأماكن الضّيق الّتــي منــها الجهاد في سبيل الله تعالى . فتقوى حينئذ عزائم أصحابــها ، وترســخ أقدامــهم ، فيصولون ويجولون غير هائبين ولا خائفين ، لا يفرّون ولا يهربون ، إنّما يثبتــون ويصبرون حتّى يأتي النّصر من عند الله تعالى . فيعزّ به أهل الإيمان ، ويــذلّ بــه أهل الكفر والطّغيان .

---

(١) الوابل الصّيّب : ص : ٩٩ . و انظر : فيض القدير : ٥٦٤/٣ . وفي شعب الإيمان للبيهقي : قال ابــن عــون (رحمه الله) : " ذكر النّاس داء ، وذكر اللّه دواء " . ٤٥٩/١ .

المبحث الخامس

دعـــاء اللـــه تعـــالى *

يقال : دعوت الله إذا سألته وإذا استغثته [1].

وفي الاصطلاح : طلب الأدنى بالقول من الأعلى شيئاً على جهة الاستكانة [2].

وهو في الشّرع نوعان :

١- دعاء مسألة : وهو طلب ما ينفع الدّاعي ، وطلب كشف مـــا يضـــرّه أو دفعه ، وكلّ من يملك الضّر والنّفع فإنّه هو المعبود حقّاً ، والمعبود لا بد أن يكـــون مالكاً للنّفع والضّرر [3] .

---

* الدعاء من عوامل الثّبات العامّة ، ولكن أوردته هنا تبعاً للقرآن لإيراده له كعامل للثّبات في موطن الجهاد .

(١) انظر : المفردات : ص : ١٧٠ . لسان العرب : ٢٥٧/١٤ . وقد سبق إطلاقات كلمة الدّعاء في باب الدّعوة .

انظر : ص : ٣٨٣-٣٨٦ .

قال الرّاغب (رحمه الله) : " الدّعاء كالنّداء ، إلاّ أنّ النّداء قد يقال بيا أو أيا ، ونحو ذلك من غير أن يضـــمّ إليـــه الاسم ، والدّعاء لا يكاد يقال إلاّ إذا كان معه الاسم نحو يا فلان ، وقد يستعمل كلّ واحـــد منـــهما موضـــع الآخر " . المفردات : ص :١٦٩-١٧٠ .

(٢) تحفة الأحوذي : ٢١٨/٩ .

(٣) بدائع الفوائد : ٥١٣/٣ . و انظر : مجموع الفتاوى : ٢٣٧/١٠ ، ١٠/١٧ .

وهو على ثلاثة أقسام : أحدها : أن يسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته ، وهذا أحد التّـــأويلين في قولـــه تعـــالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف:١٨٠] .

والثّاني : أن تسأله بحاجتك وفقرك فتقول : أنا العبد الفقير المسكين البائس الذّليل المستجير ونحو ذلك .

والثّالث : أن تسأل حاجتك ولا تذكر واحداً من الأمرين . فالأوّل أكمل من الثّاني ، والثّاني أكمل من الثّـــالث ، فإذا جمع الدّعاء الأمور الثّلاثة كان أكمل . وهذه عامّة أدعية النّبي ﷺ .

وفي الدّعاء الّذي علّمه صدّيق الأمّة ﷺ ذكر الأقسام الثّلاثة ، فإنّه قال في أوّله : " ظلمت نفسي ظلماً كثـــيراً " وهذا حال السّائل . ثمّ قال : "وإنّه لا يغفر الذّنوب إلاّ أنت " . وهذا حال المسؤول . ثمّ قـــال : " فـــاغفر لي "

٢- دعاء عبادة : وهو الّذي يتضمّن الثّناء على الله بما هو أهلـــه ، ويكـــون مصحوباً بالخوف والرّجاء[١] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" إنّ دعاء الله قد يكون دعاء عبادة لله فيثاب العبد عليه في الآخرة مـــع مـــا يحصل له في الدّنيا ، وقد يكون دعاء مسألة تقضى به حاجته ، ثمّ قد يثاب عليـه إذا كان ممّا يحبّه الله ، وقد لا يحصل له إلاّ تلك الحاجة ، وقد يكون سبباً لضرر دينـــه فيعاقب على ما ضيّعه من حقوق الله سبحانه ، وعلى ما تعدّاه من حدوده " [٢] .

والمراد بالدّعاء أن يرغب العبد إلى الله ، ويطلب منـــه العنايـــة والتّوفيـــق ، ويستمدّ منه المعونة في جميع ما يحتاج إليه من أموره .

فذكر حاجته ، وختم الدّعاء باسمين من الأسماء الحسنى تناسب المطلوب وتقتضيه . جلاء الأفـهام : ص : ١٥٣ . بتصرّف يسير جداً .

وحديث الصّدّيق ﷺ المشار إليه أورده البخاري في صحيحه في : كتاب الأذان (الصّلاة) : (١٠/٥) . باب الدّعاء قبل السّلام : (١٤٩/٣٠٠) . برقم : (٨٣٤) . ص : ١٨٣ . وفي كتاب الدّعوات : (٥٤/٨٠) . باب الدّعـــاء في الصّلاة : (١٧) . برقم : (٦٣٢٦) . ص : ١٣٥٠ . وفي كتاب التّوحيد : (٧٢/٩٧) . باب قول الله تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النّساء:١٣٤] : (٩) . برقم : (٧٣٨٧ ، ٧٣٨٨) . ص : ١٥٥٢ .

ومسلم في صحيحه في : كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار : (٤٨) . باب استحباب خفض الصّـــوت في الذّكر : (١٣) . برقم : (٢٧٠٥) . ٢٠٧٨/٤ .

(١) نضرة النّعيم : ٥/ ١٩٠٢ . و انظر : بدائع الفوائد : ٥١٣/٣ .

قال ابن القيّم (رحمه الله) : " كلّ دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة ، وكلّ دعاء مسألة متضمّن لدعـــاء العبـــادة ، وعلى هذا فقوله تعـــالى ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦] يتناول نوعي الدّعاء . وبكلّ منهما فسّرت الآية . قيل : أعطيه إذا سألني . وقيل : أثيبه إذا عبدني . والقولان متلازمان . وليس هذا من استعمال اللّفظ المشترك في معنييه كليهما ، أو اســـتعمال اللّفـــظ في حقيقـــة ومجازه ، بل هذا استعمال له في حقيقته الواحدة المتضمّنة للأمرين جميعاً " . بدائع الفوائد : ٣/ ٥١٤ .

(٢) اقتضاء الصّراط المستقيم : ص : ٤١٤ .

وحقيقته أن يظهر لربّه سبحانه غاية التّذلّل والافتقار إليه ، والاستكانة له ، وأن يتبرّأ من الحول والقوّة ، وذلك سمة العبوديّة ، وأن يستشعر الذّلّ للمولى جلّ وعلا. [1]

ودعاء الله من أفضل العبادات وأشرف الطّاعات ، ولذلك سمّاه الله تعالى : عبادة . فقال : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر:٦٠].

وهو بذلك يدعو عباده أن يدعوه ويتقرّبوا إليه به ، ووعدهم عليه بالإجابة ، وحذّرهم من الانصراف والإعراض عنه ، وأوعدهم العذاب بالتّعالي عليه [2].

---

(١) و انظر : فتح الباري : ٩٥/١١ . طبعة دار المعرفة . فيض القدير : ٢٢٨/١ .

وقد ورد في القرآن على أوجه منها : القول ، العبادة ، النّداء ، الاستعانة ، الاستغاثة ، العذاب والعقوبة ، الغرض والسّؤال ، التّسمية . انظر : فتح الباري : ٩٤/١١ . طبعة دار المعرفة . و انظر : نضرة النّعيم : ١٩٠٤/٥ . ففيه تفاصيل ذلك .

(٢) و انظر : جامع البيان : ٧٨/٢٤-٧٩ . طبعة دار الفكر . الجامع لأحكام القرآن : ١٥ / ٣٢٦-٣٢٨ . أنوار التّنزيل : ٩٩/٥ . تفسير القرآن العظيم : ١٢٩/٤ . فتح القدير : ٤٩٨/٤ . تيسير الكريم الرّحمن : ص :٦٨٧ .

وقد اختلف أهل العلم في المراد بالدّعاء في الآية . هل هو مطلق العبادة أم المراد به السّؤال ؟ وذلك لأنّ اللّه توعّد بالعذاب من استكبر عن عبادته . وهذا لا يتأتّى إلاّ في العبادة المعلومة ، إذ عدم سؤاله سبحانه لا يبلغ بالإنسان إلى أن يتوعّد بذلك الوعيد . ثمّ ذكرُ العبادة في الآية قرينة تبيّن المراد . ومن فسّر الدّعاء بالسّؤال صرف الوعيد لمن استكبر عن سؤاله . وحديث النّعمان يرجح الوجه الثّاني . ولذا قال الحافظ ابن كثير (رحمه الله) : " هذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه أنّه ندب عباده إلى دعائه ، وتكفّل لهم بالإجابة كما كان سفيان الثّوري يقول: " يا من أحبّ عباده إليه من سأله فأكثر سؤاله ، ويا من أبغض عباده إليه من لم يسأله ، وليس أحد كذلك غيرك يا ربّ ". رواه ابن أبي حاتم وفي هذا المعنى يقول الشّاعر:

اللّه يغضب إن تركت سؤاله ****** وبني آدم حين يسأل يغضب

... وقال الإمام أحمد: ...عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ : "من لم يدع اللّه عزّ وجلّ غضب عليه" تفرّد به أحمد وهذا إسناد لا بأس به ... وقوله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي ﴾

وفي حديث النّعمان بن بشير ﷺ قال : سمعت النّبي ﷺ يقول : " الدّعاء هـو العبادة ". ثـم قـرأ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ " (١) .

أي عن دعائي وتوحيدي . ﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ أي صاغرين حقيرين " . تفسير القرآن العظيم : ٤/١٢٨ـ١٢٩ .

والحديث الّذي أشار إلى تفرّد الإمام أحمد به شاركه غيره في روايته . فقد رواه التّرمذي في سننه بلفظ : " من لم يسأل اللّه يغضب عليه " . في : كتاب الدّعوات : (٤٤) . باب : (٣) . برقم : (٣٣٧٣) . قال الألباني (رحمه الله): " حسن" . ص : ٥٣٤ . وابن ماجه في سننه بلفظ : " من لم يدع اللّه سبحانه غضب عليه " . في : كتاب الدّعاء : (٣٤) . باب فضل الدّعاء : (١) . برقم : (٣٨٢٧) . قال الألباني (رحمه الله): " حسن " . ص : ٤١٠ . وأحمد في المسند كرواية ابن ماجه ـ إلاّ إنّه لم يذكر : " سبحانه " ـ في : ٢/٤٤٣ . ونحوه في : ٢/٤٤٢ . والحاكم في مستدركه : بلفظ مقارب لرواية ابن ماجه . في : ١/٦٦٧ . ومع زيادة فيه في : ١/٦٦٨ . وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد " . وأبو يعلى في مسنده : نحوه . برقم : (٦٦٥٥) . قال حسين أسد : " إسناده صحيح " . ١٢/١٠ . والبخاري في الأدب المفرد . مراجعة : محمّد فؤاد عبد الباقي . طبعة دار البشائر الإسلاميّة . بيروت . ١٩٨٩م-١٤٠٩هـ : نحوه في : ص : ٢٢٩ .

وقال تقي الدّين السّبكي : " الأولى حمل الدّعاء في الآية على ظاهره ، وأمّا قوله بعد ذلك ﴿ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ فوجه الرّبط إنّ الدّعاء أخصّ من العبادة ، فمن استكبر عن العبادة استكبر عن الدّعاء ، وعلى هذا فالوعيد إنّما هو في حقّ من ترك الدّعاء استكباراً ، ومن فعل ذلك كفر . وأمّا من تركه لمقصد من المقاصد فلا يتوجّه إليه الوعيد المذكور ، وإن كنّا نرى أنّ ملازمة الدّعاء والاستكثار منه أرجح من الترك لكثرة الأدلّة الواردة في الحثّ عليه ". نقلاً عن فتح الباري : ١١/٩٥ . طبعة دار المعرفة . تحفة الأحوذي : ٩/٢٢٠ . و انظر : شرح الزّرقاني على الموطّأ : ٢/٤٤ .

(١) سنن أبي داود : بلفظ مقارب في : كتاب الوتر : (٨) . باب الدّعاء : (٢٣) . برقم : (١٤٧٩) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ١٧٧ .

سنن التّرمذي: بلفظه في : كتاب تفسير القرآن : (٤٣) . باب ومن سورة المؤمن : (٤٠) . برقم : (٣٢٤٧) . ص : ٥١٥ . وفي كتاب الدّعوات : (٤٤) . باب : (٢) . برقم : (٣٣٧٢) . ص : ٥٣٤ . و بلفظ مقارب في : باب ومن سورة البقرة : (٢) . برقم : (٢٩٦٩) . ص : ٤٧٥ . وقال : " هذا حديث حسن صحيح " . و قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " .

سنن ابن ماجه : بلفظ مقارب في : كتاب الدّعاء : (٣٤) . باب فضل الدّعاء : (١) . برقم : (٣٨٢٨) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٤١٠ .

فقوله " هو العبادة " أي معظمها . كقوله ﷺ : " الحجّ عرفة " [1].

سنن البيهقي : بلفظ مقارب في : باب سورة غافر . ٦/٤٥٠ .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: بلفظ مقارب في : باب ذكر البيان بأنّ دعاء المرء ربّه في الأحوال من العبادة الّتي يتقرّب بها إلى اللّه جلّ وعلا . برقم : (٨٩٠) . قال شعيب الأرناؤوط : " إسناده صحيح " . ٣/١٧٢ .

مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في : ١/٦٦٧ .وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه " . ونحوه عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) في : ١/٦٦٧ .

معجم الطّبراني الصّغير : بلفظ مقارب . وزاد : " يعني دعائي" . في : ٢/٢٠٨ .

مسند الشّهاب : بلفظ مقارب في : ١/٥٢ . برقم : (٣٠) .

الأدب المفرد : نحوه في: ص : ٢٤٩ . برقم : (٧١٤) .

وقوله : ﴿ دَاخِرِينَ ﴾ : أي ذليلين . انظر : المفردات : ص : ١٦٦ .

(١) هذا جزء من حديث عبد الرّحمن بن يعمر الدّيلي ﷺ . وهو في :

سنن أبي داود : بلفظ : " الحجّ الحجّ يوم عرفة " . كتاب المناسك : (١١) . باب من لم يدرك عرفة : (٦٨) . برقم : (١٩٤٩) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٢٢٤ .

سنن التّرمذي: بلفظه في : كتاب الحجّ : (٦) . باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحجّ : (٥٧) . برقم : (٨٨٩) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ١٦٣ .

سنن النّسائي : بلفظه في : كتاب مناسك الحجّ : (٢٤) . باب فرض الوقوف بعرفة : (٢٠٣) . برقم : (٣٠١٦) ص : ٣٢٠ . وفي باب فيمن لم يدرك صلاة الصّبح مع الإمام بالمزدلفة : (٢١١) . برقم : (٣٠٤٤) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٣٢٢ .

سنن ابن ماجه : بلفظه في : كتاب المناسك : (٢٥) . باب من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع : (٥٧) . برقم : (٣٠١٥) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٣٢٧ .

سنن البيهقي : بلفظه في : باب إدراك الحجّ بإدراك عرفة قبل طلوع الفجر من يوم النحر . ٥/١٧٣ .

مسند أحمد: بلفظه في : ٤/٣٠٩ . وبلفظ : " الحجّ حجّ عرفة " . في : ٤/٣٣٥ .

صحيح ابن خزيمة . لأبي بكر محمّد بن اسحاق بن خزيمة . تحقيق : محمّد مصطفى الأعظمي . طبعة المكتب الإسلامي . بيروت . ١٣٩٠هـ ـــ ١٩٧٠م : بلفظه في : ٤/ ٢٥٧ . برقم : (٢٨٢٢) .

سنن الدّارقطني . لأبي الحسن علي بن عمر الدّارقطني . تحقيق : السّيد عبد اللّه هاشم يماني المدني . طبعة دار المعرفة بيروت . ١٣٨٦هـ ـــ ١٩٦٦م : بلفظه في : باب المواقيت . ٢/٢٤٠-٢٤١ .

مستدرك الحاكم: بلفظه في : ١/٦٣٥ ، ٢/٣٠٥ . وقال : " هذا حديث صحيح و لم يخرجاه" .

أي معظم أركانها (١) .

أو هو العبادة أي هو العبادة الحقيقيّة الّتي تستأهل أن تسمّى عبادة ، لدلالته على الإقبال على الله ، والإعراض عمّا سواه بحيث لا يرجو ولا يخاف إلاّ إيّاه ، قائماً بوجوب العبوديّة ، معترفاً بحقّ الرّبوبيّة ، عالماً بنعمة الإيجاد ، طالباً لمدد الإمداد على وفق المراد ، وتوفيق الإسعاد (٢) .

---

(١) انظر : تحفة الأحوذي : ٢٢٠/٩ .

(٢) عون المعبود : ٢٤٧/٤ .

قال الطّيبي (رحمه الله) : " معنى حديث النّعمان أن تحمل العبادة على المعنى اللّغوي ، إذ الدّعاء هو إظهار غاية التّذلّل والافتقار إلى اللّه والاستكانة له ، وما شرعت العبادات إلاّ للخضوع للباري وإظهار الافتقار إليه ، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى ﴾ حيث عبّر عن عدم التّذلّل والخضوع بالاستكبار ، ووضع عبادتي موضع دعائي ، وجعل جزاء ذلك الاستكبار الصّغار والهوان " . نقلاً عن تحفة الأحوذي : ٢٢٠/٩ . و انظر : عون المعبود : ٢٤٧/٤ .

وقال ابن رجب (رحمه الله) : "واعلم أنّ سؤال اللّه عزّ وجلّ دون خلقه هو المتعيّن ، لأنّ السّؤال فيه إظهار الذّلّ من السّائل ، والمسكنة والحاجة والافتقار ، وفيه الاعتراف بقدرة المسئول على رفع هذا الضّر ونيل المطلوب، وجلب المنافع ودرء المضار ، ولا يصلح الذّلّ والافتقار إلاّ للّه وحده لأنّه حقيقة العبادة ، وكان الإمام أحمد يدعو ويقول : " اللّهمّ كما صنت وجهي عن السّجود لغيرك فصنه عن المسئلة لغيرك ، ولا يقدر على كشف الضّر وجلب النّفع سواك " . كما قال ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ ﴾ [يونس:١٠٧] . وقال : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ ﴾ [فاطر:٢] . واللّه سبحانه يحبّ أن يسأل ، ويرغب إليه في الحوائج ، ويلحّ في سؤاله ودعائه ، ويغضب على من لا يسأله ، ويستدعي من عباده سؤاله ، وهو قادر على إعطاء خلقه كلّهم سؤلهم من غير أن ينقص من ملكه شيء ، والمخلوق بخلاف ذلك يكره أن يسأل ، ويحبّ أن لا يسأل لعجزه وفقره وحاجته . ولهذا قال وهب بن منبّه لرجل كان يأتي الملوك : " ويحك تأتي من يغلق عنك بابه، ويظهر لك فقره ، ويواري عنك غناه ، وتدع من يفتح لك بابه نصف اللّيل ونصف النّهار ، ويظهر لك غناه ، ويقول ادعني أستجب لك " .

وقال طاووس لعطاء : " إيّاك أن تطلب حوائجك إلى من أغلق بابه دونك ويجعل دونها حجابه ، وعليك بمن بابه مفتوح إلى يوم القيامة ، أمرك أن تسأله ووعدك أن يجيبك " . جامع العلوم والحكم : ص : ١٩٢ .

وفي حديث أبي هريرة ﷺ عن النّبي ﷺ قال : " ليس شيء أكــــرم علــى الله تعالى من الدّعاء " [١] .

وذلك لأنّ فيه إظهار الفقر ، والعجز والتّذلّل ، والاعتراف بقوّة الله وقدرته [٢] .

ولذلك أمر ﷺ بالإكثار منه وذلك لعظم فضله .

فقال في حديث أبي هريرة ﷺ : " أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ســـاجد فأكثروا الدّعاء "[٣] .

وقال في حديثه الآخر : " من سرّه أن يستجيب الله له عند الشّدائد والكــرب فليكثر الدّعاء في الرّخاء "[٤] .

---

(١) سنن التّرمذي: بلفظه في : كتاب الدّعوات : (٤٤) . باب ما جاء في فضل الدّعاء : (١) . برقـم : (٣٣٧٠) .
وقال : " هذا حديث حسن غريب " . و قال الألباني (رحمه الله): " حسن " . ص : ٥٣٤ .
سنن ابن ماجه : بلفظه ــ إلاّ إنّه قال : " اللّه سبحانه " ــ في : كتاب الدّعاء : (٣٤) . باب فضــل الدّعــاء : (١) . برقم : (٣٨٢٩) . قال الألباني (رحمه الله): " حسن " . ص : ٤١٠ .
مسند أحمد: بلفظه ــ و لم يذكر : " تعالى " ــ في : ٣٦٢/٢ .
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: كرواية أحمد . في باب ذكر البيان بأنّ دعاء المرء لله جلّ وعلا من أكــرم الأشياء عليه . برقم : (٨٧٠) . قال شعيب الأرناؤوط : " إسناده حسن " . ١٥١/٣ .
مستدرك الحاكم: كرواية أحمد . في : ٦٦٦/١ . وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " .
مسند أبي داود الطّيالسي: بلفظه ــ إلاّ إنّه قال : " اللّه عزّ وجلّ " ــ ص : ٣٣٧ .
مسند الشّهاب : كرواية أحمد . برقم : (١٢١٣ ، ١٢١٤) . ٢١٤/٢ .
الأدب المفرد : كرواية أحمد . ص : ٢٤٩ .

(٢) تحفة الأحوذي : ٢١٨/٩ .

(٣) صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب الصّلاة : (٤) . باب ما يقال في الرّكـــوع والسّـجود : (٤٢) . برقـم : (٤٨٢) . ٣٥٠/١ .

(٤) سنن التّرمذي: بلفظه في : كتاب الدّعوات : (٤٤) . باب ما جاء أنّ دعوة المسلم مســتجابة : (٩) . برقـم : (٣٣٨٢) . وقال : " هذا حديث غريب " . و قال الألباني (رحمه الله): " حسن " . ص : ٥٣٥ .
مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في : ٧٢٩/١ . وقال : " حديث صحيح الإسناد " .
مسند أبي يعلى: بلفظه : برقم : (٦٣٩٦ ، ٦٣٩٧) . قال محقّقه : " إسناده حسن " . ٢٨٣/١١-٢٨٤ .

بل حثّ الله عباده عليه متودّداً إليهم ، متقرّباً منهم كي يدعوه ويسألوه .

فعن أبي هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال : " ينزل ربّنا تبارك وتعالى كلّ ليلة إلى السّماء الدّنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له " [(١)] .

---

(١) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب التّهجّد (الصّلاة) : (١٩/٥) . باب الدّعاء والصّلاة من آخر اللّيل : (٤٩١/١٤) . برقم : (١١٤٥) . ص : ٢٤٢ . وبلفظه إلاّ أحرف يسيرة في كتاب الدّعوات : (٥٤/٨٠) . باب الدّعاء نصف اللّيل : (١٤) . برقم : (٦٣٢١) . ص : ١٣٤٩ . وفي كتاب التّوحيد : (٧٢/٩٧) . باب قول الله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [الفتح:١٥] : (٣٥) . برقم : (٧٤٩٤) . ص : ١٥٧٣ .

صحيح مسلم : بلفظه إلاّ أحرف يسيرة ، و بلفظ مقارب في : كتاب صلاة المسافرين و قصرها : (٦) . باب التّرغيب في الدّعاء والذّكر في آخر اللّيل والإجابة فيه : (٢٤) . برقم : (٧٥٨) . ٥٢١/١-٥٢٣ .

وفي الحديث إثبات صفة النّزول لله تعالى . فهو يترل سبحانه كما ذكر نزولاً يليق بجلاله من غير تمثيل ولا تكييف ، ولا تعطيل ولا تحريف . ولا نقول : يترل أمره أو تترل رحمته كقول أهل التّأويل .

وقد كره بعض الصّوفيّة الدّعاء . وقالوا : الأولى السّكوت والرّضا ، والجمود تحت جريان الحكم والقضاء . فيض القدير : ٢٢٨/١ .

وفصّل بعضهم مع زعمه بأنّ تركه أفضل . فقال : إن دعا للمسلمين فحسن ، وإن خصّ نفسه فلا . وقيل : إن وجد باعثاً للدّعاء استجيب وإلاّ فلا . شرح الزّرقاني على الموطّأ : ٤٤/٢ . تحفة الأحوذي : ٢١٨/٩ .

وقد نقل الحافظ ابن حجر (رحمه الله) الخلاف في ذلك وأجاب عنه . فقال : " حكى القشيري في الرّسالة الخلاف في المسألة فقال : " اختلف أيّ الأمرين أولى : الدّعاء أو السّكوت والرّضا ؟ فقيل : الدّعاء ، وهو الّذي ينبغي ترجيحه لكثرة الأدلّة لما فيه من إظهار الخضوع والافتقار . وقيل : السّكوت والرّضا أولى ، لما في التّسليم من الفضل " . قلت : وشبهتهم إنّ الدّاعي لا يعرف ما قدّر له ، فدعاؤه إن كان على وفق المقدور فهو تحصيل الحاصل ، وإن كان على خلافه فهو معاندة . والجواب عن الأوّل إنّ الدّعاء من جملة العبادة لما فيه من الخضوع والافتقار . وعن الثّاني إنّه إذا اعتقد أنّه لا يقع إلاّ ما قدّر اللّه تعالى كان إذعاناً لا معاندة . وفائدة الدّعاء تحصيل الثّواب بامتثال الأمر ، ولاحتمال أن يكون المدعو به موقوفاً على الدّعاء ، لأنّ اللّه خالق الأسباب ومسبباتها . قال: " وقالتّ طائفة ينبغي أن يكون داعياً بلسانه ، راضياً بقلبه " . قال : " والأولى أن يقال : إذا وجد في قلبه إشارة الدّعاء فالدّعاء أفضل وبالعكس " . قلت : القول الأوّل أعلى المقامات ، أن يدعو بلسانه ويرضى بقلبه . والثّاني لا يتأتّى من كلّ أحد بل ينبغي أن يختص به الكمل" . فتح الباري : ٩٥/١١ . طبعة دار المعرفة .

وكراهيّة الدّعاء وأفضليّة تركه قول سقيم تردّه النّصوص المتوافرة في الأمر بالدّعاء ، والتّحذير من تركه ، وبيان فضله . ولذا أجمع أهل العلم على استحبابه . تحفة الأحوذي : ٢١٨/٩ .

ومع ذلك قد يدعو الإنسان فلا يستجاب له . وذلك لحصول مانع ، أو تخلّف شرط من شروط القبول ، أو الإخلال بأدب من آداب الدّعاء .

ومن هنا أرشد الله سبحانه ورسوله ﷺ إلى العوامل الجالبة لقبول الدّعاء ، وإلى العوامل المانعة من قبوله .

فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة:١٨٦].

أي إنّ الله يستجيب دعاء من كان مؤمناً ، مستجيباً لله ورسوله ، منقاداً للأوامر ، مجافياً للنّواهي ، ملتزماً بالطّاعات ، مترفّعاً عن المعاصي [1] .

وذلك لأنّ الدّعاء سبب بل من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب . الجواب الكافي : ص : ٣ .

وهو مسلك خيرة الخلق وأفضل البشر عليهم السّلام . مجموع الفتاوى : ٥٣٨/٨ .

وكونه سبباً لا ينافي ما قدّر الله تعالى . إذ من تقدير الأمور تقدير أسبابها .

ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" إنّ الله تعالى إذا قدّر أمراً فإنّه يقدّر أسبابه ، و الدّعاء من جملة أسبابه ، كما أنّه لمّا قدّر النّصر يوم بدر وأخبر النّبي ﷺ قبل وقوعه أصحابه بالنّصر ، وبمصارع القوم كان من أسباب ذلك استغاثة النّبي ﷺ ودعاؤه " .

مجموع الفتاوى :١٤٧/١٤ .

وقال ابن القيّم (رحمه الله) :

" وهو ﷺ أعلم بربّه ، وأتبع لأمره من أن يعطّل الأسباب الّتي جعلها الله له بحكمته موجبة لما وعده به من النّصر والظّفر ، وإظهار دينه وغلبته لعدوّه ، وهذا كما أنّه سبحانه ضمن له حياته حتّى يبلّغ رسالاته ، ويظهر دينه ، وهو يتعاطى أسباب الحياة من المأكل والمشرب والملبس والمسكن . وهذا موضع يغلط فيه كثير من النّاس ، حتّى آل ذلك ببعضهم إلى أن ترك الدّعاء وزعم أنّه لا فائدة فيه ، لأنّ المسؤول إن كان قد قدّر ناله ولا بد ، وإن لم يقدّر لم ينله ، فأي فائدة في الاشتغال بالدّعاء ؟ ثمّ تكايس في الجواب بأن قال : الدّعاء عبادة . فيقال لهذا الغالط : بقي عليك قسم آخر وهو الحقّ : أنّه قد قدّر له مطلوبه بسبب إن تعاطاه حصل له المطلوب ، وإن عطّل السّبب فاته المطلوب ، والدّعاء من أعظم الأسباب في حصول المطلوب . وما مثل هذا الغالط إلاّ مثل من يقول : إن كان الله قد قدّر لي الشّبع فأنا أشبع أكلت أو لم آكل ، وإن لم يقدّر لي الشّبع لم أشبع أكلت أو لم آكل ، فما فائدة الأكل . وأمثال هذه التّرّهات الباطلة المنافية لحكمة الله تعالى وشرعه وبالله التّوفيق" . زاد المعاد : ٤٨١/٣ .

(١) انظر : جامع البيان : ١٥٨/٢-١٦٠ . طبعة دار الفكر . الجامع لأحكام القرآن : ٣١١/٢ . أنوار التّنزيل : ٤٦٧/١ . تفسير القرآن العظيم : ٣٢٥/١-٣٢٦ .فتح القدير : ١٨٤/١ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٦٩ .

وأن يكون متضرّعاً خاشعاً متذلّلاً مستكيناً ، راغباً فيما عند الله ، طامعاً في نواله ، راهباً من عذابه ، خائفاً من عقابه ، وجلاً من سخطه ، ليس بمتجاوز ولا متعدّ .

وفي الآية التفات إلى قرب اللّه من عباده ، قرب علم وإحاطة لا قرب ذات . فهو فوق سماواته مستو على عرشه استواء يليق بمقامه — ولا نقول كما قالت الجهميّة : إنّه في كلّ مكان بذاته . تعالى اللّه عمّا يقولون علوّاً كبيراً — ويلزم من قربه إجابة دعاء من دعاه . ولذا أرشد النّبي ﷺ أصحابه بأن لايرفعوا أصواتهم بالدّعاء والصّياح . كفعل كثير من أهل البدع . ففي حديث أبي موسى ﷺ قال: كنّا مع رسول اللّه ﷺ في غزاة ، فجعلنا لا نصعد شرفاً ولا نعلو شرفاً ولا نهبط في وادٍ إلاّ رفعنا أصواتنا بالتّكبير ، قال: فدنا منّا رسول اللّه ﷺ فقال: "يا أيّها النّاس أربعوا — أي أرفقوا — على أنفسكم ، فإنّكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، إنّما تدعون سميعاً بصيراً " .

صحيح البخاري: كتاب القدر : (٥٦/٨٢) . باب لاحول ولا قوّة إلاّ باللّه : (٧) . برقم : (٦٦١٠) . ص : ١٤٠١ . و انظر : : كتاب الجهاد والسّير : (٣٢/٥٦) . باب ما يكره من رفع الصّوت في التّكبير : (١٣٠/١٣١) . برقم : (٢٩٩٢) . ص : ٣٠ . و كتاب المغازي : (٣٨/٦٤) . باب غزوة خيبر : (٣٩/٣٨) . برقم : (٤٢٠٥) . ص : ٨٧٩-٨٨٠ . و كتاب الدّعوات : (٥٤/٨٠) . باب الدّعاء إذا علا عقبة : (٥٠) . برقم : (٦٣٨٤) . ص : ١٣٦٠ . وفي باب قول لا حول ولا قوّة إلاّ باللّه : (٦٧) . برقم : (٦٤٠٩) . ص : ١٣٦٥-١٣٦٦ . و كتاب التّوحيد : (٧٢/٩٧) . باب قول اللّه تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النّساء:١٣٤] : (٩) . برقم : (٧٣٨٦) . ص : ١٥٥١ .

وزاد الإمام أحمد في المسند : " إنّ الّذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته " . ٤٠٢/٤ .

وهذا يدلّ على إرشادهم للمناجاة في الدّعاء لا للنّداء الّذي هو رفع الصّوت ، فإنّهم عن هذا سألوا ، فأجيبوا بأنّ ربّهم تبارك وتعالى قريب ، لا يحتاج في دعائه وسؤاله إلى النّداء ، وإنّما يسأل مسألة القريب المناجي ، لا مسألة البعيد المنادى ، وهذا القرب من الدّاعي هو قرب خاص ، ليس قرباً عامّاً من كلّ أحد ، فهو قريب من داعيه وقريب من عابده .

وأقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد ، وهو أخصّ من قرب الإنابة وقرب الإجابة الّذي لم يثبت أكثر المتكلّمين سواه . بل هو قرب خاص من الدّاعي والعابد . بدائع الفوائد : ٥١٩/٣ .

وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ ﴾ [الأعراف:٥٥-٥٦] (١).

---

(١) انظر : جامع البيان ٨/٢٠٦-٢٠٨ . طبعة دار الفكر . الجامع لأحكام القرآن : ٧/٢٢٣-٢٢٥ . تفسير القرآن العظيم : ٢/٣٥٤-٣٥٥ .فتح القدير : ٢/٢١٣ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٥٤ .

وفي الآية طلب بإخفاء الدّعاء ، وهو أمر مرغّب فيه ، مدعو إليه . كما قال الحسن البصري (رحمه الله) : " إنّ كان الرّجل لقد جمع القرآن وما يشعر به النّاس ، وإن كان الرّجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به النّاس ، وإن كان الرّجل ليصلّي الصّلاة الطّويلة في بيته وعنده الزّوار وما يشعرون به ، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السّر فيكون علانية أبداً ، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدّعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلاّ همساً بينهم وبين ربّهم ، وذلك أنّ اللّه تعالى يقول ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ ﴾ وذلك أنّ اللّه ذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال : ﴿ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝ ﴾ [مريم:٣] .

وقال ابن جريج (رحمه الله) : " إنّ من الدّعاء اعتداء ، يكره رفع الصّوت والنّداء والصّياح بالدّعاء ، ويؤمر بالتّضرّع والاستكانة " . جامع البيان : ٨/٢٠٧ . طبعة دار الفكر . تفسير القرآن العظيم : ٢/٣٥٤ .

وفي إخفاء الدّعاء فوائد جمّة منها :

ـــ إنّه أعظم إيماناً . لأن صاحبه يعلم أنّ اللّه تعالى يسمع دعاءه الخفي ، وليس كالّذي قال : إنّ اللّه يسمع إن جهرنا ، ولا يسمع إن أخفينا .

ـــ إنّه أعظم في الأدب والتّعظيم .

ـــ إنّه أبلغ في التّضرع والخشوع الّذي هو روح الدّعاء ولبّه ومقصوده .

ـــ إنّه أبلغ في الإخلاص .

ـــ إنّه أبلغ في جمعه القلب على اللّه تعالى في الدّعاء ، فإنّ رفع الصّوت يفرّقه ويشتّته ، فكلّما خفض صوته كان أبلغ في جمعه ، وتجريد همّته ، وقصده للمدعو سبحانه وتعالى .

ـــ إنّه دال على قرب صاحبه من اللّه ، وأنّه لاقترابه منه وشدّة حضوره يسأله مسألة أقرب شيء إليه ، فيسأله مسألة مناجاة للقريب لا مسألة نداء البعيد للبعيد .

ـــ إنّه أدعى إلى دوام الطّلب والسّؤال ، فإنّ اللّسان لا يملّ والجوارح لا تتعب ، بخلاف ما إذا رفع صوته فإنّه قد يكلّ لسانه ، وتضعف بعض قواه .

ـــ إنّ إخفاء الدّعاء أبعد له من القواطع والمشوّشات والمضعّفات .

ـــ إنّ أعظم النّعم الإقبال على اللّه ، والتّعبّد له ، والانقطاع إليه ، والتّبتّل إليه ، ولكلّ نعمة حاسد على قدرها ،

دقّت أو جلّت ، ولا نعمة أعظم من هذه النّعمة ، فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلّقة بها ، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد ، وأن لا يقصد إظهارها له .

ـــ إن الدّعاء هو ذكر للمدعو سبحانه ، متضمّن للطّلب منه والثّناء عليه بأسمائه وأوصافه ، فهو ذكر وزيادة ، والأصل في الذّكر أن يخفى . انظر : بدائع الفوائد : ٣/٥١٨-٥٢١ .

كما أنّ في الآية تحذيراً من الاعتداء في الدّعاء . وهو أمر مكروه مستهجن . حذّر منه رسول اللّه ﷺ . كما ورد في حديث عبد اللّه بن مغفّل ﷺ عندما سمع ابنه يقول : اللّهم إنّي أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنّة إذا دخلتها . فقال : أي بني سل اللّه الجنّة ، وتعوّذ به من النّار ، فإنّي سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : " إنّه سيكون في هذه الأمّة قوم يعتدون في الطّهور والدّعاء " . سنن أبي داود : كتاب الطّهارة : (١) . باب الإسراف في الماء : (٤٥) . برقم : (٩٦) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " ص : ٣٥ . و انظر : سنن ابن ماجه : كتاب الدّعاء : (٣٤) . باب كراهيّة الاعتداء في الدّعاء : (١٢) . برقم : (٣٨٦٤) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٤١٤

سنن البيهقي : باب النّهي عن الإسراف في الوضوء . ١/١٩٦ .

مسند أحمد: ٤/٨٦ ، ٨٧ . ٥/٥٥ .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: برقم : (٦٧٦٣ ، ٦٧٦٤) قال شعيب الأرناؤوط : " إسناده صحيح على شرط مسلم " . ١٥/١٦٦ . مستدرك الحاكم: ١/٢٦٧ ، ٧٢٤ .

قال القرطبي (رحمه الله) :

" الاعتداء في الدّعاء على وجوه : منها الجهر الكثير والصّياح... ومنها أن يدعو الإنسان في أن تكون له منزلة نبي ، أو يدعو في محال ، ونحو هذا من الشّطط . ومنها أن يدعو طالباً معصية وغير ذلك . ومنها أن يدعو بما ليس في الكتاب والسّنّة ، فيتخيّر ألفاظاً مفقّرة ، وكلمات مسجّعة قد وجدها في كراريس لا أصل لها ولا معوّل عليها ، فيجعلها شعاره ، ويترك ما دعا به رسوله عليه السّلام . وكلّ هذا يمنع من استجابة الدّعاء " .

الجامع لأحكام القرآن : ٧/٢٢٦ .

وأفاض في بيان ذلك ابن القيّم (رحمه الله) فقال :

" الاعتداء بالدّعاء تارة بأن يسأل ما لا يجوز له سؤاله من الإعانة على المحرّمات ، وتارة بأن يسأل ما لا يفعله اللّه مثل أن يسأله تخليده إلى يوم القيامة ، أو يسأله أن يرفع عنه لوازم البشريّة من الحاجة إلى الطّعام والشّراب ، أو يسأله أن يطلعه على غيبه ، أو يسأله أن يجعله من المعصومين ، أو يسأله أن يهب له ولداً من غير زوجة ولا أمة ، ونحو ذلك ممّا سؤاله اعتداء . فكلّ سؤال يناقض حكمة اللّه ، أو يتضمّن مناقضة شرعه وأمره ، أو يتضمّن خلاف ما أخبر به فهو اعتداء لا يحبّه اللّه ، ولا يحبّ سائله .وفسّر الاعتداء برفع الصّوت أيضاً في الدّعاء .

قال ابن جريج : " من الاعتداء رفع الصّوت في الدّعاء والنّداء في الدّعاء والصّياح " .وبعد فالآية أعمّ من ذلك كلّه . وإن كان الاعتداء في الدّعاء مراداً بها فهو من جملة المراد . واللّه لا يحبّ المعتدين في كلّ شيء دعاء كان أو غيره . كما قال ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة:١٩٠] [المائدة:٨٧] وعلى هذا فيكون قد أمر بدعائه وعبادته وأخبر أنّه لا يحبّ أهل العدوان ، وهم الّذين يدعون معه غيره ، فهؤلاء

وأن يتّسم بالإخلاص ، ويجـانب الرّيـاء . لقولـه تعـالى : ﴿ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر:١٤].

وأن يكون طيّب المطعم والملبس ، متجنباً لأكل الحرام ، متباعداً عنه . لحديث أبي هريرة ﷺ عن النّبي ﷺ قال :ــ فذكر الحديث وفيه ــ " ثـمّ ذكر الرّجل [(١)] يطيل السّفر أشعث [(٢)] أغبر يمدّ يديه إلى السّماء : يـا ربّ يـا ربّ . ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذِي بالحرام فـأنّى يستجاب لذلك " [(٣)].

أعظم المعتدين عدواناً . فإنّ أعظم العدوان الشّرك ، وهو وضع العبادة في غير موضعها ، فهذا العدوان لا بـد أن يكون داخلاً في قوله ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [الأعراف:٥٥] ، ومن العدوان أن يدعـوه غير متضرّع ، بل دعاء مدلّ كالمستغني بما عنده ، المدلّ ــ المنان المفتخر بعمله ــ على ربّه به ، وهـذا مـن أعظم الاعتداء المنافي لدعاء الضّارع الذّليل الفقير المسكين من كلّ جهة في مجموع حالاته ، فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرّع خائف فهو معتد .

ومن الاعتداء أن تعبده بما لم يشرعه ، وتثني عليه بما لم يثن به على نفسه ، ولا أذن فيه . فإنّ هـذا اعتـداء في دعاء الثّناء والعبادة ، وهو نظير الاعتداء في دعاء المسألة والطّلب . وعلى هذا فتكون الآية دالّـة علـى شـيئين: أحدهما : محبوب للرّبّ تبارك وتعالى مرض له وهو الدّعاء تضرّعاً وخفية.

الثّاني : مكروه له مبغوض مسخوط وهو الاعتداء . فأمر بما يحبّه اللّه وندب إليه ، وحذّر مّا يبغضه وزجر عنه بمـا هو ابلغ طرق الزّجر والتّحذير ، وهو أنّه لا يحبّ فاعله ، ومن لم يحبّه اللّه فأي خير يناله .

وفي قوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ عقـب قولـه : ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً ﴾ دليل على أنّ من لم يدعه تضرّعاً وخفية فهو من المعتدين الّذين لا يحبّهم . فقسّمت الآية النّاس إلى قسـمين : داع للّه تضرّعاً وخفية ، ومعتد بترك ذلك " . بدائع الفوائد : ٣/٥٢٤-٥٢٥ .

(١) هذه الجملة من كلام الرّاوي .

(٢) الأشعث : الملبّد الشّعر المغبّر ، غير مدهون ولا مرجّل . شرح النّووي علـى مسـلم : ١٦/١٧٤ . و انظـر : الفائق : ٢/٢٥٠ . النّهاية في غريب الحديث: ٢/٤٧٨ .

(٣) صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب الزّكاة : (١٢) . باب قبول الصّدقة من الكسب الطّيّب وتربيتـها : (١٩) . برقم : (١٠١٥) . ٢/٧٠٣ .

قال النّووي (رحمه الله) :

" وفيه الحثّ على الإنفاق من الحلال ، والنّهي عن الإنفاق من غيره . وفيه أنّ المشروب والمأكول والملبوس ونحو ذلك ينبغي أن يكون حلالاً خالصاً لا شبهة فيه . وأنّ من أراد الدّعاء كان أولى بالاعتناء بذلك من غيره " [1] .

وفي حديث ابن عبّاس (رضي الله عنهما) قال ﷺ لسعد ﷺ : " أطب مطعمك تكن مستجاب الدّعوة " . ذكره الهيثمي في مجمع الزّوائد وقال : " رواه الطّبراني في الصّغير ، وفيه من لم أعرفهم " . ٢٩١/١٠ . وأورده أيضاً في : ٢٩٥/١٠ . كما ذكره المنذري في التّرغيب والتّرهيب ونسبه للطّبراني في الصّغير . وسكت عنه . ٣٤٥/٢-٣٤٦ . وابن رجب في جامع العلوم والحكم . وذكر أنّه خرجه الطّبراني بإسناد فيه نظر . ص : ١٠٠ .

والحديث إنّما أورده الطّبراني في المعجم الأوسط . ولفظه عنده : عن ابن عبّاس قال : تليت هذه الآية عند رسول الله ﷺ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ﴾ [البقرة:١٦٨] فقام سعد بن أبي وقاص فقال : يارسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدّعاء . فقال له النّبي ﷺ : " يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدّعوة ، والّذي نفس محمّد بيده إنّ العبد ليقذف اللّقمة الحرام في جوفه ما يتقبّل منه عمل أربعين يوماً ، وأيّما عبد نبت لحمه من السّحت والرّبا فالنّار أولى به " . لايروى هذا الحديث عن ابن جريج إلاّ بهذا الإسناد . تفرّد به الإحتياطي . ٣١١/٦ . و لم أقف عليه في المعجم الصّغير .

(١) شرح النّووي على مسلم : ١٠٠/٧ .

وفي الحديث أربعة أسباب تدعو إلى إجابة الدّعاء : أحدها : إطالة السّفر . والسّفر بمجرده يقتضي إجابة الدّعاء كما في حديث أبي هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ : " ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهنّ ، دعوة المظلوم ، ودعوة المسافر ، ودعوة الوالد على ولده " . سنن أبي داود : بلفظ مقارب في : كتاب الوتر : (٨) . باب الدّعاء بظهر الغيب : (٢٩) . برقم : (١٥٣٦) . قال الألباني (رحمه الله): " حسن " . ص : ١٨٢ . سنن التّرمذي: بلفظه في : كتاب البر والصّلة : (٢٤) . باب ما جاء في دعوة الوالدين : (٧) . برقم : (١٩٠٥) . قال الألباني (رحمه الله):" حسن " . ص : ٣٢٢ . و بلفظ مقارب في :كتاب الدّعوات : (٤٤) . باب : (٤٧) . برقم : (٣٤٤٨) . وقال : " هذا حديث حسن " . ص : ٥٤٥ . سنن ابن ماجه : بلفظه إلاّ أحرف يسيرة . في كتاب الدّعاء : (٣٤) . باب دعوة الوالد ودعوة المظلوم : (١١) . برقم : (٣٨٦٢) . قال الألباني (رحمه الله): "حسن " . ص : ٤١٤ . مسند أحمد: بلفظه في : ٢٥٨/٢ ، ٥٢٣ . و بلفظ مقارب في : ٣٤٨/٢ ، ٤٧٨ ، ٤٣٤ ،٥١٧. معجم الطّبراني الأوسط: بلفظ مقارب في : ٤٤/١ . مسند أبي داود الطّيالسي: بلفظ مقارب في : ص : ٣٢٩ . و برقم : (٢٥١٧) . مسند الشّهاب : بلفظه في : ٢٠٨/١-٢٠٩ . وبرقم : (٣١٦) . الأدب المفرد : بلفظ مقارب في : ص : ٢٥ ، ١٦٩ . و برقم : (٣٢ ، ٤٨١) .

ومتى طال السّفر كان أقرب إلى إجابة الدّعاء ، لأنّه مظنّة حصول انكسار النّفس بطول الغربة عن الأوطان ، وتحمّل المشاقّ ، والانكسار من أعظم أسباب إجابة الدّعاء .

الثّاني : حصول التبذّل في اللّباس والهيئة بالشّعث والإغبار ، وهو أيضاً من المقتضيات لإجابة الدّعاء .كما في الحديث المشهور عن أبي هريرة ﷺ أنّ رسول اللّه ﷺ قال : "ربّ أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على اللّه لأبرّه" . صحيح مسلم : كتاب البر والصّلة والآداب : (٤٥) . باب فضل الضّعفاء والخاملين : (٤٠) . برقم : (٢٦٢٢) . ٢٠٢٤/٤ . وفي : كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها : (٥١) . باب النّار يدخلها الجبّارون ، والجنّة يدخلها الضّعفاء : (١٣) . برقم : (٢٨٥٤) . ٢١٩١/٤ .

قال النّووي (رحمه اللّه) : " مدفوع بالأبواب أنّه لا يؤذن له بل يحجب ويطرد لحقارته عند النّاس . قوله ﷺ : " لو أقسم على اللّه لأبرّه " : معناه لو حلف يميناً طمعاً في كرم اللّه تعالى بإبراره لأبرّه .وقيل : لو دعاه لأجابه يقال : أبررت قسمه وبررته . والأوّل هو المشهور " . شرح النّووي على مسلم : ١٨٧/١٧ .

الثّالث : مدّ يديه إلى السّماء ، وهو من آداب الدّعاء الّتي يرجى بسببها إجابته . وفي حديث سلمان الفارسي ﷺ عن النّبي ﷺ قال : "إنّ اللّه حيي كريم يستحيي إذا رفع الرّجل إليه يديه أن يردّهما صفراً خائبتين " .

سنن أبي داود : بلفظ مقارب في : كتاب الوتر : (٨) . باب الدّعاء : (٢٣) . برقم : (١٤٨٨) . قال الألباني (رحمه اللّه): " صحيح " . ص : ١٧٨ . سنن التّرمذي: بلفظه في : كتاب الدّعوات : (٤٤) . باب : (١٠٤) . برقم : (٣٥٥٦) . وقال : " هذا حديث حس غريب" . و قال الألباني (رحمه اللّه): " صحيح " . ص : ٥٥٩ . سنن ابن ماجه : بلفظ مقارب في :كتاب الدّعاء : (٣٤) . باب رفع اليدين في الدّعاء : (١٣) . برقم : (٣٨٦٥) . قال الألباني (رحمه اللّه): " صحيح " . ص : ٤١٤ . سنن البيهقي : بلفظه في : باب رفع اليدين في القنوت . ٢١١/٢ . الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: بلفظ مقارب في : باب ذكر الإخبار عمّا يستحبّ للمرء عند إرادة الدّعاء رفع اليدين . برقم : (٨٧٦) . قال شعيب الأرناؤوط : "حديث قوي " . ١٦٠/٣ . مستدرك الحاكم: نحوه في: ٦٧٥/١ . وقال : " وله شاهد بإسناد صحيح من حديث أنس بن مالك " . ثمّ أورد حديث أنس ﷺ في : ٦٧٥/١ . مسند أبي يعلى: بلفظ مقارب في : ٣٩١/٣ . و برقم : (١٨٦٧) . عن جابر ابن عبد اللّه (رضي اللّه عنهما) . إلاّ أنّ محقّقه قال : " إسناده ضعيف " . و نحوه في: ١٤٢/٧ . و برقم : (٤١٠٨) . عن أنس ﷺ . إلاّ أنّ المحقّق ضعّف إسناده أيضاً . معجم الطّبراني الكبير: بلفظ مقارب في :٢٥٢/٦ . و نحوه في: ٢٥٦/٦ . وفي : ٤٢٣/١٢ . عن ابن عمر (رضي اللّه عنهما) . مع زيادة فيه . مسند الشّهاب : بلفظ مقارب في : ١٦٥/٢ . و برقم : (١١١٠ ، ١١١١) .

الرّابع : الإلحاح على اللّه عزّ وجلّ بتكرير ذكر ربوبيّته . وهو من أعظم ما يطلب به إجابة الدّعاء . انظر : جامع العلوم والحكم : ص : ١٠٥-١٠٦ . و انظر : فتح الباري : ٩٦/١١ . تحفة الأحوذي : ٢٢٩/٩ .

قال ابن رجب (رحمه اللّه) :

" وقوله ﷺ : " فأنّى يستجاب لذلك " : معناه كيف يستجاب له ، فهو استفهام وقع على وجه التّعجّب والاستبعاد ، وليس صريحاً في استحالة الاستجابة ومنعها بالكلّيّة ، فيؤخذ من هذا أنّ التّوسع في الحرام والتّغذّي به

فأكل الحرام ، والتّغذية به ، ولبسه سبب عظيم موجب لعدم إجابة الدّعاء.

وأن يجتنب المعاصي والآثام ، وخاصّة قطيعة الرّحم فإنّها عامل مؤثّر في عدم قبول الدّعاء .

عن أبي سعيد ﷺ أنّ النّبي ﷺ قال : " ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطعية رحم إلاّ أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إمّا أن تعجّل له دعوته ، وإمّا أن يدّخرها له في الآخرة ، وإمّا أن يصرف عنه من السّوء مثلها " قالوا : إذاً نكثر . قال : " الله أكثر " . [1].

وأن يعزم في سؤاله ، ويحسن الظّنّ بربّه في إجابة دعائه ، ولا يعلّق ذلك بمشيئة الله ، فإنّ الله لا مكره له . كما جاء في حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :" إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة ، ولا يقولنّ اللّهمّ إن شئت فأعطني . فإنّه لا مستكره له " [2] .

وفي رواية أبي هريرة ﷺ : " ليعزم في الدّعاء " . [3]

من جملة موانع الإجابة ، وقد يوجد ما يمنع هذا المانع من منعه ، وقد يكون ارتكاب المحرّمات الفعليّة مانعاً من الإجابة أيضاً ، وكذلك ترك الواجبات " . جامع العلوم والحكم : ص: ١٠٧ .

(١) مسند أحمد: بلفظه في : ١٨/٣ . ونحوه في: ٤٤٨/٢ . عن أبي هريرة ﷺ .

مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في :٦٧٠/١ . وقال :" هذا حديث صحيح الإسناد إلاّ أنّ الشّيخين لم يخرجاه " .

ونحوه في: ٦٧٤/١ . عن أبي هريرة ﷺ . وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " .

الأدب المفرد : بلفظ مقارب في : ص : ٢٤٨ . و برقم : (٧١٠) .

و انظر : فتح الباري : ٩٦/١١ . تحفة الأحوذي : ٢٢٨/٩ . وإسناد الحديث صحيح كما قال الحاكم .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الدّعوات : (٥٤/٨٠) . باب ليعزم المسألة فإنّه لا مكره له : (٢١) . برقم : (٦٣٣٨) . ص : ١٣٥٢ . و بلفظ مقارب في : كتاب التّوحيد : (٧٢/٩٧) . باب قول اللّه تعالى : ﴿ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران:٢٦] : (٣١) . برقم : (٧٤٦٤) . ص : ١٥٦٨ .

صحيح مسلم : بلفظ مقارب في : كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار : (٤٨) . باب العزم بالدّعاء ، ولا يقل : إن شئت : (٣) . برقم : (٢٦٧٨) . ٤/ ٢٠٦٣ .

(٣) المرجع السّابق : بلفظه ــ جزء من حديث في : الكتاب والباب السّابقين . برقم : (٢٦٧٩) . ٤/ ٢٠٦٣ .

وأن يديم دعاءه ولا ييأس ، ويلحّ في طلبه ولا يعجز ، ويطمع في إجابته ولا يقطع رجاءه من ربّه ، ولا يستعجل فيستبطئ الإجابة فيترك الدّعاء .

عن أبي هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال : " يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول : دعوت فلم يستجب لي " [1] .

و انظر : صحيح البخاري: كتاب الدّعوات : (٥٤/٨٠) . باب ليعزم المسألة فإنّه لا مكره له : (٢١) . برقم : (٦٣٣٩) . ص : ١٣٥٢ . و كتاب التّوحيد : (٧٢/٩٧) . باب قول اللّه تعالى : ﴿ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران:٢٦] : (٣١) . برقم : (٧٤٧٧) . ص : ١٥٧٠ .

قال ابن بطّال (رحمه الله) في الحديث : " إنّه ينبغي للدّاعي أن يجتهد في الدّعاء ، ويكون على رجاء الإجابة ، ولا يقنط من الرّحمة فإنّه يدعو كريماً " .

وقال ابن عيينة (رحمه الله) : " لا يمنعنّ أحداً الدّعاء ما يعلم في نفسه ، يعني من التّقصير . فإنّ اللّه قد أجاب دعاء شرّ خلقه وهو إبليس حين قال : ﴿ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ [الأعراف:١٤] " .

وقال الدّاودي (رحمه الله) : " معنى قوله : " ليعزم المسألة" : أن يجتهد ويلحّ ، ولا يقل : إن شئت كالمستثنى ولكن دعاء البائس الفقير " .

وقال ابن عبد البر (رحمه الله) : " لا يجوز لأحد أن يقول : اللّهمّ اعطني إن شئت وغير ذلك من أمور الدّين والدّنيا ، لأنّه كلام مستحيل لا وجه له ، لأنّه لا يفعل إلاّ ما شاءه " . نقل ذلك عنهم الحافظ في فتح الباري : ١٤٠/١١ . طبعة دار المعرفة . ثمّ قال :

" معنى الأمر بالعزم الجدّ فيه ، وأن يجزم بوقوع مطلوبه ، ولا يعلّق ذلك بمشيئة اللّه تعالى ، وإن كان مأموراً في جميع ما يريد فعله أن يعلّقه بمشيئة اللّه تعالى . وقيل : معنى العزم : أن يحسن الظّنّ باللّه في الإجابة ... إنّ الّذي يحتاج إلى التّعليق بالمشيئة ما إذا كان المطلوب منه يتأتّى إكراهه على الشّيء ، فيخفّف الأمر عليه ، ويعلم بأنّه لا يطلب منه ذلك الشّيء إلاّ برضاه . وأمّا اللّه سبحانه فهو منزّه عن ذلك ، فليس للتّعليق فائدة . وقيل: المعنى : إنّ فيه صورة الاستغناء عن المطلوب ، والمطلوب منه والأوّل أولى " . فتح الباري : ١٤٠/١١ . طبعة دار المعرفة .

وانظر : شرح الزّرقاني على الموطّأ : ٤٧/٢ . عون المعبود : ٢٤٩/٤ .

(١) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الدّعوات : (٥٤/٨٠) . باب يستجاب للعبد ما لم يعجل : (٢٢) . برقم : (٦٣٤٠) . ص : ١٣٥٢-١٣٥٣ .

صحيح مسلم : بلفظه ــ إلا إنه قال : " فيقول " ــ في : كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار : (٤٨) . باب بيان يستجاب للدّاعي ما لم يعجل : (٢٥) . برقم : (٢٧٣٥) . ٢٠٩٥/٤ .

وفي روايته الأخرى عن النّبي ﷺ قال : " لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بـإثم ، أو قطيعة رحم ، ما لم يستعجل " . قيل يا رسول الله : ومـا الاسـتعجال ؟ قـال : يقول : قد دعوت ، وقد دعوت ، فلم أر يستجيب لي ، فيستحسر[1] عند ذلك ويـدع الدّعاء " [2].

قال ابن بطّال (رحمه الله) :

" المعنى: أنّه يسأم فيترك الدّعاء فيكون كالمانّ بدعائه ، أو أنّـه أتـى مـن الدّعاء ما يستحقّ به الإجابة فيصير كالمبخّل للرّبّ الكريم الّذي لا تعجزه الإجابـة ، ولا ينقصه العطاء " [3] .

---

(١) قال النّووي (رحمه الله) : " فيستحسر عند ذلك ويدع الدّعاء : قال أهل اللّغة : يقال : حسر واستحسـر : إذا أعيا وانقطع عن الشّيء . والمراد هنا أنّه ينقطع عن الدّعاء . ومنـه قولـه تعـالى : ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ [الأنبياء:١٩] : أي لا ينقطعون عنها . ففيه أنّه ينبغي إدامة الدّعاء ، ولا يستبطئ الإجابة " . شرح النّووي على مسلم : ٥٢/١٧ .

(٢) صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار : (٤٨) . باب بيان يستجاب للدّاعي مـا لم يعجل : (٢٥) . برقم : (٢٧٣٥) . ٢٠٩٦/٤ .

(٣) فيما نقله الحافظ ابن حجر في الفتح عنه : ١٤٠/١١-١٤١ . طبعة دار المعرفة .

فقوله : " فلم يستجب لي " : وهو إمّا استبطاء ، أو إظهار يأس ، وكلاهما مذموم . أمّا الأوّل : فلأنّ الإجابة لهـا وقت معين . وأمّا القنـوط : ﴿ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسـف:٨٧] مع أنّ الإجابة على أنواع : منها تحصيل عين المطلوب في الوقت المطلوب ، ومنها ادّخاره ليوم يكون أحـوج إلى ثوابه ، ومنها وجوده في وقت آخر لحكمة اقتضت تأخيره ، ومنها دفع شرّ بدله . عـون المعبـود : ٢٥٠/٤ . بتصرّف .

فمن له ملالة من الدّعاء لا يقبل دعاؤه ، لأنّ الدّعاء عبادة حصلت الإجابة أو لم تحصل ، فلا ينبغي للمؤمـن أن يملّ من العبادة ، وتأخير الإجابة إمّا : لأنه لم يأت وقتها . وإمّا : لأنّه لم يقدّر في الأزل قبـول دعائـه في الدّنيـا ليعطى عوضه في الآخرة . وإمّا : أن يؤخّر القبول ليلحّ ويبالغ في ذلك ، فإنّ الله يحبّ الملحّين في الدّعاء . مع مـا في ذلك من الانقياد والاستسلام وإظهار الافتقار . ومن يكثر قرع الباب يوشك أن يفتح له ، ومن يكثر الدّعـاء

وأن يدعو دعاء مضطّر منكسر بين يدي الله ، مستيقن للإجابة منه سبحانه ، مقبل بقلبه نحوه ، معظّم لرجائه فيه .

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أنّ الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه " (١) .

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" وإذا اجتمع مع الدّعاء حضور القلب وجمعيته بكلّيته على المطلوب ، وصادف وقتاً من أوقات الإجابة السّتة . وهي الثّلث الأخير من اللّيل ، وعند الأذان ، وبين الأذان والإقامة ، وأدبار الصّلوات المكتوبات ، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتّى تقضى الصّلاة ، وآخر ساعة بعد العصر من ذلك

يوشك أن يستجاب له . شرح الزّرقاني على الموطّأ : ٤٨/٢ . و انظر : شرح النّووي على مسلم : ٥٢/١٧ . فتح الباري : ١٤١/١١ . طبعة دار المعرفة . جامع العلوم والحكم : ص : ٣٩٢ . تحفة الأحوذي : ٢٣٣/٩ .

(١) سنن التّرمذي: بلفظه في : كتاب الدّعوات : (٤٤) . باب : (٦٥) . برقم : (٣٤٧٩) . وقال : " هذا حديث غريب لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه " . و قال الألباني (رحمه الله): " حسن" . ص : ٥٤٩ .

مستدرك الحاكم: بلفظه ـــ إلاّ إنّه قال : " لا يقبل دعاء " ـــ في : ٦٧٠/١-٦٧١ . وقال : " هذا حديث مستقيم الإسناد ، تفرّد به صالح المرّي ، وهو أحد زهّاد أهل البصرة ، و لم يخرجاه " .

ويشهد له حديث عبد اللّه بن عمرو (رضي اللّه عنهما) أنّ رسول اللّه ﷺ قال " القلوب أوعية ، وبعضها أوعى من بعض ، فإذا سألتم اللّه عزّ وجلّ أيّها النّاس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة . فإنّ اللّه لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل " . أخرجه أحمد في المسند : ١٧٧/٢ . وحسّن المنذري إسناده . انظر : التّرغيب والتّرهيب : ٣٢٢/٢ .

قوله : " وأنتم موقنون بالإجابة " : أي والحال أنّكم موقنون بها ، أي كونوا عند الدّعاء على حالة تستحقّون بها الإجابة من إتيان المعروف ، واجتناب المنكر ، ورعاية شروط الدّعاء ، كحضور القلب ، وترصّد الأزمنة الشّريفة ، والأمكنة المنيفة ، واغتنام الأحوال اللّطيفة كالسّجود إلى غير ذلك . حتّى تكون الإجابة على قلوبكم أغلب من الرّد . أو أراد وأنتم معتقدون أنّ اللّه لا يخيّبكم لسعة كرمه ، وكمال قدرته ، وإحاطة علمه ، لتحقّق صدق الرّجاء ، وخلوص الدّعاء ، لأنّ الدّاعي ما لم يكن رجاؤه واثناً ـــ أي دائماً مقيماً عليه ـــ لم يكن دعاؤه صادقاً .

" من قلب غافل " : بالإضافة وتركها ، أي معرض عن اللّه أو عمّا سأله . "لاه" : من اللّهو ، أي لاعب بما سأله ، أو مشتغل بغير اللّه تعالى . وهذا عمدة آداب الدّعاء . تحفة الأحوذي : ٣١٦/٩ . و انظر : جامع العلوم والحكم : ص : ٣٩٢ . شرح الزّرقاني على الموطّأ : ٤٨/٢ . فيض القدير : ٢٢٨/١-٢٢٩ .

اليوم . وصادف خشوعاً في القلب ، وانكساراً بين يدي الرّبّ ، وذلاً له وتضرّعـــاً ورقّة ، واستقبل الدّاعي القبلة وكان على طهارة ، ورفع يديه إلى الله تعالى ، وبـــدأ بحمد الله والثّناء عليه ، ثمّ ثنّى بالصّلاة على محمّد عبده ﷺ ، ثمّ قـــدّم بيـــن يـــدي حاجته التّوبة والاستغفار ، ثمّ دخل على الله ألحّ عليه في المسألة ، وتملّقـــه ودعـــاه رغبة ورهبة ، وتوسّل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده ، وقدّم بين يدي دعائه صدقة . فانّ هذا الدّعاء لا يكاد يردّ أبداً ، ولا سيما إن صادف الأدعية الّتي أخبر النّبـــي ﷺ أنّها مظنّة الإجابة ، أو أنّها متضمّنة للاسم الأعظم ... والأدعية والتّعوّذات بمنزلـــة السّلاح ، والسّلاح بضاربه لا بحدّه فقط ، فمتى كان السّلاح سلاحاً تامّاً لا آفة بـــه ، والسّاعد ساعد قوي ، والمانع مفقود حصلت به النّكاية في العدوّ . ومتى تخلّف واحد من هذه الثّلاثة تخلّف التّأثير ، فإن كان الدّعاء في نفسه غير صالح ، أو الدّاعي لـــم يجمع بين قلبه ولسانه في الدّعاء ، أو كان ثمّ مانع من الإجابة لم يحصل الأثر" [(١)] .

---

(١) الجواب الكافي : ص : ٥-٨ .

وقال القرطبي (رحمه الله) :

" إنّ إجابة الدّعاء لا بد لها من شروط في الدّاعي ، وفي الدّعاء ، وفي الشّيء المدعو به . فمن شرط الدّاعـــي: أن يكون عالماً بأنّ لا قادر على حاجته إلاّ اللّه ، وأنّ الوسائط في قبضته ومسخّرة بتسخيره ، وأن يدعو بنيّة صادقـــة وحضور قلب ، فإنّ اللّه لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه ، وأن يكون مجتنباً لأكل الحـــرام ، وألاّ يمـــلّ مـــن الدّعاء . ومن شرط المدعو فيه : أن يكون من الأمور الجائزة الطّلب والفعل شرعاً ، كما قال : "ما لم يدع بـإثم أو قطيعة رحم" فيدخل في الإثم كلّ ما يأثم به من الذّنوب ، ويدخل في الرّحم جميع حقوق المســـلمين ومظالمـــهم . وقال سهل بن عبد اللّه التّستري : شروط الدّعاء سبعة : " أوّلها التّضرّع والخوف والرّجاء والمداومـــة والخشـــوع والعموم وأكل الحلال " . وقال ابن عطاء : " إنّ للدّعاء أركاناً وأجنحة وأسباباً وأوقاتاً ، فإن وافق أركانه قـــوي ، وإن وافق أجنحته طار في السّماء ، وإن وافق مواقيته فاز ، وإن وافق أسبابه أنجح . فأركانه حضور القلب والرّأفـــة والاستكانة والخشوع ، وأجنحته الصّدق ، ومواقيته الأسحار ، وأسبابه الصّلاة على محمّد ﷺ . وقيل :شـــرائطه أربع : أوّلها حفظ القلب عند الوحدة ، وحفظ اللّسان مع الخلق ، وحفظ العين عن النّظر إلى ما لا يحلّ ، وحفـــظ البطن من الحرام . وقد قيل : إنّ من شرط الدّعاء أن يكون سليماً من اللّحن ، كما أنشد بعضهم :

ينادي ربّه باللّحن ليث ****** كذاك إذا دعاه لا يجيب

وقيل لإبراهيم بن أدهم : ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا ؟ قال : " لأنّكم عرفتم اللّه فلم تطيعوه ، وعرفتم الرّســـول فلم تتّبعوا سنّته ، وعرفتم القرآن فلم تعملوا به ، وأكلتم نعم اللّه فلم تؤدّوا شكرها ، وعرفتم الجنّة فلم تطلبوهـــا ،

والعبد محتاج إلى دعاء الله تعالى في كلّ وقت وحين ، لأنّه مفتقر إليـــه ، لا يستغني عنه طرفة عين . ولذا كان ﷺ يقول في دعائه : " اللّهم رحمتك أرجو فـــلا تكلني إلى نفسي طرفة عين ، وأصلح لي شأني كلّه ، لا إله إلاّ أنت " (١).

ولم لا يكون العبد كذلك وجميع أموره بيد مولاه ، مالك لها متصرّف فيـها ؟ . بل قلبه الّذي بين جنبيه ، وهو أعظم ما يملك ، بيد مالكه سبحانه يقلّبه كيف يشــاء ، ويصرفه كيف يشاء .

قال عزّ وجلّ : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام:١١٠].

وقــــــال : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال:٢٤].

وعرفتم النّار فلم تهربوا منها ، وعرفتم الشّيطان فلم تحاربوه ووافقتموه ، وعرفتم الموت فلم تستعدّوا له ، ودفنتـــم الأموات فلم تعتبروا ، وتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب النّاس " . الجامع لأحكام القــــرآن : ٣١١/٢–٣١٢.

وانظر : فتح الباري : ١٤١/١١ . طبعة دار المعرفة .

(١) سنن أبي داود : بلفظه ـــ وأوّله : " دعوات المكروب " ـــ في : كتاب الأدب : (٤٠) . بــاب مــا يقــول إذا أصبح : (١٠٠/١٠١) . برقم : (٥٠٩٠) . عن عبد الرّحمن بن أبي بكرة عن أبيه . قال الألبــاني (رحمــه الله): " حسن الإسناد" . ص : ٥٤٩ .

مسند أحمد: بلفظه ـــ إلاّ حرفاً ـــ في : ٤٢/٥ .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: بلفظه في : باب ذكر وصف دعوات المكروب . برقم : (٩٧٠) . قـــال شعيب الأرناؤوط : " إسناده محتمل للتّحسين " . ٢٥٠/٣ .

مستدرك الحاكم: نحوه في: ٧٣٠/١ . عن أنس ﷺ . وقال : " هذا حديث صحيح على شـــرط الشّـيخين ولم يخرجاه " .

انظر : مبحثاً قيّماً في بيان افتقار العبد إلى الله تعالى في طريق الهجرتين : ص : ٢٥-٢٦ ، ٥٣-٥٥ .

و انظر : درء تعارض العقل والنّقل . لشيخ الإسلام ابن تيمية . تحقيق : محمّد رشاد سالم . طبعـــة دار الكنـــوز الأدبيّة . الرّياض . ١٣٩١هـ : ٣٤/٩-٣٥ .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص(رضي الله عنهما) أنّه سمع رسـول الله ﷺ يقول : " إنّ قلوب بني آدم كلّها بين إصبعين من أصابع الرّحمـن كقلـب واحـد ، يصرّفه حيث يشاء " ثمّ قال رسول الله ﷺ : " اللّهم مصرّف القلوب صرّف قلوبنـا على طاعتك " .[1].

وهو سبحانه يزيغ منها من أراد إزاغته ، ويقيم منها من أراد إقامته .

عن النّواس بن سَمْعان الكلابي قال : سمعت ﷺ : يقول : " ما من قلب إلاّ بين إصبعين من أصابع الرّحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه " وكـان رسـول الله ﷺ يقول : " يا مثبّت القلوب ثبّت قلوبنا على دينك " . قال : " والميزان بيـد الرّحمـن يرفع أقواماً ويخفض آخرين إلى يوم القيامة " [2]. وله في ذلك الحكمة البالغة .

---

(١) صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب القدر : (٤٦) . باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء : (٣) . برقـم : (٢٦٥٤) . ٤/٢٠٤٥ .

ولذا كانت القلوب أشدّ تقلّباً وأعظم تحوّلاً كما ثبت عنه ﷺ في حديث المقداد بن الأسود ﷺ قـال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " لقلب بن آدم أشدّ انقلاباً من القدر إذا اجتمعت غلياناً " . مسند أحمد: بلفظه ــ إلاّ إنّه قال : " غلياً " . في : ٦/٤ . مستدرك الحاكم: بلفظه ــ إلا إنّه قال : " احتمع " ــ في : ٢/٣١٧ . وقـال : " هذا حديث صحيح على شرط البخاري و لم يخرجاه " . معجم الطّبراني الكبير: بلفـظ مقـارب في :٢٠/٢٥٥ . مسند الشّهاب : بلفظ مقارب في : ٢/٢٦٦ . برقم : (١٣٣١) . وهوحديث صحيح كما ذكر الشّيخ الألبـاني (رحمه الله) في صحيح الجامع : برقم : (٥١٤٧) . ٢/٩١٥ .

وفي الحديث الآخر : عن أبي موسى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " إنّما سمّى القلب من تقلّبـه ، إنّمـا مثـل القلب كمثل ريشة معلّقة في أصل شجرة يقلّبها الرّيح ظهراً لبطن " . مسند أحمد: بلفظـه في : ٤/٤٠٨ . قـال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . صحيح الجامع : برقم : (٢٣٦٥) . ١/٤٦٦ .

(٢) سنن ابن ماجه : بلفظه في : المقدّمة . باب فيما أنكرت الجهميّة : (١٣) . برقـم : (١٩٩) . قـال الألبـاني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٣٧ .

مسند أحمد: بلفظ مقارب في : ٤/١٨٢ .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان : بلفظ مقارب في : باب ذكر الإخبار عمّا يجب على المرء من التملّـق إلى الباري في ثبات قلبه له على ما يحبّ من طاعته . برقم : (٩٤٣) . قال شعيب الأرناؤوط : " إسناده صحيـح " . ٣/٢٢٢ .

ولذا كان أعظم ما يدعو به الإنسان ربّه أن يثبّت قلبه على الحقّ فلا يزيغ ولا ينتكس .

ولذا لجأ الرّاسخون في العلم ، العالمون بالله ، الرّاغبون في مرضاته ، المتذلّلون في طاعته إلى خالقهم جلّ وعلا أن يعصم قلوبهم من الزّيغ ، ويحفظها من الانحراف والميل . فقالوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران:٨].

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ : أي لا تملها عن الهدي بعد إذ أقمتها عليه ، ولا تجعلنا كالّذين في قلوبهم زيغ ، الّذين يتّبعون ما تشابه من القرآن ، ولكن ثبّتنا على صراطك المستقيم ، ودينك القويم ،﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ تثبّت بها قلوبنا ، وتجمع بها شملنا، وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً ،﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ " . [١] .

وكان إمام الرّاسخين ، وسيّد المتّقين ، وأعظم الثّابتين يكثر في دعاء ربّه أن يثبّت قلبه فلا يزيغ ولا ينصرف عن هدي الله وطاعته .

مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في : ٧٠٦/١ . وقال : " هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وله شاهد بإسناد صحيح عن أنس بن مالك " . وفي: ٣٥٧/٤ . وقال : " هذا حديث صحيح على شرط مسلم " . وسكت عنه الذّهبي .

(١) تفسير القرآن العظيم : ٥٢١/١ . و انظر : جامع البيان : ١٨٦/٣-١٨٧ .طبعة دار الفكر . الجامع لأحكام القرآن :١٩/٤-٢٠ . أنوار التّنزيل : ١٠/٢ . فتح القدير : ٣١٨/١ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١٠٢ .

عن أنس ﷺ قال كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول : " يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك " فقلت : يا رسول الله آمنّا بك وبما جئت به . فهل تخاف علينا قال: " نعم إنّ القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلّبها كيف يشاء " (١).

وعن عائشة (رضي الله عنها) قالت : دعوات كان رسول الله ﷺ يكثر يدعو بها : " يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك " . قالت : فقلت : يا رسول الله إنّك تكثر تدعو بهذا الدّعاء ؟ فقال : " إنّ قلب الآدمي بين إصبعين من أصابع الله عزّ وجلّ فإذا شاء أزاغه وإذا شاء أقامه " (٢).

ولمّا سئلت أمّ سلمة (رضي الله عنها) عن أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندها قالت : كان أكثر دعائه : " يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك " . قالت : فقلت له: يا رسول الله ما أكثر دعاءك يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك ؟ قال :

---

(١) سنن التّرمذي: بلفظه في : كتاب القدر : (٢٩) . باب ما جاء أنّ القلوب بين أصبعي الرّحمن : (٧) . برقم : (٢١٤٠) . وقال : "وهذا حديث حسن " . و قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٣٥٦ .

سنن ابن ماجه : بلفظ مقارب في : كتاب الدّعاء : (٣٤) . باب دعاء الرّسول ﷺ : (٢) . برقم : (٣٨٣٤) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٤١٠ .

مسند أحمد: بلفظ مقارب في : ١١٢/٣ ، ٢٥٧ .

مستدرك الحاكم : الشّطر الأوّل منه بلفظه في : ٧٠٧/١ . و نحوه عن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) . في : ٣١٧/٢ .

مسند أبي يعلى: بلفظ مقارب . برقم : (٣٦٨٧ ، ٣٦٨٨) . قال محقّقه : " إسناده صحيح على شرط مسلم " . ٣٥٩/٦-٣٦٠ . ونحوه عن جابر ﷺ . برقم : (٢٣١٨) . قال المحقّق : " إسناده صحيح على شرط مسلم " . ٢٠٧/٤ .

معجم الطّبراني الكبير: الشّطر الأوّل منه بلفظ مقارب في : ٢٦١/١ .

الأدب المفرد : الشّطر الأوّل منه بلفظ مقارب في : ص : ٢٣٧ . و برقم : (٦٨٣) .

(٢) مسند أحمد: بلفظه في : ٩١/٦ . و نحوه في: ٢٥٠/٦ .

مسند أبي يعلى: نحوه . برقم : (٤٦٦٩) . في : ١٢٨/٨ .

" يا أمّ سلمة ما من آدمي إلاّ وقلبه بين إصبعين من أصابع الله عزّ وجلّ ما شاء أقام وما شاء أزاغ " [1] .

فهذا هو المعصوم ﷺ يدعو مولاه ، ويكثر من دعائه أن يثبّت قلبه على دينه ، لعلمه أنّه المتصرّف في قلوب عباده ، لا فرق بين رسول وغيره ، وأنّ التّوفيق والخذلان بيده سبحانه ، يوفّق من شاء إلى الثّبات والهدى بفضله ورحمته ، ويخذل من شاء له الخذلان بعدله وحكمته ، وهو في ذلك لم يمنع من خذله شيئاً هو له ، وإنّما منعه ما هو مجرّد فضله وعطائه ، وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله . فلمّا علم ﷺ أنّ ذلك كلّه بيد مولاه وتحت أمره علم شدّة ضرورته وحاجته في كلّ نَفَس ولحظة وطرفة عين وأقلّ من ذلك إلى توفيق ربّه وتثبيته . فطرح نفسه بين يديه ، وأسلم قياده إليه ، خاضعاً ذليلاً مستكيناً ، يلهج لسانه بدعائه أن يثبّت قلبه على الحقّ [2] .

وهذا شأن كلّ عبد مخلص لله ، يسأل ربّه الثّبات في كلّ حين ووقت ، ولا يركن إلى نفسه ، ففي ذلك هلاكه ودماره .

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" يستغيث العبد بربّه ووليّه ومالك أمره كلّه ، يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك ، يا مصرّف القلوب صرّف قلبي على طاعتك .

وأيضاً فإنّه يزيل من قلبه آفة الرّكون إلى نفسه أو عمله أو حاله ، كما قيل : إن ركنت إلى العلم أنسيناكه ، وإن ركنت إلى الحال سلبناك إياه ، وإن ركنت إلى

---

(١) مسند أحمد: بلفظه في : ٣١٥/٦ . و بلفظ مقارب في : ٣٠١/٦ . وفيه أن السّائل هو شهر بن حوشب .

مسند أبي يعلى: بلفظ مقارب . برقم : (٦٩٨٦) . و نحوه برقم : (٦٩١٩) . في : ١٢/ ٤١٩ ، ٣٥٠ . قال المحقّق : " إسناده حسن " . في الموضعين .

معجم الطّبراني الكبير: بنحو منه في : ٣٣٤/٢٣ . و نحوه في: ٣٣٨/٢٣ ، ٣٦٦ .

مسند أبي داود الطّيالسي: نحوه في: ص : ٢٢٤ . برقم : (١٦٠٨) .

(٢) و انظر : مدارج السّالكين : ٤١٤/١ .

المعرفة حجبناها عنك ، وإن ركنت إلى قلبك أفسدناه عليك . فلا يركن العبد إلى شيء سوى الله البتّة . ومتى وجد من قلبه ركوناً إلى غيره فليعلم أنّه قد أحيل على مفلس بل معدم ، وأنّه قد فتح له الباب مكراً ، فليحذر ولوجه والله المستعان " [١] .

والمرء محتاج إلى الدّعاء بالثّبات في كلّ موطن من المواطن . ومن تلك المواطن موطن الجهاد في سبيل الله ، لأنّه موطن شاقّ على النّفوس ، مجهد للقلوب ، مهول مخوف ، لما فيه من إزهاق للأرواح ، وبتر للأعضاء ، وسفك للدّماء ، وضياع للأموال والأبناء .

فالدّعاء بالثّبات في هذا الموطن مطلب ملحّ ، وغاية عاجلة ، ورغبة أكيدة . يجب أن لا يفارقه المجاهد في سبيل الله طرفة عين ، إذ هو في أمسّ الحاجة إليه .

ولذا كان الدّعاء بالثّبات في الجهاد ديدن الأنبياء وأتباعهم كما حكى ذلك عنهم ربّ العزّة في قرآنه حين قال : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٤٦-١٤٨].

قال ابن جرير (رحمه الله) :

" يعني تعالى ذكره بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ "..." إِلَّآ أَن قَالُواْ ﴾ ، يعني : ما كان لهم قول سوى هذا القول ، إذ قتل نبيّهم ، وقوله:﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ ، يقول : لم يعتصموا ، إذ قتل نبيّهم ، إلاّ بالصّبر على ما أصابهم ، ومجاهدة عدوّهم ، وبمسألة ربّهم المغفرة والنّصر على عدوّهم ...﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ ،

---

(١) المرجع السّابق : ٣/١٨٩ .

فإنّه يقول: اجعلنا ممّن يثبت لحرب عدوّك وقتالهم ، ولا تجعلنا ممّن ينـــهزم فيفـرّ منهم ولا يثبت قدمه في مكان واحد لحربهم ، ﴿ وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾، يقول: وانصرنا على الّذين جحدوا وحدانيتك ونبوّة نبيّك " [١] .

وقال البيضاوي (رحمه الله) :

" أي وما كان قولهم مع ثباتهم ، وقوّتهم في الدّين ، وكونهم ربّانيين إلاّ هـــذا القول ، وهو إضافة الذّنوب والإسراف إلى أنفسهم هضماً لها ، وإضافة لما أصابـهم إلى سوء أعمالهم والاستغفار عنها، ثمّ طلب التّثبيت في مواطن الحـــرب والنّصـر على العدوّ ليكون عن خضوع وطهارة ، فيكون أقرب إلى الإجابة ، وإنّمــا جعـل قولهم خيراً لأنّ﴿ أَن قَالُوا۟ ﴾ أعرف لدلالته على جهة النّسبة وزمان الحدث " [٢] .

وكذلك فعل أصحاب طالوت ومعهم نبيّ الله داود عليه السّلام لمّـــا واجـهوا جالوت وجنوده ، حيث لجؤوا إلى الله ملحّين عليه بالدّعاء كي يثبّتهم فلا ينـــهزموا ، ويقوّيهم فلا يضعفوا ، وينصرهم فلا يخذلوا .

قال ســــبحانه : ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٠-٢٥١] .

---

(١) جامع البيان :٤/١٢٠-١٢١ . طبعة دار الفكر .

(٢) أنوار التّنزيل : ٢/١٠١ .

لقد سبق الحديث في معنى هذه الآيات وإنّما أوردت هنا ما يناسب المقـــام ، ويصلـح للاستشـــهاد . انظـر : ص : ٢١٠ .

قال ابن جرير (رحمه الله) :

" إنّ طالوت وأصحابه قالوا: ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا ﴾ ، يعني: أنزل علينا صبراً. وقوله:﴿ وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا ﴾ ، يعني: وقوّ قلوبنا على جهادهم ، لتثبت أقدامنا فلا ننهزم عنهم ، ﴿ وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ ، الّذين كفروا بك فجحدوك إلهاً ، وعبدوا غيرك ، واتّخذوا الأوثان أرباباً " [١] .

وقال البيضاوي (رحمه الله) :

" التجؤوا إلى الله سبحانه وتعالى بالدّعاء ، وفيه ترتيب بليغ إذ سألوا أوّلاً إفراغ الصّبر في قلوبهم الّذي هو ملاك الأمر ، ثمّ ثبات القدم في مداحض الحرب المسبّب عنه ، ثمّ النّصر على العدوّ المترتّب عليهما غالباً " [٢] .

وقد أجاب الله دعاءهم كما أجاب دعاء أنبياء الله وأتباعهم من قبل ، فقوّى قلوبهم ، وثبّت أقدامهم فنصروا على أعداء الله ، وهزموهم .

ولذا أرشد النّبي ﷺ أمّته إلى الدّعاء في هذا المقام ، وبيّن لهم أنّه لا يُردّ فقال في حديث سهل بن سعد ﷺ : " ثنتان لا تردّان أو قلّما تردّان : الدّعاء عند النّداء ، وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضاً " [٣].

---

(١) جامع البيان : ٦٢٥/٢ . طبعة دار الفكر .

(٢) أنوار التّتزيل : ٥٤٨/١ . و انظر : تفسير القرآن العظيم : ٤٥٣/١ .

(٣) سنن أبي داود : بلفظه في : كتاب الجهاد : (١٥) . باب الدّعاء عند اللّقاء : (٤٩) . برقم : (٢٥٤٠) .

قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٢٨٨ .

سنن الدّارمي: بلفظه في : باب الدّعاء عند الأذان . في : ٢٩٣/١ .

سنن البيهقي : بلفظه في : باب الدّعاء بين الأذان والإقامة . ٤١٠/١ . وفي : باب طلب الإجابة عند نزول الغيث . ٣٦٠/٣ .

صحيح ابن خزيمة : بلفظه ـــ إلاّ إنّه قال : " يلتحم " ـــ في: باب استحباب الدّعاء عند الأذان ، ورجاء إجابة الدّعوة عنده . ٢١٩/١ .

وقد فعل ﷺ ذلك بنفسه . ففي بدر قام يدعو : " اللّهم منزل الكتاب ، ومجـري السّحاب ، وهازم الاحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم " [1]. حتّى سقط رداؤه يستنجز الله ما وعده ، ويلحّ في السّؤال إلى أن قال له أبو بكر ﷺ : " كذاك مناشدتك ربّك ، فإنّه سينجز لك ما وعدك " .[2] .

بل كان ذلك ديدنه في كلّ غزواته ﷺ [3] .

مستدرك الحاكم: بلفظه في : ٣١٣/١ . و بلفظ مقارب في : ١٢٤/٢ . وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " .

معجم الطّبراني الكبير: بلفظ رواية ابن خزيمة . في : ١٣٥/٦ .

(١) هذا جزء من حديث عبد الله بن أبي أوفى ﷺ الّذي سبق تخريجه . انظر : ص : ٦٧٥ .

وهذا اللّفظ في : صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسّير : (٣٢/٥٦) . باب كان النّبي ﷺ إذا لم يقاتل أوّل النّهار أخّر القتال حتّى تزول الشّمس : (١١١/١١٢) . برقم : (٢٩٦٦) . ص : ٦٢٤ . وفي باب لا تتمنّوا لقاء العدوّ : (١٥٥/١٥٦) . برقم : (٣٠٢٥) . ص : ٦٣٧ .

صحيح مسلم : كتاب الجهاد والسّير : (٣٢) . باب كراهة تمنّي لقاء العدوّ ، والأمر بالصّبر عند اللّقاء : (٦) . برقم : (١٧٤٢) . ١٣٦٣/٣ .

(٢) المرجع السّابق : بلفظه في : كتاب الجهاد والسّير : (٣٢) . باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ، وإباحة الغنائم : (١٨) . برقم : (١٧٦٣) . ١٣٨٣/٣-١٣٨٤ .

قال النّووي (رحمه الله) : " قوله "كذاك مناشدتك ربّك" : المناشدة السّؤال ، مأخوذة من النّشيد وهو رفع الصّوت . هكذا وقع لجماهير رواة مسلم كذاك بالذّال ولبعضهم كفاك بالفاء ... وضبطوا مناشدتك بالرّفع والنّصب وهو الأشهر . قال القاضي : من رفعه جعله فاعلاً بكفاك ، ومن نصبه فعلى المفعول بما في حسبك وكفاك ، وكذاك من معنى الفعل من الكفّ . قال العلماء :هذه المناشدة إنّما فعلها النّبي ﷺ ليراه أصحابه بتلك الحال فتقوى قلوبهم بدعائه وتضرّعه مع أنّ الدّعاء عبادة ، وقد كان وعده الله تعالى إحدى الطّائفتين : أمّا العير وأمّا الجيش ، وكانت العير قد ذهبت وفاتت ، فكان على ثقة من حصول الأخرى ، ولكن سأل تعجيل ذلك ، وتنجيزه من غير أذى يلحق المسلمين " . شرح النّووي على مسلم : ٨٥/١٢ .

(٣) و انظر : المرجع السّابق : ٤٧/١٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١١٨ . وقد نقل (رحمه الله) اتّفاق أهل العلم على استحباب الدّعاء في ذلك المقام . ٤٧/١٢ .

فالدّعاء عامل مهمّ ، عظيم النّفع ، بالغ الأثر في تثبيت المجاهد في موطن الجهاد ، بل تثبيت العبد في كلّ موطن . وهو سلاح مضاء لا يفلّ حدّه ، ولا يضعف عزمه ، ولا يهزم صاحبه متى ما استخدمه استخداماً صحيحاً .

والمؤمن الحريص على الثّبات عليه أن لا يغفل عنه أبداً ، بل يلازمه ويداوم عليه في كلّ حين ووقت ، فلن يجد أنفع له منه .

المبحث السّادس

الآجال محدودة والأعمار معدودة

قال المولى عزّ وجلّ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ ﴾ [البقرة:٢٤٣-٢٤٤].

لقد أمر الله سبحانه عباده المؤمنين بالقتال والجهاد في سبيله ، وقدّم لهذا الأمر بحادثة يشجّعهم بها على الجهاد والثّبات في حومة الوغى ، وعند مبارزة الأقران .

وتلك الحادثة تحكي عن قوم خرجوا من بلادهم لمّا حلّ بها وباء قاتل ففرّوا منه طلباً للنّجاة ، وحبّاً للحياة ، ولكنّ الله عاملهم بنقيض قصدهم فماتوا جميعاً ، ثمّ أحياهم . وفي ذلك عبرة ودلالة على أنّ الحذر لاينجي من القدر ، وأنّ الفرار من الموت لا يغني منه ، وأنّ الفزع والجزع لا يغيّر المصير ولا يردّ القضاء ، لأنّ الموت له أجل محدود ، وعمر معدود لا يتخطاه المرء مهما فعل . فعلى المجاهد في سبيل الله الصّبر والثّبات ، لأنّ قتاله لا يدني أجله ، وفراره لا يزيد في عمره .(١)

ولمّا زعم المنافقون أنّ الأمر لو كان بأيديهم ما قتل من قتل منهم في معركة أحد ردّ الله عليهم بقوله : ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٤].

---

(١) وانظر : جامع البيان : ٢/٥٩٠-٥٩٢ . التّفسير الكبير : ٦/١٦٣-١٦٦ . الجامع لأحكام القرآن : ٣/٢٣٦. تفسير القرآن العظيم : ١/٤٤٦-٤٤٧ فتح البيان : ٢/٦٣-٦٥ . محاسن التأويل : ٣/٦٣٧-٦٣٩ . أضواء البيان : ١/١٩٢-١٩٣ . في ظلال القرآن : ١/٢٦٤ .

أي يأيّها القائلون هذه المقالة القادحة في قدر الله ، المنكرة لمشيئته ، لو بقيتم في مساكنكم الّتي هي أبعد شيء عن مظانّ القتل لخرج الّذين كتب عليهم القتل منكم بسبب من الأسباب الدّاعية إلى الخروج إلى الموضع الّذي قدّر الله فيه قتلهم فقتلوا فيه ، فالتّدبير لا يقاوم التّقدير ، والحذر لا يدفع القدر ، وليس كلّ من يقاتل يقتل ، وإنّما يقتل من كتب عليه القتل ، وحان أجله كما قال سبحانه : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأعراف:٣٤].

ولم يقتصر سبحانه على تحقّق نفس القتل ، بل عيّن مكانه أيضاً مبالغة في ردّ مقالتهم .(١)

ولذلك حذّر الله المؤمنين الصّادقين في جهادهم أن يكونوا مثل هؤلاء المنافقين الّذين جبنوا عن القتال ، فجاءت أقوالهم ملتوية ، بعيدة عن الحقّ والصّواب ، وأفعالهم منافية لأمر الله العزيز الوهاب . فقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٦-١٥٨].

أي يا أيّها المؤمنون المجاهدون احذروا أن تكونوا كالمنافقين الّذين يقولون لمن قتل في سبيل الله إنّهم لو كانوا معنا قاعدين عن القتال ، معتصمين عن الجهاد ،

---

(١) وانظر : جامع البيان : ١٤٣/٤-١٤٤ . التفسير الكبير : ٩٤/٩ . فتح البيان : ٣٥٩/٢ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١٢٠-١٢١ .

ناكلين عنه ما وصل القتل إليهم أبداً ، لأنّهم في مأمن منه . وهذا قول يجلب الحسرة والنّدامة لهم في دنياهم وأخراهم ، لما يترتّب عليه من عقاب وعذاب .

واعلموا أيّها المؤمنون أنّ الّذي بيده الإحياء والإماتة هو الله وحده ، بيده الخلق ، وإليه يرجع الأمر . والموت كائن لا محالة ، فأولى أن يكون في سبيل الله الّذي يوجب النّعيم الدّائم والمغفرة والرّحمة ، وذلك أعظم من حطام الدّنيا الزّائل ، ورغيد عيشها الفاني الّذي يتأخّر المنافقون عن الجهاد من أجله .

ومن مات أو قتل فمردّه ومرجعه إلى الله الّذي يتولّى حسابه ، فليؤثر رضاه ، وما يؤدّي إلى نيل جزائه ، ومن ذلك الجهاد في سبيله .[1]

وعلى هؤلاء المنافقين المثبّطين بذلك القول عن الجهاد أن يدفعوا عن أنفسهم الموت ، فإنّه قادم إليهم لا محالة ، وواقع بهم بلا مرية ، كما قال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٦٨].

وما أنجاهم من الموت قعودهم عن الجهاد ، ولكنّه لم يقدّره الله عليهم حينها .[2]

فالجهاد في سبيل الله لا يدني من الأجل ، والبعد عنه لا يزيد في العمر ، ومن علم أن الأجل محدود ، والعمر معدود نفى الفزع عن قلبه ، والجبن عن نفسه ، وثبت في ميادين القتال ثبات الجبال الشّم الّتي لاتزلزلها أعاصير الرّياح .

---

(١) وانظر : جامع البيان : ١٤٩/٤-١٥٠ . التّفسير الكبير : ٥٦/٩-٥٩ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٤٧/٤ . تفسير القرآن العظيم : ٦٢٨/١ . فتح البيان : ٣٦٢/٢ . تفسير المراغي : ١١٠/٤-١١١ . أضواء البيان : ٢٥٩/١-٢٦٠ .

(٢) وانظر : جامع البيان : ١٦٩/٤-١٧٠ . فتح البيان : ٣٧٤/٢ . محاسن التّأويل : ١٠٣٢/٤ . تفسير المراغي : ١٣٠/٤ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١٢٣-١٢٤.

قال خالد بن الوليد ﷺ حين حضرته الوفاة :

" لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها[1] ، وما في بدني موضع شبر إلاّ وفيه ضربة ، أو طعنة ، أو رمية ، وها أنا أموت على فراش كما يموت العَيْر ، فلا نامت أعين الجبناء ، وما من عمل أرجى منه لا إله إلاّ الله ، وأنا متترّس بها " .[2]

وقال أبو الطّيّب المتنبئ :

وإذا لم يكن من الموت بدّ ••••••• فمن العجز أن تكون جباناً [3]

وقال الآخر :

في الجبن عار وفي الإقدام مكرمة ••••••• والمرء في الجبن لا ينجو من القدر[4]

---

(١) أي قدرها . مختار الصّحاح : ص : ٢٧٧ . القاموس المحيط : ص : ١٦٦٨ .

(٢) أسد الغابة : ١٠٠/٢ . وانظر : سير أعلام النّبلاء : ٣٨٢/١ .

(٣) ديوان المتنبي بهامشه العرف الطّيّب : ٣٤٧/٢ .

(٤) أضواء البيان : ولم ينسبه لقائل معين : ١٩٣/١ . وانظر : تاريخ دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلّها من الأماثل واجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها . لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة اللّه المعروف بابن عساكر . تحقيق : أبي سعيد محبّ الدّين عمر بن غرامة العمروي . طبعة دار الفكر . بيروت . ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م : ٣٣٧/١٤ .

وقال قطري بن الفجاءة :

أقول لها وقد طارت شعاعاً ••••••• من الأبطال ويحك لن تراعي

فإنّك لو سالت بقاء يوم ••••••• على الأجل الّذي لك لم تطاعي

فصبراً في مجال الموت صبراً ••••••• فما نيل الخلود بمستطاع

ولا ثوب الحياة بثوب عزّ ••••••• فيطوى عن أخي الخنع اليراع

سبيل الموت غاية كلّ حي ••••••• وداعيه لأهل الأرض داعي

ومن لم يعتبط يهرم ويسأم ••••••• وتسلمه المنون إلى انقطاع

وما للمرء خير في حياة ••••••• إذا ما عدّ من سقط المتاع

سير أعلام النّبلاء : ١٥١/٤-١٥٢ .

المبحث السّابع

النّصر من عنـــد اللـــه

لقد جعل الله تعالى نصر عباده المؤمنين وغلبتهم للكافرين حقّاً أوجبـــه علـــى نفسه الكريمة ، تكرّماً منه وتفضّلاً .

فقال سبحانه : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الروم:٤٧] (١) .

وكتب سبحانه في كتابه الأوّل ، وحكم بحكم لا يغيّر ولا يبدّل بأنّه ناصر لأهل الإيمان ، وأنّ العاقبة لهم ، وغالب لأهل الكفر ، وأنّ الدّائرة عليهم .

فقال عزّ في علاه : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة:٢١] (٢) .

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" وقد جرت سنّة الله سبحانه أنّ الغلبة لرسله بالحجّة والقهر ، فمن أمر منـــهم بالحرب نصر على عدوّه ، ومن لم يؤمر بالحرب أهلك عدوّه " (٣) .

وانظر : ديوان الحماسة : ١/٢٤-٢٥ . أمالي المرتضى . غرر الفوائد ودرر القلائد . للشّريف المرتضى علي بـــن الحسين الموسوي العلوي . تحقيق : محمّد أبو الفضل إبراهيم . طبعة :عيسى البابي الحلبي وشركاه . الطّبعـة الأولى : ١٣٧٣هـــ ـــ ١٩٥٤م : ١/٦٣٦-٦٣٧ . وفيات الأعيان : ٤/٩٤ .

(١) وانظر : تفسير القرآن العظيم : ٣/٦٩٤ . فتح البيان : ١٠/٢٦١ .

(٢) وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٧/٣٠٦ . تفسير القرآن العظيم : ٤/٥١٢ . تيسير الكـــريم الرّحمـــن : ص : ٧٨٦ .

(٣) أحكام أهل الذّمّة لابن قيّم الجوزيّة . تحقيق : يوسف أحمد البكري . شاكر توفيق العاروري . طبعـــة : رمـــادي للنّشر ـــ دار ابن حزم . الدّمام . بيروت . الطّبعة الأولى : ١٤١٨هـــ ـــ ١٩٩٧م : ٣/١٣٩٣ .
وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٧/٣٠٦ . أضواء البيان : ٧/٨٢٣ .

وقال عزّ وجلّ معضدّاً لما سبق : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣] (١).

ونصر الله لرسله وأوليائه ليس محصوراً في هذه الدّنيا ، بل هو في الدّنيا والآخرة ، حيث يكون النّصر أعظم وأكبر وأجل ، فقال تقدّست أسماؤه : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر:٥١].

فالله ينصر رسله بالغلبة على أعدائهم وقهرهم لهم ، أو بإعلائهم على من كذّبهم ، أو بالانتقام ممّن حادّهم وشاقّهم في حياتهم ، أو بتسليط من ينتقم منهم بعد مماتهم ، كما ينصرهم في الآخرة بتقوية حجّتهم والشّهادة لهم بالتّبليغ ، وإذلال أعدائهم وتعذيبهم .(٢)

ونصره سبحانه لعباده قد يحصل بأسباب مألوفة معتادة ، كتقتيل المؤمنين للكافرين ، وقد يحصل بأسباب غير مألوفة ولا معتادة كإلقاء الرّعب في قلوب الأعداء .(٣)

---

(١) وانظر في معناها : جامع البيان : ١١٤/٢٣ . التّفسير الكبير : ١٧٢/٢٦ . تفسير القرآن العظيم : ٣٧/٤-٣٨ . فتح البيان : ٤٣٤/١١-٤٣٥ . أضواء البيان : ٦٩٧/٦ .

(٢) وانظر : تفسير المراغي : ٨١/٢٤-٨٢ .

وقد أفاض الإمام ابن جرير وتبعه الإمام ابن كثير (رحمهما اللّه) في كيفية نصر اللّه لرسله . انظر : جامع البيان : ٧٤/٢٤-٧٥ . تفسير القرآن العظيم : ١٢٦/٤-١٢٧ . كما ذكر الإمام الرّازي (رحمه اللّه) سبعة أوجه في نصر اللّه لرسله . انظر : التّفسير الكبير : ٧٦/٢٧ . والمراد هنا نصر اللّه لرسله وعباده المؤمنين على الكافرين في موطن الجهاد بهزيمتهم والغلبة عليهم ، وهو أعظم أنواع النّصر .

(٣) وانظر : التّفسير الكبير : ١٩٢/١٥ . الجهاد في الإسلام : ص : ٨٣ .

وقد ذكر مجموعة من الأسباب الّتي يسلّطها اللّه عل الأعداء فيكون بها نصر المؤمنين ، كالخوف والهلع والتّفرّق ، وتسخير بعض مخلوقاته كالحرّ والبرد والرّياح والعواصف والظّلام والبرق وغير ذلك .

وبيّن سبحانه للمؤمنين أنّه إن نصرهم وأعانهم على عدوّهم فلن يغلبهم أحد من النّاس ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها من الخلق ، وإن خذلهم ، وترك عونهم ، ووكلهم إلى أنفسهم فلا أحد من الخلق يستطيع نصرهم ، فما عليهم إلاّ أن يعتمدوا ويتوكّلوا عليه . فقال تبارك اسمه : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [آل عمران:١٦٠] (١) .

ولكن نصره سبحانه لعباده المؤمنين مشروط بنصرهم له ، فمتى ماجاهدوا في سبيله لإعلاء كلمته ، وإعزاز دينه تكفّل الله بنصرهم على عدوّهم ، وأظفرهم عليهم ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج:٤٠] (٢) .

وقال عقبها : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج:٤١] .

وهذه صفات من وعدهم الله بالنّصر .(٣)

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد:٧] .

---

(١) وانظر : جامع البيان : ١٥٤/٤ . التفسير الكبير : ٦٨/٩ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٥٤/٤ . فتح البيان : ٣٦٦/٢ . تفسير المراغي : ١١٧/٤-١١٨ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١٢٢ .

(٢) وانظر : جامع البيان : ١٧٨/١٧ . الكشّاف : ١٢٦/٣ " طبعة الاستقامة " . التفسير الكبير : ٤١/٢٣ . الجامع لأحكام القرآن : ٧٢/١٢ . تفسير القرآن العظيم : ٣٦٣/٣ . فتح البيان : ٥٧/٩-٥٨ . محاسن التأويل : ٤٣٤٦/١٢ . تفسير المراغي : ١١٩/١٧-١٢٠ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٤٨٩ .

(٣) انظر : أضواء البيان : ٤٢٢/٧-٤٢٣ .

يقول الشّيخ السّعدي (رحمه الله) :

" هذا أمر منه تعالى للمؤمنين ، أن ينصروا الله ، بالقيام بدينه ، والدّعوة إليه ، وجهاد أعدائه ، وأن يقصدوا بذلك وجه الله ، فإنّهم إذا فعلوا ذلك ، نصرهم وثبّت أقدامهم ، أي : يربط على قلوبهم بالصّبر ، والطّمأنينة ، والثّبات ، ويصبّر أجسادهم على ذلك ، ويعينهم على أعدائهم . فهذا وعد من كريم صادق الوعد ، أنّ الّذي ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاه ، وييسّر له أسباب النّصر ، من الثّبات وغيره " [1] .

والمتتبّع لسير النّاس وملوكهم يرى أنّ كلّ من كان أنصر لدين الله ، وأعظم جهاداً لأعدائه ، وأقوم بطاعة الله ورسوله أعظم نصرة وطاعة .[2]

يقول الإمام ابن القيّم (رحمه الله) :

" ونختم هذا الكتاب[3] بآية من كتاب الله تعالى جمع فيها تدبير الحروب بأحسن تدبير وهي قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأنفال:٤٥-٤٦] .

فأمر المجاهدين فيها بخمسة أشياء ما اجتمعت في فئة قطّ إلاّ نصرت ، وإن قلّت وكثر عدوّها :

أحدها : الثّبات .

الثّاني : كثرة ذكره سبحانه وتعالى .

الثّالث : طاعته وطاعة رسوله .

---

(١) تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٧٣٠ . وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢٣٢/١٦ .

(٢) مجموع الفتاوى : ٦٤٠/٢٨ بتصرّف يسير .

(٣) يعني كتاب الفروسيّة .

الرّابع : اتّفاق الكلمة وعدم التّنازع الّذي يوجب الفشل والوهن ، وهو جند يقوّى به المتنازعون عدوّهم عليهم ، فإنّهم في اجتماعهم كالحزمة من السّهام لا يستطيع أحد كسرها ، فإذا فرّقها وصار كلّ منهم وحده كسرها كلّها .

الخامس : ملاك ذلك كلّه وقوامه وأساسه وهو الصّبر .

فهذه خمسة أشياء تبنى عليها قبة النّصر ، ومتى زالت أو بعضها زال من النّصر بحسب ما نقص منها ، وإذا اجتمعت قوّى بعضها بعضاً ، وصار لها أثر عظيم في النّصر .

ولمّا اجتمعت في الصّحابة لم تقم لها أمّة من الأمم ، وفتحوا الدّنيا ، ودانت لهم البلاد .

ولمّا تفرّقت فيمن بعدهم وضعفت آل الأمر إلى ما آل ، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم " (١)

وهو كلام رصين ، وبلسم شافي ، وطريق بيّن لمن أراد أن يسلكه من أهل الجهاد في سبيل الله ليصل إلى قمّة النّصر .

فإذا أيقن المجاهد أنّ النّصر بيد الله ، ينصر به من حقّق أسبابه ، وقام بما يجب عليه نحوه ، نزلت في قلبه السّكينة ، وحلّت في نفسه الطّمأنينة ، وسرى في جوانحه الثّبات ، فأقدم على قتال عدوّه بعزم صادق ، وشجاعة قاهرة ، وقوّة نافذة حتّى يكتب له النّصر ، ويسعد بالغلبة والظّفر ، حيث يدفعه يقينه بأن النّصر من الله إلى الثّبات ، ويقوده ثباته إلى النّصر .

---

(١) الفروسيّة : ص : ٥٠٥-٥٠٦ .

الفصل الخامس

نماذج للثّبات في الجهاد

وفيه مباحث :

المبحث الأوّل

أنبياء الله تعالى عليهم السّلام

إنّ أنبياء الله قمم عالية ، وشموس ساطعة في الثّبات على دين الله أقوالاً وأعمالاً .

ومن أمروا بالجهاد منهم ضربوا أروع الأمثلة في الثّبات عنده ، فلم تتزلزل أقدامهم ، ولم ترتجف قلوبهم ، بل كانوا كالجبال الشّم الّتي لا تؤثر فيها العواصف الهوجاء ، ولا الرّياح العاتية ، وكيف لا يكونون كذلك وهم قدوة الأنام ، وأسوة البشر ؟.

وقد أخبرنا ربّنا عن ثباتهم في الجهاد ممّا يذهل العقول ، ويحيّر الألباب ، فقال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأَخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٤٦-١٤٨].

هذا خطاب لأوّل هذه الأمّة ، يجر بأذياله إلى من بعدهم ، يدعوهم فيه ربُّهم إلى التأسّي بأنبياء الله وأتباعهم الصّادقين في الجهاد ، وأن يكونوا مثلهم فيثبتوا كما ثبتوا ، ويصبروا كما صبروا ، ويفعلوا كما فعلوا ، ويقولوا كما قالوا .

وبيان ذلك :

كم من نبيّ من أنبياء الله قاتل في سبيل الله ، وقاتل معه جماعة كثيرة من أتباعه ، فأصابهم في قتالهم من عظائم الأهوال ، وشدائد الخطوب ، وفظائع الأمور ، وكثرة الجروح ما لا يعلم قدره إلاّ الله ، فما وهنت قلوبهم ، وما ضعفت أجسادهم ، وما عجزت نفوسهم ، و ما تزلزلت أقدامهم ، وما جبنوا عند ملاقاة عدوّهم ، وما ذلّوا له ولا خضعوا ، بل اعتصموا بالصّبر عند الشّدائد ، ووطّنوا أنفسهم على الموت عند المصائب ، وركنوا إلى الثّبات عند الأهوال ، فلم يظهروا جزعاً ولا عجزاً ، ولا خوفاً ولا هلعاً ، ولا جبناً ولا خوراً . ومع ذلك أظهروا ذلّهم وعجزهم وفاقتهم إلى ربّهم ، فلجؤوا إليه بالدّعاء ، ورفعوا إليه أكفّ الضّراعة ، هاضمين لأنفسهم ، مستصغرين لها ، مسندين ما أصابهم إلى أعمالهم ، لم يتحدّثوا بما بذلوا من جهد وصبر ، طالبين من ربّهم أن يغفر ذنوبهم ، ويتجاوز عن تفريطهم ، ويثبّت أقدامهم ، ويعجّل نصرهم .

فلم يكتفوا بما فعلوا ــ مع جلالة قدر مافعلوا ــ بل طلبوا الإمداد والإعانة والتّثبيت من الله ، وقدّموا بين يدي ذلك التّوبة والاستغفار رجاء أن يحقّق لهم ما طلبوا .[١] فجمعوا بين مفاخر الأفعال ومحاسن الأقوال ، فجازاهم ربّهم بأحسن الجزاء ، وأعظم الثّواب ، فنالوا ثواب الدّنيا من نصر وظفر، وفتح وتمكين ، وعزّ وثناء حسن . كما نالوا ثواب الآخرة من جنّة عالية ، ونعيم مقيم ، ولذّات دائمة ، وسرور وحبور .

---

(١) قال ابن القيّم (رحمه الله) : " علموا أنّ ربّهم تبارك وتعالى إن لم يثبّت أقدامهم ، وينصرهم لم يقدروا هم على تثبيت أقدام أنفسهم ، ونصرها على أعدائهم ، فسألوه ما يعلمون أنّه بيده دونهم ، وأنّه إن لم يثبّت أقدامهم وينصرهم لم يثبتوا ولم ينتصروا ، فوفّوا المقامين حقّهما : مقام المقتضي ، وهو التّوحيد والالتجاء إليه سبحانه ، ومقام إزالة المانع من النّصرة ، وهو الذّنوب والإسراف " . زاد المعاد : ٣ / ٢٢٥-٢٢٦ .

وهكذا يفعل الكريم الجواد مع عباده المخلصين الثّابتين الصّادقين النّاصرين لدينـه ، الصّابرين عند لقاء عدوّه ، الموقنين بوعده ، المحسنين في أفعالهم وأقوالهم .[1]

ولعل أعظم أنموذج لثبات الأنبياء في الجهاد يذكر في هذا المقام هـو إمـام المجاهدين ، وقائد الغرّ المحجّلين ، وخليل ربّ العالمين ، الّذي رفع لواء الجـهاد ، وقمع الله به أهل الكفر والشّقاق والعناد ، حتّى ظهر الحقّ وساد ، وبطـل البـاطل وباد .

وهذا طرف من ثباته ﷺ في الجهاد يبرز من خلاله ثبـات الأنبيـاء جمعيـاً وصبرهم عند قتال الأعداء ، ومجاهدة الألداء :

لقد كان رسول الله ﷺ في الذّروة العليا من الجهاد ، حقّق كلّ أنواعه ، وأكمل كلّ مراتبه ، فجاهد في الله حقّ جهاده بقلبه وجنانـه ، ولسـانه وبيانـه ، وسـيفه وسنانه ، فساعاته كلّها كانت وقفاً على الجهاد .[2]

وأطاع أمر ربّه في جهاد الكافرين حين كلّفه بذلك في قولـه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝ ﴾ [التوبة:٧٣][التحريم:٩] . فأبلى فيه غاية الإبلاء ، وأبلغ فيه غاية الإبلاغ ، حتـى بلغـت غزواته تسع عشرة غزوة ، قاتل في ثمان منها.[3]

---

(١) وانظر في معنى الآيات : جامع البيان : ١١٦/٤-١٢٢ . التفسير الكبير : ٢٥/٩-٢٩ . الجامع لأحكام القـرآن : ٢٢٧/٤-٢٣١. تفسير القرآن العظيم : ٦١٤/١-٦١٥ . فتح البيـان : ٣٤٨/٢-٣٥١ . محاسـن التـأويل : ٩٩٠/٤-٩٩٢ . تفسير المراغي : ٩٢/٤-٩٤. تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١١٨-١١٩ . في ظلال القـرآن : ٤٨٨/١ .

(٢) انظر : زاد المعاد : ٥/٣ . وانظر : ١٢/٣ من نفس الكتاب .

(٣) انظر : صحيح مسلم : ١٤٤٨/٣ .

لم ينهزم ﷺ في غزوة من غزواته ، وكيف ينهزم وهو أعظم العالمين توكّلاً على الله ، وأكثرهم اعتماداً عليه ، وأصبرهم عند الشّدائد والملمّات ، وأشجعهم طرّة ؟

عن أنس ﷺ قال : " كان النّبي ﷺ أحسن النّاس ، وأشجع النّاس ، وأجود النّاس ، ولقد فزع أهل المدينة ، فكان النّبي ﷺ سبقهم على فرس ، وقال : وجدناه بحراً [(١)] " [(٢)]

وقد استدلّ بعض أهل العلم على كمال شجاعته بقوله تعالى : ﴿ فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾ [النّساء:٨٤].

فلو لم يكن ﷺ أشجع النّاس ، وأعلمهم بالقتال وأثبتهم فيه ما كلّفه الله به ولو كان وحده .

قال الشّيخ المراغي (رحمه الله) :

" وفي الآية إيماء إلى أنّه ﷺ كُلِّف قتال الكافرين الّذين قاوموا دعوته بقوّتهم وبأسهم وإن كان وحده ، كما أنّها تدلّ على أنّه ﷺ أعطي من الشّجاعة ما لم يعط أحد من العالمين ، وفي سيرته الشّريفة أصدق الأدلّة على ذلك ، فقد تصدّى لمقاومة

---

(١) البحر : الفرس الواسع الجري الّذي لا يفنى جريه كما لا يفنى ماء البحر . انظر : غريب الحديث للخطّابي : ٥٠٥/١ . النّهاية في غريب الحديث: ٩٩/١ . و انظر : الفائق : ١٧٧/٣ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الجهاد والسّير : (٣٢/٥٦) . باب الشّجاعة في الحرب والجبن : (٢٤) . برقم: (٢٨٢٠) . ص : ٥٩٦ . و نحوه في: باب الحمائل وتعليق السّيف على العنق : (٨١/٨٢) . برقم: (٢٩٠٨) . ص : ٦١٣ . وفي باب إذا فزعوا باللّيل : (١٦٤/١٦٥) . برقم: (٣٠٤٠) . ص : ٦٣٩ . وفي كتاب الأدب : (٥٢/٧٨) . باب حسن الخلق والسّخاء ، وما يكره من البخل : (٣٩) . برقم: (٦٠٣٣) . ص : ١٢٩٤ .

صحيح مسلم: نحوه في: كتاب الفضائل : (٤٣) . باب في شجاعة النّبي ﷺ ، وتقدّمه للحرب : (١١) . ١٨٠٢/٤-١٨٠٣ .

النّاس جميعاً بدعوتهم إلى ترك ما هم عليه من الضّلال ، وحين قاتلوه قاتلهم ، وقد انهزم عنه أصحابه في أحد فبقي ثابتاً كالجبل لا يتزلزل " [١] .

ومواقفه ﷺ في الثّبات في القتال كثيرة لا تحصى ، ولكن أورد موقفاً واحداً منها تتجلّى فيه قمّة الثّبات ، وكمال الشّجاعة ، وتمام الصّبر ، وقوّة القلب ، وصدق العزيمة .

إنّه يوم حنين ، ذلك عندما اجتمعت قبائل[٢] من العرب ، فساروا لحرب المسلمين حتّى نزلوا وادي حنين بليل فكمنوا فيه .

وخرج النّبي ﷺ من مكّة بعد فتحها في اثني عشر ألفاً ، منهم ألفان من أهل مكّة ، وأكثرهم حديثو عهد بالإسلام .

وفي عَمَاية الصّبح [٣] انحدر المسلمون إلى وادي حنين وهم لا يعلمون بأنّ العدوّ قد كمن فيه . فبينما هم ينحطّون في الوادي فإذا وابل كثيف من السّهام يمطر عليهم من كتائب العدوّ ، فانشمر المسلمون راجعين لا يلوي أحد على أحد ، وكانت هزيمة منكرة ، وثبت النّبي ﷺ في عدد قليل من المهاجرين وأهل بيته ، [٤] وهو ينادي: هلمّوا إليّ أيّها المسلمون أنا رسول الله ، وهو يركض بغلته تجاه العدوّ، وأبو سفيان بن الحارث والعبّاس بن عبد المطلب (رضي الله عنهما) يكفّانها حتّى

---

(١) تفسير المراغي : ٥/١٠٧ .

وانظر : التّفسير الكبير : ١٠/٢٠٤ . فتح البيان : ٣/١٨٩ . محاسن التّأويل : ٥/١٤١٥-١٤١٦.

(٢) هي : هوازن وثقيف ونصر وجشم وسعد بن بكر وناس من بني هلال . جمعها مالك بن عوف النّضري .

انظر : السّيرة النّبويّة لابن هشام : ٤/٣٣١ .

(٣) أي في بقيّة ظلمة اللّيل . لسان العرب : ١٥/٩٨ .

(٤) ممّن ثبت معه : أبو بكر وعمر ، ومن أهل بيته علي بن أبي طالب ، والعبّاس بن عبد المطلب ، وأبو سفيان بن الحارث ، وابنه ، والفضل بن العبّاس ، وربيعة بن الحارث ، وأسامة بن زيد ، وأيمن بن عبيد ، قتل يومئذ ، رضوان الله على الجميع . انظر : السّيرة النّبويّة لابن هشام : ٤/٣٣٥ .

لا تسرع . فأمر ﷺ العبّاس ﷺ أن ينادي أصحاب السّمرة [1] ففعل ، فما أن سمع الصّحابة النّداء حتّى انعطفوا راجعين إلى رسول الله ﷺ ، فاجتلد القوم ، وما كانت إلاّ هنيه حتّى انكسر العدوّ وحلّت به الهزيمة السّاحقة .[2]

جاء رجل إلى البراء ﷺ فقال : أكنتم ولّيتم يوم حنين ؟ يا أبا عمارة ! فقال: أشهد على نبي الله ﷺ ما ولّى ، ولكنّه انطلق أخفّاء [3] من النّاس ، وحُسّرٌ[4] إلى هذا الحي من هَوَازِن وهم قوم رماة ، فرموهم بِرِشْقٍ من نبل ، كأنّها رِجلٌ من جراد ، فانكشفوا ، فأقبل القوم إلى رسول الله ﷺ ، وأبو سفيان بن الحارث يقود به بغلته ، فنزل ، ودعا واستنصر ، وهو يقول :

" أنا النّبيّ لا كذب ****** أنا ابن عبد المطلب

اللهم نزّل نصرك " .

قال البراء : كنّا والله إذا احمرّ البأس [5] نتّقي به ، وإنّ الشّجاع منّا للّذي يحاذي به

---

(١) السّمرة : هي الشّجرة الّتي بايعه تحتها أصحابه بيعة الرّضوان بالحديبية ، وكانوا بايعوه على ألاّ يفرّوا فلمّا سمعوا النّداء تذكّروا العهد فرجعوا . انظر : المفهم : ٦١٥/٣ . شرح النّووي : ١١٥/١٢ .

(٢) انظر : السّيرة النّبويّة لابن هشام : ٣٣١/٤-٣٣٧ . الرّحيق المختوم : ص: ٣٨٠-٣٨٣ . وانظر : صحيح مسلم : كتاب الجهاد والسّير : (٣٢) . باب في غزوة حنين : (٢٨) . برقم: (١٧٧٥) . ١٣٩٨/٣-١٣٩٩ .

(٣) أخِفَّاءُ من النّاس : جَمْع خَفِيف . وفي رواية : انْطَلَق جُفَاءٌ من النّاس إلى هذا الحَيّ من هَوازن : أراد سَرَعَانَ النّاس وأوائلَهم . شَبَّهَهُم بجُفَاء السّيل . يقال جَفأ الوادي جَفَاء : إذا رَمَى بالزّبد والقَذَى . انظر : النّهاية في غريب الحديث: ٢٧٧/١. و انظر : غريب الحديث لابن قتيبة : ٤٠١/٢-٤٠٢ . الفائق : ٢٢٢/١-٢٢٣ .

(٤) حُسَّر : جمع حاسر ، وهو الّذي لاجنّة عليه ، أي لاشيء يحميه من سهام العدوّ . انظر : غريب الحديث لابن قتيبة : ٤٠٢/٢ . الفائق : ٢٢٣/١ .

(٥) أحمرّ البأس : احمرار البأس كناية عن شدّة الحرب ، واستعير ذلك لحمرة الدّماء الحاصلة فيها في العادة ، أو لاستعار الحرب واشتعالها كاحمرار الجمر . شرح النّووي على مسلم : ١٢١/١٢ .

يعني النّبي ﷺ ".[1]

فركوبه البغلة ﷺ ، بل ودفعها تجاه العدوّ ، ونزوله إلى الأرض على عادة الشّجعان ، والتجاؤه إلى ربّه ، ودعوته إيّاه بالنّصر وهو في موقف تتصدع فيه القلوب ، وتتطاير فيه النّفوس هلعاً وخوفاً ، كلّ ذلك يدلّ على المبالغة في ثباته ، وشدّة صبره ، وقوّة عزمه ، بل يدلّ على أنّه أشجع النّاس وأثبتهم في الحرب ، ولذا قال البراء : " وإنّ الشّجاع منّا للّذي يحاذي به ".[2] .

وقد أنزل الله تعالى في هذه الواقعة قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [التوبة:٢٥-٢٧] .

---

(١) صحيح البخاري: نحوه في: كتاب الجهاد والسّير : (٥٦/٣٢) . باب من قاد دابّة غيره في الحرب : (٥٢) . برقم: (٢٨٦٤) . ص : ٦٠٤-٦٠٥ . وفي باب بغلة النّبي ﷺ البيضاء : (٦١/٦٠) . برقم: (٢٨٧٤) . ص : ٦٠٦ . وفي باب من صفّ أصحابه عند الهزيمة : (٩٧/٩٦) . برقم: (٢٩٣٠) . ص : ٦١٧ . وفي باب من قال خذها وأنا ابن فلان : (١٦٧/١٦٦) . برقم: (٣٠٤٢) . ص : ٦٤٠ . وفي كتاب المغازي : (٦٤/٣٨) . باب قول الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾ { التوبة : ٢٥-٢٧} : (٥٤/٥٥) . برقم: (٤٣١٥، ٤٣١٧) . ص : ٨٩٦ _ ٨٩٧ .

صحيح مسلم: بلفظه وبنحوه في كتاب الجهاد والسّير : (٣٢) . باب في غزوة حنين : (٢٨) . برقم : (١٧٧٦) ١٤٠٠/٣-١٤٠١ .

(٢) وانظر : المفهم : ٦١٥/٣ .

أي اذكروا أيّها المؤمنون فضل الله عليكم ونعمه الّتي لا تحصى ولا تعدّ في نصره إيّاكم في غزواتكم مع رسوله ، ومن ذلك يوم حنين حين أعجبتكم كثرتكم فقال قائل منكم : لن نهزم اليوم من قلّة ، فلم يجدي ذلك عنكم شيئاً ، لأنّ النّصر من عند الله وحده وليس بكثرة العَدَد والعُدَد ، وإن كانت تلك أسباب معينة عليه ، وإنّما النّصر والظّفر من الله .

فلمّا قلتم ذلك ضاق عليكم فسيح الأرض ، فلم تجدوا ملجأ تلجؤون إليه ، فاعتصمتم بالهرب والفرار مولّين ظهوركم لأعدائكم ، لا تلوون على شيء ، تاركين رسول الله ﷺ وقلّة من أصحابه في واجهة العدوّ ، حيث قذف الله الأمنة والطّمأنينة في قلبه ﷺ وقلوب من معه ، فثبتوا ثبات الجبال ، وصبروا صبر الرّجال ، حتّى عدتم بعد انهزامكم ، ورجعتم بعد فراركم ، وأنزل الله لكم ملائكة من السّماء تقوّي قلوبكم ، وتقذف الرّعب في قلوب أعدائكم ، فملكتم أكتافهم ، وعذّبهم الله على أيديكم بالقتل والأسر والسّبي وأخذ الأموال . وكلّ ذلك نعم من الله يسوقها إليكم ، وفضل منه يتفضّل به عليكم .(١)

فثبات الرّسول ﷺ في تلك المعركة ومن معه كان له أثره العظيم في قلب موازين المعركة من هزيمة إلى نصر ، ومن فرار إلى صبر ، ومن غلبة إلى منعة . فنالوا به ما يتمنّون ، ووصلوا به إلى ما يرجون .

---

(١) انظر في معنى الآيات : جامع البيان : ١٠/٩٩-١٠٤ . التّفسير الكبير : ١٦/٢٠-٢٣ الجامع لأحكام القرآن : ٨/١٠١ . تفسير القرآن العظيم : ٢/٥٣٧-٥٣٩ . فتح البيان : ٥/٢٦٢-٢٦٥ . محاسن التّأويل : ٨/٣٠٩٢-٣٠٩٣ . تفسير المراغي : ١٠/٨٥-٨٧ .

المبحث الثّاني

الصّحابة رضي الله عنهم

إنّ التّاريخ الإسلامي عجز أن يوجد بعد النّبي ﷺ فئة من الأمّة تجيد تطبيق هذا الدّين في جميع مناحيه كتطبيق الفئة الّتي صحبت محمّداً ﷺ ، فإنّهم قاموا به خير قيام ، والتزموا به أعظم التزام قولاً وفعلاً ، وحملوه في وقت تكالبت عليه أمم الكفر ليخمدوا أنفاسه ، ويطفئوا نوره ، وأبى الله إلاّ أن ينصر دينه ، ويعلي كلمته بهذه الفئة الّتي اختارها لصحبة نبيّه ﷺ ، وإعزاز دينه .

ولقد علموا رضي الله عنهم أنّ الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام [1] فكان لهم فيه القدح المعلّى والحظّ الأوفر ، فبذلوا فيه نفوسهم وأموالهم حتّى فتحوا البلاد شرقها وغربها ، ودانت لهم جزيرة العرب بأسرها ، بل استطاعوا أن يغزوا أعظم إمبراطوريتين في وقتهم ، إمبراطورية الفرس وإمبراطورية الرّوم ، فدكّوا الأولى وأزالوا عرشها ، وتقلّصت أمامهم الثّانية وانحسرت .

---

(١) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنّ النّبي ﷺ قال : " ذروة سنام الإسلام الجهاد في سبيل الله " . مسند أحمد: ٢٣٥/٥ . معجم الطّبراني الكبير: ٢٢٣/٨ . عن أبي أمامة رضي الله عنه . وزاد " لا يناله إلاّ أفضلهم " .

ذِرْوة كُلّ شيء أعلاه . وجمعها ذُرى . انظر : غريب الحديث لابن قتيبة : ٤١٢/٢ . النّهاية في غريب الحديث: ١٥٩/٢ .

قال المناوي (رحمه الله) :

" ذروة سنام الإسلام الجهاد في سبيل الله بقصد إعلاء كلمة الله . والذّروة من كلّ شيء أعلاه ، وسنام الشّيء أعلاه فالجمع بينهما هنا للمبالغة . لا يناله إلاّ أفضلهم : يعني أفضل المسلمين المدلول عليه بلفظ الإسلام ، فإن جاد بنفسه لله فهو أفضلهم بلا نزاع " . فيض القدير : ٥٦١/٣ .

يقول ابن القيّم (رحمه الله) :

" والفروسيّة أربعة أنواع :

أحدها : ركوب الخيل والكرّ والفرّ بها .

الثّاني : الرّمي بالقوس .

الثّالث : المطاعنة بالرّماح .

الرّابع : المداورة بالسّيف .

فمن استكملها استكمل الفروسيّة ، ولم تجتمع هذه الأربعة على الكمال إلاّ لغزاة الإسلام وفوارس الدّين وهم الصّحابة ﷺ ، وانضاف إلى فروسيّتهم الخيليّة فروسيّة الإيمان واليقين ، والتّنافس في الشّهادة ، وبذل نفوسهم في محبّة الله ومرضاته ، فلم يقم لهم أمّة من الأمم البتّة ، ولا حاربوا أمّة إلاّ وقهروها وأذلّوها ، وأخذوا بنواصيها ، فلمّا ضعفت هذه الأسباب فيمن بعدهم لتفرّقها فيهم وعدم اجتماعها دخل عليهم من الوهن والضّعف بحسب ما عدموه من هذه الأسباب ، والله المستعان " [١] .

لقد صدقوا في جهادهم ، وأخلصوا في قتالهم ، وجدّوا في نصرة دين الله حتّى نصروه ، ودافعوا عنه حتّى نشروه ، وقد كان الثّبات في القتال صفة ملازمة لهم لا تنفك عنهم ، عرفوا به خلال حروبهم الّتي فاقت حدّ الحصر ، جابهوا فيها أعتى الجيوش وأصلب الجحافل[٢] ، عَدداً وعُدداً ، ولم يكونوا إلاّ في قلّة من العَدد ، وضعف من العُدد ، فلم تضعف عزائمهم ، ولا تزلزلت أقدامهم ، ولا وهنت قلوبهم ، ولا خارت قواهم ، كيف لا ؟ ورسول الله ﷺ قدوتهم وأسوتهم الّذي يتأسّون به في جميع أمور الدّين ، ومن ذلك الثّبات في الجهاد . فقد رأوا ثباته فيه فأرادوا أن يماثلوه ، ورأوا صبره فأرادوا أن يشابهوه ، وإن كان أمر النّبوّة عظيماً ،

---

(١) الفروسيّة : ص : ١٠٧-١٠٨ .

(٢) الجَحَافِل : جمع الجَحْفَل: وهو الجيش الكثير ، ولا يكون كذلك حتّى يكون فيه خَيْل . انظر : لسان العرب: ١٠٢/١١ . وانظر : القاموس المحيط : ص : ١٢٦٠ .

جليل القدر إلاّ إنّهم أحسنوا الاقتداء وأجادوا التّأسّي ، وقد سطّر التّاريخ صفحات مضيئة ، وأبرز آثاراً مشرقة لثبات أولئك الأماجد يعجز المقام أن يأتي عليها كلّها ، ولكن في النّماذج والأمثلة ما يغني عن كثرة السّرد والإطالة .

ولعلّ أبلغ أنموذج يكشف عن ثبات أولئك الأبطال غزوة بدر الكبرى ، ففيها ما يغني ويكفي . وهذا خبرها :

سمع النّبي ﷺ بأبي سفيان بن حرب مقبلاً من الشّام بعير لقريش فيها أموال عظيمة ، فندب النّاس للخروج إليها ولم يعزم عليهم ، فخفّ بعضهم وثقل بعضهم ، ولم يظنّوا أنّهم يلقون حرباً ولذا خرجوا في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ، معهم فارسان ، وسبعون بعيراً يعتقبونها .

فلمّا علم أبو سفيان بخبرهم أرسل إلى قريش كي ينفروا إلى عيرهم فيمنعوها من محمّد ﷺ وأصحابه ، فنهضوا مسرعين ، وأوعبوا في الخروج ، وحشدوا من حولهم من قبائل العرب ، ولم يتخلّف من أشرافهم أحد سوى أبي لهب[1] ، فإنّه عوّض عنه رجلاً ، فكان قوام جيشهم ما بين التّسعمائة والألف في كامل العتاد والعُدد والظّهر .

وقد انفلتت العير فنجت من الوقوع في قبضة جيش الإسلام ، والتقى الجيشان على غير ميعاد كما قال سبحانه : ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ

---

(١) أبو لهب : هو عبد العزّى بن عبد المطلب بن هاشم القرشي ، عمّ رسول الله ﷺ . أحد الأشراف والشّجعان في الجاهليّة ، كبر عليه أن يتّبع ديناً جاء به ابن أخيه فآذى المسلمين ، وكان شديد العداوة لهم ، محرّضاً عليهم . وهو الّذي نزل في شأنه قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ ﴾ [المسد:١-٣] . مات بعد وقعة بدر بأيّام ولم يشهدها .

انظر : الأعلام : ١٢/٤ .

﴿ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال:٤٢].

جيش المسلمين الّذي خرج غير متأهب لقتال لأنّه لم يخرج من أجله ، وقد كان في قلّة من العدد ، وضعف في القوّة والسّلاح ، ونقص في الظّهر ، وفي غير منعة من النّاس .

وجيش المشركين في غاية الشّدّة والقوّة ، مع كثرة عددهم وكامل عتادهم ، وقد كان يعجّ بالفرسان والخيل ، وقد خرجوا على حميّة وغضب ، وحنق على رسول الله ﷺ وأصحابه ، يريدون أن يجتثّوا الإسلام ونبيّ الإسلام ، يصاحبهم الرّياء ، ويقارنهم البطر كما قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [الأنفال:٤٧].

والنّتيجة الّتي تتمخّض من ذلك أنّه لا تكافؤ بين الجيشين البتّة .

ولمّا أحسّ المصطفى ﷺ بالخطر الدّاهم ، وأنّه لا بد من حرب ضروس ، ولقاء دامٍ ينبني عليه بقاء الإسلام أو زواله ، كما قال في دعائه من بعد : " اللّهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض " (١) .

وقتال هذا شأنه فإنّه يحتاج إلى ثبات وشجاعة وبسالة وجرأة منقطعة النّظير وإلاّ كانت الدّائرة . فأراد ﷺ أن يستشفّ هذه المعاني في أصحابه ، وهل يمكنه أن يخوض بهم معركة غير متكافئة الجانبين ، فاستشارهم في القتال .

وهنا ظهر الإيمان على حقيقته ، واليقين في قمّته ، والثّبات في أوجه ، والشّجاعة في كمالها ، والصّبر في غايته .

---

(١) صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الجهاد والسّير : (٣٢) . باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر : (١٨) . برقم: (١٧٦٣) . ٣/١٣٨٣-١٣٨٤ .

فقام أبو بكر الصّدّيق ﷺ فقال وأحسن . ثمّ قام عمر الفاروق ﷺ فقال وأحسن ، وكانا دائماً سبّاقين للخير[1] .

ثمّ قام المقداد بن عمرو ﷺ ، فارس الإسلام . فقال : " يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ [المائدة:٢٤] ولكن اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون ، فو الّذي بعثك بالحقّ لو سرت بنا إلى برك الغماد[2] لجالدنا معك من دونه حتّى تبلغه "[3] .

ثمّ قال رسول الله ﷺ : " أشيروا عليّ أيّها النّاس " وكان يريد الأنصار ، لأنّهم عدد النّاس ، ولمّا بايعوه أوّلاً لم يشترطوا نصرته خارج مدينتهم . والّذين سبقوا بالكلام كانوا جميعاً من المهاجرين .

---

(١) انظر صحيح مسلم : ١٤٠٣/٣-١٤٠٤ . السّيرة النّبويّة لابن هشام : ٤٠٧/٢ .

(٢) برك الغماد : بفتح الباء عند الأكثر . وقيل : بكسرها . والغماد : بكسر الغين المعجمة ، وقيل : بالضّمّ ، والكسر أشهر . وهو موضع وراء مكّة بخمس ليال ممّا يلي البحر ، وقيل : بلد باليمن في أقصاها . انظر: معجم البلدان : ٣٩٩/١ . و انظر : معجم ما استعجم : ٣٠٣/١ .

(٣) السّيرة النّبويّة لابن هشام : ٤٠٧/٢ . البداية والنّهاية : ٢٦٢/٣ . وفي صحيح البخاري قال ابن مسعود ﷺ : " شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحبّ إليّ ممّا عدل به . أتى النّبيّ ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال : لا نقول كما قال قوم موسى : ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ ﴾ ولكنّا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك . فرأيت النّبي ﷺ أشرق وجهه وسرّه . يعني قوله " . كتاب المغازي : (٣٨/٦٤) . باب قول اللّه تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ...الآيات ﴾ { الأنفال : ٩-١٣} : (٤) . برقم: (٣٩٥٢) .ص : ٨٢٩ . و انظر : كتاب التّفسير : (٣٩/٦٥) . باب ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ [المائدة:٢٤] : (٣/٤) . برقم: (٤٦٠٩) . ص : ٩٦٦ .

فلمّا قال ﷺ ذلك قال له سعد بن معاذ ﷺ : " والله لكأنّك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : " أجل " قال : فقد آمنّا بك وصدّقناك ، وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحقّ ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السّمع والطّاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالّذي بعثك بالحقّ لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلّف منّا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً ، إنّا لصُبْر في الحرب ، صُدُق في اللّقاء ، لعلّ الله يريك منّا ما تقرّ به عينك ، فسر بنا على بركة الله " [1] .

إنّها كلمات تشعّ صدقاً وثباتاً ، فهي لم تخرج من قلوب جوفاء خالية ، وإنّما خرجت من قلوب فعّمت بالإيمان واليقين ، وسلامة المعتقد ، وصحة التّوجه .

إنّه الثّبات بكلّ معانيه ، ثبات أعجز الأمّة أن تخرج من بنيها من كان ذلك شأنه وحاله بعد أولئك الأبرار .

فسرّ رسول الله ﷺ بما قيل سروراً عظيماً ، ونشّطه ذلك وشجّعه . فقال : " سيروا وأبشروا فإنّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطّائفتين ، والله لكأنّي الآن أنظر إلى مصارع القوم" [2].

---

(١) السّيرة النّبويّة لابن هشام : ٤٠٨/٢ . البداية والنّهاية : ٢٦٢/٣ . انظر : زاد المعاد : ١٧٤/٣ .

(٢) السّيرة النّبويّة لابن هشام : ٤٠٨/٢ . . البداية والنّهاية : ٢٦٢/٣ .

وقوله ﷺ : " سيروا وأبشروا...إلخ " . أصله في : صحيح البخاري : كتاب الجهاد والسّير : (٣٢/٥٦) . باب ماقيل في درع النّبي ﷺ والقميص في الحرب : (٨٨/٨٩) . برقم : (٢٩١٥) . ص : ٦١٤-٦١٥ . وانظر : حديث رقم : (٣٩٥٣) . ص : ٨٢٩ . وحديث رقم : (٤٨٧٥ ، ٤٨٧٧) . ص : ١٠٦٠ .

صحيح مسلم : كتاب الجهاد والسّير : (٣٢) . باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ، وإباحة الغنائم : (١٨) . برقم : (١٧٦٣) . ١٣٨٤/٣ .

وقد أورد البيهقي نحوه في السّنن . في باب الصّلاة عند الالتقاء . ١٨٧/٥ . وفي باب الاستنصار عند اللّقاء . ١٥٥/٦ . والطّبراني في المعجم الكبير : ١٤٧/١٠ .

والتحم الجيشان بعد صولات وجولات ، وثبت أهل الإيمان فانــهدت أمامــهم صفوف المشركين ، وانكسرت جموعهم ، وركب أسود الإسلام ظهورهم يأســرون ويقتلون . وانجلت المعركة بهزيمة ساحقة لملّة الكفر ، حيــث قتــل صنــاديدهم[1] ورؤساؤهم وقادتهم في الشّر . فقتل سبعون وأسر سبعون ، وفرّ الباقون وهم يجرّون أذيال الخيبة والذّل والهوان ، وانهدّ بذلك ركن ركين من أركان الشّرك .[2]

ونزل القرآن الكريم يتحدّث عن هذه المعركة ، يكشــف الحقّـائق ، ويبيّــن الخفايا ، ويثني على ثبات المؤمنين وصبرهم ، ويمنّ بنصر الله لـــهم ، ويذكّرهــم بنعمه عليهم .

فقــال ســبحانه : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٢٣] . فقد نصرهم الله مع قلّة عددهم ، وضعف عُددهــم ولو لم ينصرهم ما نصروا ، إذ النّصر منه سبحانه .[3] ولو لم يثبّتهم ما ثبتوا .

وأعانهم سبحانه بعوامل الثّبات لمّا علم صدقهم وإخلاصهم ، وأنّــهم يريــدون وجهه والدّار الآخرة ، وإقامة دينه وإعلاء كلمته .

فأنزل ملائكة من السّماء ، يردف بعضهم بعضاً ، ويأتي بعضهم إثر بعــض ، مدداً للمؤمنين ، يبشّرونهم بالنّصر ، ويطمئنون قلوبـــهم ويســكّنونها فــلا تفــزع

---

(١)صناديد قريش هم أشرافُهم وعُظماؤُهم . الواحد صِنْدِيد . وكلّ عظيم غالب صِنْدِيد . لسان العرب : ٢٦٠/٣ .

(٢) انظر : في سياق وقعة بدر : السّيرة النّبويّة لابن هشام : ٤٠١/٢-٤٢٧ . زاد المعاد : ١٧١/٣-١٨٨ . البدايـة والنّهاية : ٢٥٦/٣-٢٩٧ . الرّحيق المختوم : ص : ١٨٤-٢١٠ .

(٣) وانظر في معنى الآية : جامع البيان : ٧٤/٤ . التّفسير الكبير : ٢٠٨/٨ . فتح البيان : ٣٢٤/٢-٣٢٥ . تفســير المراغي :٥٥/٤. تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١١٤.

ولا تخاف ، بل ويقاتلون معهم [1] . ويبثّون الرّعب في قلوب الكافرين ، والهلع في نفوسهم . قال سبحانه : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠ ﴾ [الأنفال:٩-١٠] [2] .

---

(١) روى ابن جرير (رحمه الله) بسنده عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) قال : " لم تقاتل الملائكة في يوم من الأيّام سوى يوم بدر ، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيّام عدداً ومدداً لا يضربون " . جامع البيان : ٧٧/٤ . ونصّ الرّازي على أنّ ذلك قول كثير من المفسّرين . انظر : التّفسير الكبير : ٢١٤/٨ .

عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) قال : " بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتدّ في أثر رجل من المشركين أمامه ، إذ سمع ضربة بالسّوط فوقه ، وصوت الفارس يقول : أَقْدِمْ حَيْزُومُ . فنظر إلى المشرك أمامه فخرّ مستلقياً ، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه ، وشُقّ وجهه كضربة السّوط ، فاخضرّ ذلك أجمع . فجاء الأنصاري فحدّث بذلك رسول اللّه ﷺ فقال : "صدقت ذلك من مدد السّماء الثّالثة " . وهذا دليل على قتال الملائكة في بدر . صحيح مسلم : كتاب الجهاد والسّير : (٣٢) . باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر : (١٨) . برقم : (١٧٦٣) . ١٣٨٤/٣-١٣٨٥ .

(٢) وانظر في معنى الآيتين : الجامع لأحكام القرآن : ٣٧٠/٧-٣٧١ . تفسير القرآن العظيم : ٤٥٨/٢-٤٦٠ . فتح البيان :١٣٧/٥-١٣٩ . محاسن التّأويل :٢٩٥٧/٨-٢٩٥٩ . تفسير المراغي : ١٧٢/٩-١٧٤ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٧٨ .

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال : " لمّا كان يوم بدر نظر رسول اللّه ﷺ إلى المشركين وهم ألف ، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً ، فاستقبل نبي اللّه ﷺ القبلة ، ثّم مدّ يديه فجعل يهتف بربّه : " اللّهم أنجز لي ما وعدتّني ، اللّهم آت ما وعدتّني ، اللّهم إن تُهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض " . فمازال يهتف بربّه ، مادّاً يديه ، مستقبل القبلة ، حتّى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ، ثّم التزمه من ورائه ، وقال : يا نبي اللّه كذاك مناشدتك ربّك ، فإنّه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل اللّه عزّ وجلّ : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ ﴾ [الأنفال:٩] . فأمدّه اللّه بالملائكة " . صحيح مسلم : كتاب الجهاد والسّير : (٣٢) . باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر : (١٨) . برقم : (١٧٦٣) . ١٣٨٣/٣-١٣٨٤ .

وقال : ﴿ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴾ [الأنفال:١٢] .

فهو يأمر الملائكة سبحانه بتثبيت المؤمنين ، وبثّ الطّمأنينة في قلوبهم ، ويخبرهم أنّه معهم بنصره وتأييده وإعانته ، وهذا أعظم عامل على الثّبات ، وأنّه سوف يقذف الخوف والرّعب في قلوب المشركين فلا يكون لهم ثبات ، فاضربوا هاماتهم ، وفلّقوا رؤوسهم ، واحتزّوا رقابهم ، وقطّعوا أياديهم ذات البنان ليعجزوا عن التّصرّف في الحرب.(١)

وغشيهم سبحانه بالنّعاس أمنة لهم ، وتطميناً لقلوبهم ، وإزالة للخوف والرّعب عنها ، لأنّ وصوله دلالة على ذهاب الخوف ، إذا الخائف لا يتطرّق إليه نوم ولا نعاس لانشغال قلبه ، وبه يزول الإعياء والتّعب ، ويعود لهم النّشاط والقوّة . وأنزل الله عزّ وجلّ في تلك اللّيلة مطراً واحداً ، فكان على المشركين وابلاً شديداً منعهم من التّقدّم ، وكان على المسلمين طلاً طهّرهم به ، وأذهب عنهم رجس الشّيطان ، ووطّأ به الأرض ، وصلّب به الرّمل ، وثبّت الأقدام ، ومهّد به المنزل ، وربط به قلوبهم.(٢)

---

(١) وانظر : التّفسير الكبير : ١٥/١٣٤-١٣٥ . الجامع لأحكام القرآن : ٧/٣٧٨-٣٧٩ . تفسير القرآن العظيم : ٢/٤٦٢-٤٦٣. فتح البيان : ٥/١٤٢-١٤٣ . محاسن التّأويل : ٨/٢٩٦١ . تفسير المراغي : ٩/١٧٦-١٧٧ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٧٨ . وقال (رحمه الله) : " فإنّ الله إذا ثبّت المؤمنين ، وألقى الرّعب في قلوب الكافرين ، لم يقدر الكافرون على الثّبات لهم ، ومنحهم الله أكتافهم " . المرجع السّابق : ص : ٢٧٨ .

(٢) زاد المعاد : ٣/١٧٥ .

وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنفال:١١] (١) .

بهذه العوامل الدّاعية إلى الثّبات نصر الله المؤمنين على أهل الشّرك والكفر الّذين شاقّوا الله ورسوله (٢) ، وأرادوا طمس معالم الإسلام بعد أن آذوا أهله وأخرجوهم من ديارهم ، ثمّ اتّبعوا آثارهم يريدون أن يستأصلوا شافتهم ، فنصرهم الله عليهم في معركة كانت فاتحة الظّفر فيما بعدها ، والفاصلة لما يليها ، وبها علا ذكر أهل الإيمان في البلاد ، وهابهم قاصيها ودانيها ، وتضعضع بنيان الشّرك

---

(١) وانظر : التفسير الكبير :١٥/١٣٢-١٣٤ . الجامع لأحكام القرآن : ٧/٣٧١-٣٧٧ تفسير القرآن العظيم : ٢/٤٦٠-٤٦٢ . فتح البيان :٥/١٤٠-١٤٢ . محاسن التأويل : ٨/٢٩٦٠ . تفسير المراغي : ٩/١٧٤-١٧٧ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٧٨ .

يقول الشّيخ المراغي (رحمه الله) : " وقد فهم من الآية أنّه كان لهذا المطر أربع فوائد :

١- تطهيرهم حسّيّاً بالنّظافة الّتي تنشّط الأعضاء ، وتدخل السّرور على النّفس ، وشرعيّاً بالغسل من الجنابة والوضوء من الحدث الأصغر .

٢- إذهاب رجس الشّيطان ووسوسته .

٣- الرّبط على القلوب : أي توطين النّفس على الصّبر وتثبيتها كما قال : : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ [القصص:١٠] . وهذا لما للمطر من المنافع الّتي تكون أثناء القتال .

٤- تثبيت الأقدام به ، ذاك أنّ هذا المطر لبّد الرّمل وصيّره بحيث لا تغوص فيه أرجلهم ، فقدروا على المشي كيف أرادوا " . تفسير المراغي : ٩/١٧٥-١٧٦ .

(٢) كما قال سبحانه : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأنفال:١٣-١٤] .

وتزلزلت أركانه ، إذ فقد زعماءه وقادته الذّابّين عنه ، المانعين لحماه ، وعلت رايـة التّوحيد وارتفع بنيانه .

ولمزيد بيان لثبات الصّحابة ﷺ أورد أنموذجين لبطلين باسـلين ، وفارسـين عظيمين من فرسان الصّحابة ﷺ يتأكّد بخبريهما ثبات أولئـك الأجلّـة ، ويتّضـح بالحديث عنهما صبر أولئك الكرام . وهما في المطلبين الآتيين :

﴿ المطلب الأوّل ﴾

عُمَير بن الحُمَام ﷺ

عن أنس بن مالك ﷺ قال : انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتّى سبقوا المشركين إلى بدر ، وجاء المشركون ، فقال رسول الله ﷺ : " لا يُقَدِّمَنَّ أحد منكم إلى شيء حتّى أكون أنا دونه " [1] فدنا المشركون ، فقال رسول الله ﷺ : " قوموا إلى جنّة عرضها السّماوات والأرض " . قال : يقول عمير بن الحمام الأنصاري : يا رسول الله جنّة عرضها السّماوات والأرض ؟ قال : " نعم " . قال : بَخْ بَخْ [2] ، فقال رسول الله ﷺ : " ما يحملك على قولك بَخْ بَخْ " قال : لا والله يا رسول الله إلاّ رجاءة أن أكون من أهلها . قال : " فإنّك من أهلها " . فأخرج تمرات من قرنه [3] فجعل يأكل منهنّ ، ثمّ قال : لئن أنا حَيِيتُ حتّى آكل تمراتي هذه إنّها لحياة طويلة ، قال : فرمى بما كان معه من التّمر ثمّ قاتلهم حتى قتل " .[4]

---

(١) أي قدامه متقدّماً في ذلك الشّيء لئلا يفوت شيء من المصالح الّتي لا تعلموها . شرح النّووي على مسلم : ٤٥/١٣ .

(٢) بخ بخ : بخ بفتح الموحّدة وسكون المعجمة ، وقد تنوّن مع التّثقيل والتّخفيف بالكسر والرّفع . ولو كررت : فالاختيار أن تنوّن الأولى وتسكّن الثّانية وقد يسكّنان جميعاً . ومعناها تفخيم الأمر والإعجاب به . فتح الباري : ٣٩٧/٥ . طبعة دار المعرفة . بتصرّف . و انظر : شرح النّووي على مسلم : ٨٥/٧-٨٦ . فيض القدير : ١٩٧/٣ . عون المعبود : ١٩٩/١ . تحفة الأحوذي : ٢٨/٧ .

(٣) قرنه : القَرَن بالتّحريك جعبة من جُلود تُشقّ ويُجعل فيها النّشّاب . فأخرَج تَمْراً من قَرَنه أي جعبته . ويُجْمَع على أقْرُن وأقْران كجَبَل وأجْبُل وأجبال . النّهاية في غريب الحديث: ٥٥/٤ .بتصرّف .

(٤) صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب الإمارة : (٣٣) . باب ثبوت الجنّة للشّهيد : (٤١) . برقم : (١٩٠١) . ١٥٠٩/٣-١٥١١ .

وقال ابن اسحاق (رحمه الله) :

" خرج رسول الله ﷺ (1) فحرّضهم وقال : " والّذي نفس محمّد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر ، إلاّ أدخله الله الجنّة " .
فقال عمير بن الحمام ، أخو بني سلمة ، وفي يده تمرات يأكلهنّ : بخ بخ ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنّة إلاّ أن يقتلني هؤلاء ، ثمّ قذف التّمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتّى قتل " (2) .

إنّ عميراً رضي الله عنه وقف موقفاً في الثّبات يعجز عنه صناديد الرّجال ، وشجعان الأبطال ، فما إن سمع بذكر الجنّة حتّى عجّل إليها غير هائب من الموت ، ولا خائف من القتل ، وما تساوي الحياة كلّها عنده مع جنّة عرضها السّماوات والأرض ؟ وهل يُقارن ظلٌّ فانٍ مع نعيم لا يزول ؟

فثبت رضي الله عنه لمّا علم أنّ الثّبات طريق إلى ذلك النّعيم ، وصبر لمّا علم أنّ الصّبر يوصل إلى الجزاء العظيم ، وقد طرق أذنه قوله ﷺ : " لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر ، إلاّ أدخله الله الجنّة " . فكان دافعاً له على الثّبات .

إنّ أكل تمرات تُحمل في الكفّ حياة طويلة ، لأنّها تحبس عن الجنّة ، إذن فليعجّل إليها ، وليقدّم نفسه ثمناً لها ، وليكن ذلك بالقتل ، فما أهونه ، وما أيسره

---

(1) أي من العريش : وهو بناء كالخيمة يستظلّ به .
انظر : القاموس المحيط : ص : ٧٧٠ . وقد صنع للنّبي ﷺ ليكون فيه أثناء معركة بدر . انظر : السّيرة النّبويّة لابن هشام : ٢/٤١٢ .

(2) المرجع السّابق : ٢/٤١٧ .
وقد ذكر ابن الأثير (رحمه الله) أنّه قاتل وهو يقول :

ركضـــاً إلى الله بغير زاد ******* إلاّالتّقى وعمَـل المعَــاد
والصّبْر في الله على الجهـاد ******* إنّ التّقَى من أعظم السّداد
وخيرُ ما قاد إلى الرّشـاد ******* وكـلّ حيّ فإلى نفــاد

ثمّ حمل ، فلم يزل يقاتل حتّى قتل ، قتله خالد بن الأعلم . أسد الغابة : ٣/٤١٤ .

حينئذ ، لأنّ السّلعة غالية ، فيهون كلّ شيء يدفع من أجلها ولو كان النّفس ، وذلــك لا يتأتّى إلاّ لمن له إيمان خالص ، ويقين صادق ، يحفّه الصّبر ، ويتوّجه الثّبــات ، وقد كان عمير ﷺ كذلك .

﴿المطلب الثّاني﴾

أنس بن النّضر رضي الله عنه

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : " غاب عمّي أنس بن النّضر عن قتال بدر ، فقال : يا رسول الله غبت عن أوّل قتال قاتلت المشركين لئن الله أشهدني قتال المشركين لَيَرَيَنَّ الله ما أصنع .[1]

فلمّا كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال : اللّهم إنّي أعتذر إليك ممّا صنع هؤلاء ، يعني أصحابه ، وأبرأ إليك ممّا صنع هؤلاء يعني المشركين .[2] ثمّ تقدّم فاستقبله سعد بن معاذ ، فقال : يا سعد بن معاذ ، الجنّة وربّ النّضر ، إنّي أجد ريحها من دون أحد [3] ، قال سعد : فما استطعت يا رسول الله ما صنع .

قال أنس : فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسّيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم ، ووجدناه قد قتل وقد مثّل به [4] المشركون ، فما عرفه أحد إلاّ أخته ببنانه .

---

(١) زاد مسلم في روايته : " وهاب أن يقول غيرها " . قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) : " أي خشي أن يلتزم شيئاً فيعجز عنه فأهم ، وعرف من السّياق أن مراده أنّه يبالغ في القتال وعدم الفرار " . فتح الباري : ١٠١/٦ . وانظر : المفهم : ٧٣٨/٣ . شرح النّووي على مسلم : ٤٨/١٣ .

(٢) أي اعتذر إليك من فرار المسلمين ، ومن فعل المشركين .انظر : فتح الباري : ١٠٢/٦ .

(٣) قال النّووي (رحمه الله) : " محمول على ظاهره وإنّ اللّه تعالى أوجده ريحها من موضع المعركة ، وقد ثبتت الأحاديث أنّ ريحها توجد من مسيرة خمسمائة عام " . شرح النّووي على مسلم : ٤٨/١٣ . وانظر : المفهم : ٧٣٩/٣ . فتح الباري : ١٠٢/٦ .

(٤) مثّل به : يقال : مُثّل بالقتيل : إذا جدع أنفه أو أذنه أو مذاكيره ، أو شيء من أجزائه . والاسم المُثْلَة . انظر : شرح النّووي على مسلم : ٢٥/١٦ . فتح الباري : ١٦٣/٣ . طبعة دار المعرفة . تحفة الأحوذي : ٨٢/٤ .

قال أنس : كنّا نرى – أو نظنّ – أنّ هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب:٢٣] (١) إلى آخر الآية .

لقد غاب أنس ﷺ عن واقعة بدر فحزّ في نفسه ألاّ يكون شهدها مع رسول الله ﷺ ، فعزم في نفسه أن شهد واقعة بعدها ليبلونّ فيها بلاء حسناً ، وليبالغنّ في القتال والثّبات حتّى يرى الله ذلك منه .

ولمّا جاءت أحد وفرّ المسلمون ثبت أنس ﷺ فلم يفر مع من فرّ ، بل نفّذ ما ألزم نفسه به ، واستنكر فرار المؤمنين ، وأقدم إلى القتال ثابت الجاش ، قوي العزيمة ، صابراً محتسباً ، يقوده إيمانه الصّادق ، ويدفعه يقينه (٢) . لم يصل الخوف إلى قلبه ، ولا الوجل إلى فؤاده .

واندفع يخوض تلك الأهوال غير آبه بجرح السّيوف ، وطعن الرّماح ، ورمي السّهام ، كيف وهو يشتمّ رائحة الجنّة ؟ ولذا لم يوقف إقدامه إلاّ القتل . وقد عجز غيره أن يصنع صنيعه ، ويثبت ثباته ، إنّه من الّذين عاهدوا الله فصدّقوا العهد ، ولم يغيّروا أو يبدّلوا حتّى لقوا الله وهم على ذلك .

---

(١) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الجهاد والسّير : (٥٦/٣٢) . باب قول اللّه تعالى : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأحزاب:٢٣]: (١٢) . برقم: (٢٨٠٥) . ص : ٥٩٢-٥٩٣ . و نحوه في: كتاب المغازي : (٦٤/٣٨) . باب غزوة أحد : (١٧) . برقم: (٤٠٤٨) . ص : ٨٤٧ .
صحيح مسلم: نحوه في: كتاب الإمارة : (٣٣) . باب ثبوت الجنّة للشّهيد : (٤١) . برقم: (١٩٠٣) . ١٥١٢/٣ .

(٢) قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) : " وفيه – أي الحديث – فضيلة ظاهرة لأنس بن النّضر وما كان عليه من صحّة الإيمان ، وكثرة التّوقي والتّورع ، وقوّة اليقين " فتح الباري : ١٠٣/٦ .

الباب الخامس

الثبات على المنهج الحق

وفيه فصول :

الفصل الأوّل

معاني المنهج في اللغة والشرع

الفصل الثّاني

سمات المنهج الحق

الفصل الثّالث

عوامل الثبات على المنهج الحق

الفصل الرّابع

نماذج للثبات على المنهج الحق

الفصل الأوّل

معاني المنهج في اللّغة والشّرع

وفيه مبحثان :

المبحث الأوّل

معاني المنهج في اللّغة

نَهج الطّريق نَهْجاً وأنهجه : أي سلكه وأبانه وأوضحه .[1]

واستنهج الطّريق : صار نهْجاً واضحاً .[2] فالنّهْجُ : هو الطّريق الواضح البيّن المستقيم كالمنهج والمنهاج ، والجمع نَهْجات ونُهُوج ونُهُج .[3]

قال الشّاعر[4] :

ولقد أضاء لك الطّريق ، وأنهجت ...... سبل المكارم والهُدَى تُعْدِي[5]

وطريق ناهجة : أي واضحة .[6]

ونَهَجَ الثّوبُ نَهْجاً : أخذ فيه البلى .

---

(١) انظر الصّحاح للجوهري : ٣٤٦/١ . مختار الصّحاح : ص: ٦٨١ . القاموس المحيط : ص : ٢٦٦ . لسان العرب : ٣٨٣/٢ . تاج العروس : ٥٠٤/٣ . معجم متن اللّغة : ٥٥٧/٥ .

(٢) انظر : تهذيب اللّغة : ٦٢/٦ . القاموس المحيط : ص : ٢٦٦ . لسان العرب : ٣٨٣/٢ . تاج العروس : ٥٠٥/٣. معجم متن اللّغة : ٥٥٧/٥ .

(٣) انظر : لسان العرب : ٣٨٣/٢ . تاج العروس : ٥٠٤/٣ . معجم متن اللّغة : ٥٥٧/٥ .

(٤) هو يزيد بن الخذّاق العبدي . انظر لسان العرب : ٣٨٣/٢ .

(٥) انظر الصّحاح للجوهري : ٣٤٦/١ . أساس البلاغة : ص : ٤٧٤ . لسان العرب : ٣٨٣/٢ . تاج العروس : ٥٠٤/٣ . وتعدي : أي تُعين وتقوّي : لسان العرب : ٣٨٣/٢ .

(٦) انظر : تاج العروس : ٥٠٥/٣ . معجم متن اللّغة : ٥٥٧/٥ . وانظر : لسان العرب : ٣٨٣/٢ .

وأنهجه : أخلقه .[1]

قال ابن الأعرابي[2] :

كالثّـوب أنهـج فيـه البلى .... أعيا على ذي الحيلة الصّانع[3]

ونفى صاحب اللّسان : أن يقال : نَهَج الثّوب بالفتح .[4]

ونَهِجَ الرّجلُ نَهَجاً ونَهيجاً : ربَا وانبهر نفسه : أي تتابع فهو ناهج ، وأنهج : مثلها [5] .

ويقال : أنهج الرّجلُ الدّابة : سار عليها حتّى انبهرت وأعيت [6] .

فالنّهَجُ والنّهيج والنّهْجَة : الرّبو الّذي يعلو الإنسان والدّابة ، وهو تواتر النّفس من شدّة الحركة .[7] .

ويقال : أنهج فلان : إذا بكى ، وقيل إذا انبسط .[8]

فالمنهج ورد في اللّغة بعدة معان وهي : الطّريق والمسلك ، والبلى ، والرّبو ، والبكاء ، والانبساط . والمراد هنا المعنى الأوّل ، وهو المتعلّق بالبحث .

---

(1) انظر : الصّحاح للجوهري : ١/٣٤٦ . تهذيب اللّغة : ٦/٦٢ أساس البلاغة : ص : ٤٧٤ . المفردات : ص: ٥٠٦ . القاموس المحيط : ص : ٢٦٦ . لسان العرب : ٢/٣٨٣ . تاج العروس : ٣/٥٠٥ . معجم متن اللّغة : ٥/٥٥٧ .

(2) واسمه محمّد بن زياد . وهو اللّغوي النّسّابة المعروف . وانظر : سير أعلام النّبلاء : ١٠/٦٨٧ . الأعلام : ٦/١٣١ .

(3) لسان العرب : ٢/٣٨٣ . تاج العروس : ٣/٥٠٥ .

(4) لسان العرب : ٢/٣٨٣ .

(5) انظر : الصّحاح للجوهري : ١/٣٤٦ . لسان العرب : ٢/٣٨٣ . تاج العروس : ٣/٥٠٤ . معجم متن اللّغة : ٥/٥٥٧ .

(6) انظر : الصّحاح للجوهري : ١/٣٤٦ . تهذيب اللّغة : ٦/٦٢ . القاموس المحيط : ص : ٢٦٦ . لسان العرب : ٢/٣٨٣ . تاج العروس : ٣/٥٠٤ . معجم متن اللّغة : ٥/٥٥٧ .

(7) انظر تهذيب اللّغة : ٦/٦٢ . لسان العرب : ٢/٣٨٣ . تاج العروس : ٣/٥٠٤ . وانظر : النّهاية في غريب الحديث : ٥/١٣٤ .

(8) انظر : لسان العرب : ٢/٣٨٣ . تاج العروس : ٣/٥٠٥ . معجم متن اللّغة : ٥/٥٥٧ .

﴿ المبحث الثّاني ﴾

معاني المنهج في الشّرع

لقد وضح لنا من معاني المنهج في اللّغة أنّه الطّريق المستقيم الواضح البيّن . ويمكن أن نستصحب هذا المعنى لبيان المراد بالمنهج في الشّرع .

فهو الطّريق الواضح المستقيم الّذي يسلكه المسلم في عقيدته وعبادته ومعاملته وأخلاقه ، وفي جميع شؤونه فيما يتعلّق بأمر الشّرع .

والمنهج الّذي يجب على المسلم أن يسير عليه هو ذاك المنهج الّذي سار عليه رسول الهدى ﷺ وصحابته الأفاضل من بعده ، والتّابعون لهم بإحسان ومن تبعهم من الأئمّة الّذي علا قدرهم ، وعظم شأنهم .

وهو المنهج القويم الّذي ارتضاه اللّه لهذه الأمّة لتسير عليه ، فقال سبحانه :
﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء:١١٥]

أي من يباين الرّسول ﷺ فيفارق طريقه ، وهو طريق الحقّ والصّراط المستقيم بعد ما وضح وبان له ، وهو طريق المؤمنين الصّادقين ، ومنهاجهم الواضح المبين الّذي يوصلهم إلى مرضاة ربّ العالمين نولّه ما تولاّه ، ونتركه إلى ما اختاره ، وهو الضّلال والخذلان الّذي ينال به العذاب العظيم ، والمآل الوخيم في يوم القيامة .(١)

وقد بيّن ذلك رسول اللّه ﷺ بقوله : " افترقت اليهود إلى إحدى وسبعين والنّصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة ، وسوف تفترق هذه الأمّة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلّها في النّار إلاّ واحدة " .

---

(١) وانظر : جامع البيان : ٢٧٧/٥ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٨٥/٥ . تفسير القرآن العظيم : ٨٤٢/١-٨٤٣ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١٦٥-١٦٦ .

فذكر في رواية أنّه : ما كان عليه هو وأصحابه ، وفي أخرى : أنّهم الجماعة .[1]

فأشار النّبي ﷺ لصحابته ﷺ لأنّهم هم الصّفوة المختارة من هذه الأمّة الّتي أثنى عليها اللّه في كتابه حيث قال تعالى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [التوبة:١٠٠].

ولأنّهم خير القرون وأفضل الأمّة بعد نبيّها كما قال ﷺ : " خير القرون القرن الّذي بعثت فيه ، ثمّ الّذين يلونهم ، ثمّ الّذين يلونهم " الحديث .[2]

وهم أعرف النّاس بدين اللّه ومراد اللّه ورسوله ﷺ ، وأكثر النّاس اقتداء بهديه وتمسّكاً بسنّته ، والتزاماً بأمره .

وهم أهل الفصاحة والبيان ، وأهل الفطرة والإيمان ، جاء القرآن بلسانهم ، وعاصروا نزوله على نبيّهم ، وصفت أذهانهم لفهمه ، والرّسول ﷺ بينهم يبيّن لهم

---

(١) سبق تخريجه انظر : ص : ٩٥ .

(٢) سبق تخريجه انظر : ص : ٢٤٠ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) : " ومن المعلوم بالضّرورة لمن تدبّر الكتاب والسّنّة ، وما اتّفق عليه أهل السّنّة والجماعة من جميع الطّوائف أنّ خير قرون هذه الأمّة في الأعمال والأقوال والاعتقاد ، وغيرها من كلّ فضيلة. أنّ خيرها القرن الأوّل ، ثمّ الّذين يلونهم ، ثمّ الّذين يلونهم . كما ثبت ذلك عن النّبي ﷺ من غير وجه . وأنّهم أفضل من الخلف في كلّ فضيلة ، من علم وعمل وإيمان وعقل ودين وبيان وعبادة ، وأنّهم أولى بالبيان لكلّ مشكل . هذا لا يدفعه إلاّ من كابر المعلوم بالضّرورة من دين الإسلام ، وأضله اللّه على علم ... وما أحسن ما قال الشّافعي (رحمه الله) في رسالته : " هم فوقنا في كلّ علم وعقل ودين وفضل ، وكلّ سبب ينال به علم ، أو يدرك به هدى ، ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا " . مجموع الفتاوى : ١٥٧/٤-١٥٨ . و لم أجد قول الشّافعي في الرّسالة .

ما أشكل عليهم ، ويوضّح لهم ما خفي عنهم ، ومات وهو راضٍ عنهم ، ولم تظهر فيهم البدع ولا الأهواء ولا المحدثات .

فمسلكهم هو المسلك السّليم ، ومنهجهم هو المنهج المستقيم ، وطريقهم هو الطّريق القويم ، وما دونه ضلال عظيم ، وانحراف وخيم .

قال حذيفة بن اليمان ﷺ :

" اتّقوا اللّه معشر القرّاء ، وخذوا طريق من كان قبلكم ، فواللّه لئن استقمتم لقد سبقتم سبقا بعيداً ، ولئن تركتموه شمالاً ويميناً ضللتم ضلالاً بعيداً . أو قال مبيناً " [1] .

وحذيفة ﷺ خاطب بهذه المقولة العلماء بالقرآن والسّنّة ، والعبّاد ممّن أدركهم مبيّناً لهم أن من تمسّك بالكتاب والسّنّة وسار على نهج الصّحابة الكرام سبق إلى كلّ خير وفضل كما سبق إليه الصّحابة ﷺ الّذين مضوا على الاستقامة ، أو ظلّوا على طريق النّبي ﷺ .[2]

وقال عبد اللّه بن مسعود ﷺ :

" من كان منكم مستناً فليستن بمن قَدْ مَاتَ ، فإنّ الحيَّ لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب رسول اللّه ﷺ أبرّ هذه الأمّة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلّها تكلّفاً ،

---

(١) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة : (٧١/٩٦) . باب الاقتداء بسنن رسول اللّه ﷺ : (٣/٢) . برقم: (٧٢٨٢) . ص : ١٥٣١ .

وبهذا اللّفظ أورده أبو عبد اللّه محمّد بن نصر المروزي في كتابه السّنّة . تحقيق : سالم أحمد السّلفي . طبعة مؤسّسة الكتب الثّقافيّة . بيروت . الطّبعة الأولى : ١٤٠٨هـ : ص : ٣٠ .

و انظر : مصنف ابن أبي شيبة : ١٣٩/٧ . مسند البزار : ٣٥٨/٧ .الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية : ٣٣٦/١ . شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة والجماعة من الكتاب والسّنّة وإجماع الصّحابة . لأبي القاسم هبة اللّه بن الحسن بن منصور اللاّلكائي . تحقيق : د . أحمد سعد حمدان . طبعة دار طيبة . الرّياض . ١٤٠٢هـ : ٩٠/١ . حلية الأولياء : ٢١٨/٩ . الاعتصام : ٣٣٧/٢ . مجموع الفتاوى ١٢٧/٣ .

(٢) انظر : فتح الباري : ١٨٤/١٥ .

قوم اختارهم اللّه لصحبة نبيّه ﷺ ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم حقّهم ، وتمسّكوا بهديهم ، فإنّهم كانوا على الهدى المستقيم " [١] .

فالطّرق مغلقة إلاّ طريقاً ساروا عليه ، والمناهج منحرفة إلاّ منهجاً التزموه ، والمسالك وعرة إلاّ مسلكاً سلكوه ، والأبواب مؤصدة إلاّ باباً فتحوه ، فالهدي هديهم ، والحقّ معهم ، والضّلال في منأ عنهم .

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" ولمّا كان التّلقي عنه ﷺ على نوعين : نوع بواسطة ، ونوع بغير واسطة . وكان التّلقي بلا واسطة حظّ أصحابه الّذين حاذوا قصب السّباق ، واستولوا على الأمد ، فلا طمع لأحد من الأمّة بعدهم في اللّحاق ، ولكن المبرّز من اتّبع صراطهم المستقيم ، واقتفى منهاجهم القويم ، والمتخلّف من عدل عن طريقهم ذات اليمين وذات الشّمال ، فذلك المنقطع التّائه في بيداء المهالك والضّلال . فأيّ خصلة خير لم يسبقوا إليها ؟ وأيّ خطّة رشد لم يستولوا عليها ؟ تاللّه لقد وردوا رأس الماء من عين الحياة عذباً صافياً زلالاً ، وأيّدوا قواعد الإسلام فلم يدعوا لأحد بعدهم مقالاً ، فتحوا القلوب بعدلهم بالقرآن والإيمان ، والقرى بالجهاد بالسّيف والسّنان ، وألقوا إلى التّابعين ما تلقوه من مشكاة النّبوّة خالصاً صافياً ، وكان سندهم فيه عن نبيّهم ﷺ عن جبريل عن ربّ العالمين سنداً صحيحاً عالياً ، وقالوا : هذا عهد نبيّنا إلينا وقد عهدنا إليكم ، وهذه وصيّة ربّنا وفرضه علينا وهي وصيّته وفرضه عليكم ، فجرى التّابعون لهم بإحسان على منهاجهم القويم ، واقتفوا على آثارهم صراطهم المستقيم ، ثمّ سلك تابعوا التّابعين هذا المسلك الرّشيد ، وهدوا إلى الطّيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد " .[٢]

---

(١) سبق تخريجه انظر : ص : ٢٤٠ .

(٢) أعلام الموقّعين : ١/ ٥-٦ . وانظر : كتاب الفوائد له ص : ١٠٨-١٠٩ . ففيه كلام قيّم عن منهج الصّحابة ﷺ ، وسلوكهم السّبيل المستقيم .

وهو منهج الطّائفة النّاجية المنصورة الّتي مدحها رسول اللّه ﷺ بقوله: " لا يزال طائفة من أمّتي ظاهرين حتّى يأتيهم أمر اللّه[1] وهم ظاهرون " [2] .

قال علي بن المديني (رحمه الله) :

" هم أصحاب الحديث " .[3]

---

(١) أمر اللّه : هو الرّيح الّتي ورد ذكرها في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : " إنّ اللّه يبعث ريحاً من اليمن ، ألين من الحرير ، فلا تدع أحداً في قلبه مثقال حبّة . أو قال: مثقال ذرّة من إيمان إلاّ قبضته " . صحيح مسلم: كتاب الإيمان : (١) . باب في الرّيح الّتي تكون قرب القيامة : (٥٠) . برقم: (١١٧) .١/١٠٩ . و انظر : شرح النّووي على مسلم : ٢/١٣٢ . ١٣/٦٦ . فتح الباري : ١٣/٨٥ . طبعة دار المعرفة .

(٢)صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة : (٩٦/٧١) . باب قول النّبي ﷺ : " لا تزال طائفة ... " : (١٠/١١) . برقم: (٧٣١١) . ص: ١٥٣٧ . و بلفظ مقارب في: كتاب المناقب : (٦١/٣٧) . باب : (٢٨) . برقم: (٣٦٤٠) . ص : ٧٦٥ . وفي كتاب التّوحيد : (٩٧/٧٢) . باب قول اللّه تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ ﴾ [النّحل:٤٠] : (٢٩) . برقم: (٧٤٥٩) . ص : ١٥٦٧ . عن المغيرة رضي الله عنه . و نحوه في: كتاب العلم : (٣) . باب من يرد اللّه به خيراً يفقّهه في الدّين : (١٣) . برقم: (٧١) . ص : ٣٢ . وفي كتاب فرض الخمس : (٥٧/٣٣) . باب قول اللّه تعالى : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ ﴾ [الأنفال:٤١] : (٧) . برقم: (٣١١٦) . ص : ٦٥٧ . وفي كتاب المناقب : (٦١/٣٧) . باب : (٢٨) . برقم: (٣٦٤١) . ص : ٧٦٥-٧٦٦ . وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة : (٩٦/٧١) . باب قول النّبي ﷺ : " لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين .. " : (١٠/١١) . برقم: (٧٣١٢) . ص : ١٥٣٧ . وفي كتاب التّوحيد : (٩٧/٧٢) . باب قول اللّه تعالى : : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ ﴾ [النّحل:٤٠]: (٢٩) . برقم: (٧٤٦٠) . عن معاوية رضي الله عنه .

صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب الإمارة : (٣٣) . باب قول النّبي ﷺ : " لا تزال طائفة من أمّتي ... " : (٥٣) . برقم: (١٩٢٠) . عن ثوبان رضي الله عنه . و برقم: (١٩٢١) . عن المغيرة رضي الله عنه . و نحوه برقم: (١٠٣٧) . عن معاوية رضي الله عنه . و برقم: (١٩٢٣) . عن جابر رضي الله عنه . و برقم: (١٩٢٥) . عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. ٣/١٥٢٣-١٥٢٥ . و نحوه في: كتاب الإيمان : (١) . باب نزول عيسى بن مريم : (٧١) . برقم: (١٥٦) عن جابر رضي الله عنه . ١/١٣٧ .

(٣) سنن التّرمذي: كتاب الفتن : (٣٠) . باب ما جاء في الشّام : (٢٧) . برقم: (٢١٩٢) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٣٦٤ . و انظر : فتح الباري : ١٥/٢٢٧ .

وقال الإمام أحمد (رحمه الله) :

" إن لم تكن هذه الطّائفة المنصورة أصحاب الحديث فلا أدري من هم " [١]

لأنّ أصحاب الحديث نقلة الشّريعة وحفّاظ السّنّة ، وحملة العلم النّبوي ومبلّغو الوحي إلى الأمّة ، وهم المنتسبون إلى الرّسول ﷺ لا إلى غيره ، وهم أعلم النّاس برسول اللّه ﷺ وأخصّهم به ، وأعرفهم بهديه ، وأخبرهم بأقواله وأعماله ، واتبعهم لنهجه ، وأعظمهم اقتداء به ، وتمسّكاً بشرعه .

أخذوا الإسلام صافياً محضاً بعيداً عن كلّ شوب وغبش ، واجتمعوا على الأخذ به دون أهل الفرقة والهوى والزّيغ .

قال الإمام اللاّلكائي (رحمه الله) تحت عنوان : فضل أصحاب الحديث على الأمّة :

" فهؤلاء الّذين تمهّدت بنقلهم الشّريعة ، وانحفظت بهم أصول السّنّة ، فوجبت لهم بذلك المنّة على جميع الأمّة ، والدّعوة لهم من اللّه بالمغفرة ، فهم حملة علمه ، ونقلة دينه ، وسفرته بينه وبين أمّته ، وأمناؤه في تبليغ الوحي عنه ، فحري أن يكونوا أولى النّاس به في حياته ووفاته ... ثمّ كلّ من اعتقد مذهباً فإلى صاحب مقالته الّتي أحدثها ينتسب ، وإلى رأيه يستند ، إلاّ أصحاب الحديث ، فإنّ صاحب مقالتهم رسول اللّه ﷺ فهم إليه ينتسبون ، وإلى علمه يستندون ، وبه

---

(١) كتاب معرفة علوم الحديث . للإمام الحاكم أبي عبد اللّه النّيسابوري . طبعة . دائرة المعارف بحيدر آباد ، نشر المكتبة العلميّة بالمدينة ص:٢ . قال الإمام الحاكم (رحمه الله) بعد نقله لقول الإمام أحمد (رحمه الله) السّابق :

" فلقد أحسن أحمد بن حنبل في تفسير هذا الخبر : أنّ الطّائفة المنصورة الّتي يرفع الخذلان عنهم إلى قيام السّاعة هم أصحاب الحديث ، ومن أحقّ بهذا التّأويل من قوم سلكوا محجّة الصّالحين ، واتّبعوا آثار السّلف من الماضين ، ودمغوا أهل البدع والمخالفين بسنن رسول اللّه صلى اللّه عليه وعلى آله أجمعين ، من قوم آثروا قطع المفاوز والقفار على التّنعّم في الدّمن — الآثار — والأوطار — الحاجات — ، وتنعّموا بالبؤس في الأسفار مع مساكنة العلم والأخبار ، وقنعوا عند جمع الأحاديث والآثار بوجود الكسر والأطمار — الأثواب البالية — ، قد رفضوا الإلحاد الّذي تتوق إليه النّفوس الشّهوانيّة وتوابع ذلك من البدع والأهواء والمقاييس والآراء والزّيغ ، جعلوا المساجد بيوتهم ، وأساطينها — سواريها — تكاهم ، وبواريها — حصرها — فرشهم " .

المرجع السّابق :ص:٢-٣ .

يستدلّون ، وإليه يفزعون ، وبرأيه يقتدون ، وبذلك يفتخرون ، وعلى أعداء سنّته بقربهم منه يصولون ، فمن يوازيهم في شرف الذّكر ؟ ويباهيهم في ساحة الفخر ، وعلو الاسم إلى أن يقول :

والحمد لله الّذي كمّل لهذه الطّائفة سهام الإسلام ، وشرّفهم بجوامع هذه الأقسام ، وميّزهم من جميع الأنام ، حيث أعزّهم اللّه بدينه ، ورفعهم بكتابه، وأعلى ذكرهم بسنّته ، وهداهم إلى طريقته وطريقة رسوله . فهي الطّائفة المنصورة ، والفرقة النّاجية ، والعصبة الهادية ، والجماعة العادلة المتمسّكة بالسّنّة ، الّتي لا تريد برسول اللّه ﷺ بديلاً ولا عن قوله تبديلاً ، ولا عن سنّته تحويلاً ، ولا يثنيهم عنها تقلّب الأعصار والزّمان ، ولا يلويهم عن سَمْتها[1] تغيّر الحَدَثان[2] ، ولا يصرفهم عن سمتها ابتداع من كاد للإسلام ليصدّ عن سبيل اللّه ويبغيها عوجاً " [3] .

فهم الدّاعون من ضلّ إلى الهدى ، الصّابرون على الأذى ، المحيون بكتاب اللّه الموتى ، المبصّرون بنور اللّه أهل العمى ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ، وكم من ضال تائه قد هدوه ، فما أحسن أثرهم على النّاس ، وأقبح أثر النّاس عليهم ، ينفون عن كتاب اللّه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .[4]

---

(١)السَّمْت : حُسْنُ النَّحْو في مَذْهَب الدّين ، والفعلُ سَمَتَ يَسْمُتُ سَمْتاً . وإنّه لَحَسَنُ السَّمْت : أي حَسَنُ القَصْدِ والمَذْهَب في دينه ودنياه . والسَّمْتُ : اتّباعُ الحَقّ والهَدْي وحُسْنُ الجوارِ وقِلّةُ الأذيّةِ . والسَّمْتُ : الطّريقُ . يقال : الزمْ هذا السَّمْتَ . يعني الزم هذا الطّريق . وهو المراد هنا . لسان العرب : ٤٦/٢ . بتصرّف . و انظر : مختار الصّحاح : ص: ٣١٢. القاموس المحيط : ص : ١٩٧ .

(٢) يقال : حَدَثانُ الدّهر وحَوادثُه : نُوَبُه، وما يَحْدُث منه . واحدُها حادثٌ ؛ وكذلك أَحْداثُه، واحِدُها حَدَثٌ. لسان العرب : ١٣٢/٢ . و انظر : مختار الصّحاح : ص : ١٢٥ . القاموس المحيط : ص : ٢١٤ .

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة والجماعة : ٢٤/١-٢٦ .

(٤) الرّد على الزّنادقة والجهميّة . للإمام أحمد بن حنبل . تحقيق : محمّد حسن راشد . طبعة : المطبعة السّلفيّة . القاهرة . ١٣٩٣هـ : ص : ٦ . بتصرّف .

فأصحاب الحديث وإن تعدّدت ألقابهم الشّرعيّة المميّزة لهم لنفي الفرق والأهواء عنهم كالجماعة ، وجماعة المسلمين ، والفرقة النّاجية ، والطّائفة المنصورة ، والسّلف ، وأهل الحديث ، وأهل الأثر ، وأهل السّنّة والجماعة [1] فهم الّذين حملوا المنهج الحقّ عبر تاريخ الأمّة الإسلاميّة ، وهم الّذين ينسب إليهم عند تعدّد المناهج لأنّهم أهل الحقّ الصّريح ، ودونهم لا يخلو من بدعة وضلال .

ولذا قال ابن حزم (رحمه الله) :

" وأهل السّنّة الّذين نذكرهم أهل الحقّ ، ومن عداهم فأهل البدعة ، فإنّهم الصّحابة ﷺ ، وكلّ من سلك نهجهم من خيار التّابعين رحمة اللّه عليهم ، ثمّ أصحاب الحديث ومن اتّبعهم من الفقهاء جيلاً فجيلاً إلى يومنا هذا ، ومن اقتدى بهم من العوام في شرق الأرض وغربها رحمة اللّه عليهم " [2]

ولمّا نهج أصحاب الحديث وأهل السّنّة منهج رسول اللّه ﷺ وصحابته من بعده ، وتمسّكوا به ، وناصروه وأبرزوه ، وردّوا عنه زيغ الزّائغين ، وبدع المبتدعين ، وضلال المضلّين ، وحفظوه من أن تشوبه شائبة ، أو تكدّر صفوه كدرة ، ودعوا النّاس إليه ، وألّفوا الكتب في الدّفاع عنه ، والذّود عن حماه ، نسب ذلك المنهج إليهم ، وصار يعرف بهم ، ويذكر بذكرهم .

---

(١) انظر : حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلاميّة . لبكر بن عبد اللّه أبي زيد . طبعة : دار ابن الجوزي . المملكة العربية السّعوديّة . الطّبعة الثّانية : ١٤١٠هـ : ص : ٤٠-٤٢ .

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنّحل : ١١٣/٢ . وانظر في فضل أصحاب الحديث ، واستقامة منهجهم ، وسلامة طريقهم ، وأنّهم أهل الصّراط السّوي ، والحقّ الجلي :

شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة والجماعة : ٢٠/١-٢٧ . الاعتصام : ٢٥١/٢-٢٥٢ . شرح النّووي على مسلم : ٦٧/١٣ . مجموع الفتاوى : ١٥٧/٣-١٥٩ ، ٣٤٥-٣٤٧ . ١٠/٤-١١ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٤٩ ، ٨٥ ، ٩١ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣ . شرح العقيدة الطّحاويّة : ص : ٦٨ . طبعة المكتب الإسلامي . أهل السّنّة والجماعة معالم الانطلاقة الكبرى . جمع وإعداد محمّد عبد الهادي المصري . طبعة : دار طيبة . الرّياض : ص : ٤٥ ، ٧٥ . دراسات في الأهواء والفرق والبدع وموقف السّلف منها لناصر بن عبد الكريم العقل . دار إشبيليا للنّشر . الطّبعة الأولى : ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م . ص: ٨٩ ، ١٤٣ .

قال الإمام أحمد (رحمه الله) :

" هذا مذهب أهل العلم وأصحاب الأثر ، وأهل السّنّة المتمسّكين بعروتها ، المعروفين بها ، المقتدى بهم فيها ، من لدن أصحاب النّبي ﷺ إلى يومنا هذا ، وأدركت عليها من علماء الحجاز والشّام وغيرهم عليها ، فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب أو طعن فيها ، أو عاب قائلها فهو مخالف مبتدع ، وخارج عن الجماعة ، زائل عن منهج السّنّة وسبيل الحقّ " [1] .

وقال الإمام السّفاريني (رحمه الله) :

" المراد بمذهب السّلف ما كان عليه الصّحابة الكرام رضوان اللّه عليهم ، وأعيان التّابعين لهم بإحسان ، وأتباعهم ، وأئمّة الدّين ممّن شهد له بالإمامة ، وعرف عظم شأنه في الدّين ، وتلقّى النّاس كلامهم خلفاً عن سلف ، دون من رمى ببدعة ، أو شهر بلقب غير مرضي ، مثل الخوارج ، والرّوافض ، والقدريّة ، والمرجئة ، والجبريّة ، والجهميّة ، والمعتزلة ، والكراميّة[2] ، ونحو هؤلاء ".[3]

---

(١) السّنّة ضمن مجموعة مع كتاب الرّدّ على الجهميّة : ص : ٣٣-٣٤ . شرح قصيدة ابن القيّم : ١/٩٦-٩٧ .

(٢) الكَرَّاميّة : هم أتباع محمّد بن كرَّام السّجستاني المبتدع . من مثبتة صفات اللّه تعالى ، ولكنّهم ينتهون بها إلى التّجسيم والتّشبيه . ويزعمون أنّ الإيمان نطق اللّسان بالتّوحيد مجرّد عن القلب وعمل الجوارح . والكفر عندهم الجحود والإنكار لله باللّسان . والمنافقون على عهد النّبي ﷺ مؤمنون على الحقيقة . كما يذهبون إلى أنّ العقل يحسّن ويقبّح قبل الشّرع ، وأنّ معرفة اللّه تجب بالعقل . وأنّ الإمامة تثبت بالإجماع دون النّصّ والتّعيين . وهم طوائف عدّة . ولهم مقالات متعدّدة ، وآراء متباينة .

وانظر : مقالات الإسلاميين : ص : ١٤١ . الفرق بين الفرق : ص : ٢٠٢ فما بعدها . الملل والنّحل : ١/١٠٨-١١٣ . اعتقادات فرق المسلمين والمشركين : ص : ٦٧ . سير أعلام النّبلاء : ١١/٥٢٣-٥٢٤ .

(٣) لوامع الأنوار : ١/٢٠ . وانظر : الشّريعة لأبي بكر محمّد بن الحسين الآجرّي . تحقيق : محمّد حامد الفقي . مطبعة السّنّة المحمّديّة . الطّبعة الأولى : ١٣٦٩هـ — ١٩٥٠م : ص : ٧١-٧٢ . مجموع الفتاوى : ٤/١٥١-١٥٢ . وسطية أهل السّنّة بين الفرق . د. محمّد باكريم محمّد عبد اللّه . طبعة : دار الرّاية . الرّياض . الطّبعة الأولى : ١٤١٥هـ — ١٩٩٤م : ص : ١٠٨ . أهل السّنّة والجماعة معالم الانطلاقة الكبرى : ص : ٥٢ .

فهذا هو المنهج الحقّ ، الّذي يجب على المسلم أن يسير عليه ، والمسلك القويم الّذي يجب عليه أن ينتسب إليه ، والصّراط المستقيم الّذي يلزمه أن يثبت عليه ، لأنّ النّجاة تكمن في التّمسّك به ، والسّعادة نائلة إن شاء اللّه من تشبّث به وعضّ عليه بنواجذه .

الفصل الثّاني

سمات المنهج الحقّ

إنّ منهج أهل السّنّة والجماعة وهو المنهج الحقّ يتّسم بسمات تميّزه عن غيره من المناهج ، وتفرده عنها ، وتبرزه دونها ، وهي كثيرة يصعب حصرها ولكن من أهمها :

١- إنّ مصدر تلقّيه كتاب اللّه وسنّة رسوله ﷺ ، لأنّهما المصدران اللّذان تَرَكنا عليهما رسولُ اللّه ﷺ وذلك في قوله : " إنّي قد تركتُ فيكم شيئين لن تضلّوا بعدهما : كتاب اللّه وسنّتي ، ولن يتفرقا حتّى يردا عليّ الحوض " (١)

وهما الوحيان اللّذان أمرنا اللّه بالتّمسّك بهما ، والسّير على هديهما ، واتّباع أمرهما ، واجتناب نهيهما ، فقال في شأن القرآن الكريم : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ ﴾ [الإسراء:٩].

وقال فيه : ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ﴾ [إبراهيم:١].

---

(١) موطّأ مالك : بلفظ مقارب ــ بلاغاً ــ في كتاب القدر : (٤٦) . باب النّهي عن القول بالقدر : (١) . برقم: (٣) . ٨٩٩/٢ . عن أبي هريرة رضي الله عنه . وصله ابن عبد البر في جامع بيان العلم : ٣٠/١ . طبعة دار العاصمة .
مستدرك الحاكم: بلفظه في : ١٧٢/١ . وهو حديث صحيح . انظر : سلسلة الأحاديث الصّحيحة : ٣٦١/٤ . الطّبعة الثّانية .مشكاة المصابيح : ٦٦/١ . برقم : (١٨٦) . صحيح الجامع : ٣٩/٣ . الطّبعة الثّانية .
وفي صحيح مسلم: قال ﷺ : " تركت فيكم ما لن تضلّوا بعده إن اعتصمتم به : كتاب اللّه ، وأنتم تسألون عنّي فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنّك قد بلّغت وأدّيت ونصحت" . كتاب الحجّ : (١٥) . باب حجّة النّبي ﷺ : (١٩) . برقم : (١٢١٨) . ٨٩٠/٢ .

وقال في السّنّة : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝ ﴾ [الحشر:٧] .

وقال عنها : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝ ﴾ [النساء:٦٥].

فالقرآن والسّنّة هما الأصل الّذي يجب أن يحاكم المنهج إليه ، فلا يعتمد منه في شيء إلاّ ما دلاّ عليه ، ولا يؤخذ منه إلاّ ما أيّداه ، بل يسلّم قياده إليهما. فلا يعارض حكمهما بتأويلات العقول ، وترّهات الأهواء ، واستبداد الآراء ، ولا تضرب أدلّتهما بعضها ببعض ، بل يردّ المتشابه منها إلى المحكم[١] ، والمجمل[٢] إلى المبيّن[٣] ، ويعتمد في ذلك على تفسير الصّحابة وفهمهم للنّصوص .

ولا يفرّق بين ما ثبت عن رسول اللّه ﷺ من قول أو فعل أو تقرير ، فيؤخذ ما كان متواتراً[٤] ويردّ ما كان

---

(١)يأتي بيان المراد بالمتشابه والمحكم .

(٢) المجمل في اللّغة : المبهم ، من أجمل الأمر إذا أبهم . وقيل هو: المجموع ، من أجمل الحساب إذا جمع وجعل جملة واحدة . وقيل هو : المتحصّل ، من أجمل الشّيء إذا حصّله .

وفي الاصطلاح : هو مادلّ دلالة لا يتعيّن المراد بها إلاّ بمعيّن . سواء كان عدم التّعيّن بوضع اللّغة ، أو بعرف الشّرع ، أو بالاستعمال . إرشاد الفحول : ص : ٢٨٣ .

وقال ابن قدامة (رحمه الله) : " المجمل هو : ما لايفهم منه عند الإطلاق معنى . وقيل : ما احتمل أمرين لا مزيّة لأحدهما على الآخر " . روضة النّاظر : ١٨٠ . و انظر : المستصفى : ١٨٧/١ . المحصول : ٢٣١/٣ . الإحكام للآمدي : ١٣/٣ .

(٣) المبيّن في اللّغة : المظهر من بان إذا ظهر . انظر : إرشاد الفحول : ص : ٢٨٣ .

وفي الاصطلاح : هو اللّفظ الّذي يتعيّن معناه بحيث لا يحتمل غيره . المستصفى : ١٨٧/١ . و انظر : المحصول : ٢٢٥/٣-٢٢٩ . روضة النّاظر : ١٨٤ . إرشاد الفحول : ص : ٢٨٤ .

(٤)الحديث المتواتر في اللّغة هو : المتتابع ، من تواتر المطر : إذا تتابع . وفي الاصطلاح هو : الخبر الّذي رواه عدد كثير تحيل العادة تواطؤهم على الكذب ، عن مثلهم إلى منتهاه ، وأن يكون مستند خبرهم الحسّ ، وإفادة العلم لسامعه . انظر : نزهة النّظر شرح نخبة الفكر . لابن حجر العسقلاني . تعليق وشرح : صلاح محمّد محمّد عويضة

أحاداً[1] ، بل يؤخذ الجميع مأخذ التّسليم والافتقار مع التعظيم والإجلال ، من غير معارضة لذلك بقول كائن مَنْ كان ، مع مجافاة التّهاون أو الرّدّ بما يوافق الهوى ويلائم القصد .

ولا تنصب مقالة تمتّ إلى المنهج مالم تكن ثابتة بالدّليل الشّرعي ، إذ التّعبير بالألفاظ الشّرعيّة هو سبيل الحقّ ، مع تجنّب المراء والخصومات والجدال إلاّ بالّتي هي أحسن ، ومباينة البدع ومحدثات الأمور ، لقوله ﷺ : " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ " [2] .

قال شارح الطّحاوية (رحمه الله) :

" فعلى العبد أن يجعل ما بعث اللّه به رسله وأنزل به كتبه هو الحقّ الّذي يجب اتّباعه ، فيصدّق بأنّه حقّ وصدق ، وماسواه من كلام سائر النّاس يعرضه عليه ، فإن وافقه فهو حقّ ، وإن خالفه فهو باطل ، وإن لم يعلم هل خالفه أو وافقه يكون ذلك الكلام مجملاً لا يعرف مراد صاحبه ، أو قد عرف مراده لكن لم يعرف هل جاء الرّسول بتصديقه أو بتكذيبه ، فإنّه يمسك عنه ولا يتكلّم إلاّ بعلم ، والعلم ما قام عليه الدّليل ، والنّافع منه ما جاء به الرّسول . وقد يكون علم من

طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت . : ص : ٢٤-٢٥ . وانظر : تيسير مصطلح الحديث . للدّكتور محمود الطّحّان . طبعة : مكتبة المعارف . الرّياض .الطّبعة الثّامنة : ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م : ص : ١٩-٢٠ . علوم الحديث ومصطلحه عرض ودراسة . للدّكتور صبحي الصّالح . طبعة دار العلم للملايين . بيروت . الطّبعة الخامس عشرة . ١٩٨٤م . ص : ١٤٦ . و انظر : كتاب الكفاية في علم الرّواية . لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي . مراجعة : عبد الحليم محمّد عبد الحليم . عبد الرّحمن حسن محمود . طبعة : دار التّراث العربي . نشر : دار الكتب الحديثة . القاهرة . مكتبة المثنّى . بغداد . الطّبعة الثّانية : ص : ٥٠ .

(١) حديث الآحاد في اللّغة هو : ما يرويه شخص واحد . وفي الاصطلاح : ما لم يجمع شروط المتواتر . انظر : نزهة النّظر شرح نخبة الفكر : ص : ٣٢ . تيسير مصطلح الحديث : ص : ٢٢ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه ـ إلا إنه قال : " ما ليس فيه " ـ في : كتاب الصّلح : (٥٣/٢٩) . باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصّلح مردود : (٥) . برقم: (٢٦٩٧) . ص : ٥٦٣ . عن عائشة (رضي الله عنها) . صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الأقضية : (٣٠) . باب نقض الأحكام الباطلة ، وردّ محدثات الأمور : (٨) . برقم: (١٧١٨) . وبلفظ : " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ " . ٣/١٣٤٣-١٣٤٤ .

غير الرّسول ، لكن في الأمور الدّنيويّة ، مثل الطّبّ والحساب والفلاحة ، وأمّا الأمور الإلهيّة والمعارف الدّينيّة فهذه العلم فيها ما أخذ عن الرّسول لا غير ".(١)

٢- إنّ طريق هذا المنهج طريق واحد لا يتعدّد ، ومستقيم ليس بمعوج ولا منحرف ، وهو الّذي بعث اللّه به رسوله وأنزل به كتابه ، وأمر الخلق كلّهم بالسّير فيه . قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٥٣].

عن عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه قال : " خطّ لنا رسول اللّه ﷺ يوماً خطّاً ، ثمّ قال : " هذا سبيل اللّه " ، ثمّ خطّ خطوطاً عن يمينه وعن شماله ، ثمّ قال : " هذه سبل ، على كلّ سبيل منها شيطان يدعو إليه " . ثمّ تلا : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام:١٥٣] .(٢)

---

(١) شرح العقيدة الطّحاوية : ص : ٢١٨-٢١٩ . طبعة المكتب الإسلامي .
ولمزيد بيان عن مصدر تلقّي منهج أهل السّنّة والجماعة من الكتاب والسّنّة انظر الآتي :
شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة والجماعة : ١/٧-٨ . وانظر : ص: ١٠، ١٧-١٨ ، ٧٤ . من مقدّمة المحقّق .
الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية : ١/١١-١٢ . من مقدّمة المحقّق . مجموع الفتاوى : ٣/١٥٧، ٣٤٦-٣٤٧ .
دراسات في الأهواء والفرق والبدع : ص : ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٩٥ . أهل السّنّة والجماعة معالم الانطلاقة الكبرى :ص ٦٥، ٦٩ .
(٢) سنن ابن ماجه: نحوه في: المقدّمة . باب اتّباع سنّة رسول اللّه ﷺ : (١) . برقم: (١١) . عن جابر رضي الله عنه .قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص: ١٩ .
سنن الدّارمي: بلفظه في : باب في كراهية أخذ الرّأي . ١/٧٨ .
مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ١/ ٤٣٥ ، ٤٦٥ . و نحوه في: ٣/٣٩٧ . عن جابر رضي الله عنه . قال أحمد شاكر (رحمه الله): " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٦/٨٩-٩٠ ، ١٩٩ .برقم: (٤١٤٢ ، ٤٤٣٧) .

وفي رواية : إنّ ابن مسعود ﷺ سئل عن الصّراط المستقيم فقال : " تركنا محمّد ﷺ في أدناه ، وطرفه في الجنّة ، وعن يمينه جواد[1] ، وعن يساره جواد، وثمّ رجال يدعون من مرّ بهم ، فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النّار ، ومن أخذ على الصّراط انتهى به إلى الجنّة ، ثمّ قرأ ابن مسعود : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا... ﴾ [الأنعام:١٥٣]الآية [2]

قال ابن جرير (رحمه الله) :

" ﴿ مُسْتَقِيمًا ﴾ يعني : قويماً لا اعوجاج به عن الحقّ .

﴿ فَاتَّبِعُوهُ ﴾ يقول : فاعملوا به ، واجعلوه لأنفسكم منهاجاً تسلكونه ،

﴿ فَاتَّبِعُوه وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ يقول : ولا تسلكوا طريقاً سواه ، ولا تركبوا منهجاً غيره " [3] .

وقال القرطبي (رحمه الله) :

" ﴿ مُسْتَقِيمًا ﴾ نصب على الحال ، ومعناه مستوياً قويماً لا اعوجاج فيه .

فأمر باتّباع طريقه الّذي طرقه على لسان نبيّه محمّد ﷺ وشرعه ، ونهايته الجنّة ، وتشعّبت منه طرق فمن سلك الجادّة نجا ، ومن خرج إلى تلك الطّرق أفضت به إلى النّار ... وهذه السّبل تعمّ اليهوديّة والنّصرانيّة والمجوسيّة وسائر

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: بلفظ مقارب في: ذكر ما يجب على المرء من ترك تتبّع السّبل دون لزوم الطّريق الّذي هو الصّراط لمستقيم . برقم: (٧) . قال شعيب الأرناؤوط : " إسناده حسن " . ١/١٨١ .

مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في: ٢/٢٦١ . وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " . وقال الذّهبي (رحمه الله): " صحيح " .

(١) الجَوادُّ : الطّرُق ، واحدها جادّة ، وهي سَواء الطّريق ووسَطه . وقيل هي الطّريق الأعظم الّتي تجمع الطّرُق ، ولا بُدّ من المرور عليها . النّهاية في غريب الحديث: ١/٢٤٥ .

(٢) جامع البيان : ٨/٨٨-٨٩ .

(٣) المرجع السّابق : ٨/٨٧-٨٨ .

أهل الملل ، وأهل البدع والضّلالات من أهل الأهواء والشّذوذ في الفروع ، وغير ذلك من أهل التّعمّق في الجدل والخوض في الكلام[1]. هذه كلّها عرضة للزلل ومظنّة لسوء المعتقد . قاله ابن عطيّة . قلت : وهو الصّحيح " [2] .

وقد وحدّ اللّه في الآية طريق الحقّ الموصل إلى المقصود لأنّ مردّه إلى اللّه الملك الحقّ الواحد ، وجمع السّبل المخالفة لأنّها كثيرة متشعّبة متعدّدة ، لا توصل إلى الغاية المقصودة لأنّها طرق الباطل وهي ظلمات . وهذا سرّ إفراد اللّه تعالى للنّور وجمعه للظّلمات في قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٧] [3] .

وقال تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [النّحل:٩] .

---

(١) الكلام : علم يبحث فيه عن ذات اللّه تعالى وصفاته ، وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد على قانون الإسلام . التّعريفات : ص : ٢٣٧ . التّوقيف على مهمّات التعاريف : ٦٠٧/٢ . وهو أمر محدث شاب به واضعوه صفاء المعتقد ، ووعّروا به الطّريق إلى معرفة الله تعالى ، ممّا أدّى بهم إلى الانحراف عن المنهج الحقّ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ١٣٧/٧-١٣٨ . وقول ابن عطية في المحرر الوجيز : ٤٠٠/٥ . مع اختلاف يسير . وانظر : تفسير القرآن العظيم : ٣٠٤/٢-٣٠٦ . زبدة التّفسير من فتح القدير . للدّكتور محمّد سليمان الأشقر . وفتح القدير للشّوكاني ، دار الفتح ودار النّفائس . عمّان . الطّبعة الخامسة : ١٤١٥هـ — ١٩٩٤م . ص:١٨٩ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٤٣ .

(٣) وانظر : طريق الهجرتين : ص : ١٧٧ —١٧٨ . بدائع الفوائد : ١٢٧/١. تفسير القرآن العظيم : ٣٠٦/٢ .

أي على اللّه أن يبيّن لعباده طريق الحقّ القاصد المستقيم الموصل إلى اللّه تعالى ، والطّرق الجائرة أي الحائدة المائلة الزّائغة عن الحقّ الّتي لا توصل من سلكها إلى مرضاة اللّه تعالى لانحرافها وضلالها .[1]

قال ابن القيّم (رحمه الله) في بيان قوله تعالى : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ [الفاتحة:٦-٧] قال :

" فسؤال الهداية متضمّن لحصول كلّ خير ، والسّلامة من كلّ شرّ ... ولا تكون الطّريق صراطاً حتّى تتضمّن خمسة أمور : الاستقامة ، والإيصال إلى المقصود ، والقرب ، وسعته للمارّين عليه ، وتعيّنه طريقاً للمقصود ، ولا يخفى تضمّن الصّراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة .

فوصفه بالاستقامة يتضمّن قربه ، لأنّ الخطّ المستقيم هو أقرب خطّ فاصل بين نقطتين ، وكلّما تعوّج طال وبعد ، واستقامته تتضمّن إيصاله إلى المقصود ، ونصبه لجميع من يمرّ عليه يستلزم سعته ، وإضافته إلى المنعم عليهم ، ووصفه بمخالفة صراط أهل الغضب والضّلال يستلزم تَعَيُّنه طريقاً " [2] .

فهذا الصّراط هو الطّريق القويم الّذي كان عليه رسول اللّه ﷺ وصحابته الكرام الّذي من سلكه كان على المنهج الحقّ الّذي لا يعوج ولا ينحرف به ، ولا يتناقض عليه ، ولا يضطّرب لأنّه من عند اللّه ، ولذلك سلم من هفوات البشر وأخطائهم واختلافاتهم كما قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ۝٨٢ ﴾ [النساء:٨٢].

---

(١) انظر : جامع البيان : ١٤/٨٣-٨٤ . تفسير القرآن العظيم : ٢/٨٧٣ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٣٩٠ . حادي الأرواح :ص : ٥٢ .

(٢) مدارج السّالكين : ١/١٠-١١ . وانظر : بدائع الفوائد : ٢/٢٥١ فما بعدها . وقد أطال (رحمه الله) في بيان ذلك .

وهذا الّذي عصم الفرقة النّاجية من الاختلاف والتّناقض لأنّهم ينتسبون إلى منهج واحد ، ويردون مشرباً واحداً ويصدرون عنه ، ولذا وافق الخلف منهم السّلف . وهذا مغزى قوله ﷺ : " إلاّ واحدة " [1] .

فلمّا توحّد المنهج توحّد السّائرون عليه وانتظم أمرهم . ولا يعني هذا أنّهم لا يختلفون فيما بينهم ، بل قد يقع بينهم الخلاف ولكنّهم يضبطون ذلك بأدب الألفة والاحترام محافظة على أخوّة الإسلام ، وجماعة المسلمين ، وجمع الشّمل ونبذ الفرقة ، وهم منقادون في ذلك لأمر اللّه تعالى : ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [النّساء:٥٩][2] .

ولمّا تعدّدت المناهج الخاطئة تعدّدت الجماعات الّتي غصّت بهم ساحة الإسلام ، متنابذة فيما بينها متطاحنة ، اختطّت كلّ منها طريقاً لنفسها غير الطّريق الّذي اختطّته الأخرى ، وهذا نتيجة لمخالفة منهج الرّسول ﷺ . فمنهجه واحد لا يقبل التّعدّد قال عنه الخالق سبحانه : ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف:١٠٨] [3].

وهؤلاء وإن تدثّروا بثوب الإسلام ، ورفعوا شعارات تهتف باسمه إلاّ إنّهم لم يكونوا على الطّريق الحقّ ، ولا ينخدع بهم وبشعاراتهم إلاّ من جهل المنهج الحقّ ، وتنكّب الصّراط المستقيم .

---

(١) الحديث سبق ذكره . انظر : ص : ٩٥ . وانظر الاعتصام : ٢/٢٤٩ . الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية : ١/٣٨٦ .

(٢) وانظر : أهل السّنّة والجماعة معالم الانطلاقة الكبرى : ص : ٧٦ .

(٣) وانظر : منهج الأنبياء في الدّعوة إلى اللّه : ص : ٨ .حكم الانتماء : ص : ١٨١-١٨٢ .

قال حذيفة لابن مسعود (رضي الله عنهما) :

" فاعلم أنّ الضّلالة حق الضّلالة أن تعرف ما كنت تنكر ، و أن تنكر ما كنت تعرف ، وإياك والتّلوّن فإنّ دين اللّه واحد " (١) .

فهو منهج مستقل متفرّد متميّز ، لا يختلط بغيره من مناهج أهل الأرض ، ولا تمازجه معتقداتها ولا تصوّراتها ، ولا أنظمتها ولا أوضاعها ، ولا نظرياتها ، بل هو منهج رسول اللّه ﷺ فحسب ، ورسول اللّه ﷺ ليس في شيء من مناهج أنتجتها عقول البشر ، وصاغتها آراؤهم وأهواؤهم ، وقد قال اللّه له:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:١٥٩] (٢) .

٣- إنّه منهج كامل تام ، لا زيادة عليه ، ولا نقص يعتريه .

قال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣].

عن طارق بن شهاب ﷺ قال : قال رجل من اليهود لعمر : يا أمير المؤمنين لو أنّ علينا نزلت هذه الآية : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي

---

(١) سنن البيهقي: بلفظه في : باب ما جاء في الحلف بصفات اللّه . ٤٢/١٠ .
مسند ابن الجعد . لأبي الحسن علي بن الجعد الجوهري البغدادي . تحقيق : عامر أحمد حيدر . طبعة : مؤسّسة الرّسالة . بيروت . الطّبعة الأولى : ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م : بلفظه ـ إلاّ إنّه قال : " دين اللّه تعالى " ـ برقم: (٣٠٨٣) . ٤٥٢/١ .
مسند الحارث : بلفظ مقارب في: ٥٢٧/١ .
وأورد الطّبراني في الكبير جزءاً منه مرفوعاً إلى النّبي ﷺ من حديث عبد اللّه بن عمرو (رضي الله عنهما) . ولفظه : " اعمل بما تعرف ودع ما تنكر ، وإيّاك والتّلوّن في دين اللّه " . ١٩٦/٦ . و انظر : الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية : ١٩٠/١ .

(٢) وانظر : في ظلال القرآن : ١٢٣٩/٣ .

﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴾ لاتّخذنا ذلك اليوم عيداً . فقال عمر :" إنّي لأعلم أيّ يوم نزلت هذه الآية ، نزلت يوم عرفة في يوم جمعة ".(١)

قال ابن عبّاس (رضي الله عنهما) :

" أخبر اللّه نبيّه ﷺ والمؤمنين أنّه قد أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً ، وقد أتمّه اللّه عزّ ذكره فلا ينقصه أبداً ، وقد رضيه اللّه فلا يسخطه أبداً " (٢) .

إنّ من أكبر نعم اللّه على هذه الأمّة المحمّديّة أن أكمل لها دينها فلا تحتاج إلى دين غيره ، ولا إلى نبيّ سوى نبيّها ، ولذا جعله خاتم الأنبياء ، وبعثه إلى الإنس والجنّ . فالحلال ما أحلّه ، والحرام ما حرّمه ، والدّين ما شرعه ، وكلّ ما أخبر به فهو صدق وحقّ ، وكلّ ما حكم به فهو عدل وقسط . وقد رضي اللّه لها ذلك وأحبّه فلترضى بما رضيه لها .(٣)

يقول ابن القيّم (رحمه الله) في كلام بديع حول هذه الآية :

" تأمّل كيف وصف الدّين الّذي اختاره لهم بالكمال ، والنّعمة الّتي أسبغها عليهم بالتّمام ، إيذاناً في الدّين بأنّه لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل ولا شيء خارج عن الحكمة بوجه ، بل هو الكامل في حسنه وجلالته . ووصف النّعمة

---

(١) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة : (٧١/٩٦) . باب (١/٠) . برقم: (٧٢٦٨) . ص : ١٥٢٩ . و نحوه في: كتاب الإيمان : (٢) . باب زيادة الإيمان ونقصانه : (٣٤/٣٣) . برقم: (٤٥) . ص : ٢٤ . وفي كتاب المغازي : (٣٨/٦٤) . باب حجّة الوداع : (٧٨/٧٧) . برقم: (٤٤٠٧) . ص : ٩١٦ . وفي كتاب التّفسير : (٣٩/٦٥) . باب ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة:٣] : (١/٢) . برقم: (٤٦٠٦) . ص : ٩٦٥ .

صحيح مسلم: بلفظ مقارب و بنحوه في :كتاب التّفسير : (٥٤) . برقم: (٣٠١٧) . ٢٣١٢/٤-٢٣١٣ .

(٢) جامع البيان : ٧٩/٦ . طبعة : دار الفكر . تفسير القرآن العظيم : ٢٠/٢ .

(٣) انظر في معنى الآية : جامع البيان : ٧٩/٦-٨٢ . طبعة : دار الفكر . تفسير القرآن العظيم : ١٩/٢. تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١٨٣ . في ظلال القرآن : ٨٣٣/٢ .

بالتّمام إيذاناً بدوامها واتّصالها ، وأنّه لا يسلبهم إيّاها بعد إذ أعطاهموها ، بل يتمّها لهم بالدّوام في هذه الدّار ، وفي دار القرار . وتأمّل حسن اقتران التّمام بالنّعمة ، وحسن اقتران الكمال بالدّين ، وإضافة الدّين إليهم إذ هم القائمون به ، المقيمون له ، وإضافة النّعمة إليه إذ هو وليّها ومسديها والمنعم بها عليهم ، فهي نعمته حقّاً وهم قابلوها ، وأتى في الكمال باللاّم المؤذنة بالاختصاص ، وأنّه شيء خصّوا به دون الأمم ، وفي إتمام النّعمة بعلى المؤذنة بالاستعلاء والاشتمال والإحاطة ، فجاء أتممت في مقابلة أكملت ، وعليكم في مقابلة لكم ، ونعمتي في مقابلة دينكم ، وأكّد ذلك وزاده تقريراً وكمالاً وإتماماً للنّعمة بقوله : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ "[1] .

وقال تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ﴾ [الأنعام:٣٨].

أي ما أغفلنا عنه ولا ضيّعنا فيه من شيء . والمراد بالكتاب : اللّوح المحفوظ ، فإنّ اللّه أثبت فيه جميع الحوادث ، وقيل : إنّ المراد به القرآن : أي ما تركنا في القرآن من شيء من أمر الدّين إمّا تفصيلاً أو إجمالاً.[2]

والمعنى الثّاني هو الّذي يؤيّد ما نحن فيه ، ويعضّده قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ۝٨٩ ﴾ [النحل:٨٩].

قال ابن مسعود ﷺ :

" قد بيّن لنا في هذا القرآن كلّ علم وكلّ شيء " .

وقال مجاهد (رحمه الله) :

" كلّ حلال وكلّ حرام " .

---

(١) مفتاح دار السّعادة : ٣٠٢/١ .

(٢) فتح القدير : ١١٤/٢ . وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ٤٢٠/٦ . أنوار التّتريل: ٤٠٦/٢ .

وقول ابن مسعود ﷺ أعمّ وأشمل . فإنّ القرآن اشتمل على كلّ علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي ، وكلّ حلال وحرام ، وما النّاس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم .[١]

وعن جابر ﷺ عن النّبي ﷺ قال : " مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأتمّها وأكملها إلاّ موضع لبنة ، فجعل النّاس يدخلونها ويتعجّبون منها ويقولون : لولا موضع اللّبنة " . قال رسول اللّه ﷺ : " فأنا موضع اللّبنة ، جئت فختمت الأنبياء " .[٢]

قال ابو العبّاس القرطبي (رحمه الله) :

" ومقصود هذا المثل : أن يبيّن به ﷺ أنّ اللّه تعالى ختم به النّبيين والمرسلين ، وتمّم به ما سبق في علمه إظهاره من مكارم الأخلاق ، وشرائع الرّسل ، فبه كَمُل النّظام ، وهو ختم الأنبياء ، والرّسل الكرام ، صلى اللّه عليه وعلى آله أفضل صلاة وسلّم عليهم أبلغ سلام " .[٣]

من هنا يتبيّن لنا أنّ المنهج الّذي سار عليه رسول اللّه ﷺ وصحبه من بعده كامل كاف لا نقص فيه بحال من الأحوال ولا تقصير ، وإنّما يقع التّقصير من المنتسبين إليه ، إمّا لجهلهم بما جاء به الرّسول ﷺ ، أو نسبتهم إليه ما لم يأت به ، أو ضلالهم وتفريطهم وانحرافهم ، فيقدّمون ويؤخّرون ، ويزيدون وينقّصون ، وتلك البدع الّتي حذّر منها رسول اللّه ﷺ بقوله : " وإيّاكم ومحدثات الأمور فإنّ كلّ محدثة بدعة ، وكلّ بدعة ضلالة " [٤] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٩٠٣/٢ . وانظر : فتح القدير : ١٨٧/٣ .

(٢) سبق تخريجه انظر : ص : ٤٠٢ .

(٣) المفهم : ٨٨/٦ .

(٤) هذا جزء من حديث العرباض بن سارية ﷺ . وهو في :

وقوله : " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ " [1] .

قال الشّاطبي (رحمه الله) :

" فعلى النّاظر في الشّريعة ... أن ينظر إليها بعين الكمال لا بعين النّقصان ، ويعتبرها اعتباراً كلّياً في العبادات والعادات ، ولا يخرج عنها البتّة ، لأنّ الخروج عنها تيه وضلال ورمي في عماية ، كيف وقد ثبت كمالها وتمامها ؟ فالزّائد والمنقص في جهتها هو المبتدع بإطلاق ، والمنحرف عن الجادّة إلى بنيّات الطّرق " [2] .

فعلى المسلم الصّادق أن يأخذ هذا المنهج كاملاً فلا يجزّوه ولا يشطّره ، فيأخذ ما وافق هواه ويدع ما لا يوافقه . وقد أمر اللّه المؤمنين أن يأخذوا بجميع عُرَى الإسلام[3] وشرائعه ، فيعملوا بجميع أوامره ويتركوا جميع زواجره ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

سنن أبي داود: بلفظه في : كتاب السّنّة : (٣٩) . باب في لزوم السّنّة : (٥) . برقم: (٤٦٠٧) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٥٠٤ .

سنن التّرمذي: نحوه في: كتاب العلم : (٣٨) . باب ما جاء في الأخذ بالسّنّة واجتناب البدع : (١٦) . برقم: (٢٦٧٦) . وقال : " هذا حديث حسن صحيح " . و قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٤٣٣ .

سنن ابن ماجه: نحوه في: المقدّمة . باب اتّباع سنّة الخلفاء الرّاشدين المهديين : (٦) . برقم: (٤٢) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٢٢ .

سنن الدّارمي: بلفظ مقارب في: باب اتّباع السّنّة . ٥٧/١ .

سنن البيهقي: نحوه في: باب ما يقضي به القاضي ويفتي به المفتي . ١١٤/١٠ .

مسند أحمد: بلفظه — في موضعين . إلاّ إنّه قال في أحدهما : " وإنّ كلّ بدعة " — . في : ١٢٦/٤-١٢٧ .

مستدرك الحاكم: نحوه في: ١٧٤/١، ١٧٧ . وقال : " هذا حديث صحيح ليس له علّة " . ووافقه الذّهبي (رحمه الله) .

(١) سبق تخريجه انظر : ص : ٨٢١ .

(٢) الاعتصام : ٣١٠/٢ . وانظر : أعلام الموقّعين : ٣٣٢/١ . شرح العقيدة الطّحاوية : ص : ٧١ . طبعة المكتب الإسلامي .

(٣) عُرى الإسلام : أي حدوده وأحكامه وأوامره ونواهيه . لسان العرب : ١١٣/١٠ .

فقال سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ [البقرة:٢٠٨] (١) .

وعاب على بني إسرائيل سلوك هذا المسلك المشين ، وأوعدهم عليه بالنّكال الأليم فقال : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [البقرة:٨٥] .

يقول سيّد قطب (رحمه الله) في بيان قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء:١١٥].

" الّذي يشاقّ الرّسول ﷺ هوالّذي يأخذ له شقّاً وجانباً وصفّاً غير الصّفّ والجانب والشّقّ الّذي يأخذه النّبي ﷺ . ومعنى هذا : أن يتخذ له منهجاً للحياة كلّها غير منهجه ، وأن يختار له طريقاً غير طريقه . فالرّسول ﷺ جاء يحمل من عند اللّه منهجاً كاملاً للحياة ، يشتمل على العقيدة والشّعائر التّعبديّة ، كما يشتمل على الشّريعة والنّظام الواقعي لجوانب الحياة البشريّة كلّها ، وهذه وتلك كلتاهما جسم هذا المنهج ، بحيث تزهق روح هذا المنهج إذا شطر جسمه فأخذ منه شقّ وطرح شقّ ! والّذي يشاقّ الرّسول ﷺ هو كلّ من ينكر منهجه جملة ، أو يؤمن ببعض ويكفر ببعض ، فيأخذ بشقّ ويطرح شقّاً " (٢) .

وهذا ينافي كمال المنهج وتمامه .

---

(١) وانظر : تفسير القرآن العظيم : ٣٧١/١ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٧٧ .

(٢) في ظلال القرآن : ٧٥٩/٢ .

٤-إنّه منهج ظاهر واضح جلي لا لبس فيه ولا غموض ، باق إلى قيام السّاعة ، تولّى رسولُ اللّه ﷺ إيضاحه وبيانه إلى الخلق كافّة لأنّ ربّه أمره بذلك ، فقال له : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل:٤٤] .

فلعلمه بما أنزل عليه ، وحرصه على بيانه ، واتّباعه له ، فَصّل للأمّة ما أُجمل ، وبيَّن لها ما أشْكل ، وأوضح لها ما غمض ، لأنّه أنصح النّاس للنّاس ، وأفصحهم لساناً ، وأصدقهم لهجة ، وأقواهم حجّة ، وأبلغهم بياناً ، حتّى تهتدي الأمّة فتفوز بالنّجاة في الدّارين .[1]

ولم يكن رسولُ اللّه ﷺ بدعاً من الرّسل ، بل كان شأنه شأنهم في وضوح الأمر وجلائه .

قال ابن كثير (رحمه الله) في بيان قول اللّه تعالى في خطاب موسى عليه السّلام لفرعون : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه:٥٩] . قال :

" ﴿ ضُحًى ﴾: أي ضحوة من النّهار ، ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح ، وهكذا شأن الأنبياء كلّ أمرهم بيّن واضح ليس فيه خفاء ولا ترويج ، ولهذا لم يقل ليلاً ، ولكن نهاراً ضحى "[2] .

وهذا سرّ قول كلّ رسول لقومه : ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ [هود:٢٨ ، ٦٣ ، ٨٨] .

وهكذا شأن رسولنا ﷺ ، وشأن منهجه فإنّه اتّسم بالوضوح التّام ، والحجّة الباهرة ، والدّلالة الظّاهرة .

---

(١) وانظر : تفسير القرآن العظيم : ٨٨٥/٢ . الشّريعة : ص ٣٤٣-٣٤٤ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٢٥٠/٣ .

قال القرطبي (رحمه الله) في بيان قوله تعــالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا ﴾ [الجاثية:١٨].

" أي على منهج واضح من أمر الدّين يشرع بك إلى الحقّ " (١) .

فقد أوضح اللّه المنهج ليتبيّن سبيل الحقّ وطريق النّجـــاة ، ويتمـيّز عـن المناهج الباطلة وطرق الضّلال المنحرفة . ولذا قال تعـــالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ [النحل:٩] . أي على اللّه بيان سبيل الحق وإيضاحـــه .(٢) وقال ســـبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأنعام:٥٥].

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" واللّه تعالى قد بيّن في كتابه سبيل المؤمنين مفصّلة ، وسبيل المجرميـــن مفصّلة ، وعاقبة هؤلاء مفصّلة ، وعاقبة هؤلاء مفصّلة ، وأعمال هؤلاء وأعمـال هؤلاء ، وأولياء هؤلاء وأولياء هؤلاء ، وخذلانـــه لـــهؤلاء وتوفيقــه لـــهؤلاء ، والأسباب الّتي وفّق بها هؤلاء والأسباب الّتي خذل بها هؤلاء ، وجـــلا سـبحانه الأمرين في كتابه وكشفهما وأوضحهما وبيّنهما غاية البيـــان حتّـى شـاهدتهما البصائر كمشاهدة الأبصار للضّياء والظّلام " (٣) .

وما مات رسول اللّه ﷺ إلاّ وقد ترك الأمّة على بيّنة من أمـــر دينـــها ، لا خفاء فيه ، ولا غموض كالشّمس في رابعة النّهار ، وهكذا قال لنا فـــي حديـث

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ١٦/١٦٣ . وانظر : زبدة التّفسير من فتح القدير :ص : ٦٦٢ .

(٢) سبق بيان الآية . انظر : ص : ٨٢٥ .

(٣) الفوائد : ص : ١٠٨ .

العرباض بن سارية ﷺ : " قد تركتكم على البيضاء[1] ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدي إلاّ هالك " [2] .

وقد أمره ربّه سبحانه وتعالى أنّ يبلّغ دينه كلّه ، ولا يخف منه شيئاً .
فقال سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة:٦٧].

ففي الآية خطاب من اللّه تعالى باسم الرّسالة لعبده ورسوله محمّدٍ ﷺ ، وأمر له بإبلاغ جميع ما أرسله به . وقد امتثل عليه أفضل الصّلاة والسّلام ذلك ، وقام به أتمّ قيام ، وأحسنه وأكمله .

قال الزّهري (رحمه الله) :

" من اللّه الرّسالة وعلى رسول اللّه ﷺ البلاغ ، وعلينا التّسليم " [3] .

وشهدت له أمّته بإبلاغ الرّسالة وأداء الأمانة ، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل ، في خطبته يوم عرفة في حجّة الوداع ، وقد كان هناك من أصحابه نحو

---

(١) البَيْضاء : الشّمسُ لبياضها . لسان العرب : ١٢٣/٧ .

(٢) هذا جزء من حديث العرباض ﷺ السّابق . ولكن هذه اللّفظة في :
سنن ابن ماجه : المقدّمة . باب اتّباع سنّة الخلفاء الرّاشدين المهديين : (٦) . برقم: (٤٣) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٢٢.
مسند أحمد: ١٢٦/٤ .
مستدرك الحاكم: ١٧٥/١ .

(٣) صحيح البخاري: بلفظه ـ تعليقاً ـ في كتاب التّوحيد : (٧٢/٩٧) . باب قول اللّه تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة:٦٧] : (٤٦) . ص : ١٥٨٢ .
وصله الحافظ ابن حجر (رحمه الله) في كتابه تغليق التّعليق . طبعة المكتب الإسلامي . دار عمار . بيروت . عمّان . تحقيق : سعيد عبد الرحمن القزقي . الطبعة : الأولى : ١٤٠٥هـ : ٣٦٥/٥-٣٦٦ .

من أربعين ألفاً ، كما ثبت عن جابر بـــن عبـــد اللّـــه (رضـــي الله عنـــهما) :

أنّ رسول اللّه ﷺ قال في خطبته يومئذ : "وأنتم تسألون عنّي فما أنتم قائلون" ؟ قالوا : نشهد أنّك قد بلّغت وأدّيت ، ونصحت . فقال بإصبعه السّبابة يرفعها إلـــى السّماء وينكتها إلى النّاس : " اللّهم اشهد ، اللّهم اشهد ". ثلاث مرّات ؟ [1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾

أي إن لم تؤدّ إلى النّاس ما أرسلتك به فما بلّغت رسالته ، وقد علم ما يترتّب على ذلك لو وقع ، *ولذا قال ابن عبّاس (رضي الله عنهما)* :

" ﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ يعني إن كتمت آية ممّـــا أنـــزل إليك من ربّك لم تبلّغ رسالته " [2] .

قال الطّبري (رحمه الله) :

" وأمّا قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ فإنّه يعني : إنّ اللّــه لا يوفّق للرّشد من حاد عن سبيل الحقّ ، وجار عن قصد السّبيل ، وجحد ما جئته به من عند اللّه ، ولم ينته إلى أمر اللّه وطاعته فيما فرض عليه وأوجبه " [3] .

وقالت عائشة (رضي الله عنها) :

" ومن زعم أنّ رسول اللّه ﷺ كتم شيئاً من كتاب اللّه فقد أعظم على اللّـــــه الفرية ، واللّـــه يقـــول : ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ . وزادت في رواية : " ولو كان محمّـــد ﷺ كاتمـــاً

---

(١) صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الحجّ : (١٥) . باب حجّة النّبي ﷺ : (١٩) . برقم: (١٢١٨) . ٢/٨٩٠ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٢/١٢٤ بتصرّف .

وانظر : جامع البيان : ٦/٣٠٧-٣٠٩ . طبعة دار الفكر . الجامع لأحكام القرآن : ٦/٢٤٢ . فتـــح القديـــر : ٢/٥٩-٦٠ .

(٣) جامع البيان : ٦/٣٠٩ . طبعة دار الفكر .

شيئاً ممّا أنزل عليه لكتم هذه الآيــة : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب:٣٧][1] .

وقال أبو ذر ﷺ :

" لقد تركنا محمّد ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السّماء إلاّ أذكرنـــا منـــه علماً " [2] .

فهذا كلّه يبيّن أنّ الرّسول ﷺ بيّن المنهج الحقّ ، وأظـــهره للأمّـــة كـــاملاً موفوراً ، وبلّغه البلاغ المبين ، ولم يكتم منه شيئاً أبداً .

وسلك الصّحابة مسلكه في البيان والإيضاح ، وبذلوا جهوداً عظيمة في إبلاغ ذلك المنهج إلى كلّ أحد يمكنهم الوصول إليه ، في أيّ بقعة من أرض اللّه ، وفي أيّ مكان يوجد فيه عباد الله .

وهكذا فعل من حمل الرّاية من بعدهم ممّن وفّقهم اللّه لمعرفة المنهج القويم .
وقد شرف بذلك الفرقة النّاجية ، أصحاب الحديث الّذين لم يزالوا بالسّنّة

---

(١) صحيح مسلم: بلفظه ـــ جزء من حديث ـــ في كتاب الإيمان : (١) . باب معنى قـــول اللّـــه عـــزّ وجـــلّ : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ [النّجم:١٣] : (٧٧) . برقم: (١٧٧) . ١٥٩/١ـــ ١٦٠ .

(٢) مسند أحمد: بلفظه في : ١٥٣/٥ . و بلفظ مقارب في: ١٦٢/٥ .
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: بلفظ مقارب في: باب الزّجر عن كتبة المرء السّنن مخافة أن يتّكـــل عليـــها دون الحفظ لها . برقم: (٦٥) . قال شعيب الأرناؤوط : " إسناده صحيح " . وقال ابـــن حبّـــان (رحمـــه الله) : " ومعنى عندنا منه " : يعني بأوامره ونواهيه وأخباره وأفعاله و إباحته ﷺ " . ٢٦٧/١ .
مسند أبي يعلى: بلفظ مقارب . برقم: (٥١٠٩) . عن أبي الدّرداء ﷺ . قال المحقّـــق : " إســـناده صحيـــح " . ٤٦/٩ .
مسند أبي داود الطّيالسي: بلفظ مقارب في: ص: ٦٥ . برقم: (٤٧٩) .
معجم الطّبراني الكبير: بلفظ مقارب في: ١٥٥/٢ .

ظاهرين ، وبالأتباع قاهرين ، يَداجّون [١] بكلّ بلد ولا يُداجّون ، ويستتر منهم بالنّحل ولا يستترون ، ويصدعون بحقّهم النّاس ولا يستغشون ، ولا يرتفع بالعلم إلاّ من رفعوا ، ولا يتّضع فيه إلاّ من رضوا ، ولا تسير الرّكبان إلاّ بذكر من ذكروا .[٢]

وقد جعل اللّه في كلّ زمان منهم من يقوم بنصرة هذا المنهج وإظهاره للنّاس ، وإبلاغه لهم غير آبه بما يناله منهم من شدّة وضنك ، وفي ذلك يقول ﷺ : " لا تزال طائفة من أمّتي قائمة بأمر اللّه ، لا يضرّهم من خذلهم أو خالفهم حتّى يأتي أمر اللّه وهم ظاهرون على النّاس " [٣] .

قال النّووي (رحمه الله) :

" في هذا الحديث معجزة ظاهرة ، فإنّ هذا الوصف ما زال بحمد اللّه تعالى من زمن النّبي ﷺ إلى الآن ، ولا يزال حتّى يأتي أمر اللّه المذكور في الحديث " [٤] .

وببقائهم يبقى هذا المنهج ظاهراً واضحاً لا يتغيّر ولا يتبدّل ، لأنّهم أحرص النّاس على إظهاره وبيانه ، ولأنّه ليس فيه ما يجب استتاره عن الخلق وقد طالب الله رسوله بإبلاغه ، وعدم إخفاء شيء منه أو كتمانه .

---

(١) دَجّ القَوْم يَدِجُّونَ دَجًّا و دَجِيجاً ودَجَجاناً: مَشَوْا مَشْياً رُوَيْداً في تَقارُبِ خَطْوٍ . وقيل: هو أن يقبلوا ويدبروا . وقيل: هو الدّبيب بعينه . و دَجّ يَدِجّ : إذا أسرع . و دَجَّ يَدِجُّ ودَبَّ يَدِبُّ ، بمعنى . لسان العرب : ٢٦٣/٢ . وانظر : القاموس المحيط : ص : ٢٣٩ .

(٢) الاختلاف في اللّفظ والرّد على الجهميّة والمشبّهة للإمام عبد اللّه بن مسلم بن قتيبة . الرّسالة الثّالثة من عقائد السّلف . تحقيق : علي سامي النّشار . عمّار جمعي الطّالبي . طبع : شركة الإسكندريّة للطّباعة والنّشر . نشر : منشأة المعارف بالإسكندريّة . ١٩٧١م : ص :٢٢٤ .

(٣) الحديث سبق تخريجه انظر : ص : ٨١٣ .

(٤) شرح النّووي على مسلم : ٦٧/١٣ . وانظر في إظهار الفرقة النّاجية لهذا المنهج : شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة والجماعة :٢٧/١ . الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية : ١٩٧/١ . أهل السّنّة والجماعة معالم الانطلاقة الكبرى : ص : ٨ .

قال عمر بن عبد العزيز (رحمه الله) :

" إذا رأيت قوماً يتناجون في دينهم بشيء دون العامّة فـاعلم أنّـهم علـى تأسيس ضلالة " (١) .

والسّرّية المتّبعة عند كثير من أصحاب المناهج المنحرفة تحدث كثيراً مـن الأخطاء والخلل عند الأفراد ، وينجم عنها كثير من التّنازلات عن أسس المنـهج وقواعده تحت جنح الظّلام والأمن من نظر النّاس ، بحجّة المصلحة المزعومـة ، وقد تكون تلك السّرّية سبباً في الصّد عن دين اللّه والالتزام به لما تحدثه من ريب وشك في نفوس الكثيرين . والدّين جاء ليعلن وتصل أحكامه إلى كـلّ البشـر لا ليخفى عنهم .

وما حصل من إخفاء للمسلمين لإسلامهم في بعض الأحيان فذلك يحمل على حالات الاستضعاف أو أسباب أخرى دعت إليها الضّرورة . ومع هذا فإنّ المنهج الحقّ باق ظاهر ، معلوم منقول مسطور ، تعهّد اللّه بحفظه وبقائـه ، إذ قـال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝ ﴾ [الحجر:٩] . وسخّر له من يقوم به ويرفع رايته ، ويُعلي أمره في كلّ عصر وجيل ، وهم أهل السّنّة الّذيـن لـم يدعوا راية السّنّة تسقط أبداً ، بل ظلّوا يحملونها عالية خفّاقـة يسـلمها السّـلف للخلف ، حتّى غدت ظاهرة واضحة جلية لا يجهل شأنها إلاّ من لم يوفّقـه اللّـه للالتزام بذاك المنهج والانتساب إليه ، وأعمى عينيه عن رؤية الحـقّ قصـداً أو جهلاً .

---

(١) سنن الدّارمي: بلفظ مقارب في: ١٠٣ .

الزّهد لابن أبي عاصم : بلفظ مقارب في: ص : ٢٨٩ . و نحوه في: ص : ٢٩١ .

شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة : بلفظه في : ١٣٥/١ .

٥- إنّه منهج عام لكلّ زمان ومكان ، ولكلّ أمّة وجيل ، بل للخلق كافّة من الجنّ والإنس في كلّ عصر ومصر ووقت . وأنّه منهج سهل ميسّر .

قال سبحانه : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٨] (١) .

وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربي والعجمي بأنّه رسول اللّه إليهم جميعاً ، وهذا يقتضي عموم رسالته إلى النّاس كافّة لا كغيره من الرّسل الّذين كانوا يبعثون إلى قومهم خاصة .

وقال سبحانه و تعالى : ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام:١٩].

أي أوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به يا أهل مكّة وسائر من بلغه من أسود وأحمر ، أو من جنّ و إنس ، أو لأنذر به الموجودين ومن سيوجدون إلى قيام السّاعة . وفي هذا دليل على شمول أحكام القرآن وعمومها للموجودين وقت نزوله ومن سيوجدون من بعدهم .(٢)

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ:٢٨].

---

(١) وانظر في معنى الآية : تفسير القرآن العظيم : ٢/٤٠٤-٤٠٥ . فتح القدير : ٢/٢٥٤ .

(٢) انظر : معالم التّنزيل : ٢/٨٩ . أنوار التّنزيل: ٢/٣٩٨ -٣٩٩. فتح القدير : ٢/١٠٥ .

وقولـــــــه: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [الفرقان:١] .

وفي حديث جابر بن عبد اللّه (رضي الله عنهما) قال : قال رسول اللّه ﷺ : " أُعْطِيتُ خمساً لم يُعْطَهُنّ أحد من الأنبياء قبلي ، نصرت بالرّعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيّما رجل من أمّتـــي أدركتـــه الصّـــلاة فليصلّ ، وأحلّت لي الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلي ، وأعطيت الشّفاعة ، وكان النّبـي يبعث إلى قومه وبعثت إلى النّاس عامّة".[١]

وهذه النّصوص كلّها تفيد عموم رسالته ﷺ وأنّه لم يخاطب بها نوعاً خاصـاً من البشر ، بل خاطب بها النّاس جميعاً ، ولم يخاطب بها جيلاً محـــدوداً ، بـل خاطب بها كلّ الأجيال ، ولم يخاطب عصراً مضى ، بل خاطب كلّ العصـــور ، ولم يخاطب لوناً محدّداً بل خاطب بها الأحمر والأسود ، ولم يخاطب نفسيّة معيّنة ومزاجاً معيّناً بل خاطب كلّ النّفوس وكلّ الأمزجة وجميع القلوب .[٢]

وقد حذّر ﷺ من سمع به ولم يؤمن به فقال في حديث أبـــي هريـــرة ﷺ : " والّذي نفس محمّد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمّة يهودي ولا نصراني ، ثـمّ يموت ولم يؤمن بالّذي أرسلت به إلاّ كان من أصحاب النّار " .[٣]

أي لا يسمع بي أحد من هذه الأمّة ممّن هو موجود في زمني أو بعدي إلـى يوم القيامة ــ وإنّما ذكر اليهودي والنّصراني لأنّ لهم كتباً . فإذا كان هذا شأنه

---

(١) سبق تخريجه انظر : ص : ٤٠٣ .

(٢) انظر : دور المنهاج الرّباني في الدّعوة الإسلاميّة . عدنان علي رضا النّحوي . مطابع الفرزدق التّجاريّة . الرّياض . الطّبعة الرّابعة : ١٤٠٥هـــ ١٩٨٥م : ص : ٢٦ .

(٣) صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإيمان : (١) . باب وجوب الإيمان برسالة محمّد ﷺ إلى جميع النّاس ، ونسـخ الملل بملّته : (٧٠) . برقم: (١٥٣) . ١/١٣٤ .

مع من له كتاب فغيره ممّن لا كتاب له أولى ـــ ثمّ لا يؤمن بي إلاّ عذّب .[1]

فلمّا كانت رسالته عامّة دلّ ذلك على أنّ منهجه عامّ لا ينحصر في فئة دون غيرها ، ولا جماعة دون سواها ، ولا عصر دون بقيّة العصور ، وأنّ من سلكه لا يحتاج إلى سواه ، لأنّ الحقّ لا يخرج إلاّ منه ، والهداية لا تكون إلاّ فيه ، وهو يسع كلّ النّاس في كلّ زمان ومكان لأنّه صالح لكلّ زمان ومكان .

ومع عمومه فهو سهل ميسّر بعيد عن التّعقيدات ، يتّسم بالبساطة واليسر لأنّه يتّفق مع الفطرة السّليمة .

قال ابن كثير (رحمه الله) في بيان قوله تعالى : ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [الأعلى:٨] :

" أي نسهّل عليك أفعال الخير وأقواله ، ونشرع لك شرعاً سهلاً سمحاً مستقيماً عدلاً لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر ".[2]

وقال الشّوكاني (رحمه الله) :

" نوفّقك للطّريقة اليسرى في الدّين والدّنيا في كلّ أمر من أمورهما الّتي تتوجّه إليك " [3] .

ومع ذلك كلّه قلّ أهله والسّائرون عليه ، وانحرفت الأكثريّة عن سلوكه فهي في عماية عن الحقّ ، وظلمة عن الهدى .[4]

---

(١) انظر : شرح النّووي على مسلم : ١٨٨/٢ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٧٨٩/٤ .

(٣) فتح القدير : ٤٢٤/٥ . وانظر : معالم التّتريل :٤٧٦/٤ . الجامع لأحكام القرآن : ١٩/٢٠ . أنوار التّتريل: ٤٨٠/٥ .

(٤) ولهذه الجزئيّة مزيد بيان عند الحديث عن عوامل الثّبات على المنهج .

٦- إنّه منهج وسط معتدل متّزن ، بعيد عن الإفراط والغلو والتّعمّق والتّنطّع والتّشدّد ، كما هو بعيد عن التّفريط والتّقصير والجفاء .

وقد أمر اللّه سبحانه بالتوسط والاعتدال في أكثر من آية فقال سبحانه : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الإسراء:٢٦].

وقال : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء:٢٩] .

وقال : ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان:٦٧] .

وقال : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ [القصص:٧٧] .

كما نهى سبحانه عن الغلو وتعدّي الحدود والإفراط فقال : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ ﴾ [النساء:١٧١].

وقال : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [البقرة:١٩٠] .

وقال : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ ﴾ [البقرة:٢٢٩] .

وقال ﷺ في حديث بريدة الأسلمي ﷺ : " عليكم هدياً قاصداً ، فإنّه من يشادّ هـذا الدّين يغلبه " [1] .

وقال في حديث ابن عبّاس (رضي الله عنهما) : "و إيّاكم والغلو في الدّين ، فإنّما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدّين " [2] .

---

(١)صحيح ابن خزيمة : بلفظه ــ مع التّكرار ــ في :باب الأمر بالاقتصاد في التّطوّع وكراهية الحمل على النّفس ما لا تطيقه من التّطوّع : ٢/١٩٩ .

سنن البيهقي : بنحو منه . في باب : القصد في العبادة والجهد في المداومة . ٣/١٨ .

مسند أحمد: بلفظه في : ٥/٣٦١ . و بلفظ مقارب في: ٤/٤٢٢ .

مسند أبي يعلى: عن أبي برزة الأسلمي ﷺ . في : ٥/٣٥٠ .

مستدرك الحاكم: بلفظه ــ مع التّكرار ــ في : ١/٤٥٧ . وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه " .

مسند أبي داود الطّيالسي: بلفظه في : ص : ١٠٩ . برقم: (٨٠٩) .

مسند الشّهاب نحوه في : ١/٢٤٧ . برقم: (٣٩٨) .

كتاب السّنّة لابن أبي عاصم : بلفظ مقارب : برقم: (٩٥) . قال الألباني (رحمه الله) : " إسناده صحيح ، رجاله كلّهم ثقات " . ص : ٤٦ .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ عن النّبي ﷺ قال : " إنّ الدّين يسر ، ولن يشادّ الدّين أحد إلاّ غلبه ، فسدّدوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والرّوحة وشيء من الدّلجة " . كتاب الإيمان : (٢) . باب الدّين يسر : (٢٩/٣٠) . برقم: (٣٩) . ص : ٢٣ .

(٢) سنن النّسائي: بلفظه في : كتاب مناسك الحجّ : (٢٤) . باب التقاط الحصى : (٢١٧) . برقم: (٣٠٥٧) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٣٢٣ .

سنن ابن ماجه: بلفظه ــ إلاّ إنّه قال : " فإنّه أهلك " ــ في كتاب المناسك : (٢٥) . باب قدر حصى الرّمي : (٦٣) . برقم: (٣٠٢٩) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٣٢٨ .

سنن البيهقي: بلفظ مقارب في: باب أخذ الحصى لرمي جمرة العقبة ، وكيفية ذلك . ٥/١٢٧ .

مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ١/٢١٥ ، ٣٤٧ . قال أحمد شاكر (رحمه الله): " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٣/٢٥٧ . ٥/٨٥ . برقم: (١٨٥١ ، ٣٢٤٨) .

مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في: ١/٦٣٧ . وقال : " هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين و لم يخرجاه " .

مسند أبي يعلى: بلفظه في : ٤/٣١٦ . برقم: (٢٤٢٧) . قال المحقّق : " إسناده صحيح " .

و انظر : السّنّة لابن أبي عاصم : ص: ٤٦ . برقم: (٩٨) . السّلسلة الصّحيحة : ٣/ ٢٧٨ . برقم: (١٢٨٣) .

وقال : " هلك المتنطّعون[1] " . قالها ثلاثاً . [2] .

قال عبد الله ــ هو ابن مسعود ــ ﷺ :

" والّذي لا إله إلاّ هو ما رأيت أحداً كان أشدّ على المتنطّعين من رسول الله ﷺ ، وما رأيت أحداً كان أشدّ عليهم من أبي بكر ، وأنّي لأرى عمر كان أشدّ خوفاً عليهم أولهم " . [3]

وفي النّهي عن الغلو أمر بالاعتدال والوسطيّة ، ولذا كان الصّحابة ﷺ أكثر النّاس اعتدالاً وتوسّطاً ، منحرفين عن الإفراط ، ومجافين للتّفريط ، نابذين للتّنطّع ، متباعدين عن التّقصير .

قال عمر بن الخطاب ﷺ :

" أيّها النّاس قد سُنَّتْ لكم السّنن ، وفرضت لكم الفرائض ، وتُركتم على الواضحة ، إلاّ أن تضلّوا بالنّاس يميناً وشمالاً" [4] .

كتب عمر بن عبدالعزيز (رحمه الله) إلى رجل :

---

(١) المُتَنَطِّعون : هم المُتَعَمِّقون المُغَالُون في الكَلام المُتَكَلِّمُون بِأقصى حُلوقِهم ، مأخوذ من النّطع وهو الغَار الأعْلَى من الفمِ ثمّ استُعْمِل في كلّ تَعَمّق قولاً وفعلاً . النّهاية في غريب الحديث: ٧٤/٥ .

(٢) صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب العلم : (٤٧) . باب هلك المتنطّعون : (٤) . برقم: (٢٦٧٠) .٢٠٥٥/٤. عن عبد الله بن مسعود ﷺ .

(٣) سنن الدّارمي: بلفظه في : المقدّمة . باب من هاب الفتيا وكره التّنطّع والتّبدّع . ٦٥/١ .
مسند أبي يعلى: بلفظ مقارب في: ٤٣٧/٨ . برقم: (٥٠٢٢) . قال المحقّق : " إسناده صحيح " .
معجم الطّبراني الكبير: جزء منه في : ١٧٤/١٠ .

(٤) موطّأ مالك : بلفظه في : كتاب الحدود : (٤١) . باب ما جاء في الرّجم : (١) . برقم: (١٠) . ٨٢٤/٢ .
مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في: ٩٨/٣ . و انظر : إغاثة اللّهفان : ١٥٩/١ .

" أمّا بعد : أوصيك بتقوى اللّه ، والاقتصاد في أمره ، واتّباع ســنّة نبيّــه ﷺ ، وترك ما أحدث المحدثون بعد ما جرت به سنّته ، وكُفُوا مؤنته ، فعليــك بلــزوم السّنّة فإنّها لك – بإذن اللّه – عصمة ، ثمّ اعلم أنّه لم يبتدع النّاس بدعة ، إلاّ قــد مضى قبلها ما هو دليل عليها ، أوعبرة فيها ، فإنّ السّنّة إنّما سنّها من قد علم مــا في خلافها ... من الخطأ ، والزّلل ، والحمق ، والتّعمّق . فــارض لنفســك مــا رضي به القوم لأنفسهم ، فإنّهم على علم وقفوا ، وببصر نافذ كَفُّوا ، وَهُمْ علــى كشف الأمور كانوا أقوى ، وبفضل ما كانوا فيه أولى ، فإن كان الهدى ما أنتــم عليه لقد سبقتموهم إليه .

ولئن قلتم : إنّما حدث بعدهم ، ما أحدثه إلاّ من اتّبع غير سبيلهم ، ورغب بنفســه عنهم ، فإنّهم هم السّابقون ، فقد تكلّموا فيه بما يكفي ، ووصفوا منه ما يشــفي ، فما دونهم من مَقْصر وما فوقهم من مَحْسَرٍ[1] ، وقد قصَّر قوم دونــهم فجفــوا ، وطمح عنهم أقوام فَغَلَوا ، وإنّهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم "[2] .

فالصّحابة ﷺ كانوا أهل الاعتدال والوسط ، فلم يغلوا ولم يجفــوا ، وإنّمــا ساروا على منهج قويم وصراط مستقيم ، سبقهم في السّير عليه رسول اللّــه ﷺ ، فلم ينحرفوا عنه بإفراط أو تفريط لعلمهم أنّ الحقّ بين ذلك .

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" إنّ التّعمّق والتّنطّع والتّشديد الّذي نهى عنه رسول اللّه ﷺ هو المخــالف لهديه وهدي أصحابه وما كانوا عليه ، وإنّ موافقته فيما فعله هو وخلفاؤه من بعده هو محض المتابعة ، وإن أباها وجهلها من جهلها ، فالتّعمّق والتّنطّع مخالفة مــا

---

(١) يقال : حَسرَ بصره : كَلّ وانقطع نظره من طول مدى وما أشبه ذلك ، فهو حَسِيرٌ و مَحْســور أيضــاً . وبابــه جلس . و الحَسْرةُ أشدّ التّلهّف على الشّيء الفائت . مختار الصّحاح : ص : ١٣٥ .و انظر : لســان العــرب : ١٨٩/٤ . القاموس المحيط : ص : ٤٧٩ .

(٢) سنن أبي داود: بلفظه في : كتاب السّنّة : (٣٩) . باب لزوم السّنّة : (٦) . برقــم: (٤٦١٢) . قــال الألبــاني (رحمه الله): " صحيح مقطوع " . ص : ٥٠٤-٥٠٥ .

جاء به ، وتجاوزه والغلو فيه ، ومقابله إضاعته والتّفريط فيه ، والتّقصير عنه ، وهما خطأ وضلالة وانحراف عن الصّراط المستقيم ، والمنهج القويم . ودين اللّه بين الغالي فيه والجافي عنه " [(١)] .

ولمّا كان دين اللّه كذلك اختار له هذه الأمّة الّتي جعلها وسطاً بين الأمم قاطبة فقال في شأنها : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣] .

فهي أشرف الأمم ، وخيرها ، وأكملها ، وأعدلها قولاً وعملاً . ولذا هيّأها اللّه تعالى لتكون شهيدة على الأمم يوم القيامة بتبليغ كلّ رسول دين اللّه لأمّته ، وفي ذلك شهادة لها من الأمم ، واعتراف بفضلها وخيريتها واعتدالها على جميع الأمم .[(٢)] ولذلك قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران:١١٠] .

فهي خير النّاس للنّاس ، وأعظم النّاس هدياً ، وأكملهم شريعة ، وأقومهم منهجاً ، وأوسطهم مذهباً .

فهي وسط بين الأمم ، معتدلة متّزنة ، بعيدة عن الإفراط والتّفريط والغلو والتّقصير .

فهي وسط في توحيد اللّه تعالى وصفاته بين اليهود الّذين وصفوا الرّب بصفات النّقص وشبّهوه بالمخلوق ، بل وصفوه بالبخل والفقر والتّعب ، وبين

---

(١) كتاب الصّلاة وحكم تاركها للإمام ابن القيّم . تحقيق تيسير زعيتر ، الطّبعة الأولى : ١٤٠١هـ — ١٩٨١م المكتب الإسلامي . دمشق — بيروت . ص : ١٩٢ . وانظر : إغاثة اللّهفان : ١٣١/١ . الفوائد : ص: ١٤١ .

(٢) انظر معنى الآية في : جامع البيان : ٦/٢-١١ . تفسير القرآن العظيم : ٢٨٣/١-٢٨٤ . زبدة التّفسير من فتح القدير : ص:٢٧ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٥٣ . وانظر : أعلام الموقّعين : ١٣٣/٤ .

النّصارى الّذين وصفوا المخلوق بصفات الخالق ، فزعموا أنّه المسيح ، وأنّه ثالث ثلاثة إلى غير ذلك من أباطيلهم .

وسعدت هذه الأمّة بتوحيد اللّه ، ووصفه بصفات الكمال ، وتنزيهه عن صفات النّقص ومشابهة المخلوقات .

وهي وسط في أنبياء اللّه ورسله بين اليهود الّذين قتلوا الأنبياء ، ورموهم بارتكاب الكبائر والموبقات ، وكذّبوهم وجفوا عن اتّباعهم ، وبين النّصارى الّذين غلوا في الأنبياء بل والأحبار والرّهبان فجعلوهم أرباباً من دون اللّه .

وفازت هذه الأمّة بإنزال الرّسل والأنبياء منازلهم الّتي وضعهم اللّه فيها ، فهم عباد اللّه مبشّرون ومنذرون ، يطاعون ويوقّرون ، ويصدّقون ولا يعبدون من دون اللّه ، ولا يتّخذون أرباباً .

وهي وسط في باب الشّرائع والأحكام بين اليهود المحرّمين لكثير من الطّيّبات الّتي أباحها اللّه لهم ، وبين النّصارى الّذين أسرفوا في الإباحة فاستحلّوا الخبائث والمحرّمات كالميتة والدّم ولحم الخنزير وغير ذلك .

والمسلمون أحلّوا ما أحلّ اللّه ورسوله من الطّيبات ، وحرّموا ما حُرِّم عليهم من الخبائث .

وهي وسط في باب العبادة بين اليهود المعرضين عن عبادة اللّه ، المنغمسين في الشّهوات والملاذ الدّنيويّة وتقديس المادة ، وبين النّصارى الّذين غلوا في الرّهبانيّة والبدع ، وانقطعوا في الأديرة والخلوات ، والتزموا بما لم يلزموا به من المشاقّ .

وأهل الإسلام عبدوا اللّه بما شرع ، فلم يجفوا عن عبادة اللّه ، ولم يتعبّدوه بالبدع ، فكانوا وسطاً بين أولئك وهؤلاء .[1]

ولمّا كان أهل السّنّة هم أفضل فرق هذه الأمّة وخيرها وأعظمها ، بل كلّ فضل ثبت للأمّة فلأهل السّنّة الحظّ الأوفر والنّصيب الأعظم منه ، وكلّ وسطيّة

---

(١) انظر : وسطيّة أهل السّنّة : ص : ٢٣٧-٢٤١ .

واعتدال ثبت للأمّة فهو لأهل السّنّة بطريق الأولى ، ولأنّهم الطّائفة الّتي تتحقّق فيها الوسطيّة المطلقة لهذه الأمّة .

كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" هم الوسط في فرق الأمّة ، كما أنّ الأمّة هي الوسط في الأمم " [(١)] .

فلمّا حملوا المنهج الوسط كانوا وسطاً بين الطّوائف المنتسبة إلى الإسلام ، حيث عصموا به عن الغلو والجفاء ، والإفراط والتّفريط ، والتّعنّت والتّقصير .

فهم وسط في باب أسماء اللّه وصفاته بين أهل التّعطيل النّافين لأسماء اللّه وصفاته وبين أهل التّمثيل والتّشبيه المشبّهين لله بعباده .

وَسَلِمَ أهل السّنّة والجماعة من دنس التّعطيل ، فأثبتوا أسماء اللّه وصفاته على الوجه اللاّئق بجلال اللّه ، كما سلموا من وحل التّشبيه فنفوا عن اللّه مشابهة المخلوقين ، فكانوا على الهدي القاصد والصّراط المستقيم .[(٢)]

وهم وسط في باب الإيمان بين الخوارج والمعتزلة الّذين يرون أنّ الإيمان شيء واحد لا يتجزّأ ولا يتبعّض ، وهو فعل الطّاعات وترك المعاصي ، وإذا ذهب بعضه ذهب كلّه ، وبين المرجئة الّتي تزعم أنّ الإيمان هو المعرفة ، والأعمال ليست منه .

وذهب أهل السّنّة إلى أنّ الإيمان قول باللّسان ، وعمل بالأركان ، وتصديق بالجنان ، يزيد بطاعة الرّحمن ، وينقص بطاعة الشّيطان .

وانبنى على وسطيتهم في الإيمان وسطيتهم في صاحب الكبيرة . فالخوارج يزعمون أنّ صاحب الكبيرة خارج من الإيمان داخل في الكفر ، تجرى عليه أحكام الكفّار في الدّنيا ، فيكون حلال الدّم والمال ، وهو في الآخرة مخلّد في النّار ، والمعتزلة وافقوا الخوارج في سلب اسم الإيمان عنه ، وتخليده في النّار ،

---

(١) مجموع الفتاوى : ١٤١/٣ . وانظر : ٣٧٠/٣ .

(٢) انظر : المرجع السّابق : ١٤١/٣ ، ٣٧٣ . وسطيّة أهل السّنّة . ص : ٣٠٧ . وانظر الشّريعة للآجري : ص:٢٨٣ . منهاج السّنّة : ١١١/٢ . مجموع الفتاوى : ٣/٣-٤ .

وإن كان عذابه دون عذاب الكفّار ، وخالفوهم في اسمه في الدّنيا فهو في منزلة بين المنزلتين : منزلة الإيمان ومنزلة الكفر ، فيسمّى فاسقاً . وأجروا عليه أحكام المسلمين في الدّنيا ، وبين المرجئة الّذين أخرجوا الأعمال عن مسمّى الإيمان ، فحكموا على صاحب الكبيرة بأنّه مؤمن كامل الإيمان ، وهو في الآخرة من أهل الجنّة .

وأهل السّنّة كانوا وسطاً بين الفئتين ، لم يخرجوا صاحب الكبيرة من الإيمان ، بل قالوا هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ، فلا يعطى اسم الإيمان المطلق ، ولا يجرّد من مطلق الإيمان ، وفي الآخرة إذا مات ولم يتب يكون تحت مشيئة اللّه إن شاء غفر له ، وإن شاء عذّبه ، ولا يخلّد في النّار كالكافر .[١]

وهم وسط في باب القدر بين القدريّة الّذين سلبوا اللّه قدرته على أفعال العباد ، وزعموا أنّهم خالقون لها ، وأخرجوا المعاصي عن إرادته ومشيئته لأنّه لا يحبّها ولا يرضاها ، وبين الجبريّة [٢] الّذين سلبوا الإنسان قدرته وإرادته ، وأنّه لا اختيار له ، وإنّما هو مجبور على فعله ، والفاعل الحقيقي هو اللّه ، وكلّ ما ينسب للعبد من فعل هو فاعله ، وأنّه محبوب له .

وذهب أهل السّنّة إلى أنّ أفعال العباد أفعال لهم ، ومخلوقة لله على الحقيقة ، وللعباد قدرة على فعلها وإرادة ، واللّه خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم . ففرّقوا بين الخلق والمخلوق ، والفعل والمفعول . واللّه يريد الكفر والمعاصي كوناً ولكنّه لا يحبّها ولا يرضاها شرعاً .[٣]

---

(١) انظر : المرجع السّابق : ١٥١/٣ ، ٣٥٥ ، ٣٧٤-٣٧٥ . وسطيّة أهل السّنّة :ص : ٣٣٤-٣٤٦ .

(٢) الجبريّة أو المجبرة : مشتقّة من الجبر وهو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرّبّ تعالى . وهم أصناف : فالجبريّة الخالصة : هي الّتي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً . والمتوسّطة : هي الّتي تثبت للعبد قدرة غير مؤثّرة . والثّالثة : هي من لم تثبت للقدرة الحادثة أثراً في الإبداع والإحداث ، وإنّما أثبتت أثراً ما سمّته الكسب . انظر : الملل والنّحل : ٨٥/١ . و انظر : التّعريفات : ص : ٤٠ .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى : ٣٧٣/٣-٣٧٤ . وسطيّة أهل السّنّة : ٣٦١-٣٨٧ . وانظر :منهاج السّنّة : ٢٩٨/٢ .

وهم وسط في أصحاب رسول اللّه ﷺ بين الخوارج المكفّرين لبعضهم والمعتزلة المفسّقين لجماعة منهم ، وبين الشّيعة الغالين في بعضهم والجافين في بعض منهم .

وأهل السّنّة تولّوهم جميعاً فلم يكفّروا ولم يفسّقوا ولا تبرّؤوا من أحد منهم ، بل يترضّون ويترحّمون ويستغفرون لهم ، ولا يسبّون ولا يشتمون أحداً منهم ، ويعتقدون أنّهم خير الأمّة بعد نبيّها ، ولا يدّعون عصمة أحد منهم ، بل هم بشر يقع منهم الخطأ والذّنب ، ولكن يلتمس لهم المخارج والمعاذير، ولا يشنّع عليهم ، وهم مع ذلك يطهّرون ألسنتهم عن الخوض فيما شجر بينهم .[1]

وبهذا العرض الموجز لهذه النّماذج الّتي أبانت لنا وسطيّة أهل السّنّة بين الفرق المنحرفة عن المنهج القويم والصّراط المستقيم يتّضح لنا وسطيّة المنهج الّذي حملوه ، والطّريق الّذي ساروا عليه .

وهذه السّمة من أبرز سمات هذا المنهج وأبلغها ، وهي أكثرها إيضاحاً لمعالمه وتميّزاً لحدوده .

وبعد ذكر هذه السّمات الّتي تتلخّص في : أنّ مصدر تلقي المنهج الحق القرآن والسّنّة ، وأنّ طريقه واحد لا يتعدّد ، ومستقيم ليس بمعوج ، وهو منهج كامل تامّ ، واضح جلي ، باقٍ إلى قيام السّاعة ، عامّ ، صالح لكلّ زمان ومكان ، وسط معتدل ، بعيد عن الغلو والجفاء . يتضح لنا أنّ الواجب على كلّ مسلم الوقوف على هذه السّمات والتّعرّف عليها ، والتّمسّك بها ليثبت على منهج الله تعالى ، فلا يعوج عنه ، ولا يلتفت إلى سواه ، ليسلم له دينه ، ويبقى له إيمانه .

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى : ٣/٣٧٥ . وسطيّة أهل السّنّة : ص : ٣٩٩-٤٢٥ .

الفصل الثّالث

عوامل الثّبات على المنهج الحق

وفيه تمهيد ومباحث :

التّمهيد

أهميّة الثّبات على المنهج

إنّ الثّبات على المنهج هو الاستقامة على صراط اللّه المستقيم ، وشرعه القويم ، وطريقه الموصل إلى جنّات النّعيم ، الّذي من سلكه واستقام عليه نجا ، ومن انحرف عنه ضلّ وغوى ، وتشعّبت به طرق الضّلال ، وأقفلت أمامه طرق النّجاة . فالثّابتون عليه هم الفائزون ، والزّائغون عنه هم الهالكون .

ولا مقارنة بين من فقد الثّبات فعجز عن السّير على منهج اللّه ، وبين من ثبت فوفّقه اللّه للسير عليه . فالأوّل كمن يسير منحنياً لا مستوياً ، لا يتبيّن الطّريق ولا تتّضح له معالمه ، ولايدري أين يسلك ، ، وكيف يذهب ؟ فهو تائه ضال . والثّاني يسير معتدلاً مستقيماً ناظراً إلى ما بين يديه ، وهو مع ذلك على طريق واضح بيّن مستقيم ، وهكذا قال سبحانه في شأن هذين السّائرين : ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الملك:٢٢][١] . والجواب : لا شك أنّ من يمشي سوياً على صراط مستقيم أهدى وأقوم .

والثّابت على المنهج ، المستقيم عليه ، كمثل رجل أحياه اللّه بنور العلم والإيمان والطّاعة ، فصار يمشي مستقيماً بين النّاس ، متبصّراً في أموره ، مهتدياً

---

(١) وانظر معنى الآية في : جامع البيان : ٢٩/٩-١٠ . تفسير القرآن العظيم : ٦٢٣/٤ . الزّبدة من فتح القدير : ص:٧٥٦ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٨١٢-٨١٣ .

لسبيله ، عارفاً للخير ، مُؤْثراً له ، مجتهداً في تنفيذه في نفسه وغـيره ، عارفـاً بالشّرّ ، مُبْغضاً له ، مجتهداً في تركه وإزالته عن نفسه وعن غيره ، فلا يستوي هو ومن ظلّ في ظلمات الجهل والغي والكفر والمعاصي ، والتبست عليه الطّرق ، وأظلمت عليه المسالك ، وزُيّن له سوء عمله فرآه حسناً ، وفارقه الثّبات ، وزلّت به القدم . وفي هذين يقول الباري جلّ وعلا : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٢] (١) .

فالثّبات على المنهج حياة ونور ، والزّيغ عنه موت وظلمة ، بل هو حيرة وضلالة وجهل ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنعام:٧١].

قال ابن جرير (رحمه الله) :

" هذا مثل ضربه اللّه تعالى لمن كفر باللّه بعد إيمانه ، فاتّبع الشّياطين من أهل الشّرك باللّه ، وأصحابه الّذين كانوا أصحابه في حال إسلامه ، المقيمون على الدّين الحقّ ، يدعونه إلى الهدى الّذي هم عليه مقيمون ، والصّواب الّذي هم به متمسّكون ، وهو له مفارق ، وعنه زائل ، يقولون له : ائتنا فكن معنا على

(١) انظر : تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٣٤ . وانظر : جامع البيان : ٨/٢١-٢٢ . تفسير القرآن العظيم : ٢/٢٧٦ .

استقامة وهدى ، وهو يأبى ذلك ، ويتّبع دواعي الشّيطان ، ويعبد الآلهة والأوثان " .[1]

وإن كان هذا مثلاً ضربه اللّه لمن حاد عن المنهج وانحرف عنه ، ولمن بقي وثبت عليه ، فإنّ رسول اللّه ﷺ ضرب لنا مثلاً محسوساً أوضح فيه كيف يسير الإنسان على المنهج القويم ويثبت عليه ، متجنّباً أسباب الانزلاق والانحراف عنه .

فقال في حديث النّواس بن سمعان ﷺ : " ضرب اللّه مثلا صراطاً مستقيماً ، على كتفي الصّراط سوران فيهما أبواب مفتّحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى الصّراط داع يدعو يقول : يا أيّها النّاس اسلكوا الصّراط جميعا ولا تعوجوا[2] ، وداع يدعو على الصّراط ، فإذا أراد أحدكم فتح شيء من تلك الأبواب قال: ويلك لا تفتحه فإنّك إن تفتحه تلجه . فالصّراط الإسلام ، والسّتور حدود اللّه ، والأبواب المفتّحة محارم اللّه ، والدّاعي الّذي على رأس الصّراط كتاب اللّه ، والدّاعي من فوق واعظ اللّه يذكر في قلب كلّ مسلم " .[3]

---

(١) جامع البيان : ٧/٢٣٥-٢٣٦ . وانظر : تفسير القرآن العظيم : ٢/٢٣٢-٢٣٣ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٢٣ .

(٢) أي لا تلتفتوا وتميلوا عنه . انظر : غريب الحديث للخطّابي : ٢/٢٧٣ . النّهاية في غريب الحديث: ٣/٣١٥-٣١٦ .

(٣)سنن التّرمذي: نحوه في: كتاب الأدب : (٤٠) . باب ما جاء في مثل اللّه لعباده : (٧٦) . برقم: (٢٨٥٩) . وقال : " حديث حسن غريب " . و قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٤٥٧ .
مسند أحمد: بلفظ مقارب في : ٤/١٨٢ . و نحوه في: ٤/١٨٣ .
مستدرك الحاكم: بلفظه في :١/١٤٤ – ١٤٥. وقال : " هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولا أعرف له علّة ، و لم يخرجاه " . و قال الذّهبي (رحمه الله): " على شرط مسلم ، ولا علّة له " . و انظر : الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية : ١/٢٩٦ .

فهذا تصوير بليغ من رسول اللّه ﷺ لمنهج اللّه تعالى ، وللسّائر عليه الّذي وُفّق للثّبات ، وجُنّب الزّلل .

وقد بَيَّن لنا السّلف رحمهم اللّه كيف يتمّ ثبات المسلم على المنهج ، وتتحقّق له الاستقامة عليه .

قال عبد اللّه بن مسعود ﷺ :

" عليكم بالطّريق فلئن لزمتموه لقد سبقتم سبقاً بعيداً ، ولئن خالفتموه يميناً وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيداً " (١) .

وكان قتادة (رحمه الله) إذا تلا : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ [فصلت:٣٠ ، الأحقاف : ١٣] قال :

" إنّكم قد قلتم ربّنا اللّه فاستقيموا على أمر اللّه وطاعته وسنّة نبيّكم ، وامضوا حيث تؤمرون ، فالاستقامة أن تلبث على الإسلام ، والطّريقة الصّالحة ، ثمّ لا تمرق منها ، ولا تخالفها ، ولا تشذ عن السّنّة ، ولا تخرج عنها ، فإنّ أهل المروق من الإسلام منقطع بهم يوم القيامة ، ثمّ إيّاكم وتصرّف الأخلاق ، واجعلوا الوجه واحداً ، والدّعوة واحدة ، فإنّه بلغنا أنّه من كان ذا وجهين وذا لسانين كان له يوم القيامة لسانان من نار" (٢) .

---

(١) المرجع السّابق : ٣٣٢/١ . و انظر : الزّهد لابن أبي عاصم : ص : ٣٥٨ .

(٢) الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية : ٣١٨/١ .

وقال أبو العالية (رحمه الله)[1] :

" تعلّموا الإسلام ، فإذا تعلّمتموه فلا ترغبوا عنه ، وعليكم بالصّراط المستقيم ، فإنّ الصّراط المستقيم الإسلام ، ولا تنحرفوا عن الصّراط المستقيم يميناً ولا شمالاً ، وعليكم بسنّة نبيّكم – والّذي كان عليه أصحابه – [2] وإيّاكم وهذه الأهواء الّتي تلقي بين أهلها العداوة والبغضاء " . فردّدها مراراً .[3]

والمؤمنون الصّادقون هم السّائرون على هذا المنهج ، الثّابتون عليه كما قال سبحانه : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾ [النساء:١٧٥].

فلمّا آمنوا باللّه وصدّقوا به ، وأقرّوا بوحدانيته ، وما بعث به رسول الهدى ﷺ ، وتمسّكوا بذلك ، وعدهم اللّه بعظيم نعمه ، وجزيل ثوابه ، ووفّقهم إلى سلوك الصّراط المستقيم والمنهاج القويم ، وأعانهم بالثّبات عليه حتّى يلقوه فينالوا رحمته ورضوانه .

---

(١) هو رُفيع بن مِهْران أبو العالية الرّياحي مولاهم البصري ، الفقيه ، المقريء . أدرك الجاهليّة وأسلم بعد موت النّبي ﷺ بسنتين . إمام كثير الحديث ، وكثير الإرسال . توفي سنة : ٩٠هـ . وقيل : بعدها .

و انظر : الطّبقات الكبرى: ١١٢/٧ . طبقات خليفة: ص : ٢٠٢ . التّاريخ الكبير: ٣٢٦/٣ . معرفة الثّقات: ٤١٢/٢ . الجرح والتّعديل: ٥١٠/٣ . ثقات ابن حبّان: ٢٣٩/٤ . مشاهير علماء الأمصار: ٩٥/١ . التّعديل والتّجريح: ٥٧٨/٢ . تهذيب الكمال : ٢١٤/٩ . تذكرة الحفّاظ: ٦١/١ . الكاشف: ٣٩٧/١ . جامع التّحصيل: ص : ١٧٥ . الإصابة : ٥١٤/٢ ، ٢٩٦/٧ . تهذيب التّهذيب: ٢٤٦/٣ . تقريب التّهذيب: ٢١٠/١ . لسان الميزان: ٢١٧/٧ ، ٤٧١ .

(٢) زيادة من شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة : ٦٣/١ .

(٣) الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية : ٣٣٨/١ .

قال ابن جرير (رحمه الله) في قوله تعالى: ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ :

" يوفّقهم لإصابة فضله الّذي تفضّل به على أوليائه ، ويسدّدهم لسلوك منهج من أنعم عليه من أهل طاعته ، ولا قتفاء آثارهم ، واتّباع دينهم ، وذلك هو الصّراط المستقيم ، وهو دين اللّه الّذي ارتضاه لعباده ، وهو الإسلام " (١) .

وقال ابن كثير (رحمه الله) :

" ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾: أي طريقاً واضحاً قصداً قواماً ، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، وهذه صفة المؤمنين في الدّنيا والآخرة ، فهم في الدّنيا على منهاج الاستقامة ، وطريق السّلامة في جميع الاعتقادات والعمليّات ، وفي الآخرة على صراط اللّه المستقيم المفضي إلى روضات الجنّات" (٢) .

وفي هذه الآية تنبيه من اللّه لعباده المؤمنين أن يقوموا بما أُمروا به ليثبتوا على صراط اللّه ، فيفوزوا بجنّة اللّه .

وهنالك عوامل عدّة ، ووسائل متعدّدة تعين المؤمن على الثّبات على المنهج ، أذكر منها في المباحث التّالية ما يناسب المقام ويتحقّق به القصد .

---

(١) جامع البيان : ٦/٤٠ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ١/٩٠٢ .

﴿ المبحث الأوّل ﴾

العلم بالمنهج

إنّ هذا المنهج الّذي جعله اللّه تعالى طريقاً للوصول إلى مرضاته يحتاج من السّالك فيه لعلم تتّضح به رؤيته ، وتتميّز به أعلامه ، وتتكشف له المزالق والعقبات الّتي يمكنها أن تعترض طريقه ، حتّى يتأهل للسّير فيه ، ويتمكّن من الثّبات عليه .

وقد أرشدنا اللّه تعالى إلى هذه الوسيلة الّتي هي من أهم وسائل الثّبات على المنهج ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف:١٠٨].

أي قل يا محمّد لأمّتك هذا طريقي ومنهاجي الموصل إلى اللّه وإلى دار كرامته ، أسلكه وأسير عليه ، وأدعو النّاس إلى السّير عليه ، وأنا على علم ويقين ومعرفة تامّة به ، وكلّ من اتّبعني وسار عليه ودعا النّاس إليه كذلك .(١)

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" السّائر إلى اللّه والدّار الآخرة ، بل كلّ سائر إلى مقصد ، لا يتمّ سيره ولا يصل إلى مقصوده ، إلاّ بقوّتين : قوّة علميّة ، وقوّة عمليّة . فبالقوّة العلميّة يبصر منازل الطّريق ، ومواضع السّلوك فيقصدها سائراً فيها ، ويجتنب أسباب الهلاك ، ومواضع العطب ، وطرق المهالك المنحرفة عن الطّريق الموصل .

فقوّته العلميّة كنور عظيم بيده يمشي في ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظّلمة ،

---

(١) وانظر في معنى الآية : جامع البيان : ١٣/٧٩-٨٠ . التفسير الكبير : ١٨/٢٢٥ . الجامع لأحكام القرآن : ٩/٢٧٤ . تفسير القرآن العظيم : ٢/٧٦٦-٧٦٧ . روح المعاني : ١٣/٦٧ . فتح البيان :٦/٤١٥-٤١٦ . محاسن التّأويل:٩/٣٦١٠-٣٦١١ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٣٦١ .

فهو يبصر بذلك النّور ما يقع الماشي في الظّلمة في مثله من الوهاد[1] والمتالف ، ويعثر به من الأحجار والشّوك وغيره ، ويبصر بذلك النّور أيضاً أعلام الطّريق وأدلّتها المنصوبة عليها فلا يضلّ عنها ، فيكشف له النّور عن الآمرين : أعلام الطّريق ومعاطبها .

وبالقوّة العمليّة يسير حقيقة ، بل السّير هو حقيقة القوّة العمليّة ، فإنّ السّير هو عمل المسافر ، وكذلك السّائر إلى ربّه إذا أبصر الطّريق وأعلامها وأبصر المعاثر والوهاد والطّرق النّاكبة عنها فقد حصل له شطر السّعادة والفلاح ، وبقي عليه الشّطر الآخر وهو أن يضع عصاه على عاتقه ، ويشمّر مسافراً في الطّريق قاطعاً منازلها منزلة بعد منزلة " [2] .

فمن أراد السّير على منهج رسول اللّه ﷺ والثّبات عليه فعليه أن يمتطي صهوة العلم الشّرعي المستمدّ من كتاب اللّه وسنّة رسوله ، فهو الّذي يكشف له حقيقة هذا المنهج .

ولمّا جهلت الفرق الزّائغة عن منهج أهل السّنّة والجماعة حقيقة ذلك وقعت في التّناقض والاضطّراب ، والقول بالظّنّ والحكم بالهوى . لقد جهلت نصوص الشّرع الّتي يستمدّ المنهج منها بقاءه ووجوده ودوامه ، وعجزت عن فهم ما وصل إليها منها ، فلجأت إلى العقول القاصرة ، والآراء الفجّة ، والظّنون الواهمة ، فتوهّمت الحقّ باطلاً ، والباطل حقّاً ، والضّلال هدى ، والهدى ضلالاً ، فعصفت بها رياح البدع ، وجرفتها أمواج التّفرّق والاختلاف عن المنبع الصّافي ، والمنهج القويم .

---

(١) الوَهْدُ والوَهْدَةُ: المطمئنُّ من الأَرض ، والمكان المنخفض كأَنّه حفرة ، و الوَهْدُ يكون اسماً للحفرة، والجمع أَوهُدٌ ووَهْدٌ و وِهادٌ . و الوَهْدةُ : الهُوَّةُ في الأَرض . لسان العرب : ٣/٤٧٠-٤٧١ . وانظر : مختار الصّحاح : ص : ٧٣٨ . القاموس المحيط : ص : ٤١٨ .

(٢) طريق الهجرتين :ص : ٢٨٤-٢٨٥ .

قال الإمام الشّاطبي (رحمه الله) :

" إنّ أصل حدوث الفرق إنّما هو الجهل بمواقع السّنّة ، وهو الّذي نبّه عليه الحديث بقوله : اتّخذ النّاس رؤساء جهالاً " (١)

وقال ابن القيّم (رحمه الله) :

" إنّ الاختلاف سببه اشتباه الحقّ وخفاؤه ، وهذا لعدم العلم ، الّذي يميّز بين الحقّ والباطل " .(٢)

ولذا كان العلم بمنهج السّلف وفهمه فهماً سليماً أداة فعّالة للثّبات عليه .

ويضاف إلى ذلك أيضاً العلم بالسّبل المنحرفة عن جادّة الصّواب والوقوف على مناهجها حتّى لا يقع الإنسان في اللّبس ، ويختلط عليه الحقّ بالباطل ، وقد قال الرّب سبحانه :﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام:٥٥] .

فمعرفة الإنسان بالمناهج المضادّة للمنهج الحقّ أمر مطلوب شرعاً ، حتّى يتميّز له المنهج الحقّ عن غيره ، ويظهر له حسنه وسلامته وصحّته فيعينه ذلك على البقاء عليه ، ويدفعه لمواصلة السّير ومداومته .(٣)

وقد قام أهل العلم من أتّباع هذا المنهج ببيانه للنّاس بعد بيان الله ورسوله ، وأوضحوه أتمّ الإيضاح ، وألّفوا في ذلك الكتب ودوّنوا الدّواوين ، ونصروه وأقاموا الحجج في نصرته ، وأزالوا الشّبه عنه ، وبيّنوا المناهج المنحرفة وحذّروا من سلوكها ، وكشفوا عن ما بها من زيغ وضلال . وهذه كتبهم الّتي ملئت بها

---

(١) الاعتصام : ٢٣٥/٢ . والحديث سبق تخريجه . انظر : ص : ١٣٥ .

(٢) أعلام الموقّعين : ٢٥٨/١ .

(٣) وانظر تفصيلاً قيّماً للإمام ابن القيّم (رحمه الله) في معرفة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين : من كتابه الفوائد : ص:١٠٨-١١١.

المكتبات الخاصّة والعامّة ، وهي أعظم شاهد على ما قام به علماء أهل السّنّة من خدمات جليلة في إبراز منهج السّلف والذّب عنه .

ولا يخلو عصر من عصور الإسلام منذ أن بزغ فجره وإلى يومنا هذا من قائم لله بالحجّة ، مدافع عن هذا المنهج بلسانه وبنانه حتّى وضح أمره ، وانجلى شأنه ، ووُجِدَ مَنْ يحمله ويدافع عنه في كلّ عصر وقطر من أقطار هذا العالم .

المبحث الثاني

الأمر بلزوم المنهج

لقد أمر المولى سبحانه وتعالى في آيات كثر بلزوم صراطه المستقيم ، وأوجب اتّباعه على الخلق أجمعين فقال سبحانه : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقال : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [آل عمران:١٠١] .

وقال : ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ [إبراهيم:١].

وقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ ﴾ [المؤمنون:٧٣].

وبيّن سبحانه وتعالى أنّ المتمسك بوحيه ، والمنصاع لأمره هو الّذي يمكنه السّير على الطّريق والهداية إليه ، ومن لا فلا ، وأنّ أهل العلم والحقّ عرفوا ذلك وتيقّنوا به فلزموه ، فقال: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾ [سبأ:٦] .

وقال ﷺ في حديث العرباض بن سارية ﷺ : " عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الرّاشدين من بعدي ، تمسكوا بها وعضّوا عليها بالنّواجذ " [١] .

---

(١) سبق تخريجه انظر : ص : ٨٣١ .

وسنّته طريقه ومنهجه .

وقال في حديث النّواس بن سمعان ﷺ : " يا أيّها النّاس ادخلوا إليـــه – أي الصّراط – ولا تعوجوا " [1] .

وكلّ هذه الأدلّة وغيرها الكثير آمرة بلزوم الصّراط المستقيم وهو المنـــهج القويم الّذي تركنا عليه رسول اللّه ﷺ . وشأنه أنّه يختلف عن مناهج أهل الأرض جميعاً لأنّه قائم على الاعتصام بحبل اللّه ، والتّسليم لرسول اللّه ﷺ ، والانقياد لـه ظاهراً وباطناً لأنّه الهادي إليه ، والدّليل القائد للسّير عليه ، والمبلّغ له عن ربّه ، ولذا قال له ربّه :﴿ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الحج:٦٧] .

وقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الشورى:٥٢].

فمن لزم أمر رسول اللّه ﷺ وحكّمه في قوله وفعله واتّبع ســـنّته ، والـــتزم بشرعه فهو الّذي يبقى على هذا الصّراط ويثبت عليه .

قال الطّحاوي (رحمه الله) :

" ولا تثبت قدم الإسلام إلاّ على ظهر التّسليم والاستسلام " [2] .

وبيّن ذلك الشّارح بقوله :

" هذا من باب الاستعارة ، إذا القدم الحسّي لا تثبت إلاّ على ظهر شـــيء ، أي لا يثبت إسلام من لم يسلّم لنصوص الوحيين ، وينقاد إليـــها ، ولا يعـــترض عليها ، ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسه " [3] .

---

(١) سبق تخريجه انظر : ص : ٨٥٤ .

(٢) متن العقيدة الطّحاوية للإمام أبي جعفر الطّحاوي الحنفي . طبعة : مكتبة ابن تيمية . القاهرة . الطّبعـــة الأولى : ١٤٠٨هـ ـــ ١٩٨٨م : ص : ١٠ .

(٣) شرح العقيدة الطّحاوية : ص : ٢١٩ . طبعة المكتب الإسلامي .

ولذا جاءت أقوال السّلف (رحمهم الله) ، داعية للتّمسّك بهذا المنهج ، والسّير عليه ، والتزامه ، وعدم الانحراف عنه ، لأنّه المنهج الّذي اختاره اللّه للعباد ، فلا يجوز لهم العدول عنه .

قال محمّد بن سيرين (رحمه الله) :

" الرّجل ما كان مع الأثر فهو على الطّريق " [(١)] .

وقال شاذ بن يحيى (رحمه الله) [(٢)] :

" ليس طريق أقصر إلى الجنّة من طريق من سلك الآثار " [(٣)] .

وقال الإمام ابن بطّة (رحمه الله) :

" فالزموا رحمكم اللّه الطّريق الأقصد ، والسّبيل الأرشد ، والمنهاج الأعظم من معالم دينكم ، وشرائع توحيدكم ، الّتي اجتمع عليها المختلفون ، واعتدل عليها المعترفون : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٥٣]. وترك الدّخول في الضّيق الّذي لم نخلق له " .[(٤)]

وقال الإمام محمّد بن الحسين الآجرّي (رحمه الله) :

" فيما ذكرت في هذا الجزء من التّمسّك بشريعة الحقّ والاستقامة على ما ندب اللّه عزّ وجلّ إليه أمّة محمّد ﷺ ، وندبهم إليه الرّسول ﷺ : ما إذا تدبّره العاقل علم أنّه لزمه التّمسّك بكتاب اللّه عزّ وجلّ ، وسنّة رسوله ﷺ ، وسنّة

---

(١) الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية : ٣٥٦/١ .

(٢) شاذ بن يحيى الواسطي . شيخ صدوق ، مقبول الحديث . ذكره الإمام أحمد بخير .
و انظر : الجرح والتّعديل: ٣٩٢/٤ . تهذيب الكمال : ٣٤١/١٢ . سير أعلام النّبلاء : ٤٣٤/١٠ . تهذيب التّهذيب: ٢٦٣/٤ . تقريب التهذيب: ٢٦٣/١ .

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة : ٩٨/١ .

(٤) الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية : ٤٢١/١ .

الخلفاء الرّاشدين ، وجميع الصّحابة ﷺ ، وجميع من تبعهم بإحسان ، رحمهم اللّه ، وأئمّة المسلمين ، وترك المراء والجدال والخصومات في الدّين ، ومجانبة أهل البدع ، والاتّباع وترك الابتداع ، وقد كفانا علم من مضى من أئمّة المسلمين الّذين لا يستوحش من ذكرهم عن مذاهب أهل البدع والضّلالات " [١] .

فمن التزم بنصوص الوحي ، ولم يفرّق بين متواترها وآحادها قبولاً وردّاً في عقيدة أو غيرها ، ولم يعارضها برأي أو عقل أو ذوق أو هوى ، أو يحكّم فيها آراء الرّجال وتُرُّهات أفكارهم ، واستجاب لها وانقاد لحكمها ، فهو الّذي أمن سلامة السّير على المنهج ، وتجنّب الزّلل والسّقوط عنه ، ووُفِق في الثّبات عليه .

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" ومدار السّعادة الدّنيويّة والأخرويّة على الاعتصام باللّه والاعتصام بحبله ، ولا نجاة إلاّ لمن تمسّك بهاتين العصمتين . فأمّا الاعتصام بحبله : فإنّه يعصم من الضّلالة . والاعتصام به : يعصم من الهلكة .

فإنّ السّائر إلى اللّه كالسّائر على طريق نحو مقصده ، فهو محتاج إلى هداية الطّريق ، والسّلامة فيها ، فلا يصل إلى مقصده إلاّ بعد حصول هذين الأمرين له . فالدّليل كفيل بعصمته من الضّلالة ، وأن يهديه إلى الطّريق ، والعُدّة والقوّة والسّلاح الّتي بها تحصل له السّلامة من قطّاع الطّريق وآفاتها .

فالاعتصام بحبل اللّه : يوجب له الهداية . واتّباع الدّليل والاعتصام باللّه يوجب له القوّة والعدّة والسّلاح والمادّة الّتي يستلئم بها في طريقه " .[٢]

---

(١) الشّريعة : ص : ٦٣ .

(٢) مدارج السّالكين : ١/٤٦٠-٤٦١ .

﴿ المبحث الثّالث ﴾

الحذر من العدول عن المنهج

لقد حذّر اللّه أيّما تحذير ، وهدّد أيّما تهديد ، وتوعّد وأنذر من خالف طريق رسول اللّه ﷺ وسلك طريقاً غيره ، واتّبع منهجاً سواه من مناهج أهل الأرض الزّائغة عن الصّراط المستقيم . فقال سبحانه : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء:١١٥].

والّذي يشاقّ الرّسول ﷺ هو الّذي يأخذ له شقّاً وجانباً وصفّاً غير الصّفّ والجانب والشّقّ الّذي يأخذه النّبي ﷺ ، وبالتّالي يتّخذ له منهجاً غير المنهج الّذي سار عليه رسول اللّه ﷺ ، و يختار له طريقاً غير طريقه . فحينئذ يولّيه اللّه ما تولّى ، ويورده جهنّم وسآت مصيراً.(١)

وقال سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾

[الفرقان:٢٧-٢٩].

فقد أخبر اللّه سبحانه عن ندم هذا الظّالم الّذي فارق طريق الرّسول ﷺ وما جاء به من عند اللّه تعالى ، وسلك طريقاً أخرى غير سبيله ﷺ ، فإنّه يندم يوم القيامة حيث لا ينفعه النّدم ، ويعضّ على يديه حسرة وأسفاً ، وهو يقول :

---

(١) وانظر معنى الآية : في تفسير القرآن العظيم : ١/٨٤٢-٨٤٣ . وقد سبق كلام سيّد قطب (رحمه الله) عن الآية قريباً .انظر : ص : ٨٣٢ .

﴿ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ۝٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ۝٢٨ ﴾ [الفرقان:٢٧-٢٨] . لأنّ فلاناً صرفه عن الهدى ، وعدل به عن الصّراط المستقيم إلى طريق الضّلال ، وأبعده عن مصدر الهدى وهو القرآن الكريم والذّكر الحكيم .(١)

وهذه الآيات كقوله تعالى : ﴿ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ۝٦٨ ﴾ [الأحزاب:٦٦-٦٨].

وهذا شأن أهل الضّلال والبدع الّذين ابتعدوا عن المنهج القويم والصّراط المستقيم ، وصدّوا غيرهم عن سبيل اللّه ، ويتقدّمهم السّادة والكبراء منهم الّذين استعبدوا النّاس لأهوائهم ومصالحهم وغاياتهم الحابطة ، وأهدافهم الرّخيصة ، والّذين سعوا جادّين لتشيين سبيل اللّه وتهجينها ، لتصير معوجّة منحرفة غير مستقيمة ، كما قال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ۝٤٥ ﴾ [الأعراف:٤٥] . وقال : ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝١٩ ﴾ [هود:١٩]. فينحرف النّاس عنها ، وينقادون لهؤلاء الضّالين الزّائغين عن الهدى ، المنحرفين عن الحقّ .

فهم زاهدون فيها مزهّدون لغيرهم ، مبتعدون عنها صادّون لسواهم ، همّهم أهدافهم وشهواتهم وإن كان ذلك على حساب منهج اللّه وسبيل رسول اللّه ﷺ .

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم : ٣/٥٠٦-٥٠٧ . وانظر : زبدة التّفسير من فتح القدير :ص: ٤٧٣ . تيسير الكريم الرّحمن : ص:٥٣٠ .

وقد ضجّ العالم الإسلامي اليوم كما ضجّ من قبل بهذه النّوعيّة من البشر الّذين قعدوا على طريق الحقّ ليصرفوا النّاس عنه ، كما قعد متبوعهم اللّعين من قبل عليه ، وتحدّى ربّ العزّة في إبعاد عباده عن صراطه المستقيم ، وذلك عندما قال : ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٦-١٧].

فكان جواب الرّبّ سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٨].

وهذا شأن من صدّ عن سبيل اللّه ، وأراد انحرافه واعوجاجه ، وصرف النّاس عنه .

وقد ذكر الإمام البربهاري (رحمه الله) أنّ المنحرفين عن صراط اللّه على نوعين فقال :

"واعلم أنّ الخروج عن الطّريق على وجهين : أمّا أحدهما : فرجل قد زلّ عن الطّريق وهو لا يريد إلاّ الخير ، فهو لا يقتدى بزلّله ، فإنّه هالك . ورجل عاند الحقّ ، وخالف من كان قبله من المتّقين ، فهو ضالّ مضلّ ، شيطان في هذه الأمّة ، حقيق على من عرفه أن يحذّر النّاس منه ، ويبيّن لهم قصّته ، لئلا يقع في بدعته أحد فيهلك " .[1]

والنّوع الثّاني هم الّذين صرفوا هذه الأمّة – إلاّ من رحم اللّه – عن منهج اللّه بما زيّنوه من مناهج بشريّة تحادّ وتضادّ المنهج الحقّ ، فزادوا الأمّة ضياعاً

---

(١) طبقات الحنابلة : ١٩/٢ . وهو في كتاب شرح السّنة لأبي محمّد الحسن بن علي بن خلف البربهاري . تحقيق محمّد بن سعيد القحطاني . طبعة دار ابن القيّم . الطّبعة الأولى : ١٤٠٨هـ . الدّمام . ص : ٢٣ . وبالنّص زيادة طفيفة .

وتفلّتاً وانحرافاً ، فتفرّقت شيعاً وأحزاباً ، وذهب ريحها ، ودبّ إليها الفشل والهوان والذّل ، وتلك عاقبة الخروج عن منهج اللّه تعالى .

بل سلكت الأمّة بذلك مسلك اليهود والنّصارى – إلاّ من هدى اللّه – الّذين حذّرنا رسول اللّه ﷺ من مسلكهم حيث قال:" لتتّبعنّ سنن[1] من قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتّى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه " قلنا : يا رسول اللّه : اليهود والنّصارى ؟ قال : فمن " ؟ [2] .

ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" كان السّلف يرون أن من انحرف من العلماء عن الصّراط المستقيم : ففيه شبه من اليهود ، ومن انحرف من العبّاد ففيه شبه من النّصارى ، كما يرى في أحوال منحرفة أهل العلم ، من تحريف الكلم عن مواضعه ، وقسوة القلوب ، والبخل بالعلم ، والكبر ، وأمر النّاس بالبر ونسيان أنفسهم ، وغير ذلك ، وكما يرى في منحرفة أهل العبادة والأحوال من الغلوّ في الأنبياء والصّالحين ، والابتداع في العبادات من الرّهبانيّة والصّور والأصوات " .[3]

وقد طغت هذه المناهج الباطلة وكثر أربابها وأتباعها والدّعاة إليها ، وقام عليها منظّرون ، ورؤوس جهال بشرع اللّه ، واقتطع كلّ منهم فئة من الأمّة يبثّ فيها آراءه وأفكاره وتُرّهاته وبدعه ، وكلّ فئة تناهض الأخرى ، وتشاقّها ، حتّى التبس الحقّ بالباطل أمام كثير من طلاّب الحقّ ، وأوعر الطّريق إلى معرفة

---

(١)السّنن : الطّريقة والسّيرة . انظر : النّهاية في غريب الحديث: ٤٠٩/٢ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب أحاديث الأنبياء : (٣٦/٦٠) . باب ما ذكر عن بني إسرائيل : (٥١/٥٠) . برقم: (٣٤٥٦) . ص : ٧٣٣ . و بلفظ مقارب في: كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة : (٧١/٩٦) . باب قول النّبي ﷺ : " لتتّبعنّ سنن من كان قبلكم " : (١٥/١٤) . برقم: (٧٣٢٠) . ص : ١٥٣٩ . عن أبي سعيد ﷺ . صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب العلم : (٤٧) . باب اتّباع سنن اليهود والنّصارى : (٣) . برقم: (٢٦٦٩) . ٢٠٥٤/٤ .

(٣) مجموع الفتاوى : ٦٥/١ .

المنهج الصّحيح ، إلاّ من وفّق اللّه وهدى إلى منهج السّـــلف الصّـــالح ، وقليـــل أولئك .

وهنالك أمور تعارض الأمر بلزوم المنهج ، وتؤدّي إلى العـــدول عنـــه ، وتصرف السّائر عن الثّبات عليه . أورد أهمّها في المطالب الآتية :

﴿المطلب الأوّل﴾

اتّباع الهـوى

الهوى هو ميل النّفس إلى الشّيء ، أو ميل الطّبع إلى ما يلائمه . ولمّا كـان الضّرر منه غالباً لم يذكره اللّه في كتابه إلاّ ذمّة .[1]

فقال سبحانه : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات:٤٠-٤١] .

وقـال : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان:٤٣-٤٤].

وقـال : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجاثية:٢٣].

وبيّن سبحانه أنّ الهوى يناقض الاستجابة لأمر اللّه ورسوله والتّسليم لـهما. فقـال : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص:٥٠].

بل اتّباع الهوى من أسباب الضّلال والانحراف عن الحقّ ، ولذا نزّه اللّـه رسوله ﷺ عنه فقـال : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم:١-٤].

---

(١) انظر : روضة المحبّين : ص : ٤٦٩ .

فنزّهه عن الضّلال والغواية اللّذين هما الجهل والظّلم ، فالضّال هو الّذي لا يعلم الحقّ ، والغاوي الّذي يتّبع هواه ، وأخبر أنّه ما ينطق عن هوى النّفس ، بل هو وحي أوحاه اللّه إليه .(١)

وبيّن سبحانه أنّ الهوى يضلّ عن الصّراط المستقيم ، ويصرف صاحبه عن المنهج القويم ، فقال جلّ وعلا : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص:٢٦] (٢) .

وقال لرسوله ﷺ : ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الجاثية:١٨-١٩].

يقول ابن جرير (رحمه الله) :

" يقول تعالى ذكره لنبيّه محمّد ﷺ : ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ ﴾ يا محمّد من بعد الّذي آتينا بني إسرائيل الّذين وصفت لك صفتهم ﴿ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ ﴾ يقول : على طريقة وسنّة ومنهاج من أمرنا الّذي أمرنا به من قبلك من رسلنا ﴿ فَٱتَّبِعۡهَا ﴾ يقول : فاتّبع تلك الشّريعة الّتي جعلناها لك

---

(١) مجموع الفتاوى : ٣/٣٨٤ .

(٢) وانظر معنى الآية في : جامع البيان : ٢٣/١٥١-١٥٢ . طبعة دار الفكر . تفسير القرآن العظيم : ٤/٥٠ . تيسير الكريم الرّحمن : ص: ٦٥٨ .

﴿ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ يقول : ولا تتبّع ما دعاك إليه الجاهلون باللّه الّذين لا يعرفون الحقّ من الباطل ، فتعمل به ، فتهلك إن عملت به " [١] .

فاتّباع الهوى هو أصل الزّيغ عن الصّراط المستقيم .[٢] لأنّ صاحب الهوى لا ينظر إلى الدّليل نظر المستبصر به ، المفتقر إليه كي يسير على نوره ، ويهتدي بهداه ، وينقاد إليه ، وإنّما يحكّم هواه أوّلاً ثمّ يلجأ إلى الأدلّة ليؤيّد بها ما حكم به هواه ، وهذا أصل ضلال الفرق الّتي خالفت منهج أهل السّنّة والجماعة ، وشطّت عنه .

قال الشّاطبي (رحمه الله) :

" سمّي أهل البدع أهل الأهواء لأنّهم اتّبعوا أهواءهم فلم يأخذوا الأدلّة الشّرعيّة مأخذ الافتقار إليها ، والتّعويل عليها ، حتّى يصدروا عنها ، بل قدّموا أهواءهم ، واعتمدوا على آرائهم ، ثمّ جعلوا الأدلّة الشّرعيّة منظوراً فيها من وراء ذلك " [٣] .

وهؤلاء هم الّذين عناهم رسول اللّه ﷺ بقوله : "وإنّه سيخرج في أمّتي أقوام تَجارَى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكَلَبُ بصاحبه ، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلاّ دخله " [٤] .

فقد تمكّنت الأهواء في قلوبهم كما يتمكّن داء الكلب من صاحبه ، فلا ينفع فيه الدّواء حتّى صرفتهم عن منهج السّلف الصّالح ، وألقت بهم في مصافّ البدع والضّلالات فتفرّقوا شذر مذر .

---

(١) جامع البيان : ١٤٦/٢٥ .

(٢) الاعتصام : ١٧٩/٢ .

(٣) المرجع السّابق : ١٧٦/٢ .

(٤) سبق تخريجه انظر : ص : ٩٥ .

وانظر : معناه في الاعتصام : ٢٦٧/٢-٢٦٨ .

ومن هنا حذّر السّلف (رحمهم الله) من اتّباع الأهواء ومجاراتها .

قال ابن عمر (رضي الله عنهما) :

" ما فرحت بشيء من الإسلام أشدّ فرحاً بأنّ قلبي لم يدخله شيء من هذه الأهواء " (١)

قال رجل لابن عبّاس (رضي الله عنهما) :

" الحمد لله الّذي جعل هوانا على هواكم ، فقال : كلّ هوى ضلالة " . (٢)

قال أبو معشر (رحمه الله) (٣) :

" سألت إبراهيم(٤) عن شيء من هذه الأهواء ، فقال : " ما جعل اللّه في شيء منها مثقال ذرة من خير ، ما هي إلاّ نزغة من الشّيطان ،

---

(١) سنن الدّارمي: نحوه عن مجاهد موقوفاً عليه : ١٠٣/١ . شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة والجماعة : ١٣٠/١ .

(٢) الجامع لمعمر بن راشد الأزدي . تحقيق : حبيب الرّحمن الأعظمي . طبعة المكتب الإسلامي . بيروت . الطّبعة الثّانية : ١٤٠٣هـ : بلفظ مقارب في: ١٢٦/١١ . شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة : ١٣٠/١ .

(٣) زياد بن كليب أبو معشر الكوفي ، التّميمي الحنظلي ، فقيه ، ثقة من الحفّاظ المتقنين . توفي سنة : ١١٩هـ . وقيل : غير ذلك .

و انظر : الطّبقات الكبرى: ٣٣٠/٦ . طبقات خليفة : ص : ١٦١ . التّاريخ الكبير: ٣٦٧/٣ . معرفة الثّقات: ٣٧٤/١ . الجرح والتّعديل: ٥٤٢/٣ . ثقات ابن حبّان: ٣٢٧/٦ . مشاهير علماء الأمصار: ١٦٥/١ . تهذيب الكمال : ٥٠٤/٩ . الكاشف: ٤١٢/١ . تهذيب التّهذيب: ٣٢٩/٣ . تقريب التّهذيب: ٢٢٠/١ . لسان الميزان: ٢٢٢/٧ .

(٤) هو إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود ، أبو عمران النّخعي الكوفي ، مفتي الكوفة ، وفقيه العراق المشهور . رأى بعض الصّحابة و لم يروي عنهم . كان رأساً في العلم والإخلاص والورع ، متوقّي قليل التّكلّف ، يرسل كثيراً ويدلّس . توفي سنة : ٩٥هـ . وقيل : ٩٦ هـ .

و انظر : الطّبقات الكبرى: ٢٧٠/٦ . معرفة الثّقات: ٢٠٩/١ . الجرح والتّعديل: ١٤٤/٢ . ثقات ابن حبّان: ٨/٤ . مشاهير علماء الأمصار: ١٠١/١ . تذكرة الحفّاظ: ٧٣/١ . الكاشف: ٢٢٧/١ .جامع التّحصيل : ص : ١٤١ . التّبيين لأسماء المدلّسين: ص : ٤١ . تهذيب التّهذيب: ١٥٥/١ . تقريب التّهذيب: ٩٥/١ . طبقات المدلّسين : ص : ٢٨ .

عليك بالأمر الأوّل " [١]

وقال الشّعبي (رحمه الله) :

" إنّما سمّيت الأهواء لأنّها تهوي بصاحبها في النّار " [٢]

وقال الشّافعي (رحمه الله) :

" لأن يلقى اللّه العبد بكلّ ذنب ما خلا الشّرك باللّه خير من أن يلقاه بشيء من هذه الأهواء ".[٣]

وقال ابن القيّم (رحمه الله) :

" إنّ الهوى ما خالط شيئاً إلاّ أفسده ، فإن وقع في العلم أخرجه إلى البدعة والضّلالة وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء ، وإن وقع في الزّهد أخرج صاحبه إلى الرّياء ومخالفة السّنّة ، وإن وقع في الحكم أخرج صاحبه إلى الظّلم وصدّه عن الحقّ ، وإن وقع في القسمة خرجت عن قسمة العدل إلى قسمة الجور ، وإن وقع في الولاية والعزل أخرج صاحبه إلى خيانة اللّه والمسلمين حيث يولّي بهواه ويعزل بهواه ، وإن وقع في العبادة خرجت عن أن تكون طاعة وقربة . فما قارن شيئاً إلاّ أفسده " [٤] .

بل الهوى قد يجنح بصاحبه إلى القدح في النّصوص الثّابتة عن رسول اللّه ﷺ ، وردّها بأوهى الحجج وأضعفها ، بل بغير حجّة .

---

(١) الباعث على إنكار البدع والحوادث . لأبي القاسم عبد الرّحمن بن إسماعيل المقدسي . المعروف بأبي شامة . تحقيق : بشير محمّد عيون . طبعة : مكتبة المؤيّد . الطّائف . مكتبة دار البيان . دمشق . الطّبعة الأولى : ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م : ص : ١٧ .

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة : ١/١٣٠ .

(٣)سنن البيهقي: باب ما تردّ به شهادة أهل الأهواء : ١٠/٢٠٦ .

(٤) روضة المحبّين : ص : ٤٧٤ . طبعة دار الكتب العلمية . وقد أفاض (رحمه الله) في ذكر أوجه مضار الهوى والتّخلّص منها حتّى أو صلها إلى خمسين وجهاً ، وذلك من ص : ٤٧١ إلى ٤٨٦ من الكتاب نفسه .

كما قال البربهاري (رحمه الله) :

" وإذا سمعت الرّجل يطعن على الآثار ، أو يردّ الآثـــار، أو يريـــد غـــير الآثار ، فاتّهمه على الإسلام ، ولا تشك أنّه صاحب هوى مبتدع " .[١]

بل قد يلجأ إلى الأحاديث الضّعيفة والواهية والمكذوبة ليؤيّد بها هواه .[٢]

وامرؤ هذا شأنه أنّى له الثّبات على منهج رسول اللّه ﷺ ؟ بل هو مفـــارق له ، مخالف محادّ ، لا يمكن لقدمه أن تستقر على طريق ارتضاه اللّه للبشـــريّة حيث يتحقّق للسائر فيه النّجاة والسّعادة والفوز والسّلامة .

---

(١) طبقات الحنابلة : ٣٦/٢ . وهو في كتاب شرح السنة : ص : ٥١ .

(٢) انظر : الاعتصام : ٢٢٤/١-٢٢٥ .

﴿ المطلب الثّاني ﴾

تحكيم العقل والرّأي في نصوص الوحي

العقل صفة قائمة بنفس الإنسان الّتي تعقل ، وأمّا من البدن فهو متعلّق بالقلب لقول اللّه تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج:٤٦] (١) .

وهو شرط في معرفة العلوم ، وصلاح الأعمال ، وبه يكمل الدّين والعمل ، وإن كان لا يستقل بذلك ، لأنّه غريزة في النّفس وقوّة فيها كقوّة البصر ، إذا اتّصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتّصل به نور الشّمس والنّار ، وإذا انفرد لم يبصر الأمور الّتي يعجز وحده عن إدراكها ، وإن أبعد بالكليّة كانت الأقوال والأفعال أموراً حيوانيّة . (٢)

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى : ٣٠٣/٩ .

(٢) انظر : المرجع السّابق : ٣٣٨/٣-٣٣٩ .

قال سيّد قطب (رحمه الله) : " لو كان اللّه سبحانه – وهو أعلم بالإنسان وطاقاته كلّها – يعلم أنّ العقل البشري ، الّذي وهبه للإنسان ، هو حسب هذا الإنسان في بلوغ الهدى لنفسه والمصلحة لحياته في دنياه وآخرته ، لوكله إلى هذا العقل وحده ، يبحث عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق ، ويرسم لنفسه كذلك المنهج الّذي تقوم عليه حياته ، فتستقيم على الحقّ والصّواب ، ولما أرسل إليه الرّسل على مدى التّاريخ ، ولما جعل حجّته على عباده هي رسالة الرّسل إليهم ، وتبليغهم عن ربّهم ، ولما جعل حجّة النّاس عنده سبحانه هي عدم مجيء الرّسل إليهم : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء:١٦٥] . ولكن لّما علم اللّه سبحانه أنّ العقل الّذي آتاه للإنسان أداة قاصرة بذاتها عن الوصول إلى الهدى بغير توجيه من الرّسالة وعون وضبط ، وقاصرة كذلك عن رسم منهج للحياة الإنسانيّة يحقّق المصلحة الصّحيحة لهذه الحياة ، وينجي صاحبه من سوء المآل في الدّنيا والآخرة ، لّما علم اللّه سبحانه هذا شاءت حكمته وشاءت رحمته أن يبعث للنّاس بالرّسل ، وألاّ يؤاخذ النّاس إلاّ بعد الرّسالة والتّبليغ . ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء:١٥] " . في ظلال القرآن : ٨٠٦/٢ .

والإسلام اهتمّ بالعقل وجعله مناط [1] التّكليف ، فإذا فقد ارتفع التّكليف وعدّ فاقده كالبهيمة .[2]

بل جعله أحد الضّروريات الخمس الّتي أمر الشّارع بحفظها ورعايتها لأنّ مصالح الدّنيا والآخرة مبنيّة على المحافظة عليها . [3]

بل كلّ ما في الشّريعة فهو موافق للعقل ، والمعقول الصّحيح دائر مع أخبار الشّريعة وجوداً وعدماً ، فلم يخبر اللّه ورسوله بما يناقض صريح العقل .[4]

والعقل المذموم هنا الّذي ينصبّ عليه الحديث والّذي يكون الاعتماد عليه مزلقاً عن الصّراط المستقيم ، ويؤدّي إلى عدم ثبات صاحبه على المنهج السّوي ، هو ذاك العقل الّذي أطلق له صاحبه العنان وتفلّت عن قيود الشّرع ، وجعل له سلطاناً على نصوص الوحي يجول فيها ، فيقبل ما شاء ويردّ ما شاء ، ويدّعي معارضته لما شاء منها ، ويقدّم ما حكم به على حكمها ، كما فعل أهل الكلام والفلسفة والمعارضون للشّرع بعقولهم من طوائف المبتدعة .

فهؤلاء عظّموا عقولهم أيّما تعظيم ، وكرّموها أعظم تكريم ، ورفعوا قدرها فوق نصوص الوحي ، بل لا يقبلون منها إلاّ ما وافق عقولهم ، وما خالفها ردّوه

---

(١)ناطَ الشّيءَ يَنُوطُه نَوْطاً : علّقه . لسان العرب : ٤١٨/٧ .

والمراد بالمناط عند الأصوليين : هو علّة الحكم أو سببه المتعلّق به . وهو على ثلاثة أضرب : تحقيق المناط ، وتنقيحه ، وتخريجه . انظر : روضة النّاظر : ٢٧٦/١ . و انظر : الإحكام للآمدي : ٣٢٥/٣-٣٢٦ .

قال ابن دقيق العيد (رحمه الله) — فيما نقله الشّوكاني (رحمه الله) عنه — : " وتعبيرهم عن العلّة بالمناط من باب المجاز اللّغوي لأنّ الحكم لّما علّق بها كان كالشّيء المحسوس الّذي تعلّق بغيره ، فهو من باب تشبيه المعقول بالمحسوس ، وصار ذلك في اصطلاح الفقهاء بحيث لا يفهم عند الإطلاق غيره " . إرشاد الفحول : ص : ٣٧٥ .

(٢) انظر : الموافقات : ١٣/٣ .

(٣) انظر : المرجع السّابق : ٨/٢ . والضّروريات الخمس هي : الدّين والنّفس والعقل والنّسل والمال .

(٤) انظر : أعلام الموقّعين : ٧١/٢ .

وقدحوا فيه .[1] وكان ذلك من أعظم الأسباب الّتي حرفتهم عن الصّراط المستقيم وعن منهج أهل السّنّة والجماعة ، وفارقت بهم الثّبات عليه .
لأنّ طريق أهل السّنّة أن لا يعدلوا عن النّص الصّحيح ، ولا يعارضوه بمعقول ولا قول فلان .[2]

والحق إنّما يدور مع نصوص الوحي حيث دارت ، فلا يحقّ لعقول البشر القاصرة المتفاوتة المتباينة أن تُحَكَّم عليها ، ولا أن تدّعي معارضتها .

قال الشّاطبي (رحمه الله) :

" لا يجعل العقل حاكماً بإطلاق ، وقد ثبت عليه حاكم بإطلاق وهو الشّرع ، بل الواجب عليه أن يقدّم ما حقّه التّقديم وهو الشّرع ، ويؤخّر ما حقّه التّأخير ، وهو نظر العقل ، لأنّه لا يصح تقديم النّاقص حاكماً على الكامل ، لأنّه خلاف المعقول والمنقول ، بل ضدّ القضية هو الموافق للأدلّة ، فلا معدل عنه ، ولذلك قال : اجعل الشّرع في يمنيك ، والعقل في يسارك ، تنبيهاً على تقدّم الشّرع على العقل " .[3]

ولا يمكن أبداً أن يتعارض نص صحيح وعقل سليم ، بل متى ما وجد ذلك فإمّا أن يكون النّص غير صحيح أو أن يكون العقل غير سليم .

---

(١) انظر : الاعتصام : ١/٢٣١-٢٣٢ .
ولإثبات هذه الحقائق انظر : أساس التّقديس في علم الكلام لفخر الدّين أبي عبد الله محمّد بن عمر بن الحسين الرّازي . طبعة : مصطفى الحلبي وأولاده . مصر . ١٤٥٤هـ . ص : ١٧٢-١٧٣ ، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة للقاضي عبد الجبار . طبعة : الدّار التّونسيّة للنّشر : ص : ١٣٩ . المحيط بالتّكليف للقاضي عبد الجبار . جمع الحسن بن أحمد بن متويه . تحقيق : عمر السّيد عزمي . مراجعة الدّكتور أحمد فؤاد الأهواني . طبعة : الدّار المصرية للتأليف والتّرجمة . ص : ٣١-٣٢ ، ٢١٣ .
(٢) شرح العقيدة الطّحاوية : ص : ٣٩٩ . طبعة المكتب الإسلامي .
(٣) الاعتصام : ٢/٣٢٦-٣٢٧ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" ماعلم بصريح العقل لا يتصوّر أن يعارضه الشّرع البتّة ، بل المنقول الصّحيح لا يعارضه معقول صريح قط ... وقد تأمّلت ذلك في عامّة ما تنازع النّاس فيه ، فوجدت ما خالف النّصوص الصّحيحة الصّريحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها ، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشّرع ... ووجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قطّ ، بل السّمع الّذي يقال إنّه يخالفه : إمّا حديث موضوع ، أو دلالة ضعيفة ، فلا يصلح أن يكون دليلاً لو تجرّد عن معارضة العقل الصّريح ، فكيف إذا خالفه صريح المعقول ؟ ونحن نعلم أنّ الرّسل لا يخبرون بمحالات العقول بل بمحارات العقول ، فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاءه ، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته " .[1]

بل إذا انقدح في ذهن المرء أن عقله يخالف نصّاً ثابتاً فعليه أن يتشبّث بالنّص ولا يلتفت إلى ما عارضه ، لأنّ ذلك من تزيين الشّيطان وأباطيله .

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" فإذا تعارض النّقل وهذه العقول أخذ بالنّقل الصّريح ورمي بهذه العقول تحت الأقدام ، وحطّت حيث حطّها اللّه وحطّ أصحابها " .[2]

لأنّ الواجب كمال التّسليم للرّسول ﷺ والانقياد لأمره ، وتلقّي خبره بالقبول والتّصديق ، دون أن نعارضه بخيال باطل نسميه معقولاً ، أو نحمّله شبهة أو شكّاً ، أو نقدّم عليه آراء الرّجال وزبالة أذهانهم . فنوحّده بالتّحكيم والتّسليم والانقياد والأذعان ، كما نوحّد المُرْسِل بالعبادة والخضوع والذّل والإنابة ، والتّوكل .[3]

---

(١) درء تعارض العقل والنّقل : ١٤٧/١ .

(٢) الصّواعق المرسلة : ٧٩١/٢ .

(٣) شرح العقيدة الطّحاوية : ص : ٢١٧ . طبعة المكتب الإسلامي .

وهكذا كان شأن صحابة رسول اللّه ﷺ ، فإنّهم تلقّوا الوحي من رسول اللّـه ﷺ ، ولم يعارضوه بعقولهم وآرائهم ، بل استسلموا لأحكامه وصدّقوا بأخبـاره ، لعلمهم أنّ العقل لا يجب أن يتقدّم بين يدي الشّرع ، فإنّه من التّقدّم بين يدي اللّـه ورسوله ، بل يكون ملبّياً من وارء وراء .

هذا مذهبهم الّذي دأبوا عليه ، وطريقهم الّذي سلكوه فوصلوا بـه إلـى الجنّـة ، ومنهجهم الّذي ثبتوا عليه فنالوا به سعادة الدّنيا والآخرة . ولم ينقل عن أحد منـهم أنّه عارض نصّاً بعقله أوردّ حديثاً برأيه ، بل النّصوص عندهم معظّمة ، وهـي أجلّ في نفوسهم من أن تردّ بمجازفات العقول .(١) ومن سار على نهجهم وسـلك مسلكهم ثبت كما ثبتوا ، ونجا كما نجوا ، وأفلح كما أفلحوا .

❁ هذا عن العقل . وأمّا الرّأي فله إطلاقات عدّة . والمراد منها هنا ما يـراه القلب بعد فكر وتأمّل وطلب لمعرفة وجه الصّواب ممّا تتعارض فيه الأمارات .

وهو ثلاثة أقسام : رأي باطل ، ورأي صحيح ، ورأي هو موضع اشـتباه .
وقد استعمل السّلف رحمهم اللّه الرّأي الصّحيح وعملوا به ، وسوّغوا القول بـه ، وذمّوا الباطل ، ومنعوا من الفتيا والقضاء به ، وأطلقوا ألسنتهم بذمّه وذمّ أهلـه .
وأمّا القسم الثّالث : فقد سوّغوا العمل والفتيا والقضاء به عند الاضطــرار إليـه حيث لا يوجد منه بدّ ، ولم يلزموا أحداً العمل به ، ولم يحرّموا مخالفتـه ، بـل خيّروا بين قبوله وردّه ، فهو بمنزلة ما أبيح للمضطرّ من الطّعام والشّراب الّـذي يحرم عند عدم الضّرورة .

والرّأي الباطل على أنواع :

أحدها : الرّأي المخالف للنصّ .

---

(١) انظر : الاعتصام : ٢/٢٣١-٢٣٦ . وانظر : مختصر الصّواعق المرسلة في الرّد على الجهمية والمعطّلة . اختصـره محمّد بن موسى الموصلي . طبعة : دار النّدوة الجديدة . بيروت . الطّبعـة الأولى : ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م : ص : ١٤٣ .

الثّاني : الكلام في الدّين بالخرص والظّنّ مع التّفريط والتّقصير في معرفة النّصوص وفهمها واستنباط الأحكام منها .

الثّالث : الرّأي المتضمّن تعطيل أسماء الرّب وصفاته وأفعاله بالمقاييس الباطلة الّتي وصفها أهل البدع والضّلال .

الرّابع : الرّأي الّذي أحدثت به البدع ، وغيّرت به السّنن ، وعمّ به البلاء .

وهذه الأنواع الأربعة من الرّأي الّذي اتّفق سلف الأمّة وأئمّتها على ذمّه وإخراجه من الدّين .[1]

قال البخاري (رحمه الله) :

" باب ما يذكر من ذمّ الرّأي وتكلّف القياس[2] . ﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ لا تقل ﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء:٣٦] " . ثمّ أورد حديث عبد اللّه بن عمرو (رضي الله عنهما) حيث قال : " سمعتُ النّبيَّ ﷺ يقول : " إنَّ اللّه لا ينزع العلمَ بعد أنْ

---

(١) انظر : أعلام الموقّعين : ١/٦٦-٦٩ .

(٢) القياس في اللّغة : هو ردّ الشيء إلى نظيره . وهو نوعان : عقلي وشرعي .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " القياس عند أصحابنا والجمهور ينقسم إلى : عقلي وهو ما يكتفى فيه بالعقل . وإلى شرعي وهو ملا بدّ فيه من أصل معلوم بالشّرع " . مجموع الفتاوى : ٩/٢٥٩ .

فالقياس العقلي هو الّذي يسمّونه بالمنطقي وهو : قول مؤلّف من أقوال إذا وضعت لزم عنها بذاتها قول آخر غيرها اضطّراراً . انظر : التّعريفات : ص : ٩٦ . المعجم الفلسفي للدّكتور جميل صليبا . طبعة : دار الكتاب اللّبناني ومكتبة المدرسة . بيروت . ١٩٨٢م : ٢/٢٠٧-٢١١ .

وفي الشّرع : حمل معلوم على معلوم في إثبات حكم لهما أو نفيه عنهما بأمر جامع بينهما من إثبات حكم أو صفة ، أو نفيهما عنهما . المحصول : ٥/٩ . و انظر : المنخول : ١/٣٢٤ . الإحكام للآمدي : ٣/٢٠٥ .

وقال ابن قدامة (رحمه الله): " حمل فرع على أصل في حكم بجامع بينهما " . روضة النّاظر : ٢٧٥ .

وقال الشّوكاني (رحمه الله) : " وأحسن ما يقال في حدّه : استخراج مثل حكم المذكور لما لم يذكر بجامع بينهما " . إرشاد الفحول : ص : ٣٣٨ . وهذه التّعريفات كلّها قريبة من بعضها .

أعطاهموه انتزاعاً ، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم فيبقى ناسٌ جُهَّالٌ يُسْتَفْتُون فَيُفْتُون برأيهم فَيُضِلُّون ويَضِلُّون" (١) .

ثمّ روى بسنده إلى سهل بن حُنَيْف ﷺ أنّه قال : " يا أيّها النّاس اتّهموا رأيكم على دينكم ، لقد رأيتني يوم أبي جندل(٢) ولو أستطيع أن أردّ أمر رسول الله ﷺ لرددته .... " الأثر (٣)

نقل الحافظ ابن حجر (رحمه الله) عن ابن بطّال (رحمه الله) أنّه قال :

" إنّ نصّ الآية ذمّ القول بغير علم ، فخصّ به من تكلّم برأي مجرّد عن استناد إلى أصل ، ومعنى الحديث : ذمّ من أفتى مع الجهل . ولذلك وصفهم بالضّلال والإضلال وإلاّ فقد مدح من استنبط من الأصل لقوله : ﴿ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ ﴾ [النساء:٨٣] فالرّأي إذا كان مستنداً إلى أصل من الكتاب

---

(١)سبق تخريجه انظر : ص : ١٣٥ .

(٢) يوم أبي جندل ـــ اسمه العاص بن سهيل بن عمرو ـــ أراد به يوم الحديبية ، وإنّما نسبه لأبي جندل لأنّه لم يكن فيه على المسلمين أشدّ من قصّته . فتح الباري : ٢٨١/٦ . و انظر : شرح النّووي على مسلم : ١٤٢/١٢ . و انظر : قصّته في السّيرة النّبويّة لابن هشام : ٣/ ٢٣٧ .

(٣)صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة : (٧١/٩٦) . باب ما يذكر من ذمّ الرّأي وتكلّف القياس : (٨/٧) . برقم: (٧٣٠٨) . ص : ١٥٣٦ . و بلفظ مقارب في: كتاب الجزية والموادعة : (٣٤/٥٨) . باب : (١٨) . برقم: (٣١٨٢) . ص : ٦٧٢_٦٧٣ . وفي كتاب المغازي : (٣٨/٦٤) . باب غزوة الحديبية : (٣٦/٣٥) . برقم: (٤١٨٩) . ص : ٨٧٦ .و بمعناه في: كتاب الجزية والموادعة : (٣٤/٥٨) . باب : (١٨) . برقم: (٣١٨١) . ص : ٦٧٢ . وفي كتاب التّفسير : (٣٩/٦٥) . باب ﴿ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح:١٨] : (٥) . برقم: (٤٨٤٤) . ص : ١٠٥٢ .

صحيح مسلم: بلفظ مقارب و بمعناه في: كتاب الجهاد والسّير : (٣٢) . باب صلح الحديبية: (٣٤) . برقم: (١٧٨٥) . ٣ /١٤١١-١٤١٣.

قال ابن القيّم (رحمه الله) : " واتّهام الصّحابة لآرائهم كثير مشهور ، وهم أبرّ الأمّة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأبعدها من الشّيطان ، فكانوا أتبع الأمّة للسّنّة ، وأشدّهم اتّهاماً لآرائهم ، وهؤلاء ضدّ ذلك " . إغاثة اللّهفان : ١٢٤/١ . ويعني بهؤلاء ، طوائف المبتدعة وفرق الضّلال ممّن حاد عن منهج الصّحابة ﷺ .

أو السّنّة أو الإجماع فهو المحمود ، وإذا كان لا يستند إلى شيء منها فهو المذموم ... وحديث سهل بن حنيف ... وإن كان يدلّ على ذمّ الرّأي لكنّه مخصوص بما إذا كان معارضاً للنّصّ ، فكأنّه قال : اتّهموا الرّأي إذا خالف السّنّة " .(١)

والرّأي المذموم هو الّذي يمنع من الثّبات على المنهج لأنّه يعارض نصوص الوحي الّتي هي غذاء السّير على المنهج والثّبات عليه ، ولذا كثر تحذير السّلف منه ، وصاحوا على من قال به من كلّ جانب ، وبدّعوه وضلّلوه .

قال عمر بن الخطاب ﷺ :

" إيّاكم وأصحاب الرّأي فإنّهم أعداء السّنن ، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها ، فقالوا بالرّأي فضلّوا وأضلّوا " (٢) .

وقال علي بن أبي طالب ﷺ :

" لو كان الدّين بالرّأي لكان أسفل الخفّ أولى بالمسح من أعلاه ، وقد رأيت رسول اللّه ﷺ يمسح على ظاهر خفّيه " (٣).

---

(١) فتح الباري : ٢٢٠/١٥ .

(٢) سنن الدّارقطني : كتاب النّوادر : ١٤٦/٤ . شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة : ١٢٣/١ . أعلام الموقّعين : ٥٥/١ وذكر عدّة روايات عنه ﷺ في ذلك ثمّ قال : " وأسانيد هذه الآثار عن عمر في غاية الصّحة " .

(٣) سنن أبي داود: كتاب الطّهارة : (١) . باب كيف المسح : (٦٣) . برقم: (١٦٢، ١٦٣) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٤٢ .

و انظر : سنن الدّارمي: باب المسح على النّعلين : ١٩٥/١ . سنن البيهقي: باب الاقتصار بالمسح على ظاهر الخفّين . ٢٩٢/١ . سنن الدّارقطني : باب الرّخصة في المسح على الخفّين . ١٩٩/١ . مسند أحمد: ٩٥/١ ، ١١٤ ، ١٢٤ ، ١٤٨ . قال أحمد شاكر (رحمه الله): " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٠٤/٢ ، ١٧٩ ، ٢١٩ ــ ٢٢٠ ، ٣١١ . برقم : (٧٣٧ ، ٩١٧ ، ١٠١٣ ، ١٢٦٣) . ١٩٩/١، ٢٠٤ . مسند أبي يعلى: ٢٨٧/١ ، ٤٥٥ . قال المحقّق : " إسناده صحيح " .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه :

" إيّاكم وأرأيت وأرأيت ، فإنّما هلك من كان قبلكم بأرأيت وأرأيت ، ولا تقيسوا شيئاً بشيء فتزلّ قدم بعد ثبوتها ، وإذا سئل أحدكم عمّا لا يعلم فليقل : لا أعلم فإنّه ثلث العلم " [١]

وقال الحسن البصري (رحمه الله) :

" إنّما هلك من كان قبلكم حين تشعّبت بهم السّبل ، وحادوا عن الطّريق ، فتركوا الآثار وقالوا في الدّين برأيهم فضلّوا وأضلّوا " .[٢]

وقال الأوزاعي (رحمه الله)[٣] :

" عليك بآثار من سلف وإن رفضك النّاس ، وإيّاك وأراء الرّجال وإن زَخْرَفُوا لك القول[٤] " . [٥] .

---

(١) معجم الطّبراني الكبير: بلفظه في : ١٠٥/٩ . و انظر : أعلام الموقّعين : ٥٧/١ .

(٢) الاعتصام : ٣٣٤/٢ . وقد نسبه ابن عبد البرّ إلى الحسن بن واصل . ونقله ابن القيّم عنه . أعلام الموقّعين : ٧٨/١ .

(٣) هو عبد الرّحمن بن عمرو بن محمّد أبو عمرو الأوزاعي الدّمشقي ، المشهور . شيخ الإسلام وإمام عصره ، ومن خيار النّاس . كان أحد أئمّة الدّنيا فقهاً وعلماً وورعاً وحفظاً وفضلاً وعبادة وضبطاً مع زهادة . حجّة كثير الحديث . توفي سنة : ١٥٧هـ .

و انظر : الطّبقات الكبرى: ٤٨٨/٧ . طبقات خليفة : ص : ٣١٥ . التّاريخ الكبير: ٣٢٦/٥ . معرفة الثّقات: ٨٣/٢ . الجرح والتّعديل: ٢٦٦/٥ . ثقات ابن حبّان: ٦٢/٧ . مشاهير علماء الأمصار: ١٨٠/١ . التّعديل والتّجريح: ٨٧٣/٢ . تهذيب الكمال : ٣٠٧/١٧ . تذكرة الحفّاظ: ١٧٨/١ . الكاشف: ٦٣٨/١ . جامع التّحصيل : ص : ٢٢٥ . تهذيب التّهذيب: ٢١٦/٦ . تقريب التّهذيب: ٣٤٧/١ . لسان الميزان: ٢٨٣/٧ .

(٤) القول المزخرف : هو القول المُزَيَّن المُمَوَّه . انظر : الفائق : ١٠٥/٢ . النّهاية في غريب الحديث: ٢٩٩/٢ .

(٥) الشّريعة للآجرّي : ص : ٦٧ .

وذكر اللالكائي (رحمه الله) أنّ فتى من أصحاب الحديث أنشد في مجلس أبي زرعة الرّازي[1] (رحمه الله) هذه الأبيات فاستحسنها وكتبت عنه :

دين النّبي محمّد أخباره ••••••• نعم المطيّة للفتى آثاره

لا تعدلنّ عن الحديث وأهله ••••••• فالرّأي ليل والحديث نهاره

ولربّما غلط الفتى أثر الهدى ••••••• والشّمس بازغة لها أنواره .[2]

والآثار في ذلك والأقوال كثيرة جدّاً ، وكلّها تذمّ من يعارض النّصوص بالآراء الواهية ، والأقوال المخالفة الّتي تبعد صاحبها عن الطّريق المستقيم والهدي القويم .

إذ كان تقديم الرّأي على النّصّ من أعظم الأسباب الّتي أدّت إلى تفرّق الأمّة وتشتّتها ، وخروج الفرق الضّالة عن منهج أهل السّنّة والجماعة .

وفي ذلك يقول ابن القيّم (رحمه الله) :

" قال بعض العلماء : ما أخرج آدم من الجنّة إلاّ بتقديم الرّأي على النّصّ ، وما لعن إبليس وغضب عليه إلاّ بتقديم الرّأي على النّصّ ، ولا هلكت أمّة من الأمم إلاّ بتقديم آرائها على الوحي ، ولا تفرّقت الأمّة فرقاً وكانوا شيعاً إلاّ بتقديم آرائهم على النّصوص " .[3]

فلا يسلم للمؤمن دينه ، ولا يبقى على الجادّة ، ولا يثبت على الحقّ ، ولا يستقيم أمره إلاّ إذا حكّم نصوص الوحي على عقله ورأيه ، وأعرض عن زبالة

---

(١)هو عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد بن فرّوخ ، أبو زرعة الرّازي القرشي مولاهم ، الإمام الحافظ المشهور . أحد أفراد الدّهر حفظاً وذكاء ودِيناً وإخلاصاً وعلماً وعملاً وزهداً وورعاً . قال عنه إسحاق بن راهويه : " كلّ حديث لا يعرفه أبو زرعة فليس له أصل " . توفّي سنة : ٢٦٤هـ .

و انظر : الجرح والتّعديل: ٣٢٤/٥ . ثقات ابن حبّان: ٤٠٧/٨ . تهذيب الكمال : ٨٩/١٩ . تذكرة الحفّاظ: ٥٥٧/٢ . الكاشف: ٦٨٣/١ . تهذيب التّهذيب: ٢٨/٧ . تقريب التّهذيب: ٣٧٣/١ .

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة : ١٤٩/١ .

(٣) مختصر الصّواعق المرسلة : ص: ٥٢٣ .

الأذهان ، ونحاتة الأفكار ، والآراء المتهافتة ، والخيالات المتناقضة الّتي تقــذف بها العقول القاصرة والأذهان الكليلة الّتي تزخرف الباطل لتضاهي بــه الحــقّ ، وتبرز الضّلال لتعدل به الهدى ، وكلّ ذلك زبد يذهب جفــاء وتبقــى نصــوص الوحي ما بقي اللّيل والنّهار تضيء طريق من احتمى بها ، وتنير قلب من تمسّـك بها ، وتقوّي عزمه ، وتطمئن قلبه ، وتشدّ عضده ، وتثبّت قدمه حتّى يحطّ رحاله في جنان اللّه .

﴿ المطلب الثّالث ﴾

مقارفة البـــدع

البدع جمع بدعة وهي كلّ شيء ليس له مثال تقدّم . فيشمل لغة مـــا يحمــد ويذمّ ، ويختصّ في عرف أهل الشّرع بما يذمّ ، وإن وردت في المحمود فعلــــى معناها اللّغوي .[1]

وعرّفها الشّاطبي (رحمه الله) بقوله :

" البدعة طريقة في الدّين مخترعة تضاهي الشّرعيّة ، يقصد بالسّلوك عليها ما يقصد بالطّريقة الشّرعيّة " [2].

فالبدعة أمر محدث في دين الله تعالى لم يكن له مثال سابق ، يقصـــد بـــه صاحبه التّقرب إلى الله سبحانه ، وليس له ما يسنده من نصوص الكتاب والسّنّة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" فإنّ البدعة الشّرعيّة الّتي هي ضلالة هي ما فعل بغـــير دليـــل شـــرعي كاستحباب ما لم يحبّه اللّه ، وإيجاب ما لـــم يوجبـــه اللّـــه ، وتحريـــم مـــا لـــم يحرّمه اللّه ، فلا بد مع الفعل من اعتقاد يخالف الشّريعة " .[3]

وقد جاءت أدلّة الكتاب والسّنّة تحرّم البدع ، وتحذّر من مقارفتها والوقـــوع فيها .

---

(١) فتح الباري : ٢٠٨/١٥ .

(٢) الاعتصام : ٢٨/١ .

(٣) منهاج السّنّة النّبوية : ٣٠٨/٨ .

والبدعة نوعان :

نوع في الأقوال والاعتقادات ، ونوع في الأفعال والعبادات . فالأوّل يقع من المنتسبين إلى العلم والنّظر ، والثّـاني من المنتسبين إلى العبادة والإرادة . انظر مجموع الفتاوى : ٣٠٦/٢٢ .

فالأوّل : يكون باعتقاد خلاف الحقّ الّذي بعث به رسول اللّه ﷺ ، والثّاني يكون بالتّعبّد بما لم يأذن به اللّه مـن الأوضاع والرّسوم المحدثة في الدّين . والنّوعان في الغالب متلازمان . انظر : مدارج السّالكين : ٢٢٢/١ .

فقال سبحانه : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الشورى:٢١] .

فاللّه سبحانه يخبر أنّ المشركين اتّخذوا من شياطين الإنس الّذين شرعوا لهم من الدّين ما لم يأذن به اللّه من الشّرك والبدع وتحريم ما أحلّ اللّه ، وتحليل ما حرّم ونحو ذلك ، ممّا اقتضته أهواؤهم ، مع أنّ الدّين لا يكون إلاّ ما شرعه اللّه تعالى ليدين به العباد ، ويتقرّبوا به إلى اللّه .(١)

فمن ندب إلى شيء يتقرّب به إلى اللّه ، أو أوجبه بقوله أو فعله من غير أن يشرعه اللّه فقد شرع من الدّين ما لم يأذن به اللّه ، ومن اتّبعه في ذلك فقد اتّخذه شريكاً لله . (٢)

وقد قال سبحانه : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [التوبة:٣١] .

قال عدي بن حاتم ﷺ للنّبي ﷺ عندما سمع هذه الآية : " إنّهم لم يعبدوهم " فقال : " بلى إنّهم حرّموا عليهم الحلال وأحلّوا لهم الحرام فاتّبعوهم ، فذلك عبادتهم إيّاهم " (٣)

---

(١) تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٧٠٣ . بتصرّف .

(٢) اقتضاء الصّراط المستقيم : ص : ٢٦٨ .

(٣) سبق تخريجه انظر : ص : ١٤٣ . و انظر : معنى الآية في تفسير القرآن العظيم : ٢/٥٤٤-٥٤٥ .

ومن الأحاديث المحذّرة عن البدع :

حديث جابر ﷺ وفيه : " فإنّ خير الحديث كتاب اللّه ، وخير الهدى هـــدى محمّد ، وشرّ الأمور محدثاتها ، وكلّ بدعة ضلالة "[١] .

وفي رواية : " وكلّ ضلالة في النّار " .[٢]

وحديث العرباض بن سارية ﷺ ، وفيه : " إنّه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الرّاشدين من بعدي تمسّـــكوا بـــها ، وعضّوا عليها بالنّواجذ ، وإيّاكم ومحدثات الأمور فإنّ كلّ بدعة ضلالة " .[٣]

وحديث عائشة (رضي الله عنها) : " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منـــه فهو ردّ " وفي رواية :" من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ " .[٤]

وكلّ هذه النّصوص وغيرها الكثير تدلّ على تحريم البدع في ديـــن اللّـــه ، وتحذّر منها تحذيراً بالغاً لما فيها من أضرارعظيمة ، وعواقب وخيمة .

فهي تزهّد الإنسان في الأعمال المشروعة ، وتوجب له فساداً في القلب ينشأ من نقص منفعة الشّريعة عنده ، لأنّ القلب لا يتّسع للعوض والمعوّض عنه .[٥]

وهي تناقض الاعتقاد الواجب ، وتنازع الرّسول فيما جاء به ، وتحدث فـــي الطّبع انحلالاً من ربقة الاتّباع ، وفوات سلوك الصّراط المستقيم .[٦]

---

(١)صحيح مسلم: بلفظه ـــ جزء من حديث ـــ في كتاب الجمعة : (٧) . باب تخفيف الصّـــلاة والخطبـــة : (١٣) . برقم: (٨٦٧) . ٢/٥٩٢ .

(٢) سنن النّسائي: بلفظها في : كتاب صلاة العيدين : (١٩) . باب كيف الخطبـــة : (٢٢) . برقـــم: (١٥٧٨) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ١٨٦ .
صحيح ابن خزيمة : بلفظها . برقم: (١٧٨٥) . ٣/١٤٣ .

(٣) سبق تخريجه انظر : ص : ٨٣١ .

(٤) سبق تخريجه انظر : ص : ٨٢١ .

(٥) انظر : اقتضاء الصّراط المستقيم : ص: ٢١٧-٢١٨ .

(٦) انظر : المرجع السّابق : ص : ٢٨٩-٢٩٢ .

وهي من أعظم أسباب التّفرّق والخلاف الّذي وقع في الأمّة ولا زال ، بل هي أصل وقوع الفتن في الأمّة وتفرّق وحدتها ، وتشتّت شملها .[1]

والمبتدع يُزَيَّنُ له عمله فيراه حسناً فيستمرئ البقاء عليه ولا ينزع عنه . وهذا سرّ قول *سفيان الثّوري*[2] *(رحمه الله)* :

" البدعة أحبّ إلى إبليس من المعصية ، لأنّ البدعة لا يتاب منها ، والمعصية يتاب منها " .[3]

لأنّ أوّل التّوبة العلم بأنّ فعله سيء ليتوب منه ، أو بأنّه ترك حسناً مأموراً به أمر إيجاب ، أو استحباب ليتوب ويفعله ، فما دام يرى فعله حسناً وهو سيء في نفس الأمر فإنّه لا يتوب .[4]

يقول ابن القيّم (رحمه الله) في معرض حديثه عن العقبات الّتي يظفر فيها الشّيطان بالإنسان فيورده المهالك قال :

" والظّفر به في عقبة البدعة أحبّ إليه لمناقضتها الدّين ، ودفعها لما بعث اللّه به رسوله ، وصاحبها لا يتوب منها ولا يرجع عنها ، بل يدعو الخلق إليها ، ولتضمّنها القول على اللّه بلا علم ، ومعاداة صريح السّنّة ، ومعاداة أهلها ، والاجتهاد على إطفاء نور السّنّة ، وتولية من عزله اللّه ورسوله ، وعزل من

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى : ١٤٣/٢٨ . وانظر : الاعتصام : ١٩٤/٢ . بيان تلبيس الجهميّة : ٣١٠/٢ .

(٢) سفيان بن سعيد بن مسروق أبو عبد اللّه الثّوري الكوفي ، الإمام المشهور ، شيخ الإسلام وسيّد الحفّاظ وأمير المؤمنين في الحديث ، فقيه عابد ورع زاهد ، قدوة . توفّي سنة : ١٦١هـ .

وانظر : طبقات خليفة : ص : ١٦٨ . التاريخ الكبير: ٩٢/٤ . الجرح والتّعديل: ٢٢٢/٤ . ثقات ابن حبّان: ٤٠١/٦ . مشاهير علماء الأمصار: ١٦٩/١ . تاريخ بغداد: ١٥١/٩ . تهذيب الكمال : ١٥٤/١١ . تذكرة الحفّاظ: ٢٠٣/١ . الكاشف: ٤٤٩/١ . جامع التّحصيل : ص : ١٨٦ . تهذيب التّهذيب: ٩٩/٤ . تقريب التّهذيب: ٢٤٤/١ . لسان الميزان: ٢٣٣/٧ . طبقات المدلّسين : ص : ٣٢ .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى : ٩/١٠ . وقول سفيان (رحمه اللّه) في : مسند ابن الجعد : ٢٧٢/١ . شعب الإيمان : ٥٩/٧ . شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة : ١٣٢/١

(٤) مجموع الفتاوى : ٩/١٠ .

ولاّه الله ورسوله ، واعتبار ما ردّه اللّه ورسوله ، وردّ ما اعتبره ، وموالاة من عاداه ، ومعاداة من والاه ، وإثبات مانفاه ، ونفي ما أثبته ، وتكذيب الصّادق وتصديق الكاذب ، ومعارضة الحقّ بالباطل ، وقلب الحقائق بجعل الحقّ باطلاً والباطل حقّاً ، والإلحاد في دين اللّه ، وتعمية الحقّ على القلوب ، وطلب العوج لصراط اللّه المستقيم ، وفتح باب تبديل الدّين جملة " [١] .

بل قد كادت البدع أن تطمس معالم الإسلام في كثير من بقاع العالم الإسلامي ، وقد وجدت هوى في نفوس الضّعفاء والرّعاع من النّاس ، وذلك في غياب الوعي الدّيني الصّحيح ، وتساهل ولاة الأمور في شأنها ، وغضّ كثير من الدّعاة الطّرف عنها ، وتهاونوا في أمرها ، حتّى استفحلت ، وكثر شرّها ، وعظم ضررها .

قال ابن عبّاس (رضي الله عنهما) :

" ما أتي على النّاس عام إلاّ أحدثوا فيه بدعة ، وأماتوا فيه سنّة حتّى تحيا البدع ، وتموت السّنن" [٢] .

وقد صدق فيما قال ، فقد أميتت السّنن في كثير من بلاد الإسلام ، وأبدلت بالبدع والضّلالات فنشأ عليها الصّغير ، وهرم عليها الكبير ، وتعصّب لها الجهّال ، وانبرى يدافع عنها علماء الضّلال ، ويؤيّدونها بالحجج الّتي هي داحضة حتّى لبّس على كثيرين ، وخفي أمرها على جمّ غفير من المنتسبين إلى الإسلام .

ومن أعظم أضرارها أنّها تصرف عن سلوك الصّراط المستقيم ، وتمنع مَنْ قارفها عن مواصلة السّير على منهج الله ، والثّبات عليه .

---

(١) مدارج السّالكين : ٢٢٣/١ .

(٢) معجم الطّبراني الكبير: ٢٦٢/١٠ . شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة : ٩٢/١ .

قال شيخ الإسلام بن تيمية (رحمه الله) :

" وكلّما ازداد العبد في البدع اجتهاداً ازداد من اللّه بعداً لأنّها تخرجه عـــن سبيل اللّه ، سبيل الّذين أنعم اللّه عليـــهم مـــن النّبييـــن والصّدّيقيـــن والشّـــهداء والصّالحين إلى بعض سبيل المغضوب عليهم والضّالين " . (١)

ونقل (رحمه الله) عن أبي على الجوزاني(٢) عندما سئل : كيف الطّريق إلى اللّه ؟ قال : " أصحّ الطّرق وأعمرها وأبعدها من الشّبه اتّباع الكتاب والسّنّة قـولاً وفعلاً وعقداً ونية لأنّ اللّه يقـول : ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ [النور:٥٤]. فسـئل : كيف طريق اتّباع السّنّة ؟ قال : " بمجانبة البدع ، واتّباع ما اجتمع عليه الصّـدر الأوّل من علماء الإسلام وأهله ، والتّباعد عن مجالس الكـلام وأهلـه ، ولـزوم طريقة الاقتداء والاتّباع ، بذلك أمر النّبي ﷺ بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النحل:١٢٣] " (٣)

ولهذا اشتدّ نكير السّلف والأئمّة لها ، وصاحوا بأهلها من أقطـار الأرض ، وحذّروا من فتنتهم أشدّ التّحذير ، وبالغوا في ذلك ما لم يبالغوا مثله فـي إنكـار الفواحش والظّلم والعدوان ، إذ مضرّة البدع وهدمها للدّين ومنافاتها له أشدّ .(٤)

وأمروا بالاستقامة على الدّين ، واتّباع سيّد المرسلين ﷺ .

---

(١) مجموع الفتاوى : ١٩/٤٨-٤٩ .

(٢) أبو علي الجوزاني : لم أقف له على ترجمة .

(٣) الاستقامة : ١/١١٠ .

(٤) مدارج السّالكين : ١/٣٧٢ . بتصرّف يسير .

قال عبد اللّه بن مسعود ﷺ :

" اتّبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم ، وكلّ بدعة ضلالة " [1] .

وقال : " إنّا نقتدي ولا نبتدي ، ونتّبع ولا نبتدع ، ولن نضلّ ما تمسّكنا بالأثر " .[2]

وقال ابن عبّاس (رضي الله عنهما) :

" عليك بتقوى اللّه والاستقامة ، اتّبع ولا تبتدع ".[3]

وقال ابن عمر (رضي الله عنهما) :

" كلّ بدعة ضلالة وإن رآها النّاس حسنة " [4].

وقال أبو عمرو الأوزاعي (رحمه الله) :

" اصبر نفسك على السّنّة ، وقف حيث وقف القوم ، وأسلك سبيل سلفك الصّالح ، فإنّه يسعك ما وسعهم ، وقل بما قالوا ، وكفّ عمّا كفّوا ، ولو كان هذا خيراً ما خصصتم به دون أسلافكم ، فإنّهم لم يدّخر عنهم خير خبّئ لكم دونهم لفضل عندكم ، وهم أصحاب رسول اللّه ﷺ الّذين اختارهم له وبعثه فيهم ، ووصفهم فقال : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ ﴾ [الفتح:٢٩] [5].

---

(١) سنن الدّارمي: في باب كراهية أخذ الرّأي . ولم يذكر قوله : " كلّ بدعة ضلالة " : ٨٠/١ . معجم الطّبراني الكبير: ١٥٤/٩ . شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة : ٨٦/١ . الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية : ٣٢٨/١ .

(٢) سنن الدّارمي: نحوه عن شريح (رحمه الله) . باب تغيّر الزّمان وما يحدث فيه . ٧٧/١ . شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة : ٨٦/١ . أعلام الموقّعين : ١٥٠/٤ .

(٣) سنن الدّارمي: باب من هاب الفتيا ، وكره التّنطّع والتّبدّع : ٦٥/١ . و انظر : الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية : ٣١٩/١ .

(٤)شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة : ٩٢/١ .

(٥) أعلام الموقّعين : ١٥٢/٤ .

وقال البربهاري (رحمه الله) :

" واحذر صغار المحدثات ، فإنّ صغار البدع تعود حتّى تصـــير كبـــاراً ، وكذلك كلّ بدعة أحدثت في هذه الأمّة كان أوّلها صغيراً يشبه الحقّ ، فاغتر بذلك من دخل فيها ثمّ لم يستطع المخرج منها ، فعظمت ، وصارت ديناً يـــدان بـــه ، فخالف الصّراط المستقيم فخرج من الإسلام ".[1]

وقال الآجرّي (رحمه الله) :

" رحم اللّه عبداً حذر هذه الفرق ، وجانب البدع ، واتّبع ولم يبتدع ، ولـــزم الأثر ، وطلب الطّريق المستقيم ، واستعان بمولاه الكريم " .[2]

وأقوالهم كثيرة لا تحصى ، وكلّها تذمّ البـــدع ، وتكشـــف عـــن خطرهـــا وضررها ، وتأمر بسلوك الصّراط المستقيم ، ومنهج السّلف الصّالح رحمهم اللّه ، والثّبات عليه . لأنّ منهج السّلف يكمن في الاتّباع وليس الابتداع ، إذ هـــو قـــائم على تجريد الاتّباع لرسول اللّه ﷺ ، وتحكيمه في جميع أمور الدّين ، والسّـــير على طريق أصحابه ﷺ ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين . ولذا كان أهل هـــذا المنهج أبعد النّاس عن البدع وأكثرهم نفوراً منها .

قال أبو بكر الإسماعيلي (رحمه الله) في كتابه اعتقاد أئمّـــة الحديـــث ، تحـــت عنوان : وجوب لزوم مذهب أهل الحديث الفرقة النّاجية . قال :

" هذا أصل الدّين والمذهب اعتقاد أئمّة أهل الحديث الّذين لم تشنهم بدعـــة ، ولم تلبسهم فتنة ، ولم يخفّوا إلى مكروه في دين ، فتمسّكوا معتصمين بحبل اللّـــه جميعاً ولا تفرّقوا عنه ، واعلموا أنّ اللّه تعالى أوجب محبّته ومغفرتـــه لمتّبعـــي رسوله ﷺ في كتابه ، وجعلهم الفرقة النّاجية والجماعة المتّبعة " [3]

---

(١) طبقات الحنابلة : ١٨/٢ . وهو في كتاب شرح السنة : ص : ٢٣ . وبه زيادة طفيفة .

(٢) الشّريعة : ص : ٢٥ .

(٣) ص : ٤٠ .

فمن رغب في الثّبات على منهجهم فعليه أن يسلك ما سلكوا ، ويسير كما ساروا فيجتنب البدع ، ويحذر من المحدثات ، ويفارق الضّلالات ، ويجانب المنكرات ليثبت كما ثبتوا ، ويسلم كما سلموا فيفوز بما فازوا ، ويسعد بما سعدوا .

﴿ المطلب الرّابع ﴾

التّقليــد بغير دليل

هو عبارة عن اتّباع الإنسان غيره فيما يقول أو يفعل ، معتقداً للحقيقة فيــه ، من غير نظر وتأمّل في الدّليل ، كأنّ هذا المتَّبِع جعل قول الغير أو فعله قلادة في عنقه ، وعبارة عن قبول قول الغير بلا حجّة ولا دليل .(١)

وهذا أمر مذموم ، لأنّ اللّه سبحانه لم يشرع لأحد من الخلق أن يلتزم بقول كائن من كان ، يُوجب ما يوجبه ، ويُحرّم ما يحرّمه ، ويبيح مــا يبيحــه غــير رسول اللّه ﷺ . فهو الّذي أمر اللّه باتّباعه ، والــتزام قولــه واجتنــاب نهيــه ، وتصديق خبره . وأمّا سواه فيؤخذ من قوله ويترك ، ولا يجعل قوله حجّة علــى دين اللّه ، إذ الحجّة في كتاب اللّه وسنّة رسوله ﷺ .

ولذا ذمّ اللّه في كتابه أناساً قلّدوا آباءهم وزعماءهم وســادتهم دون حجّــة ودليل ، ولو كان ذلك في مخالفة الحقّ .

فقــال تعــالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة:١٧٠] .

وقــال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [المائدة:١٠٤].

وبيّــن ســبحانه أنّ تلــك عــادة لــم تشــذ عنــها أمّــة مــن الأمــم .

فقــال ســبحانه : ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ

---

(١) التّعريفات : ص : ٩٠ . وانظر : التّوقيف على مهمّات التّعاريف : ٢/١٩٩ .

إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

[الزخرف:٢٢-٢٣] .

وقال في اتّباع الرّؤساء والكــــبراء وتقليدهــم : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأحزاب:٦٦-٦٨].

والآيات وإن كانت في شأن الكفّار إلاّ إنّها دالّة على ذمّ التّقليد . ولذا احتــجّ بها أهل العلم .

قال ابن القيّم (رحمه الله) بعد إيراده لكثير من الآيات الدّالة على ما ذكرت :

" ومثل هذا في القرآن كثير من ذمّ تقليد الآباء والرّؤساء ، وقد احتجّ العلماء بهذه الآيات في إبطال التّقليد ، ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجــاج بــها ، لأنّ التّشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر، وإنّما وقع التّشبيه بين المقلّدين بغير حجّة للمقلّد ، كما لو قلّد رجلاً فكفر ، وقلّد آخر فأذنب ، وقلّد آخر في مسألة فأخطأ وجهها ، كان كلّ واحد ملوماً على التّقليد بغير حجّة ، لأنّ كلّ ذلك تقليــد يشبه بعضه بعضاً وإن اختلفت الآثام فيه " .(1)

وقال الشّوكاني (رحمه الله) :

" فهذه الآيات وغيرها ممّا ورد في معناه ناعية على المقلّدين ما هم فيــه ، وهي وإن كان تنزيلها في الكفّار لكنّه قد صحّ تأويلها في المقلّدين لاتّحاد العلّــة ،

---

(١) أعلام الموقّعين : ٢/ ١٧٢ .

وقد تقرّر في الأصول أنّ الاعتبار بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب ، وأنّ الحكم يدور مع العلّة وجوداً وعدماً " .[1]

فأقوال الآباء والرّؤساء والعلماء لا تؤخذ على سبيل الإطلاق وإنّما تقيّد بالشّرع ، إذ المعصوم الّذي تؤخذ أقواله على إطلاقها هو رسول اللّه ﷺ ، ولذلك قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء:٥٩].

فقد أمر سبحانه بطاعته وطاعة رسوله على إطلاقها ، وقيّد طاعة ولاة الأمر وهم العلماء والأمراء بطاعة اللّه ورسوله ، وهذا سرّ عدم تكرار الفعل : " أطيعوا " مع ولاة الأمر.[2]

وقد جاءت أقوال أهل العلم ذامّة لكلّ من نصّب شخصاً سوى رسول اللّه ﷺ ، يأخذ بكلّ ما قال مأخذ التّسليم من غير دليل يؤيّد ما ذهب إليه .

قال عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه :

" ألا لا يقلّدنّ رجل رجلاً دينه ، فإن آمن آمن ، وإن كفر كفر ، فإن كان مقلّداً لا محالة فليقلّد الميّت ويترك الحي ، فإنّ الحي لا تؤمن عليه الفتنة " [3]

---

(١) القول المفيد في أدلّة الاجتهاد والتّقليد لمحمّد بن علي الشّوكاني تحقيق : عبد الرّحمن عبد الخالق . الطّبعة الثّالثة. ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م . دار القلم – الكويت : ص: ٧٢ .

(٢) انظر معنى الآية في : تفسير القرآن العظيم : ٧٨٥/١ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١٤٨ .

(٣) سنن البيهقي: باب ما يقضي به القاضي ، ويفتي به المفتي ، فإنّه غير جائز له أن يقلّد أحداً من أهل دهره . ١٦٦/١٠ . و انظر : ١٠/٢ . معجم الطّبراني الكبير: ١٥٢/٩ . شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة : ٩٣/١ . القول المفيد : ص : ٧٣ .

وقال معاوية ﷺ لابن عبّاس (رضي الله عنهما) : أنت على ملّة علي ؟ قال : لا ، ولا على ملّة عثمان ، ولكن على ملّة النّبي ﷺ " .[1]

وأقوال أهل العلم من غير الصّحابة ﷺ كثيرة لا تحصى . من ذلك :

ما قاله ابن حزم (رحمه الله) :

" إنّ التّقليد لا يحلّ البتّة ، وإنّما التّقليد أخذ المرء قول من دون رسول اللّه ﷺ ممّن لم يأمرنا اللّه عزّ وجلّ باتّباعه قطّ ، ولا يأخذ قوله ، بل حرّم علينا ذلك ونهانا عنه ... إنّ امرءاً لو اتّبع أحداً دون رسول اللّه ﷺ في قول قاله لأنّ فلاناً قاله فقط ، واعتقد أنّه لو لم يقل ذلك الفلان ذلك القول لم يقل به هو أيضاً فإنّ فاعل هذا القول مقلّد مخطئ ، عاصي لله تعالى ولرسوله ، ظالم آثم سواء كان قد وافق قوله ذلك الحقّ الّذي قاله اللّه ورسوله أو خالفه ، وإنّما فسق لأنّه اتّبع من لم يؤمر باتّباعه ، وفعل غير ما أمره اللّه عزّ وجلّ أن يفعله " .[2]

وما قاله الشّاطبي (رحمه الله) :

" يرى الإنسان رجلاً يحسن اعتقاده فيه فيفعل فعلاً محتملاً أن يكون مشروعاً أو غير مشروع فيقتدي به على الإطلاق ، ويعتمد عليه في التّعبّد ، ويجعله حجّة في دين اللّه ، فهذا هو الضّلال بعينه ما لم يتّبت بالسّؤال والبحث عن حكم الفعل ممّن هو أهل الفتوى " .[3]

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة : ٩٤/١ .

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنّحل : ٣٦/٤-٣٧ .

(٣) الاعتصام : ١٨١/٢ .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" إنّ من نصّب إماماً فأوجب طاعته مطلقاً اعتقاداً أو حالاً فقد ضلّ في ذلك ، كأئمّة الضّلال الرّافضة الإماميّة [1] حيث جعلوا في كلّ وقت إماماً معصوماً تجب طاعته . فإنّه لا معصوم بعد الرّسول ، ولا تجب طاعة أحد بعده في كلّ شيء " [2] . وقال :

" ولا يجب على أحد من المسلمين تقليد شخص بعينه من العلماء في كلّ ما يقول : ولا يجب على أحد من المسلمين التزام مذهب شخص معيّن غير الرّسول ﷺ في كلّ ما يوجبه ويخبر به ، بل كلّ أحد من النّاس يؤخذ من قوله ويترك إلاّ رسول اللّه ﷺ " .[3]

وقال ابن القيّم (رحمه الله) :

" قال تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً [4]﴾ [التوبة:١٦] ولا وليجة أعظم ممّن جعل رجلاً بعينه مختاراً على كلام اللّه ، وكلام رسوله ،

---

(١) الإماميّة : طائفة من الرّافضة قالوا بإمامة علي رضي الله عنه بعد النّبي ﷺ بالنّصّ الظّاهر . وكفّروا معظم الصّحابة رضي الله عنهم . وقالوا باثني عشر إماماً ، دخل آخرهم السّرداب بسامرّاء ، وأنّهم معصومون ، وتجري على أيديهم المعجزات وخوارق العادات . وهم طوائف شتّى ، ولهم كثير من العقائد والأفكار الباطلة .

و انظر : الفرق بين الفرق : ص : ٣٨-٥٤ . الملل والنّحل : ١٦٢/١-١٧٣ . اعتقادات فرق المسلمين والمشركين : ص : ٥٣-٥٦ . التّعريفات : ص : ٥٣ . التّوقيف على مهمّات التّعاريف : ٩١/٢ .الموسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب المعاصرة : ص : ٢٩٩-٣٠٤ .

(٢) مجموع الفتاوى : ٦٩/١٩ .

(٣) المرجع السّابق : ٢٠٩/٢٠ .

(٤) قال الرّاغب (رحمه الله) : " الوليجة : كلّ ما يتّخذه الإنسان معتمداً عليه وليس من أهله ، من قولهم فلان وليجة في القوم : إذا لحق بهم وليس منهم ، إنساناً كان أو غيره " . المفردات : ص : ٥٣٢ . فوليجة الرّجل: بطانته وخاصّته ودخلته . وهي مأخوذة من وَلَجَ يَلِجُ وُلُوجاً ولِجَةً إذا دخل . أي : لم يتّخذوا بينهم وبين الكافرين دَخِيلَةَ مَوَدَّةٍ . انظر : لسان العرب : ٤٠٠/٢ .

وكلام سائر الأمّة ، يقدّمه على ذلك كلّه ، ويَعْرِض كتاب اللّـه وسـنّة رسـوله وإجماع الأمّة على قوله ، فما وافقه منها قبله لموافقته لقوله ، وما خالفـه منـها تلطّف في ردّه ، وتطلّب له وجوه الحيل ، فإن لم تكن هذه وليجة فلا نـدري مـا الوليجة ". (١)

وما جاء تحذير هؤلاء العلماء الأجلاّء – وغيرهم كثير – عن التّقليد إلاّ لما فيه من أضرار بالغة تعصف بالمسلم الّذي أقحم نفسه فيه فتبعـده عـن طريـق الهدى ، وتلقي به في مهاوي الرّدى إن لم يتداركه مولاه برحمـة تـأخذ بيـده ، وتقوده إلى الطّريق المستقيم .

فالتّقليد بدعة محدثة أوجدت بعد القرون المفضّلة ، واسـتطاع الشّـيطان – عليه لعائن اللّه – أن يستدرج به فئة عظيمة من الأمّة فيجرفهم عن اتّباع رسـول اللّه ﷺ إلى اتّباع غيره من البشر ، وإنزال أقوالهم منزلة الشّرع الحنيف ، حيـث تعظّم أقوالهم وتقدّس ، ويدافع عنها ، ويُبغَض لأجلها ويُحَبّ .

قال عبد الرّحمن عبد الخالق :

" دعوة التّقليد دعوة غير إسلاميّة ، لأنّه لا نصّ عليها من كتاب أو سـنّة أو قول صاحب للنّبي أو قول إمام أو قول عالم يعتدّ بعلمه ، أو حتّى عقل صحيـح يميّز بين الحقّ والباطل ، والنّور والظّلام ". (٢)

وما حدث التّقليد إلاّ حين ضعف العلم ، وتمسّك به الجهّال والعوام ، وعمّت به البلوى على ممرّ الدّهور في الأنام . (٣)

---

(١) أعلام الموقّعين : ١٧٠/٢ .

(٢) السّلفيون والأئمّة الأربعة : لعبد الرّحمن عبد الخالق ، الطّبعة الثّانية ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م . النّاشر : الدّار السّلفيّة ، الكويت مطابع دار القبس الكويت . ص : ٤٩ . وكون التّقليد بدعة محدثة . انظر : القول المفيد : ص: ٣٩، ٤٣ ، ٤٥ .

(٣) أبجد العلوم لصدّيق بن حسن القنوجي . تحقيق : عبد الجبار زكار . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت . ١٩٧٨م : ١٥٩/٣ .

والّذي تولّى أمر التّقليد هم الجهّال ، وأمّا أهل العلم فلا يقلّدون ، إذ التّقليد ليس علماً .

قال ابن عبد البر (رحمه الله) :

" قال أهل العلم والنّظر : حدّ العلم التّبيين وإدراك المعلوم على ما هو به ، فمن بان له الشّيء فقد علمه ، قالوا : والمقلّد لا علم له ، ولم يختلفوا في ذلك " .[1]

قال ابن القيّم (رحمه الله) معلّقاً على قول ابن عبد البر (رحمه الله) :

" فإنّ النّاس لا يختلفون أنّ العلم هو المعرفة الحاصلة عن الدّليل ، وأمّا بدون الدّليل فإنّما هو تقليد ... فإنّ العلماء هم ورثة الأنبياء ، فإنّ الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنّما ورّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظّ وافر ،[2] وكيف يكون من ورثة الرّسول ﷺ من يجهد ويكدح في ردّ ما جاء به إلى قول مُقَلَّده ومتبوعه ، ويضيّع ساعات عمره في التّعصّب والهوى ولا يشعر بتضيعه ؟ تاللّه إنّها فتنة عَمَّتْ فأعمت ، ورمت القلوب فأصمَّتْ ، ربا عليها الصّغير ، وهَرِم فيها الكبير ، واتّخذ لأجلها القرآن مهجوراً ، وكان ذلك بقضاء اللّه وقدره في الكتاب مسطوراً . ولمّا عمّت بها البليّة ، وعظمت بسببها الرّزيّة ، بحيث لا يعرف أكثر النّاس سواها ، ولا يعدّون العلم إلاّ إيّاها ، فطالب الحقّ من مظانّه لديهم مفتون ، ومُؤْثِره على ما سواه عندهم مغبون نصبوا لمن خالفهم في طريقتهم الحبائل ، وبغوا له الغوائل ، ورموه عن قوس الجهل والبغي والعناد ، وقالوا لإخوانهم: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴾ [غافر:٢٦] " [3] .

---

(١) جامع بيان العلم : ص : ٤٤٩ . وانظر : تيسير العزيز الحميد : ص : ٤٨٥ .

(٢) اقتباس من حديث أبي الدّرداء ﷺ الّذي مرّ ذكره . ص : ٤٧٠ .

(٣) أعلام الموقّعين : ١/٧-٨ .

ولمّا كان المقلّدة ليسوا من أهل العلم أغلق أمامهم باب الوحدة ، واجتماع الكلمة ، وتفرّقت بهم الآراء ، وشتّت جمعهم المذاهب ، وحلّت بهم الفرقة ، وتباينت أقوالهم ، واختلفت مشاربهم ، واتّسع الخلاف بينهم ، إذ كلّ منهم تعلّق بقول مُقَلَّده لا ينفك عنه بحال من الأحوال ، وقد يكون ذلك المقَلَّد بنى قوله على حديث ضعيف لا تثبت به حجّة ، أو اجتهد رأياً لا يؤيّده دليل ، أو ظنّ ظنّاً لا مستند له ، وقد يكون في ذلك معذوراً . ولكن ما عذر من تشبّث بقوله ، وأقامه مقام المعصوم الّذي لا يخطئ ، ودفع كلّ قول يخالفه ولو كان من عند المعصوم ﷺ ، وهل هذا إلاّ فتح لباب الشّقاق والشّتات والتّفرّق بين الأمّة الواحدة .

ورحم الله ابن القيّم حين قال :

" إنّما كثر الاختلاف وتفاقم أمره بسبب التّقليد وأهله ، وهم الّذين فرّقوا الدّين وصيّروا أهله شيعاً ، كلّ فرقة تنصر متبوعها ، وتدعوا إليه ، وتذمّ من خالفها ، ولا يرون العمل بقولهم حتّى كأنّهم ملّة أخرى سواهم ، يَدْأبُون ويكدحون في الرّدّ عليهم ، ويقولون : كتبهم وكتبنا ، وأئمّتهم وأئمّتنا ، ومذهبهم ومذهبنا . هذا والنّبي واحد ، والقرآن واحد ، والدّين واحد ، والرّب واحد . فالواجب على الجميع أن ينقادوا إلى كلمة سواء بينهم كلّهم ، وأن لا يطيعوا إلاّ الرّسول ، ولا يجعلوا معه من يكون أقواله كنصوصه ، ولا يتّخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله . فلو اتّفقت كلمتهم على ذلك ، وانقاد كلّ واحد منهم لمن دعاه إلى الله ورسوله ، وتحاكموا كلّهم إلى السّنّة وآثار الصّحابة لقلّ الاختلاف وإن لم يعدم من الأرض . ولهذا تجد أقلّ النّاس اختلافاً أهل السّنّة والحديث ، فليس على وجه الأرض طائفة أكثر اتّفاقاً وأقلّ اختلافاً منهم لمّا بنوا على هذا الأصل ، وكلّما كانت الفرقة عن الحديث أبعد كان اختلافهم في أنفسهم أشدّ وأكثر ، فإنّ من ردّ الحقّ مرج[1] عليه أمره ، واختلط عليه والتبس عليه وجه الصّواب ،

---

(١) مرج : أي اختلط . وبابه طرب . انظر : مختار الصحاح : ص : ٦٢٠ . لسان العرب : ٢/٣٦٥ .

فلم يدر أين يذهب ، كما قال تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝ ﴾ [ق:٥] [١] .

ومن هنا كان التّقليد مزلقاً من المزالق الّتي تحرف عن الصّراط المستقيم ، والمنهج الحقّ ، لأنّه اتّباع لآراء الرّجال ، وتحكيم لأقوالهم في نصوص الشّرع العاصمة من الزّلل ، المبعدة من الخلاف ، المؤدّية إلى الثّبات على المنهج .[٢]

---

(١) أعلام الموقّعين : ٢٢٦/٢ . ولمزيد بيان عن التّقليد وأنّه من أسباب الاختلاف والتّفرّق ، انظر : القول المفيد : ص:٤٥-٤٦ . بين متّبع ومقلّد أعمى في فروع الفقه لعامر سعيد الزّيباري . الطّبعة الأولى : ١٤١٦هـ — ١٩٩٥م . دار ابن حزم — بيروت . ص : ٧٦ ، ٨٧ .

(٢) لا يفهم من هذا الطّعن في أئمّة الإسلام وعلمائه الأجلاّء واحتقارهم وازدراء أقوالهم ، وخاصّة الأئمّة الأربعة رحمهم الله .

فأهل العلم والأئمّة يُجلّون ويقدّرون ويُعرف لهم فضلهم ومكانتهم وأمانتهم ، فقد كانوا ناصحين لله ورسوله والمسلمين ، وإنّهم أرادوا الحقّ ، وحرصوا على إبلاغه للنّاس .

فأقوالهم موضع الاحترام والتّقدير ، يستعان بفهمهم ، ويستضاء بنور علمهم لبيان معنى النّصوص . فيؤخذ منها ما وافق الدّليل ويردّ ما خالفه ، فلا تهدر كلّ أقوالهم ، ولا يسلّم لها كلّها . فهم بشر يخطئون ويصيبون ، وهم معذورون فيما ذهبوا إليه بل مأجورون ، لقوله ﷺ : " إذا حكم الحاكم فاجتهد ثمّ أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر " . ــ البخاري : ص : ١٥٤٣ . برقم (٧٣٥٢) . مسلم : ١٣٤٢/٣ . برقم : (١٧١٦) ــ فهم أرادوا الحقّ ، وسعوا إليه ، واجتهدوا في الوصول إليه ، ولكن لا يعني هذا قبول كلّ ما قالوه ، فقد يقع منهم الخطأ والهفوة . ولذا نهوا عن تقليدهم وحذّروا منه .

قال الشّافعي (رحمه الله) : " أجمع النّاس على أنّ من استبانت له سنّة عن رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من النّاس" ــ أعلام الموقّعين : ٢٨٢/٢ ــ فأقوالهم تعرض على النّصوص وتوزن بميزانها ، وفي هذا اقتداء بهم ، لأنّهم أوصوا بالتّمسّك بالنّص ، وعرض أقوالهم عليه فما أيّده أخذ ، وما عارضه ردّ . قال مالك (رحمه الله) : " ليس أحد إلاّ يؤخذ من قوله ويدع غير النّبي ﷺ " ــ معجم الطّبراني الكبير: ٣٣٩/١١ ــ وهم ما بلغوا منزلة الإمامة في الدّين إلاّ لتباعهم كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ . والمسلم يأخذ بكلّ قول وافق الدّليل ولا يعيّن أحداً بعينه ، وينصّب أقواله بأنّها الحقّ لا سواه ، بل ضالّته الحقّ أينما وجده أخذه .

ولمزيد بيان في هذا الجانب : انظر : مجموع الفتاوى : ٢٤٩/٢٢ . أعلام الموقّعين : ٢٠٩/٢ ، ٢٩٥/٣ . الرّوح :ص:٢٦٤ . القول المفيد : ٤٢، ٥٤-٦١ .

قال الشّاطبي (رحمه الله) :

" ولقد زلّ بسبب الإعراض عن الدّليل والاعتماد على الرّجال أقوام خرجوا بسبب ذلك عن جادّة الصّحابة والتّابعين ، واتّبعوا أهواءهم بغير علم فضلّوا عن سواء السّبيل " . (١)

فالأخذ بالدّليل الشّرعي من الكتاب والسّنّة دون الالتفات إلى قول من خالفه من أهل العلم مهما كانت منزلته هو الحقّ العاصم من الزّيغ ، إذ نحن متعبَّدون بكلام اللّه ورسوله لا بأقوال البشر .

وأقوال أهل العلم لا تجعل أصلاً تحمل عليه الأدلّة بل هي تابعة لا متبوعة . ومن الخلل في المنهج أن تعظّم تلك الأقوال ويتعدّى بها مقامها ، وتسخّر النّصوص لخدمتها ، بل تلوى أعناقها لتصبّ في مصبّها ، دعك عن التّبريرات والتّأويلات الباردة . وتعظم المصيبة إن كان المُبَرِّر لقوله من المنظّرين الّذين خلا وفاضهم من علم الكتاب والسّنّة ، من المتربّعين على قمم الجماعات المنتسبة للإسلام ، أو الأحزاب الّتي ضجّ منها أهل الإسلام ، والّتي شوّهت جماله وذهبت ببهائه . والّتي دفعت فئة عظيمة من أمّة الإسلام إلى الانحراف عن المنهج القويم ، وتنكّب سلوك الصراط المستقيم .

---

(١) الاعتصام : ٢/٣٤٧ .

﴿المطلب الخامس﴾

التّأويـــل بغير حجّة

قال الرّاغب الأصفهاني (رحمه الله) :

" التّأويل من الأوْل أي الرّجوع إلى الأصل ، ومنه المَوْئِلُ للموضع الّـــذي يُرْجَع إليه ، وذلك هو ردّ الشّيء إلى الغاية المرادة منه ، علماً كان أو فعلاً ، ففي العلم نحو : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران:٧] وفـــي الفعل كقول الشّاعر : وللنّوى قبل يوم البَيْن تأويل " [١] .

وقد صار لفظ التّأويل بتعدّد الاصطلاحات مستعملاً في ثلاثة معان :

الأوّل : التّأويل في كتاب اللّه وسنّة رسوله ، وهو الحقيقة الّتي يؤول إليـــها الكلام . فإنّ الكلام نوعان : خبر وطلب ، فتأويل الخبر : هو عين المخـــبر بـــه كقول يوسف عليـــه السّــلام : ﴿ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّاۖ ﴾ [يوسف:١٠٠] .

وتأويل الأمر : هو نفس الفعل المأمور به ، كقول عائشة (رضـــي الله عنـــها) : " كان رسول اللّه ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : " سبحانك اللّهم ربّنا وبحمدك اللّهم اغفر لي" . يتأوّل القرآن " . [٢]

---

(١) المفردات : ص : ٣١ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه ــ إلا إنّها قالت : " كان النّبي " ــ في : كتاب الأذان (الصّــلاة) : (٥/١٠) . بــاب التّسبيح والدّعاء في السّجود : (٢٩٠/١٣٩) . برقم: (٨١٧) . ص : ١٧٩ . وبلفظ مقارب في: باب الدّعـاء في الرّكوع : (٢٧٤/١٢٣) . برقم: (٧٩٤) . ص : ١٧٥ . وفي كتاب المغازي : (٣٨/٦٤) . بــاب : (٥٢/٥١) . برقم: (٤٢٩٣) . ص : ٨٩٣ . و نحوه في: كتاب التّفسير : (٣٩/٦٥) . باب سورة إذا جاء نصر اللّــه : (١) . برقم: (٤٩٦٧ ، ٤٩٦٨) . ص : ١٠٩٦ .

صحيح مسلم: بلفظه و بلفظ مقارب في: : كتاب الصّلاة : (٤) . باب ما يقال في الرّكوع والسّـجود : (٤٢) . برقم: (٤٨٤) . ١/٣٥٠-٣٥١ .

الثّاني : التّأويل عند السّلف من أهل التّفسير والفقه والحديث مراد به تفسير الكلام وبيانه ، سواء وافق ظاهره أو خالفه ، وهو يحمد حقّه ويردّ باطله ، كقول ابن جرير (رحمه الله) : " القول في تأويل قوله تعالى كذا " : يريد تفسيره . وكقول الإمام أحمد (رحمه الله) في الرّدّ على الجهميّة : " فيما تأوّلته من القرآن على غير تأويله " : أي على غير تفسيره .

الثّالث : التّأويل في اصطلاح كثير من المتأخرين من المتكلّمين في الفقه وأصوله وغيرهم : وهو صرف اللّفظ عن ظاهره ومعناه الرّاجح إلى معنى محتمل مرجوح لدليل يقترن به .(١)

فالتّأويل الّذي يوافق ما دلّت عليه النّصوص وجاءت به السّنّة ويطابقها هو التّأويل الصّحيح ، والتّأويل الّذي يخالف ما دلّت عليه النّصوص وجاءت به السّنّة هو التّأويل الفاسد .(٢)

والحديث يرتكز هنا على النّوع الثّالث من أنواع التّأويل وهو ما عرف في اصطلاح المتأخرين ، وهو أمر محدث لا عهد للسّلف به ، ومنه المذموم المخالف لأدلّة الكتاب والسّنّة ، والّذي سلّطه أهل البدع والضّلال على نصوص الوحي فحرّفوها ، ومالوا بها عن حقائقها ومراد اللّه ورسوله منها .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" وأمّا التّأويل المذموم والباطل فهو تأويل أهل التّحريف والبدع الّذين يتأوّلون على غير تأويله ، ويدّعون صرف اللّفظ عن مدلوله إلى غير مدلوله

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى : ٣/٥٥-٥٧ . الصّواعق المرسلة : ١/١٧٦-١٧٨ . شرح العقيدة الطّحاوية : ص : ٢٣٢-٢٣٤ . طبعة المكتب الإسلامي .

والاصطلاح الثّالث هو الّذي دأب عليه المتأخرون في تعريف التّأويل . انظر : التّعريفات : ص : ٧٢ . التّوقيف على مهمّات التّعاريف : ص : ١٥٦-١٥٧ . ولذا ضربت صفحاً عن ذكر تعريفاتهم عند مبدأ تعريفي للتّأويل ، واكتفيت بتعريف الرّاغب الأصفهاني (رحمه الله) .

(٢) الصّواعق المرسلة : ١/١٨٧ .

بغير دليل يوجب ذلك ، ويدّعون أنّ في ظاهره من المحـــذور مـــا هـــو نظـــير المحذور اللاّزم فيما أثبتوه بالعقل ، ويصرفونه إلى معان هي نظير المعاني الّتـــي نفوها عنه ، فيكون ما نفوه من جنس ما أثبتوه ، فإن كان الثّابت حقّاً ممكناً كـــان المنفي مثله ، وإن كان المنفي باطلاً ممتنعاً كان الثّابت مثله " (١) .

وأصل إرث هذا التّأويل من اليهود عليهم لعائن اللّه الّذيـــن وســـمهم اللّـــه بالتّحريف في آيات كثر منها قوله تعالى : ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [النساء:٤٦]. وقوله سبحانه : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [المائدة:١٣].

والتّحريف نوعان : تحريف لفظ وتحريف معنى ، والثّاني منها هو التّأويل ، وهو كثير ، وقد ابتليت به طوائف من هذه الأمّة .(٢)

وقد فتحوا به الباب على مصراعيه ليلج منه كلّ مشرك ومبتـــدع وضـــال فيُعمل عقله في نصوص الوحي ، ويواجهها بالتّأويلات الباطلة ، ويصرفها إلـــى المعاني المنحرفة ليصل إلى بغيته وهواه .

والشّرع إذا أحيل للتّأويل انحلت عراه ، ووهى أمره ، ولا يشاء أحد مـــن أهل الضّلال أن يأوّل نصّاً فيحرفه إلى ما يريد إلاّ وجد إلى ذلك ســـبيلاً ، إذ لا قاعدة تضبط ما يسوّغ تأويله ممّا لا يسوّغ .

---

(١) مجموع الفتاوى : ٦٧/٣ .

(٢) انظر : اقتصاد الصّراط المستقيم : ص : ٨ . الصّواعق المرسلة : ٢١٥/١-٢١٧ . وللوقوف على تلك الطّوائـــف الّتي وقعت في التّأويل فحرّفت به معاني النّصوص عن مراد الشّارع بها ، انظر : مجموع الفتاوى : ٢٨٧/١٣ .

قال ابن أبي العز (رحمه الله) مخاطباً من كان سبباً في نشـــأة هـــذه البدعـــة الضّالة :

" فقد فتحتم عليكم باباً لأنواع المشركين والمبتدعين لا تقدرون على ســدّه ، فإنّكم إذا سوّغتم صرف القرآن عن دلالته المفهومة بغير دليــل شــرعي ، فمـــا الضّابط فيما يسوّغ تأويله وما لا يسوّغ ؟ . فإن قلتم ما دلّ القاطع العقلي علـــى استحالته تأوّلناه وإلاّ أقررناه . قيل لكم : وبأيّ عقل نزن القاطع العقلـــي ؟ فـــإنّ القرمطي الباطني يزعم قيام القواطع على بطـــلان ظواهـــر الشّـــرع ، ويزعـــم الفيلسوف قيام القواطع على بطلان حشر الأجساد ، ويزعم المعتزلي قيام القواطع على امتناع روية اللّه تعالى ، وعلى امتناع قيام علم أو كلام أو رحمة به تعالى ، وباب التّأويلات الّتي يدّعي أصحابها وجوبها بالمعقولات أعظم من أن تحصر في هذا المقام ، ويلزم حينئذ محذوران عظيمان :

أحدهما : أن لا نقرّ بشيء من معاني الكتاب والسّنّة حتّى نبحث قبل ذلك بحوثـــاً طويلة عريضة في إمكان ذلك بالعقل ، وكلّ طائفة من المختلفيـــن فـــي الكتـــاب يدّعون أنّ العقل يدلّ على ما ذهبوا إليه ، فيؤول الأمر إلى الحيرة المحذورة .

الثّاني : أنّ القلوب تتخلّى عن الجزم بشيء تعتقده ممّا أخبر به الرّســـول ، إذ لا يوثق بأنّ الظّاهر هو المراد ، والتّأويلات مضطّربة ، فيلزم عزل الكتاب والسّـنّة عن الدّلالة والإرشاد إلى ما أنبأ اللّه به العباد ، وخاصّةُ النّبـــي هـــي الإنبـــاء ، والقرآن هو النّبأ العظيم ، ولهذا نجد أهل التّأويل إنّما يذكرون نصوص الكتـــاب والسّنّة للاعتضاد لا للاعتماد ، إن وافقت ما دعوا أن العقل دلّ عليه قبلـوه ، وإن خالفته أوّلوه ، وهذا فتح باب الزّندقة . نسأل اللّه العافية " (١)

بل تصبح النّصوص عند هؤلاء لا وزن لها ولا قيمـــة ، يُتلاعـــب بـــها ، وتُنتهك حرمتها ، وتسلّط عليها أمواج التّـــأويلات ، وتتقاذفـــها ريـــاح الآراء ،

---

(١) شرح العقيدة الطّحاوية : ص : ٢٣٦-٢٣٧ . طبعة المكتب الإسلامي .

وتحتوشها رماح الأهواء ، وتتخطّفها أيـــدي الاحتمــالات ، وتصــادم بــأنواع الإشكالات ، وتجرّد عن اليقين ، وتصبح عرضة لمطاعن الطّاعنين ، وهل يفسد الدّين إلاّ بهذا المسلك المهين ؟ (١) .

يقول شارح الطّحاوية (رحمه الله) :

" وهذا الّذي أفسد الدّنيا والدّين ، وهكذا فعلــت اليــهود والنّصــارى فــي نصوص التّوراة والإنجيل ، وحذّرنا اللّه أن نفعل مثلهم ، وأبـــى المبطلــون إلاّ سلوك سبيلهم ، وكم جنى التّأويل الفاسد على الدّين وأهله من جناية ، فهل قتــل عثمان ﷺ إلاّ بالتّأويل الفاسد ، وكذا ما جرى في يوم الجمل وصفّين ، ومقتــل الحسين، والحرّة ، وهل خرجت الخوارج ، واعـــتزلت المعتزلــة ، ورفضـت الرّوافض ، وافترقت الأمّة على ثلاث وسبعين فرقة إلاّ بالتّأويل الفاسد ؟ " .(٢)

---

(١) وانظر : الصّواعق المرسلة : ١/٢٩٧-٢٩٨ .

(٢) شرح العقيدة الطّحاوية : ص : ٢٠٤ . طبعة المكتب الإسلامي .

وقد عقد الإمام ابن القيّم (رحمه الله) فصلاً في كتابه القيّم : الصّواعق المرسلة بعنوان : جناية التّأويل على أديــان الرّسل ، وأنّ خراب العالم وفساد الدّنيا والدّين بسبب فتح باب التّأويل . وأفاض (رحمـــه الله) في بيــان ذلــك وإيضاحه بإسلوب بليغ رصين ، كشف من خلاله خطر التّأويل وجنايته على الدّين ، وما أحدثــه مــن مفاســد عظيمة يتصدع لها قلب المسلم . وقد ختم ذلك بقوله : " فقاتل اللّه التّأويل الباطل وأهله ، وأخذ حقّ دينه وكتابه ورسوله وأنصاره منهم ، فماذا هدموا من معاقل الإسلام ، وهدّوا من أركانه ، وقلعوا من قواعده ؟ ولقد تركــوه أرقّ من الثّوب الخلق البالي الّذي تطاولت عليه السّنون ، وتوالت عليه الأهوية والرّياح . ولو بسطنا هذا الفصــل وحده ، وما جناه التّأويل على الأديان والشّرائع وخراب العالم لقام منه عدّة أسفار ، وإنّما نبّهنا تنبيهاً يعلــم بــه العاقل ما وراءه وباللّه التّوفيق " انظر : ١/٣٤٨-٣٨١ .

وانظر في ذلك أيضاً كتابه : أعلام الموقّعين : ٤/٢٥٠-٢٥٤ . فقد عقد فيه فصلاً مشابهاً ، بيّن من خلاله جنايــة التّأويل على الأمم . بل نظم ذلك في قصيدته النّونيّة بما يزيد على أربعين بيتاً ، ذكر فيها ما وقع في الأمّة من فــتن وبلايا بسبب التّأويل . ثمّ قال : وجميع ما في الكون من بدع ****** وأحداث تخالف موجب القرآن

فأساسها التّأويل ذو البطلان ****** لا تأويل ، أهل العلم والإيمــان

إذ ذاك تفسير المراد وكشفه ****** وبيــان معــناه إلى الأذهــان .

انظر : متن القصيدتين النّونيّة والميميّة لابن القيّم . النّاشر : مكتبة ابن تيمية — القاهرة . ١٤٠٧هـــ — ١٩٨٦م : ص : ٧٩-٨٠ .

فمن أعظم جنايته على الأمّة الإسلاميّة أن كان من أسباب التّفرّق والاختلاف الّذي عانت منه الأمّة الأمرّين . فقد سلّطت كلّ فئة من المأوّلة تأويلاتها على آيات القرآن وأخبار الرّسول ﷺ الّتي تعلّق بها المختلفون على اختلاف أصنافهم ، وذهب كلّ منهم فيها مذهبه الّذي يهواه ، فأوجب ذلك من التّباين والتّفرّق ما اللّه أعلم به ، حيث تصدّع الشّمل ، وانقطع حبل الود ، وفسدت ذات البين ، ووقعت الخصومة ، وبلغت مدى استحلّت فيه الأنفس والحُرَم والأموال ، وما هو أشنع وأعظم .[1]

وقد فارق هؤلاء منهج السّلف رحمهم اللّه الّذين اعتصموا بنصوص الوحي فلم يسوموها تأويلاً ، ولم يعصفوا بها تحريفاً وتبديلاً ، بل سلّموا لها القياد ، لعلمهم أنّه " لا تثبت قدم الإسلام إلاّ على ظهر التّسليم والاستسلام ، فمن رام علم ما حظر عنه علمه ، ولم يقنع بالتّسليم فهمه ، حجبة مُرامُه عن خالص التّوحيد ، وصافي المعرفة ، وصحيح الإيمان ، فيتذبذب بين الكفر والإيمان ، والتّصديق والتّكذيب ، والإقرار والإنكار ، موسوساً تائهاً ، شاكّاً ، لا مؤمناً مصدّقاً ، ولا جاحداً مكذّباً ".[2]

ولا يسلم من ذلك إلاّ بترك التّأويل ، ولزوم التّسليم ، وعليه دين المسلمين .[3]

وقد سلِمَ السّلف رحمهم اللّه من هذا التّأويل الّذي هو تحريف ، فعافاهم اللّه من الانحراف والزّيغ ، وأخذ بأيديهم إلى طريق السّلامة ، وأغناهم بنصوص الوحيين عن تأويلات الآراء ، وتوهّمات الأهواء ، لأنّهم علموا أنّ فتح هذا البلب

---

(١) انظر : الصّواعق المرسلة : ٣٤٨/١ .

(٢) متن العقيدة الطّحاوية : ص ١٠ .

(٣) المرجع السّابق : ص:١٠ بتصرّف .

يجرف عن المنهج الحقّ ، ويبعد عن الطّريق المستقيم ، ويزعزع القلـــوب عـــن ثباتها .

قال ابن أبي العز (رحمه الله) في معرض حديثه عن مضار التّأويل :

" إنّ القلوب تتخلّى عن الجزم بشيء تعتقده ممّا أخبر به الرّســـول ، إذ لا يوثق بأنّ الظّاهر هو المراد ، والتّأويلات مضطّربة ، فيلزم عزل الكتاب والسّـنّة عن الدّلالة والإرشاد إلى ما أنبأ اللّه به العباد".[1]

ولذا كفّوا رحمهم اللّه عن الخوض فيه ، وتجنّبوه ، وحذّروا منه ، وألّفـــوا في ذلك الكتب الذّامّة له .[2] وحمدوا اللّه على السّلامة منه .

وفي ذلك يقول ابن القيّم (رحمه الله) :

" فـــاحمد إلهك أيّهـــا السُّـــنِّيُّ إذ ...... عافاك من تحريـــف ذي بُهتـــان

واللّه ما يرضـــى بهـــذا خـــائف ...... من ربّه أمســـى علـــى الإيمـــان

هـــذا هـــو الإلحـــاد حقّاً بل هـــو...... التّحـــريفُ محضاً أبرد الهَذَيـــان

واللّه مـــا بُلِيَ المجسِّمُ قطُّ ذي ال ...... بلـــوى ولا أمـــس بـــذي الخُذْلان

أمثالُ ذا التّأويل أفســـد هـــذه ...... الأديان حين سرى إلى الأديـــان

واللّه لـــولا اللّه حافـــظ دينـــه ...... لتهدّمت منـــه قُـــوَى البنيـــان".[3]

فالتّأويل المنحرف مزلق عظيم لمن سلكه ، يحرف عن المنـــهج الحـــق ، ويؤدّي إلى الزّيغ عن الصّراط المستقيم ، لأنّه يناهض مراد الله تعالى ورسوله ﷺ من نصوص الوحي ، ويعرضّها لتوّهمات العقول ، وسقطات الآراء .

---

(١) شرح العقيدة الطّحاوية : ص: ٢٣٦ . طبعة المكتب الإسلامي .

(٢) مثل كتاب : ذمّ التّأويل لابن قدامة .

(٣) متن القصيدتين النّونيّة والميميّة : ص : ١٩-٢٠ .

﴿المطلب السّادس﴾

اتّباع المتشابـــه

قال اللّه تعـــالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران:٧] .

لقد تباينت أقوال أهل العلم في المراد من الآيات المحكمة والمتشابهة في هذه الآية :

القول الأوّل : المحكمة هي المعمول بــــها : وهـــي النّاســـخة أو المثبتـــة للأحكام ، والمتشابهة هي المتروك العمل بها أو المنسوخة .

الثّاني : المحكمة هي ما أحكم اللّه فيه بيان حلاله وحرامه ، والمتشابهة هي ما أشبه بعضه بعضاً في المعاني وإن اختلفت ألفاظه .

الثّالث : المحكمة هي الّتي لم تحتمل مـــن التّـــأويل غـــير وجـــه واحـــد ، والمتشابهة ما احتمل أوجه من التّأويل .

الرّابع : المحكمة هي ما أحكمه اللّه في القرآن من قصص الأمم ورســـلهم ، ففصّله ببيان ذلك لمحمّد ﷺ وأمّته ، والمتشابهة ما اشتبهت فيها ألفاظ قصصـــــهم عند التّكرار في السّور ، حيث وردت بعضها باتّفاق الألفاظ واختلاف المعـــاني ، وبعضها باختلاف الألفاظ واتّفاق المعاني .

الخامس : المحكمة هي الّتي عرف العلماء تأويلها ، وفهموا معناها وتفسيرها ، والمتشابهة هي الّتي استأثر اللّه بعلم تأويلها دون خلقه .[1]

السّادس : المحكمة هي البيّنة المعنى ، الواضحة الدّلالة ، والمتشابهة هي الّتي لم يتّضح معناها أو تشتبه دلالتها عند كثير من النّاس أو بعضهم .

وهذا القول الأخير هو الّذي يترجّح ، لأنّه شامل لما تقدّم من أقوال ، جامع لها ، إذ كان كلّ قول يعرّف المحكم ببعض صفاته ، ثمّ يعرّف المتشابه بما يقابلها فجاءت تعريفات المحكم والمتشابه فيها ببعض جوانبه.[2] .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" يخبر تعالى أنّ في القرآن آيات محكمات ، هنّ أمّ الكتاب ، أي بيّنات واضحات الدّلالة لا التباس فيها على أحد ، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدّلالة على كثير من النّاس أو بعضهم ، فمن ردّ ما اشتبه إلى الواضح منه وحكّم محكمه

---

(١) انظر : جامع البيان : ٣/١٧٢-١٧٤ . طبعة دار الفكر . وانظر : معالم التّنزيل : ١/٢٨٧-٢٧٩ .

(٢) وانظر :فتح القدير : ١/٣١٤-٣١٥ . وقد أفاض (رحمه الله) في الرّد على تلك الأقوال .

لقد وصف اللّه سبحانه وتعالى القرآن كلّه بأنّه محكم فقال : ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ ﴾ [هود:١] . أي أتقنت وأحسنت ، صادقة في أخبارها ، عادلة في أوامرها ونواهيها ، فصيحة في ألفاظها ، بهيّة في معانيها .

تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٣٣٢ . بتصرّف . وانظر : جامع البيان : ١١/١٧٩-١٨٠ .طبعة دار الفكر . معالم التّنزيل : ٢/٣٧٢ . الجامع لأحكام القرآن : ٩/٢-٣ .أنوار التّنزيل : ٢/٢١٩ . تفسير القرآن العظيم : : ٢/٦٧٥ فتح القدير : ٢/٤٨٠ . كما وصفه سبحانه بأنّه متشابه فقال : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ ﴾ [الزّمر:٢٣] . أي يشبه بعضه بعضاً في الحسن والإحكام والإتقان ، ويصدّق بعضه بعضاً في الائتلاف والاتّفاق ، إذ لا تناقض بين آياته ولا اختلاف . انظر : جامع البيان : ٢٣/٢١٠ . طبعة دار الفكر . معالم التّنزيل : ٤/٧٦ . الجامع لأحكام القرآن : ١٥/٢٤٩ . أنوار التّنزيل : ٥/٦٤ . تفسير القرآن العظيم : ٤/٧٧-٧٨ . فتح القدير : ٤/٤٥. تيسير الكريم الرّحمن : ص: ٦٦٨ .

والتّشابه الموجود هنا في آية الزّمر لا يخالف الإحكام الموجود في آية هود بل هو موافق ومصدّق له ، وليس هو الإحكام والتّشابه الموجود في آية آل عمران فذلك نوع آخر . وهو الّذي أودّ الحديث عنه .

على متشابهه عنده ، فقد اهتدى ، ومن عكس انعكس ، ولهذا قال تعالى : ﴿ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي أصله الّذي يرجع إليه عند الاشتباه ، ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ أي تحتمل دلالتها موافقة المحكم ، وقد تحتمل شيئاً آخر من حيث اللّفظ والتّركيب لا من حيث المراد ".[1]

فإذا تبيّن لنا معنى المتشابه ممّا سبق نجد أنّ اللّه سبحانه وتعالى ذمّ في الآية السّابقة فئة من النّاس مرضت قلوبهم ، وساء قصدهم ، يتّبعون المتشابه ليستدلّوا به على مذاهبهم الباطلة ، وأهوائهم الزّائفة ، ومناهجهم المنحرفة ، إذكاء للفتن ، وتحريفاً لكلام اللّه ، فضلّوا وأضلّوا وانحرفوا عن الصّراط المستقيم ، والمنهج القويم . وهم الّذين عناهم رسول اللّه ﷺ بقوله في حديث عائشة (رضي الله عنها) بعد أن تلا الآية السّابقة . قال : " إذا رأيتم الّذين يتّبعون ما تشابه منه فأولئك الّذين سمّى اللّه فاحذروهم ".[2]

وجاء تحذير الصّحابة ﷺ والتّابعين (رحمهم الله) وأهل العلم منهم ، ومن ضلال مسلكهم ، وانحراف وجهتهم .

قال ابن عبّاس (رضي الله عنهما) :

" ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ﴾ فيحملون المحكم على المتشابه ، والمتشابه على المحكم ، ويلبّسون ، فلبّس اللّه عليهم ".

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٥١٧/١ . وانظر : تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١٠١ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه ــ إلاّ إنّه قال : " فإذا رأيت " ــ في كتاب التفسير : (٦٥/٣٩) . باب ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ ﴾ [آل عمران:٧] : (١) . برقم: (٤٥٤٧) . ص : ٩٤٨ .

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب العلم : (٤٧) . باب النّهي عن اتّباع متشابه القرآن : (١) . برقم: (٢٦٦٥) ٢٠٥٣/٤ .

وقال محمّد بن جعفر بن الزّبير (رحمه الله)[1] :

" ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ﴾ أي ما تحرّف منه وتصرّف ، ليصدّقوا به ما ابتدعوا وأحدثوا ، ليكون لهم حجّة على ما قالوا وشبهة " .[2]

وقال ابن جرير (رحمه الله) :

" فأمّا الّذين في قلوبهم ميل عن الحقّ ، وانحراف عنه ... ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ﴾ ما تشابهت ألفاظه وتصرّفت معانيه بوجوه التّأويلات ، ليحقّقوا بادعائهم الأباطيل من التّأويلات في ذلك ماهم عليه من الضّلالة والزّيغ عن محجّة الحقّ ، تلبيساً منهم بذلك على من ضعفت معرفته بوجوه تأويل ذلك وتصاريف معانيه " .[3]

وقال الشّوكاني (رحمه الله) :

" وهذه الآية تعمّ كلّ طائفة من الطّوائف الخارجة عن الحقّ ... يتعلّقون بالمتشابه من الكتاب فيشكّكون به على المؤمنين ، ويجعلونه دليلاً على ما هم فيه من البدعة المائلة عن الحقّ ، كما تجده في كلّ طائفة من طوائف البدعة ، فإنّهم يتلاعبون بكتاب اللّه تلاعباً شديداً ، ويوردون منه لتلفيق جهلهم ما ليس من

---

(١) محمّد بن جعفر بن الزّبير بن العوام القرشي الأسدي ، المدني . ثقة ، من فقهاء أهل المدينة وقرّائهم .مات بضعة عشرة ومائة .

و انظر : طبقات خليفة : ص : ٢٦٠ . التّاريخ الكبير: ٥٤/١ . الجرح والتّعديل: ٢٢١/٧ . ثقات ابن حبّان: ٣٩٤/٧ . التّعديل والتّجريح: ٦٢٢/٢ . تهذيب الكمال :٥٧٩/٢٤ . الكاشف: ١٦١/٢ . تهذيب التّهذيب: ٨١/٩ . تقريب التّهذيب: ٤٧١/١ .

(٢)هذان الأثران أوردهما الإمام ابن جرير (رحمه الله) في جامع البيان : ١٧٧/٣ . طبعة دار الفكر .

(٣) المرجع السّابق : ٣/ ١٧٦ . نفس الطّبعة .

الدّلالة في شيء ... طلباً لتأويله على الوجه الّـــذي يريدونـــه ليوافـــق مذاهبـــهم الفاسدة " .[1]

وهؤلاء المبتدعة بهذا المسلك انحرفوا عن جادّة الصّواب ، وطريق الحـقّ ، وفارقوا أهل السّنّة والجماعة .

قال الشّاطبي (رحمه الله) :

" فتأمّلوا وجه اتّباع المتشابهات ، وكيف أدّى إلى الضّلال والخـــروج عـــن الجماعة " .[2]

و هم بذلك جانبوا الثّبات على منهج رسول اللّه ﷺ وفارقوه .

---

(١) فتح القدير : ٣١٥/١ . وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٣/٤ أنوار التّتريل : ٧/٢ . تفسير القرآن العظيـــم : ٥١٧/١-٥١٨ . تيسير الكريم الرّحمن : ص:١٠١ . وانظر الاعتصام : ٢٢٠/١-٢٢١ ، ٢٣٣ .

ومن ذلك ادعاؤهم أنّ الآيات والأحاديث الّتي تثبت صفات اللّه تعالى كما يليق به أنّها من المتشابه الّذي يجب تأويله ، ثمّ سلّطوا عليها معاول التّأويل الّذي هو تحريف وتغيير ، فصرفوها عن مراد اللّه منها . فوجه اللّه ذاتـــه ، ويد اللّه قدرته ، ونزوله نزول أمره ، واستواؤه استيلاؤه هكذا ـــ زعموا ـــ وغير ذلك كثير ، وقد أضلّوا بذلـــك عدداً عظيماً من المسلمين لا يستهان به . والأصل في هذا الباب أن يثبت لله ما أثبته لنفسه مـــن أسمائـــه الحســـنة وصفاته العلى ، وما أثبته له رسوله ﷺ من غير تعطيل ولا تكييف ولا تأويل ولا تمثيل ، وهذا مذهـــب السّـــلف الّذي ثبتوا وظلّوا عليه .

وزعمهم بأنّها من المتشابه يستفصلون في ذلك لمعرفة مرادهم ، فإن أرادوا حقائقها وكيفياتهـــا ، فذلـــك قـــول صحيح لأنّه لا أحد يعلم كنه صفاته اللّه وكيفياتها وحقائقها إلاّ هو . وإن أرادوا بذلك معانيها فإنّ السّلف رحمهم اللّه يعرفون معانيها ، ويفرّقون بين صفة وأخرى ، فالسّمع ليس هو البصر ، والعلم ليس هو القدرة ، فإنّـــهم لا يفوّضون في معاني الصّفات وإنّما يفوّضون في كيفياتها .

ولذا قال مالك (رحمه الله) لمّا سئل عـــن قولـــه تعـــالى : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝ ﴾ [طه:٥] فقال : " الاستواء معلوم – أي معناه في اللّغة – والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسّـــؤال عنـــه بدعة " . وانظر : مجموع الفتاوى : ٥٨/٣-٥٩ ، ٦٥-٦٦ . الصّواعـــق المرســـلة : ٢١٠/١ . وقـــول مـــالك (رحمه الله) منسوب أيضاً إلى ربيعة بن عبد الرّحمن (رحمه الله) . انظر : شرح أصـــول اعتقـــاد أهـــل السّـــنّة : ٣٩٨/٣ .

(٢) الاعتصام : ٢٣٤/٢ .

وثبت عليه قوم آخرون هم أهل العلم الرّاسخون فيه ، أي الثّابتون فيـــه ، الّذيـــن استقرّ اليقين في قلوبهم ، وملأ الإيمان أفئدتهم فعلموا أنّ القرآن كلّه حقّ من عنـــد اللّه تعالى ، ما كان منه محكماً أو متشابهاً ، فقد علمـــوا معنـــى المحكـــم منـــه ووضحت لهم دلالته ، وردّوا المتشابه إليه فعاد الجميع محكماً في حقّـــهم ، ومـــا عجزوا عنه من معرفة تأويل المتشابه وكلوا علمه إلى اللّه ، فلـــم يقحمـــوا فيـــه عقولهم ، ولم يصرفوه بأهوائهم كفعل أهل الابتداع ، وذلك لكمال عقولهم وصفـــاء أذهانهم ، فهم أولوا الألباب والنّهى . ومع ذلك دعوا اللّه تعالى أن يثبّتـــهم علـــى الحقّ ، وأن يظلّوا على الطّريق المستقيم ، وألاّ يُميل قلوبهم ويصرفها عن الحـــق إلى الباطل فينحرفوا عن صراط اللّه ، كما مالت قلوب الّذين اتّبعـــوا المتشـــابه فزاغوا عن المنهج القويم .

وفي ذلـــك يقـــول ســـبحانه : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ [آل عمران:٧-٨](١)

وفي الآية قراءتان : قراءة من يقف على اسم الجلالة ، وهم أكثر أهل العلـــم ويكون قوله ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ كلاماً مستأنفاً مقطوعاً عمّا قبله ، ويكون المراد بالمتشابه هنا ممّا استأثر اللّه بعلمه ممّا لم يُطلع اللّه عليه أحداً من خلقـــه ، كعلم السّاعة ، وخروج الدّجال ، ونزول عيسى عليه السّـــلام . ويكـــون معنـــى التّأويل هنا هو الحقيقة الّتي يؤول إليها الأمر الّذي لا يعلمه إلاّ اللّه .

---

(١) وانظر : جامع البيان : ٣/١٧٦-١٨٦ . طبعة دار الفكر . معالم التّنزيل : ١/٢٧٩ . الجامع لأحكام القـــرآن : ٤/١٩-٢٠ . تفسير القرآن العظيم : ١/٥٢١ . فتح القدير : ١/٣١٥ . تيسير الكـــريم الرّحمـــن : ص: ١٠٢ . وانظر : الاعتصام : ١/٢٢٠ .

والقراءة الثّانية قراءة من عطف قوله ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ ﴾ على اسم الجلالة ، فيكون الرّاسخون ممّن يعلم تأويل المتشابه ، ويكون المراد بالمتشابه هنا أمراً نسبياً إضافياً يشتبه على بعض النّاس دون البعض الآخر ، ويراد بالتّأويل هنا التّفسير والبيان . فخصّ اللّه الرّاسخين في العلم بتأويل المتشابه دو سواهم .(١)

قال ابن عبّاس (رضي الله عنهما) :

" أنا من الرّاسخين الّذين يعلمون تأويله " .(٢) وهو الّذي دعا له رسول اللّه ﷺ بقوله : " اللّهم فقّهه في الدّين وعلّمه التّأويل " .(٣)

ومن هنا يتبيّن لنا أنّ اتّباع المتشابه ، وعدم ارجاعه إلى المحكم في دين الله مزلق خطير ، يؤدّي إلى عدم الثّبات على المنهج الحق ، والانحراف عنه ، ولا يثبت إلاّ من حكّم المحكم في المتشابه ، وآمن بأنّ الجميع من عند الله تعالى .

---

(١) وانظر : جامع البيان : ٣/١٨٢-١٨٦ . طبعة دار الفكر . معالم التّتريل : ١/٢٨٠ . الجامع لأحكام القرآن : ٤/١٦-١٨ . أنوار التّتريل : ٢/٨-٩ . تفسير القرآن العظيم : ١/٥٢٠-٥٢١ .فتح القدير : ١/٣١٥. تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١٠٢ . وانظر : ذمّ التّأويل لأبي محمّد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي . تحقيق : بدر بن عبد اللّه البدر . طبعة : الدّار السّلفيّة . الكويت . الطّبعة الأولى : ١٤٠٦هـ . وقد أفاض (رحمه الله) في سياق الحجج على أنّ الوقوف عند اسم الجلالة ، وأنّ الرّاسخين لا يعلمون تأويل المتشابه . ص:٣٧-٤٠ . مجموع الفتاوى :٣/٦٦-٦٨ . أعلام الموقّعين :١/٣٣٢ . شرح العقيدة الطّحاوية : ص : ٢٣٣-٢٣٥ . طبعة المكتب الإسلامي . تيسير العزيز الحميد : ص: ٥١٦ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ١/٥٢٠ .

(٣) مسند أحمد: بلفظه في : ١/٢٦٦ ، ٣١٤ ، ٣٢٨ ، ٣٣٥ . قال أحمد شاكر (رحمه الله): " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٤/١٢٧ ، ٣١٦ . ٥/١٥،٤١ . برقم: (٢٣٩٧ ، ٢٨٨١ ، ٣٠٣٣ ، ٣١٠٢) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: بلفظه في : باب ذكر وصف الفقه والحكمة اللّذين دعا المصطفى ﷺ لابن عبّاس بهما . برقم: (٧٠٥٥) . قال شعيب الأرناؤوط : " إسناده صحيح على شرط مسلم " . ١٥/٥٣١ . مستدرك الحاكم: بلفظه في : ٣/٦١٥ . وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه " . و قال الذّهبي (رحمه الله): " صحيح " .

وأصل هذا الحديث في الصّحيحين :

صحيح البخاري: كتاب الوضوء : (٤) . باب وضع الماء عند الخلاء : (١٠) . برقم: (١٤٣) . ولفظه : " اللّهم فقّهه في الدّين " . ص : ٥٠ . صحيح مسلم: كتاب فضائل الصّحابة : (٤٤) . باب فضائل عبد اللّه بن عبّاس (رضي الله عنهما) : (٣٠) . برقم: (٢٤٧٧) . ولفظه : " اللّهم فقّهه " . ٤/١٩٢٧ .

﴿المطلب السّابع﴾

الجــدال المذموم

الجدال والجدل هو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة . وأصله مــــن جدلت الحبل أي أحكمت فتله ، فكأنّ المتجادلين يفتل كلّ واحد الآخر عن رأيــه ، وقيل : الأصل في الجدال الصّراع ، وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة وهــي الأرض الصّلبة .(١)

وفي الاصطلاح : دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجّة أو شـــبهه ، أو يقصد به تصحيح كلامه ، وهو الخصومة في الحقيقة .(٢)

وقيل : هو التّخاصم بما يشغل عن ظهور الحقّ ووضوح الصّـــواب ، ثـمّ استعمل على لسان حملة الشّرع في مقابلة الأدلّة لظهور أرجحها ، وهو محمــود إن كان للوقوف على الحقّ وإلاّ فمذموم .(٣)

فهو قد يكون محموداً إذا تعلّق بإظهار الحقّ وإيضاحه ، وبذلك أُمر النّبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النّحــل:١٢٥] . وقـد يكـون مذموماً إذا شغل عن ظهور الحقّ ووضوح الصّواب .

---

(١) المفردات : ص : ٨٩-٩٠ بتصرّف .

(٢) التّعريفات : ص : ١٠٢ وانظر الحدود الأنيقة والتّعريفات الدّقيقة لأبي يحى زكريا بن محمّد الأنصاري . تحقيـق : مازن المبارك . طبعة : دار الفكر المعاصر . بيروت . الطّبعة الأولى : ١٤١١هـ : ص: ٧٣ .

(٣) التّوقيف على مهمّات التّعاريف : ص: ٢٣٤ .

وقد نشأ علم يسمّى بعلم الجدل . قالوا في تعريفه : هو علم باحث عن الطّرق الّتي يقتدر بها علـــى إبـــرام أيّ وضع أريد ، ونقض أيّ وضع كان . وهو من فروع علم النّظر ومبنى لعلم الخلاف . مأخوذ من الجدل الّذي هـــو أحد أجزاء مباحث المنطق ، لكنّه خصّ بالعلوم الدّينيّة . ومبادئه بعضها أمور مبيّنة في علـــم النّظـــر ، وبعضـــها خطابيّة ، وبعضها أمور عاديّة . وله استمداد من علم المناظرة المشهور بآداب البحث ، وموضوعه تلك الطّـــرق . والغرض منه : تحصيل ملكة النّقض والإبرام والهدم والإحكام . أبجد العلوم : ٢٠٨/٢.

قال الذّهبي (رحمه الله) :

" فإن كان الجدال للوقوف على الحقّ وتقريره كان محموداً ، وإن كان في مدافعة الحقّ ، أو كان جدالاً بغير علم كان مذموماً ، وعلى هذا التّفصيل تنزّل النّصوص الواردة في إباحته وذمّه " .[1]

والحديث هنا ينصبّ على النّوع المذموم منه إذ هو من الأسباب الّتي تؤدّي إلى الانزلاق عن المنهج وعدم الثّبات عليه .

وقد ذمّ اللّه سبحانه أقساماً من الجدال في كتابه :

فذمّ الجدال بغير علم ، فقال تعالى : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [آل عمران:٦٦] .

وذمّ الجدال بالباطل ، فقال عن الأمم المكذّبة لرسله ، ﴿ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ﴾ [غافر:٥] .

وذمّ الجدال في آياته ، فقال سبحانه : ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ ﴾ [غافر:٤] . وقال : ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [غافر:٣٥] . وقال : ﴿ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الشّورى:٣٥] .

---

(١) كتاب الكبائر للإمام الذّهبي . طبعة : دار النّدوة الجديدة . بيروت : ص : ٢٢٢ . وانظر : نضرة النّعيم : ٤٣٣٩/٩ .

كما ذمّ سبحانه الجدال في اللّه فقال : ﴿ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ [الرّعد:١٣][1] . وقال : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾ [الحج:٣] ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ [الحج:٨] .

ومن الأحاديث المحذّرة عن الجدال المذموم قوله ﷺ في حديث أبي أمامة الباهلي ﷺ : " ما ضلّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلاّ أوتوا الجدل ، ثمّ تلا رسول اللّه ﷺ هذه الآية ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزّخرف:٥٨] .[2]

وحديث عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت : تلا رسول اللّه ﷺ هذه الآية : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران:٧] .

---

(١) انظر : درء التّعاريض : ١/٤٧-٤٨ .

(٢) سنن التّرمذي: بلفظه في : كتاب تفسير القرآن : (٤٣) . باب ومن سورة الزّخرف : (٤٣) . برقم: (٣٢٥٣) وقال : " هذا حديث حسن صحيح " . و قال الألباني (رحمه الله): " حسن " . ص : ٥١٦ .
سنن ابن ماجه: بلفظ مقارب في: المقدّمة . باب اجتناب البدع والجدل : (٧) . برقم: (٤٨) . قال الألباني (رحمه الله): " حسن " . ص : ٢٣ .
مسند أحمد: بلفظه ـــ إلاّ إنّه لم يذكر رسول اللّه ﷺ ـــ في : ٥/٢٥٢ . و بلفظ مقارب في: ٥/٢٥٦ .
مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في: ٢/٤٨٦ . وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه " . و قال الذّهبي (رحمه الله): " صحيح " .
معجم الطّبراني الكبير: بلفظ مقارب في: ٨/٢٧٧ . وقال محقّق جامع الأصول : "إسناده صحيح" . ٢/٧٤٩ .

فقال : " يا عائشة : إذا رأيتم الّذين يجادلون فيه فهم الّذين عناهم اللّه فاحذروهم " .[1]

وأمّا الآثار الّتي وردت عن السّلف رحمهم في ذمّ الجدال الباطل وذمّ أهله فهي كثيرة تفوق حدّ الحصر ، من ذلك :

قال عمر ﷺ :

" إنّه سيأتي ناس يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسّنن ، فإنّ أصحاب السّنن أعلم بكتاب اللّه ".[2]

وقال ابن عبّاس (رضي الله عنهما) :

" أمر اللّه المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة ، وأخبرهم بما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات " [3]

وقال أبو قلابة ﷺ :

" لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم ، فإنّي لا آمن أن يغمسوكم في الضّلالة ، أو يُلبّسوا عليكم ما كنتم تعرفون " .[4]

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه من الصّحيحين . انظر : ص : ٩١٦ . ولكنّه بهذا اللّفظ في : سنن ابن ماجه: المقدّمة . باب اجتناب البدع والجدل : (٧) . برقم: (٤٧) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٢٣ .

(٢) سنن الدّارمي : باب التّورّع عن الجواب فيما ليس فيه كتاب ولا سنّة . ٦٢/١ . انظر :شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة : ١٢٣/١ .

(٣) المرجع السّابق : ١٢٧/١ . و انظر : الشّريعة : ص : ١٣. الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية : ٢٧٦/١.

(٤) سنن الدّارمي: ١٢٠/١ . وانظر : السّنّة لعبد اللّه بن أحمد بن حنبل . تحقيق : د . محمّد سعيد سالم القحطاني . طبعة : دار ابن القيّم . الدّمام . الطّبعة الأولى : ١٤٠٦هـ : ١٣٧/١ . الشّريعة : ص : ٧٠ . شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة: ١٣٤/١ . الاعتقاد للبيهقي : ص : ٢٣٨ .

وقال عمر بن عبد العزيز (رحمه الله) :

" من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التّنقّل".[1]

وقال الأوزاعي (رحمه الله) :

" إذا أراد اللّه بقوم شرّاً ألزمهم الجدل ، ومنعهم العمل".[2]

وقال مالك الإمام (رحمه الله) :

" كلّما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما نزل به جبريل على محمّد ﷺ لجدله " .[3]

وأصل الجدال المذموم هو طريق ومسلك سلكه الفلاسفة الّذين لا يثبتون النّبوّات ، ولا يرون لها حقيقة ليصلوا به إلى المعارف الّتي دفعتهم إليها عقولهم .[4]

ثمّ ورث ذلك أهل الكلام الباطل ، وجلبوه إلى دين الإسلام زعماً منهم أنّهم يردّون به شبهات المبطلين وضلال المنحرفين، فضلّوا الطّريق وانحرفوا عن الحقّ .[5]

وقد ذمّه السّلف رحمهم اللّه وأكثروا من ذمّه لأنّه طريقة مبتدعة محدثة في دين اللّه ، لم يسلكها رسول اللّه ﷺ ، ولم يعهدها الصّحابة رضوان اللّه عليهم من

---

(١) سنن الدّارمي: ١٠٢/١ . السّنّة لعبد اللّه بن أحمد : ١٣٨/١ . تأويل مختلف الحديث : ص: ٦٣ . الشّريعة : ص : ٧٠ . و انظر : الزّهد لابن أبي عاصم : ص : ٣٠٢ .

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة : ١٤٥/١ .

(٣)المرجع السّابق : ١٤٤/١ . و انظر : شعب الإيمان : ٣٥٤/٦ .

(٤) انظر : بيان تلبيس الجهميّة : ٢٥٤/١ .

(٥) انظر : المرجع السّابق : ٢٥٣/١ . شرح العقيدة الطّحاوية : ص : ٢٢٤ . طبعة المكتب الإسلامي . و انظر : إتحاف السّادة المتّقين : ٤٤٩/١ .

بعده – ولو فعلوا ذلك لنقل إلينا – ولم يعرفها السّلف ، ولم يسلكوها في الوصـول إلى الحقّ مع كمال عقولهم ، وصفاء أذهانهم .(١)

قال الخطّابي (رحمه الله) : فيما نقله عنه شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" واعلم أنّ الأئمّة الماضين والسّلف المتقدّمين لم يتركوا هذا النّمط من الكلام ، وهذا النّوع من النّظر عجزاً عنه ، ولا انقطاعاً دونه ، وقد كانوا ذوا عقول وافـرة وأفهام ثاقبة ، وكان في زمانهم هذه الشّبه والآراء ، وهذه النّحل والأهواء ، وإنّمـا تركوا هذه الطّريقة وأضربوا عنها لما تخوّفوه من فتنتـها ، وحـذروه مـن سـوء مغبّتها ، وقد كانوا على بيّنة من أمرهم ، وعلى بصيرة من دينهم لما هداهم اللّه بـه من توفيقهم ، وشرح به صدورهم من نور معرفته ، ورأوا أنّ فيما عندهم من علـم الكتاب وحكمته ، وتوقيف السّنّة وبيانها غنى ومندوحة عمّا سواهما ، وأنّ الحجّة قـد وقعت بهما ، والعلّة أزيحت بمكانهما " .(٢)

وهي مع ذلك شرّ وفساد لا فائدة فيها ، ولا حاجة تدعو إليها ، مع اشـتمالها على القضايا الكاذبة ، والمقدّمات الفاسدة الّتي تحمل بين طيّاتها الافتراء على اللّه وكتابه ورسوله ودينه .(٣)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" وهذه الطّرق فيها فساد كثير من جهة الوسائل والمقاصد ، أمّا المقـاصد : فإنّ حاصلها بعد التّعب الكثير والسّلامة خير قليل ، فهي لحم جمل غثّ ، علـى رأس جبل وعر ، لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل ، ثمّ إنّـه يفـوت بـها مـن المقاصد الواجبة والمحمودة ما لاينضبط هنا . وأمّا الوسائل : فإنّ هـذه الطّـرق كثيرة المقدّمات ، ينقطع السّالكون فيها كثيراً قبل الوصول ، ومقدّماتها في الغالب

---

(١) انظر : درء التّعارض : ٢٩٧/٧ . وانظر : ١٦٥/١ من نفس الكتاب .

(٢) بيان تلبيس الجهميّة : ٢٥٣/١-٢٥٤ . : وهو في رسالة الغنية عن الكلام وأهله . للخطّابي : ص : ٢٨-٢٩ مع اختلاف طفيف في النّص .

(٣) انظر : درء التّعارض : ١٧٧/٧-١٧٨ . وانظر : مجموع الفتاوى : ٥٨/٦ .

إمّا مشتبهة يقع النّزاع فيها ، وإمّا خفيّة لا يدركها إلاّ الأذكياء . ولـــهذا لا يتّفـــق منهم اثنان رئيسان على جميع مقدّمات دليل إلاّ نادراً ، فكلّ رئيس مـــن رؤســـاء الفلاسفة والمتكلّمين له طريقة في الاستدلال تخالف طريقة الرّئيس الآخر ، بحيث يقدح كلّ من أتباع أحدهما في طريقة الآخر ، ويعتقد كلّ منهما أنّ اللّه لا يُعـــرف إلاّ بطريقته ، وإن كان جمهور أهل الملّة بل عامّة السّلف يخالفونه فيها " .(١)

فهي مع تناقضها واختلافها ، وتهافتها ، وعدم جداوها وَعَرُوا بها الطّريـــق لمريد الحقّ ، وأطالوا الكلام في غير فائدة ، فليس عندهم إلاّ التّكلّف والتّعقيد كمـا قيل :

لولا التّنافس في الدّنيا لما وضعت ******* كتب التّناظر لا المغني ولا العمـــد
يحلّلون بزعـــم منهـــم عقـــداً ******* وبالّذي وضـــعوه زادت العقـــد

فقد زادوا الشّبه شبهاً ، والشّكوك شكوكاً ، والباطل باطلاً .(٢)

ومتى يا ترى كان كلام اليونان وآراؤهـــم الفجّـــة ، وأفكـــارهم الدّخيلـــة ، وتناقضاتهم واختلافهم سبباً للدّفاع عن دين اللّه وحماية جنابه ، بل ذلك من أعظم أسباب الإعراض عن دين اللّه والبعد عنه ، فإنّهم جعلوه كالأحاجي والألغاز الّتي يعجز الذّكي عن فك غوامضها وحلّ عقدها . وما عليك إلاّ أن تتصفّح كتاباً مـــن كتب الكلام الّتي نسبت إلى العقيدة زوراً وبهتاناً إلاّ وتجد نفسك في متاهات مـــن الألفاظ المعقّدة ، والأحكام المضطّربة ، والنّتائج الفجّة ، وكتاب اللّه وسنّة رسوله فيهما الشّفاء والكفاية والهداية والسّلامة لمن أنار اللّه بصره ووفّقه للحقّ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" إنّ الإيمان والعلم لا يتوقّف على النّظر الّذي أحدثه أهل الكلام فضلاً عـــن الكلام المخالف للنّصوص ... لأنّ الكتاب والسّنّة قد بيّن الحقّ وبيّن الطّرق الّتـــي

---

(١) مجموع الفتاوى : ٢/ ٢٢ .

(٢) انظر : شرح العقيدة الطّحاوية : ص : ٢٢٤ . طبعة المكتب الإسلامي .

بها يعرف الحقّ ، وذكر من الأدلّة العقليّة ، والأمثال المضروبة الّتي هي مقاييس برهانيّة ما هو أكمل في تحصيل العلم واليقين ممّا أحدثه أهل البدع من أهل الكلام والفلسفة ".[1]

وهم مع هذا لم يصلوا إلى بغيتهم ، ولم يدركوا غايتهم ، فقد خالفوا سبيل المؤمنين ، ولم يقطعوا أعداء الدّين ، بل أوقعهم الجدال وكثرة الكلام في شبهات كقطع اللّيل المظلم ، وأضعف العقيدة في قلوبهم فحلّت بها الشّكوك ، وغزتها جيوش الظّنون والأوهام ، وآل بهم الأمر إلى الحيرة والضّلال والشّك والارتياب ، وتزعزع الثّبات في قلوبهم بل فارقها .

قال ابن رُشْد الحفيد[2] وهو من أعلم النّاس بمذاهب الفلاسفة ومقالاتهم :

" ومن الّذي قال في الإلهيّات شيئاً يعتدّ به " .

والآمدي [3] أفضل أهل زمانه وقف في المسائل الكبار حائراً .

---

(١) درء التّعارض : ٢٨٩/٧ .

(٢) محمّد بن أحمد بن محمّد بن رشد أبو الوليد ، القرطبي الأندلسي ، الفيلسوف . برع في الفقه والطّبّ ، ثمّ أقبل على علوم الأوائل وبلاياهم حتّى صار يضرب به المثل في ذلك . رفعت عنه أقوال رديئة فهجر لأجلها بأمر الخليفة حتّى مات محبوساً بداره بمراكش عام : ٥٩٥هـ . من آثاره : بداية المجتهد في الفقه . والكلّيات في الطّبّ . ومختصر المستصفى في الأصول . وتهافت التّهافت في الفلسفة . وغيرها .

و انظر : سير أعلام النّبلاء : ٣٠٧/٢١ . العبر : ١١١/٣ . النّجوم الزّاهرة : ١٥٤/٦ . شذرات الذّهب : ٥٢٢/٦ . الأعلام : ٣١٨/٥ .

(٣) علي بن محمّد بن سالم أبو الحسن التّغلبي ، سيف الدّين الآمدي ، الحنبلي ثمّ الشّافعي . المصنّف المتكلّم . كان ذكيّاً ولكنه اشتغل بالمنطق وعلم الكلام فأظلم أمره حتّى اتّهم بالانحلال عن الدّين وسوء الاعتقاد . صنّف في أصول الفقه والدّين والمنطق والخلاف . توفي سنة : ٦٣١هـ . من آثاره : أبكار الأفكار في الكلام . منتهى السّول ، والإحكام في أصول الأحكام في الأصول . وغيرها .

و انظر : وفيات الأعيان : ٢٩٣/٣ . سير أعلام النّبلاء : ٣٦٤/٢٢ . العبر : ٢١٠/٣ . ميزان الاعتدال : ٣٥٨/٣ . طبقات الشّافعيّة الكبرى . لأبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السّبكي . تحقيق : د. عبد الفتاح محمّد الحلو . محمود محمّد الطّناحي . طبعة : هجر للطّباعة والنّشر . الجيزة . الطّبعة الثّانية : ١٩٩٢م :

والغزالي (1) انتهى آخر أمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلاميّة ، ثمّ أعرض عن تلك الطّرق وأقبل على أحاديث الرّسول ﷺ فمات والبخاري على صدره .(2)

وقال أبو عبد الله الرّازي (3) :

" نهاية إقدام العقول عقال ****** وغاية سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا****** وحاصل دنيانا أذى ووبال

٣٠٦/٨ . البداية والنّهاية : ١٤٠/١٣ . لسان الميزان: ١٣٤/٣ . النّجوم الزّاهرة : ٢٨٥/٦ . شذرات الذّهب : ٢٥٣/٧ . الأعلام : ٣٣٢/٤ .

(1) هو محمّد بن محمّد بن محمّد بن أحمد الطّوسي ، زين الدّين أبو حامد الغزالي ، الشّافعي ، الفيلسوف المتصوّف . له ذكاء مفرط واستبحار في العلم . برع في الفقه ومهر في الكلام والجدل . قال عنه الذّهبي : " أدخله سيلان ذهنه في مضايق الكلام ، ومزالّ الأقدام " . أقبل في آخر أمره على تلاوة القرآن وحفظ صحاح الأحاديث . توفي سنة : ٥٠٥هـ . وقد اختلفت أقوال أهل العلم في شأنه وذلك لاختلاف أحواله ، واضطّراب أمره . له كثير من المصنّفات منها : إحياء علوم الدّين . المستصفى في الأصول . تهافت الفلاسفة . إلجام العوام عن علم الكلام .

و انظر : المنتظم : ١٦٨/٩ . وفيات الأعيان : ٢١٦/٤ . سير أعلام النّبلاء : ٣٢٢/١٩ . العبر :٣٨٧/٢ . طبقات الشّافعيّة الكبرى : ١٩١/٦ . البداية والنّهاية :١٧٣/١٢. النّجوم الزّاهرة : ٢٠٣/٥ . شذرات الذّهب : ١٨/٦ . الأعلام : ٢٢/٧ .

(2) انظر : شرح العقيدة الطّحاوية : ص : ٢٢٧ . طبعة المكتب الإسلامي .

(3) محمّد بن عمر بن الحسين أبو عبد الله ، فخر الدّين الرّازي القرشي البكري التّيمي الطّبرستاني ، عرف بابن خطيب الرّي . الفقيه الشّافعي ، المفسّر المتكلّم الأصولي . له ذكاء متوقّد ، فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات . قال عنه الذّهبي (رحمه الله) :

"الفخر ابن الخطيب صاحب التّصانيف ، رأس في الذّكاء والعقليّات لكنّه عري من الآثار ، وله تشكيكات على مسائل من دعائم الدّين تورث حيرة ، نسأل الله أن يثبّت الإيمان في قلوبنا ، وله كتاب السّر المكتوم في مخاطبة النّجوم سحر صريح ، فلعله تاب من تأليفه إن شاء الله تعالى " . ذُكر أنّه توفي على طريقة حميدة . مات سنة : ٦٠٦هـ . له مؤلّفات متعدّدة في التّفسير وعلم الكلام والمنطق والأصول . منها : التّفسير الكبير .المحصّل . المحصول . الأربعين في أصول الدّين .

و انظر : وفيات الأعيان : ٢٤٨/٤ . سير أعلام النّبلاء : ٥٠٠/٢١ . العبر : ١٤٢/٣ . ميزان الاعتدال : ٤١١/٥ . طبقات الشّافعيّة الكبرى : ٨١/٨ . البداية والنّهاية : ٥٥/١٣ . لسان الميزان: ٤٢٦/٤ . النّجوم الزّاهرة : ١٩٧/٦ . شذرات الذّهب : ٤٠/٧ . الأعلام : ٣١٣/٦ .

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ****** سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
فكم قد رأينا من رجال ودولة ****** فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها****** رجال فزالوا والجبال جبال
لقد تأمّلت الطّرق الكلاميّة ، والمناهج الفلسفيّة فما رأيتها تشفي عليلاً ، ولا تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطّرق طريقة القرآن ، أقرأ في الإثبات ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ ﴾ [طه:٥] ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ [فاطر:١٠] وأقرأ في النّفي ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ ﴾ [الشورى:١١] ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ۝١١٠ ﴾ [طه:١١٠] . ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي " .[1]

والشّهرستاني [2] كشف عن حيرته وحيرة أولئك وما وصل إليه أمرهم فقال :

" فقد أشار إليّ من إشارته غنم ، وطاعته حتم ، أن أجمع له مشكلات الأصول ، وأحلّ له ما انعقد من غوامضها على أرباب العقول ، لحسن ظنّه بي أنّي وقفت على نهاية النّظر ، وفزت بغايات مطارح الفكر ، ولعله استسمن ذا ورم ، ونفخ في غير ضرم[3] ، لعمري :

لقد طفت في تلك المعاهد كلّها ****** وسيّرت طرفي بين تلك المعالم

---

(١) شرح العقيدة الطّحاوية : ص : ٢٢٧-٢٢٨ . طبعة المكتب الإسلامي . وانظر : سير أعلام النّبلاء : ٥٠١/٢١ .

(٢) محمّد بن عبد الكريم بن أحمد أبو الفتح الشّهرستاني ، الملقّب بالأفضل ، المتكلّم المصنّف الأصولي . برع في الفقه وعلم الكلام والفلسفة فتخبّط في الاعتقاد ، وكان يغلو في التّشيّع ، ويبالغ في نصرة مذاهب الفلاسفة حتّى اتّهم بمذهب الباطنيّة . توفي سنة : ٥٤٨هـ . من مصنّفاته : نهاية الإقدام . الملل والنّحل .
وانظر : وفيات الأعيان : ٢٧٣/٤ . سير أعلام النّبلاء : ٢٨٦/٢٠ . العبر : ٧/٣ . طبقات الشّافعيّة الكبرى : ١٢٨/٦ . لسان الميزان: ٢٦٣/٥ . النّجوم الزّاهرة : ٣٠٥/٥ . شذرات الذّهب : ٢٤٦/٦ . الأعلام : ٢١٥/٦ .

(٣) الضَّرَمُ: مَصْدَرُ ضَرِمَ ضَرَماً . و ضَرِمَت النّارُ وتَضَرَّمَت ، واضْطَرَمَت : اشْتَعَلتْ والتَهَبَتْ . لسان العرب : ٣٥٤/١٢ . و انظر : القاموس المحيط : ص : ١٤٦٠ .

فلم أر إلاّ واضعاً كفّ حائر ...... على ذقن أو قارعاً سنّ نادم "[1]

وقال أبو المعالي الجُوَيْني [2] :

" يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام ، فلو عرفت أنّ الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به " .

وقال عند موته :

" لقد خضت البحر الخضم ، وخلّيت أهل الإسلام وعلومهم ، ودخلت في الّذي نهوني عنه ، والآن فإن لم يتداركني ربّي برحمته فالويل لابن الجويني ، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمّي ، أو قال : على عقيدة عجائز نيسابور[3] " .[4]

وغير هؤلاء كثيرون [5] ممّن حار بهم الأمر ، وانقطعت بهم السّبل ، وهجرهم الثّبات ، وانتابتهم الشّكوك ، وقد يصل الحال ببعضهم إلى ما قاله

---

(١) نهاية الإقدام في علم الكلام .لعبد الكريم بن أبي بكر بن أحمد الشّهرستاني .حرّره وصحّحه الفرد جيوم : ص : ٣ .

(٢) عبد الملك بن عبد الله بن يوسف أبو المعالي الجويني ، النّيسابوري ، إمام الحرمين وشيخ الشّافعيّة في زمانه . متكلّم أصولي فقيه . من أذكياء العالم ، وأحد أوعية العلم . رجع عن الكلام في آخر عهده . توفي سنة : ٤٧٨هـ . له مصنّفات عدّة منها : الإرشاد في أصول الفقه . الرّسالة النّظاميّة . البرهان في أصول الفقه . الورقات .

و انظر : المنتظم : ١٨/٩ . وفيات الأعيان : ١٦٧/٣ . سير أعلام النّبلاء : ٤٦٨/١٨ . العبر : ٣٣٩/٢ . طبقات الشّافعيّة الكبرى : ١٦٥/٥ . البداية والنّهاية : ١٢٨/١٢ . النّجوم الزّاهرة : ١٢١/٥ . شذرات الذّهب : ٣٣٨/٥ . الأعلام : ١٦٠/٤ .

(٣) نَيسابور : مدينة قديمة بإقليم خراسان ، فتحها المسلمون في عهد عثمان ﷺ . وقيل : في عهد عمر ﷺ . وهي مدينة عظيمة ، ذات فضائل جسيمة ، معدن الفضلاء ومنبع العلماء . و انظر : معجم البلدان : ٣٣١/٥ .

(٤) شرح العقيدة الطّحاوية : ص : ٢٢٨ . طبعة المكتب الإسلامي . وانظر : المنتظم : ١٩/٩ . سير أعلام النّبلاء : ٤٧١/١٨ . طبقات الشّافعيّة : ٥٨٥/٥ .

(٥) انظر : شرح العقيدة الطّحاوية : ص: ٢٢٨-٢٢٩ . طبعة المكتب الإسلامي .

الطّحاوي (رحمه الله) :

" فيتذبذب بين الكفر والإيمان ، والتّصديق والتّكذيب ، والإقـرار والإنكـار ، موسوساً تائهاً ، شاكّاً ، لا مؤمناً مصدّقاً ، ولا جاحداً مكذّباً " .[1]

وامرؤ بلغ هذا المبلغ فَأَنّى له الثّبات على منهج اللّه ؟ بل مثله يتخوّف علـى إسلامه وإيمانه ، وهذا الّذي دفع أئمّة السّلف على تشديد النّكير ، وبالغوا في تحذيـر من يشتغل بالكلام والجدال الباطل .

قال البربهاري (رحمه الله) :

" وإذا أردت الاستقامة على الحقّ وطريق أهل السّنّة قبلـك فـاحذر الكـلام وأصحاب الكلام ، والجدال والمراء والقياس والمناظرة في الدّين ، فـإنّ اسـتماعك منهم ، وإن لم تقبل منهم يقدح الشّكّ في القلب ، وكفى به قبولاً فتهلك ، وما كـانت قطّ زندقة ، ولا بدعة ، ولا هوى ، ولا ضلالة إلاّ من الكـلام والجـدال والمـراء والقياس ، وهي أبواب البدع والشّكوك والزّندقة " .[2]

وقد أشار الشّيخ محمّد الأمين الشّنقيطي (رحمه الله) إلى رجوع جماعة من علماء الكلام إلى منهج أهـل السّـنّة والجماعة ، وتركوا الخوض في الجدال والكلام المذموم والتّأويل المنحرف ، فذكر منهم : أبا الحسن الأشـعري ، والقاضي أبابكر الباقلاّني ، وإمام الحرمين أبا المعالي الجويني ، وأبا حامد الغزالي ، والفخر الرّازي ، والشّهرستاني .

انظر : أضواء البيان : ٧/٤٥٤-٤٧٦ . وهؤلاء من أئمّة علم الكلام وأساطينه .

(١) متن العقيدة الطّحاوية : ص:١٠ .

(٢) طبقات الحنابلة : ٢/٣٨ . وهو في كتاب شرح السّنة : ص : ٥٥ . وانظر قوله الآخر في : ٢/٢٧ .

وللجدال والكلام المذموم إضافة إلى ما ذكر مضارّ متعدّدة منها :

١ـ يحرم صاحبه من الوصول إلى الحقّ ومعرفة الرّشد .

٢ـ يورث البغضاء والكراهية .

٣ـ يحذر من صاحبه النّاس ويتحاشونه .

٤ـ سبب للمعاقبة بالحرمان من السّعادة الّتي يحظى بها الباحث عن الحقّ .

٥ـ طول ممارسته يغري بالتّمادي في الباطل .

٦ـ يؤدّي إلى سوء العاقبة بالحرمان من المترلة العالية في الجنّة .

نضرة النّعيم : ٩/٤٣٤٩ . بتصرّف يسير .

ولهذا ذهب إلى تحريمه الإمام مالك والشّافعي وأحمد وسفيان وجميع أهـــل الحديث من السّلف (رحمهم اللّه) .[١]

وكلام *الإمام الشّافعي (رحمه الله)* فيه أشدّ وأنكى فقد قال :

" قد اطّلعت من أهل الكلام على شيء ما كنت ظنّنته قطّ ، ولأن يبتلى العبد بكلّ ما نهى اللّه عنه ما عدا الشّرك خير له من أن ينظر في الكلام " .[٢]

وقال : " حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بـــالجريد ، ويطـــاف بـــهم فـــي العشائر[٣] والقبائل ، ويقال هذا جزاء من ترك الكتـــاب والسّـــنّة وأقبـــل علـــى الكلام " .[٤]

وقال الإمام أحمد (رحمه الله) :

" لا يفلح صاحب الكلام أبداً ، ولا تكاد ترى أحداً نظر في الكلام إلاّ وفـــي قلبه دغل[٥] " [٦] .

وقد أفاض أبو حامد الغزالي في بيان آفات الجدال وما يتولّد منها من مهلكات الأخلاق في كتابـــه الإحيـــاء .

انظر : إحياء علوم الدّين على هامشه إتحاف السّادة المتّقين : ٤٧٠/١ فما بعدها .

(١) انظر : درء التّعارض : ١٤٦/٧ .

(٢) المرجع السّابق : ١٤٦/٧ . وانظر : آداب الشّافعي ومناقبه . لعبد الرّحمن بن أبي حاتم الرّازي . تحقيـــق : عبـــد الغني عبد الخالق . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت . :ص : ١٨٧ . مناقب الشّافعي . لأحمـــد بـــن الحســـين البيهقي . تحقيق : السّيد أحمد صقر . طبعة : مكتبة دار التّراث . القـــاهرة . الطّبعـــة الأولى : ١٣٩١هـــــ ١٩٧١م : ٤٥٣/١ . سير أعلام النّبلاء : ١٦/١٠ . أعلام الموقّعين : ٢٤٨/٤ .

(٣) العشائر : هم القبائل ، جمع عشيرة . و انظر : مختار الصّحاح : ص : ٤٣٤ . لســـان العـــرب : ٥٧٤/٤ . القاموس المحيط : ص : ٥٦٦ .

(٤) درء التّعارض : ١٤٧/٧ . وانظر : مناقب الشّافعي : ٤٦٢/١ . سير أعلام النّبلاء : ٢٩/١٠ .

(٥)الدّغَل ، بالتّـــحريك: الفساد مثل الدّخَـــل . ويطلق على الحقد أيضاً . انظر : لسان العـــرب :٢٤٤/١١-٢٤٥ . و انظر : مختار الصّحاح : ص : ٢٠٦ . القاموس المحيط : ص : ١٢٩١ .

(٦) درء التّعارض : ١٤٧/٧ .

فالمؤمن الصّادق يتجنّب الخوض في الكلام والجدال الباطل حتّى لا يـــنزلق عن منهج رسول اللّه ﷺ كما انزلق غيره ممّن جعل الكلام له حرفة ، والجدال لــه طبعاً ، فيفارق الثّبات ويهوي إلى الضّلال فيسقط في الدّركات .

﴿المطلب الثّامــن﴾

التّحــزّب المقرض

التّحزّب هو التّجمّع ، من الحزب وهم الجماعة ، والجمع أحزاب : وهم كــلّ قــوم تشاكلت قلوبهم وأعمالهم ، أو كلّ طائفة هواهم واحد . وحزب الرّجل : أصحابه وجنــده الّذين على رأيه . (١)

قال المناوي (رحمه الله) :

" الحزب جماعة فيها غلظ ، والأحزاب عبارة عن المجتمعين لمحاربة المصطفــى في غزوة الخندق(٢) ، وحزب الله أنصاره " .(٣)

والتّحزّب مدحه الله في موضعين من كتابه كما ذمّه في مواضع أخرى .

أمّا الممدوح فقد ورد فــي قولــه تعــالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المائدة:٥٥-٥٦] .

فقد بيّن سبحانه أنّ المؤمنين الصّادقين في إيمانهم ظاهراً وباطناً ، المخلصين في عبادتــهم لله ، المناصرين له ولرسوله ولعباده المؤمنين ، القائمين بما يجب عليهم نحو ربّهم بإقــام

---

(١) انظر : لسان العرب : ٣٠٨/١ . وانظر : مختار الصّحاح : ص : ١٣٣ . القاموس المحيط : ص : ٩٤ .

(٢)غزوة الخندق :كانت في سنة خمس من الهجرة . ألب فيها اليهود المشركين على غزو المسلمين ووعدوهم بـالنّصر . فاجتمع عشرة آلاف من قبائل قريش وغطفان وبني فزارة وغيرهم . فحفر النّــبي ﷺ والمســلمون خندقــاً بمشورة سلمان الفارسي ﷺ عنه يحول بين المدينة والعدو . ونقض اليهود عهدهم ، واشتدّ على المســلمين فيها البلاء ، ونجم النّفاق . وحوصر المسلمون شهراً ، و لم يكن بينهم قتال إلاّ يسيراً ، ثمّ أرســل الله علــى المشركين جنداً من الرّيح فقيضت خيامهم وأطفأت نيرانهم ، وجنداً من الملائكة تقذف الرّعب في قلوبهــم فانصرفوا آيبيين لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال .

انظر : السيرة النبوية لابن هشام : البداية والنهاية : ٩٢/٤ . فما بعدها . زاد المعاد : ٣٧٠/٣-٣٧٤ .

(٣) التّوقيف على مهمّات التّعاريف : ص: ٢٧٧ .

الصّلاة ، ونحو خلقه ببذل الزّكاة لمستحقّيها منهم ، هم الحزب المضافون إلى اللّه الّذين يستحقّون الغلبة والنّصرة على أعدائهم .(١)

وقال سبحانه : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة:٢٢] .

أي لا يكون المؤمنون مؤمنين باللّه واليوم الآخر حقّاً إلاّ إذا والوا وأحبّوا من أحبّ اللّه ورسوله ، وأبغضوا وعادوا من أبغض اللّه ورسوله ، ولو كانوا أقرب النّاس إليهم ، فإن فعلوا ذلك فهم الّذين غرس اللّه الإيمان في قلوبهم ، وثبّته فيها حيث لا تؤثّر فيها الشّبه ولا الشّكوك ، وقوّاهم بمدده وإحسانه ، ووهبهم الحياة الطّيّبة في الدّنيا ، ومتّعهم بجنّات النّعيم في الأخرى ، وعوّضهم بسخطهم على القرائب والعشائر المحادّين لله ورسوله برضوانه فلا يسخط عليهم أبداً ، وأضافهم إلى نفسه فجعلهم حزبه المفلحين تنويهاً بفلاحهم وسعادتهم ونصرتهم في الدّنيا والآخرة .(٢)

قال الشّوكاني (رحمه الله) :

" ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ﴾ أي جنده الّذين يمتثلون أوامره ، ويقاتلون أعداءه ، وينصرون أولياءه ، وفي إضافتهم إلى اللّه سبحانه تشريف لهم عظيم ، وتكريم فخيم ،

---

(١) انظر معنى الآيتين في : معالم التّنزيل :٤٧/٢ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٢١/٦-٢٢٣ . أنوار التّنزيل: ٣٣٨/٢-٣٤٠ . تفسير القرآن العظيم : ١١٣/٢-١١٤ . فتح القدير : ٥٢/٢ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١٩٨-١٩٩ .

(٢) انظر معنى الآية في :
معالم التّنزيل : ٣١٢/٤-٣١٣ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٠٧//١-٣٠٩ . أنوار التّنزيل: ٣١٥/٥ . تفسير القرآن العظيم : ٥١٣/٤-٥١٤ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٧٨٦-٧٨٧ .

﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أي الفائزون بسعادة الدّنيا والآخرة ، الكاملون في الفلاح الّذين صار فلاحهم هو الفرد الكامل ، حتّى كأنّ فلاح غيرهم بالنّسبة إلى فلاحهم كلا فلاح " .(١)

فحزب اللّه هم أولياؤه الّذين أحبّوا فيه وأبغضوا لأجله ، وناصروا أولياءه وعادوا أعداءه ، فكان اجتماعهم وتحزّبهم لله وفي اللّه ، حيث ربط اللّه المؤمنين بأخوة الإيمان فقال : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات:١٠] ، وشرع بينهم الموالاة والنّصرة ، والتّراحم والتّعاطف كما قال ﷺ : " مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى " .(٢) ودعاهم إلى الائتلاف والتّعاون والاجتماع ، ونهاهم عن التّفرّق والتّشتّت والاختلاف فقال : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران:١٠٣] . وقال ﷺ : " عليكم بالجماعة وإيّاكم والفرقة ، فإنّ الشّيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد ، من أراد بُحْبُوحة(٣) الجنّة فليلزم الجماعة " .(٤)

---

(١) فتح القدير : ٥/١٩٣-١٩٤ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب الأدب : (٧٨/٥٢) . باب رحمة النّاس والبهائم : (٢٧) . برقم: (٦٠١١) . ص : ١٢٩١ . عن النّعمان بن بشير رضي الله عنه .

صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب البر والصّلة والآداب : (٤٥) . باب تراحم المؤمنين : (١٧) . برقم: (٢٥٨٦) . ٤/١٩٩٩-٢٠٠٠ .

(٣) بحبوحة الجنّة : أي وسطها وخيارها . ويقال : تبحبحت في الدّار : إذا توسّطها وتمكّنت منها . انظر : غريب الحديث للهروي : ٢/٢٠٥-٢٠٦ . الفائق : ١/٨١ . النّهاية في غريب الحديث: ١/٩٨ .

(٤) سنن التّرمذي: بلفظه ـــ جزء من حديث ـــ في : كتاب الفتن : (٣٠) . باب ما جاء في لزوم الجماعة : (٧) برقم: (٢١٦٥) . وقال : " هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه " . وقال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٣٦٠ . عن عمر رضي الله عنه .

مسند أحمد: نحوه في: ١/١٨ . قال أحمد شاكر (رحمه الله): " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١/٢٠٥ . برقم: (١١٤) .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: نحوه في: باب ذكر الإخبار عمّا يجب على المرء من لزوم ما عليه جماعة المسلمين . برقم: (٤٥٧٦) . قال شعيب الأرناؤوط : " ثقات من رجال الصّحيح " . ١٠/٤٣٦ . وفي باب

فالجماعة هم الّذين تحزّبوا واجتمعوا على نصرة دين اللّه وإعلاء كلمته ، مترسّمين خطى النّبي ﷺ ، سالكين منهجه ، متّبعين هديه ، يربط بينهم إخاء الإسلام ، وتشدّ أواصرهم رابطة الإيمان ، متحابّين متآلفين ، يوثق بينهم الولاء لله ، والحبّ في اللّه ، والبغض لأعداء اللّه ، مع نفرة عن الشّقاق والفرقة .

قال أبو شامة (رحمه الله) :

" وحيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد به لزوم الحقّ واتّباعه ، وإن كان المتمسّك بالحقّ قليلاً والمخالف كثيراً ، لأنّ الحقّ الّذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النّبي ﷺ وأصحابه ﷺ ، ولا نظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم " .[1]

ولمّا كان أهل السّنّة والجماعة يتّسمون بما ذكرت من سمات ، ويتّصفون بما أوردت من صفات ، إذ هم لا غيرهم الّذين درجوا على منهاج النّبوّة ، ولم ينفصلوا عنه لحظة من الزّمن لا باسم ولا برسم ، وليس لهم شخص ينتمون إليه ويقتفون أثره سوى رسول اللّه ﷺ ، وهم الّذين يمثّلون بحقّ الامتداد الطّبعي للإسلام في صفائه ونقائه ، وللمسلمين في اجتماعهم وائتلافهم ، وولائهم لله ورسوله وأهل الإيمان ، ونصرتهم للحقّ حيث كان ، فلمّا كانوا كذلك كانوا هم حزب اللّه وأنصاره .[2]

ذكر الإخبار عمّا يظهر في النّاس من المسابقة في الشّهادات والأيمان الكاذبة . برقم: (٦٧٢٨) . قال شعيب الأرناؤوط : " حديث صحيح " . ١٢٢/١٥ . وفي باب ذكر الإخبار عن وصية المصطفى ﷺ الخير بالصّحابة والتّابعين بعده . برقم: (٧٢٥٤) . قال شعيب الأرناؤوط : " إسناده صحيح على شرط الشّيخين " . ٢٣٩/١٦ .

مستدرك الحاكم: نحوه في: ١٩٧/١ ، ١٩٩ . وقال : " هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين " .

مسند أبي يعلى: نحوه في: ١٣٣/١ . برقم: (١٤٣) . قال المحقّق : " رجاله ثقات " .

و انظر : السّنّة لابن أبي عاصم : ص: ٤٢ . برقم : (٨٨) .

(١) الباعث على إنكار البدع : ص : ٢٦ .

(٢) وانظر : حكم الانتماء . ص : ٣٧-٣٨ .

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" الفرقة النّاجية حزب الرّسول وأنصاره ، وبُنْـك[1] الإسـلام وعصابـة الإيمان ، الّذين لم يتحيّزوا إلى فئة غير رسول اللّه ﷺ ، ولم يذهبوا إلى مقالة غير ما دلّت عليه سنّته ، ولم ينتسبوا إلى غيره بوجه من الوجوه " .[2]

فمن كان تحزّبه كذلك فهو الّذي حقّ له أن يثبت على منهج رسول اللّـه ﷺ وصحابته من بعده ، ويسعد في دنياه وآخرته .

وأمّا التّحزّب المذموم فقد جاء ذكره في آيات كثر . من ذلك قوله تعـالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [المؤمنون:٥١-٥٣] .

لقد أمر اللّه رسله عليه السّلام أن يأكلوا من الطّيّبات وهي الرّزق الحـلال ، وأن يعملوا صالحاً ، وأخبرهم أنّ دينهم دين واحد ، وملّتهم ملّة واحـدة ، وهـي الدّعوة إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له ، وألاّ يتفرّقوا في الدّين . فمضى رسـل اللّه على ذلك ، ممتثلين لأمر اللّه ، يصدّق بعضـهم بعضـاً ، لا يختلفـون ولا يتفرّقون مع تنوّع شرائعهم . كما قال سبحانه : ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشّورى:١٣] .

---

(١) البُنْكُ : أصل الشّيء ، وقـيل : خالصه . انظر : لسان العرب : ١٠/٤٠٣ . القاموس المحيط : ص : ١٢٠٦.

(٢) الصّواعق المرسلة : ٤ / ١٥٤٩ .

وقال ﷺ : " نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلاّت ديننا واحد " .[1] ولكنّ أممهم لم تمتثل ما امتثل به رسل اللّه عليهم السّلام ، فتقطّعوا أمرهم وصاروا زبراً متفرّقين .

قرئ {زبراً} بضم الباء جمع زبور وهو الكتاب . أي دان كلّ فريق منهم بكتاب غير الكتاب الّذي دان به الآخر ، فاتّبعت فرقة الصّحف ، وفرقة التّوراة ، وأخرى الزّبور ، ورابعة الإنجيل ، ثمّ حرّفوا كلّ ذلك وبدّلوه .

وقيل : أخذ كلّ فريق منهم كتاباً آمن به وكفر بما سواه [2] . وقيل : جعلوا كتبهم قطعاً مختلفة : آمنوا بالبعض ، وكفروا بالبعض ، وحرّفوا البعض .[3]

وقرئ {زبراً } بفتح الباء أي قطعاً كقطع الحديد . والمراد أنّهم جعلوا دينهم أدياناً متفرّقة بعد ما أمروا بالاجتماع وعدم التّفرّق ، وهم مع ذلك معجبون مسرورون بما هم فيه من الضّلال ، يحسبون أنّهم على الحقّ ، وأنّهم مهتدون .[4]

والتّحزّب سنّة جرت في الأمم السّابقة لم تشذ عنها أمّة . فقد سمّى اللّه المكذّبين لرسله ، المعادين لهم ، المناهضين لدعوتهم أحزاباً ، لاجتماعهم على الكفر والباطل والضّلال . فقال سبحانه : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ ﴾ [ص:١٢-١٤][5] .

---

(١) سبق تخريجه انظر : ص : ٤٠١ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ١٣٠/١٢ .

(٣) معالم التّنزيل : ٣١١/٣ .

(٤) وانظر معنى الآيات من سورة المؤمنون في : معالم التّنزيل : ٣١٠/٣-٣١١ . الجامع لأحكام القرآن :١٣٠/١٢ . أنوار التّنزيل: ١٥٨/٤ . تفسير القرآن العظيم : ٣٩٦/٣ . فتح القدير : ٤٨٦/٣ . تيسير الكريم الرّحمن : ص:٥٠٢-٥٠٣ .

(٥) وانظر : سورة غافر : الآية (٥) وانظر : معالم التّنزيل : ٥٠/١ ، ٩١ . الجامع لأحكام القرآن : ١٥٤/١٥،٢٩٣ . أنوار التّنزيل: ٣٩/٥،٨٣ . تفسير القرآن العظيم : ٤٥/٤،١٠٨ فتح القدير : ٤٢٣/٤ ، ٤٨١ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٦٥٦ ، ٦٧٨ .

وقريش ومن شايعها من قبائل العرب لمّا سلكوا مسلك أولئك في التّكذيب والجحود جعلهم اللّه أحزاباً مثل أولئك الأحزاب . فقال سبحانه : ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأحزاب:٢٢] . وقال : ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴾ [ص:١١][1] .

وبيّن أنّ الأحزاب هم الّذين كذّبوا بكتاب اللّه وهو القرآن الّذي أنزل على محمّد ﷺ وكفروا به . فقال : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ ﴾ [هود:١٧] أي ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركهم وكافرهم وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بني آدم ، على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم ممّن بلغه القرآن فالنّار موعده ، وهو من أهلها لا محالة .[2]

فسمّى جميع طوائف الكفّار أحزاباً وهذا أعظم ذمّ للتّحزّب . فأهل الكفر تحزّبوا لنصرة الباطل ، وتكذيب الرّسل ، ومعاندة الحقّ ، فكان تحزّبهم تحزّباً مذموماً يلقي بأصحابه في الوبال والهلكة ، ولذا حذّر الله أهل الإيمان أن يتفرّقوا ويتشتّتوا ويتحزّبوا أحزاباً ، كلّ حزب يتعصّب لما معه – ولو كان باطلاً – فيكونون حينئذ مشابهين لأهل الكفر والشّرك في تحزّبهم . فقال سبحانه : ﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الروم:٣١-٣٢] .

---

(١) وانظر معناها في : معالم التّنزيل : ٤٩/٤ . الجامع لأحكام القرآن : ١٥٣/١٥ . أنوار التّنزيل: ٣٨/٥ . تفسير القرآن العظيم : ٤٤/٤ . فتح القدير : ٤٢٢/٤ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٦٨٢/٢ بتصرّف يسير . وانظر : معالم التّنزيل : ٣٧٧/٢ . الجامع لأحكام القرآن : ١٧/٩ . أنوار التّنزيل: ٢٢٧/٣ . فتح القدير : ٤٨٨/٢ .

وقد وقع ما حذّر اللّه سبحانه منه ، فتفرّقت الأمّة إلى شيع وأحزاب يناوئ بعضها بعضاً ، ويضلّل بعضها بعضاً ، وكلّ منها يزعم أنّه على الحقّ ودونه على الباطل .

قال ابن كثير (رحمه الله) في معرض كلامه عن الآية السّابقة :

" فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومثل باطلة ، وكلّ فرقة منهم تزعم أنّهم على شيء ، وهذه الأمّة أيضاً ، اختلفوا فيما بينهم على نحل كلّها ضلالة إلاّ واحدة ، وهم أهل السّنّة والجماعة ، المتمسكون بكتاب اللّه وسنّة رسوله ﷺ ، وبما كان عليه الصّدر الأوّل من الصّحابة والتّابعين وأئمّة المسلمين في قديم الدّهر وحديثه " .[1]

وقد ذكر بعض أهل العلم أنّ المراد بـ ﴿ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾ هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمّة .[2] فتكون الآية بياناً للحال الّذي تؤول إليه أمّة الإسلام .

وقال سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ۝ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ۝ ﴾ [الرّعد:٣٦-٣٧] .

فاللّه أمر باتّباع الكتاب وهو القرآن المنزّل على خير الرّسل ﷺ ، وحذّر من سلوك منهج الأحزاب الّذين يؤمنون ببعض ما في الكتاب وينكرون البعض ، وهذا الّذي أوقعهم في التّحزّب والتّفرّق ، وهو أن يتمسّك الإنسان ببعض الحقّ وينكر البعض الآخر ، وتلك سمة بارزة لأهل الكتاب عابها اللّه عليهم حيث قال :

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٦٩٠/٣ .

(٢) انظر : معالم التّنزيل : ٤٨٣/٣ . فتح القدير : ٢٢٥/٤ .

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [البقرة:٨٥] . وفي ذلك أيضاً تحذير للمؤمنين أن يقعوا فيما وقع فيه أولئك .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم ﴾ أي آراءهم ﴿ بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ أي من الله سبحانه ﴿ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ وهذا وعيد لأهل العلم أن يتّبعوا سبل أهل الضّلالة بعدما صاروا إليه من سلوك السّنّة النّبويّة ، والمحجّة المحمّديّة على من جاء بها أفضل الصّلاة والسّلام " .(١)

وهذا حال كثير من الجماعات والأحزاب اليوم الّذين امتلأت بهم ساحة الإسلام ، فلا يقبل أحدهم الحقّ إلاّ إذا جاء من طريق حزبه وجماعته ، ويردّ الحقّ الّذي مع من سواه ولو كان واضحاً كالشّمس ، بل لا يحبّ ولا يوالي إلاّ من كان من طائفته ، ويبغض من سواهم ولو كانوا من اتقى عباد اللّه .

فهل هناك أداة للتّفرّق والشّتات تعصف بوحدة هذه الأمّة ، وتشتّت شملها، وتحرفها عن المنهج الحقّ أعظم من هذه الأداة ؟

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) بعد ذكره لبعض الآيات النّاهية عن التّفرّق :

" فكيف يجوز مع هذا لأمّة محمّد ﷺ أن تفترق وتختلف حتّى يوالي الرّجل طائفة ويعادي طائفة أخرى بالظّنّ والهوى بلا برهان من اللّه تعالى ، وقد برّأ اللّه نبيّه ﷺ ممّن كان هكذا ، فهذا فعل أهل البدع كالخوارج الّذين فارقوا جماعة

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٨٠٢/٢. وانظر معنى الآيتين في : معالم التنزيل : ٢١/٣-٢٢ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٢٥/٩-٣٢٧ أنوار التنزيل: ٣٣٣/٣ فتح القدير : ٨٧/٣-٨٨ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٣٧٣-٣٧٤ .

المسلمين واستحلّوا دماء من خالفهم . وأمّا أهل السّنّة والجماعة فهم معتصمون بحبل اللّه ، وأقلّ ما في ذلك أن يفضّل الرّجل من يوافقه على هواه وإن كان غيره اتقى لله منه .

وإنّما الواجب أن يقدّم من قدّمه اللّه ورسوله ، ويؤخّر من أخّره اللّه ورسوله ، ويحبّ ما أحبّه اللّه ورسوله ، ويبغض ما أبغضه اللّه ورسوله ، وينهى عمّا نهى اللّه عنه ورسوله ، وأن يرضى بما رضي اللّه به ورسوله ، وأن يكون المسلمون يداً واحدة . فكيف إذا بلغ الأمر ببعض النّاس إلى أن يضلّل غيره ويكفّره ، وقد يكون الصّواب معه وهو الموافق للكتاب والسّنّة ؟ ".(١)

وقد نصّب كثير من تلك الأحزاب أشخاصاً ، قادة لهم ، وأنزلوا أقوالهم منزلة أقوال رسول اللّه ﷺ يوالون عليها ، ويعادون فيها ، ويطيعونهم في كلّ ما أمروا به أو نهوا ، وإن خالفوا الحقّ جهرة أوجدوا لهم من الأعذار والتّبريرات الباردة ما يؤيّدون به مزاعمهم وأخطاءهم ، فيدبّ هنالك العداء والفرقة بين صفوف أمّة واحدة تنتمي إلى دين واحد وهو الإسلام ، ويحدث الزّيغ والانحراف عن المنهج الواحد الّذي جعله اللّه طريقاً للوصول إليه وأغلق ماسواه من الطّرق .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" من نصّب شخصاً كائناً من كان فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل فهو ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾ [الروم:٣٢] ".(٢)

وقال : "وليس لأحد أن ينصّب للأمّة شخصاً يدعو إلى طريقته ، ويوالي ويعادي عليها غير النّبي ﷺ ، ولا ينصّب لهم كلاماً يوالي عليه ويعادي غير كلام اللّه ورسوله وما اجتمعت عليه الأمّة ؟ بل هذا من فعل أهل البدع الّذين ينصّبون لهم

---

(١) مجموع الفتاوى : ٣/٤١٩-٤٢٠ . وانظر : ١١/٩٢ من الكتاب نفسه .

(٢) المرجع السّابق : ٢٠/٨ .

شخصاً أو كلاماً يفرّقون به بين الأمّة ، يوالون به على ذلك الكلام ، أو تلك النّسبة ويعادون " . [1]

وقال : " وليس لأحد أن ينتسب إلى شيخ يوالي على متابعته ، ويعادي على ذلك ، بل عليه أن يوالي كلّ من كان من أهل الإيمان ، ومن عرف منه التّقوى من جميع الشّيوخ وغيرهم ، ولا يخصّ أحداً بمزيد موالاة إلاّ إذا ظهر له مزيد إيمانه وتقواه ، فيقدّم من قدّم اللّه تعالى ورسوله عليه ، ويفضّل من فضّله اللّه ورسوله " . [2]

وكثير من أولئك الزّعماء والقادة أرباب مصالح ، ورغبات حابطة ، وغايات رخيصة ، أقلّها الزّعامة والتّصدّر ، فيمتطون صهوة التّحزّب لينالوا غاياتهم ورغباتهم ومصالحهم ، لا همّ لهم في دين يعلو ، ولا شرع يقام ، ولا إسلام يسود ، حيث ضاقت نظرتهم فلا تتعدّى حدود الحزب الّذي ينتمون إليه ، وانقطع ودّ الإخاء إلاّ في محيط حزبهم ، وأبيد الولاء إلاّ في دائرة جماعتهم ، فكأنّ حزبهم هو الإسلام وحده ولا إسلام سواه ، بل يمكن أن أقول إنّ رابطة الإسلام بين هؤلاء أبدلت برابطة الحزب الضّيّقة حيث ينمو التّعصب للأشخاص لا للشّرع .

قال الشّيخ بكر أبو زيد :

" إنّ الحزبيّة ذات المسارات والقوالب المستحدثة الّتي لم يعهدها السّلف من أعظم العوائق عن العلم ، والتّفريق عن الجماعة ، فكم أوهنت حبل الاتحاد الإسلامي ، وغشيت المسلمين بسببها الغواشي [3] " . [4]

---

(١) المرجع السّابق : ١٦٤/٢٠ .

(٢) المرجع نفسه : ٥١٢/١١ .

(٣) الغواشي : جمع غاشية وهي العقوبة العامّة المهلكة . و انظر : لسان العرب : ١٢٧/١٥ .

(٤) حكم الانتماء : ص: ١٠٩ .

ولك أن تتصوّر ما ينغمر فيه المتحزّبون من قضايا إنصرافيّة تميت الالتزام بالشّرع في نفوس الأتباع ، حيث يصبح الالتفاف حول الحزب وجلب الأفراد إليه بشتّى السّبل والوسائل – الشّرعيّة منها وغير الشّرعيّة – هو البند الأوّل والهدف الأسمى بين أجندة التّكتّل الحزبي ، متدثّرين بثوب من السّريّة ، متصيّدين أولئك من خلال الدّعوة الموسميّة ، مع خوض في غمار السّياسة فحسب ، منغمسين في فقه الجرائد والمجلاّت ، ملمّعين لأهل الابتداع ، معظّمين لأنفسهم ، متكلّمين فيمن خالفهم بالاتّهامات المنكرة والألقاب السّاقطة ، مع انحدار إلى هوّة التّكفير ، وكلّ ذلك سبيل ممهّد لجلب أعداء اللّه المدبّرين لمحو الإسلام .[١]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" وكيف يجوز التّفريق بين الأمّة بأسماء مبتدعة لا أصل لها في كتاب اللّه ولا سنّة رسوله ﷺ ، وهذا التّفريق الّذي حصل من الأمّة علمائها ومشايخها وأمرائها وكبرائها هو الّذي أوجب تسلّط الأعداء عليها ، وذلك بتركهم العمل بطاعة اللّه ورسوله كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ ﴾ [المائدة:١٤] فمتى ترك النّاس بعض ما أمرهم اللّه به وقعت بينهم العداوة والبغضاء ، وإذا تفرّق القوم فسدوا وهلكوا ، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا ، فإنّ الجماعة رحمة والفرقة عذاب " .[٢]

ولم يقف الأمر عند تسلّط الأعداء ، بل أصبح الطّريق وعراً شائكاً مظلماً على من يريد الحقّ ، حيث يرى شعارات برّاقة ترفع في كلّ بقعة من بلاد الإسلام يهتف أهلها : إلينا إلينا لا إلى غيرنا ، فيقف حائراً لا يدري أين تكون

---

(١) وانظر : المناهج الدّعوية : ص: ٩٢ .

(٢) مجموع الفتاوى : ٣/٤٢١ .

الوجهة ولأيّها يكون الانتماء ، وخاصّة إذا كان خالي الوفاض من علم الشّـــرع .
فأنّى لهذا سلوك طريق النّجاة ، وكيف له بمسلك السّلامة ؟

فالتّحزّب عائق عظيم عن سلوك منهج اللّه ورسوله ، وعامل لئيم يؤدّي إلى الانحراف عن سبيل اللّه ، ومؤثّر ذميم يبذر الشّك والارتياب في قلب من يريـــد السّير على طريق اللّه .

والحقّ واحد لا يتعدّد ، والجماعة ما كان عليه رسول اللّه ﷺ وأصحابــه ، وهي : جماعة واحدة لاجماعات ، وصراط واحد لا عشرات .[1] الأصل فيها قائم على قاعدة التّعاون الشّرعي المنبني على علم الكتاب والسّنّة ، بعيدة عن التّحـزّب المنحرف ، والتّعصّب المقرض الّذي يفرّق ولا يجمع ، ويبعد ولا يقرّب .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" وليس للمعلّمين أن يحزّبوا النّاس ، ويفعلوا ما يلقي بينهم العداوة والبغضاء ، بل يكونون مثل الإخوة المتعاونين على البر والتّقوى كما قال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾ [المائدة:٢] "[2] .

فأهل الإيمان يكونون يداً واحدة يكلؤهم الحبّ في اللّه لا التّباغض ، وتحيط بهم الرّحمة لا العداوة ، ويرفرف بين جوانبهم الودّ لا الضّغـــائن ، متماســكين ، متناصحين ، متعاونين ، لا متعادين ولا متحزّبين ولا متفرّقين ، منهجهم واحـــد عليه يثبتون ، وطريقهم واحد له يسلكون . لأنّ ربّهم واحد إيّاه يعبدون ، وكتابـهم

---

(١) عنوان كتاب لفضيلة شيخنا ربيع بن هادي المدخلي ، وهو كتاب قيّم جدّاً ، يرجع إليه مـــن يريـــد المزيـــد في موضوع التحزّب ، كما يمكنه الرّجوع إلى حديث افتراق الأمّة للأمير الصّنعاني ، والأجوبة المفيـــدة عـــن أســئلة المناهج الجديدة ، ولمحة عن الفرق الضّالة كلاهما للشّيخ صالح بن فوزان الفوزان ، والأحزاب السّياسيّة في الإســلام لصفي الرّحمن المباركفوري ، وحكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات للشّيخ بكر أبي زيد ، ورؤية واقعيّـة في المناهج الدّعويّة ، والدّعوة بين التّجمّع الحزبي والتّعاون الشّرعي كلاهما للشّيخ علي حسن عبد الحميد . حفـــظ اللّه الجميع ورحم الله من قضى نحبه منهم .

(٢) مجموع الفتاوى : ٢٨/١٥-١٦ .

واحد به يلتزمون ، ورسولهم واحد له يتّبعون ، وهم أمّة واحدة ليسوا متفرّقيـــن ولا متناحرين.

المبحث الرّابع

الأخذ بالوسطيّة والاعتدال

لقد سبق أن بيّنت أنّ من سمات المنهج الحقّ الوسطيّة ، وقد ذكرت من أدلّة الكتاب والسّنّة وأقوال أهل العلم ما يدلّ على ذلك .[1]

وأحبّ أن أبيّن هنا أنّ من أعظم ما يعين على الثّبات على المنهج أن يتّسم السّائر عليه بالوسطيّة ، وهو مطلب عزيز طالما زلّت فيه أقدام ، واضطّربت فيه أفهام ، وقلّ أهله بين النّاس ، أولئك الّذين يتّسمون بالعدل والإنصاف مع أنفسهم ومع غيرهم .

وهذا الّذي دفع *شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله)* في جعله جماع الشّر يكمن في عدم الاعتدال ، حيث قال :

" وإنّما جماع الشّر تفريط في حقّ أو تعدّ إلى باطل ، وهو تقصير في السّنّة أو دخول في البدعة ، كترك بعض المأمور وفعل بعض المحظور ، أو تكذيب بحقّ وتصديق بباطل . ولهذا عامّة ما يؤتى النّاس من هذين الوجهين " .[2]

فالشّيطان عليه لعائن اللّه استطاع بهذين الدّاعين – الإفراط والتّفريط – أن يبعد كثيراً من النّاس عن طريق اللّه القويم ، ويلقي بهم في أودية المهالك .

---

(١) انظر : ص: ٨٤٣-٨٥١ . من هذا البحث .

(٢) الصّفديّة لشيخ الإسلام ابن تيمية . تحقيق : محمّد رشاد سالم . الطّبعة الثّانية : ١٤٠٦هـ : ٢٩٣/١ .

قال ابن عائشة (رحمه الله) [1] :

" ما أمر اللّه سبحانه بأمر إلاّ وللشّيطان فيه نزغتان : إمّا إلى تفريط وتقصير ، وإمّا إلى مجاوزة وغلوّ ، ولا يبالي بأيهما ظفر " .

وقد اقتطع أكثر النّاس إلاّ أقلّ القليل في هذين الواديين ، وادي التّقصير ، ووادي المجاوزة والتّعدّي ، والقليل منهم جداً الثّابت على الصّراط الّذي كان عليه رسول اللّه ﷺ وأصحابه .[2]

والسّلف (رحمهم الله) يذكرون هذين الأصلين كثيراً وهما : الاقتصاد في الأعمال ، والاعتصام بالسّنّة . فإنّ الشّيطان يشمّ قلب العبد ويختبره ، فإن رأى فيه داعية للبدعة ، وإعراضاً عن كمال الانقياد للسّنّة : أخرجه عن الاعتصام بها . وإن رأى فيه حرصاً على السّنّة ، وشدّة طلب لها ، لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها ، فأمره بالاجتهاد ، والجور على النّفس ، ومجاوزة حدّ الاقتصاد فيها ، قائلاً له : إنّ هذا خير وطاعة ، والزّيادة والاجتهاد فيها أكمل ، فلا تفتر مع أهل الفتور ، ولا تنم مع أهل النّوم ، فلا يزال يحثّه ويحرّضه حتّى يخرجه عن الاقتصاد فيها ، فيخرج عن حدّها . كما أنّ الأوّل خارج عن هذا الحدّ ، فكذا هذا الآخر خارج عن الحدّ الآخر. وهذا حال الخوارج الّذين يحقر أهل الاستقامة صلاتهم مع صلاتهم ، وصيامهم مع صيامهم ، وقراءتهم مع قراءتهم . وكلا

---

(١) هو عبيد اللّه بن محمّد بن حفص أبو عبد الرّحمن القرشي التّيمي العيشي البصري ، المعروف بابن عائشة لأنّه من ولد عائشة بنت طلحة . محدّث ثقة ، عالم إخباري ، جوّاد ، له رقائق وفصاحة وحسن خلق وشجاعة . توفي سنة : ٢٢٨هـ .

و انظر : الطّبقات الكبرى: ٣٠١/٧ . طبقات خليفة : ص : ٢٢٩ . التّاريخ الكبير: ٤٠٠/٥ . الجرح والتّعديل: ٣٣٥/٥ . ثقات ابن حبّان: ٤٠٥/٨ . تاريخ بغداد: ٣١٤/١٠ . تهذيب الكمال : ١٤٧/١٩ . الكاشف: ٦٨٦/١ . تهذيب التّهذيب: ٤١/٧ . تقريب التّهذيب: ٣٧٤/١ .

(٢) إغاثة اللّهفان : ١١٦/١ .

الأمرين خروج عن السّنّة إلى البدعة ، لكن هذا إلى بدعة التّفريط والإضاعة ، والآخر إلى بدعة المجاوزة والإسراف .[١]

والعمدة العاصم من ذلك هو ما كان عليه رسول اللّه ﷺ وأصحابه الأبرار، فإنّ هديهم هو الهدي وطريقهم هو الطّريق ، فمن انحرف عنه يمنة بإفراط أو يسرة بتفريط فهو المنزلق المتزحلق الّذي فارقه الثّبات على منهجهم ، وخالفته الاستقامة على طريقهم .

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" إنّ التّعمّق والتّنطّع والتّشديد الّذي نهى عنه رسول اللّه ﷺ هو المخالف لهديه وهدي أصحابه وما كانوا عليه ، وإنّ موافقته فيما فعله هو وخلفاؤه من بعده هو محض المتابعة ، وإن أباها وجهلها من جهلها ، فالتّعمّق والتّنطّع مخالفة ما جاء به وتجاوزه والغلو فيه ، ومقابله إضاعته والتّفريط فيه والتّقصير عنه ، وهما خطأ وضلالة وانحراف عن الصّراط المستقيم ، والمنهج القويم ، ودين اللّه بين الغالي فيه والجافي عنه " .[٢]

وقد ضلّ الطّريق وفارق الثّبات على المنهج أناس نظروا إلى مجتمع الإسلام بمنظار قاتم فأرادوا أن يصلحوا عوجه ، فاتّخذوا العنف طريقاً إلى الإصلاح فأحدثوا فوضى أريقت معها الدّماء ، وشوّهوا من جرّائها صفاء الإسلام ، فتنفّس الصّعداء أعداء اللّه ، ووجدوا بغيتهم وما يأملون فأطلقوا من الألفاظ والألقاب ما يصرفون به النّاس عن الإسلام ، ويقبّحون وجهه في كلّ محفل ، ليظهر في جثمان شبح مخيف ينفر النّاس عنه ، حيث تظهر عبارات الأصوليّة المتزمّتة ، والإرهاب ، ومصاصي الدّماء وغير ذلك ، وهم لا يفرّقون أو لا يريدون أن

---

(١) مدارج السّالكين : ٢/١٠٧ –١٠٨ .

(٢) كتاب الصّلاة وحكم تاركها : ص: ١٩٢ .

يفرّقوا بين المحقّ والمبطل ، وبين المصيب والمخطئ ، إذ قصدهم أن يُدمّر الإسلام بأي وجه ولو عن طريق الظّلم والجهل .

وهنالك نابغة أخرى أعجزتهم التّكاليف أن يلتزموا بها ، وصعب عليهم الالتزام أن يواكبوه ، ومالت أنفسهم إلى تحلّلات المجتمع فأرادوا أن يسايروه ، فلجؤوا إلى النّصوص فلووا أعناقها وميّعوها ، بحجّة معايشة المجتمع تارة ، وعدم إخلاء السّاحة لأهل الضّلالة أخرى ، ولأجل مصلحة الدّعوة ومواكبة الحياة والمشاركة في متطلّباتها تارة أخرى ، وواجهوا الملتزمين السّائرين على منهج السّلف بعبارات منفّرة ، فقالوا عنهم : إنّهم جافّون على النّصوص لا فهم لهم ولا فقه ، متشدّقون لا وعي لهم ولا إدراك ، متخلّفون عن الرّكب ، متحجّرون تقليديون ، همّهم أن تحشى أذهانهم بنصوص لا يدرون موقعها من المجتمع . هكذا يزعمون ، وبئس ما يزعمون .

فهؤلاء وأولئك على طرفي نقيض وكلاهما زائغ عن المنهج الحقّ ، ومنحرف عن الصّراط المستقيم ، وفاز أهل الاعتدال والوسطيّة بالثّبات على منهج السّلف الصّالحين والأئمّة المهديين .

المبحث الخامس

عدم الوحشة بقلّة السّالكين

لقد بيّن سبحانه أنّ أكثر النّاس ضالّون عـن الطّريـق ، منحرفـون عـن الصّراط ، ناكبون عن السّبيل ، مجافون للحـق ، زائغـون عـن الاسـتقامة . فقـال تعـالى : ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴾ [الأنعام:١١٦] .

قال البيضاوي (رحمه الله) :

" ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي أكثر النّـاس يريـد الكفّـار ، أو الجهّال ، أو أتباع الهوى ، وقيل : الأرض أرض مكّة . يضلّوك عن سبيل اللّه ، عن الطّريق الموصل إليه ، فإنّ الضّال في غالب الأمر لا يـأمر إلاّ بمـا هـو ضلال " .(١)

ويؤيّـد مـا سـبق قولـه سـبحانه : ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يوسف:١٠٣] . وقولـه : ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء:٨٩] . وقوله : ﴿ وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ﴾ [الأعراف:١٠٢](٢).

كما بيّن سبحانه أنّ أهل الحقّ ، السّالكين صراطه المستقيم ، السّائرين علـى نهجـه القويـم ، التّـابعين لرسـله الأكرميـن قلّـة بيـن النّـاس .

---

(١) أنوار التتريل: ٤٤٦/٢ وانظر : الجـامع لأحكـام القـرآن : ٧١/٧ . تفسـير القـرآن العظيـم : ٢٦٩/٢ . فتح القدير :١٥٥/٢ تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٣٣ .

(٢) و انظر :الآيات : (المائدة :١٠٣،٤٩) (الأنعام :١١١)(التوبة :٨) (هـود :١٧) (يوسـف :١٠٦،٣٨،٢١) (الإسراء :٦٢) .

فقال : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ:١٣] وقال : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص:٢٤] .

فنوح عليه السّلام مع طول بقائه في قومه ، وقيامه بالدّعوة فيهم على قدم وساق ، ومع ذلك : ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود:٤٠] .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ ، أي نزر يسير مع طول المدّة والمقام بين أظهرهم . ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت:١٤] .

فعن ابن عبّاس : كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم ، وعن كعب الأحبار(١) : كانوا اثنتين وسبعين نفساً ، وقيل : كانوا عشرة ".(٢) .

وقال سبحانه في نجاة من نجا مع لوط عليه السّلام من العذاب : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذّاريات:٣٥-٣٦] . وقد نصّ أهل العلم على أنّهم لوط عليه السّلام وأهل بيته إلاّ امرأته .(٣)

---

(١) كعب بن ماتع أبو إسحاق الحميري ، المعروف بكعب الأحبار . كان من أهل اليمن فسكن الشّام . من كبار علماء أهل الكتاب ، أدرك النّبي ﷺ وأسلم في خلافة عمر ﷺ . وقيل في خلافة أبي بكر ﷺ . ثقة مخضرم ، من أوعية العلم . توفي سنة : ٣٤هـ . وقيل : ٣٢هـ بحمص .

و انظر : الطّبقات الكبرى: ٤٤٥/٧ . التاريخ الكبير: ٢٢٣/٧ . الجرح والتّعديل: ١٦١/٧ . ثقات ابن حبّان: ٣٣٣/٥ . مشاهير علماء الأمصار: ١١٨/١ . تهذيب الكمال : ١٨٩/٢٤ . تذكرة الحفّاظ: ٥٢/١ . الكاشف: ١٤٨/٢ . جامع التّحصيل : ص : ٢٦٠ . الإصابة : ٦٤٧/٥ . تهذيب التّهذيب: ٣٩٣/٨ . تقريب التّهذيب: ٤٦١/١ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٦٩٠/٢ وذكر أقوالاً أخرى .

(٣) انظر : المرجع السّابق : ٣٦٤/٤ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٧٥٢ .

وقد أشار النّبي ﷺ إلى قلّة أتباع الأنبياء ، فقال في حديث ابن عبّاس (رضي الله عنهما) : " عرضت علي الأمم ، فرأيت النّبي ومعه الرُّهَيطُ ،[1] والنّبي ومعه الرّجل والرّجلان ، والنّبي ليس معه أحد ... " الحديث [2].

كما بيّن ﷺ أنّ الّذين يسلكون منهجه ، ويتّبعون صراطه ، ويثبتون على طريقه فلا يعوجون عدد قليل ، ونزر يسير ، من هذه الأمّة فقال : " بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً فطوبى للغرباء "[3]

---

(١) الرّهيط : تصغير رهط . قال ابن الأثير (رحمه الله) :
"الرّهط من الرّجال ما دُون العَشَرة وقيل إلى الأرْبعين ، ولا تكونُ فيهم امرأةٌ ، ولا واحدَ لَه من لَفظِه ، ويُجمع على أرهُط وأرْهاط . وأرَاهِطُ جمْعُ الجمْع " . النّهاية في غريب الحديث: ٢٨٣/٢ . و انظر : الفائق : ٩٦/٢ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظ مقارب — جزء من حديث — في : كتاب الطّبّ : (٥٠/٧٦) . باب من لم يرق : (٤٢) . برقم: (٥٧٥٢) . ص : ١٢٤٧ . و نحوه في: باب من اكتوى أو كوى غيره ، وفضل من لم يكتوي : (١٧) . برقم: (٥٧٠٥) . ص : ١٢٣٩ . وفي كتاب الرّقاق : (٥٥/٨١) . باب يدخل الجنّة سبعون ألفاً بغير حساب : (٥٠) . برقم: (٦٥٤١) . ص : ١٣٨٩ .
صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإيمان : (١) . باب الدّليل على دخول طوائف من المسلمين الجنّة بغير حساب ولا عذاب : (٩٤) . برقم: (٢٢٠) . ١٩٩/١ .
إنّ كثيراً ممّن يحملون مناهج دعويّة يهتمون بجمع النّاس على علاّتهم بهدف المكاثرة بهم ، فهم يسعون أبداً للتجميع والتّنظيم والتّحزيب من غير تمحيص ولا تهذيب ، إذ همّهم الكثرة فحسب مع تباين أفكارها ، واختلاف مشاربها ، ويجعلون هذا غاية يسعون للوصول إليها ، مسخّرين كلّ ما يمكنهم لبلوغها .
وهذا في نفسه وسيلة وليس غاية . إذ الغاية هي أن تحقّق عبوديّة اللّه في الأرض .
وتجميع النّاس على الحماس الزّائد ، والعاطفة غير الرّاشدة ، والأهداف الرّخيصة ، والاهتمام البالغ بذلك ، وإهمال الهدف المنشود والغاية السّاميّة ، وهي عبادة اللّه وحده دون سواه مذهب خاطئ ، ومنهج تالف أثبت فشله في غير موقع ، وعدم جدواه في غير وقت ، بل جرّ من المفاسد لأهل الإسلام ما يدركه كلّ صاحب بصيرة وعقل .

(٣) صحيح مسلم: بلفظه في : كتاب الإيمان : (١) . باب بيان أنّ الإسلام بدأ غريباً : (٦٥) . برقم: (١٤٥) . عن أبي هريرة ﷺ . و بلفظ مقارب مع زيادة : " وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحيّة في جحرها " . برقم: (١٤٦) ، عن ابن عمر (رضي الله عنهما) . ١٣٠/١-١٣١ .

فسئل ﷺ عن الغرباء ؟ فقال في رواية : " النّزّاع من القبائل " [1] وفي رواية أخرى : " أناس صالحون في أناس سوء كثير من يعصيهم أكثر ممّن يطيعهم " [2] . وفي رواية : " الّذين يصلحون إذا أفسد النّاس " [3] .

---

(١) سنن ابن ماجه: كتاب الفتن : (٣٦) . باب من ترجو له السّلامة من الفتن : (١٦) . برقم: (٣٩٨٨) . عن عبد اللّه بن مسعود ﷺ . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " .ص: ٤٢٩ .

سنن الدّارمي: باب إنّ الإسلام بدأ غريباً . ٤٠٢/٢ .

مسند أحمد: ٣٩٨/١ . قال أحمد شاكر (رحمه الله): " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٢٩٦/٥ . برقم: (٣٧٨٤) .

مسند أبي يعلى: ٣٨٨/٨ . برقم: (٤٩٧٥) . قال المحقّق : " إسناده صحيح " .

(٢) مسند أحمد: بلفظه في : ١٧٧/٢ . و بلفظه إلاّ أحرف يسيرة في : ٢٢٢/٢ . قال أحمد شاكر (رحمه الله): " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٣٥/١٠-١٣٦ . ٢٩/١٢ . برقم: (٦٦٥٠ ، ٧٠٧٢) عن عبد اللّه بن عمرو (رضي الله عنهما) .

معجم الطّبراني الأوسط: بلفظ مقارب في: ١٤/٩ .

الزّهد لأبي عبد الرّحمن عبد اللّه بن المبارك المروزي . تحقيق : حبيب الرّحمن الأعظمي . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت : بلفظ مقارب في: ص : ٢٦٧ .

كتاب الزّهد الكبير لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي . تحقيق : عامر أحمد حيدر . طبعة : مؤسّسة الكتب الثّقافيّة . بيروت . الطّبعة الثّالثة : ١٩٩٦م : نحوه في: ١١٦/٢ .

الفردوس بمأثور الخطاب : بلفظ مقارب في: ٤٤٩/٢ .

و انظر : مجمع الزّوائد : ٢٧٨/٧ . التّرغيب والتّرهيب : ٦٤/٤ . وقال : " وأحد إسنادي الطّبراني رواته رواة الصّحيح " .

(٣) مسند أحمد: بلفظه في : ٧٣/٤ . عن عبد الرّحمن بن سنة ﷺ .

مسند أبي يعلى: نحوه في: ٩٩/٢ . برقم: (٧٥٦) . قال المحقّق : " إسناده صحيح " . عن سعد بن مالك ﷺ .

معجم الطّبراني الكبير: بلفظ مقارب في: ١٦٤/٦ . وفي المعجم الصّغير : ١٨٣/١ . عن سهل بن سعد السّاعدي ﷺ .

مسند الشّهاب : بلفظه ـــ إلاّ إنّه قال : " فسد" ـــ في : ١٣٩/٢ . عن سهل ﷺ .

الجهاد لعبد اللّه بن المبارك . تحقيق : نزيه حمّاد . طبعة : الدّار التّونسيّة . تونس . ١٩٧٢م : ولفظه : " الّذين هم صالحون عند فساد النّاس " . عن عبد اللّه بن عمر (رضي الله عنهما) موقوفاً عليه . ص : ١٦٤ .

وفي رواية : " الّذين يصلحون ما أفسد النّاس من بعدي من سنّتي" .[1]

وفي رواية : " الّذين يحيون سنّتي ويعلمونها عباد اللّه " [2]

قال أبو العبّاس القرطبي (رحمه الله) :

" الإسلام نشأ في أوّل أمره في آحاد من النّاس وقلّة ، ثمّ انتشر وظهر ، فأخبر ﷺ أنّه سيلحقه من الضّعف والاختلال حتّى لا يبقى إلاّ في آحاد وقلّة كابتدائه " .[3]

وهنالك عدّة احتمالات في معنى غربة الإسلام ، من ذلك :

ـ أنّه بدأ غريباً لا يعرف ثمّ ظهر وعرف ، ثمّ يقلّ بعد ذلك من يعرفه حتّى يكون كحاله الأولى .

ـ أنّه في آخر الدّنيا لا يبقى مسلم إلاّ قليل ، وهذا إنّما يكون بعد الدّجال ويأجوج ومأجوج عند قرب السّاعة .

ـ أنّه يكون غريباً في بعض شرائعه وقد يكون ذلك في بعض الأمكنة ، حيث تخفى بعض شرائعه فلا يعرفها إلاّ الواحد بعد الواحد .[4]

---

(١) سنن التّرمذي: بلفظه في : كتاب الإيمان : (٣٧) . باب ما جاء أنّ الإسلام بدأ غريباً : (١٣) . برقم: (٢٦٣٠) عن كثير بن عبد اللّه بن عمرو بن عوف بن زيد بن ملحة عن أبيه عن جده . قال أبو عيسى (رحمه الله) : " هذا حديث حسن صحيح " . و قال الألباني (رحمه الله): " ضعيف جداً " . ص: ٤٢٦ .
معجم الطّبراني الكبير: بلفظه ـ إلاّ إنّه قال : " النّاس بعدي " ـ . في ١٦/١٧ .

(٢) مسند الشّهاب : بلفظه ـ في موضعين ـ في : ١٣٨/٢ . عن كثير بن عبد اللّه المزني عن أبيه عن جده .

(٣) المفهم : ٣٦٢/١ . وذكر نحوه النّووي (رحمه الله) ونسبه إلى القاضي عياض (رحمه الله) . انظر : شرح النّووي على صحيح مسلم : ١٧٧/٢ .

(٤) مجموع الفتاوى : ٢٩٥/١٨-٢٩٨ بتصرّف . وهي رسالة في شرح الحديث أعلاه ، ضمّنها ابن قاسم (رحمه الله)بمجموع الفتاوى . قال شيخ الإسلام : " وهذا الحديث يفيد المسلم أنّه لا يغتم بقلّة من يعرف حقيقة الإسلام ، ولا يضيق صدره بذلك ، ولا يكون في شكّ من دين الإسلام كما كان الأمر حين بدا " .
المرجع السّابق : ٢٩٧/١٨ .

والغرباء قد بيّن ﷺ صفاتهم فيما سبق من روايات ، وإنّما سمّوا غرباء لقلّتهم في النّاس جداً ، وأنّ أكثر النّاس على غير هذه الصّفات .

فأهل الإسلام في النّاس غرباء ، والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء ، وأهل العلم في المؤمنين غرباء ، وأهل السّنّة الّذين يميزونها من أهل الأهواء والبدع غرباء ، والدّاعون إليها الصّابرون على أذى المخالفين أشدّ هؤلاء غربة ، وهي غربة أهل اللّه وأهل سنّة رسوله ﷺ بين الخلق ، وهي الّتي مدحها رسول اللّه ﷺ ومدح أهلها ، وهي قد تكون في مكان دون مكان ، ووقت دون وقت ، وبين قوم دون قوم .

ومن صفات أهلها إنّهم لم يأووا إلى غير اللّه ، ولم ينتسبوا إلى غير رسول اللّه ﷺ ، ولم يدعوا إلى غير ما جاء به ، وهم الّذين فارقوا النّاس أحوج ما كانوا إليهم ، فإذا انطلق النّاس يوم القيامة مع آلهتهم بقوا في مكانهم ، فيقال لهم : ألا تنطلقوا حيث انطلق النّاس ؟ فيقولون : " فارقنا النّاس ونحن أحوج إليهم منّا اليوم ، وإنّا ننتظر ربّنا الّذي كنا نعبده" .[1]

---

(١)عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : أنّ أناساً في زمن النّبي ﷺ قالوا :يا رسول اللّه هل نرى ربّنا يوم القيامة ؟قال النّبي ﷺ : " نعم هل تضارّون في رؤية الشّمس بالظّهيرة ضوء ليس فيها سحاب؟" قالوا :لا قال : " وهل تضارّون في رؤية القمر ليلة البدر ضوء ليس فيها سحاب؟" قالوا : لا. قال النّبي ﷺ : " ما تضارّون في رؤية اللّه عزّ وجلّ يوم القيامة إلاّ كما تضارّون في رؤية أحدهما . إذا كان يوم القيامة أذّن مؤذّن تتبع كلّ أمّة ما كانت تعبد ، فلا يبقى من كان يعبد غير اللّه من الأصنام والأنصاب إلاّ يتساقطون في النّار ، حتّى إذا لم يبق إلاّ من كان يعبد اللّه برّ أو فاجر وغُبَّرَات ـــ بقيّة ـــ أهل الكتاب ، فيدعى اليهود فيقال لهم : من كنتم تعبدون ؟ قالوا :كنّا نعبد عزيراً ابن اللّه . فيقال لهم : كذبتم ما اتّخذ اللّه من صاحبة ولا ولد ، فماذا تبغون ؟ فقالوا :عطشنا ربّنا فاسقنا فيشار ألا تردون فيحشرون إلى النّار كأنّها سراب يَحْطِم بعضها بعضاً فيتساقطون في النّار . ثّم يدعى النّصارى فيقال لهم من كنتم تعبدون ؟ قالوا :كنّا نعبد المسيح ابن اللّه . فيقال لهم كذبتم ، ما اتّخذ اللّه من صاحبة ولا ولد .فيقال لهم : ماذا تبغون ؟ فكذلك مثل الأوّل حتّى إذا لم يبق إلاّ من كان يعبد اللّه من برّ أو فاجر أتاهم ربّ العالمين في أدنى صورة من الّتي رأوه فيها . فيقال : ماذا تنتظرون تتبع كلّ أمّة ما كانت تعبد ؟ قالوا : فارقنا النّاس في الدّنيا على أفقر ما كنّا إليهم و لم نصاحبهم ، ونحن ننتظر ربّنا الّذي كنّا نعبد . فيقول : أنا ربّكم . فيقولون : لا نشرك باللّه شيئاً مرّتين أو ثلاثاً " .

فهذه الغربة لا وحشة على صاحبها بل هو آنس ما يكون إذا استوحش النّاس لأنّ وليّه اللّه ورسوله والّذين آمنوا ، وإن عاداه أكثر النّاس وجفوه .

ومن صفاتهم التّمسّك بالسّنّة إذا رغب عنها النّاس ، وترك ما أحدثوه وإن كان هو المعروف عندهم ، وتجريد التّوحيد وإن أنكر ذلك أكثر النّاس ، وترك الانتساب إلى أحد غير اللّه ورسوله لا شيخ ولا طريقة ولا مذهب ولا طائفة ، بل هم منتسبون إلى اللّه بالعبوديّة وإلى الرّسول بالاتّباع ، وهم القابضون على الجمر حقّاً ، وأكثر النّاس لائم لهم لغربتهم بينهم يعدّونهم أهل شذوذ وبدعة ومفارقة للسّواد الأعظم ، وهم النّزاع من القبائل الّذين وفدوا وتغرّبوا عن قبائلهم وعشائرهم فدخلوا الإسلام آحاداً .

وكيف لا تكون فرقة واحدة قليلة جداً ، غريبة بين اثنتين وسبعين فرقة ذات أتباع ورئاسات ومناصب وولايات ، ولا يقوم لها سوق إلاّ بمخالفة ما جاء به الرّسول ﷺ ، فإنّ ما جاء به يضادّ أهواءهم ولذّاتهم وشبهاتهم وبدعهم الّتي هي منتهى فضيلتهم وعملهم ، وشهواتهم الّتي هي غاية مقاصدهم وإراداتهم ؟.

فكيف لا يكون المؤمن السّائر إلى اللّه على طريق المتابعة غريباً بين هؤلاء الّذين اتّبعوا أهواءهم وأعجب كلّ منهم برأيه ، وقد روي عنه ﷺ : " مروا

صحيح البخاري: كتاب التّفسير : (٣٩/٦٥) . باب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النّساء:٤٠] : (٨). برقم: (٤٥٨١) . ص : ٩٥٨ . و انظر : كتاب الرّقاق : (٥٥/٨١) . باب الصّراط جسر جهنّم : (٥٢) . برقم: (٦٥٧٣) . ص : ١٣٩٤ . كتاب التّوحيد : (٧٢/٩٧) . باب قول اللّه تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣ ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] : (٢٤) . برقم: (٧٤٣٩) . ص : ١٥٦٢ .
صحيح مسلم: كتاب الإيمان : (١) . باب معرفة طريق الرّؤية : (٨١) . برقم: (١٨٢ ، ١٨٣) . ١٦٣/١-١٦٨ .

بالمعروف وانهوا عن المنكر حتّى إذا رأيتم شُحّاً[1] مطاعاً ، وهوى متّبعاً ، ودنيا مؤثرة وإعجاب كلّ ذي رأي برأيه ، ورأيت أمراً لا يد لك به فعليك بخاصّة نفسك وإياك وعوامهم ، فإنّ وراءكم أيّام صبر الصّابر فيهنّ كالقابض على الجمر " .[2]

فإذا أراد المؤمن الّذي قد رزقه اللّه بصيرة في دينه ، وفقهاً في سنّة رسوله ، وفهماً في كتابه ، وأراه ما النّاس فيه من الأهواء والبدع والضّلالات ، وتنكّبهم عن الصّراط المستقيم الّذي كان عليه رسول اللّه ﷺ وأصحابه ، فإذا أراد

---

(١) الشّحُّ : أشدُّ البُخْل ، وقيل : هو البخلُ مع الحِرْص . وقيل : البُخل في أفْرَاد الأمور وآحادها ، والشّحُّ عامٌّ . وقيل : البخل بالمالِ والشّحُّ بالمال والمعروف . يقال : شَحَّ يَشُحّ شَحّاً فهو شَحِيح . والاسمُ الشّحُّ . انظر : النّهاية في غريب الحديث: ٢/٤٤٨ .

(٢)عن أبي أميّة الشّعباني قال : سألت أبا ثعلبة الخشني فقلت : يا أبا ثعلبة كيف تقول في هذه الآية ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة:١٠٥] قال: أما واللّه لقد سألت عنها خبيراً سألت عنها رسول اللّه ﷺ فقال : "بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتّى إذا رأيت شحّاً مطاعاً ، وهوى متّبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كلّ ذي رأي برأيه فعليك يعني بنفسك ودع عنك العوام ، فإنّ من ورائكم أيّام الصّبر ، الصّبر فيه مثل قبض على الجمر ، للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله " ـــ وزادني غيره ـــ قال يا رسول اللّه : أجر خمسين منهم ؟ قال : " أجر خمسين منكم " .

سنن أبي داود: كتاب الملاحم : (٣٦) . باب الأمر والنّهي : (١٧) . برقم: (٤٣٤١) . قال الألباني (رحمه الله): " ضعيف لكن فقرة أيام الصّبر ثابتة " . ص : ٤٧٤ .

و انظر : سنن التّرمذي: كتاب تفسير القرآن : (٤٣) . باب ومن سورة المائدة : (٥) . برقم: (٣٠٥٨) . وقال : " هذا حديث حسن غريب " . و قال الألباني (رحمه الله): " ضعيف لكن بعضه صحيح " . ص : ٤٨٧ .

سنن ابن ماجه: كتاب الفتن : (٣٦) . باب قول اللّه تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة:١٠٥] : (٢١) . برقم: (٤٠١٤) . ص: ٤٣١.

سنن البيهقي: ١٠/٩١ .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: برقم: (٣٨٥) . ٢/١٠٨-١٠٩ .

مستدرك الحاكم: ٤/٣٥٨ . وقال : " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " . و قال الذّهبي (رحمه الله): " صحيح " .

أن يسلك هذا الصّراط فليوطّن نفسه على قدح الجهّال ، وأهل البدع فيه ، وطعنهم عليه ، وإزرائهم به ، وتنفير النّاس عنه ، وتحذيرهم منه ، كما كان سلفهم من الكفّار يفعلون مع متبوعه وإمامه ﷺ ، فأمّا إن دعاهم إلى ذلك وقدح فيما هم عليه فهنالك تقوم قيامتهم ويبغون له الغوائل(1) ، وينصبون له الحبائل ، ويجلبون عليه بخيل كبيرهم ورجله .

فهو غريب في دنيه لفساد أديانهم ، غريب في تمسّكه بالسّنّة لتمسّكهم بالبدع ، غريب في اعتقاده لفساد عقائدهم ، غريب في صلاته لسوء صلاتهم ، غريب في طريقه لضلال وفساد طرقهم ، غريب في نسبته لمخالفة نسبهم ، غريب في معاشرته لهم لأنّه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم . وبالجملة فهو غريب في أمور دنياه وآخرته ، لا يجد من العامّة مساعداً ولا معيناً ، فهو عالم بين جهّال ، صاحب سنّة بين أهل بدع ، داع إلى اللّه ورسوله بين دعاة الأهواء والبدع ، آمر بالمعروف ناه عن المنكر بين قوم المعروف لديهم منكر والمنكر معروف.(2)

---

(1) الغوائل : هي الدّواهي . وهي الأمور المهلكة . و انظر : مختار الصّحاح : ص : ٤٨٧ . لسان العرب : ٥٠٧/١١ .

(2) مدارج السّالكين : ١٩٩/٣-٢٠٠ بتصرّف .

قال ﷺ لابن عمر (رضي الله عنهما) : " كن في الدّنيا كأنّك غريب أو عابر سبيل .. " الحديث ــ صحيح البخاري: كتاب الرّقاق : (٥٥/٨١) . باب قول النّبي ﷺ : " كن في الدّنيا كأنك غريب" : (٣) . برقم: (٦٤١٦) . ص : ١٣٦٧ ــ فالمؤمن غريب في هذه الدّار أين ما حلّ فيها فهو في دار غربة وعناء وتعب لا راحة له فيها ، بل وصفها النّبي ﷺ بأنّها سجن المؤمن ــ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ : " الدّنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر " . صحيح مسلم: كتاب الزّهد والرّقاق : (٥٣) . برقم: (٢٩٥٦). ٢٢٧٢/٤ . وغربته فيها لا تنفك ولا تنقضي حتّى يهاجر إلى وطنه الأوّل ودار كرامته ، وأنسه بربّه في جنّته الّتي لا زال حنينه إليها ، وقلبه يتفطّر عليها .

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى ****** ما الحبّ إلاّ للحبيب الأوّل

كم منزل في الأرض يألفه الفتى ****** وحنينه أبداً لأوّل منزل

فحنينه أبداً لداره الّتي سبي منها وفرّق بينه وبين من يحبّ ، وجمع بينه وبين عدوّه الماكر في هذه الدّنيا .

وحيّ على جنّات عدن فإنّها ****** منازلك الأولى وفيها المخيّمُ

ونفس الإنسان بسجيتها وطبيعتها تأنس بالنّظائر والأشباه ، وتنفر من الغربة والوحدة وتستوحش بها ، وهكذا السّالك لطريق الحقّ يستوحش بندرة الرّفيق وقلّة الصّاحب والمعين ، فلا يدفعه ذلك إلى عدم الثّبات ، وليوطّن نفسه على الصّبر مع مرّ الاغتراب .

قال الحسن البصري (رحمه الله) :

" سنّتكم والّذي لا إله إلاّ هو بينهما : بين الغالي والجافي ، فاصبروا عليها رحمكم اللّه ، فإنّ أهل السّنّة كانوا أقلّ النّاس فيما مضى ، وهم أقلّ النّاس فيما بقي ، الّذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم ، ولا مع أهل البدع في بدعهم ، وصبروا على سنّتهم حتّى لقوا ربّهم ، فكذلك إن شاء اللّه فكونوا " .[١]

والّذي يعينه على الصّبر والثّبات مع الغربة وقلّة السّالكين هو علمه بأنّ الحقّ في أصله صحيح ، فلا يعتمد في ثبوت صحته على أكثريّة أهله ، لأنّه لا يُعرف بالكثرة والعدد وإنّما يُعرف بالتّمسّك به ، والسّير على منواله ولو قلّ أهله .

ولكنّنا سَبْيُ العدوّ فهل ترى ******* نعود إلى أوطاننا ونسَلّمُ

وانظر : مفتاح دار السّعادة : ١/١٥٠-١٥١ .

(١) سنن الدّارمي : في المقدّمة . باب في كراهية أخذ الرّأي . ١/٨٣ .

ولنعم ما قليل :

إنّ القلوب يد الباري تقلّبها ******* فسأل اللّه توفيقاً وتثبيتاً

من يضلل اللّه لا تهديه موعظة ******* وإن هديت فبالأخبار أنبيتا

فهذه غربة الإسلام أنت بها ******* فكن صبوراً ولو في اللّه أوذيتا

قطف الثّمر في بيان عقيدة أهل الأثر . لمحمّد صديق حسن خان القنوجي . تحقيق : عاصم عبد اللّه القريوتي . طبعة شركة الشّرق الأوسط للطّباعة . الأردن . الطّبعة الأولى : ١٤٠٤هـ : ص: ١٧٠ .

قال ابن مسعود ﷺ :

"الجماعة ما وافق الحقّ وإن كنت وحدك " .[1]

قال ابن بطّة (رحمه الله) :

" أنشدني شيخ من أهل العلم بالبصرة في جامعها :

الطّرق شتّى وطرق الحق مفردة ••••••• والسّالكون طريق الحــقّ آحــاد

لا يطلبــون ولا تبــقى مــآثرهم ••••••• فهم على مهــل يمشون قصّــاد

والنّاس في غفلة عمّا يراد بهــم ••••••• فكلّهم عن طريق الحــقّ حوّاد" [2].

كما يعينه على الثّبات وعدم الوحشة أن يعلـــم أنّ طريقــه طريــق ســلكه الصّالحون من قبله ، فليستشعر قلبه مرافقتهم حتّى يستأنس من وحشته ، ويظـــلّ في سيره لا ينحرف عنه .

---

(١) الباعث على إنكار البدع والحوادث : ص: ٢٧ . إغاثة اللّهفان : ١/ ٧٠ . وهو في شرح أصول اعتقــاد أهــل السّنّة :بلفظ : " إنّ جمهور الجماعة هي الّتي تفارق الجماعة ، إنّما الجماعة ما وافق طاعة اللّه وإن كنت وحــدك ". ١/ ١٠٩ . وقد سبق قول أبي شامة (رحمه الله) قريباً . انظر : ص : ٩٣٨ .

(٢) الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية : ٢/٥٧٥ .

وقوله : حوّاد صيغة مبالغة من حاد عن الطّريق والشّيء يَحِيدُ إذا عدل ومال عنه . وانظر : لســـان العــرب : ٣/ ١٥٩ . القاموس المحيط : ص : ٣٥٦ .

ولا يعني هذا غياب الحقّ ، وفساد الدّين جملة ، بل الحقّ ظاهر ، والدّين باق ، وحجّة اللّه قائمة بحفـــظ اللّــه لكتابه وسنّة رسوله ﷺ كما قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝ ﴾ [الحجــر:٩] ولقول النّبي ﷺ : " لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحقّ لا يضرهم من خذلهم ، حتّى يأتي أمر اللّـــه وهــم كذلك" . سبق تخريجه ص : ٨١٣ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) : " فقد أخبر الصّادق المصدوق أنّه لا تزال طائفة ممتنعة من أمّته علـــى الحقّ أعزّاء لا يضرهم المخالف ولا خلاف الخاذل . فأمّا بقاء الإسلام غريباً ذليلاً في الأرض كلّها قبل السّاعة فــلا يكون هذا " . مجموع الفتاوى : ١٨/ ٢٩٦ .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

" ولمّا كان طالب الصّراط المستقيم طالب أمر أكثر النّاس ناكبون عنـــه ، مريـداً لسلوك طريق مرافقه فيها في غاية القلّة والعزّة ، والنّفوس مجبولة على وحشة التّفـرّد ، وعلى الأنس بالرّفيق ، نبّه اللّه سبحانه على الرّفيق في هذه الطّريق ، وأنّهم هــم الّذيـن ﴿ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [النّساء:٦٩] فأضاف الصّراط إلى الرّفيق السّالكين له ، وهم الّذين أنعم اللّه عليهم ، ليزول عن الطّالب للهداية وسلوك الصّراط وحشة تفرّده عن أهل زمانه وبنـي جنسه . وليعلم أنّ رفيقه في هذا الصّراط : هم الّذين أنعم اللّه عليهم ، فلا يكترث بمخالفة النّاكبين عنه له ، فإنّهم هم الأقلّون قدراً ، وإن كانوا الأكثرين عدداً . كمـا قـال بعـض السّلف[1] : " عليك بطريق الحقّ ، ولا تستوحش لقلّة السّالكين ، وإيّاك وطريق البـاطل ، ولا تغتر بكثرة الهالكين " . وكلّما استوحشت في تفرّدك فانظر إلـى الرّفيـق السّـابق ، واحرص على اللّحاق بهم ، وغضّ الطّرف عمّن سواهم ، فإنّهم لن يغنوا عنك من اللّـه شيئاً ، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك ، فلا تلتفت إليهم ، فإنّك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك " .[2]

وليتذكّر السّائر على منهج السّلف أنّ تلك الوحشة من عوارض الطّريـق ، فـهي وحشة لا تدوم ، بل سرعان ما تنقطع وتزول حين يصل إلى برّ الأمان ويُـهنّأ بسـلامة الوصول ، ويسعد بكرامة الرّبّ الغفور ، وهو يتلوا قوله سبحانه :

﴿ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [يس:٢٦-٢٧][3] .

---

(١)ذكر ابن عساكر في تبيين كذب المفتري قولاً قريباً منه ونسبه إلى الفضيل بن عياض رحمه الله . ص : ٣٣١ .

(٢) مدارج السّالكين : ٢١/١ -٢٢ . وانظر : إغاثـة اللّـهفان : ٦٩/١ . شـرح العقيـدة الطّحاويـة : ص : ٣٠٧-٣٠٨ . طبعة المكتب الإسلامي .

(٣) وانظر : طريق الهجرتين : ص: ٢٨٦.

وليحمد اللّه الّذي وفّقه على الثّبات على الصّراط المستقيم ولم يكن من الأكثريّة الهالكة الزّائغة عن الحقّ ، وتلك نعمة عظيمة لا تقدّر بثمن ، أن يسلم المؤمن ويعافى وينجو من المهالك والبلايا والصّوارف الّتي صرفت الأكثريّة السّاحقة عن منهج اللّه وألقت بهم في درك الضّلال وبؤر الرّدى ، وأفلت ذاك المؤمن مع من أفلت ، وقليل ما هم ، فثبت على الحقّ ، وسار على الدّرب حتّى حطّ رحاله في جنّة الرّب .

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" إنّ القواطع كثيرة شأنها شديد لا يخلص من حبائلها إلاّ الواحد بعد الواحد ، ولو لا القواطع والآفات لكانت الطّريق معمورة بالسّالكين ، ولو شاء اللّه لأزالها وذهب بها ، ولكنّ اللّه يفعل ما يريد ، والوقت كما قيل : سيف فإن قطعته وإلاّ قطعك ، فإذا كان السّير ضعيفاً ، والهمّة ضعيفة ، والعلم بالطّريق ضعيفاً ، والقواطع الخارجة والدّاخلة كثيرة شديدة فإنّه جهد البلاء ، ودرك الشّقاء ، وشماتة الأعداء ، إلاّ أن يتداركه اللّه برحمة منه من حيث لا يحتسب فيأخذ بيده ويخلّصه من أيدي القواطع " .[١]

---

(١) المرجع السّابق : ص: ٢٨٨ .

الفصل الرّابع

نماذج للثّبات على المنهج الحق

وفيه مباحث :

المبحث الأوّل

محمّد بن عبد الله ﷺ

لقد هدى اللّه رسوله ﷺ وأرشده إلى منهج قويم ، وصراط مستقيم لا اعوجاج فيه ولا انثناء ، وأمره أن يبلّغ الخلق ذلك ، ويخبرهم بما هو فيه من نعمة عظيمة ندر مثالها ، وقلّ شبيهها ، فقدها كثير من النّاس ممّن ضلّوا طريق الحقّ ، وولجوا طرق الضّلال ، وانحرفت مناهجهم ، وتشعّبت طرقهم ، ووفق ﷺ بهداية اللّه له فكان على منهج الحقّ ، ومسلك الصّدق .

وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام:١٦١] (١).

وقد شهد له الرّب سبحانه بالثّبات على ذاك المنهج ، ومدحه بذلك ، وأمره أن يزداد تمسّكاً بكتاب اللّه العظيم وصفاً وفعلاً وقولاً ، حتّى يظلّ ثابتاً على المنهج ، باقياً عليه ، لا يزول ولا يحول . فقال جلّ في علاه : ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزّخرف:٤٣] .

---

(١) وانظر معناها في : جامع البيان : ١١١/٨ . الجامع لأحكام القرآن : ١٥٢/٧ . أنوار التّنزيل: ٤٧١/٢ . تفسير القرآن العظيم : ٣١٧/٢ . فتح القدير : ١٨٤/٢ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٤٥ .

قال ابن جرير (رحمه الله) :

" يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيّه محمّد ﷺ : فتمسّك يا محمّد بما يأمرك به هذا القرآن الّذي أوحاه إليك ربّك ، ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ومنهاج سديد ، وذلك هو دين اللّه الّذي أمر به ، وهو الإسلام " .[1]

بل أقسم سبحانه بقسم شريف على مُقْسَم عليه جليل ، فقد أقسم بالقرآن الحكيم الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه على أنّ محمّداً ﷺ رسوله حقّاً ، وأنّه ثابت على منهج حقّ مستقيم لم يفارقه طرفة عين ، أو ومضة بوق ، لأنّه تنزيل من الخالق الرّحيم سبحانه ، الّذي من رحمته شرع لعباده منهجاً واضحاً قويماً ، ليسيروا ويثبتوا عليه كما سار وثبت عليه إمامهم وقدوتهم ﷺ ، وعليه أن يدعوهم لذلك ، ويحذّرهم عاقبة الانحراف والزّيغ عن منهج اللّه تعالى فقال عزّ وجلّ : ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ ﴾ [يس:١-٦] [2] .

وقد ذكر سبحانه أنّ منهجه ﷺ منهج واضح مستقيم ، اختاره له ربّه لأنّه كلّه حقّ وهدى ، يبلّغ المقصود ويوصل إلى المطلوب ، وأنّ أعداء اللّه لن يكفّوا عن مجادلته ومنازعته ليحرفوه عن ذلك المنهج ، ويصرفوه عنه ، فعليه ألاّ يعبأ بمنازعتهم ، ولا يلتفت إلى جدالهم ، إذ هو نزاع وجدال بالباطل ، وليثبت على منهج اللّه كما أراد اللّه ، وقد فعل .

---

(١) جامع البيان : ٧٦/٢٥ . وانظر : تفسير القرآن العظيم : ١٩٥/٤ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٧١٢ .

(٢) وانظر معنى الآيات في : جامع البيان : ١٤٨/٢٢-١٥٠ . معالم التّتريل : ٥/٤. الجامع لأحكام القرآن : ٣/١٥-٦ . أنوار التّتريل: ٤٢٥/٤-٤٢٦ . تفسير القرآن العظيم : ٨٩٧/٣ . فتح القدير : ٣٦٠/٤ . تيسير الكريم الرّحمن : ص:٦٣٨-٦٣٩ .

قال تعالى : ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَـٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الحج:٦٧-٦٨] (١) .

قال سيّد قطب (رحمه الله) :

" جعل اللّه لكلّ أمّة منسكاً هم ناسكوه ، ومنهجاً هم سالكوه فلا داعي إذن لأن يشغل الرّسول ﷺ نفسه بمجادلة المشركين ، وهم يصدّون أنفسهم عن منسك الهدى ، ويمعنون في منسك الضّلال ، واللّه يأمره ألاّ يدع لهم فرصة لينازعوه أمره ، ويجادلوه في منهجه ، كما يأمره أن يمضي على منهجه لا يلتفت ولا ينشغل بجدل المجادلين ، فهو منهج مستقيم :﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فليطمئن إذن على استقامة منهجه ، واستقامته هو على الهدى في الطّريق ، فإن تعرض القوم لجداله فليختصر القول ، فلا ضرورة لإضاعة الوقت والجهد " .(٢)

بل أمره اللّه تعالى أن يواجه أولئك الكفّار المجادلين والمنازعين في الحقّ بخطاب شديد اللّهجة ، مُلِئ بالتّهديد ، وشُحن بالوعيد ، وصُبِغ بالتّحدّي : أن يثبتوا على ما هم عليه من منهج باطل وطريق ضال ، فهو ﷺ ثابت على ما هو عليه من منهج حقّ وطريق هدى ، لن ينصرف أو ينحرف عنه ، وذلك معنى قوله سبحانه : ﴿ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [الأنعام:١٣٥] (٣) .

---

(١) النّسُك : العبادة ، والنّاسك العابد ، واختصّ بأعمال الحجّ ، والمناسك مواقف النّسك وأعمالها .مفردها مَنْسَك . والنّسيكة : مختصّة بالذّبيحة . المفردات : ص : ٤٩٠ . بتصرّف .

(٢) في ظلال القرآن : ٢٤٤٢/٤ .

(٣) وانظر : الآيتين (١٢١ ، ١٢٢) من سورة هود . والآيتين (٣٩ ، ٤٠) من سورة الزّمر .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" هذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، أي استمرّوا على طريقتكم وناحيتكم إن كنتم تظنّون أنّكم على هدى ، فأنا مستمرّ على طريقتي ومنهجي " .[1]

وقال الشّوكاني (رحمه الله) :

" المكانة : الطّريقة ، أي اثبتوا على ما أنتم عليه ، فإنّي غير مبال بكم ولا مكترث بكفركم ، إنّي ثابت على ما أنا عليه ، ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ من هو على الحقّ ومن هو على الباطل ، وهذا وعيد شديد فلا يَرِد ما يقال : كيف يأمرهم بالثّبات على الكفر ؟ " .[2]

ويقول سيّد قطب (رحمه الله) :

" إنّه تهديد الواثق من الحقّ الّذي معه ، والحقّ الّذي وراءه ، ومن القوّة الّتي في الحقّ ، والقوّة الّتي وراء الحقّ ، التّهديد من الرّسول ﷺ بأنّه نافض يديه من أمرهم ، واثق ممّا هو عليه من الحقّ ، واثق من منهجه ، وطريقه ، واثق كذلك ممّا هم عليه من الضّلال ، وواثق من مصيرهم الّذي هم إليه منتهون " .[3]

وكيف لا يثبت ﷺ على هذا المنهج وهو الّذي يدعو النّاس للانتماء إليه ، ويهديهم للسّير عليه ، ويأمرهم بالثّبات عليه ، ويحذّرهم من الزّيغ عنه ؟.

قال سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٢/٢٨٧ .

(٢) فتح القدير : ٢/١٦٤ . وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ٧/٨٩ .

(٣) في ظلال القرآن : ٣/١٢١١ .

وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشورى:٥٢-٥٣].

قال السّعدي (رحمه الله) :

" ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ أي : تبيّنه لهم وتوضّحه ، وترغّبهم فيه ، وتنهاهم عن ضدّه ، وترهّبهم منه ، ثمّ فسّر الصّراط المستقيم فقال : ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ أي : الصّراط الّذي نصبه اللّه لعباده ، وأخبرهم أنّه موصل إليه ، وإلى دار كرامته " .[1]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" إنّ السنّة والشّريعة والمنهاج هو الصّراط المستقيم الّذي يوصل العباد إلى اللّه ، والرّسول هو الدّليل الهادي الخرّيت[2] في هذا الصّراط " . ثمّ ذكر الآية السّابقة وأورد معها غيرها .[3]

وقد ثبت ﷺ على منهج ربّه حتّى لقي مولاه وهو على ذلك ، لأنّ مولاه قد قال له : ﴿ ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر:٩٩] . وقد فعل بأبي هو وأمّي صلوات اللّه وسلامه عليه .

---

(١) تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٧٠٨ .

(٢)الـخِرِّيتُ : الـماهر الّذي يَهْتَدِي لأَخْرات الـمَفاوِز ، وهي طُرُقها الـخفـيّة ومَضايِقُها ؛ وقيل: هو الّـذي يَهْتَدِي فـي مثل ثَقْبِ الإبرة من الطّريق . لسان العرب : ٢/٣٠ . بتصرّف .

(٣) مجموع الفتاوى : ٤/٥٧ .

المبحث الثّاني

شعيب عليه السّلام

إنّ اللّه تعالى بعث شعيباً عليه السّلام إلى أهل مَدْيَـن [1] ، وكـانوا كفّـاراً يعبدون غير اللّه ، ويقطعون السّبيل ، ويخيفون المارّة ، وكانوا من أسوأ النّـاس معاملة ، يبخسون[2] المكيال والميزان ويطغون فيها ، ويـأكلون أمـوال النّـاس بالباطل ، مع أنّ اللّه تعالى وسّع عليهم في الرّزق ، وبسـط لـهم فـي العيـش ليستدرجهم مع كفرهم به .

وكان شعيب عليه السّلام فصيحاً بليغ العبارة ، حسن المراجعة لقومه حتّـى عرف بخطيب الأنبياء .[3]

فدعاهم عليه السّلام في أوّل ما دعاهم إليه أن يعبدوا اللّه وحده ولا يشركوا به شيئاً ، وذلك هو التّوحيد مفتتح دعوة الرّسل جميعاً ، والأصل الّذي يقوم عليـه منهجهم ، والأساس الّذي يبدأ به طريقهم ، ثمّ أمرهم بالعدل ونهاهم عـن الظّلـم المتمثّل في أكل أموال النّاس بغير وجه حقّ ، ونهاهم عن الفساد فـي الأرض ، ودعاهم إلى سلوك صراط اللّه المستقيم ، ومنهجه الحقّ القويـم ، وألاّ يزيغـوا عنه ، ويمنعوا النّاس من سلوكه ، ويظهرونه بمظهر المنحرف المعوج الّـذي لا يمكن السّير عليه . وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ

---

(١) قال ابن كثير (رحمه الله) : " كان أهلُ مَدْيَنَ قوماً عرباً يسكنون مدينتهم مَدْيَنَ الّتي هي قريةٌ من أرض مُعَان مـن أطراف الشّام ممّا يلي ناحية الحجاز قريباً من بُحيرة قوم لوط ، وكانوا بعدهم بمُدَّة قريبة . ومَدْيَنُ قبيلةٌ عُرِفَتْ هـم القبيلة ، وهم من بني مَدْيَنَ بن مديانَ بن إبراهيمَ الخليل ، وشعيب نبيّهم هو ابن ميكيل بن يَشْـجَنَ " . البدايـة والنّهاية : ١/١٨٤-١٨٥ . وقد ذكر (رحمه الله) اختلافاً في نسب شعيب عليه السّلام ، ولم يرجّح شيئاً .

(٢) البَخْسُ: النّقْصُ . بَخَسَه حقَّه يَبْخَسُه بَخْساً إذا نقصه . ولا تَبْخَسُوا النّاس: لا تظلـموهم . و البَخْسُ من الظّلـم أنْ تَبْخَسَ أخاك حقَّه فتنقصه كما يَبْخَسُ الكَيّالُ مكياله فـينقصه . لسان العرب : ٢٤/٦ . بتصرف. وانظـر : مختار الصّحاح : ص : ٤٢ . القاموس المحيط : ص :٦٨٤-٦٨٥.

(٣) وانظر : تاريخ الطّبري : ١/١٩٧-١٩٨ . البداية والنّهاية : ١/١٨٥ .

وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

[الأعراف:٨٦].

قال الشيخ السّعدي (رحمه الله) في بيان قوله تعالى :﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ ﴾ :

" أي تبغون سبيل اللّه تكون معوجّة ، وتميلونها اتّباعاً لأهوائكم ، وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم الاحترام والتّعظيم للسّبيل الّتي نصبها اللّه لعباده ليسلكوها إلى مرضاته ، ودار كرامته ، ورحمهم بها أعظم رحمة ، وتصدّون لنصرتها ، والدّعوة إليها ، والذّب عنها ، لا أن تكونوا أنتم قطّاع طريقها ، الصّادين النّاس عنها ، فإنّ هذا كفر لنعمة اللّه ، ومحادّاة لله ، وجعل أقوم الطّرق وأعدلها مائلة ، وتشنّعون على من سلكها " .(١)

ولكنّهم لم يستجيبوا لأمره ، ولم لينصاعوا لقوله : بل واجهوه بالتّهكّم والسّخرية والاستهزاء . ﴿ ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾

[هود:٨٧]. وهذا قيل على سبيل الاستبعاد لإجابتهم له ، ومعنى ذلك أنّه لا موجب لانصياعنا لأمرك ، واجتنابنا لنهيك ، والتزامنا بسلوك منهجك إلاّ أنّك تصلّي وتعبد اللّه ، وهل هذا يوجب لنا أن نترك ما كان عليه آباؤنا أصحاب العقول وأولي الألباب ، أم نمتنع أن نتصرّف في أموالنا كما يحلو لنا ونشاء ، وما هذا منك إلاّ حلم ورشد ؟ ، يريدون السّفة والغواية ، على سبيل التّهكّم والاستهزاء .

فأجابهم عليه السّلام مرغّباً لهم فيما يدعوهم إليه ، محذّراً لهم عن مخالفته وشقاقه .

---

(١) تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٥٩ .

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ ﴾ [هود:٨٨-٩٠] .

أي يا قوم أخبروني إن كنت على بصيرة من أمري ، وحجّة قائمة ، ومنهج بيّن ، ويقين وطمأنينة في صحّة ما جئت به ، وأعطاني اللّه النّبوّة والعلم والرّزق الحلال ؟ . ومع ذلك فلست أنهاكم عن أمر وأفعله ، وآمركم بأمر واجتنبه ، إنّما أريد إصلاح أمركم ، واستقامتكم بحسب طاقتي واجتهادي ، وما يحصل لي من التّوفيق والهداية في ذلك فهو من اللّه لا من أحد سواه ، وهو الّذي عليه أتوكّل ، وإليه مرجعي ومصيري في جميع أموري .

ثمّ انتقل معهم إلى مقام التّرهيب فحذّرهم من مخالفته ومشاققته وعداوته فإنّها تجلب لهم من العذاب والهلاك ما أصاب الأمم السّابقة . فأجابوه : ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ ﴾ [هود:٩١]. أي لا نفهم ما دعوتنا إليه ، ولا نعقله لأنّنا لا نحبّه ولا نريده ، وليس لنا رغبة فيه ، بل نحن معرضون عنه ، وأنت ضعيف مضطّهد مهجور لا معزّة لك ولا قوّة ، ولست من الكبراء ولا الرّؤساء ، ولو لا أنّ قبيلتك وعشيرتك على ما نحن عليه لرجمناك بالحجارة . وقيل : لسببناك. فقال لهم

مترفّقاً بـهم : ﴿ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ ﴾ [هود:٩٢] [١] .

يقول : أتتركوني لأجل قومي ولا تتركوني إعظاماً لجناب الرّبّ تبارك وتعالى أن تنالوا نبيّه بمساءة ، وقد اتّخذتم أمره خلف ظهوركم لا تبالون به ، ولا تطيعونه ولا تعظمونه ، وهو يعلم جميع أعمالكم ، وسيجزيكم بها .[٢]

ثمّ أردف قائلاً : ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ ﴾ [هود:٩٣].

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" وهذا أمر تهديد شديد ووعيد أكيد بأن يستمرّوا على طريقتهم ومنهجهم وشاكلتهم ، فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدّار ، ومن يحلّ عليه الهلاك والبوار [٣]".[٤]

أي سيروا على منهجكم الضّال المنحرف واثبتوا عليه ، فإنّي سائر على منهجي الحقّ المستقيم وثابت عليه لا أتنازل عنه ، ولا انزاح منه ، وهذا على سبيل التّهديد والوعيد ، وأكّد ذلك بقوله : سوف تعلمون علم اليقين من يخزى في هذه الدّنيا ، ويحلّ عليه عظيم العذاب في الآخرة ، وهو كاذب فيما يدّعي ويزعم ،

---

(١) وانظر في معنى الآيات من سورة هود : معالم التّنزيل : ٣٩٨/٢-٣٩٩ . الجامع لأحكام القرآن : ٨٦/٩-٩٢ . أنوار التّنزيل: ٢٥٣/٣-٢٥٧ . تفسير القرآن العظيم : ٧٠٦/٢-٧٠٨ . فتح القدير : ٥١٨/٢-٥٢١ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٣٤٣-٣٤٤ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٧٠٨/٢ بتصرّف يسير .

(٣) البَوارُ: الهلاك ، بارَ بَوْراً وبَواراً وأبارهم : أهلكهم . ورجل بُورٌ : هالك . انظر : لسان العرب : ٨٦/٤ . وانظر : مختار الصّحاح : ص : ٦٨ . القاموس المحيط : ص : ٤٥٢.

(٤) البداية والنّهاية : ١٨٨/١ .

وارتقبوا إنّي معكم رقيب ، وهذا كقوله في الأعـــراف : ﴿ وَإِن كَانَ طَآبِفَـةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآبِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأعراف:٨٧].

قال الشّوكاني (رحمه الله) :

" هذا من باب التّهديد والوعيد الشّديد لهم ، وليس هو من باب الأمر بـــالصّبر على الكفر ، وحكم اللّه بين الفريقين هو نصر المحقّين على المبطلين " .[١]

ولمّا علم قومه ثباته ومن معه على الحقّ ، ولزومهم صراط اللّه المســتقيم ، انبرى أشرافهم وطغاتهم المستكبرون الّذين لم يكتفوا بترك الإيمان ، والتّمرّد عـن إجابة رسولهم إلى ما دعاهم إليه ، بل تجاوزوا كلّ ذلك بغياً وبطراً وأشراً إلـــى توعّده ومن آمن معه بالإخراج من قريتهم وموطنهم ، أو ينخرطون فـــي الكفــر والضّلال الّذي هم عليه ، ويفارقون المنهج السّوي الّذي سلكوه ، والحقّ الجلـــي الّـــذي الـــتزموه . قـــال تعـــالى : ﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ ﴾ [الأعراف:٨٨]

فأجابهم عليه السّلام بثبات يفوق كلّ ما يتصوّرون ، وعزيمـــة تبـــدّد كـــلّ ما يشتهون ، وصلابة تيئسهم ممّا يريدون فقـــال : ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأعراف:٨٨-٨٩]

---

(١) فتح القدير : ٢/٢٢٤ .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" طلبوا بزعمهم أن يردّوا من آمن منهم إلى ملّتهم ، فانتصب شعيب للمحاجّة عن قومه فقال : ﴿ أَوَلَوۡ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴾ أي هؤلاء لا يعودون إليكم اختياراً ، وإنّما يعودون إليه إن عادوا اضطّراراً مكرهين ، وذلك لأنّ الإيمان إذ خالطته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد ، ولا يرتدّ عنه أحد ، ولا محيد لأحد منه " .[1]

أي لا يمكن لنا ولا يتأتّى أبداً أن نترك ما نحن عليه من دين حقّ ، ومنهج صدق ، ومسلك رشد ، وسبيل مأمون ، ونفارق الثّبات الّذي نحن فيه ، وننغمس في ملّتكم الباطلة ، ودينكم الزّائغ ، ونهجكم الضّال ، وسبيلكم المعوج ، بعدما نجّانا اللّه منه ، وأنقذنا من شرّه ، فإن فعلنا ذلك فنحن كاذبون مفترون على اللّه ، وهل مثلنا يعود إلى هذا الباطل ؟ إنّه محال ، إلاّ أن يشاء اللّه ، وحينها لا يمكننا أن نخرج عن مشيئته التّابعة لعلمه سبحانه وعظيم حكمته ، وهو الّذي وسع علمه كلّ شيء ، وهو العالم بما يصلح عباده ، وهو مستندنا وعليه اتّكالنا .

وقوله : ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا ﴾

قال الشّوكاني (رحمه الله) :

" أي عليه اعتمدنا في أن يثبّتنا على الإيمان ، ويحول بيننا وبين الكفر وأهله ، ويتمّ علينا نعمته ، ويعصمنا من نقمته " .[2]

---

(١) البداية والنّهاية : ١/١٨٩ .

(٢) فتح القدير : ٢/٢٢٥ .

وقال السّعدي (رحمه الله) :

" أي اعتمدنا أنّه سيثبّتنا على الصّراط المستقيم ، وأن يعصمنا من جميع طرق الجحيم ، فإنّ من توكّل على اللّه كفاه ، ويسّر له أمر دينه ودنياه " .(١)

ولمّا تمادى قومه في الكفر والضّلال والغي ، ويئس من صلاحهم استفتح عليهم ، واستنصر ربّه في تعجيل ما يستحقّونه من العذاب ، وفي ذلك نصرة للمظلوم ونجاة له ، وأخذ للظّالم وهلاك له ، وقد أجاب اللّه دعاءه فعجّل بهلاكهم وزوالهم .

رجفت بهم أرضهم وزلزلت زلزالاً شديداً أزهقت أرواحهم من أجسادها ، وصيّرت حيوانات أرضهم كجمادها ، وأصبحت جثثهم جاثية لا أرواح فيها ولا حركات بها ولا حواس لها ، وقد جمع اللّه عليهم أنواعاً من العقوبات ، وصنوفاً من المثلات ، وأشكالاً من البليّات ، وذلك لما اتّصفوا به من قبيح الصّفات ، سلّط اللّه عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات ، وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات ، وظلّة أرسل اللّه عليهم منها شرر النّار من سائر أرجائها والجهات .(٢)

---

(١) تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٥٩ . وانظر في معنى الآيات من سورة الأعراف : معالم التّنزيل : ١/١٨١-١٨٢. الجامع لأحكام القرآن : ٧/٢٥٠-٢٥١ أنوار التّنزيل: ٣/٤٠-٤١ . تفسير القرآن العظيم : ٢/٣٧٠-٣٧١ . فتح القدير : ٢/٢٢٤-٢٢٥ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٥٩ .

(٢) البداية والنّهاية : ١/١٨٩ . وقد ذكر اللّه تعالى أنواع العقاب الّذي أصابهم به فقال في الأعراف : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف:٩١] وقال في هود : ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود:٩٤] . وقال في الشّعراء : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشّعراء:١٨٩] .

قال ابن كثير (رحمه الله) : " ذكر في كلّ سياق ما يناسبه ففي الأعراف لّما قالوا : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ ﴾ [الأعراف:٨٨] ناسب أن يذكر هناك الرّجفة ، فرجفت بهم الأرض الّتي ظلموا بها وأرادوا إخراج نبيّهم منها ، وههنا لّما أساءوا الأدب في مقالتهم على نبيّهم ذكر الصّيحة

﴿ المبحث الثّالث ﴾

الصّحابة رضي الله عنهم

سبق أن بينت أنّ منهج الصّحابة رضي الله عنهم هو المنهج الحقّ الّذي ارتضاه اللّه لعباده ، وأشار إلى لزوم اتّباعه في كتابه ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النّساء:١١٥][1] .

وكيف لا يكون منهجهم هو الحقّ وقد اختارهم اللّه واصطفاهم لصحبة نبيّه عليه السّلام وإقامة دينه ؟ ، وانتقاهم من هذه الأمّة وجعلهم أفضلها وخيرها لصدق إيمانهم ، وقوّة يقينهم ، وسلامة قلوبهم ، وسبقهم في سبل الخير ، وعلوّ هممهم ، ونقاء بواطنهم .

قال ابن مسعود رضي الله عنه :

" إنّ اللّه نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمّد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته ، ثمّ نظر في قلوب العباد بعد قلب محمّد فوجد

الّتي استلبتهم وأخمدتهم ، وفي الشّعراء لمّا قالوا : ﴿ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الشّعراء:١٨٧] قال : ﴿ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [الشّعراء:١٨٩] وهذا من الأسرار الدّقيقة ولله الحمد والمنّة كثيراً دائماً " .تفسير القرآن العظيم : ٧٠٩/٢ . وانظر : ٣٧١/٢-٣٧٢ . البداية والنّهاية : ١٨٩/١ .

(١) وقد سبق الحديث عن الآية : انظر : ص : ٨٠٩ فما بعدها من هذا البحث . وانظر : مجموع الفتاوى : ١/٤-٢ .

قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فجعلهم وزراء نبيّه يقاتلون على دينـــه ، فمـــا رأى المسلمون حسناً فهو عند اللّه حسن ، وما رأوا سيّئاً فهو عند اللّه سيّئ " .[1]

ولذا مدحهم سبحانه وزكّاهم في أكثر من آية [2] ، والرّســـول ﷺ ربّـــاهم ، ومات وهو عنهم راض ، ولم تظهر فيهم البدع ولا الأهواء ولا المحدثات ، بـــل الحقّ يدور معهم حيث داروا ، والضّلال ينفر عنهم حيث ساروا .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

"الواجب على كلّ مسلم يشهد أنّ لا إله إلاّ اللّه وأنّ محمّداً رســـول اللّـــه أن يكون أصل قصده توحيد اللّه بعبادته وحده لا شريك له ، وطاعة رسوله ، يـــدور على ذلك ، ويتبعه أين وجده ، ويعلم أنّ أفضل الخلق بعد الأنبياء هم الصّحابـــة ، فلا ينتصر لشخص انتصاراً مطلقاً عامّاً إلاّ لرسول اللّه ﷺ ، ولا لطائفة انتصـــاراً مطلقاً عامّة إلاّ للصّحابة ﷺ أجمعين ، فإنّ الهدى يدور مع الرّسول حيـــث دار ، ويدور مع أصحابه دون أصحاب غيره حيث داروا ، فإذا أجمعوا لم يجمعوا على خطأ قطّ ، بخلاف أصحاب عالم من العلماء فإنّهم قد يجمعون على خطأ " .[3]

وقد كانت عقولهم راجحة ، وأذهانهم متوقّدة ، وأفهامهم مدركة ، وهم أهـــل الفطرة والإيمان ، وأرباب الفصاحة والبيان ، نزل القرآن بلســـانهم ، والرّســـول بينهم يوضّح لهم ما أشكل عليهم ، ويبيّن لهم ما خفي عنـــهم ، ويوجهـــهم إلـــى الطّريق السّليم ، والمسلك القويم ، ولذا حازوا قصب السّبق في كـــلّ الفضـــائل ،

---

(١) مسند أحمد: بلفظه في : ٣٧٩/١ . قال أحمد شاكر (رحمه الله): " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمـــد شاكر: ٢١١/٥ . برقم: (٣٦٠٠) .

معجم الطّبراني الكبير: نحوه في: ١١٢/٩ .

مسند أبي داود الطّيالسي: نحوه في: ص: ٣٣ . برقم: (٢٤٦) .

فضائل الصّحابة للإمام أحمد بن حنبل . تحقيق : د. وصي اللّه محمّد عبّاس . طبعة : مؤسّسة الرّسالة . بـــيروت . الطّبعة الأولى : ١٤٠٣هـــ ـــ ١٩٨٣م : نحوه في: ٣٦٧/١ .

(٢) انظر: التّوبة : الآية: (١٠٠) . الفتح : الآية : (١٨ ، ٢٩) . الحشر : (٨-٩) .

(٣) منهاج السّنّة : ٢٦١/٥-٢٦٢ وانظر : دراسات في الأهواء والفرق : ص: ١٠٧ .

ونالوا إمامة الدّين في هذه الأمّة بعد نبيّها ، وتبوّؤا في ذلك أعلى المنازل وأرفع الدّرجات .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" إنّهم أفضل من الخلف في كلّ فضيلة ، من علم ، وعمل ، وإيمان ، وعقل ، ودين ، وبيان ، وعبادة ، وإنّهم أولى بالبيان لكلّ مشكل ، هذا لا يدفعه إلاّ من كابر المعلوم بالضّرورة من دين الإسلام ، وأضلّه اللّه على علم " .(١)

وقد ساروا على نهج نبيّهم حذو القُذَّة بالقُذَّة (٢) لم ينحرفوا عنه ، ولم ينزلقوا منه ، بل ثبتوا عليه ثبات الجبال الرّواسي ، فما زلزلتهم عنه الفتن ، وما حرفتهم عنه البدع ، وما أثّرت فيهم الأهواء ، وما انتابتهم الشّكوك والظّنون ، بل ظلّوا عنه مدافعين ، ولحوزته حامين ، وبنصرته قائمين ، وقد شهد لهم بذلك ربّ العالمين في قرآنه المبين حيث قال سبحانه : ﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ (٣)وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلا ﴿٢٣﴾ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأحزاب:٢٣-٢٤] .

---

(١) مجموع الفتاوى : ٤/١٥٨ .

(٢)القُذَّة: ريشُ السّهم ، وجمعها قُذَذٌ و قِذَاذ . ومعنى : حَذْوَ القُذّة بالقُذّة : يعني كما تقدّر كلّ واحدة منهنّ على قَدْرِ صاحبتها وتقطع . يضرب مثلاً للشّيئين يستويان ولا يتفاوتان . لسان العرب : ٣/٥٠٣. بتصرّف .

(٣) قال الرّاغب (رحمه الله) : " النّحب : النّذر المحكوم بوجوبه ، يقال : قضى فلان نحبه : أي وفّى بنذره ، قال تعالى : ﴿ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ ﴾ [الأحزاب:٢٣]. ويعبّر بذلك عمّن مات كقولهم : قضى أجله ، واستوفى أكله ، وقضى من الدّنيا حاجته . والنّحيب : البكاء الّذي معه صوت . والنّحاب : السّعال " . المفردات : ص : ٤٨٤ .

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" لمّا ذكر عزّ وجلّ عن المنافقين أنّهم نقضوا العهد الّذي كانوا عاهدوا اللّه عليه لا يولّون الأدبار ، وصف المؤمنين بأنّهم استمرّوا على العهد والميثاق و ﴿ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ ﴾ قال : بعضهم : أجله ، وقال البخاري : عهده وهو يرجع إلى الأوّل : ... ﴿ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴾ أي وما غيّروا عهدهم وبدّلوا الوفاء بالغدر ، بل استمرّوا على ما عاهدوا الله عليه ، وما نقضوه كفعل المنافقين ... ﴿ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ ﴾ أي بصبرهم على ما عاهدوا اللّه عليه ، وقيامهم به ، ومحافظتهم عليه " [(١)] .

وقال الشّوكاني (رحمه الله) في قوله : ﴿ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴾ :

" معطوفة على ﴿ صَدَقُواْ ﴾: أي ما غيّروا عهدهم الّذي عاهدوا اللّه عليه كما غيّر المنافقون عهدهم ، بل ثبتوا عليه ثبوتاً مستمرّاً ، أمّا الّذين قضوا نحبهم فظاهر ، وأمّا الّذين ينتظرون قضاء نحبهم فقد استمرّوا على ذلك حتّى فارقوا الدّنيا ولم يغيّروا ولا بدّلوا " .[(٢)]

وقال ابن جرير (رحمه الله) في قوله : ﴿ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ ﴾ :

" ليثبّت اللّه أهل الصّدق بصدقهم اللّه بما عاهدوه عليه ، ووفاءهم له به ".[(٣)]

فقد شهد اللّه لهم سبحانه بالثّبات ومدحهم عليه ، ولو لم يكونوا كذلك ما أمر اللّه بسلوك سبيلهم ، والسّير على منوالهم ، وتتبّع خطاهم ، واتّباع نهجهم في آية النّساء الآنفة الذّكر .[(٤)]

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٣/٧٥٧-٧٥٩ .

(٢) فتح القدير : ٤ / ٢٧٢ .

(٣) جامع البيان : ٢١/١٤٨ .

(٤) هي الآية : ١١٥ .

ولما وجّه رسول اللّه ﷺ الأمّة عند افتراق الفرق بلزوم ما كان عليه هو وأصحابه [1] .

بل جاءت أقوال سلف هذه الأمّة الصّالح تدعوا إلى السّير على نهجهم وسلوك طريقهم من ذلك :

قال حذيفة بن اليمان ﷺ :

" كلّ عبادة لم يتعبّدها أصحاب رسول اللّه فلا تعبّدوها ، فإنّ الأوّل لم يدع للآخر مقالاً ، فاتّقوا اللّه يا معشر القرّاء، وخذوا طريق من كان قبلكم " .[2]

وقال إبراهيم النّخعي (رحمه الله) :

" لو أنّ أصحاب محمّد مسحوا على ظفر لما غسلته ، التماس الفضل في اتّباعهم " .[3]

وقال الأَوْزَاعِيّ (رحمه الله) :

" اصبر نفسك على السّنّة ، وقف حيث وقف القوم ، وقل بما قالوا ، وكفّ عمّا كفّوا ، واسلك سبيل سلفك الصّالح ، فإنّه يسعك ما وسعهم " . [4]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" وإنّما دين اللّه ما بعث به رسله ، وأنزل به كتبه ، وهو الصّراط المستقيم ، وهو طريقة أصحاب رسول اللّه ﷺ ، خير القرون وأفضل الأمّة ، وأكرم الخلق على اللّه تعالى بعد النّبيّين " .[5]

---

(١) سبق الحديث . انظر : ص : ٩٥ . من هذا البحث .

(٢) الباعث على إنكار البدع والحوادث . ص : ١٥-١٦ . وانظر : شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة : ٩٠/١ . الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية : ٣٣٦/١ . الاعتصام : ٣٣٧/٢ .

(٣) المرجع السّابق : ٣٦١/١ .

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة : ١٥٤/١ .

(٥) مجموع الفتاوى : ١٢٦/٣ .

وقال ابن أبي العز (رحمه الله) :

" ومضى على ما كان عليه الرّسول ﷺ خير القرون ، وهم الصّحابة والتّابعون لهم بإحسان يوصي به الأوّل الآخر ، ويقتدي فيه اللاّحق بالسّابق ، وهم في ذلك كلّه بنبيّهم محمّد ﷺ مقتدون ، على منهاجه سالكون ، كما قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف:١٠٨] [1] .

وأقوالهم في ذلك كثيرة جدّاً ، وكلّها تدعوا إلى لزوم منهج الصّحابة ﷺ لأنّه منهج الله ورسوله الّذي ارتضاه الله لهذه الأمّة ، وقد تمسّك به الصّحابة ﷺ وثبتوا عليه فنسب إليهم وعرف بهم .

---

(١) شرح العقيدة الطّحاوية :ص : ٦٨ . طبعة المكتب الإسلامي .

المبحث الرّابع

شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله)

عرّفه الإمام الذّهبي (رحمه الله) فقال عنه :

" ابن تيمية الشّيخ الإمام العلامة الحافظ النّاقد الفقيه المجتهد المفسّر البارع ، شيخ الإسلام ، علم الزّهاد ، نادرة العصر ، تقي الدّين أبو العبّاس أحمد بن المفتي شهاب الدّين عبد الحليم بن الإمام المجتهد شيخ الإسلام مجد الدّين عبد السّلام بن عبد اللّه بن أبي القاسم الحَرّاني ، أحد الأعلام ... عني بالحديث ، ونسخ الأجزاء، ودار على الشّيوخ ، وخرّج وانتقى ، وبرع في الرّجال ، وعلل الحديث وفقهه ، وفي علوم الإسلام ، وعلم الكلام وغير ذلك . وكان من بحور العلم ، ومن الأذكياء المعدودين ، والزّهاد الأفراد ، والشّجعان الكبار ، والكرماء الأجواد ، أثنى عليه الموافق والمخالف ، وسارت بتصانيفه الرّكبان " (١) .

وقد بلغ من العلم منزلة عظيمة شهد له بها معاصروه حتّى قال عنه إمام الجرح والتّعديل *أبو الحجّاج المزّي (رحمه الله)* :

" ما رأيت مثله ، ولا رأى هو مثل نفسه ، وما رأيت أحداً أعلم بكتاب اللّه وسنّة رسوله ولا اتبع لهما منه " .(٢)

ويؤيّد ذلك : ما نشر الله له من علومه في الآفاق ، وبهر بفنونه البصائر والأحداق ، وملأ بمحاسن مؤلّفاته الصّحف والأوراق.(٣)

---

(١) تذكرة الحفّاظ : ١٤٩٦/٤ .

(٢) شذرات الذّهب : ٨٤/٣ . وانظر تفاصيل ما تلقّى وحفظ من العلوم في كتاب : الأعلام العليّة في مناقب ابن تيمية . لأبي حفص عمر بن علي بن موسى البزّار . تحقيق : زهير الشّاويش . طبعة المكتب الإسلامي . بيروت . الطّبعة الثّالثة : ١٤٠٠هـ ص: ١٧-١٨.

(٣) المرجع السّابق : ص: ٧٧ .

بل اتّفق أهل العقول السّليمة أنّه من المجدّدين الّذين يجدّدون لهذه الأمّة أمر دينها[1] ، فقد أحيا اللّه به ما درس من شرائع الدّين ، وأقام به الحجّة ، وأوضح به المحجّة ، ونصر به الحقّ ، وأذلّ به الباطل .[2]

وكان (رحمه الله) معظّماً لرسول اللّه ﷺ جدّاً ، حريصاً كلّ الحرص على اتّباعه ، ونصرة ما جاء به ، والذّبّ عنه ، بل متى ما بلغه حديث عنه ﷺ عمل وأفتى به ولم يلتفت إلى قول غيره من المخلوقين كائناً من كان ، وهو القائل :

" كلّ قائل إنّما يحتجّ لقوله لا به إلاّ اللّه ورسوله " .[3]

قال أبو حفص البزّار (رحمه الله) :

" وإذا نظر المنصف إليه بعين العدل يراه واقفاً مع الكتاب والسّنّة لا يميله عنهما قول أحد كائناً من كان ، ولا يراقب في الأخذ بعلومهما أحداً ، ولا يخاف في ذلك أميراً ولا سلطاناً ولا سوطاً ولا سيفاً ، ولا يرجع عنها لقول أحد ، وهو متمسّك بالعروة الوثقى ، واليد الطّولى ، وعامل بقوله تعالى : ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء:٥٩] . وبقوله تعالى : ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ﴾ [الشورى:١٠] . وما سمعنا أنّه اشتهر عن أحد منذ دهر طويل ما اشتهر عنه من كثرة متابعته للكتاب والسّنّة ، والإمعان في تتبّع معانيهما والعمل

---

(١)عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول اللّه ﷺ قال : " إنّ اللّه يبعث لهذه الأمّة على رأس كلّ مائة سنة من يجدّد لها دينها " . سنن أبي داود : كتاب الملاحم : (٣٦) . باب ما يذكر في قرن المائة : (١) . برقم: (٤٢٩١) . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح " . ص : ٤٦٩ .

(٢) وانظر : الأعلام العليّة : ص: ١٨-١٩ .

(٣) المرجع نفسه : ص: ٢٩ . بتصرف .

بمقتضاهما ، ولهذا لا يرى في مسألة أقوالاً للعلماء إلاّ وقد أفتى بأبلغها موافقة للكتاب والسّنّة ، وتحرّى الأخذ بأقومها من جهة المنقول والمعقول".[1]

وقد كان (رحمه الله) له باع طويل في معرفة مذاهب الصّحابة والتّابعين ، وأئمّة المذاهب ، وهو يحتجّ لما صح منها بالكتاب والسّنّة ، ولا يفتي بمذهب معيّن منها ، بل يفتي بما أيّده الدّليل .[2]

وقد نصر مذهب السّلف وأيّده بالحجج الباهرة والبراهين النّيّرة بما لم يسبق إليه ، ودافع عنه دفاعاً عظيماً ، وذكر أنّه الحقّ الّذي لا يعارض ولا يقاوم أبداً . قال :

" وإذا تأمّل اللّبيب الفاضل هذه الأمور تبيّن له أنّ مذهب السّلف والأئمّة في غاية الاستقامة والسّداد والصّحة والاطّراد ، وأنّه مقتضى المعقول الصّريح والمنقول الصّحيح ، وأنّ من خالفه كان مع تناقض قوله المختلف الّذي يؤفك عنه من أفك خارجاً عن موجب العقل والسّمع ، مخالفاً للفطرة والسّمع ، واللّه يتمّ نعمته علينا وعلى سائر إخواننا المسلمين المؤمنين ، ويجمع لنا ولهم خير الدّنيا والآخرة " .[3]

وقال (رحمه الله) بعد أن ذكر أنّ الإيمان يزيد وينقص كما ثبت عن سلف هذه الأمّة . قال :

" وهذه الأمور كلّها إذا تدبّرها المؤمن بعقله تبيّن له أنّ مذهب السّلف هو المذهب الحقّ الّذي لا عدول عنه ، وأنّ من خالفهم لزمه فساد معلوم بصريح

---

(١) المرجع نفسه : ص: ٧٨-٧٩ .

(٢) وانظر : الرّد الوافر لمحمّد بن أبي بكر بن ناصر الدّين الدّمشقي . تحقيق : زهير الشّاويش . طبعة المكتب الإسلامي . بيروت . الطّبعة الأولى : ١٣٩٣هـ : ص: ٧٠ .

(٣) مجموع الفتاوى : ٥/٢١٢-٢١٣ .

المعقول وصحيح المنقول كسائر ما يلزم الأقوال المخالفة لأقوال السّلف والأئمّة ، واللّه أعلم " .[1]

وعندما سئل (رحمه الله) عن مذهب السّلف مقارنة بغيره من المذاهب ، وهل هو منتحل له ؟ فأجاب بما دلّل به على صحّة مذهب السّلف ، وأنّه الحقّ الّذي يجب على أهل الإسلام أن يلتزموه ، ولا ينحرفوا عنه ، وعلى بطلان قول من خالفهم ، وحشد على ذلك الأدلّة من الكتاب والسّنّة ، وأقوال أهل العلم ، وسأل ربّه أن يجعله ممّن يسلكونه .[2] وأمر بإظهاره وبيانه للنّاس فقال :

" لا عيب على من أظهر مذهب السّلف وانتسب إليه ، واعتزى إليه ، بل يجب قبول ذلك منه بالاتّفاق ، فإنّ مذهب السّلف لا يكون إلاّ حقّاً ، فإن كان موافقاً له باطناً وظاهراً فهو بمنزلة المؤمن الّذي هو على الحقّ باطناً وظاهراً ، وإن كان موافقاً له في الظّاهر فقط دون الباطن فهو بمنزلة المنافق ، فتقبل منه علانيته وتوكل سريرته إلى اللّه ، فإنّا لم نؤمر أن ننقّب عن قلوب النّاس ، ولا نشقّ بطونهم " .[3]

وقد نصّ (رحمه الله) في أكثر من موطن أنّه موافق لمذهب السّلف في جميع ما ذهب إليه ، وأنّه يمكنه أن يناظر من شاء على ذلك .[4] ولذا كان يسوق الأدلّة والحجج الّتي يعضّده بها ، وينصره على سواه من المذاهب .[5]

---

(١) المرجع السّابق : ٥٨٥/٧ . وأقواله في تأييد ذلك كثيرة جداً ، انظر على سبيل المثال لا الحصر . المرجع نفسه : ٢٦/٤ ، ١٧٢/٣٣-١٧٣ . درء تعارض العقل والنّقل : ٢٠٣/١ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى : ١/٤-٣ .

(٣) المرجع السّابق : ١٤٩/٤ .

(٤) انظر : المرجع السّابق : ١٦٧/٣ ، ٢٠٧ ، ٣٨٩/١٦ ، ٤٥٥ . بيان تلبيس الجهميّة : ٥٣/١ ، ٣٦/٢-٣٧ .

(٥) انظر : مجموع الفتاوى : ٢١٦/١ ، ٢٤/٢ ، ٩٧ ، ١١٥/٦ ، ٢٩٠-٣٣٥ ، ٣٥٥ ، ١٦٠/١٣ ، ٣٠٩/١٤ . درء التّعاريض : ١٠٧/٦ ، ٢٤٠/٩ الرّد على المنطقيين ص : ٢٢٩ .

بل بيّن أنّه كان يبالغ في البحث والتّحــرّي عنــه .[1] مــع مــا أعطــي (رحمه الله) من معرفة عظيمة به ، ونفي ما نسب إليه عن طريق الخطأ .[2]

وقد واجه (رحمه الله) المبتدعة وأهل الأهواء على اختلاف نحلهم ، وتنــوّع بدعهم مواجهات سافرة ، وحمل عليهم حملات صادقة ، كشف بــها عوارهــم ، وقشع ضلالهم بلسانه وبنانه ، لا تلين له معــهم عريكــة ، ولا يحجبــه دونــهم حاجب ، كأسد كاسر وبطل جاسر ، عرف بدعهم ففندها ، وضلالهم فأزهقـــه ، وهو القائل : " أنا أعلم كلّ بدعة حدثت في الإسلام ، وأوّل من ابتدعها ، وما كان سبب ابتداعها " .[3] وقد صدق (رحمه الله) .

وهذه كتبه مليئة بالرّد على طوائف المبتدعة ، ودحض شبههم ، حتّى قـــال عنه *ابن قدامة المقدسي (رحمه الله) :*

"وكان (رحمه الله) سيفاً مسلولاً على المخالفين ، وشجى في حلـــوق أهــل الأهواء المبتدعين ، وإماماً قائماً ببيان الحقّ ونصرة الدّين ، وكان بحراً لا تكـدّره الدّلاء ، وحَبْراً يقتدي به الأخيار الألباء ، طنّت بذكره الأمصار ، وضنّت بمثلــه الأعصار " .[4]

وقال أبو حفص البزّار (رحمه الله) :

" وأمّا ما خصّه اللّه تعالى به من معارضة أهل البدع في بدعتهم ، وأهـــل الأهواء في أهوائهم ، وما ألّفه في ذلك من دحــض أقوالــهم وتزييــف أمثالــهم وأشكالهم ، وإظهار عوارهم وانتحالهم ، وتبديد شملهم وقطع أوصالهم ، وأجوبتـه

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى : ١٧٧/٣٣ .

(٢) انظر : المرجع السّابق : ٨٨/١٧ .

(٣) المرجع نفسه : ١٨٤/٣ .

(٤) العقود الدّريّة من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية . لأبي عبد اللّه محمّد بن أحمد بن عبد الهادي بـــن قدامــة المقدسي . تحقيق : محمّد حامد الفقي . طبعة : دار الكتاب العربي . بيروت . ص : ٢٣ . وانظر قولــه الآخــر عنه : ص: ١١١ .

عن شبههم الشّيطانيّة ، ومعارضتهم النّفسانيّة للشّريعة الحنيفيّة المحمّديّة ، بما منحه اللّه تعالى به من البصائر الرّحمانيّة ، والدّلائل النّقليّة ، والتّوضيحات العقليّة ، حتّى انكشف قناع الحقّ ، وبان بما جمعه في ذلك وألّفه الكذب من الصّدق ، حتّى لو أنّ أصحابها أحياء ، ووفّقوا لغير الشّقاء لأذعنوا له بالتّصديق ، ودخلوا في الدّين العتيق ".[1]

فارتاع لذلك أهل البدع والأهواء ، وكشّروا عن أنياب الحقد والبغضاء ، وصبّوا عليه أجام الغضب والعداء ، وأمطروه بوابل من الفتن والمحن والابتلاء ، واتّهموه بما هو منه براء ، واستعانوا على ذلك بسيّئ العلماء ، وفاسد الأمراء ، وألّبوا عليه العامّة والدّهماء ، والرّعاع والغوغاء ، وسلكوا في عدائه كلّ سبيل معوج لينالوا منه بغيتهم ، ويصلوا منه إلى غايتهم ، ولكنّهم لم يبلغوا منه ما يؤمّلون ، ولم ينالوا منه ما يتمنّون .

وقد بيّن الحافظ أبو الفتح اليعمري (رحمه الله) في ترجمته له ما وقع له من أعدائه من محن جمّة ، وفتن مدلهمّة ، وما لقي منهم من أنواع من الكيد مظلمة ، وأحوال من الأذى مؤلمة ، فقال (رحمه الله) فيما نقله عنه الحافظ ابن حجر (رحمه الله) :

" برز في كلّ فن على أبناء جنسه ، ولم ترعين من رآه مثله ، ولا رأت عينه مثل نفسه ، كان يتكلّم في التّفسير فيحضر مجلسه الجمّ الغفير ، ويردون من بحره العذب النّمير ، يرتعون من ريع فضله في روضة وغدير ، إلى أن دبّ إليه من أهل بلده داء الحسد ، وألّب أهل النّظر منهم على ما ينتقد عليه من أمور المعتقد ، فحفظوا عنه في ذلك كلاماً ، أو سعوه بسببه ملاماً ، وفوّقوا لتبديعه سهاماً ، وزعموا أنّه خالف طريقهم ، وفرّق فريقهم ، فنازعهم ونازعوه ، وقاطع بعضهم وقاطعوه ، ثمّ نازع طائفة أخرى ينتسبون من الفقر إلى طريقة ،

---

(١) الأعلام العليّة : ص: ٣١-٣٢ .

ويزعمون أنّهم على أدقّ باطن منها وأجلى حقيقة ، فكشف تلك الطّرائق ، وذكر على ما زعم بوائق ، فآضت[1] إلى الطّائفة الأولى من منازعيه ، واستغاثت بذوي الضّغن عليه من مقاطعيه ، فوصلوا بالأمراء أمره ، وأعمل كلّ منهم في كفره فكره ، فرتّبوا محاضر ، وألّبوا الرّويبضة للسّعي بها بين الأكابر ، وسعوا في نقله إلى حضرة المملكة بالدّيار المصريّة ، فنقل وأودع السّجن ساعة حضوره واعتقل ، وعقدوا لإراقة دمه مجالس ، وحشدوا لذلك قوماً من عمّار الزّوايا وسكّان المدارس ، ما بين مجامل في المنازعة ، ومخاتل[2] بالمخادعة ، ومجاهر بالتّكفير مباد بالمقاطعة ، يسومونه ريب المنون ، وربّك يعلم ما تكنّ صدورهم وما يعلنون ، وليس المجاهر بكفره بأسوأ حالاً من المجامل ، وقد دبّت إليه عقارب مكره ، فردّ اللّه كيد كلّ في نحره ، ونجّاه على يد من اصطفاه ، واللّه غالب على أمره ، ثمّ لم يخل بعد ذلك من فتنة بعد فتنة ، ولم ينتقل طول عمره من محنة إلاّ إلى محنة ، إلى أن فوّض أمره إلى بعض القضاء ، فتقلّد ما تقلّد من اعتقاله ، ولم يزل بمحبسه ذلك إلى حين ذهابه إلى رحمة اللّه وانتقاله ، وإلى اللّه ترجع الأمور ، وهو مطّلع على خائنة الأعين وما تخفي الصّدور " .[3]

---

(١)آضَتْ : أي صارت ورَجَعَتْ من آضَ يَئِيضُ أيضاً . انظر : لسان العرب : ١١٦/٧ .

(٢) الـخَتْل: تـخادُعٌ عن غَفْلَةٍ . خَتَله يَخْتُله و يَخْتِله خَتْلاً وخَتَلاناً وخاتَله: خَدَعه عن غَفْلَة .
والـمُخاتَلة: مَشْيُ الصّيّاد قليلاً قليلاً في خُفْية لئلا يسمع الصّيدُ حِسَّه، ثمّ جُعل مثلاً لكلّ شيء وُرّي بغيره وسُتِر على صاحبه . لسان العرب : ١٩٩/١١ . بتصرّف . وانظر : مختار الصّحاح : ص : ١٦٩ . القاموس المحيط : ص : ١٢٨١ .

(٣) الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثّامنة . لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني . تحقيق : د. محمّد عبد المعيد خان . مطبعة بجلس دائرة المعارف العثمانيّة . حيدر أباد ـــ الهند . الطّبعة الثّانية : ١٣٩٣هـ ـــ ١٩٧٢م: ١٨٣/١-١٨٤ .

وقال الذّهبي (رحمه الله) :

" وقد امتحن وأوذي مرّات ، وحبس بقلعة مصر والقاهرة[١] والإسكندرية[٢] وبقلعة دمشق مرّتين ، وبها توفي " .[٣]

وهم في كلّ ذلك له ظالمون ، وفيما ادّعوه عليه كاذبون ، ولم يكن (رحمه الله) كما يزعمون ويفترون ، بل كان صافي المعتقد ، سليم المنهج ، معافى من البدع ، سالكاً للسّبيل الأرشد والطّريق الأحمد ، ناصراً للدّين معضّداً للحقّ ، قائلاً بالصّدق ، لا يميل عن ذلك ولا ينثني .

قال أبو حفص البزّار (رحمه الله) :

" ولم يزل المبتدعون ، أهل الأهواء وآكلوا الدّنيا بالدّين متعاضدين متناصرين في عدوانه ، باذلين وسعهم بالسّعي في الفتك به ، متخرّصين عليه بالكذب الصّراح ، مختلقين عليه وناسبين إليه مالم يقله ولم ينقله ، ولم يوجد له به خطّ ، ولا وجد له في تصنيف ولا فتوى ، ولا سمع منه في مجلس " .[٤]

بل عقدوا له مناظرة بأمر من السّلطان في أمر الاعتقاد لمّا سعى إليه قوم من الجهميّة والاتحاديّة[٥] والرّافضيّة وغيرهم من ذوي الأحقاد ، واستعانوا بمن شاعوا من

---

(١)القاهرة : هي مدينة مصر العظمى ، أول من أحدثها جوهر غلام المعز ، وهي عاصمة مصر اليوم وأكبر مدنها .
انظر : معجم البلدان : ٣٠١/٤ .

(٢)الإسكندرية : مدينة عظيمة مشهورة بشمال مصر على البحر الأبيض ، اختلفوا في أوّل من أنشأها على أقوال كثيرة ، أشهرها إنّه الإسكندر ، ولذا سمّيت على اسمه . وقيل : هي إرم ذات العماد الّتي ورد ذكرها في القرآن الكريم . فتحها عمرو بن العاص ﷺ سنة عشرين من الهجرة النّبوية . وانظر : معجم البلدان : ١٨٣/١-١٨٩ .

(٣) تذكرة الحفّاظ : ١٤٩٧/٤ .

(٤) الأعلام العليّة : ص : ٧٣ .

(٥) الاتّحاديّة : هم القائلون بوحدة الوجود . أي ليس في الكون إلاّ اللّه ، وأنّ وجود المخلوقات عين وجود الخالق ، فلا فرق بين الخالق والمخلوق . فمن عبد كلّ شيء عبد اللّه . فحقيقة الرّبّ هو الوجود بعينه . تعالى اللّه عمّا يقولون علواً كبيراً .
و انظر : بيان تلبيس الجهميّة : ١/ ٤٥٢ . ٩٦/٢ ، ١٨٩ ، ٣٨٠ ، ٥٢٥ . الصّواعق المرسلة : ٣ / ٨٦٣ ، ١٠٨٥ . ٤ / ١٢١٣ ، ١٣١٢ .

علمائهم ، وجمعوا كيدهم وشبههم للنّيل منه ، والطّعن فيه ، فأبان لهم الاعتقاد المأخوذ من الكتاب والسّنّة وإجماع سلف الأمّة ، في أبواب الصّفات والقـــدر ومســائل الإيمــان والوعيد والإمامة والتّفضيل[1] ، وناظرهم وناظروه ، ودحض شــبههم ، وقطــع حججهم ، وقال لهم مرّات وكرّات : " قد أمهلت كلّ من خالفني في شــيء منــها ثلاث سنين ، فإن جاء بحرف واحد عن أحد من القرون الثّلاثة الّتي أثنى عليــها النّبي ﷺ حيث قال : " خير القرون القرن الّذي بعثت فيه ثمّ الّذين يلونهم ثمّ الّذيـن يلونهم ".[2] يخالف ما ذكرته فأنا أرجع عن ذلك ، وعليّ أن آتي بنقول جميــع الطّوائف عن القرون الثّلاثة توافق ما ذكرته من الحنفيّة والمالكيّة ، والشّــافعيّة ، والحنبليّة ، والأشعريّة[3] ، وأهل الحديث ، والصّوفيّة[4]

---

(١) المراد بالتّفضيل : ترتيب الخلفاء الرّاشدين الأربعة في الفضل كترتيبهم في الخلافة . انظر : شرح العقيدة الطّحاوية : ص : ٤٩٥ . طبعة وزارة الشّؤون الإسلاميّة بالمملكة العربيّة السّعوديّة .

(٢) الحديث سبق تخريجه ص : ٢٤٠ .

(٣) الأشعريّة : ينتسبون إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري الّذي كان معتزليّاً ، ثّم أنشأ المذهب الأشعري لمّــا التقى بعبد الله بن كُلاّب ، ثّم رجع منه إلى مذهب السّلف مع بقاء بعض المخالفات عنده . ولكن أتباعــه ظلّــوا على مذهبه .

وهم يثبتون لله سبعة صفات يسمّونها صفات المعاني وهي : العلم والقدرة والحياة والإرادة والكــلام النّفســي والسّمع والبصر . ويؤوّلون سائر الصّفات . والإيمان هو التّصديق بالجنان ، وأمّا القول باللّسان والعمل بالأركــان ففروعه . وقالوا : إنّ فعل العبد خلق من الله إبداعاً وإحداثاً وكسباً من العبد . وزعموا أنّ القرآن حكاية أو عبارة عن كلام الله لا أنّه كلام الله . والأشعريّة اليوم كثر في العالم الإسلامي ، بل كثير من بلاد الإسلام تقرّر المذهــب الأشعري في مناهجها التّعليميّة ظنّاً منها أنّه الحقّ . والحقّ ما كان عليه سلف الأمّة بلا مرية .

و انظر : الملل والنّحل : ١/٩٤-١٠٣ . بيان تلبيس الجهميّة :٢/٣٩٩ . شفاء العليل : ص : ٢١٩ .

(٤) الصّوفيّة : أخذت من التّصوّف الّذي هو حركة دينيّة بدأت كردّة فعل مضادّ للانغماس في التّرف ، ممّــا حمــل بعضهم على الزّهد الّذي تطوّر حتّى خرج ببعضهم عن حدّ الشّرع ، وتلمّسوا من خلاله الوصول إلى معرفة اللّــه عن طريق الكشف والمشاهدة دون استدلال ، ممّا جنح ببعضهم في المسار إلى أن تداخلت طريقتهم مع فلســفات هنديّة وفارسيّة ويونانيّة وغير ذلك ، وأشربوا عقائد باطلة كالحلول والاتّحاد و الفناء ، وأنّ الدّيــن لــه حقيقــة وشريعة . وزعم بعضهم برفع التّكاليف عنه . ولكثير منهم غلوّ في الأشخاص والقبور والأضرحة ، ممّا أوقعــهم في الشّرك باللّه تعالى . كما يغالون في شأن الكرامات الّتي بها يعرف عندهم أهل الصّلاح . وهم مدارس مختلفة وفــق متنوّعة منتشرة في بقاع العالم الإسلامي . وقد عان الإسلام منهم كثيراً .

وغيرهم " .[1]

وهذا يدلّ على ثقته بنفسه وما هو عليه من الحقّ ، كما يدلّ على ثباته وصلابته في دين اللّه تعالى ، فقد كان (رحمه الله) كما قال ابن عبد الهادي (رحمه الله) : " وهو في ذلك ثابت الجأش ، قويّ القلب ، واثق بالنّصر الإلهي ، لا يلتفت إلى نصر مخلوق ولا يعوّل عليه " .[2]

بل كان من أعظم أهل عصره قوّة ومقاماً وثبوتاً على الحقّ ، وتقريراً لتحقيق توحيد الحقّ ، لا يصدّه عن ذلك لوم لائم ولا قول قائل ، ولا يرجع عنه لحجّة محتج ، بل كان إذا وضح له الحقّ يعضّ عليه بالنّواجذ ، ولا يلتفت إلى مباين معاند .[3]

قال الحافظ الذّهبي (رحمه الله) : فيما نقله عنه ابن ناصر الدّين (رحمه الله) :

" ولقد نصر السّنّة المحضة ، والطّريقة السّلفيّة ، واحتج لها ببراهين ومقدّمات وأمور لم يسبق إليها ، وأطلق هو عبارات أحجم عنها الأوّلون والآخرون وهابوا ، وجسر هو عليها حتّى قام عليه من علماء مصر والشّام قياماً لا مزيد عليه ، وبدّعوه ، وناظروه وكاتبوه ، وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي ، بل يقول الحقّ المرّ الّذي أدّاه إليه اجتهاده ، وحدّة ذهنه ، وسعة دائرته في السّنن والأقوال مع ما اشتهر منه من الورع وكمال الفكر ، وسعة الإدراك ، والخوف من اللّه العظيم ، والتّعظيم لحرمات اللّه ، فجرى بينه وبينهم حملات حربيّة ،

و انظر : مقالات الإسلاميين : ص : ١٣-١٤ . ٢٨٨-٢٨٩ . ٤٣٨-٤٣٩ . التّعرّف لمذهب أهل التّصوّف لأبي بكر محمّد الكلاباذي . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت . ١٤٠٠هـ : ص : ٢١ فما بعدها . اعتقادات فرق المسلمين والمشركين : ص : ٧٢-٧٤ . مدارج السّالكين : ١/١٥٤ . ٢/٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٤٦٨ . الموسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب المعاصرة : ص :٣٤١-٣٥٣ .

(١) مجموع الفتاوى : ٣/١٦٩ . عرفت هذه المناظرة بالمناظرة في الواسطيّة وهي ضمن الجزء الثّالث من مجموع الفتاوى .

(٢) العقود الدّريّة : ص: ٢١٨ .

(٣) الأعلام العليّة : ص: ٧٥ . بتصرف يسير .

ووقعات شاميّة ومصريّة ، وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة فينجّيــه اللّــه تعالى ، فإنّه دائم الابتهال ، كثير الاستعانة ، قويّ التّوكّل ، ثابت الجأش " .(١)

وظلّ على ذلك (رحمه الله) إلى أن توفّاه ربّه سبحانه وهو ثــــابت صـــابر محتسب راضٍ شاكر.(٢)

وأذيّل هذه السّيرة العطرة لشيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) بمدح وثنـــاء بعض العلماء المخالفين له ، والّذين أقرّوا بفضله مع عداوتهم له ، ليقف على ذلك من جهل مقامه ، وعابه واتّهمه بما هو بريء منه .

قال كمال الدّين بن الزّمْلَكاني (٣) :

" سيّدنا وشيخنا وقدوتنا الشّيخ الإمام العالم العلامة الأوحد البـــارع الحـــافظ الزّاهد الورع القدوة الكامل العارف ، تقي الدّين ، شيخ الإسلام ، سيّد العلمـــاء ، قدوة الأئمّة الفضلاء ، ناصر السّنّة ، قامع البدعة ، حجّة اللّه على العبـــاد ، رادّ أهل الزّيغ والعناد ، أوحد العلماء العاملين ، آخر المجتهدين ... حفظ اللّه علـــى المسلمين طول حياته ، وأعاد عليهم من بركاته ، إنّه على كلّ شيء قدير " .(٤)

---

(١) الرّد الوافر : ص: ٧٠-٧١ .

(٢) انظر : الأعلام العليّة : ص: ٧٥ .

(٣) محمّد بن علي بن عبد الواحد ، كمال الدّين أبو المعالي الأنصاري الدّمشقي ، الشّافعي ، ابن خطيــب زَمَلْكـا ، المعروف بابن الزّملكاني . له عناية بالحديث والفقه والأصول والنّحو . تولّى قضاء حلــب ، وعمــل بــالتّدريس والإفتاء ، وانتهت إليه رئاسة المذهب . وله بعض المصنّفات . توفي سنة : ٧٢٧هـ .
و انظر : العبر : ٨٢/٤ . طبقات الشّافعيّة الكبرى : ١٩٠/٩ . البداية والنّهاية : ١٣١/١٤ . الدّرر الكامنــة: ٣٢٨/٥ . النّجوم الزّاهرة : ٢٧٠/٩ . شذرات الذّهب : ١٤٠/٨ . الأعلام : ٢٨٤/٦ .

(٤) الرّد الوافر : ص: ١٠٤ .

وكتب *تقي الدّين السّبكي* [1] *إلى الحافظ الذّهبي في أمر الشّيخ ما يلي :*

" فالمملوك يتحقّق قدره ، وزخارة بحره ، وتوسعته في العلوم الشّرعيّة والعقليّة ، وفرط ذكائه واجتهاده ، وأنّه بلغ من ذلك كلّ المبلغ الّذي يتجاوزه الوصف ، والمملوك يقول ذلك دائماً ، وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجل ، مع ما جمعه اللّه له من الزّهادة والورع والدّيانة ونصرة الحقّ والقيام فيه لا لغرض سواه .... الخ " .[2]

وأنشد *أثير الدّين أبو حيان النّحوي* [3] في مدحه لمّا دخل شيخ الإسلام مصر واجتمع به :

لمّا رأينا تقي الدّين لاح لنا .... داع إلى اللّه فرداً ماله وزر

---

(1) هو علي بن عبد الكافي بن علي بن تمّام ، تقي الدّين أبو الحسن السّبكي ، الأنصاري ، الشّافعي ، برع في كثير من الفنون ، وتولّى قضاء الشّام . وله تحقيقات واستنباطات قيّمة في الفقه . وردود بينه وبين شيخ الإسلام ابن تيمة في شدّ الرّحال لزيارة قبر النّبي ﷺ ، وطلاق الثّلاث . وله مصنّفات عدّة منها : شفاء السّقام في زيارة خير الأنام . الاعتبار ببقاء الجنّة والنّار . مجموعة فتاوى . توفي سنة : ٧٥٦هـ . بمصر .

وانظر : طبقات الشّافعيّة الكبرى : ١٣٩/١ . ذيول العبر . للذّهبي والحسيني . تحقيق : أبي هاجر محمّد السّعيد بن بسيوني زغلول . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت . : ٤/ ١٦٨ . ذيل تذكرة الحفّاظ . لأبي المحاسن محمّد بن علي بن الحسن بن حمزة الحسيني . تحقيق : حسام الدّين القدسي . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت : ٣٩/١ . طبقات الشّافعيّة لأبي بكر بن أحمد بن قاضي شهبة . تحقيق : د. الحافظ عبد العليم خان . طبعة : عالم الكتب . بيروت . الطّبعة الأولى : ١٤٠٧هـ :٣٧/٣ . النّجوم الزّاهرة : ٣١٨/١٠ . طبقات الحفّاظ : ٥٢٥/١ . شذرات الذّهب : ٣٠٨/٨ . الأعلام : ٣٠٢/٤ .

(2) شذرات الذّهب : ١٤٦/٨ .

(3) محمّد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي الأندلسي الجياني النّفْزي ، أثير الدّين أبو حيان النّحوي . من كبار العلماء بالعربية والتّفسير والحديث والتراجم واللّغات . له تصانيف كثيرة . منها : كتابه في التّفسير : البحر المحيط . توفي سنة : ٧٤٥ .

و انظر : العبر : ١٣٤/٤ . طبقات الشّافعيّة الكبرى : ٢٧٦/٩ . الدّرر الكامنة : ٥٨/٦ . النّجوم الزّاهرة : ١١١/١٠ . نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب . لأحمد بن محمّد المقري التّلمساني . تحقيق : د. إحسان عبّاس . طبعة : دار صادر . بيروت . ١٩٦٨م : ١٠٠٩/٢ . شذرات الذّهب : ٢٥١/٨ . الأعلام : ١٥٢/٧ .

على محيّاه من سيما الأولى صحبوا ••••••• خير البريّـــة نور دونه القمـــر

حبر تسربل[1] منــــه دهـــره حبـــراً ••••••• بحراً تقاذف من أمواجه الدّرر

قام ابن تيميـــة في نصر شرعتنـــا ••••••• مقام سيّد تيم إذا عصت مضر[2]

فأظهـــر الدّيـــن إذا آثاره درســـت ••••••• وأخمد الشّرك إذا طارت له شرر

يا من تحدّث عن علم الكتاب أصخ ••••••• هذا الإمام الّذي قد كان ينتظر".[3]

وأمّا من أثنى عليه من محبّيه فذلك مقام يطول ذكره ، ولا يتأتّى حصــــره ، وقد اكتفيت بمن ذكرت من أقوال مبغضيه ليتحقّق للجميع فضله ، ويعلم ثباتــــه ، ويُبان لكلّ أمره ، ويقف الجاهلون على قدره ، فيُحمد ذكرُه ، ويُعــــرف حالــــه ، ويُنشر خبره ، ويُسلك سيرُه ، ويُصبر صبرُه ، وقديماً قيل: والفضل ما شـــــهدت به الأعداء .

---

(١) السّرْبال : القَميص والدّرْع ، وقـــيل: كُلُّ ما لُبِسَ فهو سِرْبالٌ ، وقد تَسَرْبَل به ، سَرْبَلَه إياه ، سَرْبَلْتُه فتَسَـــرْبَل أي ألبسته السّرْبالَ . لسان العرب : ٣٣٥/١١ . و انظر : مختار الصّحاح : ص : ٢٩٣ . القاموس المحيـط : ص : ١٣١١ .

(٢)سيّد تيم :

يعني أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه لأنه من بني تيم بن مرّة . و انظر : الإصابة : ١٦٩/٤ .

مُضَر :

قبيلة عظيمة تنسب إلى مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، كانت ديارهم بالحجاز حول الحرم ولهم ملك مكّة ، فلمّا كثروا نزحت بطون منهم إلى العراق والجزيرة وغيرها . وانظر : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة : ١١٠٧/٣ . معجم قبائل الحجاز : ٤٦٣/٣ .

(٣) شذرات الذّهب : ١٤٥/٨-١٤٦ . وأصخ : أي استمع . انظر : مختار الصحاح : ص : ٣٧٣ . لسان العـرب : ٣٥/٣ .

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي): الأمين الصادق الأمين محمد .... **كلية** : الدعوة وأصول الدين ...**قسم** : الكتاب والسنة .

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الدكتوراه ... **في تخصص** : الكتاب والسنة ....

عنوان الأطروحة : ((الثبات على دين الله وأثره في حياة المسلم في ضوء الكتاب والسنة)) ....

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

فبناء على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه - والتي تمت مناقشتها بتاريخ : ٣ | ٣ | ١٤٢٣هـ - بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المشرف :
الاسم : د/ أمين محمد عطية باشا .
التوقيع : ....

المناقش الداخلي :
الاسم : د/ محمد عبد المولى جمعة
التوقيع : ....

المناقش الخارجي :
الاسم : د/ فهد عبد الرحمن الرومي
التوقيع : ....

يعتمد

رئيس قسم : الكتاب والسنة

الاسم : د/ مطر بن أحمد الزهراني

التوقيع : ....

٢١ / ٣ / ١٤٢٣ هـ